المنهج التربوي للسيرة النبوية

٩

التربية الجماعية

د. منير الغضبان

الجزء الثاني

دار الوفاء



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب:٢٣٠
ت:٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت٢٢٤٩٥١٣/ ٠٥٠

E-Mail : DAR ELWAFA @ HOTMAIL. COM

المنهج التربوي للسيرة النبوية

(٩)

التربية الجماعية

الجزء الثاني

منير الغضبان



مقدمة

كان الجزء السابق يتحدث عن صفحة المهاجرين والأنصار التى انتهت مع العباس بن عبد المطلب ﷺ آخر المهاجرين هجرة ، وبعد فتح مكة لم تعد البيعة على الهجرة ، إنما بقى الجهاد ماضيًا إلى يوم القيامة حيث حدَّد انتهاء الهجرة بفتح مكة بقوله ـ عليه الصلاة والسلام :

« لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » .

فالمهاجرون والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ والذين تم بهم فتح مكة يمثلون الحد الأعلى لهذه الطبقة التى بلغت عشرة آلاف مقاتل، وشهدنا معهم فتح مكة، وتعرفنا على تركيب الجيش الإسلامى كاملاً من قبل، ومهما قيل عن مستوى هذه الطبقة، فتبقى بعمومها إحدى القمم الإسلامية التى ذكرها الله تعالى فى معرض الثناء عليها بقوله :

﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد : ١٠] .

وقد وصفها الله تعالى بالعظمة ، وحق لها أن تنال هذا الشرف العظيم بقيادة إمام البشرية محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ والتى أتيح لها أن تعيش معه قرابة شهرين أو ثلاثة تمتح من معينه العظيم ، وتتربى بخلقه العظيم ، فتوصف بهذه العظمة لأجل ذلك .

ومنذ السابع عشر من رمضان بعد فتح مكة ، أصبح الذين يدخلون فى هذا الدين ينالون شرف الصحبة لكنهم لا ينالون شرف الهجرة .

ومسيرتنا فى هذا الجزء تحتمل عامًا كاملاً ونيف ، حيث نشهد فيهما غزوتين عظيمتين مع رسول الله ﷺ هما غزوة حنين وغزوة تبوك .

فإذا كنا قد استعرضنا فى الجزء السابق بناء القاعدة العريضة التى ارتفعت من ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠٠ مقاتل ، فنشهد فى هذا العام ارتفاع هذه القاعدة فى ذروتها ثلاثة أضعاف ما هى عليه اليوم ، وذلك فى غزوة تبوك حيث بلغ الصحابة ثلاثين ألفًا كما تقول أكثر الروايات .

والفرق كبير بين تربية قرابة مائتين خلال عشرة أعوام ، وثلاثمائة ونيف خلال خمسة عشر عامًا ، وألف وخمسمائة خلال عشرين عامًا ، مثلوا أولئك جميعًا قيادات

الأمة ، وبين تربية ثلاثين ألفًا خلال عامين من الزمان . . . حيث نتابع الملامح العامة لهذه الأفواج الضخمة وسرعة إعدادها لتتحول فيما بعد إلى القاعدة الصلبة التى تواجه البشرية الضالة ، فتمضى بها فى طريق التحول العظيم إلى الإسلام ، وكما قلت فنزهتنا فى هذا الجزء تمتد من العاشر من شوال فى العام الثامن من الهجرة إلى بداية شوال فى العام التاسع للهجرة حيث وصل رسول الله ﷺ من تبوك .

والله نسأل أن يفتح علينا فتوح العارفين ، ويبصرنا بالمنهج النبوى لعملية البناء خلال هذا العام .

هوازن على الساحة تستعد للمواجهة

من هوازن ؟ :

هى أكبر القبائل العربية أو من أكبرها لو انضم لها كل فروعها من بنى عامر وثقيف، وهى التى تستعد الآن للمواجهة .

ثقيف التى تنزل الطائف إحدى أمنع المدن العربية تنتهى فى نسبها إلى هوازن، فهم:
بنو ثقيف بن منبّه بن بكر بن هوازن .

وعامر بن صعصعة أعز العرب وأشدها شكيمة وأكثرها نفراً هى من هوازن ، فهم :
بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن .

وبنو عامر بفروعهم الضخمة : كعب بن ربيعة ، وكلاب بن ربيعة ، وهلال بن عامر، ونمير بن عامر ، وعمرو بن عامر ، وعامر بن عامر .

ومن فروع هوازن كذلك :

بنو معاوية بن بكر بن هوازن ، وبنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومن أبرز أبطالهم دريد بن الصمة الفارس الشاعر ، وبنو نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومن أبطالهم ـ قائد هوازن فى حنين : مالك بن عوف النصرى ، وبنو سعد بن بكر بن هوازن وهم أظآر رسول الله ﷺ ، فهى القبيلة التى أرضعته فى البادية العربية ومنهم حليمة السعدية ، والحارث بن عبد العزى أبوه من الرضاعة ، هذه الفروع كلها لو دخلت الحرب لأمكن جمع ما لا يقل عن خمسين ألفًا للمواجهة مع النبى ﷺ ، ولكن تخلى فروع عامر بن صعصعة الكبيرة عن الحرب جعلت جيش هوازن فى عشرين ألف مقاتل ، وحين رأى أبو سفيان بن حرب الجيش الإسلامى على ضواحى مكة وقد أشعل عشرة آلاف نار لعشرة آلاف مقاتل أذهله العدد ، وقال عنه فى تصوره عن أكبر عدد يمكن جمعه من القبائل المجاورة :

(وسمعوا صهيل الخيل ورغاء الإبل ، فأفزعهم ذلك فزعًا شديدًا وقالوا : هؤلاء بنو كعب حاشتها الحرب ! فقال بديل : هؤلاء أكثر من بنى كعب . قالوا : فتنجعت [1] هوازن على أرضنا ؟ والله ما نعرف هذا ، إن هذا العسكر مثل حاج الناس)[2] .

---

(١) التنجع والانتجاع : طلب الكلأ ومساقط الغيث .
(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٤ .

فلم يخطر بذهن أبى سفيان قبيلة يمكن أن تجمع هذا العدد من المقاتلين إلا هوازن ، ويأتى السؤال الثانى : من تخلف من هوازن ؟

ونأخذ الجواب من خلال الحوار بين دريد بن الصمة فارس هوازن وشاعرها ، وبين قومه .

(قال : يا معشر هوازن ، أمعكم من بنى كلاب بن ربيعة أحد ؟ قالوا : لا .

قال : فمعكم من بنى كعب بن ربيعة ؟ قالوا : لا .

قال : فهل معكم من هلال بن عامر أحد ؟ قالوا : لا . وهذه القبائل الثلاث من فروع عامر بن صعصعة .

قال دريد : لو كان خيرًا ما سبقتموهم إليه ، ولو كان ذكرًا أو شرفًا ما تخلفوا عنه، فأطيعونى يا معشر هوازن ، وارجعوا فافعلوا ما فعل هؤلاء ، فأبوا عليه . قال : فمن شهدها منهم ؟

قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر . قال: ذانك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران)[1] .

فدريد بن الصمة يرى فى غياب هذه الفروع الضخمة من عامر نذير شؤم بالهزيمة ، وأنه لو كان يوم علاء ورفعة لما غاب عنه كعب وكلاب ابنا ربيعة ، وهلال بن عامر . وكان يرى - بعمق خبرته وتجربته - التخلى عن مواجهة محمد ﷺ لغياب هذه الفروع .

ولعل الذى دعا كعبًا وكلابًا للتخلف عن الانضمام إلى هوازن فى حرب رسول الله ﷺ هو السبب نفسه الذى دعا دريدًا للعدول عن المواجهة .

(وشهدها ناس من هلال ليسوا بكثير ما يبلغون مائة ، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب ، ولقد كانت كلاب قريبة فقيل لبعضهم : لم تركتها كلاب فلم تحضرها؟ فقال : أما والله إن كانت لقريبة ، ولكن ابن أبى براء مشى فنهاها عن الحضور فأطاعته. وقال : والله لو ناوأ محمدًا مَنْ بين المشرق والمغرب لظهر عليه)[2] .

ولابد أن نعيد صورة كلاب بن ربيعة إلى الأذهان ، فقد كانت رئاسة كلاب وعامر من ورائها إلى أبى براء - عامر بن مالك - ملاعب الأسنة، وبعد أن كبر سنه آلت الزعامة إلى عامر بن الطفيل ابن أخيه ، وهو العدو الألد للإسلام ، وهو الذى نفّذ مجزرة بئر معونة وقتل سبعين من خيرة أصحاب النبى ﷺ ، وهو الذى جاء المدينة يساوم رسول

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٨٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٨٨٦ .

الله ﷺ على اقتسام الزعامة بينهما .

(فعن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة قال: حدثنى أنس أن النبى ﷺ بعث خاله - أخ لأم سليم - فى سبعين راكبًا ، وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل خيَّر بين ثلاث خصال ، فقال : يكون لك أهل السهل ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك أو أغزوك بأهل غطفان بألفٍ وألفٍ ، فطُعن عامر فى بيت أم فلان فقال : غدة كغدة البكر فى بيت امرأة من آل فلانٍ ، ائتونى بفرسى ، فمات على ظهر فرسه)[1] . ونقدّر أن موته كان قبل حنين ، ولهذا لم يشارك فيها ، وأن ابن عمه ابن أبى البراء خلفه ثانية فى زعامة قومه ، وحال بينهم وبين الاشتراك فى حنين ، ولعله هو الذى طعن عامرًا ؛ لأنه خفر ذمة أبيه أبى البراء . ولو كان عامر حيًا لاهتبلها فرصة العمر ، ونفّذ تهديداته فى مواجهة محمد - عليه الصلاة والسلام . أما كعب بن ربيعة فقد انتهت زعامتهم لقرة بن هبيرة ، وهو الذى وفد على رسول الله ﷺ مسلمًا فيما بعد بين حنين وحجة الوداع . ولا ننسى أن علقمة بن علاثة السيد المنافس لعامر بن الطفيل قد أسلم وحضر فتح مكة مع رسول الله ﷺ ، وشارك ابن أبى براء فى صد كلاب بن ربيعة عن المشاركة فى حنين .

وإضافة إلى تخلف هذه الفروع الضخمة من هوازن ، فيطالعنا كذلك اختلاف القيادات والذى برز أشد ما يكون بين دريد بن الصمة - الشيخ المجرب الفارس الشاعر الذى تجاوز المائة والخمسين من عمره - ومالك بن عوف النصرى الفتى الشاب الذى هو فى الثلاثين من عمره ، والذى آلت القيادة لهوازن كلها له فى هذه المعركة حيث جمع ما ينوف عن عشرين ألفًا من المقاتلين ويكاد يكون ضعف جيش النبى ﷺ .

يقول دريد لمالك : (يا مالك ، إنك تقاتل رجلاً كريمًا قد أوطأ العرب ، وخافته العجم ومن بالشام ، وأجلى يهود الحجاز ، إما قتلاً وإما خروجًا على ذل وصغار ، وقد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا اليوم كائن لما بعده من الأيام ! يا مالك ، مالى أسمع رغاء البعير، ونُهاق الحمير ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ، وثغاء الشاء ؟ قال مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله وولده ونساءه حتى يقاتل عنهم . قال : فأنقض يده ثم قال :

راعى ضأن والله ، ما له وللحرب ؟! وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لكم لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥/ ١٣٤ ، يقول الحافظ ابن حجر فى الفتح تعليقًا على هذا الحديث : (وأن النبى ﷺ أرسل أصحاب بئر معونة بعد أن رجع عامر ، وأنه غدر بهم وأخفر ذمة عمه أبى براء) (٧/ ٣٨٧) .

يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا ، فإذا صنعت ما صنعت فلا تعصينى فى هذه الخطة ، ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم وعزهم ، ثم الق القوم على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وكان أهلك لا خوف عليهم ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك . فغضب مالك من قوله وقال :

والله لا أفعل ، ولا أغير أمرًا صنعته ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، وحدث بعدك من هو أبصر بالحرب منك ، قال دريد :

يا معشر هوازن ، والله ما هذا لكم برأى ، هذا فاضحكم فى عورتكم ، وممكن منكم عدوكم ، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم ، فانصرفوا واتركوه .

فسلَّ مالك سيفه ، ثم نكسه ، ثم قال : يا معشر هوازن ، والله لتُطيعنَّنى ، أو لأتكئن على السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى ، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا :

والله لئن عصينا مالكًا ـ وهو شاب ـ ليقتلن نفسه ، ونبقى مع دريد ، وهو شيخ كبير لا قتال فيه ، ابن ستين ومائة سنة ، وأجمعوا أمرهم مع مالك ، فلما رأى ذلك دريد ، وأنهم قد خالفوه ، قال : هذا يوم لم أشهده ، ولم أغب عنه :

يا ليتنى فيها جذع أخُبُّ فيها واضع

وكان دريد قد ذكر بالفروسية والشجاعة ولم يكن له عشرون سنة ، وكان سيد بنى جشم وأوسطهم نسبًا ، ولكن السن أدركته حتى فنى فناءً . وهو دريد بن الصمة بن بكر ابن علقمة)(1) .

هذه هى صورة القيادات فى هوازن ، والخلاف بين القائدين كبير ، والشقة واسعة، فدريد الذى يحمل على أكتافه خبرة مائة وأربعين عامًا من الحرب ، رأى مصير قومه بأم عينه حتى كأنما يرسم الصورة المأساوية رسمًا ، فتأتى طبق تقديره .

فهو يرى ابتداءً أن تخلف كعب وهلال وكلاب من بنى عامر سبب كافٍ لعدم المواجهة مع محمد ﷺ ، فهى العناصر الأقوى شكيمة ، والأصلب فى الحرّب ، والأنكى فى القتال ، ولو كان يوم علاء ورفعة لما تخلف هؤلاء المقاتلون .

ويرى أن الشخص الذى تعرض هوازن لحربه هو محمد بن عبد الله القرشى دانت له القبائل ، وخضعت له العرب، وانضم أهله جميعًا إليه بعد فتح مكة ، وكانت القبائل

(1) المغازى للواقدى ٣/ ٨٨٧ ـ ٨٨٩ .

جميعها تنتظر مصير الحرب بينه وبين قريش لتنضم إلى هنا أو هناك ، فخصم مالك ليس شخصًا عاديًا ، بل هو البطل الذى انتصر على قبائل حجاز ونجد ، وهذا زعيم تميم وزعيم عامر وزعيم غطفان معه فى فتح مكة .

ومن جهة ثالثة : فإذا أصر مالك بن عوف على حربه . فيمكن له أن يتنازل عن رأيه ويشارك فى الخطة المناسبة لهذه الحرب .

واستمع دريد لخطة مالك ، بعد أن سمع أصوات الحيوانات والنساء والأطفال ، فكان ملخص خطته :

أن يحضر كل مقدسات المقاتل معه ليقاتل ويذود عنها ، ماله وحريمه وأملاكه من الإبل والبقر والشاء، فهو الضامن له ألا ينهزم ، وعمَّ يقاتل العربى إن لم يقاتل عن هذا؛ عن ماله وشرفه وولده ؟! ولعل دراسة هذه العقلية تفيدنا فى فهم مدى تغلغل الوثنية فى عقل الأعرابى المقيم فى الصحراء ، فبالرغم من أن اللات هى إحدى اثنتين من كبريات الآلهة عند العرب، فبهما كانوا يقسمون دائمًا (اللات والعزى). أما العزى : فقد دمرها خالد بن الوليد ﷺ ، بينما اللات لا تزال فى حصنها وقدسيتها عند ثقيف ، وثقيف شريك رئيسى فى الحرب اليوم وهى جزء من هوازن ، والأصل أن يذكر اللات بصفتها الآلهة التى يقاتل عنها من هوازن ، فلم نجد من ذلك شيئًا يذكر ، إنما حصر القتال عن المال والأهل والولد ، ولم يذكر عن الآلهة شىء . وهذا يعنى أنهم فى أعماقهم يعرفون أن هذه آلهة مزورة لا تستحق الموت من أجلها : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ [النمل : ١٤] . لقد جحدوا بآيات الله ـ عز وجل ـ ورسالة النبى ﷺ ، وهم موقنون بها فى أعماقهم، لكنه استكبار الذات وعتوها أمام هذا الدين المنزل من عند الله. وكل ما ساقه مالك للذود عنه والموت فى سبيله هو النعم والشاء والنساء والولد .

ولعل تدمير العزى جعل قناعتهم بإمكان تدمير اللات أمرًا سهلاً غير ممتنع ، وإذا كان الوليد بن المغيرة هو أكبر سدنة العزى ومقدسيها فى الجاهلية ، فابنه خالد بن الوليد هو الذى هدمها قائلاً لها :

يا عُزَّ كفرانك لا سبحانك ... إنى رأيت الله قد أهانك

ونعود إلى الخطة العسكرية التى اقترحها مالك بن عوف النصرى ، وكيف رفضها دريد بن الصمة الجشمى ولم يجد حرجًا أن يتهكم عليه قائلاً : راعى ضأن والله .

فخبرة دريد الطويلة العميقة علمته أنه لا يرد المنهزم شىء،وألح على مالك أن يستفيد من خبرته، ويعيد الأنعام والنساء إلى معاقلهن فى هوازن ، ويترك المعركة بين المقاتلين .

وأصرَّ مالك بن عوف ـ الذى كان فى قمة زهوه وشدة بأسه فى الثلاثين من عمره ـ على تنفيذ خطته أو الانتحار بسيفه ما لم تنفذ هذه الخطة ، وهو على ثقة من النصر ، ولا يريد أن يكون لابن الصمة دور فيه أو ذكر . وافترق القائدان على ضغن ، ولا شك أن بنى جشم قد سكتوا على مضض حين سُفِّه رأى سيدهم وشيخهم ابن الصمة ، ولم يعد الجيش على قلب رجل واحد ، إنما كان موزع الهوى شتت الرأى ، ورأى دريد المصير البائس لقومه أمام عينيه فراح يقول :

يا معشر هوازن ، والله ما هذا لكم برأى ، هذا فاضحكم فى عورتكم ، وممكن منكم عدوكم ، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم . . . وهذا الذى كان .

وخطط مالك بن عوف للتجسس وكشف أمر المسلمين وقوتهم وتخطيطهم ففشل ، إذ قُبضَ عليه أثناء المسير إلى فتح مكة .

(فلما كانت بين العرج والطلوب أتوا بعين من هوازن إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، رأيناه حين طلعنا عليه وهو فى راحلته ، فتغيَّب عنا فى وهدة ، ثم جاء فأوفى على نشز فقعد عليه ، فركضنا إليه فأراد يهرب منا ـ وإذا بعيره قد عَقَلَهُ أسفل من النشز وهو يغيّبُه . فقلنا : ممن أنت ؟ قال : رجل من بنى غفار . فقلنا : هم أهل هذا البلد. فقلنا : من أى بنى غفار أنت ؟ فعيى ولم ينفذ لنا نسبًا ، فازددنا به ريبة وأسأنا به الظن ، فقلنا : فأين أهلك ؟ قال : قريبًا ، وأومأ بيده إلى ناحية . قلنا ، على أى ماء؟ ومن معك هنالك ؟ فلم ينفذ لنا شيئًا . فلما رأينا ما خلط قلنا : لتصدقنا أو لنضربن عنقك . قال : فإن صدقتكم ينفعنى ذلك عندكم ؟ قلنا : نعم . قال :

فإنى رجل من هوازن من بنى نصر ، بعثتنى هوازن عينًا ، وقالوا : ائت المدينة حتى تلقى محمدًا فتستخبر لنا ما يريد فى أمر حلفائه، أيبعث إلى قريش بعثًا أو يغزوهم بنفسه. ولا نراه إلا سيغزوهم، فإن خرج سائرًا أو بعث بعثًا فسر معه حتى تنتهى إلى بطن سرف، فإن كان يريدنا أولاً فيسلك فى بطن سرف حتى يخرج إلينا ، وإن كان يريد قريشًا فسيلزم الطريق . فقال رسول ﷺ: « وأين هوازن ؟ » قال: تركتهم ببقعاء وقد جمعوا الجموع، وأجلبوا العرب، وبعثوا إلى ثقيف فأجابتهم، وتركت ثقيفًا على ساق قد جمعوا الجموع، وبعثوا إلى الجرش فى عمل الدبابات والمنجنيق وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعًا ، قال رسول الله ﷺ : « وإلى من جعلوا أمرهم ؟ » قال : إلى فتاهم مالك بن عوف . قال رسول الله ﷺ : « وكل هوازن أجاب إلى ما دعا إليه مالك ؟ » قال : قد أبطأ من بنى عامر أهل الجد والجلد . قال : « من ؟ » قال : كعب وكلاب . قال : « ما فعلت هلال ؟ » قال : ما أقل ما ضوى إليه منهم . وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد

قدم عليهم أبو سفيان بن حرب ، فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وجلون . فقال رسول الله ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، ما أراه إلا قد صدقنى » ، قال الرجل: فلينفعنى ذلك ؟ فأمر به رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه وخافوا أن يتقدم ويحذر الناس ، فلما نزل العسكر مرَّ الظهران أفلت الرجل ، فطلبه خالد فأخذه عند الأراك وقال: لولا وليت عهدًا لك لضربت عنقك، وأخبر به رسول الله ﷺ ، فأمر به فحبس حتى يدخل مكة ، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وفتحها أُتى به إلى رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم ثم خرج مع المسلمين إلى هوازن فقتل بأوطاس)[1] .

(١) المغازى ٢/ ٨٠٤ ـ ٨٠٦ .

تركيب الجيش الإسلامى

لابد لنا من استعراض الجيش الإسلامى أو إعادة استعراضه إلى الأذهان ، إذ فصَّلنا فى الكتاب السابق فى هذا الأمر بإسهاب .

لقد كان الجيش الإسلامى الذى مضى إلى حنين يضم أربع طبقات فى تكوينه :

الطبقة الأولى : طبقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وتمثل أهل بدر وأهل بيعة الرضوان وكانوا فى بيعة الرضوان حوالى ألف وخمسمائة . فالمكثر يرفعهم إلى ثمانمائة وألف . والمقل ينزل بهم إلى مائتين وألف ، والأرجح من تعداد الروايات أنهم كانوا خمسمائة ونيف وألفا . وهذه الطبقة تمثل القيادات الكبرى فى الجيش ، أو الطبقة القيادية .

الطبقة الثانية: من الذين اتبعوهم بإحسان، وقبل رسول الله ﷺ اعتبارهم مهاجرين ولو كانوا فى مضاربهم وباديتهم ، ويمثلون أكثرية الجيش ، وهم من القبائل المجاورة للمدينة : مزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وغفار .

وقد اعتبرهم رسول الله ﷺ قد خلصوا من انتمائهم الجاهلى ، وأصبحوا جزءاً من الأمة الجديدة التى تتولى الله ورسوله :

« أسلم ، وغفار ، وأشجع ، ومزينة ، وجهينة ، ومن كان من بنى كعب ، موالىّ من دون الناس ، والله ورسوله مولاهم » (١) .

وفى رواية لمسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع موالىّ ليس لهم مولى دون الله ورسوله »(٢) .

فهؤلاء الذين كانوا على هدى من سبقهم من المهاجرين والأنصار ، وقسم كبير منهم لم يتح لهم أن يتلقوا التربية فى مدرسة النبوة ، لكن الكثيرين منهم كذلك كانوا يترددون على المدينة ، ويلتقون برسول الله ﷺ ، وبعضهم كان مقيمًا بشكل دائم مع رسول الله ﷺ . وكان لهؤلاء دور فى تربية إخوانهم فى مضارب قبائلهم ، ويزيد تعداد هاتين الطبقتين عن سبعة آلاف .

---

(١) صحيح الجامع الصغير للألبانى ١/ ٣٥٨ .

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٥٤ ح (١٨٩/ ٢٥٢٠) .

الطبقة الثالثة : وتمثل الذين أسلموا حديثًا وانضموا إلى الإسلام بعد الحديبية والذين يتحدثون عن الحديبية على أنها الفتح المبين يعتبرون من أسلم بعد الحديبية هم مسلمة الفتح ، وعمر هذه الطبقة فى الإسلام لا يتجاوز السنتين فى أقصى حد ، وقد يبلغ شهورًا وأيامًا حسب تاريخ إسلامهم . ومعظم هؤلاء يحضرون المدينة لأول مرة ، ويشاركون فى الجهاد لأول مرة ، ولعلهم يرون رسول الله ﷺ لأول مرة كذلك . وعلى رأس هؤلاء جميعًا : (بنو سليم) والذين بلغوا ألفًا وتسعمائة على خلاف فى الروايات، وهؤلاء لم يصلوا إلى المدينة ، ولم يتلقوا التربية النبوية أبدًا ، إنما انضموا إلى رسول الله ﷺ فى القديد بعد منتصف الطريق بين مكة والمدينة . لكن المهم فى بنى سليم أنهم جاؤوا فرسانًا جميعًا (ولما نزل رسول الله ﷺ قُديدًا لقيته سُليم ، وذلك أنهم نفروا من بلادهم فنفوه ـ وهم تسعمائة ـ على الخيول جميعًا مع كل رجل رمحه وسلاحه ، وقدم معهم الرسولان اللذان كان أرسلهما رسول الله ﷺ إليهم ، فذكرا أنهم أسرعوا إلى رسول الله ﷺ حيث نزلا عليهم ، وحشدوا ـ ويقال : إنهم ألف ـ فقالت سُليم :

يا رسول الله ، إنك تقصينا وتستغشنا ونحن أخوالك (أم هاشم بن عبد مناف : عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن ذكوان من بنى سليم) فقدمنا يا رسول الله حتى تنظر كيف بلاؤنا، فإنا صبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، فرسان على متون الخيل)[1].

ولو أحصينا خيول المسلمين جميعًا لوجدنا تعدادها تسعمائة ونيف كما ذكرها الواقدى، وخيل سليم وحدها تسعمائة ، وهذا يعنى أن لبنى سُلَيم وحدها نصف خيالة المسلمين .

والسلاح الهجومى الأول فى المعركة هو سلاح الفرسان ، وتقع عليه أهمية المواجهة الأولى . وبمقدار حرص رسول الله ﷺ على الاستفادة من طاقات بنى سليم رجالاً وخيلاً ، بمقدار تأنيه فى تقديمهم ، فهو لا ينسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن عصية وذكوان ، وعضل والقارة هى من سليم وهى التى فتكت بسبعين من صفوة جنده فى بئر معونة وقتلتهم جميعًا .

ويريد أن يستفيد كذلك ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من النسب القريب الذى يربطه بهم، فهم أخواله كما أن بنى النجار سادة الأنصار أخواله، فبنو النجار أخواله لجده عبد المطلب بن هاشم ، وسُليم أخواله لجده هاشم بن عبد مناف ، وشتان بين القبيلتين، فبنو النجار قامت على أكتافهم دولة الإسلام منذ ثمانى سنين وعاشوا هذا العمر كله فى مدرسة النبوة ، وبنو سليم ينضمون الآن إلى الجيش الإسلامى بعد حرب على الإسلام استمرت ثمانى سنوات ، لكن خبرة بنى سُليم فى الحرب مشهورة لا ينازعهم فيها أحد .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨١٢ ، ٨١٣ .

وأمام هذه العوامل جميعًا قدم رسول الله ﷺ سلاح الفرسان كله وجعل عليه خالد ابن الوليد ، كما جعل على بنى سليم الضحاك بن قيس الذى كان يعدل مائة رجل ، وانتظم الجيش الإسلامى بهذه الصيغة .

ولا يمكن أن ننسى ثلاث شخصيات كبيرة اشتركت اشتراكًا رمزيًا فى هذا الجيش ، كل واحدة تمثل قبيلة من أعظم قبائل العرب :

الشخصية الأولى : عيينة بن حصن الذى أفنى عمره فى حرب الإسلام والمسلمين . وانضم قبيل الفتح للإسلام (وكان عيينة فى أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهًا ، وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج فى نفر من قومه حتى قدم المدينة فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين فسلك عن ركوبة، فسبق إلى العرج، فوجده رسول الله ﷺ بالعرج فقال:

يا رسول الله ، بلغنى خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعًا ولم أشعر فأجمع قومى فيكون لنا جلبة كثيرة، ولست أرى هيأة حرب ، لا أرى ألوية ولا رايات ، فالعمرة تريد ؟ فلا أرى هيأة الإحرام ، فأين وجهك يا رسول الله ؟ قال : « حيث يشاء الله » . وذهب وسار معه)(١) .

وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر هو سيد بنى غطفان بلا منازع ، وهو الذى كان يسميه رسول الله ﷺ : الأحمق المطاع. فعن إبراهيم النخعى قال : جاء عيينة بن حصن إلى النبى ﷺ وعنده عائشة فقال: من هذه ؟ وذلك قبل أن ينزل الحجاب. فقال: « هذه عائشة » ، فقال : ألا أنزل لك عن أم البنين ، فغضبت عائشة وقالت : من هذا ؟ فقال النبى ﷺ: « هذا الأحمق المطاع » يعنى فى قومه. رواه سعيد بن منصور عن أبى معاوية عن الأعمش مرسلاً ورجاله ثقات ، وأخرجه الطبرانى موصولاً عن جرير ؛ أن عيينة بن حصن دخل على النبى ﷺ، وعنده عائشة . قال : من هذه الجالسة إلى جانبك ؟ قال : « عائشة » ، قال : ألا أنزل لك عن خير منها ، يعنى امرأته .

الشخصية الثانية : الأقرع بن حابس التميمى سيد بنى تميم .

(ووجد الأقرع بن حابس بالسقيا قد وافاها فى عشرة نفر من قومه ، فساروا معه ، فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع وعيينة) .

وسنجد لهاتين الشخصيتين دورًا سيئًا ولمن كان معهما نتحدث عنه فى موقعه .

الشخصية الثالثة : علقمة بن علاثة ـ سيد بنى عامر ، وهو الذى نافر عامر بن الطفيل ، ومضت بمنافرتهما كتب الأدب والتاريخ والتراجم ، وكانا ندين فى الزعامة .

---

(١) المغازى للواقدى ٨٠٣/٢ .

ولا يبعد أن يكون عامر بن الطفيل قد توفى . أو أنه بقى فى قومه معاندًا لله ولرسوله ، ولم يشارك كما ذكرنا ـ إن كان حيًا على بعض الروايات أنه وفد على رسول الله ﷺ بعد الفتح ـ فى الانضمام إلى هوازن فى حربها لرسول الله ﷺ .

وقد اعتبر هؤلاء الثلاثة من المؤلفة قلوبهم ، وأعطى كل واحد منهم مائة ناقة .

وتبقى هذه الطبقات الثلاث هى التى تمثل المهاجرين والأنصار ، وشرفها الله تعالى بالمشاركة فى فتح مكة .

الطبقة الرابعة : وهى التى انضمت إلى الجيش الإسلامى بعد فتح مكة ، ويطلق عليها اصطلاحات : مسلمة الفتح ، أى الذين أسلموا بعد فتح مكة ، ومعظم هذه الطبقة من قريش ، ويبلغ تعدادها ألفين . وهذا رقم ليس بالسهل ، فهو بعد الأنصار أعلى الأرقام بالنسبة للقبائل . وقد شهدنا جنود القبائل من قبل ، حيث كان أكبر أرقامها ألفًا أو ألفًا ونيف ، أما الذين انضموا من قريش الآن هم ألفان . وأكبر ما استطاعت قريش أن تحشد ضد رسول الله ﷺ ألفًا من المقاتلين فى بدر ، ولم يزد العدد فى أحد عن ذلك ؛ لأنها استنفرت القبائل المجاورة والأحباش حتى بلغ تعداد جيش المشركين ثلاثة آلاف ، وفى الخندق استجمعت الأحزاب من كل قبائل العرب حتى بلغ العدد عشرة آلاف ، أما الآن فينضم إلى الجيش الإسلامى ألفا مقاتل من قريش التى أمضت حياتها فى حرب رسول الله ﷺ ، وهذان الألفان ليسا على نفسية واحدة ، فبعضهم خرج عن قناعة ، وبعضهم خرج مشركًا ، وبعضهم خرج يتربص الدوائر برسول الله ﷺ يريد اغتياله ، وبعضهم مضى متفرجًا لا يشك فى النصر ، لعل بعض الغنائم ينالها ـ وهؤلاء كثير فى هذا الجمع الجديد ـ وبعضهم ولا شك قد انضم راسخ العقيدة ، قوى الإيمان ، وأغلب هؤلاء من أهل رسول الله ﷺ وعشيرته الأدنين الذين لم يتح لهم فرصة الهجرة، وكانوا يخضعون لضغوط قريش فى حربها لرسول الله .

وها هى الفرصة الذهبية الآن المتاحة له لكى ينضوى تحت لواء قائده محمد ﷺ وسيد عشيرته ، ورسول رب العالمين . وهؤلاء ثبتوا فى ساعة الهول مع رسول الله ﷺ كأشد ما يكون الثبات ، وكانوا عشرة من أهل بيته ﷺ ، وعلى رأسهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وآخر المؤمنين هجرة فى الأرض . وهو الشاعر الذى نطق بلسانهم فقال :

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة ... وقد فر من قد فرَّ عنه وأقشعوا
وعاشرنا وافى الحمام بنفسه ... لما مسَّه فى الله لا يتوجع

وهؤلاء هم: العباس بن عبد المطلب،وابنه الفضل،وعلى بن أبى طالب،وأبو سفيان

ابن الحارث ، وأخوه ربيعة بن الحارث ، وهؤلاء هم الذين ذكرهم ابن إسحاق : (وممن ذكر الزبير بن بكار وغيره أنه ثبت يوم حنين أيضًا : جعفر بن أبى سفيان بن الحارث ، وقثم بن العباس ، وعتبة ومعتب ابنا أبى لهب ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب)(١) .

وباستثناء على بن أبى طالب، فكلهم حديثو عهد بالإسلام ، وإذا أضفنا إليه العباس ابن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأبا سفيان بن الحارث ، وجعفر ابنه فى الذين أسلموا قبيل الفتح على الطريق ، فيكون الثمانية الباقون من مسلمة الفتح ، الذين دخلوا فى دين الله عز وجل بعد فتح مكة .

ولا عجب فى ذلك ، ففى سيوفهم فى الجاهلية كانت حمايتهم رسول الله ﷺ ، وحاربوا الدنيا من أجلهم وعلى رأسهم شيخ بنى هاشم : أبو طالب ، فكيف يكون اندفاعهم فى الإسلام وبعده ، وبعد أن أشرق النور فى قلوبهم براية الإسلام ؟

وكما ذكرنا من قبل تركيب جيش هوازن ، وجهل قيادة الجيش عن أوضاع جيش المسلمين بعد أسر جاسوس هوازن ، وذكرنا هنا تركيب الجيش الإسلامى بطبقاته المتنوعة. نلاحظ أن عيون المسلمين وجواسيسهم قد دخلت إلى قلب جيش هوازن وقدمت تقريراً مفصلاً عنه ، وكان ذلك بعد التحرك إلى وادى حنين .

(وخرج رجال من مكة مع النبى ﷺ فلم يغادر منهم أحدًا ـ على غير دين ـ ركبانًا ومشاة ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم . ولا يكرهون أن تكون الصدمة لمحمد ﷺ وأصحابه) (٢) .

(وخرج مع رسول الله ﷺ ناس من المشركين كثير منهم صفوان بن أمية ، وكان رسول الله ﷺ قد استعار منه مائة درع بأداتها كاملة. فقال : يا محمد، طوعًا أو كرهًا ؟ فقال رسول الله ﷺ: « عارية مؤداة »، وقال له رسول الله ﷺ: « اكفنا حملها »، فحملها صفوان على إبله حتى انتهوا إلى أوطاس ، فدفعها إلى رسول الله ﷺ)(٣) .

لقد ضم هذا الجيش تقريبًا كل القادة التاريخيين للإسلام والمسلمين ، منهم من أسلم ودخل فى دين الله طائعًا مختاراً ، ومنهم من لم يزل على شركه يحمل الانفصام فى شخصه بين الانضمام للإسلام والثبات على الشرك ، ونظرة فى المؤلفة قلوبهم والذين أخذوا نصيبًا وافراً من غنائم حنين نلاحظ أنهم الأعداء الرئيسيون والتقليديون للإسلام منذ نشأته ، وهذه أسماؤهم :

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٣٠ .
(٢) المغازى للواقدى ٣/ ٨٩٤ ، ٨٩٥ .
(٣) المصدر نفسه ٣/ ٨٩٠ .

أبو سفيان بن حرب وابناه يزيد ومعاوية ، وحكيم بن حزام ، والنضر بن الحارث ، وأسيد بن حارثة، ومخرمة بن نوفل، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب ابن عبد العزى ، والحارث بن هشام .

وهؤلاء جميعًا من قريش . ومن قبائل العرب أعطى :

عيينة بن حصن الفزارى الغطفانى ، والأقرع بن حابس التميمى ، وعلقمة بن علاثة العامرى، والعباس بن مرداس السلمى، ومالك بن عوف النصرى (قائد جيش هوازن)، والحارث بن الحارث بن كلدة الثقفى ، وخالد بن هودة العامرى وغيرهم . إذ يقول الصالحى : (وجميع ذلك يزيد على الخمسين)[1] . وكل هؤلاء كانوا جندًا فى الجيش الإسلامى .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٧٦ .

التربية فى الطريق إلى المعركة

ذكر استعماله ﷺ عتاب بن أسيد أميراً على مكة :

قالوا : لما بلغ رسول الله ﷺ خبر هوازن ، وما عزموا عليه ، أراد التوجه لقتالهم واستخلف عتاب بن أسيد أميرًا على أهل مكة ، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه ، وكان عمر عتَّاب إذ ذاك قريبًا من عشرين سنة .

استعارة السلاح :

روى ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما أجمع السير إلى هوازن ذكر أن له عند صفوان بن أمية أدرعًا وسلاحًا ، فأرسل إليه ـ وهو يومئذ مشرك ـ فقال : « يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلقى به عدونا » ، فقال صفوان : أغصبًا يا محمد ؟ قال : « لا ، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك » ، قال : ليس بهذا بأس ، فأعطى له مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فسأله رسول الله ﷺ أن يكفيهم حملها ، فحملها إلى أوطاس . ورواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى عن أمية بن صفوان ، ويقال : إنه ﷺ استعار منه أربعمائة درع بما يصلحها .

قال السهيلى : واستعار رسول الله ﷺ فى غزوة حنين من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح فقال ﷺ : « كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين » .

عبد الله بن أبى حدرد لكشف خبر القوم :

روى ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ أن رسول الله ﷺ لما سمع بخبر هوازن بعث عبد الله بن أبى حدرد رضي الله عنه فأمره أن يدخل فى القوم فيقيم فيهم . وقال : « اعلم لنا علمهم » فأتاهم فدخل فيهم فأقام فيهم يومًا وليلة أو يومين حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ وسمع من مالك وأمر هوازن وما هم عليه .

وعند محمد بن عمر أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف فيجد عنده رؤساء هوازن ، فسمعه يقول لأصحابه : إن محمداً لم يقاتل قومًا قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم

ونساءكم من ورائكم ، ثم صفوا ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيوفكم [1] فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً [2] ، انتهى .

ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب : « ألا تسمع ما يقول ابن أبى حدرد ؟ » فقال عمر : كذب ، فقال ابن أبى حدرد : والله لئن كذبتنى يا عمر لربما كذبت بالحق . فقال عمر : ألا تسمع يا رسول الله ما يقول ابن أبى حدرد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت ضالاً فهداك الله » .

خروج رسول الله ﷺ للقاء هوازن :

روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال حين أراد حنينًا : « منزلنا غدًا إن شاء الله تعالى بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر »، وفى رواية : « منزلنا إن شاء الله تعالى إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر » .

قال جماعة من أهل المغازى: خرج رسول الله ﷺ فى اثنى عشر ألفًا من المسلمين: عشرة آلاف من المدينة ، وألفين من مكة .

وروى أبو الشيخ عن محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير الليثى قال : كان مع رسول الله ﷺ أربعة آلاف من الأنصار ، وألف من جهينة ، وألف من مزينة ، وألف من أسلم ، وألف من غفار ، وألف من أشجع ، وألف من المهاجرين وغيرهم ، فكان معه عشرة آلاف ، وخرج باثنى عشر ألفًا ، وعلى قول عروة والزهرى وابن عقبة يكون جميع الجيش الذى سار بهم رسول الله ﷺ أربعة عشر ألفًا ؛ لأنهم قالوا : إنه قدم مكة باثنى عشر ألفًا ، وأضيف إليهم ألفان من الطلقاء .

قال محمد بن عمر ـ رحمه الله تعالى: غدا رسول الله ﷺ يوم السبت لست خلون من شوال . وقال ابن إسحاق : لخمس ، وبه قال عروة ، واختاره ابن جرير ، وروى عن ابن مسعود .

قال ابن عقبة ومحمد بن عمر : ثم بعد فتح مكة خرج رسول الله ﷺ أنه مبادر بهوازن ، وصنع الله لرسوله أحسن من ذلك ففتح له مكة ، وأقر بها عينه ، وكبت بها عدوه ، فلما خرج إلى حنين خرج معه أهل مكة لم يغادر منهم أحدًا ركبانًا ومشاة حتى خرج معه النساء يمشين على غير دين نظارًا ينظرون ويرجون الغنائم ، ولا يكرهون أن

---

(١) كسر جفن سيفه : أى كسر غمد السيف ، ليقاتل فيه حتى النهاية .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣/ ٥/ ٥٥ ت (٦١٤٦) .

تكون الصدمة لرسول الله ﷺ .

وكان معه أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وكانت امرأته مسلمة وهو مشرك لم يفرّق بينهما ، وجعل أبو سفيان بن حرب كلما سقط ترس أو سيف أو متاع من أصحاب رسول الله ﷺ نادى رسول الله أن اعطينيه أحمله حتى أوقر بعيره .

قال محمد بن عمر : وخرج رسول الله ﷺ وزوجتاه أم سلمة وميمونة فضربت لهما قبة .

اجعل لنا ذات أنواط :

روى ابن إسحاق ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن أبى حاتم عن أبى قتادة (١) الحارث بن مالك رضي الله عنه قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه إلى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة (وعند الحاكم فى الإكليل : سدرة عظيمة يقال لها : ذات أنواط) يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يومًا ، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ :

« الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) ﴾ [الأعراف] ، إنها لسنن، لتركبن سَنَن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » (٢) .

فدائى وحارس :

عن سهل ابن الحنظلية أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين فأطنبوا السير ، حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ، إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين . فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

« تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله »، ثم قال: « من يحرسنا الليلة ؟ » قال أنس بن أبى مرثد الغنوى : أنا يا رسول الله ، قال : « فاركب » فركب فرسًا له ، فجله إلى

---

(١) والأصح أن اسمه أبو واقد كما فى الإصابة ، الكنى ٤/٧/ت (١٢٠٠) .

(٢) سنن الترمذى ٤/ ٤٧٥ ح (٢١٨٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

رسول الله ﷺ فقال له : « استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه ولا نُغَرَّنَ من قِبلك الليلة » .

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال : « هل أحسستم فارسكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما أحسسناه ، فثُوِّب بالصلاة فجعل رسول الله ﷺ يصلى وهو يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » ، فجعلنا ننظر من خلال الشجر فى الشعب ، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله فقال : إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرنى رسول الله ﷺ ، فلما أصبحت اطلعتُ الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدًا . فقال له رسول الله ﷺ: « هل نزلت الليلة ؟ » قال: إلا مصليًا أو قاضيًا حاجة . فقال له رسول الله ﷺ: « قد أوجبت ، فلا عليك ألا تعمل بعدها » (١) .

شعر عباس بن مرداس :

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها ... منى رسالة نصحٍ فيه تبيان
إنى أظن رسول الله صابحكم ... جيشًا له فى فضاء الأرض أركان
فيهم أخوكم سُليم غير تارككم ... والمسلمون عباد الله غسان
وفى عضادته اليمنى بنو أسد ... والأجربان بنو عبس وذُبيان
تكاد ترجُفُ منه الأرض ترهبه ... وفى مقدمه أوس وعثمان

قال ابن إسحاق : أوس وعثمان قبيلا مزينة .

حفظه ﷺ ممن أراد الفتك به :

روى محمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

قال أبو بردة بن نيار : لما كنا دون أوطاس نزلنا تحت شجرة ، ونظرنا إلى شجرة عظيمة ، فنزل رسول الله ﷺ تحتها ، وعلق بها رسول الله ﷺ سيفه وقوسه ، قال : وكنت من أقرب أصحابه إليه ، قال : فما أفزعنى إلا صوته : « يا أبا بُردة » فقلت : لبيك ، فأقبلت سريعًا فإذا رسول الله ﷺ جالس ، وعنده رجل جالس ، فقال رسول الله ﷺ: « إن هذا الرجل جاء وأنا نائم، فسلَّ سيفى ، ثم قام به على رأسى ففزعت(٢) وهو يقول : يا محمد من يؤمنك منى اليوم ؟ قلتُ : الله » . قال أبو بردة : فوثبت

(١) سنن أبى داود ٢/٣/٩، ١٠ والترمذى وقال عنه ابن حجر فى الإصابة : « إسناده على شرط الصحيح ».
(٢) فزعت هنا بمعنى : استيقظت ، وليست بمعنى الخوف. ففى القاموس المحيط : فزع من نومه : هب .

إلى سيفى فسللته ، فقال رسول الله ﷺ : « شم سيفك » . قال : قلت : يا رسول الله، دعنى أضرب عنق عدو الله، فإن هذا عين من عيون المشركين، فقال لى: « اسكت يا أبا بردة » . قال : فما قال له رسول الله ﷺ شيئًا ولا عاقبه ، فجعلت أصيح به فى العسكر ليشهده الناس فيقتله قاتل بغير أمر رسول الله ﷺ ، فأما أنا فإن رسول الله ﷺ قد كفنى عن قتله ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « الهُ عن الرجل يا أبا بردة » ، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقال :

« يا أبا بُردة ، إن الله مانعى وحافظى حتى يظهر دينه على الدين كله » (١) .

جواسيس العدو :

وروى أبو نُعيم والبيهقى من طريق ابن إسحاق قال : حدثنى أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أنه حُدّث أن رسول الله ﷺ قد انتهى إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشرٍ خلون من شوال ، وبعث مالك بن عوف ثلاثة نفر من هوازن ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأمرهم أن يتفرقوا فى العسكر فرجعوا إليه وقد تفرّقت أوصالهم. فقال : ويلكم ما شأنكم ؟ فقالوا : رأينا رجالاً بيضًا على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، والله ما نقاتل أهل الأرض إن نقاتل إلا أهل السموات ، وإن أطعتنا رجعت بقومك، فإن الناس إذا رأوا مثل الذى رأينا أصابهم مثل الذى أصابنا. فقال : أفٍ لكم ، أنتم أجبن أهل العسكر ، فحبسهم عنده فرقًا أن يشيع ذلك الرعب فى العسكر ، وقال : دلونى على رجل شجاع . فأجمعوا له على رجل ، فخرج ثم رجع إليه قد أصابه كنحو ما أصاب من قبله منهم . فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت رجالاً بيضًا على خيل بلق ، ما يطاق النظر إليهم، فوالله ما تمالكت أن أصابنى ما ترى . فلم يثن ذلك مالكًا عن وجهه .

وروى محمد بن عمر نحوه عن شيوخه (٢) .

تعبئة المشركين والمسلمين :

قال شيوخ محمد بن عمر :

(ولما كان من الليل عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم فى وادى حنين ـ وهو واد أجوف ، ذو شعاب ومضايق ـ وفرّق الناس فيه ، وأوعز إلى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة ، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه ، وصفّهم صفوفًا فى

(١) مغازى الواقدى ٣/ ٨٩٢ وهى فى دلائل النبوة للبيهقى مختصرة ٥/ ١٢٣ .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٦٨ .

السحر، ووضع الألوية والرايات فى أهلها مع المهاجرين : لواء يحمله على عليه السلام ، وراية يحملها سعد بن أبى وقاص ، وراية يحملها عمر بن الخطاب .

وفى الأنصار رايات ، مع الخزرج لواء يحمله الحباب بن المنذر، ويقال: لواء الخزرج الأكبر مع سعد بن عبادة ، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير . وفى كل بطن من الأوس والخزرج لواء أو راية. . . وكانت رايات الأوس والخزرج فى الجاهلية خضر وحمر، فلما كان الإسلام أقروها على ما كانت عليه ، وكانت رايات المهاجرين سود والألوية بيض ، وكان فى قبائل العرب فى أسلم راتبان . . . وفى بنى غفار راية . . . ومع بنى ضمرة وليث وسعد بن ليث راية يرد مع كعب بن عمرو راتبان . . . وكان فى بنى مزينة ثلاث رايات . . . وكان فى جهينة أربع رايات . . . وكان فى بنى أشجع رايتان . . . وكانت فى بنى سليم ثلاث رايات . . . وكان رسول الله ﷺ قد قدَّم سليمًا من يوم خرج من مكة فجعلهم مقدمة الخيل ، واستعمل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فلم يزل على مقدمته حتى ورد الجعرانة .

قالوا : وانحدر رسول الله ﷺ بأصحابه ، وقد مضت مقدمته وهو على تعبئة فى وادى حنين فانحدر رسول الله ﷺ ـ وهو واد حدور ـ وركب رسول الله ﷺ بغلته البيضاء دلدل ، ولبس درعين والمِغفَر والبيضة ، واستقبل الصفوف ، وبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا) (١) (٢) .



بعد دراسة تركيبة الجيشين نمضى مع الجيش الإسلامى ، وعلى قيادته رسول الله ﷺ، وقبل أن نغادر مكة، وهى عاصمة الشرك الكبرى من قبل ، ومعقل العدو الأول، كيف يتركها رسول الله ﷺ ، ولمن يتركها ؟

لقد كان بنو أمية هم الذين انتهت لهم السيادة فى مكة ، فأبو سفيان بن حرب سيد بنى كنانة وقريش ، ولكنه قد أسلم اليوم ، وليس من السهل أن يمحى تاريخ كامل من حياته لحظات ، ومن جهة ثانية فلابد أن يدخل مدرسة التربية النبوية ويمضى مع الجيش الإسلامى ليبدأ الحياة الإسلامية من جديد ، ويدخل دورات المبتدئين مكثفة عالية وهو وأمثاله ممن مضى على إسلامهم شهراً ودون شهر ، وليس من السهل أن تأتى عصبية جديدة تكون لها القيادة فى مكة ، فأبان بن العاص فى غياب أبى سفيان فى الحديبية هو

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٨٩٥ ـ ٨٩٧ ، وقد أخذنا ترتيب الصالحى فى سبل الهدى والرشاد ، ولم نغير إلا بعض العناوين. أو نقل بعض الروايات من المصدر الذى عزاها إليه .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى من بداية هذا الفصل ٥/ ٤٦٢ ـ ٤٦٩ .

الذى أجار مبعوث محمد : عثمان بن عفان ، ودعاه ليبلغ رسالة محمد إلى قريش ، وأركبه خلفه ، وقال له :

أقبل وأدبر ولا تخف أحدًا   بنـو سـعيد أعـزة الحـرم

وكانت عظمة التربية النبوية فى اختيار والى مكة فى غيابه على من تبقى فيها من الشيوخ والغلمان والنساء والمشركين والمسلمين .

لقد اختاره ـ عليه الصلاة والسلام ـ ابتداءً من بنى أمية،ولم يغير عصبية قيادة مكة.

لكنه اختاره شابًا يتوقد الإيمان فى قلبه ، وليس عنده من مورثات الجاهلية شىء ، ولم يخض معركة ضد الإسلام والمسلمين ، وتفرّس فيه النجابة والعبقرية والإيمان .

إنه عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس الأموى، أسلم يوم الفتح. ويروى لنا ابن هشام فى السيرة قصة إسلامه فقال : (حدثنى . . . أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب، وعتّاب بن أسيد ، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة . فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدًا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه . فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئًا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى ، فخرج عليهم النبى ﷺ فقال: « قد علمت الذى قلتم » ، ثم ذكر ذلك لهم . فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول : أخبرك) (١) .

وحيث إن أباه أسيدًا الذى كان من أشراف بنى أمية قد توفى ، وأمام هذه المعجزة التى رآها بعين قلبه ، وأمام الانهيار العام للشرك والمشركين حيث تكسر الأصنام ، كان أن أشرق الإسلام فى قلبه ، وهو شاب فى العشرينيات من عمره. (فاستعمله النبى ﷺ على مكة لما سار إلى حنين واستمر ـ وقيل إنما استعمله بعد أن رجع من الطائف ـ وحج بالناس سنة الفتح ، وأقره أبو بكر على مكة إلى أن مات يوم مات . ذكر جميع ذلك الواقدى وغيره وقالوا : وكان صالحًا فاضلاً وكان عمره حين استعمل نيفًا وعشرين سنة)(٢) . بينما يذكر الصالحى فى سبل الهدى أنه دون ذلك : (وكان عُمر عتاب إذ ذاك قريبًا من عشرين سنة)(٣) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤١٣.
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٢/ ٤/ ٢١٢ ت (٥٣٨٣) .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٦٢ .

وكان موضع ثقة رسول الله ﷺ ، حتى إنه ليحج بالمسلمين هذا العام نيابة عن رسول الله ﷺ . وهو إذن أمير أول حج إسلامى على الأرض ، أو أول أمير إسلامى على الأرض ، وهو قمة فى الورع والتقوى كما يقول عن نفسه :

(أصبت فى عملى الذى استعملنى عليه رسول الله ﷺ بردين معقدين كسوتهما غلامى كيسان . فلا يقولن أحدكم : أخذ منى عتاب كذا ، فقد رزقنى رسول الله ﷺ كل يوم درهمين ، فلا أشبع الله بطنًا لا يشبعه كل يوم درهمان)(١) .

وخيرية هذا المعدن تتضح لنا من خلال هذه المفاجأة النبوية العظيمة لأميره عتاب .

قال له رسول الله ﷺ :

« يا عتاب ، تدرى على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله عز وجل ، ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم » (٢) .

فهو معدن نفيس يشهد له رسول الله ﷺ بالخيرية لهذا الموقع على جميع من حوله.

ومع أنه فى بداية شرخ الشباب كان من الحزم والقوة فى دين الله ، ما جعل أهل مكة يضجرون منه لاستقامته فى دين الله ، فعن أنس أن النبى ﷺ استعمل عتاب بن أسيد على مكة وكان شديداً على المريب ، لينًا على المؤمنين وكان يقول : والله لا أعلم متخلفًا عن هذه الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه .

ونقف مليًا أمام هذا النص لنستعيد صورة مكة كاملة من خلاله .

ما هو نظام الحكم فى مكة خلال قرن على الأقل ؟

كان نظام الحكم فيها هو الذى صنعه قصى بن كلاب أحد أجداد رسول الله ﷺ حين أسس مكة الدولة وقسم قريشًا على فروعها ، وأسس دار الندوة بجوار الكعبة ، وكان مشيخة قريش يجتمعون فيها، ويتخذون قراراتهم السياسية والعسكرية والاجتماعية، ولها نظام صارم لا يدخلها إلا من تجاوز الأربعين من عمره ، فعضوية هذا البرلمان كانت موقوفة على الكبار ، وسن النائب فيه أربعون فما فوق ، وزعماء القبائل القرشية هم أصحاب القرار النهائى . وحين يفكر أحد فى المساس فى هذا النظام يخلع ويطرد .

(فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكًا أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعًا فى قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها ، ويزعم الناس أن

(١ ، ٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٣/ ٥٥٦ .

قريشًا هابوا قطع شجر الحرم فى منازلهم فقطعها قصى بيده وأعوانه . فسمته قريش مجمعًا ؛ لما جمع من أمرها ، وتيمَّنت بأمره ، فما تنكح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش، وما يتشاورون فى أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواءً لحرب قومٍ من غيرهم إلا فى داره ، يعقده لهم بعض ولده . وما تدرَّع جارية (١) إذا بلغت أن تدرَّع إلا فى داره يشق عليها فيها درعها ثم تدرَّعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره فى قريش فى حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها)(٢) .

(وعندما قرر بنو عبد مناف أن ينازعوا بنى عبد الدار شرف مآثر قريش ، انقسمت مكة إلى حزبين ، وكادت الحرب أن تقع وتفنى الفريقين ، ثم سوت بين القبائل ، ولُزَّ بعضها ببعض فعبيّت بنو عبد مناف لبنى سهم ، وعبيت بنو أسد لبنى عبد الدار ، وعبيت زهرة لبنى جمح ، وعبيت بنو تيم لبنى مخزوم ، وعبيت بنو الحارث بن فهر لبنى عدى ابن كعب ، ثم قالوا : لتَفْنِ كل قبيلة من أسند إليها ، فبينا الناس على ذلك قد أجمعوا أمرهم للحرب إذ تداعوا للصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، ولم يزالوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام)(٣) .

وتغيير المناصب احتاج إلى هذه التعبئة والمحالفات والتهديد بالحرب ، وعملية تغيير النظام السياسى باءت بالفشل ، فذاك عثمان بن الحويرث أحد الأربعة الذين تركوا دين قريش(٤) ، ومضى إلى قيصر فتنصر ودخل فى دينه (وحسنت منزلته عنده . قال ابن هشام: ولعثمان بن الحويرث عند قيصر حديث منعنى من ذكره ما ذكرت من حديث حرب الفجار) .

أما هذا الخبر فقد ذكره السهيلى فى (الروض الأنُف) بقوله :

(وأما الزبير فذكر أن قيصر كان قد توَّج عثمان (٥) ، وولاه أمر مكة ، فلما جاءهم أنفوا من أن يدينوا لملك ، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى : ألا إن مكة حى لقاح لا تدين لملك ، فلم يتم له مراده) (٦) .

---

(١) تدرع جارية : تلبس الدرع أى تتحجب .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٢٥ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٢ .
(٤) هؤلاء الأربعة هم : عبيد الله بن جحش ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو وعثمان هذا .
(٥) توَّج عثمان : جعله ملكًا .
(٦) الروض الأنف للسهيلى ١/ ٢٥٥ .

وبقى أن نعرف أن هذا الذى رفض ملكية عثمان هو عمه ، فعثمان هو ابن الحويرث ابن أسد بن عبد العزى بن قصى ، والأسود هو ابن أسد بن عبد العزى بن قصى . ورفضت ملكية عثمان المدعومة من قيصر .

هذا النظام الذى عاشته مكة ما ينوف عن قرن ونيف يغيره رسول الله ﷺ ، ويضع أمرها كلها بيد عتاب بن أسيد ابن العشرين عامًا ، والذى لا يحق له أن يشارك فى السياسة قبل عشرين عامًا تقريبًا فى حسابات النظام السياسى فى مكة .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فلم يُقدم رسول الله ﷺ على اختيار رجل من بنى هاشم ـ عشيرته الأدنين ـ وكان العباس بن عبد المطلب بسنه ونضجه وخبرته وتجربته فى الحياة هو المؤهل لذلك ، وكان من القادة السياسيين المشاركين فى القرار فى مكة ، لكن رسول الله ﷺ لا يريد فقط أن يغير نظام حكم وراثى سياسى ، إنما يريد أن يجتث من الجذور كذلك ، فكرة العصبية الجاهلية .

« ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها بالآباء ، الناس لآدم ، وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ⑬ ﴾ [الحجرات] [1] .

فتولية العباس بن عبد المطلب لن تفسر عمليًا إلا عصبية جاهلية ، فهو ولى عمّه مكانه ، وبنو هاشم جميعًا متهمون فى مكة بولائهم لمحمد بن عبد الله ، وقلوبهم معه ، ولم يكن بنو هاشم ليخفوا هذا التعاطف مع رسول الله ﷺ ، ومكة التى تعج بالثأر من محمد وصحبه ، والقلوب مكلومة لا يناسبها أن تحكم من أحد آل بيته أو أحد الأنصار. وهم الأعداء التقليديون لمكة المكرمة ، فاختار رسول الله ﷺ عتابًا ـ وهو من العائلة الحاكمة بمكة ، من بنى أمية ، ولكن ليس له ماض معاد للإسلام ، وليس له ثارات معه، وليس له عقد سابقة تفرض عليه بعض المواقف الجاهلية ، وكان بإمكان رسول الله ﷺ أن يولى أبا سفيان إمرة مكة، وهو القائد التاريخى لها وزعيمها وسيدها ويُذعن القوم له، لكن لأبى سفيان حساباته ، وماضيه ، وقناعاته ، فمن الصعب أن يتصور نفسه اليوم بثوب جديد ، وقيم جديدة يحكم بها مكة ، ولا يشعر أهل مكة أن دينًا جديدًا ، وعقيدة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤١٢ .

جديدة لابد من تطبيقها على يد هذا النظام الجديد ، فاكتفى - عليه الصلاة والسلام - بإبقاء أميره من بنى أمية محافظة على مشاعر أهلها، لكن بعقلية جديدة، ونفسية جديدة، وطاقات شبابية جديدة جاهزة لتنفيذ أوامر هذا الدين الجديد كاملة .

ولسنا بصدد تغيير نظام سياسى فقط ، أو تغيير قيم الجاهلية فقط ، إنما نحن أمام دولة إسلامية تقوم ، حيث تعتبر أبرز مظاهرها إقامة الصلاة :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج] ، ومكة هى أول مدينة تدين للإسلام بعد مدينة المصطفى ﷺ، فلابد أن تطبق فيها أحكام الإسلام كاملة ، وتطبق فيها الحدود الشرعية، وتقام فيها صلوات الجماعة ، فهى من أول مهام الأمير الإسلامى ، وكان عتاب من الحزم والتصميم والإصرار على إقامة أحكام هذا الدين ما جعل أهل مكة يهابون سلطانه وسطوته، ويسارعون فى تنفيذ شعائر الله تعالى فى الصلاة ويعلن منهجه بقوله :

(والله لا أعلم متخلفًا عن هذه الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق) (١) .

ولشدته رضي الله عنه اتهمه أهل مكة بالأعرابية فقالوا لرسول الله ﷺ :

(يا رسول الله ، استعملت على أهل الله أعرابيًا جافيًا) . فقال :

« إنى رأيت فيما يرى النائم أنه أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقعقعها حتى فتح له ودخل » (٢) .

فنحن إذن أمام شاب ربانى يراه رسول الله ﷺ فى نومه يقرع باب الجنة ويدخل ، ويمثل القدوة الخالصة فى مجتمعه ، فهو نظيف القلب نظيف اليد ، يعيش كل يوم على درهمين ، وفى رواية : على درهم واحد .

هذا كله القسم الأول من الخبر ، فما هو القسم الثانى ؟

(واستخلف عتاب بن أسيد أميراً على مكة .

ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه :

فعتاب يمثل الشوكة والقوة والسلطان ، لكنه بحاجة إلى أن يكون فى جواره فقيه عالم يبصره بالشريعة ويعرفه بأهوالها ، وعتاب بن مسلمة الفتح ، لم يمر على إسلامه

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٢/ ٤/ ٢١٢ ت (٥٣٨٣) .

أكثر من نصف شهر حين استلم هذا المنصب ، فمن معاذ بن جبل الذى كلف بهذه المهمة العظيمة أن يكون معلم الناس فى السنن والفقه ؟

إنه فى سن عتاب بن أسيد رضي الله عنه فهو فى الثامنة والعشرين من عمره أو السابعة والعشرين ، لكنه يحمل أعظم تاريخ يحمله شاب فى مثل سنه ، حضر بيعة العقبة وهو شاب أمرد ، وكان أحد السبعين العظام الذين قامت عليهم دولة الإسلام ، وكان عمره فى بدر عشرين عامًا ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، فتاريخه عريق فى الجهاد ما فاته مشهد واحد مع رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه .

أما فى العلم : فعن أنس مرفوعًا : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدها فى دين الله عمر ، وأصدقها حياء عثمان ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ، وأفرضهم زيد ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[(١)] .

فهو فقيه الأمة الأول بلا منازع ؛ لأنه أعلم الناس فيها بالحلال والحرام .

وهو أعلمها بالقرآن كذلك ، فقد روى قتادة عن أنس قال : جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، وزيد ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد أحد عمومتى) .

وهو حبيب رسول الله ﷺ : فعن معاذ رضي الله عنه قال : لقينى النبى ﷺ فقال : « يا معاذ ، إنى لأحبك فى الله » . قلت : وأنا والله يا رسول الله أحبك فى الله . قال : « أفلا أعلمك كلمات تقولهن دبر كل صلاة : رب أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »[(٢)] .

فنحن أمام جبل من جبال العلم وصفه رسول الله ﷺ أنه سابق العلماء وفى مقدمتهم « يبعث له رتوة فوق العلماء »[(٣)] .

(وكان طويلاً حسنًا جميلاً، حسن الثغر، عظيم العينين، أبيض، جعد، قطط)[(٤)].

هذا هو الرجل الثانى الذى اختاره رسول الله ﷺ ليكون بجوار عتاب بن أسيد رضي الله عنه . وهى دورة الدهر .

---

(١) إسناده صحيح ، أخرجه أحمد ٣/ ١٨٤ والترمذى (٣٧٩٣) وغيرهما ، وذلك كما ذكر محقق سير أعلام النبلاء ١/ ٤٤٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٥٠ وقال المحقق فيه : « إسناده صحيح » ، وأخرجه أبو داود (١٥٢٢) فى الصلاة، والنسائى ٣/ ٥٣ ، وصححه الحاكم ٣/ ٢٧٣ ووافقه الذهبى .

(٣) الإصابة فى تميز الصحابة ٣/ ٦/ ١٠٧ ت (٨٠٣٢) .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٤٥ .

فقبل ثمان سنين، كان مصعب بن عمير ﷺ أجمل الناس، وأنعم فتى فى قريش، وأنهد فتى فى مكة هو الذى اختاره رسول الله ﷺ ليكون بجوار أسعد بن زرارة ـ بانى دولة الإسلام فى المدينة ـ والذى مَثَّل الشوكة والقوة فيها ـ وكان الفقيه المقرئ بجواره مصعب بن عمير ﷺ وكان الشابان فى نهاية العشرينيات كذلك ، ومن عاصمة الدولة الإسلامية فى المدينة إلى المركز الثانى للإسلام فى مكة كان هذا التداول فى التاريخ .

وقبل أن نغادر مكة نشهد هذا الخط الذى فتحه رسول الله ﷺ مع صفوان بن أمية الذى يعيش الآن فى ظل المهلة التى أعطاها إياه رسول الله ﷺ :

« أنت فى الخيار أربعة أشهر » .

ولا يزال على شركه فى مكة ، فلم تفتح مغاليق قلبه للإسلام ، والإسلام تعاملٌ ، وها هو محمد بن عبد الله يزوره ، ثم يقول له :

« يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلقى به عدونا » .

وما الذى تغير ، أفلم يكن صفوان هو عدو محمد عشرين عامًا ، وهو لا يزال على شركه . لم يدخل فى الإسلام بعد ، وهو يحس بغصة فى حلقه . فقد فَقَدَ مركز الزعامة الذى كان يتبوؤه فى مكة ، والمشاركة فى القرار السياسى والمصيرى لمكة ، وأصبحت السلطة حقيقة بيد محمد وأتباعه ، واستسلمت مكة صاغرة ، وهزم فى المعركة، وفرّ منها (إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة) .

ترى ، هل هذه بداية الخط الجديد فى استعمال السلطة السياسية لإذلال رجالات مكة الذين صبروا على دين آبائهم وأجدادهم ، ينزع منهم السلاح أولاً ثم يحيلهم إلى مجرمى حرب ثانيًا يحاكمون على ما يعتقدون ؟! . ولكن لهجة محمد بن عبد الله تنضح إكرامًا وتقديرًا : « يا أبا أمية » فهو يناديه بأحب الأسماء إليه .

واللفظ صريح : « أعرنا » . لكن هل من السهولة أن يقبل هذا الأمر ويمره على ظاهره؟!

لا يمكن أبدًا أن يكون ساذجًا لهذا الحد، ولذلك ثار فى نفسه سؤال لم يخفه فقال:

أغصبًا يا محمد ؟

قال ـ عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل عارية مضمونة حتى نردها إليك » .

ولقد جرَّب محمدًا فى أمانته ، فما رأى له غدرة قط ، ولا نكث معه قط ، وهذه الأيام الخمس عشرة التى تُرِك فيها الخيار له ، فلم تمتد له يد بسوء ولا عين بشزر ، يحضر

المجالس التى يريد ، ويمضى حيث يريد دون أن يتعرض له أحد بسوء ، فقد وفى محمد بعهده وذمته .

وحين تأكد أن الأمر هو أمر مصلحة متبادلة وثقة وتعامل ، لم يتردد فى الإعارة ، ثم يطلب منه رسول الله ﷺ أكثر من ذلك ، أن يحمل هذه الأدراع والأسلحة لمواجهة هوازن ، فلا يرى حرجًا فى ذلك . فمحمد اليوم سيد قريش وسيد مكة ، وقد دانت له العرب قاطبة ، فإن كانت هوازن تريد أن تنازعه السيادة فهو مع محمد بن عبد الله الذى خبره منذ ثلاثين عامًا وأكثر ، والذى تعامل معه فى اللحظات العصيبة بأرفع التعامل وأعلاه ، كان ذاك يوم جاء مع عمير بن وهب إلى رسول الله ﷺ فى أول لقاء بعد حرب عشرين عامًا بينهما (فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله ﷺ يصلى بالمسلمين العصر فى المسجد فوقفا ، فقال صفوان : كم تصلون فى اليوم والليلة ؟ قال عمير : خمس صلوات . قال : يصلى بهم محمد ؟ قال : نعم . فلما سلَّم صاح صفوان: يا محمد ، إن عميرًا جاءنى ببردك ، وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك، فإن رضيتُ أمرًا وإلا سيرتنى شهرين . قال : « انزل أبا وهب » . قال : لا والله حتى تبيّن لى . قال : « بل تسير أربعة أشهر » ، فنزل صفوان ، وخرج رسول الله ﷺ قِبَل هوازن ، وخرج معه صفوان وهو كافر . وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها ، فقال : طوعًا أو كرهًا ؟ قال رسول الله ﷺ : « عارية مؤداة » فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين) [1] .

ورسول الله ﷺ يسعى إلى كسر الجليد بينه وبين صفوان ، فقد أقدم على أمر أكبر من الأدراع وذلك حين أقدم على استقراض المال منه بعد نزوله مكة .

قال محمد بن عمر : (وحدثنى عبد الله الهذلى عن أبى حصين الهذلى قال : استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش ؛ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فأقرضه ، واستقرض من عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم ، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم ، فكانت ثلاثين ومائة ألف فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف)[2] .

واستعار رسول الله ﷺ من ابن عمه نوفل بن الحارث ثلاثة آلاف رمح فقال ﷺ :

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٥٤ ، وقد أخرجه مالك عن ابن شهاب كما فى سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٦٥ وقال المحقق فيه : قال ابن عبد البر : وهو حديث مشهور عند أهل السير ، وابن شهاب إمام أهل السير ، وكذلك الشعبى .

(٢) المغازى للواقدى ٢/ ٨٦٣ .

« كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين » .

ولا عجب ، فنوفل قد أسلم مع مسلمة الفتح ، وبعض الروايات تشير إلى إسلامه بعد الخندق ، وأنه حضر بيعة الرضوان ، وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، فلا غرو أن يحدثه رسول الله ﷺ عن قصف رماحه لظهور المشركين .

ونوفل بن الحارث هذا هو الذى أسره المسلمون يوم بدر ، وافتداه عمه العباس من ماله .

* * *

ولابد أن تكون الخطوة النبوية الأولى حين يتم الاتجاه نحو العدو هى معرفة هذا العدو وقواته ورجاله وتخطيطه ، فاختار رسول الله ﷺ أحد جنوده النجباء ، وبعثه عينًا له على العدو ، وكان هذا الجندى عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ، وقد انضم إلى الصف الإسلامى مع الرعيل الأول من أهل بيعة الرضوان وما تلاها من مشاهد ، وهو صاحب القصة الطريفة حين جاء يستعين رسول الله ﷺ فى مهر زوجته . يقول رضي الله عنه :

تزوجت ابنة سراقة بن حارثة النجارى وكان قتل ببدر ، فلم أصب شيئًا من الدنيا كان أحب إلىَّ منها من مكانها ، فأصدقتها مائتى درهم ، فلم أجد شيئًا أسوقه إليها ، فقلت : على الله وعلى رسوله المعوَّل ، فجئت النبى ﷺ فأخبرته فقال : « كم سقت إليها »، قلت : مائتى درهم . فقال : « لو كنتم تغترفونه من ناحية بطحان[1] ما زدتم ». فقلت : يا رسول الله ، أعنى فى صداقها ، فقال رسول الله ﷺ : « ما وافقتُ عندنا شيئًا أعينك به ، ولكنى قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة فى أربعة عشر رجلاً فى سرية ، فهل لك أن تخرج فيها ، فإنى أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك . . . . » .

ويحدثنا رضي الله عنه عن جولته فى جهاده هذا بقوله :

فجرَّد أبو قتادة سيفه ، وجرَّدنا سيوفنا ، وكبَّر وكبَّرنا معه ، فشددنا على الحاضر ، فقاتل رجال ، وإذا برجل طويل قد جرَّد سيفه صلتًا ، وهو يمشى القهقرى ويقول : يا مسلم ، هلمَّ إلى الجنة فاتبعته ثم قال : إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر ، وهو يقول : الجنة ! الجنة ! يتهكم بنا ، فعرفت أنه مستقتل ، فخرجت فى أثره ، فأدركته فرميته على جريداء متنه [2] ، ثم قال : ادن يا مسلم إلى الجنة، فرميته حتى قتلته بنبلى ، ثم وقع ميتًا فأخذت سيفه . . . ولما رجعت من غزوة خضرة وقد أصبنا فيئًا ،

---

(١) بطحان : اسم وادٍ بالمدينة .

(٢) جريداء متنه : أىّ وسطه وهو موطن القفا المتجرد من اللحم .

سهم كل رجل منا اثنا عشر بعيرًا دخلت بزوجتى ، فرزقنى الله خيرًا)[١] .

وذكر له رسول الله ﷺ تلك البطولة النادرة فى قتل كبش كتيبة العدو ، فأرسله فى هذه المهمة وهى تحتاج إلى شجاعة من جهة ، ولباقة وذكاء من جهة أخرى ، وقال له :

« انطلق فادخل فى الناس حتى تأتى بخبر منهم ، وما يقول مالك » .

فهو لم يذهب مقاتلاً ، إنما ذهب مستخبرًا ، ونجاح مهمته الحقيقى أن يأتى بخبر القوم ، وقد رأينا من قبل كيف انكشف عين هوازن حين لم يحسن التصرف ، ولم يحسن الانتماء لغفار ، واضطر أن يفضح مهمته حفاظًا على حياته من القتل ، وابن أبى حدرد قد ينتهى إلى النتيجة نفسها لو وقع فى الارتباك الذى وقع فيه جاسوس هوازن ، فماذا كانت نتيجة مهمته ؟

فخرج عبد الله فطاف فى عسكرهم ، ثم انتهى إلى ابن عوف فيجد عنده رؤساء هوازن ، فسمعه يقول لأصحابه : إن محمدًا لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب فينصر عليهم ، فإذا كان فى السحر ، فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم صفوا صفوفكم ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن ، واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً .

فلما وعى ذلك عبد الله بن أبى حدرد رجع إلى النبى ﷺ فأخبر بكل ما سمع ، لقد نجحت مهمة ابن أبى حدرد أعظم نجاح ، فجاء بخبر القوم كاملاً ، وجاء بنسخة كاملة عن خطة العدو وكأنما هى مصورة من ملفاته ، وحضر اجتماع تقرير خطة المواجهة ونقلها إلى رسول الله ﷺ .

فنحن إذن أمام جيشين : جيش هوازن ، وجهله مطبق تمامًا عن عدوه ؛ لفشل مهمة استخباراته والقبض عليها حتى تحول إلى جندى إسلامى ، وبين جيش إسلامى نبوى، يعرف كل شىء عن عدوه ، ويعرف خطته كاملة فى المواجهة . وأول أسباب النصر معرفة العدو على حقيقته ، وهذا درس للدعاة والحركات الإسلامية اليوم عليها أن تعيه وتستوعبه ، فكثيرًا ما وقعت المحن الرهيبة فى الإسلاميين نتيجة جهلهم المطبق بإمكانات عدوهم وخططه ومدى قوته، وأحيانًا يستدرج عدو الإسلاميين العاملين للإسلام ويستفزهم متظاهرًا بالضعف ليهاجم الإسلاميين ، فينزل بهم بأسه وسطوته .

ولعل ما نزل بالعاملين للإسلام فى كثير من الأقطار من البلاء والمحنة دليل على

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٧٧٨ ـ ٧٨٠ مقتطفات .

ذلك ، وحين يأتى الإسلاميون لتقويم الأمر يقومونه خطأ كذلك ، ولا يعيدون شيئًا من التقصير عليهم .

ولهم برسول الله ﷺ الأسوة الحسنة ، كما شهدنا فى مستهل هذه الغزوة .

وأمام هذه المعلومات الخطيرة استدعى رسول الله ﷺ أكبر أركان حربه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأدلى له بالمعلومات التى وصلته من ابن أبى حدرد ، وفوجئ عمر بهذا الكلام الخطير عن قوة العدو وخطته فلم يتمالك أن قال : كذب ابن أبى حدرد ، فقال ابن أبى حدرد : لئن كذبتنى لربما كذّبت بالحق .

وكادت القضية الجانبية تطغى على الموقف ، لكن أدب عمر رضي الله عنه أنهاها حين قال لقائده : يا رسول الله ، اسمع ما يقول ابن أبى حدرد .

قال : « صدق ، كنت ضالاً ، فهداك الله » .

وأطفئت الفتنة ، وبقيت هذه المعلومات هى التى يتم بناء الموقف الإسلامى عليها .

وجاء ما يؤكد هذه المعلومات من طرف آخر ، حيث قام بمهمة الاستخبارات جندى مسلم آخر لا نعرف اسمه ، لكنه أدلى بمعلوماته على الملأ .

قالوا : وكان سهل ابن الحنظلية الأنصارى يقول : سرنا مع النبى ﷺ فى غزوة هوازن، فأسرع السير حتى أتاه رجل فقال : يا رسول الله ، قد تقطعوا من ورائك ، فنزل ، فصلى العصر وأوى إليه الناس ، فأمرهم فنزلوا ، فجاء فارس فقال : يا رسول الله ، إنى انطلقت من بين أيديكم على جبل كذا وكذا فإذا بهوازن على بكرة أبيها بظعنها ونسائها ونعمها فى وادى حنين .

واختلفت صورة العرض بين الجنديين ، فقد قدَّم ابن أبى حدرد رضي الله عنه معلوماته لقائده مباشرة دون أن يكون معه أحد ـ وهذا هو الأصل ـ ومن أجل هذا استدعى رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه بصفته المستشار العسكرى الأول ؛ ليبثه هذه المعلومات ، ويتم الموقف المناسب على ضوئها ، ولم يعتبر النيل منه والذى تم على لسان ابن أبى حدرد ذا شأن ، فذكَّره بجاهليته وتابع بعدها بحث الخطة المناسبة مع عمر رضي الله عنه لمواجهة خطة هوازن ، ولا ندرى فقد يكون الإسراع فى السير جزءًا من الخطة لاحتلال موقع معين قبل أن تحتله هوازن ، وعندما لم يتمكن الجيش أن يتابع هذا السير الجاد توقف رسول الله ﷺ لصلاة العصر حتى يصل بقية الجيش ويتكامل .

وحدث فى هذه الأثناء ، وأمام جمع غفير من الصحب والجنود قدَّم هذا الفارس المسلم تقريره عن قوة هوازن وخروجها عن بكرة أبيها لمواجهة محمد رسول الله ﷺ .

والقائد البصير يدرك خطورة هذا الكلام على نفسية جنده حين يسمعون عن الأعداد الهائلة التى سيواجهونها ، فكيف إذا كان سيد الخلق ، وقائد القادة ـ عليه الصلاة والسلام ـ والقوة المعنوية هى أكبر زاد يملكه المسلمون فى حروبهم .

فابتسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله » .

فهو يبث فى جنوده روح العزيمة والثقة بالنصر والقضاء على العدو .

هذا جانب من القضية ، لكن لا يجوز أن يتم هذا على حساب الإعداد والاستعداد للمواجهة ، وكما قلنا : فقد يكون جزء من الخطة الإسراع فى السير ـ لكن الجانب الذى برز أنه فعلاً تخطيط احتياطى مكافئ ـ هو البحث فى المواقع الأخرى القريبة لهوازن إن كان لهم كمين أو مدد ، فهو لا يكتفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن يواجه جيشًا بهذه الضخامة ، وتتجه قناعته إلى أن العدو هو الذى يواجهه فقط، إنما القائد البصير هو الذى يضع فى حسبانه كل الاحتمالات ، فلو تقدم إلى الأمام للمواجهة قد ينقض عليه فريق من العدو من خلفه فيصبح بين فكى كماشة ، وتباد قوته . ومن أجل ذلك اتجه رسول الله ﷺ إلى البحث فى المواقع الخلفية والمجاورة عن وجود قوات احتياطية للعدو .

(ثم قال رسول الله ﷺ : « ألا فارس يحرسنا الليلة ؟ » إذ أقبل أنيس بن أبى مرثد الغنوى على فرسه . فقال : أنا ذا يا رسول الله ، فقال :

« انطلق حتى تقف على جبل كذا وكذا ، فلا تنزلن إلا مصليًا أو قاضى حاجة ، ولا نُغَرَّن من خلفك » ، قال : وبتنا حتى أضاء الفجر ، وحضرنا الصلاة ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « أأحسستم فارسكم الليلة ؟ » قلنا : لا والله ، فأقيمت الصلاة فصلى بنا ، فلما سلم رأيت رسول الله ﷺ ينظر خلال الشجر . فقال : « أبشروا ، قد جاء فارسكم . . . ») .

الأمور تتابع ، وبعد صلاة العصر يأتى خبر الفارس الذى جاء بأخبار هوازن، ويقدم الليل فيخشى رسول الله ﷺ أن يؤتى من خلفه أو من المواقع المجاورة فقال ﷺ : « ألا فارس يحرسنا الليلة ؟ » ، إنها دعوة لاستكشاف الطاقات الفدائية ، وحيث لم يأت جواب كان أنيس بن أبى مرثد الغنوى الفارس قد قدم رضي الله عنه ، وأعلن استعداده أن يكون ذلك الحارس .

ولأول مرة يمر معنا هذا الاسم ، أما اسم أخيه مرثد بن أبى مرثد فقد كان معنا منذ فجر الدعوة ، لقد كان من الرعيل الأول فى بدر ، وكان من السابقين الأولين من المهاجرين ، وكان أبوه أبو مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب ، وتذكر بعض الروايات أن

مرثدًا ورسول الله ﷺ كانا يعتقبان على بعير واحد فى بدر من بين ثلاثة شاركوا فى هذا الركوب ، أما أخوه أنيس فلم نسمع به حتى الساعة ، ونبحث عنه فى كتب التراجم فتفيدنا هذه التراجم عن روايته لحديث واحد فقط دون استعراض لتاريخ حياته ، ومع ذلك لو لم يكن له إلا هذه الحادثة لكفته بشهادة رسول الله ﷺ .

ورسول الله ﷺ يرعى فارسه بقلبه ويقلق عليه عند تأخره مع انبلاج الفجر ، ويشغل المسلمين به : « أحسستم فارسكم الليلة ؟ » قلنا : لا يا رسول الله ، وما أن يسلم من صلاته حتى يتابع تلفته ـ صلوات الله عليه ـ يبحث عن الفارس الحارس ، الذى لم تكن حراسته أمتارًا بجوار الجيش إنما كانت حراسته فى الجبال المجاورة ، وهو على ظهر فرسه ، وربط الجيش كله بمقدم الفارس ، ثم قال :

« أبشروا قد جاءكم فارسكم » .

فمن المحتمل أن يكون العدو قد انقض عليه وقتله لو رآه فى هذه الأمكنة أو كان له وجود فيها ، فاستحق المسلمون البشارة بقدوم الحارس الفارس ، الذى تقدم فقال :

(يا رسول الله ، إنى وقفت على الجبل كما أمرتنى فلم أنزل عن فرسى إلا مصليًا أو قاضى حاجة حتى أصبحت) . فقد أمضى ليله كله على متن فرسه وهو يجوب فى هذه الجبال فى ظلام الليل ، قال رسول الله ﷺ : « انطلق وانزل عن فرسك » .

وجلس رسول الله ﷺ إلى جيشه ليستثمر هذه الحراسة ، ويضع القدوة العظيمة ، بين يديهم ، ويشير لهذا الجهد العظيم الذى قدمه حارسه ، فقال للجيش وهو يتحدث عن حارسه وفارسه :

« ما على هذا ألا يعمل بعد هذا عملاً » .

نعم ولو لم يكن له إلا هذا العمل لكفاه .

وتركت هذه الكلمة لتعمل وتأخذ مداها فى قلوب ومشاعر هذا الجيش النبوى الفتى، فيتعلم ويتدرب أصول الفروسية وأصول الانضباط ، وأصول الطاعة ، وأصول التنفيذ ، وأصول الجندية ويسمع بثمرة هذه الطاعة إلى أين تقود صاحبها بهذا الاتجاه .

« ما على هذا ألا يعمل بعد هذا عملاً » .

هذا هو جانب التربية فى القدوة والثناء عليها ، ويطالعنا من جانب آخر التربية بالمعجزة الربانية والتى أدت إلى بث الرعب فى قلوب جواسيس العدو .

لقد أعطى رسول الله ﷺ خمسًا لم يعطهن أحد قبله ، ومن هذه الخمس :

« ونصرت بالرعب مسيرة شهر »[1] .

وهذا الرعب الذى نزل بالجواسيس نشهده كما ذكر البيهقى وأبو نعيم والواقدى والرواية للواقدى :

(وانتهى رسول الله ﷺ إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ خلون من شوال ، وبعث مالك بن عوف رجالاً ينظرون إلى محمد وأصحابه ـ ثلاثة نفر ـ وأمرهم أن يتفرقوا فى العسكر ، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم . فقال : ما شأنكم ويلكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضًا على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، وقالوا له: ما نقاتل أهل الأرض إن نقاتل أهل السموات ، وإن أفئدة عيونه ـ تخفق . وإن أطعتنا رجعت بقومك ، فإن الناس إن رأوا مثل ما رأينا أصابهم مثل الذى أصابنا . قال: أفٍ لكم . بل أنتم قوم أجبن أهل العسكر . فحبسهم عنده ، فرقًا أن يشيع ذلك الرعب فى العسكر) .

وهذه التربية للعدو ، فالمؤمنون لم يروا ما رأى هؤلاء الجواسيس ، ولم يتمكنوا من التعرف على جيش محمد ﷺ ، إنما رأوا ملائكة يملؤون ما بين السماء والأرض ، ولأجل هذا قالوا لمالك قائدهم : ما نقاتل إلا أهل السموات ، ولو كان مالك بن عوف متنازلاً عن غطرسته واندفاعه لفكَّر مليًا بهذا الأمر ، وجنب قومه هذه الكارثة ، لكنه ماض فى اندفاعه وجاهليته ، ولهذا راح يصم هذا الوفد الثلاثة بأنهم أجبن أهل العسكر ، ولا غرو فأفئدتهم تخفق بين يديه ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى نصح فيها مالك بعدم المواجهة ، فقد نصحه دريد بن الصمة من قبل ألا يواجه محمدًا ؛ لأنه قد هزم العرب قاطبة وهزم اليهود فى خيبر ، فلم يرعوا لندائه ، ومع هذا فمالك يود أن يتعرف على أوضاع جيش محمد ﷺ ، فسأل عن أشجع أهل العسكر فدلوه عليه ، فأجمعوا على رجل فخرج ، ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم ، فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت رجالاً بيضًا على خيل بلق ، ما يطاق النظر إليهم ، فوالله ما تماسكت أن أصابنى ما ترى ، فلم يثنه ذلك عن وجهه .

إنه وهو يرى حوله عشرين ألفًا من قومه لا يمكن أن يرعوى أو ينثنى ، رغم ما رأى من الآيات الباهرات ، ولاشك أن هذا الكلام قد سرى فى صفوف الجيش وبث الرعب فيه ، وما كان يصل إلى مسامع هذا الجيش من انتصارات سابقات جعله يقدم على المعركة مهزوز النفس ، متردد الخطوات . إضافة إلى الجهالة الكاملة عن جيش محمد الذى

---

(١) من حديث صحيح رواه البخارى ومسلم ، وهو عند مسلم ١/ ٣٧٠ ح (٣/ ٥٢١) .

انضمت إليه هذه الرجال البيض والخيل البلق .

فنحن أمام جيشين ، نعود ثانية لنعرض نفسيات جنودهما ، فالمسلمون المؤمنون الواثقون بموعود الله سمعوا بكتائب هوازن مثل الجبال ومعها نعمها ونساؤها وظعنها ، لكنهم سمعوا موعود الله تعالى لهم بلسان رسول الله ﷺ : « تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله » .

وذاك جيش هوازن وقد سمع عن جيش محمد من الرجال البيض والخيل البلق ، وكيف أقسم العيون الذين رأوه أنهم إنما يقاتلون أهل السموات لا أهل الأرض ، قال هذا الوفد الأول ، وقاله أشجع أهل العسكر ، لكن إصرار مالك على المواجهة كوَّن نوعًا من الإرهاب النفسى عن الجيش من أن يقوم فى داخلة تمرد أو عصيان ، ويشاء قدر الله أن تقع المواجهة .

ولعلنا كذلك أمام محاولة أخيرة من تخطيط مالك بن عوف النصرى ، هذه المحاولة هى التخطيط لاغتيال محمد ﷺ ، وبذلك يربح المعركة قبل وقوعها، وقد شهد المسلمون آثار هذه المحاولة دون أن يشهدوا التخطيط لها كما ذكر لنا أبو بردة بن نيار رضي الله عنه، وكانت هذه المحاولة قريب الوصول إلى أوطاس ـ ساحة المعركة .

قال أبو بردة بن نيار : لما كنا دون أوطاس تحت شجرة ، ونظرنا إلى شجرة عظيمة ، فنزل رسول الله ﷺ تحتها ، وعلّق بها سيفه وقوسه ، قال : وكنت من أقرب أصحابه إليه ، قال : فما أفزعنى إلا صوته : « يا أبا بردة » ، فقلت : لبيك ، فأقبلت سريعًا فإذا رسول الله ﷺ جالس وعنده رجل جالس ، فقال رسول الله ﷺ :

« إن هذا الرجل جاء وأنا نائم ، فسلَّ سيفى ثم قام به على رأسى ففزعت به وهو يقول : يا محمد من يؤمنك منى اليوم ؟ قلت : الله » . قال أبو بردة : فوثبت إلى سيفى فسللته . فقال رسول الله ﷺ : « شِمَّ سيفك » . قال : قلت : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق عدو الله ، فإن هذا من عيون المشركين . فقال لى : « اسكت يا أبا بردة » . فما قال له رسول الله ﷺ شيئًا ولا عاقبه ، فجعلت أصيح به فى العسكر ليشهده الناس فيقتله قاتل بغير أمر رسول الله ﷺ ، وأما أنا فقد كفنى رسول الله ﷺ عن قتله ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « اله عن الرجل يا أبا بردة » . قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا بردة ، إن الله مانعى وحافظى حتى يظهر دينه على الدين كله » .

إنها المعجزة الثالثة ، والبريد الثالث إلى مالك بن عوف النصرى قائد جيش هوازن ، فقد حمى الله تعالى محمدًا من القتل بعد أن أصبح بيد الفاتك ذلك ، ومنع رسول الله

ﷺ صحبه أن يقتلوه ، ومنع أبا بردة أن يقتله حتى يعود إلى مالك بن عوف وإلى جيش هوازن فيحدثها بالمعجزة التى شهدها ، وكيف خارت قواه والسيف بيده . وكيف انهارت عزيمته ، وهو بيده السيف الذى يقط به عنق محمد ، وكيف رأى الموت بين عينيه بعد سقوط سيف محمد من يده ، واستدعاء أبى بردة ، ثم عادت له روحه يوم كف محمد ﷺ أبا بردة عن قتله ، وكيف عاد الموت يتراقص بين عينيه يوم راح أبو بردة يصرخ بالمسلمين ليقتلوه قبل أن يصلهم نهى رسول الله ﷺ عن قتله ، ثم غاض صوت أبى بردة ومضى متسللاً بين الصفوف ، وفر عائدًا إلى قومه .

إن رسول الله ﷺ يريد أن يجنب هوازن معركة مدمرة ، ويريد أن يجنب المسلمين كذلك معركة مدمرة ، ويود أن تهيأ القلوب للاستماع إلى الإسلام ، وأن تستسلم هوازن كما استسلمت مكة ، لكن مالك بن عوف كان كقيادات مكة التى أصرت على الحرب . كان مثل : صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، قد غشى على قلوبهم ، واشتعلت حمية الجاهلية فى نفوسهم دون إدراك للعواقب المترتبة على المواجهة، فالتربية عند رسول الله ﷺ هى المبدأ ، وهو يريد أن يتحدث أبو بردة بن نيار بما سمع ، فيشهد المسلمون معجزة نبوية لم يسبق لهم أن شهدوها من قبل ، فقرابة ثلثى الجيش يخوض المعركة لأول مرة مع رسول الله ﷺ ، وقد سمع بالمعجزات النبوية ، لكنه لم يرها من قبل ، وهو ينظر إلى أنه يخوض معركة من معارك العرب والإسلام تنتهى بهزيمة هوازن ، وأخذها مع ظعنها ونسائها ونعمها غنائم توزع على المقاتلين ، أما رسول الله ﷺ فيريد أن تسلم هوازن ، وتستسلم دون قتال ، فكانت المعجزات تترى لتصل تباعًا إلى قيادة جيش هوازن لكن دون جدوى ، فالمعركة مفروضة لا خيار فيها .

والدليل على أن أكثر من ثلثى الجيش لا يزال يتطلع إلى الغنائم أكثر من تطلعه إلى انتصار العقيدة : هو النكسة الأولى التى أصابت الجيش وهو فى طريقه إلى المعركة مع هوازن ، والتى رواها لنا أبو قتادة الحارث بن مالك إذ قال فيما رواه الترمذى وصححه ، والنسائى وابن أبى حاتم :

(خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حديثو عهد بجاهلية ، فسرنا معه إلى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم شجرة عظيمة يقال لها : ذات أنواط يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يومًا ، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق ، يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر. قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ اجْعَل

لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) ﴾ [الأعراف] ، إنها لسنن لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة »، وفى رواية: « حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا: يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » .

إن تاريخ اليهود والنصارى ماثل فى أذهان المسلمين ، ورسول الله ﷺ يعيش هذا التاريخ بقلبه وعقله ، ويخشى على أمته أن تأتيها سنة الهلاك كما أتت الأمم من قبلهم ، ويربى المؤمنين على أن يستحضروا دائمًا وأبدًا هذا التاريخ ، فنقاط الانعطاف فى التاريخ خطيرة تقود الأمة من موقف الاستخلاف إلى موقف الاستبدال فى بعض الأحيان ، ومن خلال السيرة النبوية نجد هذه المحطة هى المحطة الثالثة التى يربط فيها أمته بتاريخ بنى إسرائيل يهود أو نصارى .

لقد كانت المحطة الأولى فى بدر حين بدا فى الأفق بعض التثاقل عن الجهاد والخوف من مواجهة العدو :

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) ﴾ [الأنفال] .

وبمثل هذه الروح هى التى حرمت بنى إسرائيل النصر أربعين عامًا يتيهون فى الأرض.

ومن أجل هذا قال المقداد بن الأسود رضي الله عنه ـ الذى كان يحمل روح الحياة والجهاد والتضحية باسم إخوانه المهاجرين :

والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وقال سعد بن معاذ باسم إخوانه الأنصار :

يا رسول الله ، قد بايعناك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، فامض لما أراك الله فنحن معك ، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، فسر بنا على بركة الله ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

ونجح جيل بدر فى الاختبار ، وكان خيرة هذه الأمة .

وكانت المحطة الثانية فى الحديبية يوم أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يجوزوا العقبة الصعبة ، وجازوها ولم يتخلف أحد ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام :

« والذى نفسى بيده ما مثل هذه الثنية الليلة إلا مثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ » [البقرة : ٥٨] ، وفى رواية عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله وادخلوا الباب سجدًا ـ قال : باب بيت المقدس ـ فدخلوا من قبل استاههم وقالوا : حبة فى شعيرة » .

وفى الوقت الذى رسب فيه بنو إسرائيل ، فلم ينجح أحد ، وقال موسى ـ عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [المائدة] .

فى الوقت الذى سقطت بنو إسرائيل فى الامتحان ، فاز المسلمون جميعًا ، وجازوا العقبة ولم يتخلف أحد، وقال رسول الله ﷺ: « لا يجوز هذه الثنية أحد إلا غفر له ».

وغدا جيل الحديبية وأصحاب بيعة الرضوان هم خيرة الأمة بعد جيل بدر ، وشكلوا معه القيادة العليا للأمة .

وكانت هذه المحطة الثالثة ؛ حيث انضم إلى الجيش الإسلامى أخلاط جديدة ، وكان بنو بكر ممن انضموا إلى الإسلام ، وبعد أن كانت غزوة مكة بسببهم حين نقضوا العهد وانقضوا ليلاً على خزاعة وبيتوها بالهجير ، وقتلوها ركعًا وسجدًا ، وكان فريق من بنى بكر قد انضم إلى الجيش الإسلامى الفاتح لمكة ، وعندما رآهم أبو سفيان قال : هؤلاء الذين غزانا محمد بسببهم ، وانضم فريق آخر منهم إلى الجيش الإسلامى بعد فتح مكة مع دخول الناس أفواجًا فى الإسلام ، وأبو واقد الليثى ﷺ من بنى بكر ، فليث بطن من بطونهم يحدثنا عن قصة ذات أنواط التى كان يقدسها الناس فى الجاهلية ، وخاصة قريش ، وعندما رأى هؤلاء المنضمون للإسلام حديثًا هذه الشجرة العظيمة قالوا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

وحراسة النبى ﷺ لعقيدة هذه الأمة تجعله كما قال عن نفسه كالذى أشعل نارًا فجعلت الحشرات والهوام تهوى إليها ، « فأنا آخذ بحجزكم عن النار : هلم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبونى فتقتحمون فيها » (١) .

فقد آلمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يوجد فى هذه الأمة من يعيد سيرة بنى إسرائيل

---

(١) أحمد والبخارى ومسلم وهو عند مسلم ٤/ ١٧٨٩ ح (١٨/ ٢٢٨٤) .

فى طلب ذات أنواط جديدة مثل ما قالت بنو إسرائيل لموسى ولم تجف أقدامهم من البحر : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف] ، فهذه المحطة الثالثة إذن قد رسب فيها بعض المسلمين ممن هو حديث عهد بهذا الدين كما قال أبو واقد رضي الله عنه : (وكنا حديثى عهد بجاهلية ـ أو ـ حديثو عهد بالجاهلية) . وليس صوتًا من واحد إنما أصوات متعددة (فتنادينا من جنبات الطريق) ولذلك اعتبرها رسول الله ﷺ ظاهرة خطيرة ، وليست مخالفة فردية ، وأشار إلى أنها الخطى فى الانحراف حذو الخطى عند اليهود والنصارى ، ولكن الفرق بين الظاهرتين : أن بنى إسرائيل كان أغلبهم ـ إن لم نقل : كلهم ـ قد طلب ذلك من موسى ، أما هذا الجيل الجديد فبقى يمثل مجموعة ضئيلة من الجيش ، لكن مع مرور الزمن قد تكبر هذه المجموعة وتصبح أغلبية ، وتمضى فى جحر الضب الذى مضى فيه من كان قبلهم ، وعندئذ تكون الطامة . أما الآن فهى ظاهرة محدودة ، ومرتبطة بالذين لم يدخلوا بعد معمل الإيمان وينصهروا فى بوتقته ، أما العدد الأكبر فقد ثبت الإيمان فى قلبه ، وخلص من أوضار الجاهلية ، أو فى طريقه إلى الخلاص منها شيئًا فشيئًا .

هذا وقد جاء الحديث فى الصحيحين منفصلا عن هذه الحادثة . ونصه كما فى رواية مسلم :

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لتتبعن سَنَن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا فى جحر ضب لاتبعتموهم » ! قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » (١) .

وشارح صحيح مسلم الذى اعتمد شرح النووى ـ رحمه الله ـ يقول :

(سنن : السنن هو الطريق ، والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب : التمثيل بشدة الموافقة لهم ، والمراد الموافقة بالمعاصى والمخالفات ، لا فى الكفر) (٢) .

ويؤكد هذا المعنى ما ورد فى الحديث الصحيح كذلك، عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول :

« إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم » (٣) .

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٥٤ ح (٦/ ٢٦٦٩) . (٢) المصدر السابق ٤/ ٢٠٥٤

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢١٦٦ ح (٦٥/ ٢٨١٢) .

فقد قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وعبدوا غير الله ، وغضب الله عليهم وأضلهم، أما هذه الأمة فقد حفظها الله تعالى بحفظ كتابها الخالد إلى يوم القيامة، فلن تضل ما تمسكت به وبسنة رسول الله ﷺ . وهو محفوظ بحفظ الله تعالى ، وليس بحفظ البشر له : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⑨ ﴾ [الحجر] .

ومع ذلك فما أحوجنا إلى أن نكون على أعلى درجات الوعى واليقظة والحذر من النابحين على الطريق ليضلوا الأمة وينتكسوا بها فى جحر ضب اليهود والنصارى ، فلابد أن تبقى الطائفة الظاهرة على الحق على مدار التاريخ لا يضرها من خالفها أو خذلها حتى يأتى أمر الله ، وتقوم الساعة .

فقد يزل المؤمنون ، وقد يوغلون فى المعاصى ، ولكنهم أبدًا لن يدخلوا فى التيه إلى غير عودة ، إنما المنارة قائمة ، والدليل بين : « ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدًا : كتاب الله وسنتى » ، وهذا من فضل الله على هذه الأمة . وفيما نحن بصدد الحديث عن حديثى العهد بالجاهلية ، يطالعنا عباس بن مرداس السلمى بشعره الذى يتحدث فيه عن الجيش النبوى ، وعن الرسالة التى بعثها إلى بنى عمه هوازن إذ قال :

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها ... منى رسالة نصح فيه تبيان
إنى أظن رسول الله صابحكم ... جيشًا له فى فضاء الأرض أركان
فيهم أخوكم سُليم غير تارككم ... والمسلمون عباد الله غسان
وفى عضادته اليمنى بنو أسد ... والأجربان بنو عبس وذُبيان
تكاد ترجُفُ منه الأرض ترهبه ... وفى مقدمه أوس وعثمان

وعباس بن مرداس يتحدث من مركز القوة ، فمقدمة جيش المسلمين هى خيل سُليم وهى تسعمائة فرس ، وعليها تسعمائة فارس وهى أكثر من نصف خيالة المسلمين كلها ، فلا عجب أن يهدد بسُليم قبيلته التى هى أخت هوازن على رأس الجيش الإسلامى ، وبجوارها الأنصار الذين ينتمون إلى دوحة غسان العربية . وهو انتماء قبلى جاهلى مقبول فى إطار الشعر والدعوة ، أما العضادتان للجيش فهو يعلم أن لا وجود لهم يذكر فى صف الجيش الإسلامى ؛ إذ إن الحليفين ـ أسد وغطفان ـ هما اللذان يعرضهما على أنهما عضادتان هذا الجيش ، ولم يشترك من غطفان إلا عيينة بن حصن ومعه أفراد من عبس وذبيان ، وقد توتر الجو بينه وبين عيينة بن حصن حين أراد عيينة أن يفخر على سليم بقومه أنهم أحلاس الخيل، ورجال الحرب، ورعاة الحدق، فقال له عباس شاعرنا:

اقصر أيها الرجل ، والله إنك لتعلم لنحن أفرس على متون الخيل ، وأطعن بالقنا ، وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك ، فقال عيينة : كذبت ولؤمت لنحن أولى بما ذكرت منك ، قد عرفته لنا العرب قاطبة . فأومأ إليهما النبى ﷺ بيده حتى سكتا .

فلا تزال الروح الجاهلية تتمثل فى نفس عباس بن مرداس يوم أضاف إلى الجيش الإسلامى بنو أسد وبنو عبس وذبيان . ولا وجود لهما فى الجيش تحت اسم قبائلهما ، إنما هناك أفراد من القبيلتين ضمن كتيبة المهاجرين . (فقد كان عيينة فى أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهًا ، وقد تجمعت العرب إليه فخرج في نفر من قومه حتى قدم المدينة . . . فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عضَّ على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومى ألا يكونوا نفروا مع محمد) (١) .

ولابد أن نضع فى ذهننا هذه الصورة للجيش ، لننتقل بها إلى ساحة المعركة ، وقد شهدنا تفاوت مستوياته من الحد الأعلى من المهاجرين والأنصار إلى الحد الأدنى ممن جاء يبغى الشهرة والغنائم أمثال عيينة والأقرع ، والذين قال فيهم رسول الله ﷺ حين قارن بينهم وبين جعيل بن سراقة : قائلاً : « لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل الأقرع وعيينة » (٢) .

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٨٠٣ ، ٨٠٤ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ١/ ٢٥٠ ت (١١٦٧) وقال فيه ابن حجر : « هذا مرسل حسن لكن له شاهد موصول » .

الجولة الأولى من المعركة

إعجاب المسلمين بكثرتهم :

روى يونس بن بكير فى زيادات المغازى عن الربيع بن أنس قال : قال رجل يوم حنين : لن نغلب من قلة ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، وكانت الهزيمة .

وروى ابن المنذر عن الحسن قال : لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا : الآن نقاتل حين اجتمعنا ، فكره رسول الله ﷺ ما قالوا مما أعجبهم من كثرتهم ، فالتقوا فهزموا حتى ما يقوم أحد على أحد .

وروى أبو الشيخ والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه والبزار عن أنس رضي الله عنه قال :

لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم : اليوم والله نقاتل ، ولفظ البزار : فقال غلام من الأنصار يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة ، فما هو إلا أن لقينا عدونا فانهزم القوم ، وولوا مدبرين .

وروى محمد بن عمر عن الزهرى قال : قال رجل من أصحاب النبى ﷺ : لو لقينا بنى شيبان ما بالينا ، ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة . قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل مكة : أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ، ورأى كثرة من معه من جنود الله تعالى : « لن نغلب اليوم من قلة » كذا فى هذه الرواية ، والصحيح أن قائل ذلك غير النبى ﷺ كما سبق .

وقال ابن إسحاق : وزعم بعض الناس أن رجلاً من بكر قالها ، وروى محمد بن عمر عن سعيد بن المسيب أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، لن نغلب اليوم من قلة، كذا فى هذه الرواية ، وبذلك جزم ابن عبد البر .

المواجهة الأولى :

قال ابن سعد : أشهد رسول الله ﷺ إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ خلون من شوال .

روى ابن إسحاق والإمام أحمد وابن حبان عن جابر بن عبد الله . . . وأبو يعلى ، ومحمد بن عمر عن أنس بن مالك رضي الله عنه : لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد أجوف خطوط له مضايق وشعاب ، وإنما ننحدر فيه انحداراً ، وفى عماية الصبح ، وقد

كان القوم سبقونا إلى الوادى ، فمكثوا فى شعابه وأجنابه ومضايقه وتهيؤوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وكانوا رماة . قال أنس ﷺ : استقبلنا من هوازن شىء ، لا والله ما رأيت مثله فى ذلك الزمان قط من كثرة السواد ، قد ساقوا أبناءهم ونساءهم وأموالهم ثم صفوا صفوفًا ، فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ، ثم جاؤوا بالإبل والبقر والغنم ، فجعلوها وراء ذلك لئلا يفروا بزعمهم ، فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلهم . فلما انحدرنا فى الوادى ، فبينا نحن فى غبش الصبح ، إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادى ، فحملوا حملة رجل واحد ، فانكشفت أوائل الخيل ـ خيل بنى سليم ـ مولية ، وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شىء ، وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه .

وقال جابر : وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال : « أيها الناس ، هلم إلىَّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » قال : فلا شىء ، وحملت الإبل بعضها على بعض .

وذكر كثير من أهل المغازى : أن المسلمين لما نزلوا وادى حنين تقدمهم كثير ممن لا خبرة لهم بالحرب، وغالبهم من شبان أهل مكة ، فخرجت عليهم الكتائب من كل جهة، فحملوا حملة رجل واحد، والمسلمون غارون ، وفرَّ من فر ، وبلغ أقصى هزيمتهم مكة، ثم كروا بعد .

وفى الصحيح عن البراء بن عازب ﷺ : عجل سرعان القوم ، وفى لفظ : شبان أصحاب رسول الله ﷺ ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح ، فإنما لما حملنا على المشركين انكشفوا ، فأقبل الناس على الغنائم ، وكانت هوازن رماة ، فاستقبلتنا بالسهام كأنما رجل جراد ، لا يكاد يسقط لهم سهم [١] .

وفى رواية مسلم : ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حُسرًا ليس عليهم سلاح، أو كثير سلاح ، فلقوا قومًا رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، جمع هوازن وبنى نصر ، فرشقوهم رشقًا ما يكادون يخطئون ، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ [٢] .

قال ابن إسحاق : لما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال بما فى أنفسهم من الضغن . . . وصرخ كلدة بن الحنبل ـ قال ابن هشام : كلدة ـ وأسلم بعد ذلك وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية ـ وصفوان مشرك

(١ ، ٢) مسلم ٣/ ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ح (٧٨ ـ ٨٠ / ١٧٧٦) .

فى المدة التى جعل له رسول الله ﷺ .

ألا بطل السحر اليوم ؟ فقال له صفوان : اسكت فضَّ الله فاك ، والله أن يُربّنى رجل من قريش أحب إلىّ من أن يُربّنى رجل من هوازن) (١) .

وروى محمد بن عمر عن أبى بشير المازنى قال : لما كان يوم حنين صلينا الصبح ، ثم رجعنا على تعبئة رسول الله ﷺ فما شعرنا ـ وقد كاد حاجب الشمس أن يطلع وقد طلع ـ إلا بمقدمتنا قد كرت علينا قد انهزموا ، فاختلطت صفوفنا ، وانهزمنا مع المقدمة ، وأكر يومئذ وأنا غلام شاب ، وقد علمت أن رسول الله ﷺ متقدم ، فجعلت أقول : يا للأنصار ! بأبى وأمى عن رسول الله ﷺ تولون ، وأكرُّ فى وجوه المنهزمين ليس لى همة إلا النظر إلى سلامة رسول الله ﷺ حتى صرت إليه وهو يصيح : « يا للأنصار ! » ، فدنوت من دابته ، والتفت من ورائها وإذا الأنصار قد كروا كرة رجل واحد ، ورسول الله ﷺ واقف على دابته فى وجه العدو .

قال ابن عقبة :

(ومر رجل من قريش على صفوان بن أمية فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجتبرونها أبدًا . فقال له صفوان : أتبشرنى بظهور الأعراب ، فوالله لرب من قريش أحب إلىّ من ربٍ من الأعراب .

زاد عروة : وغضب صفوان لحسبه .

قال موسى : وبعث صفوان بن أمية غلامًا له ، فقال : اسمع لمن الشعار . فجاءه الغلام فقال: سمعتهم يقولون: يا بنى عبد الرحمن ، يا بنى عبد الله ، يا بنى عبيد الله، فقال : ظهر محمد ، وكان ذلك شعارهم فى الحرب) (٢) .

وروى محمد بن عمر عن أبى قتادة رضي الله عنه قال : مضى سرعان الناس من المنهزمين حتى دخلوا مكة ، ساروا يومًا وليلة ـ يخبرون أهل مكة بهزيمة رسول الله ﷺ ـ وعتاب ابن أسيد على مكة ومعه معاذ بن جبل ، فجاءهم أمر غمَّهم ، وسُرَّ بذلك قوم من أهل مكة ، وأظهروا الشماتة وقال قائل منهم : ترجع العرب إلى دين آبائها ، وقد قتل محمد وتفرَّق أصحابه ، فتكلم عتاب بن أسيد يومئذ قال : إن قُتِل محمد فدين الله قائم ، والذى يعبده محمد حى لا يموت . فما أمسوا فى ذلك اليوم حتى جاءه الخبر أن رسول الله ﷺ أوقع بهوازن ، فسر عتاب بن أسيد ، ومعاذ بن جبل ، وكبت الله تعالى من هناك ممن كان يَسُرُّه خلاف ذلك .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٤٣، ٤٤٤ . (٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٣١ .

فرجع المنهزمون إلى رسول الله ﷺ فلحقوه بأوطاس وقد رحل منها إلى الطائف .

محاولة اغتياله من شيبة بن عثمان :

روى ابن سعد وابن عساكر عن عبد الملك بن عبيد ، والبغوى والطبرانى والبيهقى ، وأبو نُعيم وابن عساكر عن عكرمة ـ رحمهما الله تعالى ـ قالا : قال شيبة :

(لما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة ، وغزا حنينًا ، فقلت : أسير مع قريش إلى هوازن ، فعسى إن اختلطوا أن أُصيب من محمد غرة ، وتذكرت أبى وقتله حمزة ، وعمى وقتله على بن أبى طالب ، فقلت : اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها ، وأقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدًا ما تبعته أبدًا، فكنت مرصدًا لما خرجت له، لا يزداد الأمر فى نفسى إلا قوة، فلما اختلط الناس ، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته ، وأصلتُّ السيف ، ودنوتُ منه أريد ما أريد ، وفى رواية: فلما انهزم أصحابه جئته من عن يمينه ، فإذا العباس قائم عليه درع بيضاء ، فقلت: عمه لن يخذله، فجئت من عن يساره ، فإذا بأبى سفيان بن الحارث فقلت : ابن عمه لن يخذله ، فجئت من خلفه ، فلم يبق إلا أن أسوِّره [1] سورة بالسيف ، إذا رفع إلىَّ فيما بينى وبينه شواظ من نار كأنه برْق ، فخفت أن يتمحشنى[2]، فوضعت يدى على بصرى خوفًا عليه ، ومشيت القهقرى ، وعلمت أنه ممنوع ، فالتفتَ إلىَّ وقال : « يا شيب، ادن منى »، فدنوت منه، فوضع يده على صدرى وقال: « اللهم اذهب عنه الشيطان ». فرفعت إليه رأسى وهو أحب إلىَّ من سمعى وبصرى وقلبى ، ثم قال : « يا شيبة ، قاتل الكفار » . قال : فتقدمت بين يديه أحب والله أن أقيه بنفسى كل شىء ، فلما انهزمت هوازن رَجَع إلى منزله ودخلتُ عليه فقال :

« الحمد لله الذى أراد بك خيرًا مما أردت » ، ثم حدثنى بما هممت به ﷺ)[3] .

محاولة ثانية من النضير بن الحارث :

قال محمد بن عمر : (حدثنا إبراهيم بن محمد بن شُرحبيل العبدرى عن أبيه قال : كان النضير بن الحارث من أحلم قريش ، وكان يقول : الحمد لله الذى أكرمنا بالإسلام، ومنَّ علينا بمحمد ﷺ ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء. فذكر حديثًا طويلاً ، ثم قال:

خرجت مع قوم من قريش ، هم على دينهم بعدُ : أبو سفيان بن حرب ، وصفوان ابن أمية ، وسهيل بن عمرو ، ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن

---

(١) أسوِّره : أعلوه . (٢) يتمحشنى : يحرقنى .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٤٥ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٤٤، ٤٤٥ .

يغير ، فلما تراءت الفئتان ، ونحن فى حيِّز المشركين ، حملت هوازن حملة واحدة ، ظننا أن المسلمين لا يجبرونها أبدًا ، ونحن معهم ، وأنا أريد بمحمد ما أريد ، وعمدت له، فإذا هو فى وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه . فأقبلت عامدًا إليه ، فصاحوا بى : إليك ، فأُرعب فؤادى ، وأُرعدت جوارحى ، قلت : هذا مثل يوم بدر ، إن الرجل لعلى حق ، وإنه لمعصوم ، وأَدخل الله فى قلبى الإسلام وغيره عما كنت أهم به ، فما كان حلب ناقة حتى كر أصحاب رسول الله كرة صادقة ، وتنادت الأنصار بينها : الكرة بعد الفرة ، يا للخزرج ، يا للخزرج ، فحطمونا حُطامًا ، فرقوا شملنا ، وتشتت أمرنا ، وهمة كل رجل نفسه ، فتنحيت فى غبرات الناس حتى هبطت بعض أودية أوطاس ، فكمنت فى خَمَر شجرة لا يهتدى إلىّ أحد إلا أن يدله الله تعالى على ، فمكثت فيه أيامًا وما يفارقنى الرعب مما رأيت ، ومضى رسول الله ﷺ إلى الطائف ، فأقام ما أقام ، ثم رجع إلى الجعرانة ، فقلت : لو صرت إلى الجعرانة ، فقاربت رسول الله ﷺ ، ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، فما بقى أحد ، فقد رأيت عبرًا، وقد ضرب الإسلام بجرانه ، ولم يبق أحد ، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ فَعزٌ محمد لنا عزٌ ، وشرف محمد لنا شرف ! فوالله إنى لعلى ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله ﷺ يلقانى بالجعرانة كِفَّة بكِفَّة (١) فقال: « النضير ؟ » قلت: لبيك ، فقال:

« هذا خير لك مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه » ، فأقبلت إليه سريعًا فقال : « قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه توضع » قلت :

قد أرى أن لو كان مع الله تعالى إلهًا غيره لقد أغنى شيئًا ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك رسول الله . قال رسول الله ﷺ : « اللهم زده ثباتًا ». قال النضير: فوالذى بعثه بالحق، لكأن قلبى حجر ثباتًا فى الدين وبصيرة فى الحق)(٢).

* * *

يحكم هذا الفصل قول الله - عز وجل :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة] .

وهذه الظاهرة لم تقع فى التاريخ الإسلامى كله إلا هذه المرة .

فقد كان فرار فى أحد ، لكنه على فئة محدودة معدودة .

---

(١) كفَّة كفَّة - بكسر الكاف - أى كفاحًا ، وذلك إذا استقبلته مواجهة وهما اسمان جعلا واحدًا ، وبنيا على الفتح مثل خَمسة عشر .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى من أول الفصل إلى هنا ٥/ ٤٧٠ - ٤٧٥ أما العناوين فمن اختيارى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾ [آل عمران] .

ووقع أن بعض الفصائل فى الجيش الإسلامى فرت من المعركة . وذلك يوم مؤتة أمام الأعداد الضخمة التى واجهتها .

والحديث فى هذه الآية الكريمة للمسلمين عامة ـ للجيل الأول والثانى والثالث ـ فيدخل فى إطار هذه الآية الكريمة أهل بدر وأهل الحديبية ومن أسلم قبل الفتح .

ولا نبالغ إذا قلنا : إن حنينًا كانت من أقسى الدروس التى تلقاها المسلمون فى تاريخهم. وتعود روح جو أحد لتسيطر على الساحة ، فقد كان المسلمون واثقين من النصر بعد النصر الذى تلقوه فى بدر ، ويتحرقون إلى مواجهة العدو .

وكثيرًا ما يغيب عن الذهن البشرى قوانين النصر والهزيمة ، وأن أول قضية فى هذا المجال هى أن النصر بيد الله ، وأن النصر من عند الله . وقد جاءت آيات آل عمران تؤكد هذا المعنى آنذاك بعد أحد : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

ونشوء أجيال جديدة ودخولها فى الإسلام ، لم تكن لتدرك هذا المعنى إدراكًا حسيًا حقيقيًا ، وقد تدركه نظريًا من خلال تلاوة الآيات القرآنية . وكما كانت بدر ظاهرة فريدة فى التاريخ أنزل الله تعالى فيها ملائكته وقاتلت مع المسلمين ، وبعث الله جنده من : الرعب والمطر ، والسكينة فى قلوب المؤمنين وغير ذلك ، فكذلك كان فتح مكة ، فلم يخض المسلمون الجدد إلا معركة الفتح ، وقد فتحت مكة أبوابها واستسلمت إلا ذلك الحبيب الذى قاتل خالد بن الوليد ، وانتشى المسلمون بهذا الانتصار العظيم وكان من حيث أثره المعنوى أضخم حدث شهدته الجزيرة العربية لصالح الإسلام ، لكن من الناحية المادية ، فلم يفقد المسلمون أكثر من عدة قتلى استشهدوا فى المعركة ، وعاشت الآلاف العشرة عرسها الذى كانت تحلم به منذ عشرين عامًا،وتهاوت الأصنام الثلاثمائة والستون، وارتفعت راية التوحيد فقط فوق الكعبة ، وصعد بلال بقدميه السوداوين فوق ظهر الكعبة معلنًا :

(أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله) .

وأحس المسلمون أنهم سادة الجزيرة بلا منازع ، وخاصة وبين صفوفهم سادات تميم وغطفان وعامر بن صعصعة ، فلم يكن عندهم أدنى شك بنصر الله لهم . لقد أحسوا أنهم هم الذين حققوا نصر الفتح ؛ ولذلك وعندما انضم ألفان من أهل مكة تجمعت

الطاقات البشرية ، والخبرات العسكرية ، والأسلحة الضخمة ، فمن الذى يغلبهم بعد ذلك . ووردت الكلمة على أكثر من لسان : (لن نغلب اليوم من قلة) .

لقد كان المنافقون فى جيش أحُد هم عنصر الضعف البشرى ، الذى انشغل بالدنيا ، وأراد أن يثأر لعبد الله بن أبى وحلفائه وأتباعه ، وكان فى الجيش عناصر جديدة لم تتلق التربية الكاملة ، والكافية لصهرها فى معانى الإسلام .

ونجد الصورة نفسها اليوم فى الجيش الإسلامى .

فشهر واحد ليس كافيًا للصياغة البشرية على مفاهيم وقيم ومبادئ الإسلام النظرية والعملية ، فألفان فقط من اثنى عشر ألفًا هم الذين كانوا الخميرة الرئيسية ، والقاعدة الصلبة للإسلام . والذين شاركوا فى دورات الحديبية وخيبر ـ وقرابة عشرة آلاف ـ لم يسبق لها أن شاركت فى أية دورة إلا دورة فتح مكة التى هيأها الله تعالى لنبيه بغير قتال، ومن خلال النداء النبوى :

« من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

واستجابة لدعوة رسول الله ﷺ أن يعمى الأبصار والعيون حتى لا يروا المسلمين إلا بغتة ، فقد كانت إذن معركة ذات أضخم أثر معنوى ، وأقل خسارة مادية .

وعاش المسلمون هذه الأجواء ، ولعله كذلك قد ساهم فى رفع معنوياتهم أكثر وأكثر قول رسول الله ﷺ لمن راح يصف قوة هوازن : « تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله » .

وتحدثوا عن اجتماع القوتين ـ مكة والمدينة ـ فلن يبالوا بعد ومهما كان ضخمًا ، ولو كان العدو بنى شيبان الذى هزم فارس فى ذى قار .

نحن أمام جيش معجب بنفسه ، مزهو بقوته ، معتد بكثرته .

وكان الوصف القرآنى الخالد : ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾

[التوبة : ٢٥]

وننتقل إلى الخطوة الثانية إلى لحظة المفاجأة الصاعقة ، وهم منحدرون فى الوادى والشعاب من كل جانب ممتلئة بالعدو ، الذى ساعدت عماية الصبح على إخفاء وجوده فى البداية ، وكان الانقضاض على المسلمين كالصاعقة من كل جانب .

وأمامنا روايتان لابد من الجمع بينهما فى سبب الهزيمة ، والروايتان فى الصحيح .

الرواية الأولى : تتحدث عن انقضاض العدو المفاجئ على المسلمين . (فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وكانوا رماة) .

الرواية الثانية : عن البراء بن عارب ﷺ تتحدث عن صورة مغايرة :

(عجل سرعان القوم ، وفى لفظة : شبان أصحاب محمد ﷺ ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح ، فإنا لما حملنا على المشركين انكشفوا فأقبل الناس على الغنائم ، وكانت هوازن رماة فاستقبلتنا بالسهام كأنما رجل جراد لا يكاد يسقط لهم سهم) .

فهذه الرواية تشير إلى أن المسلمين هم البادئون فى الهجوم ، وأنهم حققوا النصر ، وأكبوا على الغنائم ، وجرى معهم ما جرى فى أحد، حين انقضت عليهم سهام المشركين من كل جانب فلاذوا بالفرار ، ونقدر للجمع بين النصين أن فرقة من الجيش استعجلت الهجوم دون أمرٍ من القيادة ، وتظاهر القوم بالتراجع ، ثم عادوا فانقضوا عليهم مهاجمين بسهامهم حتى أجبروهم على الفرار . أما الرواية الأولى فهى التى تتحدث عن وضع الجيش كله ، وأنه فوجئ بالمعركة والهجوم والسهام تنحط من كل جانب ، ولاذوا بالفرار لا يلوون على شىء .

كما تشير الروايات إلى أن أول من وقع عليه الهجوم كانوا من سليم ؛ وذلك لأن سليمًا خيالة المسلمين ، وكما ذكرنا كان عندها وحدها ما يعادل سلاح الفرسان بكامله عند المسلمين ، وقد كانوا فى مقدمة الجيش الإسلامى وعلى رأسهم خالد بن الوليد ، وهم فوق أنهم يمثلون سلاح الفرسان ، فلهم خبرة بالحروب وهؤلاء هوازن بنو عمهم ، ولهم دراية بقوتهم وقتالهم . (فحملوا - أى العدو - حملة رجل واحد ، فانكشفت أوائل الخيل - خيل بنى سليم - مولية وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شىء ، وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه) .

فطبيعة القتال العربى قبل الإسلام كانت تقوم على الكر والفر ، وعندما يحس الخصم بقوة عدوه وإمكان الانتصار عليه يلوذ بالفرار ناجيًا بنفسه ، وسليم - وهى التى تمثل هذا الطراز من القتال ، ولم يسبق لها أن قاتلت مع جيش إسلامى - تصرفت كما تتصرف فى كل معاركها ، فشدة السهام ، وهول الهجوم أرعب الخيل فولت مدبرة دون تفكير فى خطة مواجهة ، أو عملية التفاف ، أو ثبات يوقف سيل الهجوم الكاسح ، بينما كان خالد بن الوليد ﷺ يقاتل وحده بضراوة حتى أثبتته الجراح .

وعندما يقع الفرار من المقدمة سينتقل الذعر والخوف إلى المؤخرة ، وتدرك أن عليها النجاء كما فعلت المقدمة ، ويسود الساحة هرج أمام زخم الفارين ، فتتابع الإبل الفرار منذعرة أمام هروب الخيل ، وتصبح المعركة بغير قائد .

ورسول الله ﷺ فوجئ كذلك بفرار مقدمته ، كما وصف سلمة بن الأكوع رضي الله عنه الذى كان أحد الأبطال فى الجيش قال : (غزونا مع رسول الله ﷺ حنينًا ، فلما واجهنا العدو تقدمت ، فأعلو ثنية ، فاستقبلنى رجل من العدو ، فأرميه بسهم ، فتوارى عنى ، فما دريت ما صنع ، ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى ، فالتقوا هم وصحابة النبى ﷺ، فولى صحابة النبى ﷺ فأرجع منهزمًا ، علىَّ بردتان متزر بإحداهما، مرتديًا بالأخرى فاستطلق إزارى ، فجمعتهما جميعًا، ومررت على رسول الله ﷺ منهزمًا (أى سلمة) وهو على بغلته الشهباء) فقال رسول الله ﷺ : « لقد رأى ابن الأكوع فزعًا »[1] فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة . . .) .

فأول طلائع الفرار رآها رسول الله ﷺ من سلمة بن الأكوع ، وقال عنه : إنه رأى فزعًا ، ثم بدأ الفارون يمرون على رسول الله ﷺ ويغشونه .

وتؤكد هذه الرواية من جهة أخرى ـ ما ذكرناه من قبل ـ من أن فصيلاً صغيراً من الجيش الإسلامى اشتبك مع العدو ، فانكشف العدو (ظاهرًا) وانكبوا على الغنائم ، وعاد العدو فصب عليهم جام السهام صبًا . فهذا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يرمى بسهمه العدو الذى ظهر من إحدى الثنايا ، فيختفى العدو وكأنما جاء ليشغله ، حيث ظهر العدو من الثنية الأخرى وانقض على المسلمين فهزمهم وولوا مدبرين ، وكان تسلسل الهزيمة كما فى رواية أنسٍ :

(فبينا نحن فى غبش الصبح إن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادى وشعبه ، فحملوا حملة رجل واحد ، فانكشفت أوائل الخيل ـ خيل بنى سُليم ـ مولية ، وتبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شىء ، وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه) .

ونقف عند الفريق الثانى من المنهزمين ـ وهم أهل مكة ـ فقسم منهم حضر المعركة مشركًا متفرجًا ، وقسم منهم حضرها طمعًا فى الغنيمة ، وقسم منهم حضرها ويتمنى الهزيمة لمحمد ﷺ ثأرًا منه فيما قتل من مكة ، وقسم أسلم وحسن إسلامهم ، وحضروا المعركة ، وأبلوا بها البلاء الحسن .

ويؤكد هذه النماذج المكية النصوص المتوافرة على كل منهم :

فالنضير بن الحارث يعطينا صورة عن واحد من هذه الأقسام ؛ إذ يقول :

(خرجت مع قوم من قريش هم على دينهم بعد . . . ونحن نريد إن كانت دبرة

---

(١) مسلم ٣/ ١٤٠٢ ح (٨١/ ١٧٧٧) .

على محمد أن نغير عليه فيمن يغير ، فلما تراءت الفئتان ونحن فى حيز المشركين ، حملت هوازن حملة واحدة ، ظننا أن المسلمين لا يجبرونها أبدًا ـ ونحن معهم ـ وإنما أريد بمحمد ما أريد ، وعمدت له فإذا هو فى وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه ، وأقبلت عامدًا إليه ، فصاحوا بى إليك ، فأرعب فؤادى وأرعدت) .

فهناك طائفة من أهل مكة تتربص الدوائر بمحمد ﷺ ، ولا يزال الحقد يملأ قلبها وكيانها ولا تشتفى إلا بقتله وهزيمة أصحابه .

وهذا الذى قاله شيبة بن عثمان فى نفسه :

(ولما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة ، وغزا حنينًا ، قلت : أسير مع قريش إلى هوازن ، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة ، وتذكرت أبى وقتله حمزة ، وعمى وقتله على بن أبى طالب ، فقلت : اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها) .

فالذين انهزموا ابتداء بنو سليم ثم قريش ، وانعكست هذه الهزيمة على الجيش كله ، فلم يعد أحد يلوى على أحد ، والتعبير القرآنى لا يستثنى من المؤمنين أحدًا ؛ لأن هذه الكثرة كانت وبالاً على الجيش الإسلامى ، وهذه العناصر الفارة هى التى أثرت على موقف الجيش كله ولم تغن شيئًا ، بل أضرت أكثر مما نفعت :

﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة] .

وكان لابد لهذا الجيش كله أن يتلقى هذا الدرس ، ويتعلم أنه ليس هو الذى يصنع النصر ، والنصر ليس متوقفًا عليه وعلى قومه وعلى عتاده وعلى عدته وعلى عدده ، يريد الله تعالى لهذه الأمة أن تتلقى الدروس العملية مباشرة دون واسطة لتصل إلى اليقين المطلق فى مبادئ العقيدة ، ومن أهم هذه المبادئ : أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ومتى شاء ، ولو ألقيت آلاف الدروس النظرية فى ترسيخ هذا المبدأ لما كان لها أثر مثل أثر هذا الدرس العملى الذى تلقاه الصف المؤمن بكل مستوياته ، والذى دخله الإعجاب لكثرة عدده وعدته .

والتربية الربانية جاهزة ؛ لأن السنة الربانية هى تمحيص الصف المؤمن . . . وتمحيص المؤمنين الخلص من المنافقين المدخولين ، وكما قلت : إن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الدرس للجيش كله ـ أصحاب بدر ، وأصحاب الحديبية ومن أسلم قبل الفتح ، وعند الفتح وبعده ـ فقد كان الدرس من الشمول بحيث تلقاه اثنا عشر ألف مقاتل ، أو

أربعة عشر ألف كما تقول بعض الروايات الأخرى .

لكن المواقف اختلفت كثيراً لهذه الأعداد الضخمة بعد الفرار . ما بين من هُلِع قلبه وبقى مذعوراً حتى غادر رسول الله ﷺ حنين ، وبين من أظهر الشماتة ، وفرح بالهزيمة وبين من رآها فرصة لتصفية حساباته مع محمد ﷺ ، وبين من استجاب بعد لأى ، وبين من سارع بالإجابة مجرد سماعه لنداء رسول الله ﷺ ، وبين المائة الصابرة التى بقيت ثانية كالطود بجوار رسول الله ﷺ ، وستتحدث عن هذه النماذج بالتفصيل فيما بعد . وندرك أثر البناء التربوى للأمة المسلمة من خلالها ، لكننا نكتفى هنا بالوقوف مع هذين الغادرين الفاتكين اللذيْن أرادا أن يأخذا ثأرهما من محمد ﷺ وهما : شيبة بن عثمان ، والنضير بن الحارث .

ويجمع بين الرجلين : أن كليهما من بنى عبد الدار ، وعبد الدار هم الخصوم التقليديون لبنى عبد مناف ، وغنى عن البيان أن مآثر قريش الكبرى قد تم اقتسامها بين الفريقين ، فلبنى عبد الدار الحجابة واللواء ، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة ، واستمر الأمر وجاء الإسلام وهم على ذلك ، لكن الملحمة التى كانت فى بنى عبد الدار كانت فى أحد حيث قتل تسعة من أبطالهم وصناديدهم تحت اللواء ، وهم :

الإخوة الثلاثة : طلحة بن أبى طلحة ، وعثمان بن أبى طلحة ، وأبو سعد بن أبى طلحة .

ثم تقدم أولاد طلحة الثلاثة ـ وهم كبش الكتيبة ـ فقتلوا جميعًا ، وهم مسافع بن طلحة والجلاس بن طلحة ، وكلاب بن طلحة ، وشيبة صاحبنا هذا هو ابن عثمان بن أبى طلحة، وكان الثلاثة الآخرون من بنى عبد الدار من حملة اللواء من غير بنى أبى طلحة، وهم : أرطأة بن شرحبيل ، وشريح بن قارظ ، وعمرو بن عبد مناف العبدرى .

فشيبة إذن قد قتل أخوته الثلاثة ، وقتل أبوه ، وقتل عماه ، فلا عجب أن ينز حقداً على الإسلام وأبطاله ورجاله ، ويثأر لعشيرته وقومه ، وكانت الفرصة السانحة له فى قلب هذه الأجواء الفوضوية حيث لا يلوى أحد على أحد ، فمضى حتى صار خلف رسول الله ﷺ، ولم يتمكن من أن يأتيه عن جنبه، فابن عمه أبو سفيان بن الحارث. ولم يتمكن من أن يأتيه من أمامه؛ لأن عمه العباس هناك ولن يسلمه، فرأى أن قتله من خلفه هو الذى يحقق الهدف ، وليُقتل بعدها من بنى هاشم ، لكنه يروى غلة صدره قبل قتله ويدرك ثأره، ويحدثنا عن المفاجأة المذهلة : فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف، إذا رفع إلى فيما بينى وبينه شواظ من نار كأنه برق، فخفت أن يتمحشنى، فوضعت يدى على بصرى خوفًا عليه ، ومشيت القهقرى ، وعلمت أنه ممنوع .

إن هذا الشهاب من النار الذى برق أمامه دخل فأحرق نار الثأر فى قلبه كله ، وأيقن أن محمداً ممنوع منه فلن يستطيع أن يصل إليه ، وهناك عناية إلهية تحوطه لا يدرى سرها ولا كنهها ، وصار قلبه بعد حرق الأحقاد مهيأ لدخول الإسلام إليه .

(فالتفت إلى وقال: « يا شيب، ادن منى » فدنوت منه ، فوضع يده على صدرى، وقال : « اللهم أذهب عنه الشيطان ») .

فلقد كان الشيطان يريد أن يسابق الزمن، ويدخل فيحتل البيت الذى أحرقت أحقاده ذلك الشهاب، وهى معركة حياة أو موت بالنسبة للشيطان ، يريد أن يؤزه ليعيد المحاولة، ويعيد عملية الاغتيال من جديد ، فجاءت الكلمة النبوية التى رافقت وضع اليد على صدره، فمضى الشيطان طريداً يلوذ بالفرار يخاف أن يحرقه شهاب فيفنيه .

وكانت هذه المسحة الحانية على الصدر هى التى قدمت لهذا القلب الحاقد الملتهب بالثأر بلسم الإيمان والحب والهدى والنور ، وأضاء هذا البيت من قلب شيبة حتى لغدا يعمر الكون كله ، بهذه المسحة الحانية ، واللمسة الرقيقة .

(فرفعت إليه رأسى وهو أحب إلى من سمعى وبصرى وقلبى) .

من الأمثال الشائعة فى مجتمعنا الإسلامى حين يطالب المرء بالتغيير الجذرى الشامل. فيقول : تحتاج إلى لمسة نبى .

وهذه هى اللمسة التى كانت على صدر شيبة بن عثمان ، والدعاء الذى رافقها : «اللهم أذهب عنه الشيطان ». وكان لهذا الدعاء وهذه اللمسة تكوين إنسان آخر ، رسولُ الله أحب إليه من سمعه وبصره وقلبه ، بعد أن كان يريد أن يفرغ حقده وإحنه كلها فى صدر محمد والفتك به .

إنها التربية التى لا يملكها كل مربى الأرض ودعاة الإصلاح فيه ، وقد أعطاها الله تعالى لعبده ونبيه محمد ﷺ ، وسعد بها هذا الجيل الأول ، وكان على شيبة أن يدفع ثمن هذا الحب مباشرة ، فقال له ـ عليه الصلاة والسلام : « يا شيبة قاتل الكفار » .

ولم يتردد ولم يتلجلج لحظة واحدة أو ثانية واحدة ، وكان أحد المائة الصابرة التى وقَت حبيبها محمداً ﷺ بأعز ما تملك ، وكما يقول شيبة :

(فتقدمت بين يديه أحب ـ والله ـ أن أقيه بنفسى كل شىء) .

ولا ننسى أن شيبة هذا هو ابن عم عثمان بن طلحة الذى كان أحد الثلاثة : خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص الذين قدموا على المدينة معلنين دخولهم فى الإسلام وقال عنهم ـ عليه الصلاة والسلام : « لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها » .

وإلى العبدرى الثانى : النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى ، وأخوه النضر بن الحارث الذى قتله رسول الله ﷺ ببدر صبراً ، فقد كان من أعدى العدو لرسول الله ﷺ ، فهو الذى كان يزعم أنه سينزل مثل ما أنزل الله ، (وكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذر قريشًا مما أصاب الأمم الخالية ، خلفه فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم ، وعن اسفنديار ، وملوك فارس ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثًا منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها) [1] . وكل الآيات التى ذكر فيها أساطير الأولين إنما نزلت فى النضر بن الحارث ، ثم أمكن الله تعالى منه حيث أُخذ أسيراً فى بدر ، وفى عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة (حتى إذا كان بالصفراء قُتِل النضر بن الحارث، قتله على بن أبى طالب كما أخبرنى بعض أهل العلم من مكة) [2] ، وبقيت الأحقاد تتراكم فى قلب أخيه النضير بن الحارث من أجله ومن أجل أبناء عشيرته من بنى عبد الدار ، وانتهت إليه سيادة بنى عبد الدار (وكان من أحلم قريش ، وكان يقول : الحمد لله الذى أكرمنا بالإسلام ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء) .

وهو الذى حدثنا عن المؤامرة التى كانت فى بعض صفوف قريش : (خرجت مع قوم من قريش . . . ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير) . وكيف حانت الفرصة لذلك بعد الجولة الأولى لهوازن على المسلمين (ظننا أن المسلمين لا يجبرونها أبدًا ، ونحن معهم وأنا أريد بمحمد ما أريد ، وعمدت إليه فإذا هو فى وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه ، فأقبلت عامدًا إليه فصاحوا بى : إليك) .

وهؤلاء الرجال البيض لم ير مثلهم إلا يوم بدر ، يوم أسر أخوه النضر ونجا بنفسه ، وها هو اليوم يهم بقتل محمد ، وكانت كلمة (إليك) من هؤلاء الرجال كفيلة أن تدخل جيشًا من الرعب فى قلبه ، ومهمة هذا الجيش مثل مهمة الشواظ الذى دخل إلى قلب شيبة أن يحرق الأحقاد والأضغان فى قلبه، (فأرعب فؤادى وأرعدت جوارحى، قلت: هذا مثل يوم بدر ، إن الرجل لعلى حق ، وإنه لمعصوم ، وأدخل الله تعالى فى قلبى الإسلام وغيَّره عما كنت أهم به) . فلم تكن هنا لمسة النبى ، إنما كانت صيحة الملك هى التى غيَّرت تركيبه الداخلى كله ، وازداد يقينًا بصدق محمد (فما كان حلب ناقة حتى كر أصحاب رسول الله ﷺ كرة صادقة وتنادت الأنصار بينها: الكرة بعد الفرة ، يا للخزرج، يا للخزرج ، فحطمونا حطامًا ، فرقوا شملنا ، وتشتت أمرنا ، وهمة كل رجل نفسه ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣٥٨/١ .

(٢) المصدر نفسه ٦٤٤/١ .

فتنحيت في غبرات الناس حتى هبطت بعض أودية أوطاس ، وكمنت فى خمر شجرة لا يهتدى إلىَّ أحد إلا أن يدله الله على ، فمكثت فيه أيامًا ، وما يفارقنى الرعب مما رأيت) فهو يخشى أن يأمر به محمد أن يقتله كما قتل أخاه النضر ، فقد هم بقتل محمد ، وتآمر ضده داخل المعركة ، لكن كيف يصل إلى محمد ﷺ ، ويعتذر له ، ويعلمه أنه آمن به وبصدق رسالته ، فقد يقط رأسه عن جسده قبل ذلك ، ولهذا بقى أيامًا فى خمر هذه الشجرة ، بعيداً عن العيون أن تراه ، وهو ليس نكرة ، حتى يجهله الناس .

وفى الوقت الذى تقدم شيبة بن عثمان وقاتل الكفار ، فات النضير شرف هذه المشاركة ، وبقى مع دقات قلبه الخائفة من الموت فى هذا المكان النائى .

ومضى رسول الله ﷺ إلى الطائف فأقام ما أقام ثم رجع إلى الجعرانة ، فقلت :

(لو سرت إلى الجعرانة فقاربت رسول الله ﷺ، ودخلت فيما دخل فيه المسلمون، فما بقى ؟) .

وها هو ينقل لنا خلجات نفسه ونبضات قلبه : (فقد رأيت عبراً ، وقد ضرب الإسلام بجرانه ، ولم يبق أحد، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ ، فَعِزٌّ محمد لنا عز، وشرفه لنا شرف) .

ومضى وقد صمم على الدخول فى الإسلام ، ولم يجد فى قلبه ذرة واحدة من الشك تمنعه عنه ، وها هو فى الجعرانة مع المسلمين فردًا مغموراً بينهم ، وهو مرتاح لذلك مطمئن إليه ، مكتف بالنجاة من الموت .

ثم كان لقاء العمر السعيد له مع رسول الله ﷺ الذى أدخل أمواجًا من النور فى قلبه وهو ما لا نملكه فى أجيالنا اللاحقة : (فوالله إنى لعلى ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله ﷺ يلقانى بالجعرانة كفة بكفة فقال : « النضير ؟ » قلت : لبيك) .

ويسعده ، كما يرجف فؤاده أن يتعرف عليه رسول رب العالمين ويسأل عنه ، ترى هل سيحاسبه على مخططه الماكر فى المعركة ؟ فقال : « هذا خير لك مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه » .

ومضى كأنما يطير بجناحين لرسول الله ﷺ الذى غفر له زلته ، وقبله جنديًا فى صفه ليعبر عن عميق إحساسه وسعادته الغامرة بهذا المنزل الجديد فى الإسلام : (فأقبلت إليه سريعًا) ، وكأنما أخذ رسول الله ﷺ أوتار قلبه فعزف عليها متمًا حديثه له : « قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه توضع » .

فقلت : (قد أرى أن لو كان مع الله تعالى إلهًا غيره لقد أغنى شيئًا) .

وإذا كان أبو سفيان بن حرب قد تردد فى لحظاته الأولى من الإيمان بالرسالة بعد إيمانه بالوحدانية ، أما هو فلن يكون كذلك لما رأى من معجزات جَلَت قلبه فجعلته أبيض ناصعًا منيرًا .

(وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك رسول الله) .

قال رسول الله ﷺ : « اللهم زده ثباتًا » ، وهى الدعوة المكافئة للدعوة لشيبة : «اللهم أذهب عنه الشيطان » .

قال النضير :(فوالذى بعثه بالحق لكأن قلبى حجر ثباتًا فى الدين وبصيرة فى الحق).

فلو طلب منه أن يصارع الدنيا كلها لصارعها من أجل هذا الدين ، وفى سبيل الذود عنه .

ومضى والسعادة تغمره بهذا اللقاء الحالم ، الذى اختصه به رسول الله ﷺ من دون الناس جميعًا ، وقنع بأن يكون حظه من الدنيا وحظه من التربية هذه اللحظات ، وعاد أدراجه يستعيد ماضيه كله يوم كان فى مكة يحارب محمدًا ﷺ مع أخيه النضر، ويستهزئ به ، بينما كان الرعيل الأول من المؤمنين يمضى عمره كله مع رسول الله ﷺ، وندم على ما فات وعاد إلى واقعه فحمد الله تعالى مع ذلك أن عاش حتى دخل فى هذا الدين ، ولم يمت على الكفر كما مات أخوه النضر ، وفى قلب هذه الهواجس التى تنتابه إذ يسمع من يهتف باسمه يدعوه إلى رسول الله ﷺ. هل من جديد ؟ وتعلق قلبه ثانية فى جوفه: (ثم رجعت إلى منزلى فلم أشعر إلا برجل من بنى الدئل يقول :

يا أبا الحارث ، قد أمر لك رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بمائة بعير ، فأجزنى منها فإن علىَّ دينًا)[1] وضاع فى متاهات الأفكار ، مائة ناقة ثراء العمر ، أيأخذها ؟ أهل هى رشوة على دينه ؟ وهل فى إيمانه دخل ؟ إذن لا يريدها ، لكنها تأتيه من رسول الله ﷺ ، والله تعالى يعلم رسوله صدق إيمانه وهو لم يطلبها ، إنما جاءته من رسول رب العالمين فلم لا يأخذها فتعمر دنياه مع آخرته ؟!

(فأردت ألا آخذها ، وقلت : ما هذا منه إلا تألف ، ما أريد أن أرتشى على الإسلام . . ثم قلت : والله ما طلبتها ولا سألتها) .

وبين الشد والجذب انتهى إلى قبولها ، وأعطى الدئلى منها عشرة من الإبل على بشارته له بها .

---

(١) هذه التتمة حول المائة ناقة وبقية حياته من الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٦/٢٣٨ ت (٨٧١٤) .

ونسأل عن النضير بعد ذلك فى متاهات التاريخ : أين هو ؟ فلا نجده إلا على قمة المجد يبنى بهذا الدين سؤدد بنى عبد الدار .

(ثم خرج إلى المدينة فسكنها) ، وتلقى من مدرسة النبوة ما تمكن من تلقيه ، كجامعات محو الأمية للكبار ، لكنها تعادل أعظم جامعات الدنيا علمًا وفقهًا ونورًا ، واكتسب من هذه المدرسة أهم ما اكتسب منها فضل الجهاد وهو فى هذه السن المتأخرة ، ولئن فاته أن لم يقف فى عمره كله لحظة جنديًا مع رسول الله ﷺ إنما كان فى صف عدوه ، ولكن إذا مات محمد ﷺ فإن رب محمد لا يموت ، وهو إنما يجاهد فى سبيل الله لا فى سبيل رسول الله ، فترك دنياه وودعها فى مكة ، وبدأ رحلة الحياة الجديدة فى صف المجاهدين إلى الشام يغبر قدميه فى سبيل الله ، وسجل التاريخ أنصع صفحة من نور .

(ثم خرج إلى الشام مهاجرًا ، وشهد اليرموك ، وقتل بها) ، وختم حياته فى سجل الشهداء الخالدين ، ورضى الله عن النضير وأرضاه .

المعجزة الخالدة :

وسنعرض صور هذه المعجزة لفريقين :

الفريق الأول : المؤمنين ، وشهودنا فيها : جابر بن عبد الله ، والعباس بن عبد المطلب ، وابن يزيد الفهرى ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، والبراء بن عازب ، وسلمة بن الأكوع .

الفريق الثانى : المشركين ـ وقد أسلموا فيما بعد ـ وهم : عياض بن الحارث ، وعمرو بن سفيان . وجبير بن مطعم ، وعبد الرحمن مولى أم برثن ، ويزيد بن عامر السوائى ، وأوس بن الحدثان ، وربيعة بن أبزى .

وكما نشهد يوم عرفة كيف يتداول المذيعون وصف الحجيج فيه ، كل ينقل ما يراه وما يركز عليه ، فنحن اليوم مع هذه المشاهد الحية لهذه المعجزة الخالدة :

١ ـ جابر بن عبد الله :

قال ابن إسحاق : (فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال : وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال : « أيها الناس ، هلموا إلىَّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » . قال : فلا شىء ، حملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته . . . واجتلد الناس ، فوالله ما رجعت راجعة الناس عن هزيمتهم حتى وجدوا

الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ)[1] .

٢ ـ العباس بن عبد المطلب :

وروى ابن إسحاق، وعبد الرزاق، ومسلم[2] عن العباس عم رسول الله ﷺ قال:

(شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله على بغلة له شهباء ـ قال عبد الرزاق: وربما قال معمر: بيضاء ـ أهداها له فروة بن نفاثة الجذامى ، قال : فلما التقى المسلمون والكفار ، ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار ، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ ـ وفى رواية : أكفها ألا تسرع ـ وهو لا يألو ما أسرع نحو المشركين ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ ـ وفى رواية : بغرزه وفى رواية : بثفرها [3] ـ فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبى سفيان بن الحارث وهو مقنع فى الحديد ، فقال : « من هذا ؟ » فقال : ابن عمك يا رسول الله ـ وفى حديث البراء : وأبو سفيان ابن عمه يقود به ـ قال ابن عقبة رحمه الله تعالى : وقام رسول الله ﷺ فى الركابين وهو على البغلة ، فرفع يديه إلى الله تعالى يدعو يقول: « اللهم إنى أنشدك ما وعدتنى . . . اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا » .

قال العباس : فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس ، ناد : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السُمرة ، يا أصحاب سورة البقرة » .

قال العباس : وكنت رجلاً صيتًا ـ فقلت بأعلى صوتى : أين الأنصار ؟ أين أصحاب السمرة ، أين أصحاب سورة البقرة ؟ قال : والله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها) .

وفى حديث عثمان بن شيبة عند أبى القاسم البغوى والبيهقى : (« يا عباس ، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وبالأنصار الذين آووا ونصروا » ، قال : فما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها ، حتى ترك رسول الله ﷺ كأنه فى حرجة) [4] . فلرماح الأنصار كانت أخوف عندى على رسول الله ﷺ من رماح الكفار ، فقالوا : يا لبيك يا لبيك ، فيذهب الرجل يثنى بعيره ولا يقدر على ذلك ـ أى لكثرة الأعراب المنهزمين ـ كما ذكره أبو عمر بن عبد البر ـ فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، فيخلى سبيله فيؤم

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٤٣، ٤٤٥ .
(٢) وهى عند مسلم ٣/ ١٣٩٨ ح (٧٦/ ١٧٧٥) .
(٣) الثفر : السير فى مؤخرة السرج .
(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٣٥ ـ ١٣٧ .

الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا هم والكفار ، والدعوة فى الأنصار : يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج ، وكانوا صُبُراً عند الحرب ، وأشرف رسول الله ﷺ فى ركابيه فنظر إلى مجتلدهم وهم يجتلدون وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا حين حمى الوطيس [1] » .

ثم أخذ رسول الله ﷺ حُصيَّات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال : « انهزموا ورب محمد » فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدهم كليلاً ، وأمرهم مدبراً ، فوالله ما رجع الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ مكتفون ، قتل الله تعالى منهم من قتل، وانهزم منهم من انهزم ، وأفاء الله تعالى على رسوله أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

٣ ـ ابن يزيد الفهرى :

وروى ابن سعد ، وابن أبى شيبة والإمام أحمد وأبو داود والبغوى فى معجمه ، والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى برجال ثقات عن أبى عبد الرحمن بن يزيد الفهرى ـ يقال اسمه : كرز ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال :

(كنت مع رسول الله ﷺ فى حنين ، فى يوم قائظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال السمر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتى ، وركبت فرسى ، فأتيت رسول الله ﷺ وهو فى فسطاطه فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمته ، الرواح قد حان ، الرواح يا رسول الله . قال : « أجل » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يا بلال » . فثار من تحت سُمرة كأن ظله ظل طائر فقال : لبيك وسعديك وأنا فداؤك. قال : « أسرج لى فرسى » فأتاه بسرج دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر ، فركب فرسه ثم سرنا يومنا ، فلقينا العدو ، وتشامت الخيلان فقاتلناهم ، فولى المسلمون مدبرين كما قال تعالى ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: « يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله ، يا أيها الناس إنى أنا عبد الله ورسوله ». فاقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه ، وحدثنى من كان أقرب إليه منى أنه أخذ حفنة من تراب فحثاها فى وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه ». قال يعلى بن عطاء : وأخبرنا أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : ما بقى منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب، وسمعنا صلصلة من السماء كمرّ الحديد على الطست ، فهزمهم الله تعالى) .

---

(١) فى المغازى للواقدى ٣/ ٨٩٩ : « الآن حمى الوطيس » .

٤ ـ أنس بن مالك :

روى أبو يعلى والطبرانى برجال ثقات عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ يوم حنين كفًا من حصى أبيض فرمى به وقال : « هزموا ورب الكعبة » ، وكان على ﷺ يومئذ أشد الناس قتالاً بين يديه .

وروى ابن أبى شيبة والإمام أحمد والحاكم وابن مردويه والبيهقى عن أنس ﷺ قال :

(جاءت هوازن يوم حنين بالنساء والصبيان والإبل والغنم ، فجعلوهم صفوفًا ليكثروا على رسول الله ﷺ ، فالتقى المسلمون والمشركون ، فولى المسلمون مدبرين ـ كما قال الله تعالى . وبقى رسول الله وحده ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله »، ونادى رسول الله ﷺ نداءين لم يخلط بينهما كلامًا، فالتفت إلى يمينه فقال: « يا معشر الأنصار ، أنا عبد الله ورسوله » .

فقالوا : لبيك يا رسول الله ، نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : « يا معشر الأنصار ، أنا عبد الله ورسوله ». فقالوا : لبيك يا رسول الله ، نحن معك ، فهزم الله تعالى المشركين ، ولم يضرب بسيف ، ولم يطعن برمح) .

٥ ـ البراء بن عازب :

وروى ابن سعد وابن أبى شيبة والبخارى وابن مردويه ، والبيهقى من طرق عن أبى إسحاق السبيعى ـ رحمه الله تعالى ـ قال : جاء رجل من قيس إلى البراء بن عازب ﷺ قال: أكنتم وليتم ؟ ـ وفى رواية : أوليت ؟ ـ وفى أخرى : أفررتم ـ يوم حنين يا أبا عمارة ؟ فقال :

(أشهد على رسول الله ﷺ أنه ما ولى ـ وفى رواية : لا والله ما ولى رسول الله ﷺ ـ ولكنه خرج بشبان أصحابه ، وهم حسر ليس عليهم سلاح ـ أو كثير سلاح ـ فلقوا قومًا رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام كأنها رجل جراد لا يكادون يخطئون ، وأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ ، ورسول الله على بغلته البيضاء ، وأبو سفيان بن الحارث يقود به ، فنزل رسول الله ﷺ ، ودعا واستنفر وقال : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، اللهم أنزل نصرك » . قال البراء : وكنا إذا احمر البأس نتقى برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذى يحاذيه ـ يعنى النبى ﷺ) .

٦ ـ سلمة بن الأكوع :

وروى البخارى ومسلم والبيهقى عن سلمة بن الأكوع ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال:

(. . . فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم إنه استقبل به وجوههم وقال : « شاهت الوجوه ». فما خلى الله تعالى منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا من تلك القبضة ، فولوا مدبرين ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين).

هذا هو الفريق الأول ـ فريق المؤمنين ـ ولننتقل إلى الساحة الأخرى ساحة هوازن نتابع مع كف الحصباء والتراب آثار هذا السلاح الذى لا يقل فعله عن السلاح النووى اليوم:

١ ـ عياض بن الحارث :

روى ابن سعد والبخارى فى التاريخ والحاكم والبيهقى عن عياض بن الحارث ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ كفًا من حصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا .

٢ ـ عمرو بن سفيان :

وروى البخارى فى التاريخ والبيهقى فى الدلائل عن عمرو بن سفيان ﷺ قال :

قبضِ رسول الله ﷺ قبضة من الحصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا ، فما خيِّل إلينا إلا أن كلٍّ حجر وشجر فارسٌ يطلبنا . وروى ابن عساكر عن الحارث بن زيد مثله .

٣ ـ جبير بن مطعم :

وروى ابن إسحاق وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقى عن جبير بن مطعم ﷺ قال : رأيت قبل هزيمة القوم ـ والناس يقتتلون ـ مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود قد ملأ الوادى لم أشك أنها الملائكة ، ولم يكن إلا هزيمة القوم .

٤ ـ وروى مسدد فى مسنده ، والبيهقى ، وابن عساكر عن عبد الرحمن مولى أم بُرثن قال :

حدثنى رجل كان من المشركين يوم حنين قال : لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حلب شاة أن كبيناهم ، فبينما نحن نسوقهم فى أدبارهم إذ التقينا بصاحب البغلة ـ وفى رواية : إذ غشينا ـ فإذا هو رسول الله ﷺ ، فتلفتنا عنده ـ وفى رواية : إذ بيننا وبينه رجال بيض حسان الوجوه قالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فرجعنا ، وكانت إياها .

٥ ـ يزيد بن عامر السوائى :

وروى عبد بن حميد ـ والبيهقى عن يزيد بن عامر السوائى ﷺ ، وكان حضر

يومئذ، فسئل عن الرعب ، فكان يأخذ الحصاة ، فيرمى بها فى الطست فيطن . فيقول : إن كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا .

٦ ـ مالك بن أوس بن الحدثان :

وروى محمد بن عمر عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : حدثنى عدة من قومى شهدوا ذلك اليوم يقولون : لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى فما منا أحد إلا يشكو القذى فى عينيه ، ولقد كنا نجد فى صدورنا خفقانًا كوقع الحصى فى الطاس ما يهدأ ذلك الخفقان ، ولقد رأينا يومئذ رجالاً بيضًا على خيل بلق ، عليهم عمائم حمر ، قد أرخوْها بين أكتافهم بين السماء والأرض كتائب كتائب ما يليقون شيئًا ، ولا نستطيع أن نتأملهم من الرعب منهم .

٧ ـ ربيعة بن أبزى :

ورُوى عن ربيعة بن أبزى قال : حدثنى نفر من قومى ، حضروا يومئذ قالوا :

كمنَّا لهم فى المضايق والشعاب ، ثم حملنا عليهم حملة ، ركبنا أكتافهم حتى انتهينا إلى صاحب بغلة شهباء وحوله رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمون أكتافنا ، وكانت إياها ، وجعلنا نلتفت وإنا لننظر إليهم يكدوننا ، فتفرقت جماعتنا فى كل وجه ، وجعلت الرعدة تستخفنا حتى لحقنا بعلياء بلادنا ، فإن كنا ليحكى عنا الكلام ما ندرى به لما كان بنا من الرعب ، وقذف الله تعالى الإسلام فى قلوبنا .

٨ ـ ورُوى أيضًا عن شيوخ من ثقيف أسلموا بعد ما كانوا حضروا ذلك اليوم قالوا:

ما زال رسول الله ﷺ فى طلبنا فيما نرى ، ونحن مولون حتى إن الرجل ليدخل منا حصن الطائف وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة[1] .

٩ ـ رواية موسى بن عقبة :

(قال موسى: وبعث صفوان بن أمية غلامًا له، فقال: اسمع لمن الشعار، فجاءه الغلام فقال : سمعتهم يقولون: يا بنى عبد الرحمن، يا بنى عبد الله ، يا بنى عبيد الله، فقال: ظهر محمد . وكان ذلك شعارهم فى الحرب، وأن رسول الله ﷺ لما غشيه القوم قام فى الركابين وهو على البغلة ويقولون: فرفع يديه إلى الله تعالى يدعوه يقول: « اللهم إنى أنشدك ما وعدتنى ، اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا » ، ونادى أصحابه وذمَّرَهم :

---

(١) أخذ هذا الفصل كله من سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٧٥ ـ ٤٨٤ مقتطفات .

« يا أصحاب البيعة يوم الحديبية، الله الله، الكرة على نبيكم »، ويقال ، قال : « يا أنصار الله وأنصار رسول الله ، يا بنى الخزرج » ، وأمر من أصحابه من يناديهم بذلك ، وقبض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ونواصيهم كلها وقال : « شاهت الوجوه » . وأقبل إليه أصحابه سراعًا ، يقال : إنهم يبتدرون ، وقال: يا أصحاب سورة البقرة ، وزعموا أن رسول الله ﷺ قال : الآن حمى الوطيس ، فهزم الله أعداءه من كل ناحية حصبهم فيها رسول الله ﷺ . واتبعهم فيها المسلمون يقتلونهم ، وغنمهم الله نساءهم وذراريهم وشاءهم) [1] .

١٠ ـ وهذه صورة الجيش الإسلامى عند هوازن :

قال ابن إسحاق : وقال ابن العوجاء النصرى :

ولما دنونا من حنين ومائه ... رأينا سوادًا منكر اللون أخصفا [2]
بملمومة [3] شهباء [4] لو قذفوا بها ... شماريخ[5] من غُزْوى إذن عاد صفصفا
ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم ... إذن ما لقينا العارض[6] المتكشّفا [7]
إذا ما لقينا جند آل محمد ... ثمانين ألفًا واستمدوا بخندفا [8] [9]

وقال مالك بن عوف يذكر مسيرهم بعد إسلامه :

أذكر مسيرهم للناس إذ جمعوا ... ومالك فوقه الرايات تختفق
ومالكٌ مالكٌ ما فوقه أحد ... يوم حنين عليه التاج يأتلق
حتى لقوا الناس حين البأس يقدمهم ... عليهم البيضُ والأبدان والدرق
فضاربوا الناس حتى لم يروا أحدًا ... حول النبى وحتى جنَّهُ الغسق
ثمت نزل جبريل بنصرهم ... من السماء فمهزوم ومعتنق [10]
منا ولو غيرُ جبريل يقاتلنا ... لمنَّعتنا إذن أسيافنا العُتُق
وقد وفى عمر الفاروق إذ هزموا ... بطعنة بلَّ منها سرجه العَلَق [11] [12]

ماذا يفعل القائد مع جيش منهزم مطارد من عدوه ؟

وهذا العدو يبلغ فى عدده قرابة ثلاثة أضعاف جيشه .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٣١، ١٣٢ .
(٢) أخصف : فيه ألوان .
(٣) ملمومة : كتيبة مجتمعة .
(٤) شهباء : عظيمة السلاح .
(٥) الشماريخ : الجبال .
(٦) العارض : هنا السحاب .
(٧) المتكشف : الظاهر .
(٨) خندف : قبيلة .
(٩) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٧٧، ٤٧٨ .
(١٠) المعتنق : الأسير .
(١١) العَلَق : الدم .
(١٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤١٧ .

إنه إما أن يعلن استسلامه لعدوه ، أو أن يلوذ بالفرار ، أو يسقط شهيدًا دفاعًا عن شرفه العسكرى .

هذا مع القائد العادى ، أما مع سيد القادة ـ مع رسول الله ﷺ ـ فالأمر يختلف تمامًا عن ذلك ، فهو الموصول بالله تعالى رب الأرباب ، ومصدر القوة فى هذا الوجود ، فلابد أن يطلب المدد من ربه عز وجل ، ولابد أن يحاول ترتيب صفوف جيشه المنهار ، ويعيد إليه روحه المعنوية العالية ، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع هذا الجيش الذى يشارك معظمه لأول مرة فى معركة معه ، وهذه الأعداد الضخمة التى فرت دفعت بنواة الجيش الأولى أن تشارك فى الفرار .

لقد صمم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ابتداء أن يواجه الجيش وحده ، ولقد قال الله تعالى له فى كتابه : ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (٨٤)** ﴾ [النساء] .

فقد يكون فى مرحلة لا يملك إلا نفسه ، وعليه أن يقاتل عدوه ، وليس لرسول الله أن يفر من الفارين ، أو أن ينهزم من المنهزمين ، ولذلك كانت أول خطواته ضمن تخطيطه المحكم فى أدق الساعات الحرجة ، هو أن يركض بغلته قِبَل الكفار ، وأن يمضى مواجهًا لعدوه ، ثابتًا كالطود لا يتزعزع خطوة إلى الخلف .

ولئن قال موسى عليه السلام :

﴿ **رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي** ﴾ [المائدة : ٢٥] .

فها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يملك إلا نفسه وأخاه من الرضاعة أبا سفيان بن الحارث ، وعمه العباس بن عبد المطلب . والعباس وأبو سفيان قد أعلنا إسلامهما قبيل فتح مكة بأيام ، أى أنه قد مر على إسلامهما أقل من شهر ، ويصف لنا العباس ـ رضوان الله عليه ـ شاهد العيان فى تلك اللحظات :

النبى القائد الذى لم يفقد أعصابه ، ولم تمس معنوياته ، ولم يفقد صوابه ، إنما كان يضع الخطة المناسبة فى أحرج لحظات حياته فى مواجهة عدوه ، ويخطط لتحويل هذه الهزيمة وهذا الفرار إلى نصر حاسم فى الوقت الذى لا يملك فيه إلا نفسه وصاحبيه ـ أبى سفيان والعباس ـ عمًا وابن عم .

(فلما التقى المسلمون والكفار ، ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار ، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ ـ وفى رواية : أكفها ألا تسرع ـ وهو لَا يألو ما أسرع نحو المشركين ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ ـ

وفى رواية : بثفرها ـ فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبى سفيان بن الحارث وهو مقنع فى الحديد . فقال : « من هذا ؟ » ، فقال : ابن عمك يا رسول الله ـ وفى رواية : ابن أمك يا رسول الله) .

لقد عرف رسول الله ﷺ عمه العباس الذى كان يخفف من حدة اندفاع بغلته ، ورسول الله ﷺ يدفعها بعنف إلى الأمام، لكن من هو هذا الفارس الثانى الذى سيشارك مع عمه فى خوض هذه المعركة ، فهو مقنع فى الحديد لا يظهر وجهه ، وجاء الجواب : ابن عمك يا رسول الله ، أو ابن أمك يا رسول الله ، وإذا كانت الحياة مواقف ، فهذا موقف أو منعطف من منعطفات التاريخ أن يثبت فى هذه اللحظة الحرجة ، العدو اللدود لرسول الله ﷺ ، أبو سفيان بن الحارث ، هذا العدو طيلة عشرين عامًا لا يألو يهجو رسول الله ، ويقذع فى هجائه ، ولا يدع وسيلة لحربه إلا حاربها فيه ، عسكرية كانت أو إعلامية أو سياسية ، وكما يقول عبد الرحمن بن سابط :

(كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة ، أرضعته حليمة أيامًا ، وكان يألف رسول الله ﷺ ، وكان له تِربًا ، فلما بُعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعادها أحد قط ، ولم يكن دخل الشّعب ، وهجا رسول الله ﷺ ، وهجا أصحابه ، وهجا حسان بن ثابت . . . ومكث أبو سفيان عشرين سنة عدواً لرسول الله ﷺ يهجو المسلمين ويهجونه ، ولا يتخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله ﷺ ، ثم قذف الله فى قلبه الإسلام) (١) .

وعندما قذف الله تعالى الإسلام فى قلبه قالت له امرأته :

(قد آن لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعت محمدًا وأنت موضع فى عداوته ، وكنت أولى الناس بنصره !) (٢) .

وقال له أحد الأنصار عندما رآه ولم يقبل رسول الله ﷺ إسلامه بعد ، ولخص حياته معه بقوله : « أما ابن عمى ، فقد هتك عرضى » (٣) .

قال له أحد الأنصار : (يا عدو الله، أنت الذى كنت تؤذى رسول الله ﷺ وتؤذى أصحابه قد بلغت مشارق الأرض ومغاربها فى عداوته) (٤) .

(هذا هو أبو سفيان الكافر العدو اللدود الذى قال له حسان :

الا أبلــغ أبــا ســفيان عنــى ... مــغلغـلة فقـد بــرح الخـفــاء

---

(١) المغازى للواقدى ٢/٨٠٦ .
(٢) المصدر نفسه ٢/٨٠٧ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٠٠ .
(٤) المغازى للواقدى ٢/٤٠٨ .

هجوت محمدًا وأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركًا برًا حنيفًا أمين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء)[1]

هذا العدو اللدود ، هو الشخص الثالث الذى سيخوض رسول الله ﷺ به المعركة مع عدوه ، فها هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع العباس وأبى سفيان ، يريد أن يواجه بهؤلاء الثلاثة ثلاثين ألفًا من العدو، لكن أبا سفيان الجديد الذى ولد بالإسلام يحدثنا عن نفسه، وعن تلك اللحظات الحرجة فى التاريخ قائلاً :

(فخرجت معه ، وقد جمعت العرب جمعًا لم يجمع مثله قط ، وخرجوا بالنساء والذرية والماشية ، فلما لقيتهم قلت : اليوم يرى أثرى إن شاء الله ، ولما لقيتهم حملوا الحملة التى ذكر الله : ﴿ ... ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة] ، وثبت رسول الله ﷺ على بغلته الشهباء وجرَّد سيفه) .

ويحدثنا أبو سفيان عن نفسه فى هذه اللحظات قائلاً :(فاقتحم عن فرسى ، وبيدى السيف صلتًا قد كسرت جفنه[2] ، والله أعلم أنى أريد الموت دونه وهو ينظر إلىَّ ، فأخذ العباس لجام البغلة فأخذت بالجانب الآخر ، فقال : « من هذا ؟ » . فذهبت أكشف المِغفَر ، فقال العباس : يا رسول الله، أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث ، فارض عنه ـ أى رسول الله ـ قال : « قد فعلت ، فغفر الله كل عداوة عادانيها » . فأقبِّل رجله فى الركاب) .

لم يتمالك أبو سفيان من فرحته الغامدة برضا رسول الله ﷺ عنه من أن يقبل رجل رسول الله فى الركاب ، بعد أن سمع أسعد كلمة سمعها فى حياته : « قد فعلت ، فغفر الله كل عداوة عادانيها » ، لقد ألقى عن كاهله تاريخ عشرين عامًا من العار والشرك والوثنية وحرب رسول الله ﷺ ، وها هو يقبل الآن ؛ ليكون الشخص الثانى من بين ثلاثين ألفًا ليخوض بهم رسول الله ﷺ معركته الفاصلة .

(ثم التفت إلىَّ وقال : « أخى لعمرى ») .

أما الشخص الأول الذى قُدّر له أن يكون مع رسول الله ﷺ فى أحرج لحظات حياته هو عمه العباس بن عبد المطلب ، وشتان بين ماضى العباس وماضى أبى سفيان بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٣، ٤٢٤ .
(٢) جفنه : غمده .

الحارث .

لقد كان العباس هو خليفة أبى طالب فى حماية رسول الله ﷺ ، فهو لا يغادره لحظة من اللحظات ، والعباس على شركه حتى أن الأنصار عندما قدموا المدينة ليسألوا عن رسول الله ﷺ لم يعرفوه إلا من رفقته للعباس . (فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلاً من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله ﷺ. فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . فقال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمَّه، قلنا : نعم ـ قال : وقد كنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجرًا ـ قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس) (١) .

وهو الذى انفرد من دون الناس جميعًا حتى من المسلمين حين عقد بيعة العقبة بحضور هذه البيعة الخالدة :

(فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يا معشر الخزرج ، إن محمدًا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عزة ومنعة من قومه) (٢) .

وهذا هو يوم الأنصار ، فهل هم مسلموه وخاذلوه ؟ أم هم ناصروه ومانعوه ممن خالفه ؟

ولكنه قبل أن يستغيث بالأنصار الذين بايعوه أكثر من مرة ، كان لابد له أن يستغيث برب الناس جميعًا .

فرفع يديه إلى الله تعالى يدعو يقول :

« اللهم إنى أنشدك ما وعدتنى ، اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا » .

وما انتهى رسول الله ﷺ من استغاثته بربه حتى جاء جيش السماء مددًا له من الملائكة فملأ الساحة كلها ، وأصبح هو المسؤول عن حماية رسول الله ﷺ بلباس موحد، وخيل موحدة ، كان هذا الجيش رجالاً بيضًا على خيل بلق .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٤١ .

ولكن هذا الجيش لم يره إلا جيش العدو ، أما المسلمون فلم يروا شيئًا من هذا ، لأن هذا وقت امتحانهم على ثباتهم وصبرهم ، ورؤية الملائكة معجزة ، ولا يريد الله تعالى لجنده الذى تربى على يديه أن يكون ثباته وصبره بمعجزة ، إنما يريده أن يكون بالطاقة البشرية التى لا تنقطع حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، لكن جيش الشرك الذى صمد له رسول الله ﷺ وعمه وابن عمه لا يكفى ليواجه ثلاثين ألفًا من جحافل الشرك ، فكان هذا الجيش الاحتياطى الذى ملأ الساحة وسد الأفق .

وحدثنا عنه جبير بن مطعم المشرك الحليف للجيش الإسلامى بقوله :

(رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون ، مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود قد ملأ الوادى لم أشك أنها الملائكة ، ولم يكن إلا هزيمة القوم) . وحدثنا عنه مذيع فى جيش هوازن يصف لنا تلك المواجهة بين جيش هوازن وجيش الملائكة ، قال :

(فبينما نحن نسوقهم فى أدبارهم إذ التقينا بصاحب البغلة ـ وفى رواية : إذ غشينا ـ فإذا هو رسول الله ﷺ فتلقينا عنده ، وفى رواية : إذ بيننا وبينه رجال بيض حسان الوجوه قالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فرجعنا وكانت إياها) .

وهذا حديث متواتر عن مجموعة من جيش هوازن تنقل المشهد نفسه ، حيث ينقله لنا المذيع ربيعة بن أبزى بقوله :

(كمّنا لهم فى المضايق والشعاب ، ثم حملنا عليهم حملة ، ركبنا أكتافهم حتى انتهينا إلى صاحب بغلة شهباء وحوله رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه، ارجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمون أكتافنا ، وكانت إياها . . .) .

وهذا هو الجيش الأول الذى غير مصير المعركة .

وكان أن دخل المعركة سلاح جديد لم يسبق له أن استعمل إلا فى بدر ، وهو سلاح التراب أو الحصباء وهو سلاح ذرى لا يتقن استعماله فى الوجود إلا رسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

وبتوجيه ربانى تم السماح فى استعماله ، فماذا كانت نتائجه ؟

كانت نتائجه : الرعب والعمى فى قلوب المشركين .

فهذا عياض بن الحارث لم يصل إلى رسول الله ﷺ والجيش المدجج المحيط به إنما كان من الأفواج المتأخرة التى وصلها السلاح الفتاك حيث يقول :

(أخذ رسول الله ﷺ كفًا من حصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا) .

وهذا شاهد آخر هو عمرو بن سفيان يتحدث عن الهزيمة والرعب الذى رافقها ، فيقدم عنصرًا جديدًا من الساحة :

(قبض رسول الله ﷺ قبضة من الحصباء فرمى بها وجوهنا فانهزمنا ، فما خيل إلينا إلا أن كل حجر وشجر فارس يطلبنا) .

وروى الحارث بن زيد مثله كما فى تاريخ ابن عساكر :

وأثر الرعب كذلك من حديث يزيد بن عامر السوائى : (وكان حضر يومئذ فسئل عن الرعب ، فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطن فيقول : إن كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا) .

وأوس بن الحدثان يقول :

(ولقد كنا نجد فى صدورنا خفقانًا كوقع الحصى فى الطاس ما يهدأ ذلك الخفقان).

أما الرعب من الملائكة :

(ولقد رأينا يومئذ رجالاً بيضًا على خيل بلق عليهم عمائم حمر ، قد أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض كتائب كتائب ما يليقون شيئًا ، وما نستطيع أن نتأملهم من الرعب منهم) .

أما العمى فنشهده من رواية أوس نفسه :

(لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرَّمِية من الحصى ، فما منا أحد إلا ويشكو القذى فى عينيه) .

وفى حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه :

(ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم إنه استقبل به وجوههم وقال :

« شاهت الوجوه » فما خلق الله تعالى إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا من تلك القبضة).

وفى حديث عبد الرحمن بن يزيد الفهرى : (وحدثنى من كان أقرب إليه منى أنه أخذ حفنة من تراب فحثاها فى وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه » . قال يعلى بن عطاء : وأخبرنا أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : ما بقى أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب .

وماذا يفعل المقاتل حين تمتلئ عينه من التراب والقذى فلا يتمكن من رؤية شىء ،

ويمتلئ قلبه من الرعب ، ويكون وقع الحصى فيه كوقع الحصى فى الطست فى الخفقان من الخوف والرعب ؟

وابن العوجاء النصرى يتحدث عن معجزة مرتبطة برؤية الملائكة ، فالجيش الإسلامى كما قلنا: اثنا عشر ألف مقاتل، فكم هو فى ذهن ابن العوجاء النصرى شاعر هوازن ؟!

ولـو أن قومى طاوعتنى سراتهم إذن مـا لقينـا العارض المتكشفا
إذًا مـا لقينا جنـد آل محمـد ثمانين ألفًا واستمدوا بخندفا

وحتى عند قائد جيش هوازن فالقتال مع الملائكة :

ثمـت نُـزِّل جبـريل بنصـرهم مـن السماء فمهـزوم ومعتنق
منـا ولـو غيـرُ جبريل يقاتلنا لمنَّعتنـا إذن أسـيافنـا العُتُق

وكانت الخطوة الثالثة بعد الاستغاثة الربانية ، وقدوم جيش السماء. والإذن باستعمال السلاح الذرى ، كانت الخطوة الثالثة هى الالتفات إلى الجيش المنهزم المبعثر .

وأخذ النداء ثلاثة مناح فى التعامل مع الجيش .

إنه أولاً يعلم مدى حب أهله له،وهذه الفرصة التى سنحت لهم أن يفدوه بأرواحهم ودمائهم، لقد فدوه بأرواحهم ودمائهم،وعاشوا معه فى شعب أبى طالب وهم مشركون، وتحملوا الجوع والفاقة والحرمان والحصار تحت راية شيخهم وزعيمهم أبى طالب ، وقال أبو طالب بلسانهم :

كذبتـم وبيت الله نُبزى محمـدًا ولـمـا نطـاعن دونه ونناضـل
ونسـلمه حـتى نصـرَّع حـوله ونـذهـل عن أبنـائنا والحلائـل

وها هم اليوم قد دخلوا فى دين الله ، وجاءت الفرصة ليصرعوا حوله ويذهلوا عن أبنائهم ونسائهم وها هم يسمعون النداء :

« أنـا النبى لا كـذب أنا ابن عبد المطلب »

فهو يُطل على العرب جميعًا بنبوته وبنسبه لجده عبد المطلب ، فأين أبناء عبد المطلب الذين يحمون عرينه ويذودون عنه، لقد رأينا من قبل العباس بن عبد المطلب، وأبا سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب اللذين مضى بهما رسول الله ﷺ ليواجه الثلاثين ألفًا، حيث كان يركض بغلته نحو العدو ، وانضم لهم فتى الفتيان بطل بنى هاشم على بن أبى طالب ابن عبد المطلب .

فعند ابن أبى شيبة من مرسل الحكم بن عتيبة قال :

(لما فرَّ الناس يوم حنين جعل النبى ﷺ يقول :

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

فلم يبق معه إلا أربعة نفر ، ثلاثة من بنى هاشم ورجل من غيرهم: على والعباس بين يديه ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالعنان ، وابن مسعود فى الجانب الآخر) [١] .

ولم يأت هذا النداء لبنى عبد المطلب بعلى فقط، فعلى إنما قدم طائراً ليكون بين يدى رسول الله ﷺ حين رأى الهزيمة، لكن النداء جاء بسبعة آخرين من أبطال بنى عبد المطلب وبوزيرى رسول الله ﷺ لتكون القيادة جاهزة للانعقاد .

وأما ما ذكره النووى فى شرح مسلم أنه (ثبت معه اثنا عشر رجلاً . فكأنه أخذه مما ذكره ابن إسحاق فى حديثه : أنه ثبت معه العباس وابنه الفضل وعلى وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة ، وأسامة بن زيد وأخوه من أمه أيمن ابن أم أيمن ، ومن المهاجرين: أبو بكر وعمر فهؤلاء تسعة ، وقد تقدم ذكر ابن مسعود فى مرسل الحاكم فهؤلاء عشرة . وحق للعباس رضي الله عنه وهو يرى بنيه وبنى عمه وبنى إخوته هم الذين يحيطون برسول الله ﷺ إحاطة السوار بالمعصم ، إنهم بنو عبد المطلب جاؤوا يفدون سيدهم ونبيهم بالروح والدم وكما تقول الرواية :

وليس يقبل نحوه أحد إلا قتل)[٢] .

وفقد هؤلاء العشرة شهيداً منهم سجله العباس معهم رضوان الله عليه بشعره حين قال:

(نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة وقد فرَّ من قد فر عنه وأقشعوا
وعاشرنا وافى الحمام بنفسه لما مسَّه فى الله لا يتوجع)[٣]

ولا تزال كلمة ابن عبد المطلب تعطى صداها فى نفس بنى عبد المطلب حتى تكامل بجوارهم سبعة آخرون من أهل رسول الله ﷺ ، فلم يكن أهله فى اليخت الملكى خلف الصفوف عليهم حراسة خاصة ، إنما كانوا هم بنو الموت بين يدى سيدهم محمد بن عبد المطلب :

وما ترك قوم لا أبا لك سيداً كحوط الذماء غير ذرب مواكل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى رحمة وفواضل

(١ ، ٢) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٨/ ٢٩ . (٣) المصدر نفسه ٨/ ٣٠ .

وهى أمجادهم يتوارثونها كابراً عن كابر ، وآن الأوان لترجمة القول بالفعل ، فهم أمام جيش عرمرم يهدف القضاء على سيدهم والفتك به .

أما السبعة الذين انضموا من بنى عبد المطلب إلى هذا السوار الخالد وهذا الجدار من اللحم والدم فهم كما ذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح : (وممن ذكر الزبير بن بكار وغيره أنه ثبت يوم حنين أيضًا : جعفر بن أبى سفيان بن الحارث ، وقثم بن العباس ، وعتبة ومعتب ابنا أبى لهب ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب ، وشيبة بن عثمان الحجبى)[1] .

وننتقل من بنى عبد المطلب إلى الجنود المجهولين الذين لم يُعرف بهم إلا القرآن الكريم، والذين تناهى إلى أسماعنا بعض أسمائهم فنالوا مع رسول الله ﷺ شرف نزول السكينة عليهم :

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : ٢٦] .

هؤلاء المؤمنون ثبتوا فى مواقعهم ، ولو لم يكونوا حول رسول الله ﷺ ، وما تزعزعت أقدامهم ، ولا خارت عزائمهم، إنما كانوا وقبل نزول الملائكة ثابتين على العهد، وهم الذين أطلق عليهم : المائة الصابرة ، ولا ريب أن العشرين المذكورين منهم .

(فقد روى الترمذى من حديث ابن عمر بإسناد حسن قال :

لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولين وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل ، وهذا أكثر ما وقفت عليه من عدد من ثبت يوم حنين ، وروى أحمد والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال :

كنت مع النبى ﷺ يوم حنين ، فولى عنه الناس ، وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدامنا ، ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، وهذا لا يخالف حديث ابن عمر ، فإنه نفى أن يكونوا مائة ، وابن مسعود أثبت أنهم كانوا ثمانين)[2] .

ولعل حديث ابن مسعود انصبَّ على الثمانين المهاجرين والأنصار ، وحديث ابن عمر انصبَّ على الذين ثبتوا من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فكثير ممن ذكر أنهم ثبتوا مع رسول الله ﷺ من بنى هاشم ليسوا من المهاجرين والأنصار .

(قال محمد بن عمر يقال : إن رسول الله ﷺ لما انكشف الناس عنه يوم حنين قال

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ٨/ ٢٩ ، ٣٠ .

لحارثة : « يا حارثة ، كم ترى الناس الذين ثبتوا ؟ » قال : فما التفت ورائى تحرجًا ، فنظرت عن يمينى وعن شمالى فحزرتهم مائة . فقلت : يا رسول الله ، هم مائة ، فما علمت أنهم مائة حتى كان يوم مررت على النبى ﷺ وهو يناجى جبريل ، فقال جبريل : يا محمد من هذا ؟ قال رسول الله ﷺ : « حارثة بن النعمان » ، فقال جبريل : هو أحد المائة الصابرة يوم حنين ، لو سلم لرددت عليه . فأخبر رسول الله ﷺ حارثة قال : ما كنت أظنه إلا دحية الكلبى واقفًا معك)(1) .

(ويقال : إن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين ، وسبعة وستون من الأنصار)(2) .

وقدّم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين يدى ربه هذا الدعاء حين انكشف الناس عنه ولم يبق إلا المائة الصابرة: « اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان ». قال له جبريل: لقد لُقّنت الكلمات التى لقّن الله موسى يوم فلق البحر أمامه وفرعون خلفه)(3) .

لقد قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ دعاءه ذاك حين قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) ﴾ ، وأجابهم : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) ﴾ [الشعراء] ، ثم أطلق هذه الكلمات ، فانفلق له البحر ، وأطلق المصطفى ﷺ هذه الكلمات فنزل جيش السماء من الملائكة ، لكنه لم يقاتل ، واستعمل السلاح الذرى من التراب والحصباء ، ثم جاء دور التخطيط لعودة الجيش إلى قائده ، فافتتح بالرجز النبوى الخالد :

« أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب »

وبعد أن رأى رسول الله ﷺ المائة الصابرة حوله ، كانت الخطوة الرابعة ، هذه الخطوة هى استدعاء جيش الصاعقة عنده الذى قاتل معه منذ اللحظات الأولى للقتال منذ بدر، وثبت معه فى أحد ، وثبت معه فى الخندق ، وبايع على الموت فى الحديبية ، وشارك فى فتح مكة ، جيش الصاعقة هذا هو جيش الأنصار ، فهو الذى خاض غمار الحروب السابقة ، ولم يتخل لحظة واحدة عن رسول الله ﷺ ، وهو الآن يحتاج فقط إلى وصل التيار الكهربائى بالمولد الأعظم ، بمحمد ﷺ حتى يتحول هذا الجيش كله من السالب إلى الموجب ، ويضىء درب الفداء بالدماء ، وكان أن أرسل المصطفى ﷺ تياره فى هذا الجيش .

(قال العباس : فقال رسول الله ﷺ : « يا عباس ، ناد : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة ») .

(1 ، 2) المغازى للواقدى 3/ 900، 901 .   (3) المصدر نفسه 3/ 901 .

فهذه الأوسمة التى نالوها فى تاريخهم الأغر لابد أن يذكروا بها ، أليسوا هم أصحاب سورة البقرة التى نزلت فى ناديهم وتربوا عليهم فى كل آية من آياتها عبادة وجهاداً وتضحية ؟!

أليسوا هم أصحاب السمرة ؟ أليسوا هم الذين بايعوا تحت شجرة السمرة على الموت؟ فأين يفرون اليوم ؟ هل ينكثون بالعهد ؟ ألم ينالوا وسام رضوان الله بعد البيعة : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾ [الفتح: ١٨]، ونالوا وسام النبوة: « أنتم خير أهل الأرض » ، ونالوا الوسام الثالث : « لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ أحد بايع تحت الشجرة » فأين يفرون عن نبيهم اليوم ؟

أليسوا هم الأنصار لله ولرسوله ، وقد سماهم الله تعالى بذلك ؟ ألم يدخلوا التاريخ بهذا الشرف العظيم الذى ألبسوه ، فأين هم اليوم يدعون قائدهم وحده ؟

ومضى التيار يسرى فى نفس كل أنصارى .

قال العباس:(« فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها)، وفى حديث عثمان بن شيبة : « يا عباس ، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، وبالأنصار الذين آووا ونصروا » . قال :

(فوالله ما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها، حتى ترك رسول الله ﷺ كأنه فى حرجة ، فلرماح الأنصار كانت أخوف عندى من رماح الكفار) .

لقد سرى التيار الكهربى بحيث وصل إلى قلب كل أنصارى فأشعله بحمية الإسلام، ونار الحنين لله ورسوله والجهاد فى سبيله ، فصار فى طاقته أكبر من أن يقدر على مقاومته .

(فقالوا : يا لبيك ، يا لبيك ، يا لبيك ، فيذهب الرجل يثنى بعيره ولا يقدر على ذلك ـ أى لكثرة الأعراب المنهزمين ـ فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه،ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، فيخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا هم والكفار) .

وإذا كان البعير لا يقدر مقاومة الأمواج المنهزمة من البعير والخيل والبشر،فالأنصارى قادر على ذلك، فيأخذ سلاحه ، ويمضى نحو الصوت لعله يلقى الموت هناك .

ولو لم يكن فى كفه غير روحه   لجـاد بها فليتق الله سـائله

وآن أوان الجود بالأرواح .

وتخصص النداء أكثر فى الكتيبة الفدائية ، بطلائع الكتيبة فى بنى الحارث بن الخزرج.

(وكانوا صبراً عند الحرب، وأشرف رسول الله ﷺ فى ركابيه ، فنظر إلى مجتلدهم وهم يجتلدون وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال رسول الله ﷺ هذا حين حمى الوطيس) .

فقد أجج تنور المعركة ، وقد اشتبك الكفر بالإيمان فى معركة الفداء ، وقد حققت كتيبة المغاوير من الأنصار بيعتها يوم الحديبية على الموت ، وراحت تجالد أعداء الله ، وأعداء رسوله ، فكيف يصمد الكفر للإيمان ، إنه حين اشتبك الفريقان بعدوهم الضئيل القليل خرج الإعلان النبوى المدوى :

« انهزموا ورب محمد » .

(فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً ، وأمرهم مدبراً ، فوالله ما رجع الناس إلا وأسارى عند رسول الله ﷺ مكتفون ، قتل الله تعالى منهم من قتل ، وانهزم منهم من انهزم ، وأفاء الله تعالى على رسوله أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فقد قذف الله الرعب فى قلوبهم من الحصيات النبوية ، فما أسرع ما استسلموا قتلاً أو أسراً ، وأصدق ما يكون وصفهم هو لأبى سفيان بن الحارث ، بطل الإسلام اليوم والرجل الثانى فى الفداء بعد عمه العباس ، حيث كان يوم بدر فى جيش الشرك ، وخرج فاراً ناجيًا بنفسه ، فلقيه عمه أبو لهب فسأله :

هلم إلى يا بن أخى ، فعندك لعمرى الخبر .

قال أبو سفيان لعمه أبى لهب : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلون منا ويأسرون منا كيف شاؤوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض والله ما تُليق شيئًا ، ولا يقوم لها شىء) .

هذا فى بدر ، أما اليوم فأبو سفيان بن الحارث يضارب القوم بين يدى رسول الله ﷺ والرجال البيض والخيل البلق معه تصد المشركين عنه ، وولدا أبى لهب عتبة ومعتب بجوار أبى سفيان يذودان عن الإسلام ورسول الإسلام ، وسيد بنى هاشم محمد ﷺ .

وكانت الخطوة الرابعة ـ فى تفجير الطاقات من رسول الله ﷺ ، والعودة بالجيش إلى الثبات والجهاد ـ هى الاهتمام بطلائع الجيش التى كانت أول الفارين ، وسلاح

الفرسان الذى فقد دوره فى المعركة والذى كان أكثر من نصفه من بنى سليم .

فأراد رسول الله ﷺ أن يصل بينه وبين بنى سليم بوشيجة رحم وقربى تدفعهم إلى الثبات والعودة عن الفرار ، فأصدر إمام القادة فى الأرض نداءه :

« أنا ابن العواتك من سُلَيْم » .

والعواتك : عماته وجدات له من قيس لآبائه وأجداده ، ومنهن عاتكة بنت مرة بن هلال السلمى أم هاشم وعبد شمس والمطلب بنى عبد مناف .

وعاد السلميون وفرسانهم فمارسوا دورهم فى القتال ، بعد أن صدت الملائكة هجوم هوازن، واستجابوا لذلك النداء الدافئ الذى يربطهم برسول الله ﷺ فهم أخواله ، إضافة إلى إسلامهم ، وبرز سادة الأوس والخزرج يهتفون بقومهم لتكتمل الملحمة .

فقد ذكر الواقدى : (أن سعد بن عبادة يصيح يومئذ : يا للخزرج ، يا للخزرج ، وأسيد بن حضير : يا للأوس ، يا للأوس ثلاثًا ، فثابوا والله من كل ناحية كأنهم النحل تأوى إلى يعسوبها ، فخنق المسلمون عليهم فقتلوهم حتى أسرع المسلمون فى قتل الذرية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال :

« ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية ، ألا لا تقتل الذرية » ثلاثًا . فقال أسيد بن حضير :

يا رسول الله ، أليسوا هم أولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« أو ليس خياركم أولاد المشركين ، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها ») (١) .

وتغيرت الساحة تمامًا ، فبعد أن كان المشركون هم الذين يطاردون المسلمين بعد أن ولوا مدبرين ، استطاع سيد القادة ﷺ بمدده بجيش السماء ، واستدعاء كتيبته الفدائية من أهل الأرض ، وأوبة الجيش كله فيما بعد ، استطاع أن يحول الهزيمة الماحقة إلى نصر ساحق. يصف هذا النصر بعض الجنود الذين كانوا فى جيش هوازن كما نقل عنهم ربيعة ابن أبزى قال : حدثنى نفر من قومى حضروا يومئذ قالوا :

(كمنَّا لهم فى المضايق والشعاب ، ثم حملنا عليهم حملة ، ركبنا أكتافهم ، حتى انتهينا إلى صاحب بغلة شهباء وحوله رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فانهزمنا ، وركب المسلمون أكتافنا ، وكانت إياها ، وجعلنا نلتفت

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٠٥ .

وإنا لننظر إليهم يكدوننا ، فتفرقت جماعتنا فى كل وجه ، وجعلت الرعدة تستخفنا حتى لحقنا بعلياء بلادنا ، فإن كنا ليحكى عنا الكلام ما ندرى به لما كان بنا من الرعب وقذف الله تعالى الإسلام فى قلوبنا) .

لقد كانت التربية ربانية خالصة .

فمهما سمع هذا الجيل أو قرأ أن النصر من عند الله ، لن يستطيع أن يستوعب هذا الجانب من العقيدة استيعابًا حقيقيًا إلا من خلال التجربة والمعاناة ، وكانت هذه التربية لهذه الآلاف الجديدة التى انضمت حديثًا إلى الإسلام والتى لم تنضم بعد تراها عيانًا على المسرح ، فتقع الهزيمة ، ويفر الجيل كله ، بل يهز أركان الجيل القيادى الأول فيضطره للفرار معه ، ثم يرى وهو لا يدرى مصيره أيكون أسيرًا أم قتيلاً ؟ يرى معية الله سبحانه وقد ردت الثلاثين ألفًا عن ملاحقة المسلمين ، وقد بدؤوا يلوذون بالفرار بدون قوة بشرية ولا طاقة مادية تواجههم ! ترى من الذى فعل بهم ذلك ؟ إنه نصر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بالملائكة الذين لا يرونهم ، وبكف الحصى التى أعمت عيونهم ، وأعمت قلوبهم بالرعب ، وها هو الجيش الفار المنذعر يعود أدراجه ليطارد هوازن ويلاحقها ، ويشتبك معها ، ويفوز بالأسرى والغنائم منها . إنها المعجزة الخالدة التى شهدها هذا الجيل بحسه وعصبه ، وكان هذا كافيًا أن يجعل دفقات الإيمان أنهارًا تتفجر فى قلوبهم ، وتغمر كيانهم ، ويأتى القرآن بعد هذا ليؤكد هذا المعنى ويثبته فى أذهانهم .

إننا نحن اليوم وبعد مرور خمسة عشر قرنًا نقرأ هذه الآيات فيهتز كياننا منها ، وننهل من معين الإيمان من خلال فقهها ، ونقرأ أحداث السيرة ، وكيف تغيرت الآية كلها ، وانقلب السحر على الساحر ، وحمى الوطيس ، ووقعت الهزيمة بثلاثين ألفًا من غير حول ولا طول من هذه الآلاف العشرة أو الاثنى عشرة .

لقد ارتدت هوازن حسيرة كليلة يوم التقت بصاحب البغلة الشهباء ، والتقت بالحرس الإلهى حوله من الملائكة يصرخ فيهم : شاهت الوجوه ، وولوا والرعب يملأ أفئدتهم مع كف الحصباء والتراب الذى نزل بهم ، وجاء دور الجيش الإسلامى الفار بعد ذلك ليعيد تنظيمه ، ويأخذ وضعه الجديد فى الالتحام ، ثم المواجهة ثم المطاردة .

وهذه هى عملية تربية القاعدة العريضة التى تنال آلاف الأفراد فى لحظة واحدة ، فتمدهم برصيد إيمانى عجيب وإسلامى هائل .

والكفار من هوازن كانت هذه المعركة بالنسبة لهم معبر الانتقال إلى الإسلام ، فقد شهدوا بأم أعينهم المعجزة التى ردتهم على أدبارهم خاسرين ، والتى قلبت الموازين كلها

عليهم بعد أن كانت لهم . حتى ليفرون إلى علياء بلادهم لا يعون ، ومنهم من يفر إلى حصن الطائف وإنه ليظن أنه على أثره ـ أى المسلم ـ من رعب الهزيمة .

أما الجدار البشرى من اللحم والدم ، وأما المائة الصابرة التى زكاها الله تعالى فى قرآنه ، وما تلاها بعد ذلك من انضمام كتيبة الأنصار ، والذين أنزل الله سكينته عليهم والذين يمثلون الجيل القيادى ـ جيل الفداء ـ فهذه نماذج من الحديث عنه فى الفصل الجديد .

نماذج من التربية الفردية

أولا : البطولات الفردية :

١ ـ (روى البزار عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا ـ رضى الله تعالى عنهم ـ ضُرِب كل منهم يومئذ بضع عشرة ضربة وابن مسعود) [١] .

٢ ـ (وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح له طويل أمام الناس ، إذا أدرك طعن ، قد أكثر فى المسلمين القتل ، فيصمد له أبو دجانة فعرقب جمله ، فسمع خرخرة جمله واكتسح الجمل ، ويشد علىٌّ وأبو دجانة عليه ، فيقطع على يده اليمنى ، ويقطع أبو دجانة يده اليسرى ، وأقبلا يضربانه بسيفيهما جميعًا حتى تثلم سيفاهما ، فكف أحدهما ، وأجهز الآخر عليه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : امض ، لا تعرج على سَلبه ، فمضيا يضربان أمام النبى ﷺ ، ويعترض لهما فارس من هوازن بيده راية حمراء ، فضرب أحدهما يد الفرس ، ووقع لوجهه ، ثم ضرباه بأسيافهما فمضيا على سَلبه . . . وكان عثمان بن عفان ، وعلى ، وأبو دجانة ، وأيمن ابن عبيد يقاتلون بين يدى رسول الله ﷺ) [٢] .

٣ ـ (وروى ابن أبى شيبة والإمام أحمد ، وابن حبان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل قتيلا فله سَلبه » . قال : فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم) [٣] .

٤ ـ وروى الشيخان وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن أبى قتادة ـ الحارث بن ربعى ـ واللفظ لمسلم قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين ، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة ، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين ، فاستدرت إليه حتى أتيته من ورائه، فضربته على حبل عاتقه ، وأقبل علىَّ فضمنى ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت، فأرسلنى ، فلحقت عمر بن الخطاب فقال : ما للناس ؟ فقلت : أمر الله. ثم إن الناس رجعوا ، وجلس رسول الله ﷺ فقال : « من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه ». قال : فقمت فقلت: من يشهد لى ـ ثم جلست ، ثم قال مثل ذلك ، قال: فقمت فقلت : من يشهد لى ؟ ثم جلست ـ ثم قال ذلك الثالثة فقمت، فقال رسول الله

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٨٥ .
(٢) المغازى للواقدى ٣/ ٩٠٢ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٩٤ .

ﷺ : « مالك يا أبا قتادة ؟ » ، فقصصت عليه القصة . فقال رجل من القوم : صدق يا رسول الله ، سلب ذلك القتيل عندى ، فأرضه من حقه ، وقال أبو بكر الصديق : لا ها الله (١) ، إذاً لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سَلَبه، فقال رسول الله ﷺ : « صدق ، فأعطه إياه » ، فأعطانى ، قال : فبعت الدرع فابتعت به مَخرِفًا (٢) فى بنى سلمة ، فإنه لأول مال تأثلته (٣) فى الإسلام . وفى حديث الليث فقال أبو بكر : كلا ، لا يعطيه أضيبع من قريش ويدع أسدًا من أسد الله) (٤) .

٥ ـ ورى البخارى عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال : غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن ، فبينما نحن نتضحى مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه ، ثم انتزع طلقًا من حقبه فقيَّد به الجمل ، ثم تقدم فتغدى مع القوم ، وجعل ينظر ، وفينا ضعفة ورقة من الظهر ، وبعضنا مشاة إذ خرج يشتد فأتى الجمل فأطلق قيده ، ثم أناخه فقعد عليه واشتد به الجمل ، واتبعه رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على ناقة ورقاء، ثم انفتل ، فقال رسول الله ﷺ : « اطلبوه ثم اقتلوه » . قال سلمة : وخرجت أشتد فكنت عند ورك الناقة ، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته ، فلما وضع ركبته على الأرض اخترطت سيفى فضربت رأس الرجل فندر ، ثم جئت بالجمل عليه درعه وسلاحه ، فاستقبلنى رسول الله ﷺ والناس معه فقال : « من قتل الرجل ؟ » قالوا : ابن الأكوع . قال : « له سلبه أجمع » .

٦ ـ قال أنس بن مالك كما رواه الإمام أحمد :

(. . . غزوت معه يوم حنين فخرج المشركون بكثرة فحملوا علينا حتى رأينا خيلنا وراء ظهورنا وفى المشركين رجل يحمل علينا فيدقنا ويحطمنا ، فلما رأى ذلك نبى الله ﷺ نزل فهزمهم الله عز وجل فولوا ، فقام نبى الله ﷺ حين رأى الفتح ، فجعل نبى الله ﷺ يجاء بهم أسارى رجلاً رجلاً فيبايعونه على الإسلام ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : إن علىّ نذرًا لئن جىء بالرجل الذى كان منذ اليوم يحطمنا لأضربن عنقه ، فسكت النبى ﷺ وجىء بالرجل فلما رأى نبى الله قال : يا نبى الله ، تبت إلى الله، يا نبى الله، تبت إلى الله، فأمسك نبى الله ﷺ فلم يبايعه ليوفى الآخر بنذره، قال فجعل ينظر النبى ﷺ ليأمره بقتله ، وجعل يهاب نبى الله أن يقتله ، فلما رأى نبى الله ﷺ لا يصنع شيئًا بايعه ، فقال: يا رسول الله نذرى، قال: « لم أمسك عنه منذ اليوم

---

(١) لا ها الله : ها : بمعنى الواو التى يقسم بها فكأنه قال : لا والله (النووى) .

(٢) مَخرفًا : بستانًا .

(٣) تأثلته : اقتنيته .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٦٤، ٤٦٥، وهو عند مسلم ٣/ ١٣٧٠ ح (٤١/ ١٧٥١) .

إلا ليوفى نذرك » . فقال : يا نبى الله ، ألا أومضت إلى ؟ فقال : « إنه ليس لنبى أن يومض ») (١) .

٧ ـ قالوا : وهزم الله تعالى أعداءه من كل ناحية ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ، وغنمهم الله تعالى نساءهم وذراريهم وأموالهم ، وفرَّ مالك بن عوف حتى بلغ حصن الطائف هو وأناس من أشراف قومه ، وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة حين رأوا نصر الله تعالى رسوله وإعزاز دينه .

قال ابن إسحاق : ولما هزم الله تعالى المشركين من أهل حنين وأمكن رسول الله ﷺ منهم قالت امرأة من المسلمين :

قد غلبت خيل الله خيل اللات ... وخيله أحق بالثبات

ورجع رسول الله ﷺ من جهة المشركين بعد انهزامهم إلى العسكر وأمر بقتل كل من قدر عليه ، وثاب من انهزم من المسلمين .

وروى البزار بسند رجاله ثقات عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم حنين : « اجزروهم جزرًا » ، وأومأ بيده إلى الحلق (٢) .

ثانيًا : البطولات النسائية :

٨ ـ قال محمد بن عمر الواقدى: (حدثنى سليمان بن بلال عن عُمارة بن غزية قال:

قالت أم عمارة : لما كان يومئذ والناس منهزمون فى كل وجه ، وأنا وأربع نسوة فى يدى سيف لى صارم وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها وهى يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة ، وأم سليط ، وأم الحارث قالوا : فجعلت تسله وتصيح بالأنصار : أية عادة هذه ، مالكم وللفرار ! قالت : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء ، يوضع بجمله فى أثر المسلمين ، فأعترض له فأضرب عرقوب الجمل ، وكان جملاً مشرفًا (٣) ، فوقع على عجزه ، وأشد عليه ، فلم أزل أضربه حتى أثبته ، وأخذت سيفًا له ، وتركت الجمل يحزحز يتصفق ظهرًا لبطن ، ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده ، قد طرح غمده ينادى: « يا أصحاب سورة البقرة ». قال : وكرَّ المسلمون، فجعلوا يقولون : يا بنى عبد الرحمن ، يا بنى عبيد الله ، يا خيل الله ، وكان رسول الله ﷺ قد سمى خيله: خيل الله، وجعل شعار المهاجرين : بنى عبد الرحمن ، وجعل

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ١٥١.
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٨٩ ، وعند ابن هشام فى السيرة ٢/ ٤٤٩ .
(٣) مشرفًا : عاليًا .

شعار الأوس : بنى عبيد الله ، فكرَّت الأنصار ، ووقفت هوازن حَلَبَ ناقة فتوح ، ثم كانت إياها ، فوالله ما رأيت هزيمة كانت مثلها ، ذهبوا فى كل وجه . فرجع ابناى إلى - حبيب وعبد الله ابنا زيد - بأسارى مكتفين ، فأقوم إليهم من الغيظ ، فأضرب عنق واحد منهم ، وجعل الناس يأتون بالأسارى ، فرأيت فى مازن بن النجار ثلاثين أسيراً ، وكان المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مكة ، ثم كروا بعد ما تراجعوا ، فأسهم لهم النبى ﷺ جميعًا)[1] .

٩ - وكان أنس بن مالك يقول : (إن أم سليم أمى ابنة ملحان جعلت تقول : يا رسول الله ، أرأيت هؤلاء الذين أسلموك ، وفروا عنك وخذلوك ، لا تقف عنهم إذا أمكنك الله منهم ، فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين . فقال : « يا أم سليم قد كفى الله، عافية الله أوسع » ومعها يومئذ جمل أبى طلحة قد خشيت أن يغلبها ، فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها فى خِزامته مع الخِطام ، وهى شادة وسطها ببرد لها ، ومعها خنجر فى يدها ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته معى إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به ، قال أبو طلحة : أما تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟ !) .

١٠ - (وكانت أم الحارث الأنصارية أخذت بخطام جمل أبى الحارث زوجها ، وكان جمله يسمى المجسار. فقالت : يا حار ، تترك رسول الله ﷺ ، فأخذت بخطام الجمل، والجمل يريد أن يلحق بألافه ، والناس يولون منهزمين وهى لا تفارقه ، فقالت أم الحارث : يا عمر ، ما هذا ؟ فقال عمر : أمر الله ، وجعلت أم الحارث تقول : يا رسول الله من جاوز بعيرى فأقتله ، والله إن رأيت كاليوم ما صنع هؤلاء القوم بنا - تعنى بنى سُليم وأهل مكة الذين انهزموا بالناس) .

ثالثًا : وضع قيادات العدو :

١١ - وكانت راية الأحلاف من ثقيف مع قارب بن الأسود بن مسعود ، فلما انهزم الناس أسند رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه من الأحلاف ، فلم يقتل منهم إلا رجلان من بنى غيرة: وهب واللجلاج، وقال النبى حين بلغه قتل اللجلاج: « قُتِل اليوم سيد شبان ثقيف، إلا ما كان من ابن هنيدة ». وكانت راية بنى مالك مع ذى الخمار، فلما انهزمت هوازن اتبعهم المسلمون ويُستحصى القتل من ثقيف ببنى مالك فقتل منهم قريب من مائة رجل تحت رايتهم فيهم عثمان بن عبد الله ، فقاتل بها مليًا ، وجعل يحث

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٠٢ ، ٩٠٣ .

ثقيفًا وهوازن على القتال حتى قتل .

وكان اللجلاج رجلاً من بنى كُنَّة ، وقال رسول الله ﷺ لأخى بنى كُنة : « هذا سيد شبان كُنَّة إلا ابن هنيدة ـ الحارث بن عبد الله بن يعمر بن ـ الحارث » . وكان رسول الله ﷺ يضحك ، وكانت كُنَّة امرأة من غامد يمانية قد ولدت فى قبائل العرب ، فأعتق الحارث كل مملوك من بنى كُنة (١) .

١٢ ـ (ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف ، وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك فى نخلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الثنايا .

فأدرك ربيعة بن رُفيع دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة ، وذلك أنه كان فى شجار له ، فإذا برجل فأناخ به ، فإذا شيخ كبير وهو دريد بن الصمة، ولا يعرفه الغلام ، فقال دريد : ماذا تريد بى ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال: أنا ربيعة بن رُفيع السلمى ، ثم ضربه بسيفه ، فلم يُغن شيئًا ، فقال : بئس ما سلحتك أمك ، خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ، وكان الرحل فى الشجار ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ فإنى كنت كذلك أضرب الرجال . ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم والله قد منعتُ فيه نساءك ، فزعم بنو سُليم أن ربيعة لما ضربه فوقع فتكشف ، فإذا عجانه(٢) وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء(٣) ، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه. فقالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثًا) (٤) .

رابعًا : القيادات الإسلامية :

١٣ ـ قال ابن إسحاق :

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف فى فوارس من قومه على ثنية من الطريق وقال لأصحابه : قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم ، وتلحق أخراكم ، فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس .

قال ابن هشام : (وبلغنى أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنية ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ فقالوا : نرى قومًا واضعى رماحهم بين آذان خيلهم ، طويلة

---

(١) المغازى للواقدى ٣/٩٠٦، ٩٠٧ .
(٢) عجانه : ما بين فرجيه .
(٣) أعراء : جمع عرى وهو الذى لا سرج له .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٥٣ .

بوادُّهم (١) ، فقال : هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم ، فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قومًا عارضى رماحهم (٢) اغفالاً (٣) على خيلهم . فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بنى سليم ، ثم طلع فارس ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارسًا طويل الباد ، واضعًا رمحه على عاتقه، عاصبًا رأسه بملاءة حمراء . فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللات ليخالطنكم، فاثبتوا له . فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم ، فصمد (٤) لهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها) (٥) .

١٤ ـ وروى البزار فى مسند أنس بإسناد حسن ما يشعر بأن قاتل دريد بن الصمة هو الزبير بن العوام ولفظه : (لما انهزم المشركون انحاز دريد بن الصمة فى ستمائة نفس على أكمة فرأوا كتيبة، فقال : خلوهم لى ، فخلوهم ، فقال : هذه قضاعة ولا بأس عليكم منهم . ثم رأوا كتيبة مثل ذلك ، فقال : هذه سُليم ، ثم رأوا فارسًا وحده ، فقال : خلوه لى ، فقالوا : معتجر بعمامة سوداء . فقال : هذا الزبير بن العوام وهو قاتلكم ومخرجكم من مكانكم هذا . قال : فالتفت الزبير فرآهم ، فقال : علام هؤلاء ها هنا ؟ فمضى إليهم ، وتبعه جماعة فقتلوا منهم ثلاثمائة فحز رأس دريد بن الصمة ، فجعله بين يديه) (٦) .

١٥ ـ عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : لما فرغ النبى ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس ، فلقى دريد بن الصمة ، فقُتل دريد ، وهزم الله أصحابه ، قال أبو موسى : وبعثنى مع أبى عامر ، فرُمى أبو عامر فى ركبته ، رماه جُشمى بسهم فأثبته فى ركبته ، فانتهيت إليه، فقلت: يا عم من رماك ؟ فأشار إلى أبى موسى ، فقال : ذاك قاتلى الذى رمانى ، فقصدت إليه ، فلحقته ، ثم قلت لأبى عامر : قتل الله صاحبك، قال : فانزع هذا السهم ، فنزعتُه فنزا منه الماء . قال : يا بن أخى ، أقرئ النبى ﷺ منى السلام وقل له : استغفر لى ، واستخلفنى أبو عامر على الناس . فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبى ﷺ فى بيته على سرير مرمل ، وعليه فراش قد أثَّر رمال السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر ، وقال : قل له : استغفر لى ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال : « اللهم اغفر لعُبيد أبى عامر » ، ورأيت بياض إبطيه ثم قال : « اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس » . فقلتُ :

---

(١) البواد : باطن الفخذ .
(٢) عارضى رماحهم : واضعيها بالعرض .
(٣) اغفالاً : لم يعلموا أنفسهم بشىء يعرفون به .
(٤) صمد : قصد .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٦/٢ .
(٦) فتح البارى لابن حجر ٤٢/٨ .

ولى فاستغفر ، فقال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا » [1] .

١٦ - قال ابن إسحاق : وبعث رسول الله ﷺ فى آثار من توجه قبل أوطاس[2] أبا عامر الأشعرى ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فَرُمِى أبو عامر بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى وهو ابن عمه ، فقاتلهم ، ففتح الله على يديه فهزمهم ، فيزعمون أن سلمة بن دريد هو الذى رمى أبا عامر الأشعرى [3] بسهم فأصاب ركبته فقتله ، فقال :

إن تسألوا عنى فإنى سلمه ... ابن سمادير لمن توسمه

أضرب بالسيف رؤوس المسلمه

قال ابن هشام : (وحدثنى من أثق به من أهل العلم بالشعر وحديثه : أن أبا عامر الأشعرى لقى يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين ، فحمل عليه أحدهم ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه . فقتله أبو عامر ، ثم حمل عليه آخر ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً رجلاً ، ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك حتى قتل تسعة وبقى العاشر، فحمل على أبى عامر، وحمل عليه أبو عامر ، وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم لا تشهد على ، فكف عنه أبو عامر ، فأفلت ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه ، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: « هذا شريد أبى عامر » . ورمى أبا عامر أخوان فأصاب أحدهما قلبه ، والآخر ركبته فقتلاه ، ووَلِىَ الناس أبو موسى الأشعرى ، فحمل عليهما فقتلهما) [4] .

١٧ - قال ابن إسحاق : (وحدثنى بعض بنى سعد بن بكر أن رسول الله ﷺ قال يومئذ : « إن قدرتم على بجاد - رجل من بنى سعد بن بكر - فلا يفلتنكم » ، وكان قد أحدث حدثًا ، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله ، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فعنفوا عليها فى السياق ، فقالت للمسلمين : تعلموا والله أنى لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ ، قالت : يا رسول الله ، إنى أختك من الرضاعة قال : « وما

---

(١) فتح البارى ٨/ ٤١، ٤٢ ح (٤٣٢٣) .
(٢) أوطاس : واد فى دار هوازن وهو موضع حرب حنين .
(٣) أبو عامر الأشعرى : هو عبيد بن سُليم الأشعرى .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٥٧ .

علامة ذلك؟ » قالت : عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك - وفى رواية الواقدى : بوادى السرر ونحن يومئذ نرعى البَهْم وأبوك أبى ، وأمك أمى ، وقد نازعتك الثدى ، وتذكر يا رسول الله حلابى لك عنز أبيك أطلال ، فعرف رسول الله ﷺ العلامة ، فوثب قائمًا ، فبسط رداءه ثم قال : « اجلسى عليه » ، ورحب بها ، ودمعت عيناه ، وسألها عن أمه وأبيه، فأخبرته بموتهما، فقال : « إن أحببت فأقيمى عندنا محببة مكرمة، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك وصلتك ورجعت إلى قومك » ، قالت : بل أرجع إلى قومى ، فأسلمت ، فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية وأمر لها ببعير أو بعيرين ، ووافاها فأعطاها نعمًا وشاءً لمن بقى من أهل بيتها وكلمته فى بجاد أن يهبه لها ويعفو عنه ، ففعل ﷺ) (١) .

١٨ - (وروى عبد الرزاق وابن عساكر عن عبد الرحمن بن أزهر قال: كان خالد بن الوليد جرح يوم حنين ، وكان على خيل رسول الله ﷺ فجرح يومئذ ، فرأيت رسول الله ﷺ بعد ما هزم الله تعالى الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشى فى المسلمين ويقول : « من يدلنى على رحل خالد بن الوليد ؟ » فأتى بشارب ، فأمر من عنده فضربوه بما كان فى أيديهم وحثا عليه التراب . قال عبد الرحمن : فمشيت - أو قال : سعيت بين يدى رسول الله ﷺ وأنا غلام محتلم أقول : من يدلنى على رحل خالد ، حتى دللنا عليه ، فإذا خالد مستند إلى مؤخرة رحله ، فأتاه رسول الله ﷺ فنظر إلى جرحه ، فتفل فيه ، فبرأ رضي الله عنه) (٢) .

١٩ - (روى الحاكم وأبو نعيم وابن عساكر عن عائذ بن عمرو رضي الله عنه قال : أصابتنى رمية يوم حنين فى جبهتى فسال الدم عن وجهى وصدرى ، فسلت النبى ﷺ الدم بيده عن وجهى وصدرى إلى ثندوتى ، ثم دعا لى ، قال حشرج والد عبد الله : فرأينا أثر يد رسول الله ﷺ إلى منتهى ما مسح من صدره ، فإذا غرة سابلة كغرة الفرس)(٣) .

خامسًا : من آداب الحرب :

٢٠ - (روى الإمام أحمد وأبو داود عن رباح بن ربيع رضي الله عنه أنه خرج مع رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد ، فمر رباح وأصحاب رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون إليها - يعنى ويعجبون من خلقها - حتى لحقهم رسول الله ﷺ على راحلته فانفرجوا عنها ، فوقف عليها رسول الله ﷺ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٥٨/٢ ، وعند الواقدى فى المغازى ٩١٣ ، ٩١٤ .
(٢) المغازى للواقدى ٩١٢/٣ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٤٩٣/٥ ، وهى عند أحمد ١٧٨/٤ .

فقال : « ما كانت هذه لتقاتل » ، فقال لأحدهم : « الحق خالدًا وقل له : لا تقتل ذرية ولا عسيفًا » (١) .

٢١ ـ (ورأى رسول الله ﷺ امرأة أخرى فسأل عنها فقال رجل : أنا قتلتها يا رسول الله ، أردفتها خلفى فأرادت قتلى ، فقتلتها . فأمر بها رسول الله ﷺ فدفنت)(٢) .

سادسًا : جمع غنائم حنين :

(لما انهزم القوم أمر رسول الله ﷺ بالغنائم أن تجمع ، ونادى مناديه :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل » ، وجعل الناس غنائمهم فى موضع حتى استعمل عليها رسول الله ﷺ .

وروى الحاكم بسند صحيح عن عبادة بن الصامت ﷺ قال : أخذ رسول الله ﷺ وبرة من بعير ثم قال : « يا أيها الناس ، إنى لا يحل لى مما أفاء الله تعالى عليكم قدر هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط ، وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيامة » . وذكر الحديث .

وكان عقيل بن أبى طالب دخل على زوجته وسيفه ملطخ بالدم فقالت :

إنى علمت أنك قاتلت اليوم المشركين فماذا أصبت من غنائمهم ؟ فقال : هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك فدفعها إليها ، ثم خرج فسمع منادى رسول الله ﷺ يقول :

من أصاب شيئًا من المغنم فليرده ، فرجع عقيل إلى امرأته وقال : والله ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت منك . فأخذها فألقاها فى المغانم .

وجاء رجل بكبة من شعر فقال : يا رسول الله ، أضرب بهذه برذعة لى ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لك » .

وأتى رسول الله ﷺ الناس يوم حنين فى قبائلهم يدعوهم ، وأنه ترك قبيلة من القبائل وجدوا فى برذعة رجل منهم عقدًا من جزع غلولاً ، فأتاهم رسول الله ﷺ فكبر عليهم كما يكبر على الميت .

وأصاب المسلمون يومئذ السبايا ، فكانوا يكرهون أن يقعوا عليهن ولهن أزواج ، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٢٤] ، وقال رسول الله ﷺ :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٤٩٣ .
(٢) المغازى للواقدى ٣/ ٩١٢ .

« لا توطأ حامل من السبى حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض » .

ولما جمعت الغنائم أمر رسول الله ﷺ أن تنحدر إلى الجعرانة ، فوقف بها إلى أن انصرف رسول الله ﷺ من حصار الطائف .

قال ابن سعد ـ وتبعه فى العيون : كان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة .

وروى الطبرانى عن بُديل بن ورقاء رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ أمر أن تحبس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم فحبست .

قال ابن إسحاق : وجعل رسول الله ﷺ على الغنائم مسعود بن عمرو الغفارى ، وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : سبى رسول الله ﷺ يومئذ ستة آلاف سبى بين امرأة وغلام، فجعل عليهم رسول الله ﷺ : أبا سفيان بن حرب ، وقال البلاذرى: بُديل بن ورقاء الخزاعى . والله تعالى أعلم) (١) .

سابعًا : بين عيينة بن حصن والأقرع بن حابس :

نقل محمد بن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا :

(صلى رسول الله ﷺ الظهر يومًا بحنين ، ثم تنحى إلى شجرة فجلس إليها ، فقام إليه عيينة بن حصن يطلب بدم عامر بن الأضبط الأشجعى وهو يومئذ سيد قيس ، ومعه الأقرع بن حابس يدفع عن محلّم بن جثّامة لمكانه من خِندف (٢) ، فاختصما بين يدى رسول الله ﷺ ، وعيينة يقول : يا رسول الله ، والله لا أدعه حتى أُدخل على نسائه من الحَرَب (٣) والحُزْن ما أدخل على نسائى ، فقال رسول الله ﷺ : « تأخذ الدية ؟ » فأبى عُيينة حتى ارتفعت الأصوات ، وكثر اللغط ، إلى أن قام رجل من بنى ليث يقال له مُكَيْتل ، قصير ، مجتمع عليه شِكّة (٤) كاملة ، ودرقة (٥) فى يده فقال : يا رسول الله إنى لم أجد لما فعل هذا شبهًا فى غَرَّة الإسلام إلا غنمًا وردت فرُمى أولها ، فنفر آخرها، فاسنن اليوم وغير غدًا ، فرفع رسول الله ﷺ يده وقال : « تقبلون الدية خمسين فى فورنا هذا ، وخمسين إذا رجعنا إلى المدينة » . فلم يزل رسول الله ﷺ بالقوم حتى قبلوا الدية ـ وفى رواية : فقام الأقرع بن حابس فقال : يا معشر قريش ، سألكم رسول الله ﷺ قتيلاً تتركونه ليصلح به بين الناس ، فمنعتموه إياه ، أفأمنتم أن يغضب عليكم

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/٤٩٦ ـ ٤٩٨ .

(٢) خندف : أم تميم وقريش .

(٣) الحَرَب : السلب للمال .

(٤) الشِكّة : السلاح .

(٥) الدرقة : الترس .

رسول الله ﷺ ، فيلعنكم الله تعالى بلعنته ، والله لتسلمنه إلى رسول الله ﷺ أو ليأتين بخمسين من بنى ليث كلهم يشهدون أن القتيل ما جلى قط فلأبطلن دمه ، فلما قال ذلك قبلوها ، ومحلّم القاتل فى طرف الناس ، فلم يزالوا يؤذونه ويقولون : ائت رسول الله ﷺ يستغفر لك ، فقام محلّم وهو رجل ضرب طويل آدم مُحمر بالحناء عليه حُلّة كان تهيأ فيها للقتل للقصاص ، فجلس بين يدى رسول الله ﷺ وعيناه تدمعان . فقال : يا رسول الله ، قد كان من الأمر الذى بلغك ، وإنى أتوب إلى الله ، فاستغفر لى ، فقال رسول الله ﷺ : « ما اسمك ؟ » ، قال : أنا محلّم بن جثّامة . فقال : « أقتلته بسلاحك فى غرة الإسلام ؟ ! اللهم لا تغفر لجثامة » بصوت عال يُنفذُ (1) به الناس ، قال : فعاد محلّم فقال : يا رسول الله ، قد كان الذى بلغك وإنى أتوب إلى الله فاستغفر لى ، فعاد رسول الله ﷺ لمقالته بصوت عالٍ ، يُنفذ به الناس : « اللهم لا تغفر لمحلّم بن جثامة » حتى كانت الثالثة ، فعاد رسول الله ﷺ لمقالته ، ثم قال له رسول الله ﷺ : « قم من بين يدى » .

فقام من بين يدى رسول الله ﷺ ، وهو يتلقى دمعه بفضل ردائه .

فكان ضمرة السلمى يحدث ـ وقد كان حضر ذلك اليوم ـ قال : كنا نتحدث فيما بيننا أن رسول الله ﷺ حرك شفتيه بالاستغفار له ، ولكنه أراد أن يعلم الناس قدْرَ الدم عند الله تعالى) (2) .

(قال : حدثنى عبد الرحمن بن أبى الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث عن الحسن البصرى قال :

لما مات محلّم بن جثّامة دفنه قومه فلفظته الأرض ، ثم دفنوه فلفظته الأرض ، فطرحوه بين صخرتين فأكلته السباع) (3) .

ثامنًا : ذكر من استشهد بحنين :

أيمن بن عبيد الله بن زيد الخزرجى وابن أم أيمن ، وسراقة بن الحارث الأنصارى ، ورقيم بن ثابت بن ثعلبة ـ وأبو عامر الأشعرى أصيب بأوطاس ، ويزيد بن زمعة بن الأسود جمح به فرس يقال له : الجناح فقتل ، واستحر القتل من ثقيف فى بنى مالك ، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم ، فيهم عثمان بن عبد الله بن الحارث ، وكانت رايتهم مع ذى الخمار ، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله ، فقاتل حتى قتل ،

---

(1) يُنفذ به الناس : يسمعه الناس .
(2) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى ٥/٤٩٨، ٤٩٩ .
(3) المغازى للواقدى ٣/ ٩٢١ .

ولما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال : « أبعده الله ، فإنه كان يبغض قريشًا » .

وروى البيهقى عن عبد الله بن الحارث عن أبيه قال : قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل يوم بدر .

تاسعًا : من أشعار حنين :

وقال بجير بن زهير بن أبى سُلمى فى يوم حنين :

لولا الإله وعبده وليتم ... حين استخف الرعب كل جبان
بالجزع (١) يوم حبا (٢) لنا أقراننا ... وسوابح (٣) يكبون (٤) للأذقان
من بين ساع ثوبه فى كفه ... ومقطر (٥) بسنابك ولبان (٦)
والله أكرمنا وأظهر ديننا ... وأعزنا بعبادة الرحمن
والله أهلكهم وفرَّق شملهم ... وأذلهم بعبادة الشيطان

قال ابن هشام : ويروى فيها بعض الرواة :

إذ قام عم نبيكم ووليُّه ... يدعون يا لكتيبة الإيمان
أين الذين هم أجابوا ربهم ... يوم العُرَيض (٧) وبيعة الرضوان (٨)

قال ابن إسحاق : وقال عباس بن مرداس :

يا خاتم النُّبَّاء إنك مُرسلٌ ... بالحق كلُّ هُدى السَّبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة ... فى خلقه ومحمدًا سماكا
ثم الذين وفوا بما عاهدتهم ... جندٌ بعثت عليهم الضحاكا
رجلاً به ذرب السلاح (٩) كأنه ... لما تكنَّفه العدو يراكا
يغشى ذوى النسب القريب وإنما ... يبغى رضا الرحمن ثم رضاكا
أُنبيك أنى قد رأيت مكرَّه ... تحت العجاجة يدمغُ الإشراكا
طورًا يعانق باليدين وتارة ... يفرى الجماجم صارمًا بتاكا
يغشى به هام الكماة ولو ترى ... منه الذى عاينت كان شفاكا
وبنو سُليم مُعنِقون (١٠) أمامه ... ضربًا وطعنًا فى العدو دراكا

---

(١) الجزع : ما انحط من الوادى .
(٢) حبا : اعترض .
(٣) السوابح : خيل كأنها تسبح فى جريها .
(٤) يكبون : يسقطون .
(٥) مقطر : يرمى على قطره .
(٦) اللبان : الصدر .
(٧) العريض : واد بالمدينة .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٥٩، ٤٦٠ .
(٩) ذرب السلاح : حدته ومضاؤه .
(١٠) معنقون : مسرعون .

يمشــون تحــت لــوائه وكأنهــم أســـد العريــن أردن ثــمّ دراكا
مـا يـرتجون من القريـب قرابـة إلا بطـاعـة ربهــم وهواكا
هـذى مشـاهدنا التى كانـت لـنـا مـعـروفـة وولينـا مولاكا[1]

قال ابن إسحاق : وقال مالك بن عوف ، وهو يعتذر يومئذ عن فراره :

منع الـرقـاد فمـا أغمضِ ساعة نَعمٌ [2] بأجـزاع الطـريق مخضـرم
سـائل هـوازن هـل أضُـرٌّ عدوَّها وأعـين غارمـهـا إذا مـا يغـرم
وكـتيبــة لـبستـهـا بكـتـيبـة فئتـين منـهــا حاسر وملأم [3]
كلفـتمـونى ذنـب آل مـحـمـد والـلـه أعلـم مـن أعـق وأظـلـم
وخـذلـتمونى إذ أقـاتـل واحـداً وخـذلتمونى إذ تقـاتل خَثعـم
وإذا بـنيـت المجـد يهـدم بعضكم لا يسـتوى بـانٍ وآخـر يهدم [4]

* * *

البطولات الفردية :

خير هذه الأمة بعد نبيها الخلفاء الأربعة الراشدون : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، والأصل فى المرشحين للقيادة العظمى الإمامة أن يكون حولهم الحراسة المشددة ، وأن يكونوا بعيدين عن الخطر حتى لا تتعرض حياتهم له ، فإما أن يكونوا فى بيوتهم خارج ساحة المعركة ، وإما أن يكونوا فى الصفوف الخلفية تحت الحراسة المشددة بحيث لا يصل إليهم سهم طائش أو هجوم مباغت ، وأن يكون رسول الله ﷺ على رأسهم فى غرفة العمليات يوجه تعليماته وأوامره منها ؛ لأن فقدان القائد هو فقدان المعركة ، لكن الأمر يختلف تمامًا فى هذه الأمة ، فالذى قاد الهجوم المعاكس ضد المشركين هو سيد ولد آدم وقائد المعركة محمد رسول الله ﷺ ، وكان أقرب ما يكون من العدو ، وهذا ليس خاصًا فى غزوة حنين ، إنما هو سمة أصيلة فيه ـ صلوات الله عليه ـ كما يروى مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه :

(وكنا والله إذا احمرّ البأس لذنا به ، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به ـ يعنى ﷺ)[5].

(1) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٦١ .
(2) النعَم : الإبل .
(3) الملأم : الذى لبس لأمة الحرب وهى الدرع .
(4) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٧٤ .
(5) صحيح مسلم ٣/ ١٤٠١ ح (٧٩/ ١٧٧٦) .

فإذن ما يرشح هؤلاء القادة للخلافة العظمى هو جنديتهم العظيمة ، وتضحياتهم الجسيمة ، وليس تدبيج كلام ، أو ارتفاع نسب أو وفرة مال ، إنما هو العلم والجهاد والكفاءة القيادية والتقوى .

فقد كانوا فى حنين بين يدى رسول الله ﷺ يذودون عنه، ويفدونه بالمهج والأرواح كما روى البزار عن أنس ﷺ أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا ـ رضى الله تعالى عنهم ـ ضرب كل منهم يومئذ بضع عشرة ضربة .

ونضيف إلى هؤلاء الأربعة حوارى رسول الله ﷺ الذى لم تتحدث الروايات فقط عن إصابته ، إنما تحدثت عن شهرته التى جاوزت الآفاق ، كما تحدثت عن بعض المهمات الخطيرة التى أوكلت إليه ، فهذا رأى مالك بن عوف قائد جيش العدو فيه .

قال ابن إسحاق : وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف فى فوارس قومه على ثنية الطريق ، وقال لأصحابه : قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم ، وتلحق أخراكم ، فوقف هنالك حتى لحقت به منهزمة الناس . وهذا موقف محمد لمالك سيد هوازن أنه لم يغادر ساحة المعركة حتى اطمأن على جيشه بعد الهزيمة . قال ابن هشام : وبلغنى أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنية فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ فقالوا : نرى قومًا واضعى رماحهم بين آذان خيلهم طويلة بوادُّهم . فقال : هؤلاء بنو سُليم ولا بأس عليكم منهم . فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ، فقال لأصحابه ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قومًا عارضى رماحهم أغفالاً على خيلهم . فقال : هؤلاء الأوس والخزرج لا بأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بنى سليم ، ثم طلع فارس فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارسًا طويل الباد، واضعًا رمحه على عاتقه ، عاصبًا رأسه بملاءة حمراء ، فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له ، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية . أبصر القوم فضمد لهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها .

والزبير ﷺ أول فارس إسلامى، ففى بدر لم يكن لدى المسلمين إلا فرسان للزبير ابن العوام وللمقداد بن الأسود ، وقد امتدت شهرته منذ أحد والخندق ، حيث كان هو الذى جاء بخبر بنى قريظة إلى رسول الله ﷺ ، وأمه صفية هى التى قتلت اليهودى ، وانتشرت شهرته يوم قتل ياسر البطل اليهودى فى خيبر ، وأن يتتبع مالك بن عوف أخبار أبطال المسلمين فأمر طبيعى ، لكن الاحتمال الأقوى فى شهرة الزبير هو المعركة الضخمة التى خاضها مع دريد بن الصمة، ولا نبعد أن يكون ابن هشام قد وهم، فذكر مالك بن عوف مكان دريد بن الصمة ؛ لأن رواية البزار المروية بسند حسن تذكر الصورة نفسها

لكن مع دريد ، ومما يرجح أنها معه هو السؤال لمن معه : ماذا ترون ؟ فمالك فى عنفوان شبابه ويرى كل شىء ، أما دريد فهو ينوف على المائة والعشرين سنة ، فلا عجب ألا يرى بصورة واضحة ، أو أن يُخبر عمن يظهر على الساحة . ويحضرنا تعارض آخر : ففى رواية البخارى أن أبا عامر الأشعرى هو الذى لقى دريد بن الصمة بأوطاس حيث وجهه رسول الله ﷺ ، ولا مجال للجمع بين الروايتين إلا احتمال انضمام الزبير لأبى عامر فى معركته مع دريد بن الصمة فليس هناك ما يشير إلى تأمير الزبير إنما هو انضمام طارئ ، لكن أبا عامر رضي الله عنه هو أمير السرية .

والذى نخلص إليه تلك الشجاعة الفائقة لدى الزبير رضي الله عنه والتى تدفعه إلى أن ينازل كتيبة وحده ، وفى رواية البزار أن يشترك مع جماعة أو ثلة فيقضى على ثلاثمائة من هوازن، أى يقتل نصف الكتيبة المشركة التى بلغ تعدادها ستمائة .

لقد ترعرع فى بيت البطولة وورثها كابرًا عن كابر عن أبيه العوام بن خويلد ، وعن أمه الهاشمية صفية بنت عبد المطلب التى كانت تعده لمثل هذا الموقف ، كانت تعده وهو صغير ليقابل جيشًا جرارًا ، فقد أرضعته لبان البطولة من ثدييها ، وكما روى أنها كانت تضربه ضربًا شديدًا وهو يتيم فقيل لها : قتلته خلعت فؤاده ، أهلكت هذا الغلام فقالت:

إنمـــا أضـــربه لكـــى يـلـب ويجر الجيش ذا الجَلب (١)

فهى إنما تعده ليكون قائد جيش .

واطمأنت منذ طفولته إلى أنه الشبل الذى تريد ، فقد روى عروة كذلك : (قاتل الزبير بمكة وهو غلام رجلاً فكسر يده وضربه ضربًا شديدًا ، فمرَّ بالرجل على صفية وهو يُحمل فقالت : ما شأنه ؟ قالوا : قاتل الزبير ، فقالت :

كيف رأيت زبرًا أأقطـــا أم تمـــرًا

أم مشمعلاً صخرًا (٢)

ثم شاءت إرادة الله تعالى أن يكون الزبير الغلام المؤمن ، فتناله تربية سيد ولد آدم إضافة إلى تربية عمته صفية ، فإذا به يستعد لمواجهة مكة كلها بلد الشرك فداء لرسول الله صلوات الله عليه .

(قال عروة : جاء الزبير بسيفه ، فقال النبى ﷺ : « مالك ؟ » قال : أخبرت أنك أُخِذت. قال : « فكنت صانعًا ماذا ؟ » قال : كنت أضرب به من أخذك ، فدعا له

(١ ، ٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٠١ .

ولسيفه) [1] .

وكان عمره اثنى عشر عامًا آنذاك .

أما عم الزبير فهو نوفل بن خويلد الذى كان يقال له : أسد قريش ، وأسد المطيبين، (فكان يعلق الزبير ويحمى عليه النار وهو يقول : لا أرجع إلى الكفر أبدًا) [2] .

ولإبراز مدى انصهاره مع الإسلام ، فقد تكفل هو بقتل عمه أسد الكفر .

(فأما نوفل بن خويلد فقتله ابن أخيه الزبير بن العوام يوم بدر)[3] .

(وفى بدر نزل جبريل عليه السلام بسيماء الزبير فى عمامته كما يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير :

جدى ابن عمة أحمد ووزيره ... عند البلاء وفارس الشقراء
وغداة بدر كان أول فارس ... شهد الوغى فى اللامة الصفراء
نزلت بسيماه الملائك نصرة ... بالحوض يوم تألب الأعداء)[4]

وكما أعدته أمه صفية رضي الله عنها أوكل إليه رسول الله ﷺ فى أحد مواجهة جيش المشركين فـ : « لما انصرف المشركون من أحد وأصاب النبى ﷺ وأصحابه ما أصابهم خاف أن يرجعوا فقال: من ينتدب لهؤلاء فى آثارهم ، حتى يعلموا أن بنا قوة » ، فانتدب أبو بكر والزبير فى سبعين، فخرجوا فى آثار المشركين، فسمعوا بهم فانصرفوا قال تعالى: ﴿ **فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** (١٧٤) ﴾ [آل عمران] ، أى لم يلقوا عدوًا) [5] .

وعن هذه الحادثة الخالدة قالت عائشة رضي الله عنها لعروة ابن أختها :

(يابن أختى كان أبواك ـ يعنى الزبير وأبو بكر ـ ممن استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح) [6] ، ومن ملاحقة جيش المشركين فى أحد والاستعداد لمواجهته، إلى مواجهة العدو الألد يهود بنى قريظة .

(وقال البخارى ومسلم: جابر: قال رسول الله ﷺ يوم الخندق : « من يأتينا بخبر بنى قريظة ؟ » فقال الزبير : أنا، فذهب على فرس فجاء بخبرهم، ثم قال « الثانية » ، فقال الزبير : أنا ، فذهب ، ثم « الثالثة » ، فقال النبى ﷺ : « لكل نبى حواريًا ،

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٥ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٤ .
(٣) جمهرة أنساب العرب / ١٢٠ .
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٧ .
(٥) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٤٧ .
(٦) المصدر نفسه ١/ ٤٧ .

وحواريى الزبير ») [1] .

وقرت عين رسول الله ﷺ بفارسه العظيم فقال :

« الزبير ابن عمتى ، وحوارى من أمتى » .

وكان له اللواء الأعظم يوم فتح مكة .

وعن الثورى قال : هؤلاء الثلاثة نجدة الصحابة : حمزة ، وعلى ، والزبير .

فإذن قد سبقت الزبير شهرته ، وأطبقت الآفاق بطولته ، ولا غرو أن يسمع به مالك ابن عوف أو دريد بن الصمة فيقول : هذا الزبير بن العوام وهو قاتلكم ومخرجكم من مكانكم هذا .

أما قول مالك بن عوف : أحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له .

وما ثبتوا له، فصمد لهم، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها، وفى الرواية الثانية:

فمضى إليهم ، وتبعه جماعة فقتلوا منهم ثلاثمائة ، فحز رأس دريد بن الصمة ، فجعله بين يديه .

ومن حوارى رسول الله إلى صاحب سيف رسول الله : إلى أبى دجانة الذى أعطاه رسول الله ﷺ سيفه فى أحد وشرط عليه أن يقاتل به العدو حتى ينحنى، ومضى قائلاً:

أنا آخذه بحقه يا رسول الله ، وأنشد فرحًا :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر بالكيول أضرب بسيف الله والرسول

وأخرج عصابته الحمراء فقالوا : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، وبقى يقاتل بالسيف حتى انحنى ووفى بشرط رسول الله ﷺ ، فأين هو الآن والعدو يريد الموت لرسول الله ﷺ ؟ وقبل أن نجيب على هذا السؤال نبحث عن الفتى ، فتى الإسلام عزة وشكيمة وسؤددا وهو على بن أبى طالب ، فهو شريك أبى دجانة فى مواجهة أبطال الموت من هوازن ، وهما اللذان كانا يقاتلان بين يدى رسول الله ﷺ ، فجاء فحل القوم وكبش الكتيبة يقتل كل من يرى أمامه ويود قتل سيد ولد آدم (على جمل أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح له طويل أمام الناس إذا أدرك طعن ، قد أكثر فى المسلمين القتل، فيصمد له أبو دجانة ، فعرقب جمله ، فسمع خرخرة جمله واكتسع الجمل ، ويشد على

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ١/٤٧، ٤٨ وهو عند البخارى ٢/٥/١٤٢ .

وأبو دجانة عليه ، فيقطع على يده اليمنى ، ويقطع أبو دجانة يده اليسرى وأقبلا يضربانه بسيفيهما جميعًا حتى تثلم سيفاهما ، فكف أحدهما وأجهز الآخر عليه . ثم قال أحدهما لصاحبه : امض ، لا تعرج على سلبه) .

فالأهم من سلبه الآن الذود عن رسول الله ﷺ من فاتك آخر ، ومن صاحب الراية السوداء إلى صاحب الراية الحمراء (فارس من هوازن بيده راية حمراء فضرب أحدهما يد الفرس ، ووقع لوجهه ثم ضرباه بأسيافهما فمضيا على سَلبه) .

أما الذى استشهد من الليوث الأربعة : عثمان ، وعلى ، وأبو دجانة ، وأيمن بن عبيد فهو رابعهم أيمن أخو أسامة بن زيد لأمه ، وهو الذى عناه العباس بقوله :

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة وقد فرَّ من قد فرَّ عنه فأقشعوا
وعاشرنا وافى الحمام بنفسه لما مسَّه فى الله لا يتوجع

ومن صاحب سيف رسول الله ، وفتى رسول الله إلى فارس رسول الله : أبى قتادة الذى واجه جيش غطفان بشخصه ، واسترد ما سبوه من المسلمين، وقال عنه رسول الله ﷺ : « خير فوارسنا أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة » ومضى اسمه : فارس رسول الله ﷺ ، وها هو يحدثنا عن نفسه فى حنين فيقول :

(خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين فلما التقينا كان للمسلمين جولة فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين ، فاستدرت إليه حتى أتيته من ورائه ، فضربته على حبل عاتقه ، وأقبل على فضمنى ضمة ، وجدت منها ريح الموت ، ثم أدركه الموت فأرسلنى) .

وكانت هذه العملية الفدائية، والمسلمون لا يزالون يفرون من أعدائهم. منذعرين فى كل صوب، ويحار أولو الحجى ماذا يعملون فلحقت عمر بن الخطاب فقال: ما للناس ؟ فقلت : أمر الله ، ثم إن الناس رجعوا ، وجلس رسول الله ﷺ فقال : « من قتل قتيلاً فله سَلَبُه ») .

وقام ﷺ يرغب أن يأخذ سَلَبَ ذلك القتيل الذى اشتم منه ريح الموت . فقال :

(من يشهد لى ؟) ، ولم يتقدم للشهادة أحد ، ترى ألم يره أحد وهو يذفف على ذلك القتيل الذى أذاق المسلمين ويلات الجراح وكاد يفتك بالمسلم الذى أمامه ؟! ولعل هذا الجمع الكبير لم ينتبه إلى ندائه ، وعاد واقفًا ثانية قائلاً : من يشهد لى ؟ إنه ليس نكرة بين المسلمين ، فلم يقم للشهادة أحد فهو خير الفرسان عند رسول الله ﷺ ، وهو

الذى قال عنه يوم ذى قرد : « خير فرسانا أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع ». وعاد ثالثة فوقف قائلاً : من يشهد لى ؟ وليس فى الساحة من يشهد ، وراع رسول الله ﷺ أن يكون فارسه العظيم بهذا الوضع المحرج فقال : « مالك يا أبا قتادة ؟ » فقال : يا رسول الله ، إنى ضربت رجلاً على حبل عاتقه . وعليه درع له فأجهضت عنه ، ويعلم القائد العظيم ﷺ مدى صدق فارسه العظيم الذى ينطق فعله قبل قوله ، رغم مظاهره المتأنفة ، وهو صعلوك لا مال له .

(فعن محمد أن النبى ﷺ أرسل إلى أبى قتادة فقيل: يترجل، ثم أرسل إليه فقيل: يترجل ، ثم أرسل إليه فقيل : يترجل ، فقال : « احلقوا رأسه » .

فجاء فقال : يا رسول الله ، دعنى هذه المرة ، فوالله لأعتبنك (١) ، فكان أول ما لقى رأس المشركين مسعدة) (٢) .

(وفى رواية أن رسول الله ﷺ رأى أبا قتادة يصلى ، ويتقى شعره ، فأراد أن يجزه فقال : يا رسول الله ، إن تركته لأرضينك ، فتركه ، فأغار مسعدة الفزارى على سرح أهل المدينة ، فركب أبو قتادة ، فقتله ، وغشاه بردته) (٣) .

وأنقذ الموقف رجل من آخر الصف وقف فقال :

صدق يا رسول الله ، وسَلَب ذلك القتيل عندى فأرضه منى .

وكان سيد الخلق ليس من سجيته ولا طبعه أن يرد أحدًا طلب شيئًا منه ، ومقام النبوة مقام الجود فى الأرض ، لكن كيف يضيع حق البطل العظيم أبى قتادة .

وهنا تدخل النائب الأول لرسول الله ﷺ ، وكبير وزرائه أبو بكر رضي الله عنه فقال قبل أن يتكلم رسول الله ﷺ :

لا ها الله، إذن لا يعمد إلى أسَدٍ من أُسْدِ الله يقاتل عن الله ورسوله يعطيك سَلَبُه.

فقال النبى ﷺ : « صدق » .

إنها المرة الأولى التى نشهد فيها تدخل الصديق بين يدى قائده العظيم ﷺ ، وذلك لنصرة أبى قتادة أسد الله وأسد رسوله الذى اشتم ريح الموت قبل أن يظفر بعدوه ويقتله، ثم يأتى رجل ليس بالعير ولا بالنفير يأخذ حقه، ويطالب رسول الله ﷺ بإرضائه ؟!

وهو تدرب على تحمل المسؤولية بين يدى القائد العظيم ﷺ لإعطاء المقاتل حقه

(١) لأعتبنك : أى يترك ما يجد عليه من أجله ، ورجع إلى ما يرضيه عنه بعد إسخاطه عليه .

(٢) سير اعلام النبلاء للذهبى ٢/ ٤٥٤، ٤٥٥ وقال عنه المحقق : الحديث مرسل .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٤٥٥ وقال عنه المحقق : إسناده صحيح .

وسَلبَ عدوه ، قال العلماء : لو لم يكن من فضيلة لأبى بكر الصديق ﷺ إلا هذا لكفى ، فإنه بثاقب علمه ، وشدة صرامته ، وقوة إنصافه ، وصحة توفيقه ، وصدق تحقيقه ، بادر إلى القول بالحق ، فزجر ، وأفتى ، وحكم ، وأمضى ، وأخبر فى الشريعة عن المصطفى بحضرته وبين يديه ، وبما صدَّقه فيه وأجراه على قوله) [١] .

ونفذ الرجل أمر رسول الله ﷺ حين صدَّق حكم أبى بكر بين يديه .

(وعند محمد بن عمر : فقال لى حاطب بن أبى بلتعة : يا أبا قتادة ، أتبيع السلاح؟ فبعته بسبع أواق فابتعت به مخرفًا فى بنى سلمة ، فذلك أول مال تأثلته فى الإسلام) .

ومن فارس رسول الله ﷺ إلى خير رجالته سلمة بن الأكوع ﷺ .

وسلمة بن الأكوع بطل غزوة ذى قرد والذى هاجم الغطفانيين الذين اغتصبوا لقاح رسول الله ﷺ ، وبقى يطاردهم وحده حتى استعاد لقاح رسول الله ﷺ منهم ، وهو الذى أحبه رسول الله ﷺ فأعطاه سلاحًا يوم الحديبية ، وطلب منه البيعة ثلاث مرات .

ففى صحيح مسلم قال : (بايعته أول الناس ، ثم بايع وبايع حتى إذا كان فى وسط الناس قال : « بايع يا سلمة » ، قال : قلت : قد بايعتك يا رسول الله فى أول الناس ، قال : « وأيضًا » ، قال : ورآنى رسول الله ﷺ عزلاً فأعطانى جَحفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال : « ألا تبايعنى يا سلمة ؟ » قلت : يا رسول الله قد بايعتك فى أول الناس وفى وسط الناس قال : « وأيضًا » فبايعته الثالثة) . وفى صحيح البخارى عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شىء كنتم تبايعون ؟ قال : على الموت) .

فإذا كان فى عنق الناس بيعة واحدة ، ففى عنقه ﷺ ثلاث بيعات .

وكان واحدًا من الناس فجاه الموقف ، ورأى الناس جميعًا يفرون ففرَّ معهم ، ورآه رسول الله ﷺ فقال : « لقد رأى ابن الأكوع فَزَعًا » .

وما لنا لا نحضر مع سلمة المعركة ونسمع إلى تقريره عنها ﷺ .

غزونا مع رسول الله ﷺ حنينًا فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلنى رجل من المشركين فأرميه بسهم ، وتوارى عنى فما دريت ما صنع ، ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا همٍ وأصحاب رسول الله ﷺ ، فولى أصحاب رسول الله ﷺ فأرجع منهزمًا ، وعلىَّ بردتان مؤتزرًا بإحداهما مرتديًا الأخرى ، فاستطلق إزارى فجمعتهما جميعًا ومررت برسول الله ﷺ ، وأنا منهزم وهو على بغلته

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٤٩٦ .

الشهباء ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد رأى ابن الأكوع فزعًا » .

وهنا عندما وصل سلمة إلى رسول الله ﷺ بقى بجواره يذود عنه ؛ لأنه ينقل لنا ما يراه مشهدًا حيًا أمامه : فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم إنه استقبل به وجوههم وقال : « شاهت الوجوه » فما خلى الله تعالى منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا من تلك القبضة ، فولوا مدبرين ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين) .

وها هو يحدثنا عن المهمة الفدائية التى كلف بها بين يدى رسول الله ﷺ ، تلك المهمة التى لا يقدر عليها من المسلمين غيره ، ولنتابع مع هذا الفدائى العظيم حديثه .

(روى البخارى عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن، فبينا نحن نتضحى [١] مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٍ على جمل أحمر . فأناخه ، ثم انتزع طلقًا [٢] من حقبه [٣] ، فقيَّد به الجمل ، ثم تقدَّم فتغدى مع القوم ، وجعل ينظر وفينا ضعفة ورقة فى الظهر ، وبعضنا مشاة ، إذ خرج يشتد فأتى الجمل فأطلق قيده ، ثم أناخه ، ثم قعد عليه فاشتد به الجمل ، واتبعه رجل من أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ على ناقة ورقاء [٤] ، فقال رسول الله ﷺ : « اطلبوه واقتلوه » .

حتى الآن هو متحدث إذاعى لنا عما يجرى فى الساحة ، لكنه ما أن سمع الأمر العام : « اطلبوه واقتلوه » حتى انقلب إنسانًا آخر عاد سلمة بن الأكوع العداء الأول فى الجيش الإسلامى الذى يلاحق الجيوش على ـ قدميه ، ويواجهها بسهامه وحجارته ، وينتصر عليها وحده . وعاد خير رجالة المسلمين كما أسماه رسول الله ﷺ ، وإذا كان جيش العدو لم يعجزه فهل يعجزه جاسوس العدو .

وليتنا نراه الآن وهو يسابق الريح على قدميه ، ونشهد حديثه مع انطلاقته فى نحر الجاسوس الرهيب ، يقول ﷺ :

(وخرجت أشتد فكنت عند ورِك الناقة) فها هو قد حاذى الناقة الورقاء للرجل الذى مضى يلاحق الجاسوس ، ثم ها هو يخلف الناقة خلفه ، ويعدو ثم يعدو ثم يعدو.

(ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل . . .) ، ولم يعد بينه وبين العدو إلا أن ينقض عليه، وها هو انقضاضه فى عمله أسرع من وصفه لنا هذا الانقضاض، ثم تقدمت

---

(١) نتضحى : نأكل وقت الضحى .
(٢) انتزع طلقًا : قيدًا من جلود .
(٣) من حَقَبه : حبل يشد به الرحل إلى بطن البعير .
(٤) ناقة ورقاء : فى لونها بياض إلى السواد .

حتى أخذت بخطام الجمل . فأنخته . فلما وضع ركبته على الأرض . . .) ، إننا نتابع الجمل ريثما ينيخ وها هو يضع ركبته استعدادًا لذلك ، ولكن هل يمهلنا صاحبنا سلمة حتى نشهد إناخة الجمل ، أم يشغلنا بشيء آخر عن ذلك ؟ ويأتى الجواب :

(فلما وضع ركبته على الأرض ، اخترطت سيفى [1] ، فضربت رأس الرجل فندر.

الآن كان عندنا جاسوس، والآن، الآن أصبح عندنا رأس بلا جسد، فقد طار الرأس عنه فمالنا ولجثته ، (ثم جئت بالجمل أقوده . . .) فلا داعى لأن ينيخ (. . . وعليه رحله وسلاحه) .

أما المصطفى ﷺ ، فهو بانتظار مغامرة خير رجالته ، وسبُع أصحابه .

(فاستقبلنى رسول الله ﷺ والناس معه . . .) ، فهو محط أنظار الجيش كله ، وكيف لا يكون كذلك ورسول الله ﷺ يرنو إلى الأفق ، ينتظر قدومه ، وقلبه مفعم بالأمل أن يأتيه برأس الجاسوس الخبيث ، فما خاب لجنديه سلمة هدف قط ، وما أفرده فى الحديبية بالبيعة ثلاثًا إلا لأنه يعرف أى معدن من الرجال هو .

(فاستقبلنى رسول الله ﷺ والناس معه ، فقال : « من قتل الرجل ؟ » قالوا : ابن الأكوع ، قال : « له سَلَبُه أجمع ») .

وبذلك انضم خير الفوارس إلى خير الرجالة .

وماذا عن أبى طلحة : ذلك الذى حمى رسول الله ﷺ فى أحد بظهره ونحره ، والسهام تتساقط عليه من كل صوب وهو يقول لقائده عليه الصلاة والسلام : نحرى دون نحرك ، ظهرى دون ظهرك ، ها هو اليوم يعيد سيرة حمزة بن عبد المطلب فى جيش المشركين كالجمل الأورق لا يقوم له شيء إلا أكله . فقد ساهم بمقام عشرين بطلاً لأنه قتل عشرين من جيش العدو ، وأخذ سَلَبَهم كله .

إنها الخطة النبوية العظيمة فى استثارة الطاقات وتهييج الهمم لذبح أبطال العدو : «من قتل قتيلاً فله سَلَبه » ، فهو يجمع خيرى الدنيا والآخرة ، رضا الرحمن ، بالتقرب إلى الله بدماء العدو ، والثروة الضخمة من خلال سَلَبِ هذا البطل ـ سلاحه وفرسه ودرعه وأثاثه ، وكل شيء للعدو هوله .

(روى ابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ، وابن حبان عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قتل قتيلاً فله سَلَبه » قال : فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم) .

---

(١) اخترط سيفه : سلَّه من غمده .

وإذا كان سَلَب فارس واحد يشتري به أبو قتادة مخرفًا أو بستانًا فى آل بنى سلمة ، فبإمكان أبى طلحة اليوم أن يعيد بستانه بدماء الذى كان فيه ألف نخلة ، والذى كان أغنى بساتين المدينة بعد أن قتل عشرين صنديداً من صناديد المشركين ـ وحاز سلبهم كله .

بطولات ربات الخدور :

وإذا كان هذا حال فارسنا أبى طلحة ، فمن أى باب دخل إلى الإسلام ؟

لقد دخل أبو طلحة الإسلام من باب أم سليم بنت ملحان الذى جاء إليها خاطبًا بعد وفاة زوجها .

(جاء أبو طلحة يخطب أم سليم فقالت : إنه لا ينبغى لى أن أتزوج مشركًا ، أما تعلم يا أبا طلحة أن إلهك الذى تعبد إنما هو شجرة من الأرض ، وإنما نجرها حبشى بنى فلان ؟) قال : بلى ، قالت : أما تستحى تسجد لخشبة تنبت من الأرض نجرها حبشى بنى فلان ؟ ولقد هيجت كل كوامن الهدى فى أعماقه وحركت أعنف الصراع فى ذاته بين عقله الذى أنامه أو أماته ، وبين هواه واتباعه قومه ولو كانوا فى ضلال مبين ، والمشكلة أن الذى يثير كوامن هذا الصراع امرأة من قومه لا تكاد تعتبر فى عقلها ممن ينافس الرجال، إنما هى محط الهوى والمتعة واللذة ، فما بالها اليوم تغلبه بعقلها بعد أن غلبته بهواه لها .

وألقت آخر قنابلها التى فجرت أعماقه ، وأضاءت ذاته .

(فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأزوجك نفسى لا أريد صداقًا غيره) .

فليست أم سُليم إذن ممن تبيع نفسها بالمال ، وليست ممن يريد أن ينتزع أغلى ما عنده: بستانه صاحب الألف نخلة ، وليست تعرض طلب الذهب والفضة ، إنما تريد عقلاً متحرراً من الهوى ، وهذا هو صداقها .

لقد رأى نفسه صغيراً صغيراً أمامها ، وهى العملاقة التى تقود العقول إلى الهدى والنور ، وراحت أصداء كلمتها تتردد فى أعماقه : أما تستحى أن تسجد لشجرة نبتت من الأرض نجرها حبشى بنى فلان ؟

تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، لا أريد منك صداقًا غيره ، ولم يذق النوم طيلة الليل ، وهو يتقلب ويفكر بهذه الكلمات النفاذة الغائصة فى الأعماق ، لقد قال لها : (دعينى حتى أنظر. . .) ، وها هو ينظر ويقلب النظر ، وعزم عزمته الأخيرة ومضى صباح اليوم الثانى بعد انبلاج الفجر ، وارتفاع الضحى مضى (فذهب فنظر ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . .) .

ونظرت فى ابنها أنس بن مالك الذى أرضعته الإيمان وهو لا يزال يلثغ فى لسانه حتى فارقها أبوه مالك بن النضر مغاضبًا إياها لأنها علمت صغيرها هذا الدين ، نظرت فى أنس الذى لم يتجاوز العاشرة من العمر ، وقالت : قم يا أنس فزوج أبا طلحة) (١) .

وأين اليوم أم سُليم ، وأين أبو طلحة زوجها .

أما أبو طلحة فقد شهدناه قناصًا يقتنص الرجال حتى قتل عشرين بطلاً ، أما أم سليم فكانت على رأسى الركب الفدائى النسائى فى حنين ، فلقد بايعت فى الحديبية ، ونوديت من بعيد من نودى :

« يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب بيعة الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة » وهى من نبت هذا العطاء المعطاء .

روى ابن أبى شيبة والإمام أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال :

اتخذت أم سُليم خِنجرًا أيام حنين ، فكان معها ، فلقى أبو طلحة أم سُليم ومعها الخنجر ، فقال أبو طلحة : ما هذا ؟ قالت : إن دنا منى بعض المشركين أبعُج به بطنه . فقال أبو طلحة : أما تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟! فضحك رسول الله ﷺ.

لكن الذى يقلق أم سليم ويملأ كيانها غيظًا هو هؤلاء الذين نكثوا وفروا وتراجعوا فقالت : (يا رسول الله أقتل من يعدونا من الطلقاء انهزموا عنك) فهى لا ترى جزاءً للفارين إلا الموت . فقال : « إن الله كفى وأحسن يا أم سليم » .

أما التى حدثتنا عن رفيقات دربها المجاهدات ، فهى بطلة أحد ، والتى كان لها شرف بيعة العقبة بيعة الحرب ، فهى : أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية .

فهى تكشف لنا عن جانب مخبوء عند أختها أم سليم ، لم نتعرف عنه من غيرها .

قالت رضي الله عنها :

(لما كان يوم حنين والناس منهزمون فى كل وجه ، وكنا أربع نسوة ، وفى يدى سيف لى صارم ، وأم سليم معها خنجر قد حزمته فى وسطها ـ وإنها يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة) .

وسندع الحديث عن أم عمارة إلى أن نستوفى صورة أم سليم التى تعرفنا من نسيبة بنت كعب أنها حامل فى ولدها ، عبد الله ، وأنها قد أعدت الخنجر لتبعج بها بطن المشركين ، ونتساءل : ألم تأخذها موجة الفرار فيمن فر ، وهى المرأة الضعيفة العزلاء ؟

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٤٢٧ .

لقد اختارت أن تكون بجوار زوجها البطل أبى طلحة ، وفى خضم المعركة ، وخشية أن يغلبها جملها فيفر فى هذه الموجة الطاغنة مع الفارين ، نستمع إلى حديث عبد الله بن أبى بكر عنها فيما رواه ابن إسحاق حيث يقدم لنا جانبًا ثالثًا من جوانب البطولة والعظمة عندها :

قال ابن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله ﷺ رأى أم سُليم بنت ملحان وكانت مع زوجها أبى طلحة ، وهى حامل بعبد الله بن أبى طلحة ، وقد خشيت أن يفُرَّ بها الجمل ، فأدنت رأسه منها وأدخلت يدها فى خزامه مع الخطام ، فقال رسول الله ﷺ : « أم سليم ؟ » . فلم يثر انتباه سيد ولد آدم أن يتجمع الأبطال حوله من الرجال ، لكن الذى أثار انتباهه أن يجد بينهم هذه المرأة بين طعن الرماح ورمى السهام وقط السيوف ، محافظة على ثباتها ممسكة بعنان جملها ، مسلحة فى خنجرها ، فراعه هذا المنظر ، وناداها : « أم سليم ؟ » .

فقالت رضي الله عنها : (نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله) .

وأين يكون الفداء إن لم يكن هنا ؟ ومتى يكون الفداء إن لم يكن اليوم ؟ إنها تفديه بأعز ما عندها ، وتجود دونه بروحها ودمها ، وتذود عنه بنفسها : (نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله) .

وها هى رضي الله عنها تدعو ـ كما مر معنا ـ إلى خطوة تحرق زيف المدعين،وزيف المنافقين، فتابعت قائلة : (أقتل المنهزمين عنك كما تقتل الذين يقاتلونك) ولا يشفى قلبها إلا أن تستصدر هذا الأمر من رسول الله ﷺ وتشرع الخنجر فى كبد هؤلاء الفارين كما تشرعه فى كبد الأعداء المقاتلين ، فهما عندها سواء ، وكفكف عليه الصلاة والسلام من غلوائها ومن ثوريتها قائلاً : « أو يكفى الله يا أم سُليم » .

إنها لا تعرف إلا الموت فى سبيل الله وبين يدى رسول الله ، أما الفارون فهم عدو كالعدو المقاتل .

وها نحن ندعو أبطال الدنيا ليتعلموا دروس البطولة من هذه المرأة الحامل المسلحة بخنجرها الحاد للعمليات الهجومية الصارخة .

وقبل أن نعود ثانية إلى سيدة الفداء الأولى أم عمارة ، نبحث عن الأختين الأخريين لها ولأم سليم فهى التى حدثتنا أنهن كن أربع نسوة .

ها هى تحدثنا عن أختها الثالثة أم الحارث فتقول : (وكانت أم الحارث الأنصارية آخذة بخطام جمل الحارث زوجها وكان يسمى المجسار) .

وهى التى ساهمت فى تثبيت زوجها ، وإيقاف الجمل عن ركوب موجة الفرار .

(فقالت: يا حار، أتترك رسول الله ﷺ والناس يولون منهزمين،وهى لا تفارقه).

ولقد كانت أم الحارث ، وأم سليم من مدرسة واحدة ، مدرسة قتل المنهزمين .

(فأخذت بخطام الجمل ، والجمل يريد أن يلحق بألافه ، والناس يولون منهزمين ، وهى لا تفارقه ، فقالت أم الحارث ـ وقد رأت عمر بن الخطاب : يا عمر ، ما هذا ؟ فقال عمر : أمر الله ، وجعلت أم الحارث تقول : يا رسول الله من جاوز بعيرى فأقتله، والله إن رأيت كاليوم ما صنع هؤلاء القوم بنا ـ تعنى بنى سُليم ، وأهل مكة ـ الذين انهزموا بالناس .

لقد كانت أم سليط رابعة ركب النساء ، ولم تذكر لنا كتب التراجم عنها شيئًا إلا قول ابن سعد فى طبقاته : أم سليط النجارية . . . أسلمت وبايعت وشهدت خيبرًا وحنينًا .

ونعود بعدها لنسيبة بنت كعب رضي الله عنها التى تجاوزت حد حمل السلاح إلى مرحلة القتال مباشرة ، لقد شهدناها فى أحد رضي الله عنها ورسول الله ﷺ يشهد لها بقوله : « ما التفت يمينًا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى » .

وها هو عليه الصلاة والسلام ينظر جرحها وجراحها فى أحد ، فينادى ابنها قائلاً : « أمك أمك أعصب جرحها » ، فقد تركت مهمة الطب هذه اليوم لابنها ، بينما أخذت مهنة القتال ، ولم يتمالك عليه الصلاة والسلام نفسه من الدعاء لها : « بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك ـ يعنى زوج أمه ـ خير من مقام فلان وفلان رحمكم الله أهل البيت » .

لكن أم عمارة تعيش فى عالم حالم آخر ، فى عالم الملكوت الربانى ، فحبها لرسول الله ﷺ أكبر من الوصف ، ومن أجل هذا اختصرت الزمن قائلة :

(قالت : ادع الله أن نرافقك فى الجنة) .

واستجاب لها سيد ولد آدم داعيًا ضارعًا إلى ربه: « اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة».

وكعصفور كان مقيداً فطار ، ولتأت جراحات الأرض كلها عليها بعد هذا الدعاء .

قالت رضي الله عنها : (ما أبالى ما أصابنى من الدنيا) .

وها هى تبايع على الموت يوم الحديبية وقد اختار رسول الله ﷺ رحلها ليكون موطن البيعة :

(فجلس فى رحالنا ثم قال : « إن الله أمرنى بالبيعة » . فأقبل الناس يبايعونه فى رحالنا حتى تدارك الناس فما بقى لنا متاع إلا وطئ فكأنى أنظر إلى المسلمين وقد تلبسوا السلاح ، وهو معنا قليل ، إنما خرجنا عماراً ، فأنا أنظر إلى غزية (زوجها) قد توشح بالسيف) لكن هى ماذا تعمل ، وأين سلاحها ؟ (١) .

(فقمت إلى عمود كنا نستظل به فأخذته فى يدى ، ومعى سكين قد شددته فى وسطى فقلت : إن دنا منى أحد رجوت أن أقتله) .

أما اليوم ، فلا عذر لها ألا تحمل سلاحها ، فقد خرجوا للقاء هوازن .

وندع الحديث عنها ولها فى هذا اللقاء الخالد .

(وكنا أربع نسوة وفى يدى سيف لى صارم) .

وهذا السيف ليس للحلية والزينة حتى تتصور به، وتدخل التاريخ بطلة فى الصورة. إنما هذا السلاح ليشرب دم الكفار ويرتوى به، وقبل أن تنقلنا إلى الفيلم الحى عن قتالها. نشهدها صارخة بالفارين ، وقد أعيدت صورة أحد أمامها :

(فجعلت أم عمارة تصيح : يا للأنصار : أية عادة هذه . مالكم والفرار) .

وقد تتقن المرأة الصياح والصراخ تستغيث ، لكنها هل تتقن فن الموت ؟

قالت : (وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء يوضع جمله فى أثر المسلمين) .

أما غيرها ، فإما أن تصرخ مولولة ، وإما أن تخر مغشيًا عليها ، أما سيدة الفدائيات فى الأرض ، فليست كذلك ، إنها تدع الفرار والصراخ والهلع للرجال ، أما لها ، فلا .

(فاعترض فأضرب عرقوب الجمل ، فوقع على عجزه) .

أولا يكفيها أن رمت البطل على الأرض ، فليجهز عليه أحد الأبطال من أقرانه ، ولكنها لا ترى له قرينًا إلا هى . (وأشدّ عليه ، ولم أزل أضربه حتى أثبته) .

ولم تكتف بقتله « فمن قتل قتيلاً فله سَلَبُه » هكذا سمعت منادى رسول الله ﷺ ، (وأخذت سيفًا له) ورسول الله ﷺ قائم مصلت السيف بيده وقد طرح غمده ينادى : « يا أصحاب سورة البقرة » .

وقرت عينها ، فها هم أهلها أصحاب سورة البقرة يكرون ثانية يستجيبون للمنادى ،

---

(١) مقتطفات من الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤١٤، ٤١٥ .

وبدأ الخوف على رسول الله ﷺ ينزاح عنها ، فقد عاد الفدائيون إلى مواقعهم (ووقفت هوازن قدر حلب ناقة فتوح ثم كانت إياها، فوالله ما رأيت هزيمة قط كان مثلها قد ذهبوا فى كل وجه) .

وتذكرت حين رأت الهزيمة أنها أم لليثين يقاتلان فى المعركة،وبدأت تحن إلى لقياهما، أما عندما كان الخطر فلم تكن تذكر شيئًا فى الدنيا إلا رسول الله ﷺ .

(فرجع إلى أبنائى جميعًا : حبيب وعبد الله أبناء زيد بأسارى مكتفين .

وراعها هذا العدو الحى بين يديها ولو كان أسيرًا ، ألم يكن يريد قتل رسول الله ﷺ وحرب هذا الدين (فأقوم إليه من الغيظ فأضرب عنق واحد منهم) .

لقد قتلت القائد المقاتل وتركت جمله يخرخر حتى ألحقته بجمله ، وها هى تقتل أحد أسرى أبنائها شفاء لصدرها ، وإرواء لغيظها : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

وكان بنو النجار هم أهل رسول الله ﷺ وهم أخواله ، ولم يرض أن يختار لهم نقيبًا بعد أسعد بن زرارة ، إنما انتسبوا إليه فهو نقيبهم عليه الصلاة والسلام .

« أنتم أخوالى وأنا نقيبكم » .

فكانت هذه الكتيبة الفدائية تعج بالأسرى (وجعل الناس يأتون بالأسارى ، فرأيت فى بنى مازن بن النجار ثلاثين أسيرًا) وبنو مازن فرع من فروع هذه الكتيبة الخضراء .

بقى علينا أن نعلم أن الكتيبة النسائية المكونة من أربع فدائيات هى : خالات رسول الله ﷺ ، فالنسوة الأربعة من بنى النجار الذين كانوا أخوال جده عبد المطلب ، وكانوا أعظم الناس فداءً وغَناءً فى الحرب .

فنسيبة بنت كعب أم عمارة : من بنى مازن بن النجار .

والرميصاء أم سليم بنت ملحان : من بنى عدى بن النجار .

وأم سليط بنت عبيد بن زياد : من بنى مازن بن النجار .

وأم الحارث بنت الحارث بن ثعلبة : من بنى دينار بن النجار .

ولا ننسى ذلك الاستقبال الحافل لرسول الله ﷺ يوم نزل فى بنى النجار من جواريهن الصغار حيث كن ينقرن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار ... يا حبذا محمد من جار

ولم يتمالك عليه الصلاة والسلام وهو يراهن أن يسألهن : « أتحببنى ؟ » ، قلن : نعم يا رسول الله . قال : « وأنا والله أحبكن » قالها ثلاثًا .

وحين نذكر الحب والفداء والتضحية لا ننسى فى خضم هؤلاء الفدائيات تلك المرأة الدينارية النجارية ، وما ندرى لعلها أم الحارث أو غيرها (وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعُوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه أنظر إليه ، قال : فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل)(١) .

قيادات العدو :

وإذا كانت الجيوش بقادتها، فلنبحث عن قيادات جيش هوازن أين انتهى بها المطاف؟ أما مالك بن عوف النصرى القائد العام فقد مضى بعد هزيمة جيشه فارًا إلى الطائف.

(ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غبرة بن ثقيف ، وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك فى نخلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الثنايا.

وإذا كان مالك بن عوف قد انتهى به المقام إلى الطائف ، فدريد بن الصمة اختلفت الروايات فى مكان اتجاهه هل مضى مع من توجه إلى نخلة ، أم عسكر بأوطاس ؟ وروايات الصحيح أنه عسكر بأوطاس ، وسنأخذ بهذه الرواية فى البخارى تاركين بقية الروايات الأخرى لصعوبة الجمع بينها كلها ، وحين نمضى إلى أوطاس ، نمضى مع قائد عظيم من قادة المسلمين إليها هو أبو عامر الأشعرى . نستمع إلى ابن أخيه أبى موسى الأشعرى ينقل لنا صورًا حية من ذلك الصراع بين المسلمين والمشركين :

(عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال : لما فرغ النبى ﷺ من حنين بعث أبا عامر الأشعرى على جيش إلى أوطاس ، فلقى دريد بن الصمة ، فقُتل دريد) .

وحيث لم تشر هذه الرواية إلى من قتل دريدًا ، فيمكن أخذ الروايات الأخرى التى ذكرت أن الزبير رضي الله عنه هو الذى قتله ـ أو كما فى الرواية المذكورة عند البزار (فحز رأس دريد بن الصمة فجعله بين يديه) وهى مروية بإسناد حسن عند البزار ، وإذا قرأنا : (فحَزَّ) بالمبنى للمجهول : (فحُزَّ) يمكن بذلك الجمع بين الروايات كلها ، حيث يكون ربيعة بن رفيع السلمى هو الذى حَزَّ رأسه، وجاء به إلى الزبير، كما فى رواية ابن إسحاق

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٩٩، وقد كان لأم الحارث زوج قبل زوجها الذى كان معها فى حنين وهو عمرو ابن غزية .

فى السيرة ، وهى الرواية الوحيدة التفصيلية بين يدينا عن مقتل دريد نثبتها كما وردت فى السيرة النبوية لابن هشام :

(فأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة - ذلك أنه كان فى شجار له - فإذا برجل فأناخ به فإذا شيخ كبير وهو دريد بن الصمة ، ولا يعرفه الغلام ، فقال دريد : ماذا تريد بى ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمى ، ثم ضربه بسيفه فلم يُغن شيئًا ، فقال : بئس ما سلحتك أمك. خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ، ثم اضرب به ، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإنى كنت كذلك أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنى قتلت دريد بن الصمة فرب يوم والله قد منعت فيه نساءك ، فزعم بنو سُليم أن ربيعة لما ضربه فوقع فتكشف فإذا عجانه (١) مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء ، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه فقالت : (أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثًا) .

ولا عجب أن ينفصل دريد بن الصمة بفريق كبير من الجيش يتابع المعركة ، فهو القائد العربى الأشهر الذى خاض غمرات الحروب ، وهو الذى عرض الخطة الأنسب للمقاومة، وهو الذى حذَّر مالكًا من المواجهة، وهو الذى لا يعرف الهزيمة، وما منعه من قيادة قومه إلا كبر سنه حيث غدا شيخًا طاعنًا فى السن ليس له إلا التيمن والتبرك برأيه.

وإذا كان دريد قد انتهى قتلاً ، ومالك قد انتهى فرارًا ، فلابد أن نشهد المعركة بأوطاس بين الفيلق الإسلامى وفيلق الشرك كما هى فى رواية البخارى :

(فقتل دريد ، وهزم الله أصحابه ، قال أبو موسى : وبعثنى مع أبى عامر ، فرمى أبو عامر فى ركبته) .

وإذا كانت رواية البخارى لم تسق لنا تفصيلات عن ذلك اللقاء فلدى ابن هشام فى السيرة تفصيلات مثيرة تبرز لنا بطولة أبى عامر الأشعرى :

قال ابن هشام : (وحدثنى من أثق به من أهل العلم بالشعر وحديثه أن أبا عامر الأشعرى لقى يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين ، فحمل عليه أحدهم ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر . ثم حمل عليه آخر ، فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً رجلاً ، يحمل أبو عامر وهو يقول ذلك حتى قتل تسعة ، وبقى العاشر ، فحمل على أبى عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه

(١) عجانه : ما بين فرجيه .

إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم لا تشهد على ، فكف عنه أبو عامر، فأفلت ثم أسلم وحسن إسلامه، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: « هذا شريد أبى عامر ») .

إن المبارزة فى عالم الحرب لا تحتمل أكثر من مبارزة رجل لرجل ، والأصل أن يبرز بطل جديد مع كل بطل للعدو ، ولذلك لما يبذل المبارز من جهد ومشقة يتعرض خلالها للموت قبل أن ينهى خصم ، فما بال بطلنا اليوم يرضى أن يكون هو المناجز وحده للأبطال العشرة ، وهذه أقرب إلى الخارقة والكرامة منها إلى الحقيقة ، فلو كان يلعب لعبًا بسيفه لأنهك ، فكيف وهو يرمى ويرمى ويطعن ويطعن ، ولا يكتفى بأن يكون بطلاً مناجزًا فى الحرب ، بل هو داعية إلى الله عز وجل يدعو كل مبارز للإسلام قبل أن يصرعه ، ويُشهد الله على ذلك ، فهو بمقام عشرة أبطال يصرع خصومه العشرة ، وكان قدر الله عز وجل أن يضىء قلب البطل العاشر بالإسلام قبل أن يتسربل بدمه على يد أبى عامر رضي الله عنه فيصرخ قائلاً : اللهم لا تشهد على ، وليس القتل هواية عند أبى عامر ، ولو جندل تسعة أبطال صرعى فى ساعة وساحة واحدة ، إن القتل عند أبى عامر مهمته يؤديها حين يصر عدو الله على الكفر ، أما فى اللحظة التى يفر فيها العدو المناجز من الكفر ، فهو أسرع الناس بالكف عنه ، وهذا ما فعله الداعية العظيم أولا والبطل العظيم ثانيًا مع مناجزه العاشر ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يدخل فى هذا الدين ويحمل لقب : شريد أبى عامر عوضًا عن أن يحمل لقب : صريع أبى عامر .

وإذا كان الأبطال العظام هم الذين يبرزون للساحة فيبارزون ويصارعون ، لكن بطلنا العظيم لم يتمكن أحد من التغلب عليه فى المصارعة ، وقد أكل كبد العدو حين رمى بين رجليه تسعة أبطال مضرجين بدمائهم ، فكان لابد من صرعه عن طريق الرمى ـ وهذا الذى كان ـ فقد رماه أخوان بسهميهما أصاب أحدهما قلبه والآخر ركبته فقتلاه ، ونعود من جديد لرواية البخارى تعطينا صورة جديدة عن اللحظات الأخيرة مع الشهيد العظيم ، يعرضها لنا ابن أخيه أبو موسى رضوان الله عليهما .

(فانتهيت إليه فقلت : يا عم من رماك ؟ فأشار إلى أبى موسى فقال : هذا قاتلى الذى رمانى) ، وهل يسكت أبو موسى على مقتل عمه دون ثأر ، والدم ينفجر فى عروقه غضبًا لله من قاتل عمه . فأين بطولته إذن مع هذا الفاتك الغادر ؟ وما أن رأى هذا الفاتك حتى مضى إليه كالصاعقة وأحس رامى السهم بذلك ، فلاذ فارًا من أبى موسى : (فلما رآنى ولى عنى ذاهبًا ، فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحى ؟ ألست عربيًا ؟ ألا تثبت ؟ فكف) .

إنها أعظم مهارة فى استثارة النعرة الجاهلية ، وإثارة النزعة القومية عند هذا الفتى ، والعربى يأنف أن يعير بالجبن ، وستمضى سبة عليه أبد الدهر ، ومن أجل هذا حركته حمية الجاهلية فتوقف عن الفرار واستعد للمواجهة ، وهذا هو الذى يريده بطلنا أبو موسى رضوان الله عليه .

(فكفَّ ، فالتقيت أنا وهو ، فاختلفنا ضربتين أنا وهو فقتلته) ، ولا شىء أسوأ من الحديث عن التسامح واللين حين البأس ، ففى خضم المعركة لابد أن تستجيش كل مكامن القوة فى النفس الإنسانية حتى لو اقتضى الأمر الخيلاء فى المشية التى يكرهها الله تعالى ويمقتها :

« إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا فى هذا الموطن » .

ولو اقتضى الأمر الفخر بالنسب ، والاعتزاز بالأصل :

وأنا الذى سمتنى أمى حيدره كليث غابات كريه المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السندره

« أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ، « أنا ابن العواتك من سُليم » .

وحديث الحرب الذى يعمل على تحقيق النصر يناسبه ذلك التوجيه النبوى الخالد ، كما روى البزار بسنده برجال ثقات عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

« اجزروهم جزرًا » وأومأ بيده إلى الحلق .

و « من قتل قتيلاً فله سَلَبُه » وكما قال أبو بكر ﷺ : (لا ها الله إذًا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه) أو « كلا ، لا يعطه أصيبغ من قريش ويدع أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله، فقام رسول الله ﷺ فأداه إلى) .

إذن فى خضم المعركة لا يحكمها إلا قوله عز وجل : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة] .

ولابد لأبى موسى إذن أن يشفى صدر عمه أبى عامر بقتل قاتله ويذهب غيظ قلبه.

(ثم قلت لأبى عامر : قد قتل الله صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم ، فنزعته ، فنزا منه الماء) .

وبذلك أدرك أبو عامر ﷺ أن أجله قد حضر ، وأنه لن يلقى نبيه وحبيبه فى هذه

الحياة الدنيا بعد الآن ، وقد وفَّت ذمته فقتل تسعة من صناديد المشركين ، وأفلت العاشر حين قال : اللهم لا تشهد على ، ورأى بعينه قبل أن يغادر الحياة الدنيا ثأره بعينه وقد أخذه له ابن أخيه أبو موسى ، وقتل قاتله ، عندئذ تفرغ رضي الله عنه لمشاعره التى صارت كلها صبابة بالنبى ﷺ ، ورغبة فى لقاء الله .

(قال : يا ابن أخى ، أقرئ النبى ﷺ السلام ، وقل له : استغفر لى) ولابد للأمة من قائد بعد وفاته (فاستخلفنى أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثم مات)[1] .

وتسعفنا رواية عند البيهقى تجلى الصورة كاملة كذلك منقولة عن ابن إسحاق :

قال ابن إسحاق : (وبعث رسول الله ﷺ فى آثار من توجه إلى أوطاس أبا عامر الأشعرى ، فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال ، فرمى بسهم فقُتِل ، وأخذ الراية أبو موسى الأشعرى وهو ابن عمه ، فقاتلهم فَفُتِح عليه ، فهزمهم الله .

وزعموا أن سلمة بن دريد هو الذى رمى أبا عامر بسهم فأصاب ركبته فقتله) [2] .

ونودع أبا عامر رضي الله عنه ، لنعود مع أبى موسى القائد المظفر إلى رسول الله ﷺ وهو ينتظر على أحر من الجمر أخبار قائده أبى عامر الأشعرى ، فهذه معركة جديدة لم تكن بالحسبان ولعلها تكسر شوكة هوازن وتنتهى قوتها العسكرية ، فإذا كان القائدان : دريد ، ومالك لا يزالان على قيد الحياة فبإمكانهما أن يجمعا ثانية قومهما ، ويفتحا جبهة ثانية جديدة .

ونمضى مع أبى موسى رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من خلال روايته لنا أحداث هذا اللقاء كما فى صحيح البخارى : (فرجعت ، فدخلت على النبى ﷺ فى بيته على سرير مُرمل وعليه فراش قد أثّر رمال السرير بظهره وجنبيه) .

وهذا هو قائدنا العظيم سيد القادة ﷺ ، وقد أنهى أكبر قوة تواجهه فى جزيرة العرب، ها هو على سرير مرمل أثَّر الرمل على جنبيه وظهره .

(فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر ، وقال : قل له استغفر لى) .

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بدعاء سريع ، إنما قام فتوضأ ورفع يديه حتى بدا بياض إبطيه ، وكم يدل هذا الاهتمام على مدى حب وتقدير رسول الله ﷺ لهذا القائد البطل .

---

(١) هذه الرواية فى البخارى ٢/ ٣/ ١٩٧، ١٩٨ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٥٤ وهى فى السيرة عند ابن هشام ٢/ ٤٥٥ .

(فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال : « اللهم اغفر لعُبيد أبى عامر » ورأيت بياض إبطيه) ، هذه الدعوة الأولى استجابة لرجاء جنديه أبى عامر ، لكن الدعوة الثانية استجابة لرغبة الحبيب المصطفى وحبه لجنديه المجاهد :

« اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس » .

ولم لا تقر عين أبى عامر بعد موته بهذا الدعاء ، وقد زكّى حياته بخير ما يختم امرؤ حياته بالتقرب إلى الله تعالى بدماء تسعة من أبطال المشركين ، وكفه عمّن ظهرت منه ملامح الهدى حتى فاز بلقب : شريد أبى عامر ، فأن تكون الدعوة له بأن يرفعه فوق كثير من خلقه بما قدَّم وضحى وجاهد فى سبيل الله ، ووجدها أبو موسى ﷺ فرصته سانحة ، فهو الذى أقرَّ عين عمه فى حياته بالثأر له من قاتله ، وفى رواية أنه قتل كلا الرجلين اللذين رمياه فى صدره وركبته . فقال للحبيب المصطفى ﷺ وقد اتصل برب العزة جل جلاله داعيًا ضارعًا :

(فقلت : ولى فاستغفر) .

فقال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا » .

قال أبو بردة: (وهو ابن أبى موسى): إحداهما لأبى عامر والأخرى لأبى موسى.

وهكذا نال البطل الجديد ما أقر الله به عينه من دعوة رسول الله ﷺ له بعد أن أقر عين عمه بقتل قاتله أو قاتليه ، وكان هذا الوسام النبوى الأعظم له جزاءً على هذه البطولة ، وياله من وسام .

ومن القائدين الكبيرين: دريد بن الصمة، ومالك بن عوف إلى قائدى ثقيف ، التى شاركت بثقلها فى المعركة، وثقيف موزعة بين قبلين كبيرين هما: الأحلاف، وبنى مالك.

(وكانت راية الأحلاف من ثقيف مع قارب بن الأسود بن مسعود، فلما انهزم الناس أسند رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه من الأحلاف فلم يقتل منهم إلا رجلان من بنى غيرة : وهب ، واللجلاج ، وقال النبى ﷺ حين بلغه قتل اللجلاج : « قتل اليوم سيد شبان ثقيف إلا ما كان من ابن هنيدة » ، وكانت راية بنى مالك مع ذى الخمار ، فلما انهزمت هوازن اتبعهم المسلمون ، ويستحصى القتل من ثقيف فى بنى مالك ، فقتل منهم قريب من مائة رجل تحت رايتهم فيهم عثمان بن عبد الله ، فقاتل فيها مليًا ، وجعل يحث ثقيفًا وهوازن على القتال حتى قتل .

قائدان أحدهما فرَّ حين وجد الثبات لا يجدى أمام الكتائب كالجبال التى أمامه ، فقاد قومه إلى النجاة فلم يقتل منهم إلا رجلان ، والثانى أنِف من الهزيمة ، وصبر على لظى

الحرب مع قومه فأزهق قرابة مائة نفس منها ليصد عن سبيل الله ، وقتل بعد ذلك .

وتمامًا كما انتهى قائدا هوازن بين قتيل وفار، انتهى كذلك قائدا ثقيف بين قتيل وفار، وكان فرار القائدين لهوازن وثقيف إلى حصن ثقيف يتمنعون بها من الحرب المدمرة التى نزلت بهم ، ولا يدرون كيف تكون العاقبة .

ونقف عند تعليق رسول الله ﷺ على مقتل اللجلاج من الأحلاف ، حيث قال رسول الله ﷺ : « اليوم قتل سيد شبان ثقيف إلا ما كان من ابن هنيدة » .

فقد حصر عليه الصلاة والسلام هذه السيادة فى ثقيف كلها بين شابين قتل أحدهما وهو اللجلاج ، ولم يقتل الآخر وهو ابن هنيدة ، ترى كم هى معرفة النبى ﷺ بكفاءات خصومه وإمكاناتهم ومعدنهم ، حتى ليبرز سادتهم ويكاد الثقفيون لا يعرفون هذه السيادة، ولا يعرفون أوضاعهم كما يعرفها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فلم يكونوا يعرفون أن اللجلاج رجلاً من بنى كِنه حيث قال عليه الصلاة والسلام عنه فى رواية أخرى : « هذا سيد شباب كنة ، إلا ابن هنيدة » وسيادة ابن هنيدة ، أنه ـ وسُحنة هذه أمة يمانية من غان ولدت فى قبائل العرب ـ أعتق كل مملوك من بنى كُنة ، برًا بأمه ، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ فى خلافته (أى لابن هنيدة) : أيسرك أن أهل بيت عامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة مكان كُنة ؟! فقال : يا أمير المؤمنين لوددت أن ذلك كان ، فقال عمر : ليت أمى كُنة وقد رزقنى الله من برها ما رزقك ، وكان أبر الناس بأمه ، ما كانت تأكل طعامًا إلا من يده ، ولا يغسل رأسها إلا هو ، ولا يسرّح رأسها إلا هو .

وقُدّر لابن هنيدة ـ سيد شباب ثقيف وسيد بنى كنة ـ أن يحيا ويرى النور ويدخل فى دين الله ، بينما قضى اللجلاج صريعًا فى هذه المعركة ، وسيد ولد آدم يوفى كل امرئ حقه ولو كان مشركًا .

بينما يصل إليه ﷺ مقتل عثمان بن عبد الله بن ربيعة من بين المائة الذين سقطوا قتلى ـ وكان يحمل الراية بعد ذى الخمار ـ فقال عنه رسول الله ﷺ :

« أبعد الله عثمان بن عبد الله بن ربيعة فإنه كان يبغض قريشًا » لكننا نبحث عن قاتل عثمان بن عبد الله بن ربيعة فنجده عبد الله بن أبى أمية ـ وهو ابن عمة الرسول ﷺ وهو رفيق درب أبى سفيان بن الحارث اللذين جاءا ليسلما فى طريق الرسول ﷺ إلى مكة ، ورفض ابتداء قبولهما بقوله : « أما ابن عمى فقد هتك عرضى ـ أى أبو سفيان ابن الحارث ـ وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال » ثم قبل إسلامهما عليه الصلاة والسلام ، وكان ما رأينا من جهاد أبى سفيان بجوار رسول الله ﷺ حيث كان آخذًا بثغر بغلته ، ويقاتل عنه يمينًا وشمالاً حتى قال عنه عليه الصلاة والسلام : « أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة » .

فماذا عن رفيق دربه عبد الله بن أبى أمية ؟

لابد أن نثبت ابتداءً ذلك القول الذى جرح رسول الله ﷺ فى أعماقه ، حتى ليذكره بعد عشر سنين ونيف ، ولا يقبل إسلامه ابتداء لذلك القول .

ترويه لنا كتب السيرة فتقول :

(والله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك) (١) .

ونزل فى كلامه قرآن يتلى من السماء : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣)** ﴾ [الإسراء] .

عبد الله بن أبى أمية هذا الذى كان من أبعد الناس عن رسول الله ﷺ ، والذى بقى كلامه جرحًا غائرًا فى قلب النبى ﷺ ، يدخل حظيرة الإسلام من دون أن يرى رسول الله صاعدًا فى السماء أو تأتى معه الملائكة شاهدة برسالته ، وينخرط جنديًا فى هذا الدين ، وتتاح له أول فرصة يجاهد فى سبيل الله ، فيقتل سيدًا من سادات ثقيف عثمان بن عبد الله بن ربيعة ، ولا يطول الزمن بالصحابى المجاهد عبد الله بن أبى أمية ختَن رسول الله ﷺ، فهو إضافة إلى أنه ابن عمته هو أخو زوجته أم سلمة رضي الله عنها ، ويبلغ رسول الله ﷺ مقتل عثمان بن عبد الله بن أبى ربيعة سيد ثقيف الذى يبغض قريشًا على يد ابن عمه وختنه عبد الله بن أبى أمية ،فيدعو له بالرحمة قائلاً : « يرحم الله عبد الله بن أبى أمية ، وأبعد الله عثمان بن عبد الله بن ربيعة فإنه كان يبغض قريشًا » والرحمة من المصطفى ﷺ تعنى الشهادة ، وما هى إلا أيام قلائل حتى كان موعود رسول الله ﷺ له (وكان دعاء رسول الله ﷺ لعبد الله يرحمه الله فبلغه فقال : إنى لأرجو أن يرزقنى الله الشهادة فى وجهى هذا) فقتل فى حصار الطائف .

إنه مشوار قصير جد قصير ، ورحلة أيام فى عمره الطويل الحافل بحرب الله ورسوله حتى لينزل فى كلامه وحربه ومحادثه لله ولرسوله كلامًا يتلى ، وتتفتح أزاهير

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٩٨ .

قلبه إلى الهدى ورسول الله ﷺ على وشك فتح مكة ، وفى منتصف الطريق بين مكة والمدينة يدخل حظيرة الإسلام بعد أن أفنى شبابه وحياته فى حربه ، وكانت أول موقعة يشهدها هى حنين ، فلا ندرى ماذا شارك فى فتح مكة ، وأكرمه الله تعالى أن يقتل عدوًا من أعداء الله فى حنين ، ثم يقتله عدو من أعداء الله فى الطائف قد لا يبلغ عمره شهرًا فى الإسلام ، وعوضًا عن أن يمضى فى التاريخ يلعنه الجيل بعد الجيل ، ويضمه إلى قائمة أبى جهل وأبى لهب ، ها هو فى شهر واحد ينضم إلى قافلة الإيمان ، ويذكره الجيل بعد الجيل بالرحمة عليه بعد أن ترحم عليه رسول الله ﷺ ، وبشره بالشهادة قبل أن يستشهد ، ويكتب مع الصديقين والشهداء والصالحين أحد رموزهم الكبرى وشخصياتهم العظمى ، وحسن أولئك رفيقًا ، وذلك الفضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ويذكر التاريخ كذلك أن القائدين اللذين فرا إلى حصن الطائف مالك بن عوف سيد هوازن، وقارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف، هذان القائدان اللذان فرا من رسول الله ﷺ إلى حصن الطائف وساهما فى تسعير الحرب ضد رسول الله ﷺ هذان القائدان قد انضما فيما بعد إلى كتيبة الإيمان ، ودخلا المدرسة التى دخلها عبد الله بن أبى أمية فى آخر عمرهما ، وجاهدا فى سبيل الله حق جهاده مع من جاهد فيما بعد ، وكان لقارب ومالك فضل عظيم فى إسلام ثقيف نتحدث عنه فى مظانه إن شاء الله .

أما القيادات الإسلامية :

فقد شهدنا منها الزبير بن العوام وبلاءه فى سبيل الله ، وشهدنا أبا عامر الأشعرى وأبا موسى الأشعرى وبلاءهما فى سبيل الله ، وبقى علينا أن نبحث عن قائد الفرسان وقائد سلاح المغاوير : خالد بن الوليد رضي الله عنه الذى حمل سلاحه عبء الهزيمة فى الجولة الأولى من المعركة ، حيث كان معظمه من بنى سليم فهم أكثر من نصف خيالة المسلمين ـ ألف فرس وألف فارس ـ حين وقعت المعركة ﴿ **فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)** ﴾ [التوبة] ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وخالد قائد السلاح يبحث عنه رسول الله ﷺ فلا يجده .

وها هو يمشى بين المسلمين ويقول : « من يدلنى على رحل خالد بن الوليد » ، وهو يعلم أنه نزل به جراحات كثيرة ، فلا أقل من عيادات ومواساة هذا الأسد الجريح ، قال عبد الرحمن : سعيت بين يدى رسول الله ﷺ وأنا غلام محتلم ، أقول : من يدلنى على رحل خالد حتى دُللنا عليه ، فإذا خالد مستند إلى مؤخرة رحله ، فأتاه رسول الله ﷺ ، فنظر إلى جرحه فتفل فيه فبرأ رضي الله عنه) .

وإنها للذكريات الخالدة ، فخالد بن الوليد هو هو يوم أحد الذى أعاد الكرة على المسلمين ، وانقض عليهم من الخلف ، وقاد الهجوم المعاكس لإنهاء رسول الله ﷺ ، وكان القائد الجريح آنذاك هو رسول الله ﷺ ، شُج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وكُلمت شفته ، وكان هذا كله بسبب خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين ، أما اليوم وبعد مرور خمس سنوات ، فخالد بن الوليد المسلم قائد سلاح فرسان المسلمين هو الذى يصد هجوم المشركين، وتنزل به الجراحات العميقة، ويبحث عنه قائده محمد ـ عليه الصلاة والسلام، ينتقل من رحل إلى رحل ، ومن مكان إلى آخر حتى رآه فواساه ، وتفل فى جرحه فبرأ رضي الله عنه، وهذا ما تقدمه النبوة لخصومها وأعدائها ، بعد أن يدخلوا فى دين الله ، وذلك الصحابى الآخر وإن لم يكن قائداً فذّاً فهو جندى مجاهد غارق بجراحه هو عائذ بن عمرو، فيحدثنا عن مستشفى المواساة التى دخلها عند رسول الله ﷺ فيقول : (أصابتنى رمية يوم حنين فى جبهتى ، فسال الدم عن وجهى وصدرى ، فسلت النبى ﷺ الدم بيده عن وجهى وصدرى إلى ثندوتى) وبقيت آثار العملية الجراحية عنده بعد خروجه من المستشفى النبوى .

قال حشرج والد عبد الله : (فرأينا أثر يد رسول الله ﷺ إلى منتهى ما مسح به من صدره ، فإذا غرة سابلة كغرة الفرس) وهى إذن عملية تجميلية بعد العملية الجراحية التى عافته بإذن الله وجمّلته .

من آداب الحرب :

ومع كل التوجيه فى الغلظة والشدة على المقاتلين « اجزروهم جزراً » و« من قتل قتيلاً فله سلبه » و« الآن حمى الوطيس » . لكن هناك آداب فى الحرب النبوية المهداة رحمة للبشرية ، فمن آدابها : ألا يقتل إلا المقاتل، ويحاسب عن ذلك قائد الجيش نفسه (فعن رباح بن ربيع رضي الله عنه أنه خرج مع رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد ، فمر رباح وأصحاب رسول الله ﷺ على امرأة مقتولة . . . فوقف عليها رسول الله ﷺ فقال : « ما كانت هذه لتقاتل » فقال لأحدهم : « الحق خالداً وقل له : لا تقتل ذرية ولا عسيفًا » .

أما المرأة المقاتلة ، فيختلف الحكم نحوها (فرأى رسول الله ﷺ امرأة أخرى فسأل عنها فقال رجل : يا رسول الله أنا قتلتها ، أردفتها خلفى ، فأرادت قتلى ، فقتلتها).

وإذا سمح بقتل المرأة المقاتلة فيبقى أدب آخر يخصها ، هو أن تدفن ، فالمرأة عورة (فأمر بها رسول الله ﷺ فدفنت) .

ومن الآداب النبوية فى الحرب ألا يقتل النبى العظيم الذى جاء مبلغًا للرسالة وهاديًا

للبشرية ألا يقتل بالإشارة ولو كان هذا المطلوب قتله مجرمًا عريقًا فى إجرامه ، يحدثنا عن ذلك أنس بن مالك ﷺ كما روى عنه الإمام أحمد :

(غزوت معه يوم حنين ، فحملوا عليه حتى رأينا خيلنا وراء ظهورنا وفى المشركين رجل يحمل علينا فيدقنا ويحطمنا ، فلما رأى ذلك نبى الله ﷺ نزل فهزمهم الله عز وجل فولوا فقام نبى الله حين رأى الفتح ، فجعل يجاء بهم أسارى رجلاً رجلاً فيبايعونه على الإسلام ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : إن على نذرًا لئن جيء بالرجل الذى كان منذ اليوم يحطمنا لأضربن عنقه ، فسكت النبى ﷺ) ويعنى سكوته عليه الصلاة والسلام إقراره لهذا الصحابى فى الوفاء بنذره .

وجيء بالرجل فلما رأى نبى الله قال : يا نبى الله تبت إلى الله ، يا نبى الله تبت إلى الله ، فأمسك نبى الله ﷺ فلم يبايعه ليوفى الآخر بنذره . قال : فجعل ينظر النبى ﷺ ليأمره بقتله ، وجعل يهاب نبى الله أن يقتله ، فلما رأى نبى الله ﷺ لا يصنع شيئًا بايعه فقال : يا رسول الله نذرى ، قال : « لم أمسك عنه منذ اليوم إلا ليوفى نذرك » فقال : يا نبى الله ألا أومضت إلى ؟ فقال : « إنه ليس لنبى أن يومض » .

لقد سبق فى فتح مكة أن جيء بأحد مجرمى الحرب عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وجاء عثمان بن عفان ﷺ شافعًا له ، الذى كان رسول الله ﷺ يستحى منه ، ويستحى أن يرد له طلبًا ، وانتظر رسول الله ﷺ مليًا ، قبل قبول شفاعة الرجل الثالث فى الأمة ، ثم قبلها ، وقال بعدها : « هلا قام إليه أحدكم فقتله » قالوا : يا رسول الله، هلا أومأت إلينا ؟ قال : « ما ينبغى لنبى أن يقتل بالإشارة » .

ولا تستطيع الرحمة المهداة أن ترفض الشفاعة حتى ولو عن أكبر مجرمى الحرب ، ولا يمكن للرحمة المهداة أن تقتل إيماء ، فتظهر شيئًا وتبطن شيئًا، فهذا لا يليق بمقام النبوة التى قد تحمل سمة الغدر ، وتتكرر العملية مع هذا الرجل الذى كان يدق المسلمين ويحطمهم ، ومن حقه أن ينال عقوبة القتل على ما أجرم وسفك من دم ، وترك رسول الله ﷺ الفرصة كافية قبل أن يقبل بيعته، ليقوم الصحابى الذى نذر بقتله أن يفى بنذره، ولكن أدب الصحابى العظيم ، إن أباح له أن ينذر بين يدى قائده وحبيبه قتل هذا العدو المجرم ولو جاء مستأسرًا مستأمنًا ، فلم يبح له أدبه أن يقوم بقتل هذا المجرم بين يدى رسول الله ﷺ دون أمر منه ، ولم يدرك أن رسول الله ﷺ فى إبطائه عن قبول بيعته، إنما يفسح له الفرصة بالإيفاء بنذره ، والرحمة المهداة للبشرية حين يطلب منها البيعة على الإسلام قد تملك الإبطاء ، لكنها لا تملك الرفض ، ولا تملك أن تكون سبب شقاء لتائب مهما كان صادًا عن سبيل الله ، وما كان لمقام وأدب النبوة أن تشير أو تومئ بالقتل لمن

جاء يطلب منها البيعة على الإسلام ، وهكذا دخل هذا المجرم فى حظيرة الإسلام والتوبة لأن الله تعالى كتبه إن شاء الله من السعداء .

ومن آداب الحرب فى الإسلام : التعامل مع الغنائم ، فمع أن الغنائم كانت محرمة على الأنبياء السابقين وجعلها الله تعالى خصوصية من خصائص هذا النبى الكريم ، كما فى الحديث الشريف :

« أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من قبلى . . . وأحلت لى الغنائم » .

لكن جيشًا قوامه اثنا عشر ألف مقاتل لابد أن يتدرب هذا الجيش على عدم المس بالغنائم قبل توزيعها من قبل قيادة الجيش ، والشىء الوحيد الذى أبيح استثناء من ذلك هو سَلَبُ القتيل من خلال التعميم النبوى الصادر : « من قتل قتيلاً فله سلبه » أما ما دون ذلك ، فلا حق لجندى بذرة واحدة من هذه الغنائم ، والأصل أن تجمع كلها ثم يتم توزيعها من قيادة الجيش ، ولكن العرب لم يتربوا هذه التربية ، ولم يتأدبوا هذا الأدب، فكان ما يحوزه الواحد من الغنيمة ، هو هدفه من معركته التى يخوضها إضافة إلى الشهرة التى ينالها ، وتصبح شجاعته حديث ربات الخدور ، وهذا الجيش كما سبق وذكرنا من قبل أن ثلثيه جديد على الإسلام ، وتعتبر غزوة حنين أول معركة يخوضها ويظفر بغنائم فيها ، ومن أجل ذلك كانت التعميمات النبوية من الوضوح والدقة بحيث لا تفسح مجالاً للاجتهاد الشخصى .

(لما انهزم القوم أمر رسول الله ﷺ بالغنائم أن تجمع ، ونادى مناديه :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل » ، وجعل الناس غنائمهم فى موضع حتى استعمل عليها رسول الله ﷺ .

ولكن هذا التعميم لا يكفى ، فلا تزال النفوس المتلمظة للغنيمة ، قد يراودها شك فى أن النبى ﷺ يريد أن يحتجزها له ، فأمر مناديًا ينادى .

لكن النداء كان بصيغة عملية مع الصيغة اللفظية ، كما روى الحاكم بسند صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله ﷺ وبرة من بعير ثم قال :

« يا أيها الناس ، إنى لا يحل لى مما أفاء الله تعالى عليكم قدر هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » .

وإذا كانت الوبرة من شعر البعير لا تحل لسيد ولد آدم إلا الخمس ، فكل جندى من باب أولى لا يحل له الوبرة وما دون ذلك وما أكثر ، ولهذا تابع التعميم النبوى .

« فأدوا الخياط والمخيط ، وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيامة » .

وصادف هذا النداء أذنًا لمسلم جديد كان من الشبكة الحديدية حول رسول الله ﷺ أثناء القتال وهو عقيل بن أبى طالب ، ودخل على زوجته وسيفه ملطخ بالدم فقالت :

إنى علمت أنك قاتلت اليوم المشركين فماذا أصبت من غنائمهم ؟ فقال : هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها .

وإذ المنادى ينادى : أدوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار على صاحبه يوم القيامة.

ورغم أن عقيلاً ؓ لم يتلق بعد شيئًا من تربية هذا الدين ، فكل عمره فيه أقل من شهر ، ويستطيع أن يحتفظ بهذه الإبرة دون أن يدرى بها أحد أو يعرف أحد عنها شيئًا ، لكنه آمن بـ (لا إله إلا الله) إيمانًا حقيقيًا منهج حياة ، وتوقف عشرين عامًا قبل أن يقولها ، لكنه عندما قالها كانت له مصيرًا وخط حياة ومن أجل هذا قال لزوجته :

والله ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت منك ، فأخذها فألقاها فى الغنائم .

ونتابع أثر هذا النداء مع صحابى آخر ، جاء إلى رسول الله ﷺ ومعه كبة من شعر فقال : يا رسول الله : أضرب بهذه برذعة لى ؟

ولم يكن يخطر بذهنه لحظة واحدة ألا يأذن القائد العام له بها فهى لا تساوى ذرة بين مئات الألوف من الغنائم من الأموال والثياب وغير ذلك .

وكيف يفقه رسول الله ﷺ هذا الفتى بمعنى حرمة الغنائم قبل التوزيع وأنه مال عام لا يجوز أخذه قبل أن يحكم فيه القائد العام ، قال له تلك الكلمة الخالدة يربى بها هذا السائل ، ويربى الأمة كلها من بعده :

« ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لك » .

وأعلمه بذلك أنه يملك التنازل عن حقه وحق عشيرته الأدنين من بنى عبد المطلب ، ولم يقل من بنى هاشم ؛ لأنه لا يملك ذلك، وعليه أن يأخذ السماح من اثنى عشر ألفًا من المسلمين لأخذه هذه الكبة من الشعر ليخيط برذعة له ، ولاشك أن هذا السؤال كان على رؤوس الأشهاد ، وكان الجواب على رؤوس الأشهاد كذلك ، سمعها المسلمون ونقلها من سمعها لمن لم يسمعها ، وعُرِف أن الشعرة الواحدة والخيط للجيش كله حق فيه ، فلا يجوز أخذه واحتجازه قبل أن يوزع ، وكان هذا الإعلان عقب الإعلان الأول الذى أكد أنه ليس من الحق الشخصى لقائد الجيش كذلك ، ولا هذه الكبة من الشعر .

ووقفة صغيرة عند شخص عقيل بن أبى طالب : فعقيل قبل الإسلام ، وقد رحل

رسول الله ﷺ والمؤمنون معه من بنى هاشم وتركوا أرضهم ودورهم ، كان عقيل يتصرف بهذه الدور بيعًا وسكنًا كما يشاء دون أن يسأله أحد عن شيء من تصرفاته : (فعن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله ، أين ننزل غدًا ؟ قال النبى ﷺ: « وهل ترك لنا عقيل من منزل » [(١)] .

ويقول ابن حجر رحمه الله شارحًا للحديث :

(فلما مات أبو طالب ووقعت الهجرة ولم يسلم طالب ، وتأخر إسلام عقيل استوليا على ما خلّف أبو طالب ، ومات طالب قبل [(٢)] بدر ، وتأخر عقيل . . . وكان عقيل قد باع تلك الدور كلها ، وفى قوله : « وهل ترك لنا عقيل من دار » إشارة إلى أنه لو تركها بغير بيع لنزل فيها) [(٣)] .

واختلف فى تقرير النبى ﷺ عقيلاً على ما يخصه هو ، فقيل : ترك له ذلك تفضلاً عليه ، وقيل : استماله له وتأليفًا ، وقيل : تصحيحًا لتصرفات الجاهلية كما تصحح أنكحتهم [(٤)] .

فعقيل هذا الذى يستولى على دور المسلمين ويبيعها فى الجاهلية ـ من قومه من بنى هاشم ـ هو هو نفسه الذى يعيد إبرة الخياطة للغنائم قائلا لامرأته : والله ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، وذلك عندما سمع نداء رسول الله ﷺ : « أدوا الخياط والمخيط ، فإن الغلول عار على صاحبه يوم القيامة » .

إنه هو هو ، فعقيل فى الجاهلية لا يتورع عن الإستيلاء على دور بنى هاشم من المسلمين وبيعها ، وعقيل فى الإسلام يعيد إبرة الخياطة إلى الغنائم لنداء سمعه من رسول الله ﷺ ، وقد قدَّم حياته ثمنًا للذود عن رسول الله ﷺ .

إننا بهذه المقارنة نستطيع أن نتعرف على المدى الذى يرتفع فيه المسلم بعد إيمانه، وعن الوهدة التى يكون فيها قبل أن يذوق حلاوة الإيمان ، ولو كان عمر إيمانه أقل من شهر.

وحتى يتجذر معنى الأمانة هذا فى نفوس المسلمين الذين عاشوا عمرهم فى الجاهلية على السلب والنهب والغنائم يذكر لنا الصالحى هذه الرواية : (. . . وأتى رسول الله ﷺ الناس يوم حنين فى قبائلهم يدعوهم، وأنه ترك قبيلة من القبائل ، وجدوا فى بردعة رجل منهم عقدًا من جذع غلولاً ، فأتاهم رسول الله ﷺ ، فكبَّر عليهم كما يكبر على

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥/ ١٨٧ .

(٢) الثابت أن طالب بن أبى طالب قد توفى بعد بدر ، فقد مضى مع قومه إلى بدر ورجع من منتصف الطريق ، وقال شعراً بعد غزوة بدر .

(٣، ٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ١٣ .

الميت) [١] .

فالقبيلة كلها مسؤولة عن الأخذ على يد الغالّ ، ولا يحق لها أن تسكت عليه ، وإلا كان الموت خير لها من الحياة . والرجل الذى يبيح لنفسه أخذ شىء من الغلول بعد هذا النداء ، فكبر عليه كما تكبر على الميت .

(وجاءه رجل فقال : يا رسول الله هذا الحبل وجدته حيث انهزم العدو ، فأشد به على رحلى ؟ قال : « نصيبى منه لك ، وكيف تصنع بأنصباء المسلمين ») [٢] .

فلو أخذه بعد ذلك فهذا يعنى أنه لم يحيى بهذا الدين بعد ، ولم ينتقل من الظلمات إلى النور .

هذا عف النفس عن شهوة الغنيمة ، فماذا عن عف النفس عن شهوة الجنس ، وقد غدت الجارية بين يديه وملك يمينه ، فجاءت الأوامر النبوية بالامتناع عن قرب هذه الجوارى قبل أن تستبرأ بحيضة .

وقال رسول الله ﷺ يومئذ : « لا توطأ حامل من السبى حتى تضع حملها ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة » لكن السبايا كذلك لم توزع عمليا حتى أذن رسول الله ﷺ بذلك .

قال ابن سعد وتبعه فى العيون :

كان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألف بعير ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة .

هذه الغنائم والسبايا ، كان يمكن أن تكون نهب الجيش كله ، وألا يكون هناك سلطة تملك السيطرة عليها لولا هذا النظام العظيم الذى اختطه رسول الله ﷺ نحوها .

فقد روى الطبرانى عن بُديل بن ورقاء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أمر أن تحبس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم فحبست .

وتشير رواية عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب أن الأمير الذى أوكل إليه أمر السبايا وهم ستة آلاف سبى بين امرأة وغلام، فجعل عليهم أبو سفيان بن حرب، وقال البلاذرى: بديل بن ورقاء ، والله تعالى أعلم) .

وكلا الشخصين هم من قادة مكة الأوائل الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ، وهما اليوم أمناء الله فى أرضه على سبايا هوازن .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩١٨ وقال : « حدثنى مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، عن عبد الله بن المغيرة بن أبى بردة » .

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٩١٨ .

الحكومة بين سيدى تميم وغطفان

وهذا هو سيد العرب ﷺ حين يكون من جنوده زعيم تميم : الأقرع بن حابس ، وزعيم غطفان : عيينة بن حصن ، وهما من هما مكانة فى العرب ، ويختصمان ، ولو دفعت، هذه الخصومة فى الجاهلية لكان من ثمارها المرة حربًا ضروسًا تأكل الأخضر واليابس، وتفنى القبيلتين ، أما الآن فهذان الجنديان يحتكمان إلى رسول الله ﷺ بعد أن أسقطت هزيمة حنين ما فى نفسيهما من تطلع للانتصار على محمد والانقضاض عليه ، ولو أن هوازن انتصرت لكان لهما شأن آخر ، وقبل أن نقف مع هذه الحكومة نعود قليلاً إلى الوراء للحديث عما اختصما عليه .

(وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعى فى ثمانية نفر إلى بطن إضم ليظن أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار .

حدثنى عبد الله بن زيد بن قسيط عن أبيه عن ابن أبى حدرد عن أبيه قال :

(بعثنا رسول الله ﷺ إلى بطن إضم أميرنا أبو قتادة فى تلك السرية ، وفيها محلم ابن جثامة الليثى وأنا فيهم ، فبينا نحن ببعض وادى إضم إذ مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى ، فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه ، وحلم عليه محلم بن جثّامة فقتله، وسلبه بعيرًا له ومتاعًا ووطبًا من لبن [1] كان معه ، فلما لحقنا بالنبى ﷺ نزل فينا القرآن: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** (٩٤) ﴾ [النساء] ، فانصرف القوم ولم يلقوا جمعًا حتى انتهوا إلى ذى خشب ، فبلغهم أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى مكة ، فأخذوا على بين حتى لحقوا النبى ﷺ بالسقيا) .

فمهمة هذه السرية مهمة تمويهية لتبلبل أفكار أهل مكة وثقيف وهوازن بحيث لا يعرفون أين يمضى رسول الله ﷺ ومن يقصد ، ومضت هذه السرية إلى بطن إضم ليس لها هدف قتالى ، إنما هدفها إعلامى وهو توجيه الأنظار إلى احتمال غزو رسول الله ﷺ العرب فى هذا المكان ، وكان يمكن لهذه السرية أن تمضى ، وقد تنسى لولا هذا الحدث الهام الذى جرى بها وهو إقدام محلّم بن جثّامة المسلم على قتل عامر بن الأضبط

---

(١) وطاب اللبن : سقاء اللبن خاصة .

الأشجعى المسلم طمعًا فى سلبه ونهبه ، وليس بين يدينا ما يشير إلى تاريخ إسلام محلّم ابن جثامة لنحكم على مدى تغلغل الإسلام فى أعماقه ومدى تجذر الجاهلية فى نفسه ، لكن يكفينا لقاؤه مع رسول الله ﷺ الذى سيرد فيما بعد ، ونقف هنا مع الحكومة بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، حيث تبنى فعيينة بن حصن يطلب بدم عامر بن الأضبط الأشجعى ـ وهو يومئذ سيد قيس ـ وأشجع من غطفان ، وعيينة سيد فزارة خاصة وغطفان عامة ، أما الأقرع بن حابس التميمى فيدفع عن محلّم بن جثامة لمكانه من خندف ، وخندف هى أم تميم وكنانة ، وينتهى نسب محلّم إلى الليث من كنانة ، فالنسب بعيد ، لكنها الزعامة التى تحاول أن تبرز فى الصف الإسلامى بين هذه الآلاف المؤلفة لينتبه الناس إليهما أنهما سادة من السادة .

(وصلى رسول الله ﷺ الظهر يومًا بحنين ثم تنحى إلى شجرة فجلس إليها ، فقام إليه عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر يطلب بدم عامر بن الأضبط الأشجعى ، ومعه الأقرع بن حابس يدفع عن محلّم بن جثامة، فاختصما بين يدى النبى ﷺ،وعيينة يقول:

يا رسول الله، لا والله لا أدعه حتى أُدخل على نسائه من الحَرَب والحزن ما أدخل على نسائى ، قال رسول الله ﷺ : « تأخذ الدية ؟ » ويأبى عيينة ، فارتفعت الأصوات وكثر اللغط ، وتحركت بنو تميم تصر على قتل القاتل ، لكن الأقرع بن حابس يريد أن يلبى رغبة رسول الله ﷺ ، وعيينة بن حصن يود ذلك .

قال ابن إسحاق : وأخبرنا سالم أبو النضر أنه حدّث أن عيينة بن حصن وقيسًا حين جاء الأقرع بن حابس وخلا بهم قال :

يا معشر قيس ، منعتم رسول الله ﷺ قتيلاً يستصلح به الناس ، أفأمنتم أن يلعنكم رسول الله ﷺ، فيلعنكم الله بلعنته ، أو أن يغضب عليكم فيغضب الله عليكم بغضبه؟ والله الذى نفس الأقرع بيده لتسلمنَّه إلى رسول الله ﷺ، فليصنعن فيه ما أراد، أو لآتين بخمسين رجلاً من بنى تميم يشهدون بالله كلهم لقُتِل صاحبكم كافرًا ، ما صلى قط ، فلأبطلن دمه . فلما سمعوا ذلك قبلوا الدية .

لقد اقترب الأقرع بن حابس كثيرًا من الإسلام ، وأصبح رضا رسول الله ﷺ هو رضاه ، وغضب رسول الله هو غضبه ، ولكن الخطة التى هدَّد بها لمرضاة رسول الله ﷺ هى خطة شهادة زور يقوم بها خمسون من تميم فينفون الإيمان عن عامر بن الأضبط الأشجعى ، وبذلك يصبح دمه دم كافر ، وهذا لا يأتلف مع المنهج الإسلامى فى الحكم والقصاص ، والقرآن الكريم أثبت إيمانه فما جدوى نفيه فى شهادة رجال من بنى تميم : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء : ٩٤] ، كما أن الرواية فيها من

التداخل ما يجعلها غامضة كذلك ، فالأولى أن يقول هذا القول عيينة بن حصن عن الأشجعى الذى هو من قبيلته ، لا أن يقوله الأقرع بن حابس الذى لا يدرى عنه شيئًا ، ولهذا نجد الرواية الثانية أدق فى هذا الموضوع ، وهى التى تتحدث عن مكتيل الذى حسم الأمر بحزمه ورأيه مؤيدًا لرسول الله ﷺ وسند تلك الرواية أقوى وأوثق كما أوردها ابن إسحاق فى السيرة :

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : سمعت زياد بن ضميرة ابن سعد السلمى يحدث عن عروة بن الزبير عن أبيه عن جده وكانا شهدا حنينًا مع رسول الله ﷺ - إذ قام رجل من بنى ليث يقال له : مُكَيثِر ، قصير مجموع ، قال ابن هشام : مُكَيتِل - فقال : والله يا رسول الله ما وجدت لهذا القتيل شبهًا فى غرة الإسلام إلا كغنم وردت فرُميت أولاها ، فنفرت أخراها . اسنن اليوم ، وغيره غدًا .

قال : فرفع رسول الله ﷺ يده فقال : « بل تأخذون الدية خمسين فى سفرنا هذا، وخمسين إذا رجعنا » فقبلوا الدية .

وهكذا حسم الأمر بين الزعيمين بالدية التى ذكرها رسول الله ﷺ على أن يسلم نصفها مباشرة ، ويؤجل نصفها الآخر حتى يعود الناس إلى رحالهم .

وإذا كانت القضية قد انتهت بين الأقرع وعيينة فى خلافهم السياسى ، لكن قضية المبدأ والعقيدة وبناء الجيل الإسلامى الرائد لم يتجل بعد فى مجتمع يقوم على الإسلام والإسلام وحده .

(ثم قالوا : أين صاحبكم هذا يستغفر له رسول الله ؟ فقام رجل آدم ضرب طويل عليه حلة له كان قد تهيأ للقتل فيها حتى جلس بين يدى رسول الله ﷺ، فقال له: « ما اسمك ؟ » قال : محلّم بن جثامة ، وفى رواية الواقدى :

(... وعيناه تدمعان، فقال: يا رسول الله قد كان من الأمر الذى بلغكم، فإنى أتوب إلى الله تعالى ، فاستغفر لى. فقال رسول الله ﷺ : « ما اسمك ؟ ». قال : أنا محلّم بن جثامة. قال : « قتلته بسلاحك فى غرة الإسلام، اللهم لا تغفر لمحلّم بن جثامة ». قالها بصوت عال يتفقد به الناس، فقال : يا رسول الله، قد كان الذى بلغك، وإنى أتوب إلى الله فأستغفر لى، فعاد رسول الله بصوت عال يتفقد به الناس: « اللهم لا تغفر لمحلّم بن جثامة »،حتى كانت الثالثة،فعاد رسول الله ﷺ لمقالته،ثم قال له رسول الله ﷺ : « قم » ، فقام من بين يدى رسول الله ﷺ وهو يتلقى دمعه بفضل ردائه ، وكان ضمرة السلمى يحدث ، وكان قد حضر ذلك اليوم . قال: وكنا نتحدث فيما بيننا أن رسول الله ﷺ حرَّك شفتيه باستغفار له ، ولكنه أراد أن يُعلم قدر الدم عند الله) .

لقد كان الدم أرخص ما يكون عند العرب ، وأغلى ما يكون عند العرب ، وهذا الذى جعل منهم أوزاعًا متفرقين لم يتمكنوا أن ينصهروا فى أمة واحدة لما بينهم من دماء وثارات ، فالقتل يتم على أهون سبب ولو كان من خليع ماجن ، ثم تحمل القبيلة بعدها آثار هذا الدم ، وتقع المعارك الطاحنة التى تستمر أيامًا أو أشهرًا أو سنينًا ، فما تجف من طرف إلا وتجرى من طرف آخر ، فإذا حليف اليوم عدو الغد ، وإذا ابن العم القريب النسيب غدًا هو عدو رهيب ، هذه الحالة التى وصفها الله تعالى لهذه الأوزاع المتفرقة .

﴿ ... إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾ [الأنفال] .

هؤلاء القوم المتناحرون المتفرقون المتصارعون المتذابحون على مدى قرون متتالية نشؤوا على هذه الجاهلية وهذه الثارات وهذه الدماء أجيالاً تعقب أجيالاً وتورث الحقد والدم والثأر إلى الجيل الجديد .

هذه الأوزاع يريد الله تعالى أن يصنع منهم خير أمة أخرجت للناس ، فجعل الجهاد والقتال شرعة لها مكتوبة عليها : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾

[البقرة]

وفى عملية التربية الأولى التى كانت تهدف إلى تكوين جيل قيادى يمسك مقود التاريخ بيده ، فطمه عن القتال نهائيًا قرابة ثلاثة عشر عامًا ، حتى تعود إليه ببناء جديد وصيغة جديدة إنطلاقًا من تطبيق شريعة الله ، والثأر لدين الله ، واعتبر هذا الهدف إن جرى تحوير فيه ، فهو كفر .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [النساء] .

وإذا قدر للجيل القيادى الأول أن يصاغ صياغة كاملة بعد أمره بكف اليد ما ينوف عن عشرة أعوام ، فلم يهيأ لهذا الجيل شيء من هذا ، وأقدم على الإسلام وعلى الجهاد، وقد يكون واضحًا هذا من الناحية النظرية لكن التطبيق العملى عليه والتنفيذ له هو من أشق الأمور على النفس ، ولذلك وجدنا الموقف النبوى من خلال تربية هذا

الجيل فى صرامة لم نشهد لها مثيلاً على الإطلاق فى تاريخ النبوة ، فخلال هذه الأعوام كلها لم نشهد موقفًا واحدًا لرسول الله ﷺ لا يقبل فيه توبة تائب ـ ولو كان من أكبر المجرمين ـ ولقد قبل توبة عبد الله بن أبى سرح بعد أن كان مهدر الدم لارتداده وكذبه على الله رب العالمين ، وقبل إسلام وتوبة قادة الكفر جميعًا فى مكة ؛ لأن الإسلام يجب ما قبله ، وقبل ـ حتى هنا فى هوازن ـ توبة إسلام ذلك الرجل الذى كان يحطم المسلمين ويفتك بهم ويقتلهم ، أما محلّم فلأول مرة فى تاريخ النبوة نشهد لرسول الله ﷺ هذا الدعاء : « اللهم لا تغفر لمحلم » ، وأعادها ثلاثًا ، ثم طلب منه أن يقوم من بين يديه ؛ لأنه دخل فى الإسلام ، وقتل فيه بذحول الجاهلية ، لقد وقعت هذه الحادثة من قبل مع أسامة بن زيد ، والمقداد بن الأسود ، وعنَّفهم رسول الله ﷺ أشد تعنيف حتى لتمنى أسامة بن زيد ألا يكون قد دخل قبلها فى الإسلام . لكن المقداد وأسامة لم يقتلا من تلفظ بكلمة التوحيد لثأر قديم بينهما ، إنما قتلا ذلك الرجل باعتباره قالها هربًا من الموت ـ كما خيل لهما ـ لاعن قناعة بهذا الدين ، أما قضية محلّم فتختلف عن تلكما الحادثتين ، إنه قتله فى غرة الإسلام بذحول الجاهلية ، لثأر قديم بينهم ، ولو فتح هذا الباب على مصراعيه لانتهت أمة الإسلام فى أيام ، فالأنصار الذين يمثلون أعظم اللبنات الأولى فى البنيان الإسلامى بينهم من الثأر ما يكفى لاستمرار الصراع بينهم قرنًا جديدًا ، والأيام بين الأوس والخزرج جعلت العداوة متأصلة للأجيال المتلاحقة ، وقد أوضح القرآن بشكل جلى أنه إنما قتله رغبة فى الدنيا ، وحرصًا على سلبه: ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ** ﴾ [النساء : ٩٤] . فهذه سجيتكم وطبيعتكم وجبلتكم قبل الإسلام فالصراع كله ابتغاء عَرَض الحياة الدنيا: ﴿ **كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ** ﴾ أما اليوم فلا ، ﴿ **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ** ﴾ وبعد منّ الله تعالى عليكم بالإسلام لا يجوز بحال من الأحوال أن تبقوا كما كنتم من قبل تقتلون لثأر دفين، أو رغبة فى دنيا مؤثرة ومتاع رخيص، حتى لو كان أخاكم فى الإسلام، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ لمحلم: « قتلته بسلاحك فى غرة الإسلام »، وفى رواية: « أمنته بالله ثم قتلته » . وقد ألقى إليكم السلام ، وقبلتموه منه ، وأعطيتموه السلام والأمن على أنه أحدكم ، ثم قمت بقتله .

وكررها ثلاثًا : « اللهم لا تغفر لمحلم » . ثم قال له : « قم » فقام يمسح دموعه بطرف ردائه .

لقد خاض رسول الله ﷺ مخاضًا عنيفًا بين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، حتى أنقذ محلّمًا من القصاص والموت، لكن هل يمضى بها محلّم قاتلاً، ورسول الله ﷺ

يفرض قبول الدية على أوليائه ـ لصالحه ـ ثم يبقى رمزًا للبغى لا ينال منه، فتمضى المظلمة، وتمضى الجاهلية تنتفش من جديد انتفاشة الشيطان. . . كلا. فهذا أمر وذاك أمر.

إنها تربية للأمة على العفو ، وعلى تسكين الدماء ، وعلى إطفاء جذوة الثأر والعصبية ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية حين رفض الاستغفار لمحلم ، بل دعا له بأن لا يغفر الله له هو كذلك قتل لنوازع الجاهلية والعصبية . واجتثاث لها من جذورها حتى لا تعود ثانية فتبرز من جديد ، وينتشر القتل فى الصف الإسلامى تحت أى ستار ، وأدرك الجيل الإسلامى هذا الدرس العظيم الخالد ، وقالوا فيما بينهم : إنا لنرجو أن يكون رسول الله ﷺ قد استغفر له ، وأما ما ظهر من رسول الله ﷺ فهو هذا ، وبصورة أدق فى الرواية الأخرى : ولكنه أراد أن يعلم قَدَر الدم عند الله .

وجاءت تتمة التربية على رؤوس الأشهاد كما روى الواقدى عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث عن الحسن البصرى قال : لما مات محلّم بن جثامة دفنه قومه فلفظته الأرض ، ثم دفنوه ، فلفظته الأرض ، فطرحوه بين صخرتين ، فأكلته السباع .

إن الأرض التى ابتلعت أبا جهل وأبى بن خلف وفرعون وهامان وجنودهما وطغاة الأرض ترفض قبول جثة محلّم ، يجيبنا رسول الله ﷺ على هذا التساؤل مؤكدًا الهدف الذى سعى إلى تحقيقه من عدم الاستغفار له فقال :

« والله إن الأرض لتطّابق على من هو شر منه ، ولكن الله أراد أن يعظكم فى حُرُم ما بينكم بما أراكم منه »[1] .

وهكذا كانت التربية الجماعية العظيمة الخالدة ـ بعد معركة هوازن ـ على فطم النفس عن شهوة الغنيمة قبل أن توزع ، وأن آخذ خيط منها غلول يقود إلى العار والنار .

وعلى فطم النفس عن شهوة الجنس حين منع الاقتراب من السبايا قبل استبرائهن بحيضة .

وعلى فطم النفس عن شهوة الثأر والتلمظ للقتل حين لم يستغفر لمحلّم ، وحين لفظته الأرض .

ولكن ليس الهدف من ذلك هو الحرمان والتبتل والانقطاع عن الدنيا ، إنما الهدف أن تكون هذه الشهوات مقيدة بأمر الله منطلقة من شريعة الله ، مضبوطة بحدود الله.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٢٨/٢ .

فالغنيمة حق ، ولكن بعد أن تقسَّم .

والسبى حق ولكن بعد أن تستبرأ .

والقتل حق حين يكون خالصًا لله سبحانه لا فى سبيل الشيطان والطاغوت .

ومن أجل هذا وجدنا الشعر الإسلامى الذى صاغه عباس بن مرداس ، وهو يمارس هواية الشعر كما كان يمارسها من قبل ينطلق من الروح الإسلامية الجديدة التى سرت فيه، ويصوغ شعره على هدى الإسلام الذى اعتنقه ، ويتناول أكبر قضية قد تنال منه . أنه قاتل مع بنى سليم أبناء أعمامهم هوازن .

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم ... جند بعثت عليهم الضحاكا
رجلاً به ذرب السلاح كأنه ... لما تكنفه العدو يراكا
يغشى ذوى النسب القريب وإنما ... يبغى رضا الرحمن ثم رضاكا

هذا عن القائد ، فماذا عن الجند من بنى سُليم مع إخوتهم هوازن :

وبنو سُليم معنقون أمامه ... ضربًا وطعنًا فى العدو دراكا
يمشون تحت لوائه وكأنهم ... أسد العرين أردن ثم عراكا
ما يرتجون من القريب قرابة ... إلا لطاعة ربهم وهواكا

ونأخذ نموذجًا آخر من الشعر الإسلامى الخالص الذى لا تشوبه شائبة العصبية القبلية كما هو الحال لدى شاعرنا عباس بن مرداس ، هذا الشعر هو لبجير بن زهير بن أبى سلمى، وحين تقرأ شعره لا تعرف عنه من أى قبيلة هو إلا أنه منتسب لكتيبة الإيمان:

لولا الإله وعبده ولَّيتُمُ ... حين استخف الرعب كل جبان
بالجزع يوم حبالنا أقراننا ... وسوابح يكبون للأذقان
من بين ساع ثوبه فى كفه ... ومقطرٍ بسنابك ولبان
فالله أكرمنا وأظهر ديننا ... وأعزنا بعبادة الرحمن
والله أهلكهم وفرّق جمعهم ... وأذلهم بعبادة الشيطان

وإن كان لابد لبجير أن ينتسب ، فهو ينسى نسبه ، ويفخر بعشيرة رسول الله ﷺ ، الغُرّ من بنى هاشم . ويفخر بالرعيل الأول من جيل الحديبية :

إذ قام عَمٌّ نبيكم ووليه ... يدعون يا لكتيبة الإيمان
أين الذين هم أجابوا ربهم ... يوم العُريْض وبيعة الرضوان

ونأخذ نموذجًا ثالثًا عن الشعر الجاهلى فى هوازن والذى قدَّمه قائد جيش العدو مالك ابن عوف النضرى يعتذر عن فراره :

منع الرقاد فما أغمض ساعة نعَمٌ بأجزاع الطريق مخضرمُ
سائل هوازن هل أضرٍّ عدوها وأُعينَ غارمُها إذا ما يغرم
وكتيبة لبستها بكتيبة فئتين منها حاسر وملأم

ويعود باللوم على قومه الذين كلفوه لقاء جيش محمد الذى لا يغلب :

كلفتمونى ذنب آل محمد والله أعلم من أعق وأظلمُ
وخذلتمونى إذ أقاتل واحدًا وخذلتمونى إذ تقاتل خثعم
وإذا بنيت المجد يهدم بعضكم لا يستوى بانٍ وآخر يهدم

فلقد مثلت هذه النماذج الثلاثة شعر الجاهلية عند مالك بن عوف النضرى، والشعر الإسلامى الجاهلى لدى عباس بن مرداس السلمى الذى لا ينى يفخر بقومه بنى سليم ، والشعر الإسلامى الخالص الذى مثله شعر بجير بن زهير بن أبى سلمى والذى هو حديث عهد بالإسلامى ، لكنه جاء إلى هذا الدين ملقيًا أوزار الجاهلية كلها خلف ظهره .

بقى علينا أن نتعرف على هذه المعركة الضخمة التى كانت بين ثلاثين ألفًا من هوازن واثنى عشر ألفًا من المسلمين والتى دخلت الملائكة فيها عنصرًا رئيسيًا من عناصر النصر ، كم هو عدد القتلى فيها من الفريقين ، ويكاد يكون ذكر هؤلاء هو الذى يجلى ضخامة المعجزة الربانية .

أما قتلى العدو فلا نجد بين يدينا إحصاءً لهم ، لكننا نجد أن أبا طلحة وحده قتل عشرين فارسًا وأخذ سلبهم وحده ، وسلمة بن الأكوع وأم عمارة قام كل واحد منهما بسلب قتيله أو قتيلته .

وتذكر لنا كتب السيرة أن المقتول من بنى ثقيف ما ينوف عن السبعين من أبطالهم وصناديدهم ، ونبحث عن القتلى فى صفوف المسلمين فلا نكاد نجد لهم أثر ، فهم بضعة أفراد :

أيمن ابن أم أيمن عاشر كتيبة المغاوير الأولى من أهل بيت رسول الله ﷺ فهو ولد أمَته أم أيمن ، وأبو عامر الأشعرى الذى لم يسقط شهيدًا إلا بعد أن قتل تسعة من المشركين تركهم يتضرجون بدمائهم، ويزيد بن زمعة بن الأسود جمحت به فرس يقال له: الجناح فقتل (١) .

---

(١) وأضاف لهم الواقدى من الأنصار : سراقة بن الحارث ورقيم بن ثابت ، فصار عددهم خمسة .

وبالمقارنة مع أحد نلحظ أنهم قابلوا ثلاثة آلاف من المشركين ، فقضى منهم سبعون شهيدًا ، واليوم يلاقون ثلاثين ألفًا من المشركين . فلا يستشهد إلا ثلاثة .

وهذا يعنى أن المعركة كلها قد أنهاها الله تعالى سبحانه لصالح عبده ونبيه محمد ﷺ حين خذله الناس ، وكانت الملائكة هى كتائب الرعب التى نزلت بهوازن ، فينصرف أبطالهم عند رؤيتهم مرعوبين مفزوعين ، فهى معركة الرعب الكبرى فى التاريخ الإسلامى.

وندع الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ يحدثنا عن أسرار غزوة حنين وعلاقتها بفتح مكة المكرمة وغزوة الفتح فيها ، وذلك فى ختام حديثنا عن غزوة حنين قال :

(كان الله عز وجل قد وعد رسوله ـ وهو صادق الوعد ـ أنه إذا فتح مكة دخل الناس فى دينه أفواجًا ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم له الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ليظهر أمر الله وتمام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكرانًا لأهل الفتح ، وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده ، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التى لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التى تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين ، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق أولاً مرارة الهزيمة مع كثرة عددهم وعُددهم وقوة شوكتهم ، ليطامن رؤوسًا رفعت بالفتح ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ ، واضعًا رأسه ، منحنيًا على فرسه ، حتى أن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعًا لربه ، وخضوعًا لعظمته ، واستكانة لعزته ، أن أحل له حرمه وأهله ولم يحل لأحد قبله ، ولا لأحد بعده ، وليبين سبحانه لمن قال : لن نغلب اليوم عن قلة ، أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره فلا غالب له ، ومن يخذله فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذى تولى نصر نبيه ودينه لا كثرتكم التى أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئًا فوليتم مدبرين ، فلما انكسرت قلوبهم ، أرسلت لهم خِلعُ الجبر مع بريد النصر : ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ [التوبة : ٢٦] ، وقد اقتضت حكمته أن خِلعَ النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)** ﴾ [القصص] .

ومنها أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة ، فلم يغنموا منها ذهبًا ولا فضة ولا

متاعًا ولا سبيًا ولا أرضًا ، كما روى أبو داود عن وهب بن منبه قال : (سألت جابرًا هل غنموا يوم الفتح شيئًا ؟ قال : لا ، وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب) وهم عشرة آلاف،وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف فى قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشائهم وسبيهم معهم نزلاً وضيافة وكرامة لحزبه وجنده . وتمم تقديره سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر ، وألاح لهم مبادئ النصر : ﴿ وَلَكِن لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ [الأنفال : ٤٢] . فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبردت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله قيل : لا حاجة لنا فى دمائكم ولا فى نسائكم وذراريكم ، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة فجاؤوا مسلمين ، فقيل : إن من شكر إسلامكم وإيمانكم أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم و﴿ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٠] .

ومنها أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا يقرن بين هاتين الغزوتين بالذكر، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزاتين ، والنبى ﷺ رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وفى هاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين، فالأولى خوفتهم، وكسرت من حدّهم، والثانية استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدًا من الدخول فى دين الله .

ومنها أن الله جبر أهل مكة ، وفرَّحهم بما نالوه من النصر والمغنم ، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم وإن كان عين جبرهم ، وعرَّفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم إلى غير ذلك من الحكم التى لا يحيط بها إلا الله تعالى) (١) .

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد للإمام ابن القيم ١/٢/٢١١ ـ ٢١٣ ، راجعه : طه عبد الرؤوف .

غزوة الطائف

(لما قدم فَلٌّ ثقيف الطائف رمُّوا حصنهم ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم وتهيؤوا للقتال ، وكانوا أدخلوا فيه قوت سنة لو حصروا ، وجمعوا حجارة كثيرة ، وأعدوا سككًا من الحديد ، وأدخلوا معهم قومًا من العرب من عقيل وغيرهم وأمروا بسرحهم أن يرفع فى موضع يأمنون فيه)(١) .

الطفيل بن عمرو إلى ذى الكفين :

روى محمد بن عمر عن شيوخه قالوا : لما افتتح رسول الله ﷺ حنينًا وأراد المسير إلى الطائف ، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذى الكفين - صنم عمرو بن حممة يهدمه - وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف، فقال الطفيل : يا رسول الله ، أوصنى ، قال : « أفش السلام، وابذل الطعام، واستحى من الله كما يستحى الرجل ذو الهيئة من أهله، إذا أسأت فأحسن ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود] ». قال : فخرج الطفيل سريعًا إلى قومه ، فهدم ذا الكفين وجعل يحشو النار فى جوفه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ... ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

وأسرع معه قومه ، انحدر أربعمائة من قومه ، فوافوا النبى ﷺ بالطائف بعد مقامه بأربعة أيام ، فقدم بدبابة ومنجنيق وقال : « يا معشر الأزد ، من يحمل رايتكم ؟ » قال الطفيل: من كان يحملها فى الجاهلية ، قال : « أصبتم » وهو النعمان بن زراقة اللهْبى.

سيف الله إلى الطائف :

(وقدَّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من حنين على مقدمته فى ألف من أصحابه إلى الطائف ، فأتى خالد الطائف فنزل ناحية من الحصن ، وقامت ثقيف على حصنها بالرجال والسلاح ، ودنا خالد فى نفرٍ من أصحابه فدار بالحصن من كان متنحيًا عنه ، ونظر إلى نواحيه ، ثم وقف فى ناحية من الحصن فنادى بأعلى صوته : ينزل إلى بعضكم أكلمه ، وهو آمن حتى يرجع ، أو اجعلوا لى مثل ما جعلت لكم ، وأدخل

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٥٦ .

عليكم حصنكم أكلمكم . قالوا : لا ينزل إليك رجل منا ، ولا تصل إلينا . وقالوا : يا خالد ، إن صاحبكم لم يلق قومًا يحسنون قتاله غيرنا . قال خالد : فاسمعوا من قولى :

نزل رسول الله ﷺ بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر ، وبعث رجلاً واحدًا إلى فدك فنزلوا على حكمه ، وأنا أحذركم مثل يوم بنى قريظة ، حصرهم رسول الله ﷺ أيامًا ثم نزلوا على حكمه ، فقتل مقاتلتهم فى صعيد واحد ، ثم سبى الذرية ، ثم دخل مكة فافتتحها ، وأوطأ هوازن فى جمعها ، وأنتم فى حصن فى ناحية من الأرض ، لو تركهم لقتلكم من حولكم ممن أسلم .

قالوا : لا نفارق ديننا . ثم رجع خالد بن الوليد إلى منزله .

رسول الله ﷺ يتجه للطائف :

وسار رسول الله ﷺ بعد خالد ، ولم يرجع إلى مكة ، ولابها عرج على شىء إلا على غزو الطائف قبل أن يقسم غنائم حنين ، وقبل كل شىء ، وترك السبى بالجعرانة ، وملئت عُرُش مكة منهم ، وكان مسيره فى شوال سنة ثمان ، وقال شداد بن عارض الجشمى ﷺ فى مسير رسول الله ﷺ :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها   وكيف يُنصر من هو ليس ينتصر
إن التى حُرّقت بالسّدّ فاشتعلت   ولم تقاتل لدى أحجارها هدر
إن الرسول متى ينزل بلادكم   يظعن وليس بها من أهلها بشر)[1]

قال ابن إسحاق: فسلك رسول الله ﷺ من حنين إلى الطائف على نخلة اليمانية[2]، ثم على قرن[3] ثم على المليح[4] ، ثم على بحرة الرغاء [5] من ليّة . فابتنى بها مسجدًا فصلى فيه ، وأقاد يومئذ ببُحرة الرغاء حين نزلها بدم ، وهو أول دم أقيد به فى الإسلام، أُتى برجل من بنى ليث قتل رجلاً من هذيل فقتله به ، وأمر رسول الله ﷺ وهو بليّة بحصن مالك بن عوف فهُدم ، وصلى الظهر بلية ، ثم سلك من طريق يقال لها : الضيقة ، فقال : « بل هى اليسرى » ، فخرج منها على نخب[6] حتى نزل تحت سدرة يقال لها الصادرة ، قريبًا من مال رجل من ثقيف ، قد تمنع فيه ، فأرسل إليه رسول الله

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٥٥٦ .
(٢) نخلة اليمانية : واد يصب فيه يدعان ، وبه مسجد لرسول الله ﷺ .
(٣) قرن : قرية بينها وبين مكة واحد وخمسون ميلاً . (٤) المليح : واد بالطائف .
(٥) بحرة الرغاء : موضع فى لية من ديار نصر . (٦) نخب : وادٍ بالطائف .

ﷺ : « إما أن تخرج وإما أن نخرب عليك حائطك » فأبى أن يخرج فأمر رسول الله ﷺ بإخرابه) (١) .

قبر أبى رغال :

(روى ابن إسحاق وأبو داود والبيهقى عن عبد الله بن عمر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر ، فقال رسول الله ﷺ: « هذا قبر أبى رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه فى هذا المكان فدفن فيه ، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إذا أنتم نبشتم عنه أصبتموه » قال : فابتدره الناس فنبشوه فاستخرجوا منه الغصن)(٢) .

فى حصار الطائف :

قال ابن إسحاق :

(ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريبًا من الطائف ، فضرب عسكره ، وأشرفت ثقيف على حصنهم ـ ولا مثال له فى حصون العرب ـ وأقاموا رماتهم ، وهم مائة رام ، فرموا بالسهام والمقاليع من بعد على حصنهم ، ومن دخل تحت الحصن دلوا عليه سكك الحديد محماة بالنار يطير منها الشرر ، فرموا المسلمين بالنبل رميًا شديدًا كأنه رَجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراح ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً . فارتفع ﷺ إلى موضع مسجده اليوم ، الذى بنته ثقيف بعد إسلامها ، بناه عمير بن وهب بن معتب بن مالك ، وكانت فيه سارية لا تطلع عليها الشمس صبيحة كل يوم حتى يسمع لها نقيض أكثر من عشر مرات، فكانوا يرون أن ذلك تسبيح، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب لهما قبتين ، وكان يصلى بين القبتين طول حصار الطائف كله ، وقال عمرو بن أمية الثقفى ـ وأسلم بعد ذلك ـ ولم يكن عند العرب أدهى منه ، لا يخرج إلى محمد أحد ، إذا دعا أحد من أصحابه إلى البراز ودعوه يقيم ما أقام ، وأقبل خالد بن الوليد فنادى: من يبارز ، فلم يطلع إليه أحد، ثم عاد فلم ينزل إليه أحد، ثم عاد فلم ينزل إليه أحد. فنادى عبد ياليل: لا ينزل إليك أحد، ولكنا نقيم فى حصننا ، خبأنا فيه ما يصلحنا سنين، فإذا أقمت حتى يذهب الطعام خرجنا إليك بأسيافنا حتى نموت عن آخرنا. فقاتلهم رسول الله ﷺ بالرمى عليهم وهم يقاتلونه بالرمى من وراء الحصن ، فلم يخرج إليه أحد ، وكثرت الجراحات له من ثقيف بالنبل وقتل جماعة من المسلمين) (٣) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٨٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ٥/ ٥٥٨، ٥٥٩ .

قال ابن هشام: ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق، حدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق ، رمى أهل الطائف) (١) .

حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً. فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون)(٢) .

من خرج إلينا فهو حر :

(قال ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير : حدثني عبد الله بن المكرم الثقفي ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا : نادى منادي رسول الله ﷺ : « أيما عبد نزل من الحصن ، وخرج إلينا فهو حر » . فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً) (٣) .

(وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ يوم الطائف:

« من خرج إلينا من العبيد فهو حر » فخرج عبيد من العبيد فيهم أبو بكرة فأعتقهم رسول الله ﷺ) (٤) .

وروى الشيخان عن أبي عثمان النهدي قال : سمعت سعدًا ـ وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله ـ وأبا بكرة ـ وكان قد تسوَّر حصن الطائف ـ قالا : سمعنا رسول الله ﷺ يقول :

« من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام » (٥) .

(وفي رواية : نزل إلى النبي ﷺ ثلاثة وعشرون من الطائف ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، واغتاظوا على غلمانهم ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ، كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه بحمله ، فكان أبو بكرة إلى عمرو بن سعيد بن العاص، وكان الأزرق إلى خالد بن سعيد بن العاص ، وكان وردان إلى أبان بن سعيد بن العاص ، وكان يُحنَّس النبال إلى عثمان بن عفان ، وكان يسار بن مالك إلى سعد بن عبادة ، وكان إبراهيم بن جابر إلى أسيد بن الحضير ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يقرئوهم القرآن ، ويعلموهم السنن ، فلما أسلمت ثقيف ، تكلمت أشرافهم في هؤلاء المعتقين . منهم الحارث بن كلدة يردونهم إلى الرق ، فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٨٣ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٨٣ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٥٥٩ .
(٤) مسند الإمام أحمد ١/ ٢٤٨.
(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ٤٥ ح ٤٣٢٦، ٤٣٢٧.

« أولئك عتقاء الله ، لا سبيل إليهم » [1] .

والمنجنيق :

قال محمد بن عمر : (قالوا : وشاور رسول الله ﷺ أصحابه . فقال له سلمان الفارسى رضي الله عنه : يا رسول الله ، أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون ، وتُنصب علينا ، فنصيب من عدونا ، ويصيب منا بالمنجنيق ، وإن لم يكن منجنيق طال الثواء . فأمره رسول الله ﷺ ، فعمل منجنيقًا بيده) [2] وهو أول منجنيق رمى به فى الإسلام .

(وروى ابن سعد عن مكحول رحمه الله تعالى : أن رسول الله ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يومًا) [3] ، ويقال : قدم به يزيد بن زمعة بن الأسود وبدبابتين ، ويقال : الطفيل بن عمرو ، ويقال : خالد بن سعيد قدم من جُرَش بمنجنيق ودبابتين ، ونثر رسول الله ﷺ الحسك شقتين من حسك من عيدان حول حصنهم ، ودخل المسلمون من تحت الدبابة وهى من جلود البقر ، وذلك اليوم يقال له : الشدخة لما شدخ فيه من الناس ، ثم زحفوا إلى جدار الحصن ليحفروه ، فأرسلت ثقيف بسكك الحديد المحماة بالنار ، فحرّقت الدبابة ، فخرج المسلمون من تحتها وقد أصيب منهم من أصيب ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتل منهم رجال) [4] ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخيلهم وتحريقها . قال عروة : أمر رسول الله ﷺ كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات وخمس حبلات ، فقطع المسلمون قطعًا ذريعًا ، فنادت ثقيف : لم تقطع أموالنا ؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا ، وإما أن تدعها لله والرحم ، فقال رسول الله ﷺ : « فإنى أدعها لله والرحم » .

فتركها رسول الله ﷺ .

(وكان رجل يقوم على الحصن فيقول: روّحوا رعاء الشاء، روّحوا جلابيب محمد، أتروننا نبتئس على أحبُلٍ أصبتموها من كرومنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « اللهم روّح مروحًا إلى النار » ، قال سعد بن أبى وقاص : فأرميه بسهم ، فوقع فى نحره ، فهوى من الحصن ميتًا ، فسُرّ رسول الله ﷺ بذلك)[5] .

عيينة بن حصن :

روى أبو نعيم والبيهقى عن عروة بن الزبير رحمه الله تعالى قال :

(1) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٦٠ .
(2) المغازى للواقدى ٣/ ٩٢٧ .
(3) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٥٩ .
(4) المغازى للواقدى ٢/ ٩٢٧، ٩٢٨ .
(5) المغازى للواقدى ٢/ ٩٢٩، ٩٣٠ .

(استأذن عيينة بن حصن رسول الله ﷺ أن يأتى أهل الطائف يكلمهم لعلّ الله تعالى أن يهديهم ، فأذن له ، فأتاهم ودخل فى حصنهم . وقال : بأبى أنتم تمسكوا بمكانكم فوالله لنحن أذل من العبيد ، وأقسم بالله لو حدث به حدث ليملكن العرب عزاً ومنعة ، وإياكم أن تعطوا ما بأيديكم ، ولا يتكاثر عليكم قطع هذا الشجر ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال له : « ما قلت لهم يا عيينة ؟ » قال : أمرتهم بالإسلام ، ودعوتهم إليه ، وحذرتهم النار ، ودللتهم على الجنة . فقال له رسول الله ﷺ : « كذبت ، بل قلت لهم كذا وكذا » وقصّ عليه قوله . فقال :

صدقت يا رسول الله ، أتوب إلى الله ، وإليك من ذلك) (١) .

الحث على الرمى :

قال : وعن عمرو بن عبسة ﷺ قال : حاصرنا قصر الطائف مع رسول الله ﷺ فسمعته يقول : « من بلغ بسهم فله درجة فى الجنة » فبلغتُ يومئذ ستة عشر سهمًا ، وسمعته يقول : « من رمى بسهم فى سبيل الله فهو له عدلٌ محرر ، ومن شاب شيبة فى الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة ، وأيما رجل أعتق رجلاً مسلمًا فإن الله سبحانه وتعالى جاعل كل عظم من عظامه وِقَاء كل عظم بعظم ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فإن الله عز وجل جاعل كل عظم من عظامها وِقَاء كل عظم من عظامها فى النار » رواه يونس بن بكير وأبو داود والترمذى ، وصححه النسائى) (٢) .

النهى عن دخول المخنثين :

(روى يونس بن بكير فى زيادة المغازى ، والشيخان عن أم سلمة ﷺ قالت : كان عندى مخنث (وهو فى عرف السلف : الذى لا همٌ له إلى النساء لا غير ذلك كما سيأتى) فقال لعبد الله أخى : إن فتح الله عليكم الطائف غدًا فإنى أدلك على ابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فسمع رسول الله ﷺ قوله فقال : « لا أرى هذا يعلم ما ها هنا ، لا تدخلن هؤلاء عليكن » ، وكانوا يرونه من غير أولى الإربة من الرجال ، قال ابن جريج : اسمه هيت) . قال ابن إسحاق :

كان مع رسول الله ﷺ مولى ـ لخالته فاختة بنت عمرو بن عائذ ـ مخنث يقال له : ماتع يدخل على نساء رسول الله ﷺ ، ويكون فى بيته ، ولا يرى رسول الله ﷺ أنه يفطن لشىء من أمور النساء مما يفطن الرجال إليه ، ولا يرى أن له فى ذلك إربًا ، فسمعه

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٦٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٥٦٢ ، وهو عند الترمذى ٥/ ١٧٤ ح ١٦٣٨ .

وهو يقول لخالد بن الوليد : يا خالد ، إن فتح رسول الله ﷺ الطائف فلا تفلتن منك بادية بنت غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . فقال رسول الله ﷺ حين سمع هذا : « لا أرى الخبيث يفطن لما أسمع » ثم قال لنسائه : « لا تُدخلنه عليكن » فحجب عن بيت رسول الله ﷺ) (١) .

الرؤيا النبوية :

قال ابن إسحاق : وبلغنى أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر :

« إنى رأيت أنى أهدِيَتْ لى قعبة مملوءة زبدًا فنقرها ديك ، فهراق ما فيها » فقال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد ، فقال رسول الله ﷺ : « وأنا لا أرى ذلك » (٢) .

وروى محمد بن عمر عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: (لما مضت خمس عشرة من حصار الطائف ، استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلى رضي الله عنه فقال :

« يا نوفل ، ما ترى فى المقام عليهم ؟ » قال : يا رسول الله ، ثعلب فى جُحر إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك) (٣) .

الإذن بالرحيل :

(قال ابن إسحاق : ثم إن خويلة بنت حكيم السلمية ، وهى امرأة عثمان بن مظعون قالت :

يا رسول الله ، اعطنى ، إن فتح الله عليك الطائف ـ حُلِىّ بادية بنت غيلان ، أو حُلِىّ الفارعة بنت عقيل ـ وكانتا من أحلى نساء الطائف . فروى أن رسول الله ﷺ قال لها :

« وإن كان لم يؤذن لنا فى ثقيف يا خولة ؟ » فخرجت خولة ، فذكرت ذلك لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه فدخل على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما حديث حدثتنيه خولة ؟ زعمت أنك قلته ؟ قال : « قد قلته » . قال : أو ما أُذن فيهم ؟ قال : « لا » . قال : أفلا أؤذن الناس بالرحيل ؟ قال : « بلى » فأذَّن عمر بالرحيل) (٤) .

وروى الشيخان عن ابن عمرو أو ابن عمر رضي الله عنهم قال :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٦٣، وهو فى فتح البارى ٨/ ٤٣ ح (٤٣٢٤).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٨٤ .
(٣) المغازى للواقدى ٣/ ٩٣٦، ٩٣٧ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٨٤ .

لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف ، ولم ينل منهم شيئًا قال : « إنا قافلون غدًا إن شاء الله تعالى » فثقل عليهم ، وقالوا : أنذهب ولا نفتح ؟ ـ وفى لفظ فقالوا : لا نبرح أو نفتحها. فقال: « اغدوا على القتال » فغدوا فقاتلوا قتالاً شديدًا فأصابهم جراح فقال: « إنا قافلون غدًا إن شاء الله تعالى » ، فأعجبهم فضحك رسول الله ﷺ) (١) . قال عروة ـ كما رواه البيهقى : وأمر رسول الله ﷺ الناس ألا يسرّحوا ظهرهم ، فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه ودعا حين ركب قافلاً وقال : « اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم) (٢) .

(وروى الترمذى وحسنة عن جابر ﷺ قال : قال : يا رسول الله أحرقتنا نار ثقيف، فادع الله ـ تعالى ـ عليهم فقال : « اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم » (٣) .

(قال ابن إسحاق فى رواية يونس . . . أن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف ثلاثين ليلة أو قريبًا من ذلك ثم انصرف عنهم ولم يؤذن فيهم ، فقدم وفدهم فى رمضان فأسلموا) (٤) ، وقال ابن إسحاق فى رواية زياد : وحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة ، وقيل عشرين يومًا ، وقيل: بضع عشرة ليلة ، قال ابن حزم : وهو الصحيح بلا شك.

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أنس أنهم حاصروا الطائف أربعين ليلة واستغربه فى البداية (٥) .

قال محمد بن عمر : فقال رسول الله ﷺ لأصحابه حين أرادوا أن يرتحلوا :

« قولوا : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » فلما ارتحلوا قال : « قولوا : آيبون إن شاء الله تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون » (٦) .

الشهداء :

سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وعُرفُطة بن حُباب، ويزيد بن زَمْعة ، جمح به فرسه إلى حصن الطائف فقتلوه ، وعبد الله بن أبى بكر الصديق ﷺ رُمِىَ بسهم، فلم يزل جريحًا حتى مات بالمدينة بعد رسول الله ﷺ،وعبد الله بن عامر بن ربيعة، والسائب ابن الحارث بن قيس السهمى ، وثابت بن الجَذَع ، والحارث بن سهل بن أبى صعصعة ،

---

(١) فتح البارى ٨/ ٤٤ ح ٤٣٢٥ ، ومسلم ٣/ ١٤٠٣ ح (١٧٧٨/٨٢) .
(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٦٩ .
(٣) سنن الترمذى ٥/ ٧٢٩ وهى فى السنن : أحرقتنا نبال ثقيف ح (٣٩٤٢) .
(٤) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٦٩ .
(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٦٥ .
(٦) المغازى للواقدى ٣/ ٩٣٧ .

والمنذر بن عبد الله بن نوفل .

وذكر في العيون هنا : رُقَيم بن ثابت بن ثعلبة مع ذكره له فيمن استشهد بحنين ، تبع هناك ابن إسحاق وهنا ابن سعد) [1] .

عيينة ثانية :

(وجعلوا يرحلون والنبى ﷺ يضحك ، فلما استقل الناس لوجوههم نادى سعد ابن عبيد بن أسيد بن عمرو بن علاج الثقفى قال : ألا إن الحى مقيم ، قال : يقول عيينة بن حصن: أجل والله ، مجدة كرامًا، فقال عمرو بن العاص : قاتلك الله ، تمدح قومًا مشركين بالامتناع عن رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره ؟ قال :

إنى والله ما جئت معكم أقاتل ثقيفًا ، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب جارية من ثقيف فأطأها ، لعلها أن تلد لى رجلاً ، فإن ثقيفًا قوم مناكير[2]) [3] . (فأخبر عمر النبى ﷺ بمقالته فتبسم النبى ﷺ وقال : « هذا الأحمق المطاع ») [4] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٦٥، ٥٦٦ .

(٢) مناكير : ذو دهاء وفطنة ، وهى عند الواقدى : مباركون ، ولا تصح .

(٣، ٤) المغازى للواقدى ٣/ ٩٣٧ ، والسيرة ٢/ ٤٨٥ .

الطائف من الدعوة إلى الغزوة

وكان هذا قبل ما ينوف عن عشرة أعوام ، وقد جاء رسول الله ﷺ إلى الطائف يدعوهم إلى الله عز وجل ، معه مولاه زيد بن حارثة ، وعمد إلى نفر من ثقيف ـ هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافها ـ وهم أخوة ثلاثة : عبد يا ليل بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، وحبيب بن عمرو ، وعندهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدًا ، لئن كنت رسولاً لله كما تزعم لأنت أعظم خطرًا من أن أكلمك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك . فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خبر ثقيف ، وقد قال لهم ـ فيما ذكر لى : « إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى » . وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه سفهاء ثقيف ، ومن كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حَبَلَة من العنب . . . فلما اطمأن رسول الله ﷺ ـ فيما ذكر لى ـ قال : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » (1) .

وعرض مَلَك الجبال يومئذ على رسول الله ﷺ أن يأتمر بأمر رسوله ، ويفعل بعدوه ما شاء : (إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت) ، وكان جواب إمام الدعاة فى الوجود : « لا ، إنى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله » .

ولو انتهت ثقيف آنذاك بمعجزة ، ولم يبق فيها إلا خرائبها ، لدرسنا هذه المعجزة ، ونحن عاجزون عن القدوة فيها ، لكن القدوة العظيمة كانت لنا فى صبر رسول الله ﷺ

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ١/٤١٩، ٤٢٠ .

على صد ثقيف وعدائها وحربها على أمل ولادة جيل جديد يحمل هذه الرسالة ، وبالجهد البشرى الدؤوب وبالعمل المستمر المنظم ، وخلال عشر سنين ، ها هو رسول الله ﷺ يطرق أبواب ثقيف ليس وحده إنما بجيش قوامه اثنى عشر ألف مقاتل ، وقد هزمت ثقيف أمامه بمعجزة ربانية كذلك فى غزوة هوازن ، وفر أبطالها ورجالها إلى حصونهم ، وعرفوا أن المواجهة خاسرة مع محمد ﷺ الذى أدموا عقبيه بالحجارة قبل عشر سنين ومعه سادة العرب ، وقبائلها الكبرى تدق حصون ثقيف لتزلزلها بهم ، وهم الآن يواجهون جيشًا ولا يواجهون رجلاً ، ومن أجل هذا (رمّوا حصونهم ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم ، وتهيؤوا للقتال وكانوا قد أدخلوا فيه قوت سنة لو حصروا ، وجمعوا حجارة كبيرة ، وأعدوا سككًا من الحديد وأدخلوا معهم قومًا من العرب من عقيل وغيرهم ، وأمروا بسرحهم أن يرفع فى موضع يأمنون فيه) .

أما سيدهم عروة بن مسعود الثقفى أحد عظيمى القريتين ، فقد كان فى جرش يسعى إلى تسليح قومه أحدث الأسلحة فى الساحة العربية ، يتعلم صنعة الدبابات والمنجنيق هناك، وهو الذى تحدى رسول الله ﷺ على أبواب الحديبية يقول له : (جمعت أوشاب العرب ، وجئت بهم تغض بيضتك ، فوالله إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا ، وايم الله كأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا) . وخانت عروة بن مسعود فراسته أو التى أظهرها على الأقل ؛ لأنه قال لقريش غير ما قاله لمحمد ﷺ . قال لها :

(يا معشر قريش ، إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشىء أبدا ، فروا رأيكم) . ففراسته الحقيقية إذن أن هؤلاء لا يمكن أن ينفضوا عنه أو يسلموه إلا على أرواحهم وأجسادهم ، ودخل رسول الله ﷺ على قريش مكة عنوة، وهؤلاء أبطال مكة وسادتها جميعًا جنود فى جيشه. من آمن منهم بالإسلام، ومن لم يؤمن بعد ، وهذا الأقرع بن حابس ، سيد بنى تميم . وعيينة بن حصن سيد غطفان ، وعلقمة بن علاثة سيد بنى عامر بن صعصعة . جميعًا جنود فى جيش محمد صلوات الله عليه .

وهذه هوازن بالثلاثين ألفًا التى خاضت المعركة بها، بقائدها الجرىء مالك بن عوف، وقائدها المجرب دريد بن الصمة قد انتهت كلها بين أسير وفار وقتيل ، نساؤها سبايا ونعمها وإبلها وخيلها فى المغانم تنتظر المقسم ، وثقيف إذن كل ما تملكه الآن أن تتمنع فى حصنها ، وأن تعد نفسها للحصار والموت خلال سنة لو أصر محمد على محاصرتها ،

ولم تكن تفكر أبدًا بالمواجهة بعد أن قتل سيدا بنى مالك فى المعركة ، وهرب سيد الأحلاف ، واستحر القتل فى بنى مالك حتى بلغت القتلى منهم قرابة المائة ، وهذا مالك بن عوف النضرى مختبئًا مع ثقيف فى حصنهم، ولذلك عندما جاء إليهم سيف الله خالد بن الوليد وتحدى نخوتهم العربية يدعوهم إلى المبارزة ، لم يكن يشك فى أنهم سيقبلون التحدى ، وإلا عيّروا بالجبن ، فليبارزوه وليقتلوه ، لكن ثقيفًا تتصرف بالمكر والدهاء أكثر مما تتصرف بالعاطفة والاندفاع .

قال لهم قائد فرقة المغاوير الإسلامية خالد بن الوليد : ينزل إلىّ بعضكم أكلمه ، وهو آمن حتى يرجع ، ثم عرض عليهم الخيار الآخر .

أو اجعلوا لى مثل ما جعلت لكم ، وأدخل عليكم حصنكم أكلمكم .

ولم تجرؤ ثقيف على الخيارين قالوا : لا ينزل إليك رجل منا ، ولا تصل إلينا .

وعادوا يتبعون أسلوب سيدهم عروة فى التلويح بالقوة ، والتهديد بالمواجهة وهم داخل حصونهم يقولون : يا خالد ، إن صاحبكم لم يلق قومًا يحسنون قتاله غيرنا .

وهم يعلمون أنهم كاذبون ، فقد فروا من المعركة مذعورين، وكان لابد لخالد ﷺ البطل العدو ـ قبل سنتين ـ أن يسمعهم بعض ما يتجاهلوه .

قال خالد : فاسمعوا من قولى . . . وخالد هو الذى خَبِرَ محمداً ﷺ وقتاله منذ ثمانية أعوام ، فليس غمراً يتحدث ، إنما هو بطل يتحدى قال :

نزل رسول الله ﷺ بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر ، وبعث رجلاً واحدًا إلى فدك فنزلوا على حكمه ، وأنا أحذركم مثل يوم بنى قريظة ، وكم قالها اليهود من قبل يوم خيبر ، ويوم قريظة ، ويوم بنى النضير ، إن محمداً لاقى قومًا لا علم لهم بالحرب فهزمهم ، ولو قابلنا لعلم أنا نحن الناس ، ثم استسلمت خيبر ، وهوت حصونها ، واستسلمت قريظة .

ومن حق خالد ﷺ أن ينذرهم مغبة تجاهلهم أو تعاليهم على دين محمد ، وينذرهم المصير الأسود البائس الذى لقى أمثالهم فى خيبر وقريظة ، فتابع حديثه معهم (فحصرهم ثم نزلوا على حكمه . فقتل مقاتلتهم فى صعيد واحد ، ثم سبى الذرية ، ثم دخل مكة فافتتحها ، وأوطأ هوازن فى جمعها) وبعد أن قدّم لهم صفحة الماضى القريب والبعيد ، وضعهم فى حجمهم الطبيعى :

(وأنتم فى حصن فى ناحية من الأرض، لو ترككم لقتلكم من حولكم ممن أسلم).

غير أن ثقيف لا تزال معجبة بقوتها ، مزهوة بحصونها ، مفتونة بدينها ، فكان

جواب هذا الإعلام المبين : (قالوا : لا نفارق ديننا) وتم البلاغ . ولم يعد من حديث إلا حديث السلاح .

(ثم رجع خالد بن الوليد إلى منزله) لينضم بعدها إلى الجيش النبوى المتجه من هوازن إلى الطائف .

هدم معقل وثنى كبير :

فلابد من تصفية الجيوب الوثنية كلها والمنتشرة فى الأرض العربية ، وكان صنم ذو الكفين فى دوس لا يزال قائمًا رغم وجود الجالية الإسلامية الضخمة فى دوس ، لكن هذا الصنم يشترك فى تعظيمه أكثر من قبيلة عربية . وبعد فتح مكة ، وهزيمة هوازن فى حنين ، انهارت القيادات المجاورة ، وأصبحت تخشى من أى تحرك نبوى نحوها . وفى ظل هذه الظروف التى سادت فى المنطقة ، ونشرت الرعب فى قلب العدو ، ووظف رسول الله ﷺ هذه الظروف لصالح معركته مع العدو ، فبعث الطفيل بن عمرو الدوسى إلى ذى الكفين ليهدمه ، أما جنوده فليكونوا من دوس نفسها التى تمثل الجالية الإسلامية فى المنطقة .

والطفيل ليس نكرة فى تاريخ هذه الدعوة ، فهو من الرعيل الأول الذى جاء مكة ، وخاف قادتها أن يلتقى برسول الله ﷺ حتى لا يفتنه عن دينه ، وما زالوا به يخيفونه من محمد بن عبد الله حتى حشى أذنيه قطنًا كى لا يسمع من رسول الله ﷺ ، لكن الإرادة الربانية أدركته ، وفتح عقله بين يدى رسول الله ﷺ قائلاً :

(يا محمد ، إن قومك قالوا لى كذا وكذا ـ للذى قالوا ـ فوالله ما برحوا بى يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنيه فسمعته قولاً حسنًا ، فاعرض علىّ أمرك ، قال : فعرض علىّ رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا على القرآن . فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمرًا أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق) .

ومضى بعدها داعية إلى الله فى قومه ، ولم تدفع سيادته لقومه كى يستجيبوا بسرعة له (ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام ، فأبطؤوا على ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة ، فقلت له : يا نبى الله ، إنه قد غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم) .

وكانت تلك الدعوة الخالدة التى لا تريد قتل الناس وإبادتهم ، إنما تريد قتل الضلال والهوى فى نفوسهم فقال : « اللهم اهد دوسًا » (١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٨٣، ٣٨٤ .

وعرف الطفيل أن طريق الكفاح طويل ، وطريق الدعوة شاق فعاد ثانية إلى قومه لا لينذرهم بدمارهم ، إنما ليتابع خطاه فى دعوتهم إلى الله تعالى ، ثم كانت خيبر وجاء الطفيل بثمرة كفاحه الطويل الذى استمر قرابة خمسة عشر عامًا ، جاء بسبعين بيتًا من دوس يعلنون إسلامهم على يدى رسول الله ﷺ ، وآن الأوان لتؤدى دوس دورها اليوم فى هدم طاغية الأزد ـ ذى الكفين ـ والذى كانت تعظمه خزاعة ودوس [1] ، لكن بانيه وسادنه عمرو بن حممة الدوسى، وانضمت كتائب الإيمان الدوسية إلى سيدها الطفيل بن عمرو ومضت إلى ذلك الصنم ، فخرج الطفيل سريعًا إلى قومه فهدم ذا الكفين ، وجعل يحشو النار فى جوفه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا   بـلادنا أقــدم مـن مــيلادكا

أنا حشوت النار فى فؤادكا)

ومع هدم هذا الصنم وإحراقه كانت الفرصة مواتية لجيل الإيمان فى دوس أن ينضم إلى الكتائب الإسلامية المجاهدة (فأسرع معه قومه ، وانحدر معه أربعمائة من قومه ، فوافوا النبى ﷺ بالطائف بعد مقامه بأربعة أيام) .

وعلى رواية الواقدى : أن الطفيل وقومه هم الذين أحضروا السلاح الحديث واستعملوه لأول مرة فى الحرب الإسلامية (فقدم بدبابة ومنجنيق) ، وها هو الطفيل وقد اجتمعت له هذه السرية العظيمة من المؤمنين المجاهدين ، وسلم الراية لحاملها فى الجاهلية ، فهو الخبير الحربى القديم فلابد من الاستفادة من خبراته ، وسأل الرسول ﷺ جنديه الطفيل : « من يحمل رايتكم ؟ » .

قال الطفيل : من كان يحملها فى الجاهلية . قال : « أصبتم » ، وهو النعمان بن الزرافة اللهبى .

وقد تعلم الطفيل هذا الأدب من رسول الله ﷺ فقد رآه عندما وفدت عليه سليم يسأل عن حامل رايتهم فى الجاهلية ليقلده الراية فى الإسلام ، ولم يتدرب الطفيل على التخطيط العسكرى فقط ـ من خلال صحبته الطويلة مع رسول الله ﷺ ـ إنما تعلم كذلك البعد الإيمانى، والسلوك الإسلامى ، فعندما غادر خاف الطفيل من العواقب ، وأن يكون آخر العهد به فقال له : يا رسول الله ، أوصنى. قال : « أفش السلام ، وابذل الطعام. . . » وهذه سجية من سجاياه ، ويحمد الله عز وجل أن جاءت هذه الوصية منسجمة مع هذا الخلق النبيل المطبوع عليه من إطعم الطعام ، وإفشاء السلام مرتبط بذلك

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٩٤ .

الترحيب بالصنف القادم لإطعامه،لكن التذوق الإيمانى الجديد الذى أعطاه رسول الله ﷺ للطفيل وهو ماضٍ إلى قومه: «واستحى من الله كما يستحى الرجل ذو الهيئة من أهله».

هذا هو التوجيه الثانى للداعية المجاهد فى رحلته إلى هدم ذى الكفين .

أما التوجيه الثالث : « إذا أسأت فأحسن ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾** ﴾ [هود] » . إنها الدعوة إلى الله فى كل لحظة - فى الحرب والسلم ، فى المضى لهدم الصنم ، وفى الصبر على لأواء الصد عن سبيل الله - فالمسلم له سمات لابد من المحافظة عليها فى مجتمعه ، فهو ذو مروءة وشرف لا يجوز أن ينزل عن قدرها ، أو تزل قدمه فيسقط ، والمسلم أبدًا يتبع السيئة بالحسنة حتى تمحوها ، والحسنات يذهبن السيئات ، والمسلم دائمًا لمجتمعه وقومه وأمته ، يبذل السلام ويطعم الطعام ، ومن أجل هذا كان رصيد بطلنا الطفيل أربعمائة جديدين من قومه انضموا إلى الركب الإسلامى ودخلوا مع الجيش الإسلامى المحاصر للطائف .

ورسول الله ﷺ هو لكل فرد فى الوجود ، فكانت مسيرته من هوازن إلى الطائف تحقق هدفًا فى كل خطوة ، وتطلق درسًا تربويًا فى كل انطلاقة .

(فسلك رسول الله ﷺ إلى الطائف على نخلة اليمانية ، ثم على قرن، ثم على المليح .

وهذا المنزل الذى نزله رسول الله ﷺ فى نخلة عرفه المسلمون فيما بعد ، فابتنوا مسجدًا فى هذا الموقع لا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، ثم على بحيرة الرغاء من ليه . وهذه لم يدعها رسول الله ﷺ للجيل القادم كى يقوم ببناء هذا المسجد ، إنما قام عليه الصلاة والسلام ببناء المسجد وصلى فيه مع جيشه ، وقد حدث حدث يقتضى نوعًا من التوقف لا يمكن المرور عليه دون مواجهة .

فالدرس الذى تم تلقيه من قبل لمحلّم بن جثامة ، وما عاناه عليه الصلاة والسلام من تعنت الأعراب فى قبول دية عامر بن الأضبط الأشجعى، ثم ما تلقاه محلّم من درس كان أقسى درس تلقاه فى حياته ، وانعكس عليه بعد وفاته حين لا يستغفر له رسول الله ﷺ ، بل يدعو الله تعالى ألا يغفر له ، وكان الدرس لكل الجيل المسلم، لكن الحدث الجديد هو أن رجلاً من هذيل قتله رجل من بنى ليث ، فكان لابد من أن يشهد الناس دور القصاص بعد أن شهدوا دور الدية . فجىء بالقاتل، وقتل بين يدى رسول الله ﷺ، وكان الأمر كما قاله مكيتل: اسنن اليوم وغيره غدًا، فقد سنَّ مع محلّم العقوبة المعنوية وأنهاها بالدية، وها هو عليه الصلاة والسلام يسن اليوم القصاص : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، وهو أول دم أقيد به فى الإسلام .

فدولة الإسلام قائمة فى كل مكان والحدود تطبق على الضعيف والقوى ، ولابد أن تجتث ظاهرة الاستهانة بالأرواح والإقدام على سفك الدماء .

ثم كان الدرس الرابع فى تربية هذه القاعدة بعد عمار المسجد وتطبيق حد القصاص ـ وهى ذات صلة بنظام الحرب كذلك ـ هو هدم حصن مالك بن عوف النضرى ، قائد جيش العدو ، والذى تابع استعداده للحرب والمواجهة حين انضم إلى ثقيف ، وأمر رسول الله ﷺ وهو بلية بحصن مالك بن عوف فهدم ، فلا يبعد أن يعود ثانية لاستعماله والتحصن فيه ، وتعلم الجيل المسلم أن للحرب سننها فى التعامل مع ممتلكات العدو وتحصيناته بحيث تجتث كل مراكز قوته ، وكان الدرس الخامس فى هذه التربية العامة والمسلمون يتطلعون إلى رسول الله ﷺ فى كل خطوة ، وفى كل كلمة ، وفى كل موقف ، ويتعلمون الإرادة الصلبة التى لا تهن فى ابتغاء القوم ، فعندما مر على طريق يقال لها الضيقة لم يتشاءم كما هى عادة العرب ، ويتطير ، ثم يعود أدراجه من حيث جاء، إنما يعلم هذا الجيل التفاؤل فى هذه الأمور بتغيير أسمائها (ثم سلك على طريق يقال لها : الضيقة . فقال : « بل هى اليسرى ») وهى عكس الضيقة ، وتابع مسيره نحو هدفه . . . وكان الدرس الخامس كذلك مع ذلك الممتنع بحصنه ، والمعلن لحربه على الرسول ﷺ (حتى نزل تحت سدرة يقال لها : الصادرة قريبًا من مال رجل من ثقيف وقد تمنع فيه ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ : « إما أن تخرج وإما أن نخرّب عليك حائطك » فأبى أن يخرج ، فأمر رسول الله ﷺ بتخريبه ـ وفى رواية بإحراقه .

والناس إذن صنفان : إما مهادن، أو مقاتل معادٍ ، والمقاتل لابد أن يتحمل مسؤولية محاربته وعدائه لهذا الدين ، وكان الدرس الخامس حين مروا على قبرين على الطريق : القبر الأول نهى رسول الله ﷺ عن سبه مع أنه من طغاة المشركين ، بينما سمح بسب الثانى ولعنه ، وهو ممن حقت عليه لعنة الله .

أما القبر الأول فقبر أبى أحيحة سعيد بن العاص الذى عاهد الله :

(ولئن أقامنى الله من مرضى لا يعبدنَّ إله ابن أبى كبشة فى الأرض) .

فهو عدو لدود وطاغية حقود ، ورأى الصديق قبره . فقال :

« لعن الله صاحب هذا القبر فإنه كان ممن يحاد الله ورسوله » .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب أبى جهل فرعون هذه الأمة مراعاة لولده عكرمة المهاجر المجاهد الذى انضم للإسلام :

« يأتيكم عكرمة مهاجرًا مجاهدًا ، فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحى »

وليس الهدف إثارة عكرمة واستفزازه بمقدار ما كان الهدف تألفه واستقراره .

وإذا كان أبو أحيحة عزيز بنى أمية ، فإن له أسدان أو ثلاثة أسود فى الصف الإسلامى وهم : خالد بن سعيد ، وأبان بن سعيد ، وعمرو بن سعيد ، وهذا النيل من أبيهم يؤذيهم ، فيدفعهم لينالوا من والد الصديق ﷺ . لكن والد الصديق مسلم ، فلا شك أنهم قد نالوا جده المشرك .

وعلم رسول الله ﷺ هذا الجيل أن السباب واللعن ليس من مدرسة النبوة ، فهل هذا الجيل كله إلا أولاد المشركين ، قال عليه الصلاة والسلام مؤكدًا التربية السابقة التى يمكن أن نقود إلى أذى الأحياء المجاهدين المسلمين :

« إن سب الأموات يؤذى الأحياء فإن شئتم شتم المشركين فعمّوا » .

والإضافة الجديدة فى الدرس النبوى العظيم هو البعد عن النيل والشتم لأشخاص بأعيانهم ، إنما ليكن الأمر هو التعميم فى لعن المشركين والنيل منهم دون اختيار أشخاص بذواتهم ، يتأذى أبناؤهم بشتمهم .

أما القبر الذى أعلم رسول الله ﷺ المسلمين قصته ، ولم يكن من حرج فى النيل منه فهو قبر أبى رغال وهو مما يعتبر به من القوم .

(روى ابن إسحاق ، وأبو داود ، والبيهقى عن عبد الله بن عمر ﷺ قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف ، فمررنا بقبر فقال رسول الله ﷺ : « هذا قبر أبى رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه » .

وقصة ثمود ماثلة فى كيان المسلمين فذكرها فى القرآن لا ينقطع بعد ذكر قصة قوم هود ، حتى إن عتبة بن ربيعة عندما كان رسول الله ﷺ يتلو عليه القرآن . وقال فيما يتلوه :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت] . قال له خائفًا مرعوبًا : ناشدتك الله إلا كففت ، ولكون ثمود بهذا الوضوح فى ذهن المسلمين كان لابد من توجيههم إلى العبرة الكبرى فى مقتل أبى رغال ، الذى حال الحرم دون نزول النقمة عليه ، فما أن غادر الحرم حتى تلقته هذه النقمة .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [الحاقة]، وكانت هذه الطاغية : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس] ، ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا

يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾ [الأحقاف] .

ولكى يحيا هذا الجيش حياة النبوة لم يكتف رسول الله ﷺ بإخبار الخبر ، إنما دعاهم إلى شهود معجزة مماثلة لمعجزة الأنبياء من قبل فقال : « وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه » . قال : فابتدره الناس فنبشوه فاستخرجوا منه الغصن .

إنها العرب البائدة التى مر على إبادتها القرون تلو القرون ، يقص رسول الله ﷺ نبأها على قومه ويصل هذا النبأ فيبعثه حيًا من جديد ، حين يرى آثار القبر لفرد من تلك الأجيال البائدة فى مكان لا يمكن أن يُعرف إلا بتعريف الله تعالى لنبيه عنه ، وفى هذا الموقع بالذات حيث أنبث الحدث بالمعاينة ، ونبش عن غصن الذهب ، ورآه الجيش الذى يتوق فى كل لحظة إلى معجزة ربانية تُزيد المؤمنين طمأنينة وإيمانًا برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام .

أما قبر أبى أحيحة فلا يحتاج إلى إعلام ، فهو قريب من أرضه التى كانت له على طريق الطائف ، وكان موضع سجال بين أولاد سعيد حين كانوا معسكرين إسلامى ومشرك ، وحين كان أبان بن سعيد على رأس المشركين كان يهاجم أخويه خالد وعمرو على تخليهما عن عقيدة أبويهما وتراثه العتيد فيقول لهما :

ألا ليت ميتًا بالظريبة شاهد ... لما يفترى فى الدين عمرو وخالد

أطاعا بنا أمر النساء فأصبحا ... بعينان من أعدائنا من نكابد

وحين يكون الأمر سجالاً بين الإيمان والشرك ، فلن يعبأ الأخوان المؤمنان بأبيهما ، وهما على استعداد للنيل منه إن اقتضى الأمر ، ويكفى أن التاريخ حفظ لخالد بن سعيد رضوان الله عليه تلك المقولة الخالدة التى قالها ردًا على أبيه المشرك .

قال أبو أحيحة سعيد بن العاص :

لئن رفعنى الله من مرضى لا يعبد إله ابن أبى كبشة ببطن مكة .

فقال خالد بن سعيد : اللهم لا ترفعه .

وهو الذى أجاب أخاه أبان بقوله :

أخى ما أخى لا شاتم أنا عرضه ... ولا هو من سوء المقالة مُقصِرُ

يقول إذا اشتدت عليه أموره ... ألا ليت ميتًا بالظريبة ينشر

فدع عنك ميتًا قد مضى لسبيله ... وأقبل على الأدنى الذى هو أفقر

الحرب عند الحصون :

ها هو رسول الله ﷺ عند حصون الطائف ، ولنتابع فى مشاهد متتالية الخطوات العسكرية التى خطاها رسول الله ﷺ ، وكيف مضى قبل أن تفتح عليه ، ونفقه منها دور القيادة البصيرة الرائدة فى المضى إلى الهدف ، ثم العدول عنه لمصلحة هى أكبر من تحقيقه.

١ ـ النزول عند الحصون :

(ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريبًا من حصن الطائف فيضرب عسكره هناك ، فساعة حلّ رسول الله ﷺ وأصحابه جاءه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله ، إنا قد دنونا من الحصن فإن كان عنٍ أمر سلمنا، وإن كان عن الرأى فالتأخر عن حصنهم. قال: فأسكت رسول الله ﷺ) (١) .

وهذه القضية لا تغيب عن ذهن المصطفى ﷺ ، ويدركها القائد العادى ـ بله العبقرى ـ لكن التربية على المسؤولية ، وإبراز الكفاءات هى القضية الأهم عند رسول الله ﷺ ، فالحباب بن المنذر ﷺ يجد المجال متاحًا له دائمًا لإبداء الرأى ، وعرض خبراته العسكرية بين يدى قائده عليه الصلاة والسلام ، وذلك لكى يقوم كل أركان حربه عليه الصلاة والسلام بدورهم فى الرأى والتخطيط والمناقشة ، ولكى يتعلم هذا الجيل كله، والذى يحضر أغلبه هذه المعركة مع القائد العظيم عليه الصلاة والسلام لأول مرة ، وخاصة مع القيادات الجاهلية الكبرى التى لا تعير التفاتًا لرأى أحد إلا لرأيها مثل عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وعلقمة بن علاثة ، وأبى سفيان بن حرب ، وغير أولئك وأولئك ، لتتعلم هذه القيادات كيف تفسح المجال لذوى الخبرة والاختصاص أن يؤدوا دورهم .

لقد شهدنا مالك بن عوف النضرى يرفض أن يأخذ برأى واحد من الآراء العظيمة التى طرحها أكبر خبراء الحرب فى الجزيرة آنذاك دريد بن الصمة ، ودعاه تأليهه لنفسه أن يهدد بالانتحار إذا نفذ رأى واحد من آراء دريد بن الصمة ، حتى لا تعود الشهرة له ، وصدق دريد فى رأيه النافذ الصائب حين قال لمالك : راعى ضأن والله، وهل يرد المنهزم شىء ، وحذّره من أن سياسته سوف تقود كل نساء هوازن سبايا ، ونعمها غنائم . ولكن جنون العظمة ، وشرخ الشباب عند مالك دفعه لرفض كل مشورة . أما رسول الله ﷺ سيد الخلق فقد أفسح المجال رحبًا لإبداء الرأى الحربى والخبرة العسكرية ليتعلم القادة فى

---

(١) مغازى الواقدى ٣/ ٩٢٧ .

هذه المدرسة الحربية أصول القيادة والشورى .

ونجد عظمة التعامل النبوى مع اقتراح الحباب بن المنذر أنه فسح له المجال ابتداء دون أن يأخذ بهذا الرأى ؛ ليتعلم كذلك أركان الحرب أن الرأى فى النهاية للقائد الأول ، ولتتعلم هذه الجموع الضخمة كذلك جدوى الأخذ بالشورى ونتائج تركها أو إدخال حساباتها فى التخطيط .

(فكان عمرو بن أمية الضمرى ، يحدث يقول : لقد طلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم ، كأنه رجل من جراد ، وترسّنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، ودعا رسول الله ﷺ الحباب فقال : « انظر مكانًا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم » فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف خارج من القرية ، فجاء إلى النبى ﷺ فأخبره ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يتحولوا ، قال عمرو بن أمية : إنى لأنظر إلى أبى محجن يرمى من فوق الحصن بعشرته بمعابِل كأنها الرماح ، ما يسقط لهم سهم ، قالوا : وارتفع رسول الله ﷺ عند مسجد الطائف اليوم) (١) .

وأراد سيد القادة ﷺ من البداية أن يتعرف جنوده على مصاعب الحرب ولأوائها ، وذلك حين يكون التعامل مع حصون وجدران لا مع رجال وسلاح ، وبعد معاينة آثار السهام التى انصبت على الجيش كالجراد المنتشر من كل مكان ، وانتقل الإحساس إلى كل جندى عن مخاطرة البقاء تحت الحصون ، دعا رسول الله ﷺ خبيره العسكرى الحباب ، وطلب منه أن يبحث عن مكان مناسب لنزول الجيش بعيد عن موقع نبال العدو ، وبعيد عن مرمى سهامهم بجوار الحصون ، فلو أقدم عليه الصلاة والسلام على الأخذ برأى الحباب منذ البداية ، وقبل هذه التجربة العنيفة المثخنة بالجراح لشعر التائقون للنصر والمتحمسون للحرب بأن البعد عن الحصون تجنب للحرب ، وخوف من اللقاء ، وبذلك يكون القرار المتخذ له أرضية فى نفس كل جندى ، وليس قرارًا من الأعلى يحتمل البرود فى التجاوب معه ، فالرسول ﷺ يربى القادة ويربى الجند ، والذى ينقل لنا أنباء هذا القرار هو عمرو بن أمية الضمرى الذى يعتبروا حدًا من أكبر المغاوير عند العرب ، فهو ليس نكرة أو غفلاً فى عالم الحرب ، فهو الذى كُلّف بمهمة اغتيال قائد جيش مكة أبى سفيان بن حرب وحده ، وهو الذى كلف باستخلاص جثة خبيب رضي الله عنه من بين أيديهم، وهو الذى ارتث من بين القتلى ببئر معونة ، وجاء رسول الله ﷺ بخبر القوم ، وهو الذى قتل رجلين داخل مكة ، واختبأ فى الغار ، وطاردته قوات مكة وفرسانها وعجزت عن اللحاق به ، وهو أخيرًا المبعوث الخاص لرسول الله ﷺ إلى النجاشى فى الحبشة

(١) مغازى الواقدى ٣/ ٩٢٦ .

لإعادة جعفر وأصحابه رضي الله عنهم .

فإذن نحن أمام خبير عسكرى فذ وخاصة فى حرب العصابات ، هو الذى ينقل لنا ما عانى المسلمون من نبال القوم ، وخاصة من نبال أبى محجن الثقفى الذى لا يسقط له سهم ، ويرمى بالنصال العراض من النبل كأنها الرماح ، وحاول المسلمون تجنب هذا الوابل من الرصاص أو السهام بالتترس لها ، لكن كثرتها وقوتها جعلت من غير الممكن تجنب أخطارها ، وفى هذه الأجواء التى نقلت الخطر إحساسًا واقعًا عند أفراد الجيش الإسلامى ، عندها أمر رسول الله ﷺ خبيره الحربى الحباب بارتياد المكان المناسب البعيد عن مرمى العدو ، وكان مكان مسجد الطائف اليوم هو المكان الذى انسحب إليه الجيش الإسلامى .

٢ ـ محاولة المفاوضات مع العدو :

لقد فشلت المحاولات الأولى التى قام فيها خالد بن الوليد رضي الله عنه قائد الطلائع المقاتلة وسُدَّت من كل جانب ، وذلك بعد أن وجَّه إليهم إنذاره النهائى ، وبعد وصول رسول الله ﷺ إلى ساحة المعركة ، فلا غرابة أن تبدأ المفاوضات قبل ابتداء المعركة ، وكان المرشح لذلك هو يزيد بن زمَعَة بن الأسود رضي الله عنه ، وتقدم أمام الجيش بفرسه ، ونادى ثقيفًا يطلب الأمان لعرض السلام قبل الحرب وشروط هذا السلام ، فأعطته ثقيف الأمان (فلما دنا منهم رموه بالنبل فقتلوه) وبذلك أبرزت ثقيف وجهها الأسود ، وغدرت بمن أعطته الأمان استخفافًا بمحمد ﷺ وعروضه، وكان هذا الأمر ـ من الغدر السافر ـ يقتضى عقوبة تناسبه وقدَّر الله تعالى للموتور الثائر ـ أخى يزيد بن زمعة ـ أن يكون هو المنتقم لأخيه ، وخرج هذيل بن أبى الصلت أخو أمية بن أبى الصلت من باب الحصن ، ولا يرى أن عنده أحدًا ، ويقال : إن يعقوب بن زمعة كمن له فأسره حتى أتى به النبى ﷺ فقال : قاتل أخى يا رسول الله ، فسر رسول الله ﷺ فأمكنه النبى ﷺ فضرب عنقه.

لقد كان الرد سريعًا من خلال الفدائى العظيم يعقوب بن زمعة ـ والذى كمن عند باب الحصن ينتظر قاتل أخيه ـ ولا ننسى أن يزيد ويعقوب كلاهما أصهار رسول الله ﷺ، فهما أخوا سودة رضي الله عنها أم المؤمنين ، وهما يمثلان قربى قريبة من النبى عليه الصلاة والسلام ، وكانت هذه هى الخطوة الثانية من محاولات التفاهم قبل الإصرار على الحرب وتعسف ثقيف وعنجهيتها حال دون الوصول إلى رأى .

وكانت المفاوضات الثانية مع اثنين من أكبر رجالات محمد ﷺ ، ولهما وزن كبير عند ثقيف ، وكان هذان القائدان هما : أبو سفيان بن حرب شيخ مكة وقائدها السابق وصهر ثقيف ، والمغيرة بن شعبة الثقفى ابن أخى عروة بن مسعود .

(وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى ثقيف فقالا : أمِّنوا حتى نتكلم ، فأمنوهما . فدعوا نساءً من قريش ليخرجن إليهما وهم يخافون السباء ـ منهم ابنة أبى سفيان بن حرب ، كانت تحت عروة بن مسعود ، لها منه ولد ، والفراسية بنت سويد بن عمرو كانت عند قارب بن الأسود بن مسعود ، وامرأة أخرى ، فلما أبين عليهما قال لهما بنو الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ويا مغيرة ألا ندلكما على خير مما جئتما له ، إن مال بنى الأسود ـ حيث قد علمتما ـ ليس بالطائف مال أبعد رشاءً ، ولا أشد مؤنة منه ، ولا أبعد عمارة ، وإن محمداً إن قطعه لم يعمر أبدًا ، فكلماه فليأخذه لنفسه ، أو ليدعه لله والرحم فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل فكلّماه ، فتركه رسول الله ﷺ) .

وكانت هذه مباحثات خاصة ، لكنها ذات صلة وثيقة بالحرب ، وتهدف حربًا نفسية أكثر مما تهدف حربًا عسكرية ، فالطلب من القرشيات المتزوجات فى ثقيف أن يخرجن إليهما ، إنما هو خوف عليهم من السبى ، وهو إشعار لثقيف أن الأسر والسبى سوف يكون نتيجة المعركة ، وحين لم تجد معهم هذه الصورة من التهديد المبطن ، عاد بنو قارب ابن الأسود بن مسعود يطالبون رسول الله ﷺ بحماية مال أبيهما من التحريق ، والخراب لو تم ، وطالبا بقرابة الرحم بحمايته ، واستجاب رسول الله ﷺ لقرابة الرحم ، وهو على استعداد عليه الصلاة والسلام لإجراء أى نوع من أنواع التقارب قبل اندلاع الحرب وفوات الأوان .

٣ ـ إصرار ثقيف على المواجهة :

وحيث لم يتغير جواب ثقيف ولا موقفها ، فعاد رسول الله ﷺ بجيشه ليعلن دخول الحرب ، والتى كانت تبتدئ دومًا بالمبارزة بين الأبطال ، لكن خطة ثقيف كانت تبتعد عن المواجهة خارج الحصون .

(وقال عمرو بن أمية الثقفى ـ وأسلم بعد ذلك ـ ولم يكن عند العرب أدهى منه :

لا يخرج إلى محمد أحد، إذا دعا أحد من أصحابه إلى البراز، ودعوه يقيم ما أقام، وأقبل خالد بن الوليد ونادى : من يبارز ؟ فلم يطلع إليه أحد ، ثم عاد فلم ينزل إليه أحد ، فنادى عبد يا ليل :

لا ينزل إليك أحد ، ولكنا نقيم فى حصننا ، خبأنا فيه ما يصلحنا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام ، خرجنا إليك بأسيافنا جميعًا حتى نموت عن آخرنا) (١) .

لقد أعلنت ثقيف خطتها ، ورغم أن هذه الخطة تحمل كثيراً من العار والهزيمة ، فالالتجاء إلى الحصون والهرب من المواجهة السافرة هو جبن لم تألفه العرب ، وأن يكون

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٥٥٨، ٥٥٩ .

هذا فى نهاية المواجهة للدفاع عن النفس فيمكن أن يقبل ، أما أن يكون هو ابتداءً فهذا دفع للتحصن بالضعف والجبن ، فالمسلمون يوم حفروا الخندق ، وجاء عمرو بن ود العامرى يتحدى ويدعو للمبارزة ، فبرز له على بن أبى طالب ﷺ وقتله ، وبرز الأسود المخزومى فقتله الزبير ، وفر عكرمة بن أبى جهل من المواجهة ، أما هنا فالموقف علنًا لا يحتمل التأويل أن لا مبارزة ولا مواجهة ، وإنما صبر على الحصار حتى تنتهى مدته ، ثم تكون المواجهة بعدها .

(فقاتلهم رسول الله ﷺ بالرمى عليهم وهم يقاتلونه بالرمى من وراء الحصن ، فلم يخرج إليه أحد وكثرت الجراحات له من ثقيف بالنبل وقتل جماعة من المسلمين .

ونظر رسول الله ﷺ ، فلا جدوى من هذه الحرب البعيدة ، ولا نتائج إلا الجراحات والقتل ، والزمن ليس لصالح الجيش الإسلامى ، فكانت الخطوة الرابعة) .

٤ ـ من نزل من العبيد فهو حر :

لقد بدأت هذه الخطوات فى محاولات للضغوط النفسية على ثقيف حتى تستسلم أو يهز كيانها من الداخل ، فتغير موقفها بعد عدم الجدوى من المواجهة المباشرة .

(نادى منادى رسول الله ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً . . . وفى رواية نزل إلى النبى ﷺ ثلاثة وعشرون من الطائف ، فشقَّ ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، واغتاظوا على غلمانهم ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع رسول الله ﷺ كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله ، فكان أبو بكرة إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان الأزرق إلى خالد ابن سعيد بن العاص ، وكان وردان إلى أبان بن سعيد بن العاص ، وكان يسار بن مالك إلى سعد بن عبادة ، وكان إبراهيم بن جابر إلى أسيد بن حضير ، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يقرئوهم القرآن ويعلموهم السنن ، فلما أسلمت ثقيف تكلمت أشرافهم فى هؤلاء المعتقين منهم الحارث بن كلدة يردونهم إلى الرق . فقال رسول الله ﷺ: « أولئك عتقاء الله لا سبيل إليهم ») .

وبما أن الهدف الرئيسى فى هذا الدين هو الإنسان ، فلا ضير عند رسول الله ﷺ الوصول إلى هذا الإنسان حرًا كان أم عبدًا ، حتى يصل بينه وبين هذا الينبوع الربانى ، فيتعرف على الإسلام .

هذا جانب ، والجانب الآخر هو التعرف على ثغرات ثقيف من خلال هؤلاء العبيد الذين يمكن أن يعطوا شيئًا من المعلومات من داخل صف العدو .

ومن جهة ثالثة فأن يرتبط تحرير الرقيق بالإسلام هو شيء له أهميته فى الإسلام ، ولا شيء أغلى على العبد من نيله حريته ، ومن أجل هذا نجحت هذه الخطة ، وأدخلت بضعة عشر عبدًا فى حظيرة الحرية أولاً ، وحررتهم من رق العبودية ، ثم أدخلتهم فى حظيرة الإسلام ، حيث كان توزيعهم على أشراف المسلمين سادة قريش بنى أمية ، كما كان يقول أبان عندما قدم عثمان بن عفان إلى مكة :

أقبل وأدبر لا تخف أحدًا   بنو أحيحة سـادة الحـرم

وكان الإخوة الثلاثة المؤمنون ممن شرفهم رسول الله ﷺ بهذه المسؤولية المادية والمعنوية: أبان وخالد وعمرو أبناء أبى أحيحة سعيد بن العاص ، هم الذين تحمل كل واحد منهم عبدًا حرره ، وجعله مولى له فى الوقت الذى يتحمل فيه هذا السيد مؤونة الإنفاق عليه ، ومؤونة تعليمه ، فهى مدرسة مجانية دخلها هؤلاء العبيد يتفرغون فيها لتلقى الإسلام والجهاد فى سبيل الله وخدمة مواليهم، بينما يقوم السادة بالإنفاق عليهم، وممن شرفه رسول الله ﷺ بهذه المهمة : أسيد بن حضير سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وعليهم أن يصهروا هؤلاء العبيد الأحرار فى مجتمع الإسلام الجديد.

فليس تعليمًا ذهنيًا فقط ، إنما حياة إسلامية خالصة فى قلب هذا المجتمع .

وحقق النداء هدفه ، وانضمت هذه النماذج إلى الصف الإسلامى ، لكن هذا لم يزحزح ثقيفًا عن موقفها ، فرغم عظيم ألمها وانزعاجها لموقف غلمانها أو بعضهم منها ، لكن الموقف الرسمى لم يتغير فيه شيء ، وعندما حاولت ثقيف بعد إسلامها أن تستعيد هؤلاء العبيد ثانية ، فكان الجواب الحاسم : أن ما حرره الله تعالى لن يستعبده أحد . فقال : « أولئك عتقاء الله لا سبيل إليهم » .

ورأينا بعد ذلك هؤلاء العبيد يأخذون موقعهم فى الصف الإسلامى ، فيسار مولى سعد بن عبادة هو جد محمد بن إسحاق عالم السيرة الشهير ، والذى ننهل منه حتى اليوم، والذى قيل فيه : الناس فى السيرة عيال على ابن إسحاق .

ووردان كان له دور مهم فى التاريخ حيث صار فيما بعد مولى لعمرو بن العاص ، ويُحَنَّس مولى لصهيب بن سنان ، وحين صُدّت قلوب ثقيف ويبست عن أن تقبل هدى الله، زلزل كيانها أن يدخل غلمانها فى دين الله مخبتين قانتين لله سبحانه ، وهذه أول بوادر النظرة النبوية العظيمة لآفاق دعوته فى الوجود: « عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله » .

فإذا كان سفهاؤهم وعبيدهم يوم مضى داعية إليهم يرجمونه بالحجارة ، ويدمون

عقبيه ورأسه ، ويشجون مولاه زيد بن حارثة ، فهؤلاء اليوم السفهاء والعبيد يدخلون فى دين الله أفواجًا ، ويصبحون جنوداً لفداء رسول الله ﷺ فى المهج والأرواح ، ويقاتلون سادتهم الذين يصادون الله ورسوله ، وكم الفرق بين الموقفين والمنحيين ؟؟ !

٥ ـ رمى حصن الطائف بالمنجنيق :

وهي المحاولة الثالثة في الاستفادة من الخبرات العسكرية لديه ﷺ ، فسلمان الفارسى هو صاحب الخبرة العريقة فى الحروب العالمية ، فقد جاء من فارس مركز الدنيا آنذاك وإحدى امبراطوريتين تحكمان العالم ، وبخبرته فى حفر الخندق ساهم فى تحطيم أعظم هجوم قامت به الأحزاب نحو المسلمين . وها هو هنا يشير بالمنجنيق على رسول الله ﷺ : (يا رسول الله ، أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم ، فإنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنيقات على الحصون ، وتُنصبُ علينا فنصيب من عدونا ويصيب منا العدو ، وإن لم يكن منجنيق طال الثواء ، فأمره رسول الله ﷺ فعمل منجنيقًا بيده ، فنصبه على حصن الطائف ، وهو أول منجنيق رمى به فى الإسلام) .

لقد استفاد رسول الله ﷺ من أعلى مستويات التطور الحربى فى السلاح ، وبغض النظر عن اختلاف الروايات عمن جاء بالمنجنيق ، لكن المهم أن الأخذ بالأسباب البشرية قد بلغ مداه .

وكان السلاح الثانى الذى استعمله المسلمون للوصول إلى حصن الطائف هو سلاح الدبابات يختبئون تحته حتى يصلوا إلى جوار الحصن ويضربوه بالمنجنيق ، غير أن الخبرة العسكرية عند ثقيف كانت متقدمة كذلك ومتكافئة مع الخبرة النبوية ، وكانت ثقيف قد بعثت عروة بن مسعود ليتعلم صنعة المجنيق من جرش فى اليمن ، ولكنها ليست بحاجة ماسة له . فهى فى موقع الدفاع عن حصونها ، وليست فى موقف الهجوم ، لكن سلاحها الذى استعملته وهو سكك الحديد المحماة ، أفشل الهجوم الإسلامى ؛ لأنه أحرق الدبابات من الجلود التى دخل المسلمون تحتها ، ووصلت النار إلى المهاجمين ، فلم يتمكنوا من الاقتراب من الحصون لتنفيذ ضربها بالمنجنيق (فأرسلت ثقيف بسكك الحديد المحماة بالنار ، فحرقت الدبابة ، فخرج المسلمون من تحتها وقد أصيب منهم من أصيب فرمتهم ثقيف بالنبل فقتل منهم رجال) .

إن الطاقة البشرية قد استنفذت فى إنجاح هذا الهجوم وتحطيم مقاومة ثقيف ، لكنها بقيت عاجزة عن تحقيق هذا النجاح من خلال المواجهة ، وكل ما كان يمكن أن يضاف فى رفع الوتيرة عالية فى هذه الحرب هو الحث على الرمى المستمر بالسلاح التقليدى ـ النبل ـ كما روى عمرو بن عبسة : (حاصرنا حصن الطائف مع رسول الله ﷺ فسمعته يقول :

« من بلغ بسهم فله درجة فى الجنة » فبلغت يومئذ ستة عشر سهمًا، وسمعته يقول: « من رمى بسهم فى سبيل الله فهو له عدل محرر . . . » ولم يُقَصِّر المسلمون فى تبادل الرمى مع المشركين، وهذا التكافؤ لا يمكن أن ينهى حالة الحصار، أو يغير فى واقع الأمر شيء، والزمن ليس لصالح المسلمين ، فليس بمقدورهم أن ينتظروا أشهراً طويلة حتى تنفد مؤونة ثقيف وتستسلم، إلا إذا قدّر الله تعالى معجزة من عنده ، فزلزل بهم حصونهم أو رماهم بصاعقة من عنده .

٦ ـ قطع أعناب ثقيف :

ومن خلال الخطط العسكرية كانت المحاولة الأخيرة فى حرب نفسية عنيفة من خلال قطع كرومهم وأعنابهم ، فلعل هذا الأمر يدفعهم إلى الاستسلام خوفًا على هذه الأموال التى مثلت جنى عمرهم كله، والمال يعدل الروح أحيانًا ، فما هو أثر هذه الخطة الأخيرة؟

(فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخيلهم وتحريقها ، قال عروة : أمر رسول الله ﷺ كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات وخمس حبلات ، فقطع المسلمون قطعًا ذريعًا ، فنادت ثقيفًا : لم نقطع أموالنا ؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا ، وإما أن تدعها لله والرحم ، فقال رسول الله ﷺ : « فإنى أدعها لله والرحم » ، فتركها رسول الله ﷺ) .

ليس قطع النخيل وتحريق العنب هدفًا عند رسول الله ﷺ وجيشه ، إنما الهدف هو الضغط على ثقيف لكى تستسلم وتسلم ، وكان الموقف أن تمادت ثقيف فى غيها ، وأبدت استعداداً لأن تبقى فى حصونها ولو خسرت كل أموالها ، فلا تزال قلوبها مسدودة عن الإسلام، ولا يزال عتو الجاهلية هو الذى يحركها، وعندما أعلنت موقفها كان رسول الله ﷺ يريد أن يبل هذه القلوب ببلالها ويتعامل معها على كسر يبوستها ، وفتح أفقًا من التفاهم والخير محل أفق التحدى والمواجهة حين قال: « بل أدعها لله والرحم ».

وقد تركوا المجال لسفهائهم يتحدون المسلمين فى هذا المجال .

(وكان رجل يقول على الحصن فيقول : روّحوا رعاء الشاء ، روحوا جلابيب محمد ، أتروننا نبتئس على أحبل أصبتموها من كرومنا) .

ولم يتعامل سيد الخلق فى موقفه العظيم فى ترك قطع هذه النخيل والأعناب من خلال هذا الموقف الاستفزازى ، لكنه أراد أن تنزل عقوبة الله فى هذا المتحدى لله ولرسوله ، (فقال رسول الله ﷺ : « اللهم روّح مروّحًا إلى النار » وكان الفدائى العظيم سعد بن أبى وقاص الذى دعا له الرسول ﷺ : « اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته » والذى فداه رسول الله ﷺ بأبيه وأمه ، كانت فرصة لهذا الفدائى أن يواجه

التحدى بمثله وأشد ، عملاً لا كلامًا ، يقول سعد : (فأرميه بسهم فوقع فى نحره ، فهوى بين الحصن ميتًا ، فسر رسول الله ﷺ بذلك) .

وهكذا أنهى رسول الله ﷺ هذا الموقف الشاذ من هذا السفيه المتحدى ، لكنه مضى صعدًا فى خط جديد ستظهر آثاره فيما بعد هو خط التخلى عن الحصار ، وفسح المجال ثانية للسلام البعيد عن أهوال الموت والقتال .

الاتجاه إلى فك الحصار :

إن عظمة القائد البصير هو ألا يفقد قواته فى معركة خاسرة ، فالمواجهة التى تمت مع هوازن رغم كل ما جرى فيها من هول ، لم يفقد المسلمون فيها إلا خمسة شهداء على أكبر تقدير ، ومعركة الطائف هذه فقد فيها رسول الله ﷺ اثنى عشر رجلاً دون مواجهة من خلال الرمى ، ومن خلال المحاولات الاستشهادية لضرب حصون الطائف بالمنجنيق ، ودم كل مسلم عند رسول الله ﷺ يعدل دماء المشركين كافة ، وإذا كانت المحاولات التى بذلت كلها لم تحقق الهدف المطلوب فى إجبار ثقيف على الاستسلام ، فما معنى الاستمرار فى الحصار دون جدوى ، واختلفت الروايات فى استمرار هذا الحصار بين أربعة عشر يومًا أو أربعين يومًا ، لكن هذا الاختلاف لا يغير من استراتيجية المعركة شيئًا على الإطلاق ، وعادت الروح التى سادت قبيل الحديبية . لتسود من جديد بتوجيه أو توفيق ربانى ، ونظر صلوات الله وسلامه عليه إلى المعركة بكل أبعادها ، واحتمالات نتائجها ، فرأى أن الطريقة الأنجع للحرب مع ثقيف هى حرب العصابات ، وهى أولى من غيرها ، وسيخطط لها فيما بعد ، وليست غايته أن يحقق نصرًا عسكريًا ضخمًا تذبح فيه ثقيف ،إنما همه أن تستسلم ثقيف دون خسائر ودماء كما استسلمت مكة ، وكما خطط رسول الله ﷺ ، فدخل مكة فجأة ووضعها تحت الأمر الواقع : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » ، وفى رواية : « اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة » فهو يريد صورة مماثلة يفاجأ بها ثقيفًا ويضعها تحت الأمر الواقع ، إنه لا يريد أن يجعل الأحقاد والدماء تتأرث فى النفوس فتولد الثأر والحمية ، بل يريد أن يلين هذه القلوب الجاسية والتى تأخذها العزة بقوتها وسطوتها ، وليس يضير القائد العظيم أن ينسحب من معركة يريد أن يحتل فيها موقعًا جديدًا بخسائر باهظة جدًا ، والقائد العظيم هو الذى يحسب القضية من جميع جوانبها ولا يندفع بعمى الحمية والتعصب والإصرار على النصر ، فيفقد كل قواته حتى لا يقال عنه : إنه انسحب من المعركة .

ولابد أن نقارن بين موقفين خالدين نتعلم منهما عظمة القيادة وعبقريتها .

الموقف الأول : هو ثباته ﷺ فى حنين ، والموقف الثانى : هو اتجاهه للانسحاب من حصار الطائف ، ففى الموقف الأول الذى يتعرض الجيش للخطر والموت ويؤدى فراره إلى تغيير ميزان القوى كلها ، واندفاع العدو المتقدم إلى احتلال مواقع للمسلمين قد حققوها ، بل يُعَرّض عاصمة الدولة كلها للخطر ، فى مثل هذه الحالة نجد الرسول ﷺ يصر على مواجهة العدو ـ ولو كان وحده ـ ويستدعى أعظم قواته وأعلاها خبرة وتدريبًا وفدائية لتقف معه ، وذلك حين راح يدعو الأنصار والمبايعين تحت الشجرة . . . ولو سقطوا جميعًا قتلى ، ولو فقد ثلث الجيش ونصفه كى يصد هذا الهجوم الرهيب الذى انقض فيه العدو عليه ، ولاذ جيشه بالفرار .

إن الخسائر فى هذه الحالة لا تقاس بالقتلى والجرحى ، إنما تقاس الخسائر بالتخلى عن المواقع والأرض التى احتلها المسلمون ، وبالخطر الذى يحيق بدولة الإسلام فيجعلها مطمعًا للعدو وهدفًا ينهى الوجود الإسلامى من خلالها ، وكما كان المتربصون يقولون : (لا تنتهى هزيمة محمد دون البحر) ، ويعنون بذلك أن مكة والمدينة قد تقعان فى أيدى العدو المنتصر ، فى مثل هذه الحالات لا تبحث خسائر الأرواح والقتلى ، بل الثبات والصمود وصد الهجوم ولو فقد خمسة آلاف من جيشه حتى يدحر العدو المهاجم ، وينهى التحدى الجاهلى فى الأرض .

أما الصورة الثانية : فهى محاولة للتغلب على خصم محصور قد فرَّ من معركة المواجهة وفقد خيرة شبابه وأبطاله ، وأغلق عليه حصنه ، فتأخير فتح الحصن لا يغير شيئًا من موازين القوى فى الساحة العربية ، ويمكن فى هذا التأجيل أن يتحقق الهدف بعد زمن بأقل قدر ممكن من الخسائر .

وكانت روح النبوة العظمى هى التى تملك كيان المصطفى ﷺ ، فلا يشغله شىء فى هذه الدنيا كما يشغله هداية هذه الأمة لدين الله عز وجل ، وما كان القتل والقتال لحظة من اللحظات هدفًا عند رسول الله ﷺ ، إنما كان وسيلة لكسر جماح الباطل المستعلى ليفسح المجال للحق المحارب : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾

[الأنفال : ٣٩]

ولذلك فقد أطلق رسول الله ﷺ شعاره مع ثقيف ، والذى رسم الهدف كاملاً أمامه وذلك حين جاء المسلمون إليه يقولون : يا رسول الله أحرقتنا نار ثقيف ، فادع الله تعالى عليهم ، فقال : « اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم » .

فها هو ـ وهو داعية أعزل ـ وحيدًا ومعه ملك الجبال يقول له: لئن أمرتنى أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت . يقول : « لا، إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله » .

وها هو القائد العسكرى الذى دانت له جزيرة العرب ، ومعه جيشه الذى يجمع جل الخبرات العربية . يقول : « اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم » .

ونتساءل بعدها ، كيف مضى رسول الله ﷺ فى تحقيق هذا الانسحاب ؟

١ ـ الرؤيا :

قال ابن إسحاق : وبلغنى أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر : « إنى رأيت أنى أهديت لى قعبة مملوءة زبدًا ، فنقرها ديك فهراق ما فيها »» فقال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يومك ما تريد . فقال رسول الله ﷺ : « وأنا لا أرى ذلك » .

فرسول الله ﷺ ، ومن خلال الدراسة الكلية للساحة ، لا يجد إمكانية تحقيق نصر سريع حاسم مع العدو المتحصن ، ولا جدوى من الإصرار على الحصار إلا زيادة القتلى والجرحى بين الفريقين .

٢ ـ الاستشارة :

وإذا كانت الرؤيا السابقة من رسول الله ﷺ هى استشارة من طرف آخر لكبير وزرائه فى المعركة ، فها هى استشارة أخرى لكبير خبراء العدو سابقًا نوفل بن معاوية الديلى ، نوفل هذا الذى أشعل الحرب لفتح مكة حين قاد بكرًا لتهاجم خزاعة وتغدر بها وتقتل أهلها راكعين ساجدين ، نوفل اليوم هو جندى فى الجيش الإسلامى لم يفقد من مرتبته العسكرية فى الجاهلية شيئًا ، فهو لا يزال بالرتبة العسكرية نفسها التى كان فيها فى الجاهلية ، ومن أجل هذا اختصه رسول الله ﷺ بالاستشارة ، فقال : « ما ترى يا نوفل فى المقام عليهم ؟ » .

قال : يا رسول الله ، ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك .

وكان هذا الرأى هو الذى قاله خالد ؓ لهم : (وأنتم فى حصن فى ناحية من الأرض لو ترككم رسول الله ﷺ لقتلكم من حولكم ممن أسلم) فإمكانية النصر قائمة ، لكن مع الوقت الطويل والضحايا الجسيمة ،فهل يستحق هذا الفتح كل هذه التضحيات ، أم لا ؟ فالشىء الذى انتهى له رسول الله ﷺ أن يؤجل هذا الفتح وينهى الحصار كما برزت معه كذلك نتائج الاستشارة لأركان حربه .

٣ ـ إعلان الرأى لخولة بنت حكيم :

وكان تسريب هذا الرأى قد أخذ خطوات متتالية، وليس إعلانًا فجًا مثيرًا للأعصاب،

فقد جاءت خولة بنت حكيم ﷺ إلى رسول الله ﷺ قائلة :

يا رسول الله ، اعطنى إن فتح الله عليك حلى بادية بنت غيلان ، أو حلى الفارعة بنت عقيل ـ وكانتا من أحلى نساء ثقيف ـ فروى أن رسول الله ﷺ قال لها : « وإن كان لم يؤذن لنا فى ثقيف يا خولة ؟ » فخرجت خولة ، فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب، فدخل على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما حديث حدَّثتنيه خولة ؟ زعمت أنك قلته . قال : « قد قلته » . قال : أو ما أُذن فيهم ؟ قال : « لا » . قال : أفلا أوذن الناس بالرحيل ؟ قال : « بلى » فأذن عمر بالرحيل .

وهدف رسول الله ﷺ هو تسريب هذا الخبر ، وإذا كان عمر فى الحديبية ﷺ قد فقد أعصابه للرحيل عند مكة دون فتح ، فقد كان درسًا قاسيًا من أقسى الدروس التى تلقاها حين ترك العنان لنفسه يواجه فكرة الصلح مع العدو ، أما اليوم ـ وما أشبه الليلة بالبارحة ـ فهو يواجه الموقف نفسه ـ الانصراف عن ثقيف ـ دون فتح ، وتحدى ثقيف للمسلمين واغترارهم واستعلاءهم ، وهم على الباطل ، كل هذه المعانى تدور فى خلده، لكنه رأى أمر رسول الله ﷺ أبرك من أمره ، وما يراه اليوم من فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وهزيمة هوازن ، وحصار ثقيف إلا أثر من آثار صلح الحديبية الفتح المبين ، فهو اليوم لم يأت ليناقش ، إنما جاء لينفذ ، إنه استفسار فقط عن صحة خبر خولة .

وعندما تأكد من صحة الخبر أن الله تعالى لم يأذن لرسول الله ﷺ ، لم يجد حرجًا أن يكون هو نفسه الذى يؤذن فى الناس بالرحيل ، وشتان بين عمر اليوم وهو يدعو الناس إلى الرحيل عن الطائف ؛ لأن الله تعالى لم يأذن لنبيه بفتحها بعد ، وبين عمر فى الأمس ، ينتقل من موقع إلى موقع وهو يقول : ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ فلم نعط الدنية فى ديننا ؟

وإن كان عمر ﷺ قد عوفى من الابتلاء نتيجة التربية القاسية التى تلقاها فى الحديبية ، لكن هذا الجيش قرابة تسعة أضعافه من غير أهل الحديبية ، ولم يتلق ذلك الدرس القاسى آنذاك ، فلم تتحمل أعصاب هذا الجيش هذا الإذن بالرحيل ، وظهرت بوادر التوتر عنده للرحيل دون فتح .

روى الشيخان عن ابن عمرو أو ابن عمر ﷺ قال : لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف ولم ينل منهم شيئًا قال : « إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى » ، فثقل عليهم وقالوا : أنذهب ولا نفتح ـ وفى لفظ قالوا : لا نبرح أو نفتحها .

ولابد أن تنتقل التربية من الدرس النظرى إلى الدرس العملى ، وليس من المجدى الحديث عن تبريرات القفول وأسبابه وآثاره ، إن الانتقال إلى الدرس العملى هو الطريقة

الأنجع فى التربية .

وكما انتهت أزمة الحديبية عند المسلمين بالدرس العملى الذى قدمه رسول الله ﷺ حين أقدم على الحلق مباشرة ثم الذبح ، انتهت أزمة الطائف كذلك بالدرس العملى من رسول الله إذ قال لهم : « اغدوا على القتال » .

وانشرحت صدور الجيش الإسلامى للاستجابة النبوية له من دون أن يناقشه ، بل فتح المجال أمامه ألا يبرح حتى يفتح ، وأصدر أوامره صلوات الله وسلامه عليه للجيش بالإذن بالقتال .

(فغدوا فقاتلوا قتالاً شديدًا ، فأصابهم جراح . قال: « إنا قافلون غدًا إن شاء الله » فأعجبهم ، فضحك رسول الله ﷺ) .

قال عروة : وأمر رسول الله ﷺ الناس ألا يسرحوا ظهرهم فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه، ودعا حين ركب قافلاً وقال: « اللهم اهدهم واكفنا مؤونتهم».

وحين أثخن الجيش بالجراح أدرك سر الأمر النبوى بالقفول ، وبمقدار ما تأزم فى اليوم الأول وأصر على عدم الرحيل إلا بفتح ثقيف ، بمقدار ما سر فى اليوم الثانى وعوفى من أن يسقط الكثير من رجاله صرعى تحت الحصن بدون فتح .

وهى عظمة الحكمة النبوية بألا يعرض جيشه للإبادة من أجل هدف صعب ، واكتفى باثنى عشر شهيدًا ثمنًا لهذا الحصار .

غنائم حنين ودورها فى البناء التربوى للأمة

إلى الجعرانة :

١ ـ قالوا : خرج رسول الله ﷺ من الطائف . فأخذ على دحنا [١] ، ثم على قرن المنازل ، ثم على نخلة ، ثم خرج إلى الجعرانة وهو على عشرة أميال من مكة ، قال سراقة بن مالك :

لقيت رسول الله ﷺ وهو منحدر من الطائف إلى الجعرانة فتخلصت إليه ، والناس يمضون أمامه أرسالاً ، فوقفت فى مِقْنب [٢] من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ما أنت ؟ وأنكرونى ، حتى إذا دنوت وعرفت أن رسول الله ﷺ يسمع صوتى ، أخذت الكتاب الذى كتبه أبا بكر فجعلته بين أصبعين من أصابعى ثم رفعت به وناديت : أنا سراقة بن جُعشُم وهذا كتابى ، فقال رسول الله ﷺ: « هذا يوم وفاء وبر ، ادنوه » فدنوت منه ، فكأنى أنظر إلى ساق رسول الله ﷺ فى غرزه كأنها الجمارة ، فلما انتهيت إليه سلمت وسقت الصدقة إليه ، وما ذكرت شيئًا أساله عنه إلا أنى قلت : يا رسول الله ، أرأيت الضالة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر إن سقيتها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم فى كل ذات كبد حرًّى أجر » [٣] .

قال محمد بن عمر : وقد كان رسول الله ﷺ كتب لسراقة كتاب موادعة سأل سراقة إياه فكتب له أبو بكر أو عامر بن فهيرة .

وروى محمد بن عمر عن أبى رهم الغفارى ﷺ قال : بينا رسول الله ﷺ يسير وأنا إلى جنبه ، وعلىَّ نعلان غليظان ، إذ زحمت ناقتى ناقة رسول الله ﷺ ، ويقع حرف نعلى على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أوجعتنى أخّر رجلك » ، وقرع رجلى بالسوط ، فأخذنى ما تقدم من أمرى وما تأخر ، وخشيت أن ينزل فىَّ قرآن لعظم ما صنعت ، فلما أصبحنا بالجعرانة ، خرجت أرعى الظَّهر ، وما هو يومى ، فرقًا أن يأتى النبى ﷺ ورسول الله ﷺ يطلبنى ، فلما روَّحت الركاب سألت ، فقالوا : طلبك رسول الله ﷺ فجئته وأنا أترقب . فقال : « إنك أوجعتنى برجلك

---

(١) دحنا : من مخاليف الطائف .

(٢) المقنب : ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٩٠ .

فقرعتك بالسوط ، فخذ هذا الغنم عوضًا عن ضربتى » ، قال أبو رهم : فرضاه عنى كان أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها (١) .

(وكان عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى يقول : كنت مع النبى ﷺ : فى مسيره وهو يحادثنى ، فجعلت ناقتى تلصق بناقته وكانت ناقتى شهمة (٢) ، فجعلت أريد أن أنحيها فلا تطاوعنى، فلصقت بناقة النبى ﷺ، وأصبيت رجله فقال: « أخ، أوجعتنى ». فرفع رجله من الغرز(٣) كأنها جمارة (٤) ، ودفع رجلى بمحجن فى يده فمكث ساعة لا يتحدث ، فوالله ما نزلت حتى ظننت أن سينزل فى عذاب ، قال : فلما نزلنا قلت لأصحابى: إنى أرعى لكم، ولم يكن ذلك يوم رعيتى ، فلما أرحت الظهر عليهم قلت: هل جاء أحد يبغيتى ؟ فقالوا : رسول الله ﷺ جاء يبغيك ، فقلت فى نفسى : هى والله هى. قلت: من جاء ؟ قالوا : رجل من الأنصار . قال: فكان أكره إلى، وذلك أن الأنصار كانت فيهم علينا غلظة، ثم قال: ثم جاء رجل من قريش يبتغينى، قال: فخرجت خائفًا حتى واجهت رسول الله ﷺ، فجعل يبتسم فى وجهى ويقول: « أوجعتك بمحجنى البارحة » ، ثم قال : « خذ هذه القطعة من الغنم » ، قال : فأخذتها فوجدتها ثمانين شاة ضائنة (٥)) (٦) .

وفد هوازن وإسلامهم :

(قال ابن إسحاق وغيره : ونزل رسول الله ﷺ الجعرانة فيمن معه ، ومعه سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الإبل والشاء ما لا ندرى عدته ، وذكر محمد بن عمر وابن سعد أن السبى كان ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير ، والغنم لا يدرى عدتها ، قال ابن سعد : أكثر من أربعين ألفًا وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى رسول الله ﷺ بالسبى لكى يقدم عليه وفدهم) (٧) .

قال ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من هوازن ما أصاب من أموالهم وسباياهم ، أدركه وفد هوازن بالجعرانة ، وهم أربعة عشر رجلاً ، ورأسهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا منَّ الله عليك ، وقام

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٦٦ . (٢) ناقة شهمة : ناقة جلدة .

(٣) الغرز : مكان وضعها فى الرحل .

(٤) جمارة : قلب النخلة وشحمتها ، شبه ساقه ببياضها.

(٥) ضائنة : ذات صوف . (٦) المغازى للواقدى ٣/ ٩٤٠.

(٧) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٦٨ .

خطيبهم زهير بن صرد فقال :

يا رسول الله ، إن ما فى الحظائر من السبايا عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا ـ وقيل منحنا ـ للحارث بن أبى شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما ، وأنت يا رسول الله خير المكفولين ، ثم أنشأ يقول (١) :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... مشتت شملها فى دهرها غير
أبقت لنا الدهر هتافًا على حزن ... على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركها نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلما حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعُها ... إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتى وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منا فإنا معشر زُهُر
إنا لنشكر للنعما إذا كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعهُ ... من أمهاتك إن العفو مشتهر
يا خير من مرحت كُمت الجياد به ... عند الهياج إذا ما استوقد الشرر
إنا نؤمل عفوًا منك تلبسه ... هادى البرية إن تعفو وتنتصر
فاعف عفا الله عما أنت راهبه ... يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر قال: « ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » وقالت قريش : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، هذا حديث جيد الإسناد عال جدًا ، رواه الضياء المقدسى فى صحيحه ، ورجَّح الحافظ ابن حجر أنه حديث حسن بسط القول عليه فى لسان الميزان .

قال ابن إسحاق ، فقال رسول الله ﷺ : « نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » .

وفى الصحيح عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه ومروان بن الحكم : (فقال رسول الله ﷺ : « فيمن ترون ، وأحب الحديث إلىّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين ، إما السبى ، وإما المال ، وقد كنت استأنيت بكم » ، وكان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع

(١) ساق المؤلف الصالحى رحمه الله سندًا مباشرًا من عنده وصله برسول الله ﷺ عن طريق الطبرانى. انظر الصفحات ٥٦٩ ، ٥٧٠ .

عشرة ليلة حين قفل من الطائف ـ فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍ عليهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا ، ولا نتكلم فى شاة ولا بعير ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالناس فأظهروا إسلامكم وقولوا : إنا إخوانكم فى الدين ، وإنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فإنى سأعطيكم ذلك ، وأسأل لكم الناس » وعلمهم رسول الله ﷺ التشهد، وكيف يكلمون الناس ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر ، قاموا فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى الكلام فأذن لهم ، فتكلم خطباؤهم بما أمرهم به رسول الله ﷺ فأصابوا القول، فأبلغوا فيه ، ورغبوا إليهم فى رد سبيهم، فقام رسول الله ﷺ حين فرغوا ليشفعوا لهم. وفى الصحيح عن المسور بن مخرمة ومروان أن رسول الله ﷺ قام فى المسلمين فحمد الله فأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « أما بعد ، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين ، وإنى قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم ، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول فىء يفيئه الله علينا فليفعل » ، فقال الناس : قد طبنا ذلك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم » ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم .

قال ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » فقال المهاجرون : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسوله ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، قال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال العباس بن مرداس : وهنتمونى .

فقال رسول الله ﷺ: « من كان عنده منهن شيء فطابت نفسه أن يرده فسبيل ذلك، ومن أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول فىء يفيئه الله على » ، فرد المسلمون إلى الناس نساءهم وأبناءهم ، ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن ، فإنه أخذ عجوزاً فأبى أن يردها) .

(وذكر ابن إسحاق ومحمد بن عمر واللفظ له أن عيينة بن حصن حين أبى أن يرد حظه من السبى ، خيروه فى ذلك ، فنظر إلى عجوز كبيرة فقال : هذه أم الحى ، لعلهم أن يغلو فداءها ، فإنه عسى أن يكون لها فى الحى نسب ، فجاء ابنها إلى عيينة فقال هل لك فى مائة من الإبل ؟ فقال عيينة : لا ، فرجع عنه وتركه ساعة ، فقالت العجوز : ما أربك فىّ بعد مائة ناقة ، اتركه فما أسرع أن يتركنى بغير فداء ، فلما سمعها عيينة قال : ما رأيت كاليوم خدعة ، قال : ثم مر عليه ابنها فقال له عيينة : هل لك فى العجوز لما

دعوتنى إليه ؟ قال ابنها : لا أزيدك على خمسين ، قال عيينة : لا أفعل ، قال : فلبث ساعة ثم مرَّ به وهو يعرض عنه ، فقال عيينة : هل لك فى العجوز فى الذى بذلت لى ؟ قال الفتى : لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة . هذا الذى أقوى عليه . قال عيينة : لا أفعل والله ، بعد مائة فريضة خمس وعشرون !! فلما تخوف عيينة أن يتفرق الناس ويرتحلوا جاء عيينة . فقال : هل لك إلى ما دعوتنى إليه إن شئت ؟ قال : هل لك فى عشر فرائض أعطيكها ؟ قال عيينة : والله لا أفعل ، قال الفتى : والله ما ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد ، ولا فوها ببارد ، ولا صاحبها بواجد ، فأخذتها من بين من ترى . قال عيينة : خذها لا بارك الله لك فيها ، فقال الفتى : إن رسول الله ﷺ قد كسا السبى فأخطأها من بينهم بالكسوة ، فهل أنت كاسيها ثوبًا ؟ فقال : لا والله ما ذلك لها عندى، قال : لا وتفعل ، فما فارقه حتى أخذ منه سمل ثوب ، ثم ولى الفتى وهو يقول : والله إنك لغير بصير بالفرص) [١] .

قسمة الغنائم :

روى ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما فرغ من رد سبايا هوازن ، ركب بعيره ، وتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، اقسم علينا فيئنا ، حتى اضطروه إلى شجرة ، فانتزعت رداءه ، فقال : « أيها الناس ، ردوا علىَّ ردائى ، فوالذى نفسى بيده لو كان لكم عندى عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا كذابًا » . ثم قام رسول الله ﷺ إلى جنب بعيره ، فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين يديه فقال : « أيها الناس ، والله ما لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط ، وإياكم والغلول ، فإن الغلول عار وشنار على صاحبه يوم القيامة » [٢] .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوم حنين إلى جنب بعير من المغانم ، فلما سلم تناول وبرة بين أنملتين ـ وفى رواية فجعلها بين أصبعيه ـ ثم قال : « أيها الناس ، إن هذه من مغانمكم ، وليس لى فيها إلا نصيبى معكم ، الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط وأكثر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا فإنه عار ونار وشنار على أهله فى الدنيا والآخرة » [٣] . رواه أحمد وابن ماجه .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٧١ ـ ٥٧٤ ، وهو فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٨٨ ـ ٤٩٠ وفى البخارى ٢/ ٥/ ١٩٥ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٧٥ .

(٣) المصدر نفسه ٥/ ٥٧٥ ، وهو عند ابن ماجه ٢/ ٩٥٠ ح (٢٨٥٠) .

وروى عبد الرزاق والبخارى عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه بينما هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين ، علقت الأعراب برسول الله ﷺ يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف رسول الله ﷺ ثم قال : « اعطونى ردائى ، فلو كان لى عدد هذه العضاه نعمًا لسقته عليكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذابًا ولا جبانًا » .

قال ابن إسحاق : أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم ، وكانوا أشرافًا من أشراف العرب ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم .

قال محمد بن عمر ، وابن سعد : بدأ رسول بالأموال فقسمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، قلت : فمنهم من أعطاه مائة بعير وأكثر ، ومنهم من أعطاه خمسين، وجميع ذلك يزيد عن الخمسين . وقد ذكرهم أبو الفرج بن الجوزى فى التلقيح، وابن طاهر فى مبهماته ، والحافظ فى الفتح ، والبرهان الحلبى فى النور ، وهو أحسنهم بيانًا ، وأكثرهم عددًا ، وعند كل منهم ما ليس عند الآخر ولم يتعرض أحد منهم لما أعطى كل واحد ، وقد تعرض محمد بن عمر ، وابن سعد ، وابن إسحاق لبعض ذلك كما سأنبه عليه .

روى الشيخان وغيرهما ومحمد بن عمر عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ بحنين مائة من الإبل فأعطانيها،ثم سألته مائة من الإبل فأعطانيها، ثم قال رسول الله ﷺ: « يا حكيم، إن هذا المال حلوة خضرة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » . فقال : والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا ، فكان عمر بن الخطاب يدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه فيقول عمر : أيها الناس ، أشهدكم على حكيم بن حزام ، أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه (١) .

وروى البخارى عن صفوان قال:ما زال رسول الله ﷺ يعطينى من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلىّ،حتى ما خلق الله تعالى شيئًا هو أحب إلى منه، وفى صحيح مسلم أنه ﷺ أعطاه مائة من الغنم، ثم مائة ثم مائة ، قال محمد بن عمر : يقال إن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ يتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء إبلاً - مما أفاء الله به على رسول الله ﷺ - فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء فأعجب صفوان ، وجعل ينظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ: « أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب ؟ »، قال : نعم. قال: « هو لك بما فيه ». فقال صفوان : أشهد أنك رسول الله ، ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى (٢) .

---

(١) البخارى ٢/ ٤/ ١١٣ .

(٢) المغازى للواقدى ٣/ ٩٤٦ .

وروى الإمام أحمد ومسلم والبيهقى عن رافع بن خديج ﷺ أن رسول الله ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من سبى حنين كل رجل منهم مائة من الإبل فذكر الحديث فيه ، وأعطى عباس بن مرداس دون المائة ، فأنشأ العباس يقول :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى المجمع
وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ فلم أعط شيئًا ولم أمنع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يُرفع

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه فقال له : « أنت القائل : فأصبح نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة » . . . فقال النبى ﷺ : « اقطعوا عنى لسانه » ففزع منها ناس وقالوا : أمر بالعباس بن مرداس أن يمثل به ، وإنما أراد رسول الله ﷺ . . . أن يقطعوه بالعطية من الشاء والغنم (١) .

وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : كنت عند رسول الله ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال ، فأتى رسول الله ﷺ أعرابى . فقال : ألا تنجزنى ما وعدتنى ؟ فقال له : « أبشر » ، فقال : قد أكثرت علىّ من البشر ، فأقبل على أبى موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال : « رد البشرى فاقبلا أنتما » قالا : قبلنا ، ثم دعا بقدح فغسل يديه ووجهه ومج فيه : ثم قال : « اشربا منه ، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا » ، فأخذا القدح ففعلا ، فنادت أم سلمة من وراء الستر : أن أفضلا لأمكما ، فأفضلا منه طائفة (٢) .

قالوا : ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الناس والغنائم ، ثم فضها على الناس فكانت سهامهم ، لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة ، فإن كان فارسًا أخذ اثنتى عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس واحد لم يسهم له .

(قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن قائلاً قال لرسول الله ﷺ من أصحابه ـ قال محمد بن عمر : هو سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أما والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، ولكنى تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل

(١) هى عند مسلم

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥/ ١٩٩ باب غزوة الطائف .

ابن سراقة إلى إسلامه » (١) .

وروى البخارى عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : (أعطى رسول الله ﷺ رهطا وأنا جالس فترك منهم رجلاً هو أعجبهم إلىَّ فقمت فقلت : مالك عن فلان ، والله إنى لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ : « أو مسلمًا » ذكر ذلك ثلاثًا ، وأجابه بمثل ذلك ثم قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىَّ منه خشية أن يكبه الله تعالى فى النار على وجهه ») .

(وروى البخارى عن عمرو بن تغلب قال : (أعطى رسول الله ﷺ قومًا ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه فقال : « إنى أعطى أقوامًا أخاف هلعهم وجزعهم ، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله تعالى فى قلوبهم من الخير والغنى ، منهم عمرو بن تغلب » . قال عمرو : فما أحببت أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النَعَم) (٢) .

الأنصار والغنائم :

(روى البخارى عن أنس بن مالك ﷺ قال : وقال ناس من الأنصار ، حين أفاء الله على رسوله ﷺ ما أفاء من أموال هوازن ، فطفق النبى ﷺ يعطى رجالا المائة من الإبل فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطى قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس فحُدّث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم ، ولم يدع معهم غيرهم ، فلما اجتمعوا قام النبى ﷺ فقال : « ما حديث بلغنى عنكم ؟ » ، فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا ، وأما ناس حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطى قريشًا ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبى ﷺ : « فإنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم ، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » ، قالوا : يا رسول الله، قد رضينا، فقال النبى ﷺ: « ستجدون بعدى أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ فإنى على الحوض » قال أنس : فلم يصبروا) (٣) .

وفى رواية عنه ـ فقال : « أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ » . فقال النبى ﷺ : « لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار شعبًا لاخترت شعب الأنصار » (٤) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٩٦ .
(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/٥٨٣ ، ٥٨٤ .
(٣، ٤) صحيح البخارى ٥/٢٠١ .

ذو الخويصرة التميمي :

(روى ابن إسحاق عن ابن عمر والإمام والشيخان عن جابر، والشيخان والبيهقى عن أبى سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ ، بينا هو يقسم غنائم هوازن إذ قام إليه رجل - قال ابن عمر وأبو سعيد : من تميم يقال له : ذو الخويصرة ، فوقف عليه وهو يعطى الناس فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم . فقال رسول الله ﷺ : « أجل ، فكيف رأيت ؟ » . قال : لم أرك عدلت ، اعدل ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : « شقيتُ إن لم أعدل ، ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟ » فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى أقتل هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى ، دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ، ينظر فى النصل فلا يوجد فيه شيء ثم فى القدح فلا يوجد منه شيء ، ثم فى الفوق فلا يوجد منه شيء - وفى لفظ : ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نصيبه فلا يوجد فيه شيء ، وهو قدحه - ثم ينظر إلى قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم ، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم » - ولفظ رواية جابر : « إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم أن فيهم رجلاً أسود ، إحدى عضديه مثل ثدى المرأة ، أو مثل البضعة تدردر ، ويخرجون على حين فرقة من الناس » ، قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه ، وأمر بذلك الرجل فالتمس حتى أتى به، حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذى نعت) (١) .

مالك بن عوف وإسلامه :

قالوا : وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن : « ما فعل مالك بن عوف ؟ » ، قالوا : يا رسول الله، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: « أخبروه أنه إن أتانى مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل »، وكان رسول الله ﷺ أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبد الله بنت أبى أمية، فقال الوافد : يا رسول الله، أولئك سادتنا وأحبنا إلينا، فقال رسول الله ﷺ: « إنما أريد بهم الخير » فوقف مال مالك فلم يجر فيه السهام ، فلما بلغ مالكًا ما فعل رسول الله ﷺ فى قومه ، وما وعده رسول الله ﷺ ، وأن أهله وماله موفور ، وقد خاف مالك ثقيفًا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال ما قال فيحبسونه ، فأمر براحلته فقدمت لديه حتى وضعت لديه

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٥٨٧، ٥٨٨، وهى عند مسلم ٢/٧٤٢، ٧٤٣ ح (١٤٤، ١٤٥/١٠٦٤) .

بدحنا، وأمر بفرس له. فأتى به ليلاً ، فخرج من الحصن ، فجلس على فرسه ليلاً ، فركضه حتى أتى دحنا، فركب بعيره حتى لحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة أو بمكة، فرد عليه رسول الله ﷺ أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل وأسلم وحسن إسلامه ، فقال مالك حين أسلم :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد
أوْفَى وأعطى للجزيل إذا احتُذى ... ومتى تشأ يخبرك عما في غدِ
وإذا الكتيبة عرَّدت أنيابها ... بالسمهرى وضرب كل مهندِ
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادر في مرصد

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، ومن تلك القبائل من هوازن وفهم وسَلَمة وثُمالة ، وكان قد ضوى إليه قوم مسلمون ، واعتقد له لواء ، وكان يقاتل بهم من كان على الشرك ويغير بهم على ثقيف فيقاتلهم بهم ، ولا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، وقد رجع حين رجع ـ وقد سرح الناس مواشيهم ، وأمنوا فيما يرون ـ حين انصرف رسول الله ﷺ عنهم ، وكان لا يقدر على سرح إلا أخذه ، ولا على رجل إلا قتله، وكان يبعث إلى رسول الله ﷺ بالخمس مما يغنم، مرة مائة بعير ، ومرة ألف شاة، ولقد أغار على سرح لأهل الطائف فاستاق لهم ألف شاة في غداة واحدة .

العودة إلى المدينة :

قال محمد بن عمر وابن سعد : انتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليالٍ خلون من ذى القعدة ، فأقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة . . . فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ليلاً ، فأحرم بعمرة من المسجد الأقصى الذى تحت الوادى ، ودخل مكة فطاف وسعى ماشيًا ، وحلق ورجع إلى الجعرانة. . . فلما فرغ رسول الله ﷺ من أمره غدا يوم الخميس راجعًا إلى المدينة ، فسلك فى وادى الجعرانة حتى خرج على سرف ، ثم أخذ فى الطريق إلى مر الظهران ، ثم إلى المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة ـ فيما زعمه أبو عمرو المدنى . قال أبو عمرو : وكانت مدة غيبته ﷺ من حين خرج من المدينة إلى مكة فافتتحها ، وواقع هوازن ، وحارب أهل الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يومًا .

رسول الله ﷺ يبنى أمة

مضى الناس فرحين بنصر هوازن ، وما أفاء الله على رسوله من غنائمهم ، كما مضوا عندهم غصة كبرى لتمنع ثقيف ورجوعهم عنها دون فتح ، لكن سيد الخلق ﷺ كان فى أفق أعلى من هذه الآفاق بكثير لما أعده الله به لهداية البشرية قاطبة ، فقد كانت عدة أمور تأخذ بلبه وتشغله ، يريد أن يجد لها الحل الأنجع :

الأول : هوازن التى هُزِمت ، وهيض جناحها ، وكسر فؤادها ، كيف يمكن أن تنضم هذه إلى الإسلام وتصبح من جنده وهى من أكبر قوى العرب ، وما جدوى نصر عسكرى يؤرث حقداً على الإسلام وأهله ؟

الثانى : ثقيف التى تمنعت فى ذراها ، وانصرف رسول الله ﷺ عنها دون فتح حصونها . كيف ستبقى ممتنعة بقوتها ، سادرة فى شركها ، ماضية فى غيها تتحدى الله ورسوله ؟

الثالث : قريش التى استبيحت بيضتها ، وفتحت عنوة ، ورجالاتها العظام الذين أمضوا عمرهم وأفنوه فى حرب الله ورسوله ، هل يمكن أن تمسح من قلوبها أحقاد حرب عشر سنين بينها وبين الإسلام ؟

الرابع : قادة العرب الذين انضموا إلى جيش محمد ﷺ طمعًا فى الغنائم ، وأملاً فى الكسب ماذا سيكون موقفهم لو عادوا من الغنيمة بالإياب ، أو بضعة أبعرة يذبحونها لضيفهم فى غداة واحدة ؟

الخامس : هذه الأكثرية الكبرى فى الجيش والتى تريد نصيبها من الغنائم ، والتى خاضت فتح مكة دون أن تأخذ شيئًا منها .

هذه الأمور جميعها كانت تشغل بال رسول الله ﷺ ، وهو يريد من هذه القوى جميعًا أن تكون لبنات فاعلة فى الصف الإسلامى ، وتنصهر جميعًا لتشكل القاعدة العريضة للأمة المسلمة .

ولننظر إلى عظمة هذا البانى عليه الصلاة والسلام، كيف تعامل مع هذه المعضلات، وأذاب الجليد عنها ، وصهر هذه القوى فى البوتقة الإسلامية الواحدة .

أولاً : مع هوازن :

لقد كانت هزيمة هوازن لا مثيل لها فى تاريخ العرب ، من جراء إصرار قائدها مالك

ابن عوف النضرى على إحضار النساء والأموال والنعم لحضور المعركة ليقاتل عنها المقاتل العربى ولا يفر ، حفاظا على شرفه وعرضه وماله .

وهذا حوار القائدين اللذين يمثلان جيلين فى هوازن :

دريد : مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ، وثغاء الشاء ؟

مالك : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

دريد : ولم ؟

قال مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله وولده ونساءه ، حتى يقاتل عنهم .

دريد : (يصفق بيديه قائلاً) راعى ضأن ، ماله وللحرب ؟ وهل يرد المنهزم شىء ؟ إنها إن كانت لكم لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك ، فضحت فى أهلك ومالك .

وهذا الذى تم ، ورسول الله ﷺ يمهل فى توزيع الغنائم رغم الإلحاح الكبير من الجيش على تقسيمها آملاً أن تتحرك عقلاء هوازن، وتمضى نحو الإسلام لتحفظ أهلها ومالها، ورسول الله ﷺ ينتظر ساعة بعد ساعة مثل هذه الخطوة . ولكنها لم تتم.

وقد بعث رسول الله ﷺ رسالة غير مباشرة لهوازن ، من خلال تعامله مع أخته فى الرضاعة الشيماء رضي الله عنها على أمل أن تكون سفيراً فوق العادة عند هوازن تحثهم على استعطاف رسول الله ﷺ لإعادة الأموال والنساء . فكيف تمت هذه السفارة ؟

(وأمر رسول الله ﷺ بطلب القوم ثم قال لخيله : إن قدرتم على بجاد فلا يفلتن منكم ، وكان قد أحدث حدثًا عظيمًا . . . فكان قد عرف جرمه فهرب ، فأخذته الخيل ، فضموه إلى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فعنَّفوا عليها فى السياق، فجعلت الشيماء بنت الحارث تقول: إنى والله أخت صاحبكم، ولا يصدقونها ، وأخذها طائفة من الأنصار ، وكانوا أشد الناس على هوازن، حتى أتوا بها رسول الله ﷺ فقالت: يا محمد ، إنى أختك من الرضاعة ، قال النبى ﷺ : « وما علامة لك ؟ » فأرته عضة وقالت : عضضتنيها وأنا متوركتك بوادى السّرر ونحن يومئذ برعائهم، أبوك أبى ، وأمك أمى ، قد نازعتك الثدى .

ويا لها من ذكريات تحفر فى أعماق المصطفى ﷺ أخاديد وشجون ، أيام طفولته فى سعد بن بكر التى لم يتجاوز الرابعة من عمره فيها ، والتى يذكر فيها يوم جاء جبريل عليه

الصلاة والسلام وشق صدره . تُرى ، هل انبعثت هذه الذكريات وانتفضت حية من جديد، مع هذه الأنثى التى كانت رفيقة طفولته وأخته من الرضاع . ترى ، هل هى التى كانت ترقصه على يديها وتقول له :

هـذا أخ لـــم تـــلـده أمى   وليس من نسل أبى وعمى

فأنمــه اللهـم فيـمـا تنمى

وفى الإصابة أن الشيماء كانت ترقص النبى ﷺ وهو صغير وتغنى له وتقول :

يـا ربنـا أبـق لنـا محمدا   حتى أراه يـافعًا وأمـــردا

ثـــم أراه سـيدًا مـســوَّدا   واكبت أعاديه معًا والحسدا

وأعطـه عــزًا يـدوم أبــدا

قال : فكان أبو عزة الأزدى إذا أنشد هذا يقول : ما أحسن أجاب الله دعاءها (١) .

إنها تحمل أروع ذكريات الطفولة عن أحب خلق الله لها ، والذى تساق له اليوم ليحكم فيها ، إنها واجمة تعيش أسعد أيامها مع ذلك الطفل الحبيب الذى كان تربًا لها والفرق بينهما قليل فى السن حتى ليشتركا معًا فى رعاية البهم . بل تحمله على ظهرها ، وشاءت إرادة الله عز وجل أن يعضها تلك العضة التى آلمتها حينذاك ، لكنها دخلت التاريخ بها بعد ذلك أختًا لسيد الخلق محمد ﷺ ، والرسول العظيم أرحم من فى الأرض بأهل الأرض. وأعظم الناس فى الوجود عاطفة وحنانًا ووفاء يرى أمام عينيه أخته الشيماء التى طالما لعب معها فى مرابع بنى سعد ، وحدثته فى أحلامه هى هى الآن أمامه، فما يتمالك سيد الخلق ، وأرحم الخلق أن تطفو الدمعة من عينه شوقًا وحبًا ، وأن يقفز لأخته التى مر خمسون عامًا أو تزيد لم يرها فيها ، فيبسط لها رداءه ، ويعيشان معًا لحظة من لحظات التواجد الإنسانى أوقفت البشرية حركتها على هذه اللحظات .

(فوثب قائمًا فبسط رداءه ثم قال : « اجلسى عليه » ، ورحب بها ، ودمعت عيناه، وسألها عن أمه وأبيه من الرضاعة فأخبرته بموتهما من الزمان) .

لكن التاريخ لم يحدثنا عن الدموع الغزار التى بللت وجنتى الشيماء ﵂ وهى الآن فى مرابع العز عند أخيها ، قال لها ـ ونور النبوة يتلألأ فى وجهه ويحمل حب الوجود وحنانه وشوقه :

« إن أحببت فأقيمى عندنا محببة مكرمة، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك وصلتك

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٤/٨/ ١٢٣ .

ورجعت إلى قومكِ » . قالت : أرجع إلى قومى ، وأسلمت . فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية أحدهم يقال له : مكحول ، فزوجوه الجارية .

قال عبد الصمد : أخبرنى أبى أنه أدرك نسلها فى بنى سعد ، ورجعت الشيماء إلى منزلها ، وكلمتها النسوة فى بجاد ، فرجعت إليه فكلمته أن يهبه لها ويعفو عنه . ففعل .

وتلك شفاعة لم تحظ بها إلا ابنة عمه أم هانئ التى أجارت زعيمين من زعماء الشرك فى بيتها ، وفى العودة الثانية عاد رسول الله ﷺ ليسألها عن كل شيء فى زيارتها الثانية بعد أن قبل شفاعتها (وسألها : من بقى منهم ؟ فأخبرته بأختها وأخيها وبعمها أبى برقان، وأخبرته بقوم سألها عنهم رسول الله ﷺ) . وتأجج الحب فى قلب الحبيب المصطفى صلوات الله عليه ـ الرحمة المهداة للبشرية ـ فلم لا تنال رحمة من نازعته الثدى (ثم قال لها رسول الله ﷺ : « ارجعى إلى الجعرانة تكونين مع قومك ، فإنى أمضى إلى الطائف » ، فرجعت إلى الجعرانة ، وأتاها رسول الله ﷺ بالجعرانة فأعطاها نعمًا وشاءً لها ولمن بقى من أهل بيتها) . وإذا كان رسول الله ﷺ قد هتف بأم جده هاشم عاتكة ليدفع بنى سُليم للجهاد معه ، فكيف بأمه حليمة السعدية التى رضع من ثديها حتى ارتوى سنتين وتزيد ، وراح يفخر عليه الصلاة والسلام بتلك الرضاعة « وكيف لا أكون أفصح العرب ، وأنا من قريش ، واسترضعت فى سعد بن بكر » . لكن الرحمة المهداة لا تريد أن يعم هذا الفضل فقط أخته الشيماء وعمه وأقاربها ، إن هوازن كلها آباؤه وعماته وخالاته ، وهو يريد ﷺ أن يحرك هذا النسب من الرضاع ؛ لينقذ هوازن كلها من النار . وكانت ـ كما قلنا ـ الرسالة الأولى مع أخته الشيماء ، ورسول الله ﷺ ينتظر وصول الوفد والجيش يعج مطالبًا بقسمة الغنائم .

(وجعلت الأعراب فى طريق يسألونه ، وكثَّروا عليه حتى اضطروه إلى سَمُرة ، فخطفت رداءه فنزعته عن مثل شقة القمر) .

وكما أراد الله تعالى أن يبرئ نبيه موسى مما قال بنو إسرائيل فيه فخطفت ردائه ، أراد الله تعالى أن يرى هؤلاء الأعراب هذا الجمال الآسر الذى يزرى بجمال القمر حين خطفت الرداء ، وذُهِل الناس بجمال جسده الشريف ، وراح سيد الخلق يعالج هذه النفوس الجاسية الشديدة التى تحمل لهب الصحراء وغلظة البادية ، راح عليه الصلاة والسلام يؤكد لهؤلاء الأعراب حقهم فى المال قائلاً :

« أعطونى ردائى، أعطونى ردائى، لو كان عدد هذه العضاه نعمًا لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذابًا ولا جبانًا » ولكن الأرض كلها تأذت لهذا التجاوز فى الأدب مع نبيها ، الأرض بإنسها وجنها وبهمها وجمادها فهو نبى هذا الوجود كله ، وملائكة

السماء آذاها أن تخطف رداء رسول الله ﷺ فى هذا الجو المشحون بحب الغنائم ، وإن كان السرور قد عم السماء والأرض بالقمر الذى سطع بعد سقوط الرداء .

وسنعود ثانية إلى هؤلاء الأعراب الذين يريد رسول الله ﷺ أن يربيهم ليعدهم سادة للبشرية وقادة لها ، ويرفعهم من وهدة الغنيمة إلى بحبوحة الجنة .

نعود ثانية إلى وفد هوازن :

قالوا : (وانتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ، والسبى والغنائم فيها محبوسة ، وقد اتخذ السبى حظائر يستظلون بها من الشمس ، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى تلك الحظائر سأل عنها فقالوا : يا رسول الله ، هذا سبى هوازن استظلوا من الشمس ، وكان السبى ستة آلاف . . . فلما قدم رسول الله ﷺ أمر بُسر بن سفيان الخزاعى يقدم مكة فيشترى للسبى ثيابًا يكسوها ـ ثياب المعقّد ـ فلا يخرج المرء منهم إلا كاسيًا ، فاشترى بُسر كسوة فكسا السبى كلهم) .

وكانت الشيماء ولا شك قد حضت قومها أن يمضوا إلى محمد ﷺ يستشفعوه فى نسائهم وأموالهم ، فكان عمه أبو برقان أول الوافدين فى مجموعة من هوازن كما ذكر الواقدى (وكان فى الوفد عم النبى ﷺ من الرضاعة ، قال يومئذ : يا رسول الله ، إنما فى هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك فى حجورنا ، وأرضعناك من ثدينا ، ولقد رأيتك مرضَعًا ، فما رأيت مرضَعًا خيرًا منك ، ورأيتك فطيمًا فما رأيت فطيمًا خيرًا منك ، ثم رأيتك شابًا فما رأيت شابًا خيرًا منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك ، فامنن علينا منَّ الله عليك) .

ولم يكن رضاع محمد ﷺ فى بنى سعد بن بكر حدثًا عابرًا ، ولا نكرة غائرة ، إنما كان حدثًا ماجت به مضارب بنى سعد كلها ، وارتجت بأخباره العشيرة كلها كما تقول حليمة السعدية : (ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح علىَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لبنًا ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعًا لبنًا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا ، قالت : فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شىء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُنىَّ عندى حتى يغلظ

فإنى أخشى عليه وباء مكة . قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا) [١] . وبقيت هذه الأحاديث تتناقلها الأجيال بعد الأجيال .

لكن ماذا يفعل رسول الله ﷺ فى شفاعة عمه والوفد الذى معه بعد أن فات الأوان ووزعت الغنائم والسبايا ؟! قال عليه الصلاة والسلام :

« قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، وقد قُسِّم السبى ، وجرت فيهم السهمان » .

لكن هذا الوفد الخاص قد دفع إلى أن تلتقى رجالات القبيلة جميعًا فى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وقد أشرق النور فى قلب هؤلاء القادة ، وبعثوا الوفد الذى يمثل القبيلة كاملة وعلى رأسهم أبو صرد .

(وقدم عليه أربعة عشر رجلاً من هوازن مسلمين ، وجاؤوا بإسلام من وراءهم من قومهم ، فكان رأس القوم والمتكلم فيهم أبو صرد زهير بن صرد فقال : يا رسول الله إنا أهلك وعشيرتك ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبى شمر وللنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفهما وعائدتهما ، وأنت خير المكفولين) .

وعجائز بنى سعد بن بكر جميعًا يعرفن من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فطالما تحدثن بحديثه ، وهن جميعًا خالات وعمات له من الرضاعة ، والبعيدات منهن بنات عماته وبنات خالاته .

إنها الوساطة نفسها التى ذكرتها قريش يوم كان مصيرها كلها بيد رسول الله ﷺ وقد حاربوه وأخرجوه وبيتوا قتله ، ونسوا قرابته وفضله ، أما وقد جاء فاتحًا قد ارتهن مصيرهم بيده فقال لهم :

« ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : « إنما أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء »، وكذلك هوازن يوم صممت على حربه ، وأرادت إنهاء الإسلام ووأده بهذه الحرب لم ترع زمام هذه القرابة ، وهذه الرضاعة ، أما وقد هزمت شر هزيمة ، وصار نساؤها سبايا ، وأموالها غنائم راحت تستدر عطف هذا الرضيع الهاشمى فيها ، وسلمت الحديث لأبلغ القوم زهير بن صرد ، الذى لم يبق درة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٤ .

لبن إلا أنطقها ، ولا حلمة ثدى إلا حركها ، ولا ضمة صدر إلا صورها ، وبلغت قمة ذلك التصوير بقوله :

امنن علينا رسول الله فى كرم   فإنـك المـرء نـرجـوه وننتظر

فهذه هوازن المكلومة المهزومة المسبية بيد سيد العرب محمد بن عبد الله :

امـنن على بيضة قد عاقها قـدر   مشتت شـملها فى دهـرها غير

أبقت لنا الدهر هتافًا على حزنٍ   على قلوبـهـم الغمـاء والغَـمَرُ

لقد راح ينعق اليوم بخرائبها ، ولن تنتفض حبة ما لم تتداركها يد الرحمة النبوية :

إن لـم تـداركها نعمـاءَ تنشـرها   يا أرجح الناس حلمًا حين يُختبرُ

يا خير طفـل ومولود ومنتجب   فى العالمين إذا مـا فُضّـل البشـر

وأنت ابن هوازن ، فمن أولى بالمن عليها من ابنها الحبيب :

امـنن على نسـوة قـد كـنت ترضعهـا   إذ فـوك مملـوءة من مخضهـا الـدرر

إذ أنـت طفـل صـغير كـنت ترضعها   وإذ يـزينـك مـا تأتـى ومـا تـذر

فألبس العفـو مـن قـد كـنت ترضعه   مـن أمـهاتـك إن العفـو مـشتهـر

إن زهير بن صرد هو الخليفة لدريد بن الصمة ، فكلاهما جشميان ، وإن كان دريد بقى يقاتل لآخر لحظة حتى قتل ، فإن زهير اليوم يريد أن ينقذ قومه من عار السبى الذى سيمضى مجللاً لهوازن بين العرب إلى آخر الدهر :

لا تجعلنـا كمـن شـالت نعامتـه   واسـتبق منـا فإنا معشـر زهـر

إنا لنشـكر للنعـمى إذا كُفـرت   وعنـدنا بعـد هـذا الـيوم مدَّخـر

ويضع زهير آخر إبداعه الشعرى فى محاولة لاستدرار عفو رسول الله ﷺ بعد أن استدر اللبن الذى رضعه كله من هوازن :

يا خير من مرحت كمت الجياد به   عند الهياج إذا مـا استوقد الشـرر

إنـا نـؤمـل عفـوًا مـنك تُلبسُـه   هـادى الـبرية إن تـعفـو وتنتصـر

فاعـفُ عفـا الله عما أنت راهبـه   يـوم القيامـة إذ يهدى لك الظفـر

لقد ساق الحافظ الصالحى هذا الشعر بسند متصل إليه حيث ابتدأ السند بقوله : (أخبرنا الأئمة المسندون ، أبو فارس عبد العزيز الحافظ عمر بن فهد الهاشمى العلوى

بقراءتى عليه بالمسجد الحرام . . .) .

وختم السند بقوله : (. . . قال : حدثنا أبو عمر ، وزياد بن طارق ، وكانت قد أتت عليه مائة وعشرون سنة - قال : سمعت أبا جرول زهير بن صُرَد الجشمى ﷺ يقول : لما أسَرَنا رسول الله ﷺ يوم حنين ويوم هوازن، وذهب يفرّق السبى والشاء أتيته وأنشأت أقول هذا الشعر :

امنن علينا رسول الله فى كرم . . . .

فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر قال : « ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم» وقالت قريش: (ما كان لنا فهو لله ولرسوله). (هذا حديث جيد الإسناد عالٍ جدًا ، رواه الضياء المقدسى فى صحيحه ، ورجح الحافظ ابن حجر أنه حديث حسن ، وبسط الكلام عليه فى لسان الميزان) (١) .

وهذا أمر هوازن كله بين يدى رسول الله ﷺ ، لكن بعد أن قسمت السهمان ، ووزعت السبايا ووزعت الأموال ، فأى قوة تسترد هذه السبايا من أصحابها إلا فتنة جديدة قد تقضى بوحدة الجيش كله ، لقد كان بالإمكان معالجة هذا الأمر قبل توزيع السهمان وإعطائها لأصحابها حقًا شرعيًا أعطاه الله تعالى لهم ورسوله .

(ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل أو أربعون شاة،فإن كان فارسًا أخذ اثنتى عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرسٍ واحد لم يسهم له).

وقول رسول الله ﷺ :

« قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، وقد قُسّم السبى وجرت فيهم السهمان » .

هل من خطة تعالج هذا الجيش فى استرداد السبى منه أو المال ، وجبر الخاطر الكسير لهوازن .

إن جيش هوازن قد كان قرابة ثلاثة أضعاف الجيش الإسلامى ، وهوازن واحدة من كبريات القبائل العربية ، وهى إحدى أثافى العرب كما يقول ابن حزم :

(والأثافى : سليم ، هوازن ، غطفان ، أعصر ، محارب) (٢) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٥٦٩ - ٥٧١ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٤٨٦، وعند ابن الكلبى أن جماجم العرب هى ، كنانة وتميم وغطفان وهوازن وبكر وعبد القيس والأزد ومذجح وطيئ وقضاعة .

فهو ﷺ يريد لهذا الجرح أن يندمل ، ولهذه القلوب أن تنفتح للإسلام ، وكيف تنفتح وأموالها مسلوبة ، ونساؤها مسبية ؟

وكانت الخطة النبوية العظيمة فى فن تربية القاعدة العريضة .

قال رسول الله ﷺ لوفد هوازن كما فى البخارى :

(جاء وفد هوازن مسلمين ، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله ﷺ : « معى من ترون ، وأحب الحديث لى أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين ، إما السبى وإما المال ، وقد كنت استأنيت بكم . . . » وكان رسول الله ﷺ أنظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف . فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد لهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : إنا نختار سبينا) .

وتحدثنا رواية ابن إسحاق عن كيفية تعليم رسول الله ﷺ لوفد هوازن كيف يستجيش عواطف المسلمين لإعادة سباياهم لهم :

«إذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

ومضى الوفد ينفذ الخطة النبوية كاملة : (فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : « وأما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ») .

فرسول الله ﷺ إمام القادة وسيد العباقرة كان بإمكانه أن يصدر أمرًا بإعادة السبايا لهوازن ، ويمكن تطبيق الأمر خوفًا ، لكنه فى الوقت نفسه يخسر قلوب جيشه ، فلا شىء أشد على النفس البشرية من سلبها حقها بعد أن حازته ، ولا يريد الرسول ﷺ أن يربح هوازن مقابل خسارة غرر أصحابه وعيون جيشه ، فكانت القدوة العملية العليا أمام هذا الجيش كله أن رأى الحبيب المصطفى ﷺ يتنازل عن حقه من السبى باسمه واسم قبيلته بنى عبد المطلب ، ورأى الجيش رغبة قائده فى ذلك ، والقاعدة الصلبة من المهاجرين والأنصار، وهو الجيل القيادى ، والقدوة فى الجيش هو المسؤول أن يتابع تنفيذ رغبة رسول الله ﷺ فى ذلك .

(فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ). هذا الجيل الذى اعتاد أن يعطى ولا يأخذ، الذى يكثر عند الفزع ويقل عند الطمع، الذى رباه رسول الله ﷺ خلال عشرين عامًا لمثل هذه الأزمات ، فهو الذى استدعاه يوم فر الجيش ليكون كتيبة الفداء بين يديه ـ جيل الحديبية ـ أين أصحاب

الشجرة ، أين أصحاب سورة البقرة . فتنادوا يا للمهاجرين ، ويا للأنصار ، وتسابقوا على الموت راضين ، وها هم هؤلاء الآن يدعون للتخلى عن السبايا التى فى أيديهم بالإشارة اللماحة ، حتى بدون إشارة ، فيكفيهم أن يعلموا رغبة رسول الله ﷺ بذلك حتى يتسابقوا لتنفيذها فقالوا : ما كان لنا فهو لرسول الله . . .

لكن الزعماء الجدد الذين انضموا إلى الإسلام ولهم حسابات أخرى غير حسابات الدعوة ، لم يقتدوا بالمهاجرين والأنصار :

فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا .

فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، يقول عباس بن مرداس لبنى سليم : وهنتمونى . فلم يندمج بعد هؤلاء الزعماء فى الصف الإسلامى ، ولا يزال انتماؤهم القبلى ، وعصبيتهم القبلية تغلب عليهم ، وتبدو عظمة النبوة الخالدة بحيث لا يمكن أن تؤخذ القضية بالأكثرية ، بينما يضعف الآخرون عن المخالفة ، فيضطرون لمسايرة التيار العام خوفًا وحياءً ، فتسعفنا رواية البخارى بعظمة هذه التربية الجماعية التى لا تنسى فردًا واحدًا فى الجيش ، أو تبخسه حقه .

(فقام رسول الله ﷺ فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يُفىء الله علينا فليفعل ») . فقد عرض رسول الله ﷺ على جيشه الإعادة بدون عوض لمن طابت نفسه بذلك ، تلبية للرغبة النبوية ، والإعادة بعوض لمن وجد صعوبة فى التخلى عنها دون بديل .

فهى المعاملة النبوية التى لا تنسى فى غمرة التربية الجماعية حق كل فرد مهما كان شأن هذا الفرد .

(فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ :

«إنا لا ندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ») .

وإنها للذروة فى العدالة والإكرام للذات البشرية ، فليس المسلمون أرقامًا يسام باسمهم كل حق ، وينتزع منهم كل حق ، إنما لكل فرد فى هذه الأمة حقه وكيانه ورأيه، ولو كان هذا الرأى مخالفًا لرأى سيد خلق الله ، لرأى سيد ولد آدم ، فحقه فى المخالفة

لا يسقطه رئيس قبيلته ، ولا سيد عشيرته ، أو السلطان الحاكم .

إنما هو الذى يسقطه ؛ ولهذا رفض رسول الله ﷺ هذه الموافقة الجماعية وقال : «إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن » . وبما أن الجيش مقسم على كتائب وسرايا ، فبالإمكان التعرف على رغبة كل جندى فى الجيش من خلال سريته أو مجموعته ، وبإعلام رأيه لعريفه الذى يقوده : « فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم » .

وفى الأعراف البشرية اليوم أن الجيوش لا تخضع لانتخابات ، إنما تقوم على التنفيذ الكامل للأوامر الصادرة ولا حق للاعتراض على أوامر القيادة ، وإن كان ولابد من هذا الحق فالمبدأ : (نفذ ثم اعتراض) .

وقد سنّ رسول الله ﷺ لهذه الأمة سنة الاستفتاء الفردى العام بحيث يرفع كل جندى فى الجيش رأيه سواء وافق رغبة القيادة أم خالفها عن طريق العرفاء ، وبحفظ حق كل معترض فى أن يكون له العوض من أول فىء يفيئه الله تعالى على المسلمين ، فمتى يدرك العاملون للإسلام اليوم، بل قادة الحركات الإسلامية قيمة الفرد وكيانه ورأيه وحقه، ولا يملك سلطان فى الأرض أن يسلبه هذا الحق إلا عن رضاء وطيب نفس ، وينتهى الجدال حول الشورى وإلزاميتها . ونحن نرى هذا التطبيق العالمى الخالد لها على أوسع نطاق حتى النطاق الشخصى .

(فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوني وأذنوا) .

والوحيد الذى بقى مصرًا على عدم القبول بالرد الطوعى أو الرد مع العوض ، فبما روى لنا فى كتب السيرة هو عيينة بن حصن ، والذى رأينا كيف رفض ابتداء فداء العجوز الذى معه بمائة من الإبل ، ثم عض أصابعه ندمًا حتى لم يصل إلى بعير واحد ، بل أرغمه ولدها على أخذ قيمة الثوب الذى تستحقه عندما كسا رسول الله ﷺ السبى من ثياب مكة ، ففى رواية أبى نعيم عن عطية السعدى رضي الله عنه أنه كان ممن كلم رسول الله ﷺ فى سبى هوازن وكلم رسول الله ﷺ أصحابه فردوا عليه سبيهم إلا رجلاً واحدًا فقال رسول الله ﷺ : « اللهم أخِس سهمه » فكان يمر بالجارية فيدع ذلك حتى مر بعجوز. فقال : آخذ هذه فإنها أم حى فيفدونها عليه ، فكبَّر عطية وقال : خذها والله ما فوها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا زوجها بواجد ، عجوز يا رسول الله ما لها أحد . فلما رأى أنه لا يعرض لها أحد تركها .

أما فى رواية ابن إسحاق : (قال عيينة : خذها ، لا بارك الله لك فيها ، فقال الفتى : إن رسول الله ﷺ قد كسا السبى فأخطأها من بينهم بالكسوة ، فهل أنت كاسيها

ثوبًا ؟ فقال : لا والله ، مالها ذلك عندى . قال : لا ، وتفعل فما فارقه حتى أخذ منه سمل ثوب) .

وهكذا عاد وفد هوازن موقر الثمار ، فقد ارتد إليه عرضه ونساؤه حرائر كريمات ، يشهدن عظمة المنّ النبوى عليهم بالفداء ، وتغدوا هوازن بعد هذا الاسترداد الذى لم يشهد التاريخ مثيلاً له فى فن البناء التربوى للنفوس .

عادت هوازن جزءًا من هذا الصف الإسلامى ، ورفدًا عظيمًا ضخمًا ينضم إلى هذه القاعدة العريضة لهذا الدين ، بعد أن كان من الممكن أن تبقى حاملة أحقادها وثاراتها ضد المسلمين وضد رسول الله ﷺ ، وها هنا يفترق النبى ـ الرحمة المهداة للبشرية ، إمام الدعاة ـ عن القائد العسكرى الذى يهمه أن يسجل نصرًا بذبح الآخرين .

ثانيًا : من هوازن إلى ثقيف :

وكما مضى الجيش الإسلامى سعيدًا بنصره على هوازن ، مضى وفى قلبه غصة أن يرتد حسيرًا عن حصون الطائف دون فتح ، أما الأمر مع سيد القادة وإمام المربين فيختلف عما هو عليه عند جيشه ، إنه كما أهمه عليه الصلاة والسلام أمر هوازن أن يرقأ جرحها ، وينفتح قلبها للإسلام ، فكذلك كان يهمه أمر ثقيف ، ثقيف الذى آذته أبلغ إيذاء لقيه فى حياته ، عندما مضى داعيًا إليها ، وصدت أمامه حصونها ، وأفقدته اثنا عشر بطلاً من جيشه عندما جاء إليها فاتحًا .

فعندما سألت عائشة رضوان الله عليها عن أشد ما لاقاه رسول الله ﷺ فى حياته .

كما روى عروة بن الزبير : (أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : « لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ـ وهو المسمى بقرن المنازل ـ فرفعت رأسى فإذا سحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى مَلك الجبال ، فسلم علىّ ثم قال : يا محمد ، ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ أى لفعلت ، والأخشبان : هما جبلا مكة أبو قبيس والذى يقابله قعيقعان ـ قال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل لا يشرك به شيئًا » (١) .

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٤١٠ ، ح (١١١/ ١٧٩٥) .

وهو هو الموقف نفسه يوم جاء المسلمون يقولون له: يا رسول الله، ادع على ثقيف فقد أحرقتنا نيرانهم فقال: « اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم » فلا تزال هداية ثقيف هى شغله الشاغل، لكن المعتد بقوته لا يمكن أن يصيخ للحق، أو يستجيب له ، وهذا هو وضع ثقيف فقد استعلت بالشيطان،وكان آخر جواب لهم عندما قرر المسلمون مغادرة الحصون: (ألا إن الحى مقيم) فى إعلان للتحدى السافر للإسلام والمسلمين ، أدرك رسول الله ﷺ أن القوم لا يمكن أن تنكسر شوكتهم إلا من خلال حرب عصابات تشعرهم بضعفهم وعجزهم، وفى مقارنة بسيطة بين ثقيف والحديبية تتضح هذه الصورة، فقد مضى رسول الله ﷺ عن مكة دون أن يفتحها ، وها هو يمضى عن ثقيف دون أن يفتحها ، واستعلت يومها قريش بالباطل ، وفرضت حظرها على الإسلام والمسلمين ، وحاربت المستضعفين فيها وأذاقتهم أفانين العذاب وألوانه ، حتى قاد أبو بصير الثقفى حرب العصابات ضد قريش (الذى خرج حتى أتى سيف البحر وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبى بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعيرًا خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل ، فمن أتاه فهو آمن ، فأرسل النبى ﷺ إليهم فقدموا عليه المدينة) (١) .

وإذن لا بد لكى يقود حرب العصابات أن يكون رجلاً منهم ، واختار رسول الله ﷺ لذلك قائد هوازن: مالك بن عوف النصرى، وهو الذى تمنع والتجأ إلى ثقيف بعد المعركة، وعندما جاء وفد هوازن مسلمين إلى رسول الله ﷺ سألهم : « ما فعل مالك ابن عوف ؟ » ، قالوا : هو بالطائف مع ثقيف . فقال رسول الله ﷺ : « أخبروا مالكًا أنه إن أتانى مسلمًا رددت إليه ماله وأهله، وأعطيته مائة من الإبل » ، فأتى مالك بذلك، فخرج إليه من الطائف ، وقد كان مالك خاف ثقيفًا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه .

وإنهاء أمر مالك بن عوف أمر مهم ، فالقائد قد يعود ثانية فيجمع فلول جيشه المهزوم ويقود حربًا جديدة ضد رسول الله ﷺ ، ومن أجل هذا كان عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال خبرته بمعادن الرجال يعد مالكًا لهذه المسؤولية ، فقد حافظ على ماله وأهله ، ولم يجر عليهم السهمان والقسمة ، ووصل العرض النبوى المغرى لمالك بن عوف ، فماذا يبقى له وهو فى ثقيف أكثر من لاجئ سياسى عندها ، وإنما قوته بقومه وعشيرته ، والقيادات فى ثقيف كثيرة وكبيرة ، فلن تدع له دورًا للقيادة والمسؤولية ، وها هو لا يشك لحظة فى صدق محمد ، ويعرف أنه إذا قال فعل ، وقد دخل قومه فى

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص٣٩٠ ، وانظر : السيرة لابن هشام ٢/ ٣٢٤ .

الإسلام ، إن مستقبله غداً الآن رهينًا ومرتبطًا بهذا الدين ، ماله وأهله ومائة بعير علاوة على ذلك ، وما الذى بينه وبين الإسلام ، وقد جرَّب وغامر ودمَّر قومه ، ولولا فضل محمد ونبله لبقى نساء هوازن سبايا أبد الدهر ، ولحق العار به وبقومه وصار سبة بين العرب .

(فأمر براحلته فهيئت له ، وأمر بفرس له فأُتِى به إلى الطائف ، فخرج ليلاً فجلس على فرسه ، فركَّضَه حتى أتى راحلته حيث أمر أن تحبس ، فركبها ، فلحق برسول الله ﷺ ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة ، فردَّ عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

مـا إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فى النـاس كلهم بمثـل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا احتذى ... ومتى تشـأ يخبرك عمـا فى غد
وإذا الكتيبـة عـرَّدت أنيـابها ... بالسـمهرى وضـرب كـل مـهند
فـكأنه لـيـث عـلـى أشـبالـه ... وسـط الهبـاءة خـادر فى مرصد

وصدق مالك ، فمن خلال تجربته ومعاناته ، أصبح محمد ملء سمعه وبصره ، وملء وجوده وكيانه ، فهو لم يسمع ولم ير مثل محمد ، ومتى أعطى رجل خصمه فى تاريخ العرب كلها أهله وماله ومائة بعير فوق هذا كله . هذا عن الكرم والجود والعطاء ، وأما عن الشجاعة والقتال فهو الذى رأى ما لم يره أحد ، وهو الذى انهزم بثلاثين ألفًا أمام اثنى عشر ألفًا ، بثبات محمد ﷺ الذى قلب الميزان ، وغير الساحة كلها من هزيمة ماحقة إلى نصر ساحق ، فهو يتحدث ولا يقدر أن يصف هذه البطولة ، فاللسان أعجز من وصفها ، وأصبح هو رأس هوازن المسلمة ، وثقيف الذى كان قبل أيام يتمنع معها ، كافرة مشركة ، وهو الآن أمير الساحة الإسلامية كلها ، وثقيف جزيرة شرك فى بحر من الإسلام .

(فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وتلك القبائل ثمالة وسَلِمة وفهم ، فكان يقاتل بهم ثقيفًا ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيّق عليهم ، فقال أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى :

هـابت الأعـداء جـانبنـا ... ثـم تـغزونـا بنـو سـلمه
وأتـانا مـالك بـهـم ... ناقضـًا للعهـد والحـرمه
وأتـونا فى منـازلنـا ... ولقـد كـنا أولـى نِقمـه

هذا الهجوم المتكرر على سرح ثقيف ـ وكما ذكرنا أنه أغار على سرح لهم فيه ألف

شاة فاستاقه فى غداة واحدة ـ جعل ثقيف فى حال لا تحسد عليها أبدا ، مما دعا أكبر قادتها إلى عقد اجتماع طارئ لمواجهة هذه الحرب المفروضة عليهم والتى شعارها : (اضرب واهرب) .

(ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا) .

لقد قالت ثقيف لرسول الله ﷺ أنها قد أعدت مؤونة سنة تبقى فى حصونها ، وبعد أن تنفد مؤونة العام ، تخرج لتقاتله عن بكرة أبيها ، أما الآن وبعد أقل من عشرة أشهر. ومن جراء حرب العصابات التى شنها قائد الفيالق الإسلامية مالك بن عوف . راحت تتدبر أمرها ، وتحضر معها هذا المؤتمر .

(حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أن عمرو بن أمية أخا بنى علاج كان مهاجرًا لعبد ياليل بن عمرو الذى بينهما سيئ ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب ، فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه أن عمرو بن أمية يقول لك : اخرج إلى . فقال عبد يا ليل للرسول : ويلك أعمرو أرسلك إلى ؟ قال : نعم وها هو ذا واقف فى دارك ، فقال : إن هذا الشيء ما كنت أظنه ، لعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك فخرج إليه ، فلما رآه رحب به فقال له عمرو :

إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها وليس لكم بحربهم طاقة . فانظروا فى أمركم ، فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها وقال بعضهم لبعض :

ألا ترون لا يأمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع) .

وعندما وصلوا إلى هذه الحالة من البلبلة والتمزق ، وكسرت شوكة القوة التى تعمى القلوب والأبصار عن الحق ، عندئذ أمكن أن يفكروا فى الإسلام ورسول الإسلام .

(وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو ، وعرضوا ذلك عليه فأبى أن يفعل، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة، فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة . . . فلما دنوا من المدينة ألفوا بها المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته . . . فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيين ، وضبر يشتد يبشر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه . . .) .

« اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم » .

فقد تحقق دعاء الرسول ﷺ بعد بضعة أشهر من حصار الطائف ، ولن نستبق الأحداث . فسندرس الوفد فى حينه ، لكننا أشرنا إلى هذه الثمرة العظيمة التى جناها المسلمون من فك الحصار ، وإشعال حرب العصابات ضدهم ، ووقاية الجيش الإسلامى من مجزرة ضخمة ثمن هذا الفتح مع حفظ أرواح الثقفيين من مجزرة أضخم ، وأحقاد أضخم وأضخم ، ولم يتأخر الأمر حتى يخرج من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله ، إنما جاء رأس الشرك عبد ياليل بنفسه ليعلن مع قومه دخولهم الإسلام ، وهو الذى قال عقب حصار الطائف ، أو ابنه كنانة :

من كان يبغينا يريد قتالنا ... فإنا بدار معلم لا نريمها
وجدنا بها الآباء من قبل ما ترى ... وكانت لنا أطواؤها وكرومها
وقد جربتنا قبل عمرو بن عامرٍ ... فأخبرها ذو رأيها وحليمها
وقد علمت إذ قالت الحق أننا ... إذا ما أبت صعر الخدود نقيمها
نقومها حتى يلين شربها ... ويعرف للحق المبين ظلومها

وها هى صعر الخدود عند ثقيف تقوم ويلين شربها ، ويعرف للحق المبين ظلومها ، فتنضم إلى قافلة الإيمان العظيم .

ثالثًا : من ثقيف إلى قريش :

قريش ، وما أدراك ما قريش ، هى اليوم تشكل سدس الجيش الإسلامى الذى كان يحاصر ثقيفًا ويحارب هوازن بعد أن نزل أكثر من نصف القرآن فى الرد على طغاتها وعتاتها ورؤوس الكفر فيها ، وبعد أن كانت معقل الكفر دار الحرب ، هى اليوم جند من جند محمد ﷺ ، ونحن حين نقرن الألفين اللذين انضما إلى الجيش الإسلامى بعدد الجيش كله . نلاحظ أنه رقم لا يؤبه له ، فكما قلنا : يعادل سدس الجيش ، لكن إذا قارنا هذين الألفين بنسبة أعداد كل قبيلة ومشاركتها فى الجيش الإسلامى ، لوجدنا قريش تقفز حتى تأخذ المرتبة الثانية بعد الأنصار ، فلم يذكر عن قبيلة أنها أرسلت جنودًا لها فى جيش محمد ﷺ تزيد عن الألف ، أما قريش ـ بعد فتح مكة ـ فقد كان من انضم منها إلى جيش الإسلام ضعف ما قدمته كل قبيلة على حده .

ولم تقدم جنودًا فقط ، فقد قدمت كفاءات وقيادات وزعامات مشركة ومسلمة ، سارت مع الجيش الإسلامى نحو حنين ، لكن قريش مكلومة ، وجرحها غائر ينزف دمًا من حربها المستعرة مع رسول الله ﷺ ، وقياداتها الآن فى الظل ، تعانى من الماضى الحزين الذى سجلته فى حرب الإسلام ، هذه القيادات . هل انتهت من الساحة ؟

أولا تحتاج إلى لفتة حانية من يد النبوة، ونظرة رحيمة من الرحمة المهداة ، بلى، ورسول الله ﷺ ما ينسى هذه القيادات الجريحة ، ولا يغيب عن ذهنه النكبة الكبرى التى حلت بمكة ، فقد أفنت مالها كله فى الصد عن سبيل الله ، وحرب هذا الدين ، فمالها الآن فى ظل هذا الدين ؟

كانت هذه المعانى تجيش كلها فى صدر سيد البشرية محمد ﷺ ، أو ليس أولى الناس ببره أهله وعشيرته الذين أعلنوا أخيرًا استسلامهم لهذا الدين ، ولا يريد رسول الله ﷺ أن تكون ذكريات هذا الدين مع قيادات قريش ـ ذكريات النكبة والهزيمة والمآسى والجراح الراعفة ـ إنما يريد أن يرتبط هذا الدين بالبلسم الشافى، والدواء الناجع، والخاطر المجبور ، والعزة القعساء ، ومن أجل هذا وجه رسول الله ﷺ الجزء الأكبر من خمسه لذوى القربى من أهله الذين يريد لهم العزة بعز الإسلام ، والغنى بدخول الإسلام ، والقيادة والقوة فى ظل الإسلام .

ومن أجل هذا عندما وزع رسول الله ﷺ العطايا الكبرى للمؤلفة قلوبهم ، كان نصيب قيادات قريش تنوف عن النصف ، وكان أكثر من نال من هذه القيادات الخصوم الكبار للإسلام من بنى مخزوم ومن بنى أمية الذين وضعوا حياتهم وأموالهم لحرب هذا الدين ، فانضمامهم إليه يحمل أكبر قدر من الخسارة المادية والمعنوية ، فأحب رسول الله ﷺ أن يتعامل مع هذه القلوب فيحييها بهذه العطايا الضخمة الجزيلة ، وينتعش عودها الذواء ، وتتعامل مع هذا الدين أنه دينها ، وهو الذى قاد لها الكرامة والعزة والثراء ، ولم يكن وبالاً ولا نكالاً عليها .

إن هم القائد الحربى أن يحطم نفوس خصومه ، ويقود إليها أكبر قدر من الذل والصغار والإهانة ، ويرقص على جماجم أعدائه ، أما هم رسول البشرية كلها أن يأخذ قلوب هؤلاء الخصوم فيذيب ما بها من حقد ، ويمسح ما نزل بها من ذل ، ويملأ هذه القلوب حبًا لهذا النور ، وتفاعلاً معه ، واستماتة فى سبيله ، وهذا ما حققه رسول الله ﷺ بهذه العطايا التى كانت بلسمًا لجراح هذه القلوب ، ولم يدع رسول الله ﷺ بيتًا من بيوت العز فى قريش ، إلا أعطاه هذه الجرعة العظيمة التى غسلت قلبه وطهرت روحه ، فبيوت قريش العشرة نالها العطاء النبوى الكريم .

١ ـ بنو مخزوم : وعلى رأسهم الحارث بن هشام أخو أبى جهل ، وعكرمة بن أبى جهل ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة ، وصيفى بن عائذ ، وعثمان بن وهب، وهشام بن الوليد ، والسائب بن أبى السائب ، وسفيان بن عبد الأسد .

٢ ـ بنو أمية : خالد بن أسيد، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية ويزيد ابنا أبى سفيان.

٣ ـ بنو سهم : الجد بن قيس السهمى ، وخالد بن قيس .

٤ ـ بنو أسد : حكيم بن حزام .

٥ ـ بنو عامر بن لؤى : حويطب بن عبد العزى ، وسهيل بن عمرو ، وهشام بن عمرو .

٦ ـ بنو زهرة : الأخنس بن شريق : ومخرمة بن نوفل .

٧ ـ بنو عدى : مطيع بن الأسود ، وأبو حذيفة وابنه أبو الجهم بن غانم .

٨ ـ بنو جمح : عمير بن وهب وصفوان بن أمية .

٩ ـ بنو عبد الدار : شيبة بن عثمان ، والنضير بن الحارث .

١٠ ـ بنو عبد مناف: أبو سفيان بن الحارث، وقيس بن مخرمة ، وجبير بن مطعم.

وقد توزعت عطاياهم بين المائة ناقة والخمسين ناقة .

وبذلك غدا عز محمد ﷺ عز مكة كلها ، وعز رجالاتها وقياداتها وساداتها ، ويكفى أن نأخذ نموذجًا واحدًا على أثر هذه العطايا فى نفوس هذه القيادات :

روى البخارى عن صفوان قال : ما زال رسول الله ﷺ يعطينى من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلى حتى ما خلق الله تعالى شيئًا هو أحب إلىَّ منه . وفى رواية أن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ يتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء مما أفاء الله به على رسول الله ﷺ فيه غنم وإبل ورعاؤها ، فأعُجب صفوان بن أمية ، وجعل ينظر إليه فقال رسول الله ﷺ : « أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب ؟ » قال : نعم . قال : « هو لك بما فيه » . فقال صفوان : أشهد أنك رسول الله ﷺ ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نفس نبى .

وهذا هو المعنى الذى قصده رسول الله ﷺ ، وهو يتحدث إلى الأنصار عن ذلك بقوله كما روى البخارى : « إن قريشًا حديث عهد بجاهلية ومصيبة وإنى أردت أن أجيرهم وأتألفهم » .

وهذا نموذج آخر يمثل أكبر قيادات قريش أبى سفيان رضي الله عنه :

(فجاء أبو سفيان بن حرب وبين يديه (أى رسول الله ﷺ) الفضة . فقال : يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: أعطنى من هذا المال يا رسول الله، قال : « يا بلال زن لأبى سفيان أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل» قال أبو سفيان: ابنى يزيد أعطه. قال رسول الله ﷺ: « زنوا ليزيد أربعين أوقية،

وأعطوه مائة من الإبل » قال أبو سفيان : ابنى معاوية يا رسول الله ، قال : « زن له يا بلال أربعين،وأعطوه مائة من الإبل» قال أبو سفيان : إنك لكريم ، فداك أبى وأمى ، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت : جزاك الله خيراً) .

وهكذا كان انتصار رسول الله ﷺ على هوازن فرحة لمكة بعد أن كان غصة لها ، وكان قادتها يبشرون بعضهم بعضًا فى الجولة الأولى أن هزيمة محمد لا تنتهى دون البحر.

إن قريش مادة الإسلام ، وهى اصطفاء الله تعالى من الخلق ، رغم كل ما وقفت من صد عن سبيل الله، لكنها تحولت بعد ذلك من أعظم دعائم الإسلام، وأكبر أنصاره، وارتفع رسول الله ﷺ فوق القرابة القريبة، فلم يعط من بنى هاشم لأحد إلا ما ذكر من عطائه لأبى سفيان بن الحارث ﷺ ، أما العشرة الذين وقفوا جداراً بشريًا أمامه من اللحم والدم ، وسقط أحدهم شهيدًا بين يديه ، فلم يأخذ من هؤلاء أحد درهمًا واحداً.

وإعطاء رسول الله ﷺ هذه القيادات يحمل معنى آخر أكبر من معنى العطاء المادى فى صفوف قريش ، فهذا العطاء هو اعتراف لهذا القائد بقيادته ، ولهذا الزعيم بزعامته ، فهو يشرف بأن رسول الله ﷺ اعتبره من قادة مكة، وأعطاه هذا العطاء ، كما قال عباس ابن مرداس مشيراً إلى هذا المعنى :

(ومن تضع اليوم لا يُرفع)

ففى موازين الجاهلية وقيمها الذى لا يعطى يعنى أن رسول الله ﷺ غير معترف بزعامته ، ولنشهد أخيراً عظمة التربية النبوية فى صف قريش مع أحد قادتها الكبار حكيم ابن حزام ، الذى ذكر لنا حادثته بنفسه قائلا كما فى الصحيح : سألت رسول الله ﷺ بحنين مائة من الإبل فأعطانيها ، ثم سألته مائة من الإبل فأعطانيها ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إن هذا المال حلوة خضرة ، فمن أخذه بسخاوة نفسٍ بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » فقال : والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا ، فكان عمر بن الخطاب يدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه ، فيقول عمر : أيها الناس أشهدكم على حكيم بن حزام ، أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه .

قال ابن أبى الزناد : أخذ حكيم المائة الأولى وترك الباقى ، تجاوبًا مع التربية النبوية العظيمة للنفوس .

رابعًا : من قريش إلى القيادات العربية :

فقد حضر غزوة الفتح وغزوة حنين ثلة من القيادات العربية موزعة على الشكل التالى :

- من بنى تميم : الأقرع بن حابس وعمرو بن الأهتم .

- ومن بنى غطفان : عيينة بن حصن .

- ومن بنى عامر بن صعصعة : علقمة بن علاثة ، ولبيد بن ربيعة الشاعر ، وحرملة وخالد ابنا هوذة .

- ومن بنى سليم: عباس بن مرداس السلمى، وعمير بن ودقة، وعمرو بن بعكك، والأصح أن سليم كلها حضرت المعركة .

- ومن بنى ثقيف : أسيد بن جارية ، والعلاء بن جارية ، والأخنس بن شريق حليف زهرة .

- ومن طيئ : زيد الخيل (إن ثبت حضوره) .

وقد شاركت هذه القيادات مشاركة رمزية مع بضعة عشر من أبناء قبائلها ـ عدا سليم ـ وأراد رسول الله ﷺ أن يتألف هذه القلوب المنتمية إلى كبريات القبائل العربية ـ طيئ ، وأسد ، وغطفان ، وتميم، وعامر بن صعصعة ، وثقيف ـ كى تربط هذه القيادات عجلتها بعجلة الإسلام ، وبهذا الرباط الوثيق يمكن أن تنقاد القبيلة كلها إلى الله ورسوله، وحيث لم يتحقق لهذه القيادات هدفها فى فتح مكة ، فلم يكن هناك أسلاب ولا غنائم، وكيف تعود هذه القيادات إلى قبائلها من غير شيء . . . وهى ستنحر الذبائح لاستقبال أبناء هذه القبائل ، فكان هذا العطاء ربطًا وثيقًا لها بالإسلام وبرسالة الإسلام ، وهى فى ظاهر الأمر معترف بزعامتها من رسول الله ﷺ :

فجماجم العرب : كلب ، وطيئ ، وحنظلة ، وعامر بن صعصعة ، وتميم .

والجُفان : بكر وتميم .

ورسول الله ﷺ بعد أن فتحت مكة ، وهزمت هوازن لا يريد أن يخوض حربًا طاحنة مع كل قبيلة حتى تدخل فى الإسلام ، إنه يريد لهذه القبائل أن تلين قناتها ، وتكسر حدتها، وتفتح صدرها دون حرب لهذا الدين ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يرحب بهذه الزعامات تعيش فى جو الإسلام وتشهد خلق هذا الدين وطبيعة هذه الرسالة ، وليس من السهل لمثل هذه الزعامات أن تتغير التغيير الجذرى المطلوب نظرًا لما لها من مصالح ومطامع ومواقع فى أقوامها ، لكنها مع ذلك وحين تشهد القوة الإسلامية لا تفكر فى أن تحمل السلاح لتواجه المسلمين فى المعركة ، وحين تشهد الخلق الإسلامى تستحى أن تقابل هذا الخلق والمعروف باللؤم والغدر ، وهى من جهة أخرى معالم إنذار ورسل إلى القبائل الأخرى التى لا تزال تتربص بالمسلمين الدوائر ، فحين يرون تميمًا ،

وغطفان ، وطيئًا ، وعامر بن صعصعة وأضرابها قد ألقت قيادها للإسلام فلن تفكر هى بالمواجهة ، بل ستفكر بالانضمام إلى هذا الركب الذى لا يقاوم لعلها تنال الحظوة عند نبى الإسلام كما نالتها هذه القيادات .

ولنا ثلاث وقفات مع أهم هذه القيادات ، ننظر من خلالها أثر هذه المعاملة النبوية العظيمة فى تركيب هذه القيادات وبنيانها :

الوقفة الأولى : مع عامر بن صعصعة :

فقبيلة عامر عادت الإسلام منذ لحظاته الأولى ، وذلك حين مضى رسول الله ﷺ إلى مضارب بنى عامر يدعوهم إلى الإسلام ، ويطلب الحماية منهم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى أنه أتى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس : والله لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : « الأمر لله يضعه حيث يشاء » قال : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك (١) .

وقال الكلبى : فأخبرنى عبد الرحمن المعايرى عن أشياخ من قومه قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ ، فقال : « ممن القوم ؟ » قلنا: من بنى عامر بن صعصعة. قال : « من أى بنى عامر بن صعصعة ؟ » قالوا : بنو كعب بن ربيعة ، قال : « كيف المنعة ؟ » قلنا : لا يرام ما قِبَلنا ، ولا يصطلى بنارنا . قال :

« إنى رسول الله وآتيكم لأبلغكم رسالة ربى ، ولا أكره أحدًا منكم على شيء » قالوا : ومن أى قريش أنت ؟ قال : « من بنى عبد المطلب » . قالوا : فأين أنت من بنى عبد مناف ؟ قال : « هم أول من كذبنى وطردنى » قالوا : ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك . قال : فنزل إليهم والقوم يتسوقون إذ أتاهم بحيرة بن فراس القشيرى ، فقال : من هذا الرجل أراه عندكم ـ أنكره ـ قالوا : محمد بن عبد الله القرشى ، قال : فما لكم وله ؟ قالوا : زعم أنه رسول الله فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ، قال : فماذا رددتم عليه ؟ قالوا : بالترحيب والسعة، نخرجك إلى بلادنا ، ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا . قال بحيرة :

ما أعلم أحدًا من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشد من شيء ترجبون به بدءًا ، ثم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٢٥ .

لتنابذوا العرب ، وترميكم العرب عن قوس واحدة ـ قومه أعلم به ـ لو ألفوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، أتعمدون إلى زهيق قد طرده قومه وكذبوه ، فتؤونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأى رأيتم ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : قم فالحق بقومك ، فوالله لولا أنك عندى لضربت عنقك ، قال : فقام إلى رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها . فغمر الخبيث بحيرة شاكلتها فقمصت برسول الله ﷺ وألقته . . .) (١) .

ومن المجرم بحيرة بن فراس القشيرى إلى عريق الإجرام عامر بن الطفيل الذى ساد بنى عامر بعد عمه أبى براء ملاعب الأسنة ، والذى كان وراء مأساة بئر معونة :

(فلما نزلوها (أى القراء السبعون) بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نخفر أبا براء ـ وكان أبو براء عمه قد أجار هؤلاء المسلمين ـ فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم من عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ـ يرحمهم الله ـ إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار . فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتث من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً) (٢) .

وتشير رواية البخارى إلى أن عامر بن الطفيل قد وفد إلى المدينة قبيل أحد ، وبعد أن وصلت إليه أنباء نصر بدر ، يريد أن يقتسم النفوذ مع رسول الله ﷺ ، وقال فى وفادته كما فى البخارى :

(وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل خيَّر رسول الله ﷺ بين ثلاث خصال : يكون لك أهل السهل ، ولى أهل المدر ، أو أكون خليفتك ، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف) (٣) .

قال ابن حجر فى الفتح : (بينها الطبرانى من حديث سهل بن سعد ، وبين فيه قدوم عامر بن الطفيل على النبى ﷺ وأنه قال فيه : « لأغزونك بألف أشقر وألف شقراء (أى فرس وحصان) ، وأن النبى ﷺ أرسل أصحاب بئر معونة بعد أن رجع عامر ، وأنه غدر بهم ، وأخفر ذمة عمه أبى البراء ، وأن النبى ﷺ دعا عليه فقال : « اللهم اكفنى عامراً . . .) (٤) .

ويحدثنا ابن إسحاق عن وفادة لعامر بن الطفيل على المدينة يرجح أنها كانت بين

---

(١) البداية لابن كثير ٣/ ١٥٥ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٨٤، ١٨٥ .
(٣) فتح البارى ٧/ ٣٨٦ ح (٤٠٩١) .
(٤) المصدر نفسه ٧/ ٣٨٧ .

صلح الحديبية ، وفتح مكة وهو الذى يحمل التهديد والوعيد للمسلمين فى الهجوم عليهم .

قال ابن إسحاق: (قدم عامر بن الطفيل عدو الله على رسول الله ﷺ، وهو يريد الغدر به ، وقد قال له قومه : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش. ثم قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل فإنى سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل ، يا محمد : خالنى ، وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به ، فجعل أربد لا يحبر شيئًا ، فلما رأى عامر يصنع أربد قال : يا محمد خالنى ؟ قال : « لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » ، فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً - وفى رواية : ولأربطن بكل نخلة فرسًا - فلما ولى قال رسول الله ﷺ : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل » فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد : أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندى على نفسى منك ، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبدًا، قال : لا أبا لك ، لا تعجل علىّ ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟!

وخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول ، فجعل يقول : يا بنى عامر ، أغدة كغدة البكر فى بيت امرأة من بنى سلول) (١) .

وكان علقمة بن علاثة هو الذى ينافس عامر بن الطفيل على الزعامة فى عامر ، والمنافرة التى كانت بينهما مشهورة جدًا فى كتب الأدب والتراجم ، ولم يُحكم لواحدٍ منهما على الآخر ، وبموت عامر بن الطفيل انتقلت الزعامة لعلقمة بن علاثة الذى انضم للإسلام قبيل فتح مكة ، وبعد إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه .

قال أبو عبد الله : سألت عبد الله بن عمرو بن زهير الكعبى : متى كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة كتابه ؟ فقال : أخبرنى أبى عن قبيصة بن ذؤيب أنه كتب لهم فى جمادى الآخرة سنة ثمان ، وذلك أنه أسلم قوم من العرب كثير ، ومنهم من هو بعد مقيم على شركه ، ولما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية لم يبق من خزاعة أحد إلا مسلم مصدقًا بمحمد ، قد أتوا بالإسلام وهو فيمن حوله قليل حتى قدم علقمة بن علاثة وابنا هوذة فهاجروا فذلك حين كتب رسول الله ﷺ إلى خزاعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى بديل وبشر وسروات بنى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٦٨، ٥٦٩ .

عمرو ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . . . أما بعد ، فإنه قد أسلم علقمة بن علاثة وابنا هوذة وتابعا وهاجرا على من تبعهما من عكرمة . . . » (١) .

فعامر بن الطفيل يريد أن يغزو المدينة ، ويربط بكل نخلة فرسًا ، ولم تكن القوة النبوية آنذاك قادرة على مواجهة قوة بنى عامر ، فسلط الله تعالى عليه الطاعون واستجاب دعوة نبيه أن يكفيه عامر بن الطفيل ، وفى رواية : أن فى الدعوة أن يهدى بنى عامر أو يأتى بهم ، وهدى الله تعالى بنى عامر على يد زعمائها : علقمة بن علاثة ، وحرملة بن هوذة بن ربيعة ، وخالد بن هوذة بن ربيعة . وجنب الله جنده وحزبه ودعوته إمكانية حرب غير متكافئة ، لكن بعد فتح مكة ، والنصر الإسلامى فيه ، والجيش الذى ارتفع عدد الفرسان فيه فوق ألفى فرس ، كان بالإمكان مواجهة هوازن كلها ، وعامر من هوازن ، أما قيادات عامر فكانت فى الجيش الإسلامى ، واحتفى بها رسول الله ﷺ ، وأعطى لهذه القيادات ـ علقمة وابنا هوذة ـ لكل واحد منهم مائة ناقة .

ولابد أن نشير أن علقمة الذى تجذر حب الزعامة فيه ، لم ينته به المطاف فى الصف الإسلامى ، إنما ارتد مع المرتدين فيما بعد ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، وولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حوران فى خلافته .

ولا ننسى أن بين زعامات بنى عامر : لبيد بن ربيعة الشاعر الفحل الذى يضرب به المثل ، أشعر من لبيد . لا ننسى أنه كان قد انضم إلى الصف الإسلامى ، وكان من المؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم رسول الله ﷺ مائة ناقة ، لبيد هذا كان يلقى شعره فى مكة فى أيام الدعوة الأولى :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون : صدقت ، ثم أتم بيته : وكل نعيم لا محالة زائل ، فقال له عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول ، فتأفف لبيد قائلاً : متى كان يؤذى جليسكم ، وما انتهى حتى ثار لنفسه من هذا المسلم الذى يرد عليه حيث قاموا يضربونه لهذا القول ، أما لبيد اليوم فهو الجندى المسلم الذى يكرمه رسول الله ﷺ بين الزعامات العربية فى هذا العطاء .

الوقفة الثانية : مع عيينة بن حصن ، سيد غطفان :

وعيينة هذا أتعب المسلمين ولم يكن يدع فرصة للانقضاض عليهم وحربهم إلا وشارك فيها ، وهو كان أحد الأحلاف الثلاثة الكبرى فى الخندق ، وأغار كثيرًا على المدينة ، وأغير عليه ، ولكن صلح الحديبية وإنهاء قريش للحرب ضد رسول الله ﷺ جعلته يعيد

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٩، ٧٥٠ .

حساباته ، فهو إن بقى فى الساحة وحده لن يستطيع أن يواجه محمداً ، وقلبه لا يطاوعه على مصالحته ، لكنه أرغم لذلك ، وجاء قبيل فتح مكة وأعلن إسلامه حرصًا على مصالحه(١)، وما أن جاءه خبر مسيرة رسول الله بجيش كثيف حتى قدم خصيصًا للمشاركة معه حتى لا تفوته غنيمة من الغنائم ، فقد أصبح محمد السيد المطاع فى جزيرة العرب.

(كان عيينة فى أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يريد وجهًا ، وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج فى نفرٍ من قومه حتى قدم المدينة ، فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين ، فسلك عن ركوبة فسبق إلى العرج ، فوجده رسول الله ﷺ بالعرج ، فلما نزل العرج أتاه فقال : يا رسول الله ، بلغنى خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعًا ، ولم أشعر فأجمع قومى فيكون لنا جلبة كبيرة ، ولست أرى هيأة حرب لا أرى ألوية ولا رايات، فالعمرة تريد ؟ فلا أرى هيأة الإحرام، فأين وجهك يا رسول الله ؟ قال: « حيث يشاء الله » ، وذهب وسار معه ، ووجد الأقرع بن حابس بالسقيا قد وافاها فى عشرة نفر من قومه ، فلما نزل قديد عقد الألوية وجعل الرايات ، فلما رأى عيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عض على أنامله ، فقال أبو بكر : علام تندم ؟ قال : على قومى ألا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاء الله ، فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع وعيينة) .

والملاحظ أن جفاء الأعراب وغلظة الجاهلية لا تزال فى نفس عيينة ، فالمسلم الذى يصدق إسلامه لا يلفظ اسم محمد ﷺ إلا (رسول الله) أما عيينة هنا فلا يزال يفكر بعقلية الحرب بينه وبين محمد ﷺ فيسأل أبا بكر : أين يريد محمد ؟ ويقول : لم يكونوا انفروا مع محمد .

فالقضية عنده قضية مغالبة بينه وبين محمد ﷺ أكثر ما هى قضية إسلام تشربته نفسه :

أ ـ ونتابع عيينة بمسيره ، فها هو يثير صراعًا محمومًا بينه وبين عباس بن مرداس السلمى فى التفاخر بين غطفان وسليم ، فالعباس يقول : اقصر أيها الرجل ، والله إنك لتعلم أنا أفرس على متون الخيل ، وأطعن بالقنا ، وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك ، فقال عيينة : كذبت ولؤمت ، لنحن أولى بما ذكرت منك ، قد عرفته لنا العرب قاطبة ،

---

(١) عن الزبير بن حبيب قال : أقبل عيينة بن حصن إلى المدينة قبل إسلامه ، فتلقاه ركب خارجين من المدينة ، فقال : أخبرونى عن هذا الرجل ؟ قالوا : الناس فيه ثلاثة ؛ رجل أسلم فهو معه يقاتل قريشًا والعرب ، ورجل لم يسلم فهو يقاتله فبينهم التذابح ، ورجل يظهر له الإسلام ، ويظهر لقريش أنه معهم ، قال : ما يسمى هؤلاء القوم ؟ قالوا : يسمون المنافقين، قال: ما فى من وصفتم أحزم من هؤلاء ، اشهدوا أنى منهم. (الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٥٧/٢ وقال عنه المحقق السلمى : إسناده حسن إلى الزبير بن حبيب) .

فأومأ إليهما النبى ﷺ بيده حتى سكتا .

فهذه بداية متاعبه داخل الصف الإسلامى ، وإثارة النعرات الجاهلية فى قلب الجيش فى صورة لم يعهدها جيش النبوة من قبل عيينة وأمثاله .

ب ـ وها هو يثير هذه النزعة ثانية مع الأقرع بن حابس بن حنين ، حين يطالب بدم عامر بن الأضبط الأشجعى وعيينة يقول : لا والله لا أدعه حتى أدخل على نسائه من الحرب والحزن ما أدخل على نسائى، قال رسول الله ﷺ: « نأخذ الدية، ويأبى عيينة »، فارتفعت الأصوات وكثر اللغط .

هذا الثلاثى من الزعماء وعيينة ، والأقرع ، وعباس السلمى هم دائمًا فى منافسة محمومة ، وأحرج رسول الله ﷺ من إصرار عيينة ، وهو يريد رأب الصدع لا نزف الدم، لكن روح الجاهلية تنفخ فى أوداج عيينة الذى أسلم حفاظًا على مصلحة وزعامته، وقد يبدو هذا الكلام شديدًا على صحابى بعدما أسلم ، لكن مواقفه لا تنبئ عن صحة إسلامه كما زعم هو ابتداء ، وهذا هو الموقف الذى كشف غدره وخيانته .

جـ ـ (قالوا : وقال عيينة : يا رسول الله ، إيذن لى حتى آتى حصن الطائف فأكلمهم ، فأذن له فجاءه فقال : أدنو منكم وأنا آمن ؟ قالوا : نعم ، وعرفه أبو محجن فقال ادن، فدنا، فقال: ادخل. فدخل عليهم الحصن. فقال: فداءكم أبى وأمى ، والله لقد سرنى ما رأيت منكم، والله لو أن فى العرب أحد غيركم، والله ما لاقى محمد مثلكم قط، ولقد ملَّ المقام. فاثبتوا فى حصونكم، فإن حصنكم حصين، وسلاحكم كثير ، وماءكم واتن لا تخافون قطعه ، قال : فلما خرج قالت ثقيف لأبى محجن: فإنا كرهنا دخوله، وخشينا أن يخبر محمدًا بخلل إن رآه فينا أو فى حصننا ، قال أبو محجن: أنا كنت أعرف له ، ليس منا أحد أشد على محمد منه ، وإن كان معه . . .) (١) .

وفى رواية عروة بن الزبير فى مغازى موسى بن عقبة أنه قال لهم : بأبى أنتم تمسكوا بمكانكم ، والله لنحن أذل من العبيد ، وأقسم بالله لئن حدث به حدث لتملكُنَّ العرب عزًا ومنعة ، فتمسكوا بحصنكم وإياكم أن تعطوا بأيديكم ، ولا يتكاثرن عليكم قطع هذا الشجر ، ثم رجع عيينة إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « ماذا قلت لهم يا عيينة ؟ » قال : قلت لهم وأمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه ، وحذرتهم من النار، ودللتهم على الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: « كذبت ؛ بل قلت لهم كذا وكذا » فقص عليه رسول الله ﷺ حديثه. فقال: صدقت يا رسول الله أتوب إلى الله عز وجل، وإليك من ذلك (٢) .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٣٢ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٦٣ .

والمفروض أن تنهى هذه المعجزة دخل عيينة ونفاقه ، ويعلم أن الله تعالى حق، لكن الظاهر أن حب الزعامة كان أكبر عنده من أى عقيدة ، والمعجزات التى شهدها عبد الله ابن أبى لم تنقطع ، وجاءت فضائحه بالقرآن والوحى ، ومع هذا بقى مصراً على كفره، وأنزل الله تعالى فيه :

﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) ﴾ [التوبة] .

د ـ وعندما يوجه رسول الله ﷺ أمره بقطع عنب ثقيف ونخيلها ، قال عيينة بن حصن ليعلى بن مرة الثقفى، وهو يحسب أنه يتودد له طالما أنه من ثقيف ، فقال ليعلى: علىَّ حرام أن أقطع حظى من الكرم ، فقال يعلى بن مرة : إن شئت قطعتُ نصيبك ، فماذا ترى ؟ قال عيينة : أرى أن تدخل جهنم ، فكانت هذه ريبة من عيينة فى دينه ، وسمع بذلك رسول الله ﷺ فغضب منه ، وأوعد عيينة ، وقال : أنت صاحب العمل أولى لك فأولى) [١] .

وشهد عمر ذلك التذبذب والنفاق لدى عيينة فى هواه مع المشركين ضد المسلمين . فقال عمر : يا رسول الله ، دعنى أقدمه فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » .

ومثل هذا الأمر فى الأعراف السياسية لا جزاء له إلا القتل ، وهو فى المفهوم الإسلامى خيانة وموالاة للكفار تصل إلى حد الردة والكفر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة] .

وتتشابه كثيراً مواقف عيينة بن حصن مع مواقف عبد الله بن أبى ، وكما رأينا فهو قد أسلم نفاقًا ، ورأى أن موقف المنافقين هو موقف أحزم الناس وأعقلهم : **﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) ﴾** [النساء] .

ومع هذا فحرص رسول الله ﷺ على سمعة الإسلام والمسلمين ، جعلت القتل مرفوضًا عنده حتى لا تهتز سمعة الصف الإسلامى عند المشركين ، وحتى لا يكون القتل ثغرة تخيف العدو من الإسلام والتوبة ، ووجد أبو بكر ﷺ الفرصة سانحة لوعظه بعد هذه الخيانة المكشوفة، وبعد أن شهد المعجزة بعينه فقال له: ويحك يا عيينة، إنما أنت أبدًا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/١٦٣، ١٦٤ .

موضع فى الباطل ، كم لنا منك من يوم ؛ يوم الخندق ، ويوم بنى قريظة ، والنضير وخيبر تجلبت وتقابلنا بسيفك ، ثم أسلمت ـ زعمت ـ فتحرض علينا عدونا . فقال : أستغفر الله يا أبا بكر وأتوب إليه ، ولا أعود أبدًا .

هـ ـ ولكنه سرعان ما انكشف نفاقه ثانية وعاد لولائه للكفار ، كما يبرز ذلك من خلال هذه الحادثة : (فلما أمر رسول الله ﷺ عمر فأذّن الناس بالرحيل ، وقال رسول الله ﷺ: « إنا قافلون إن شاء الله » . فلما استقل الناس لوجوههم نادى سعيد بن عبيد ابن أسيد بن عمرو بن علاج الثقفى فقال : ألا إن الحى مقيم ، قال : يقول عيينة بن حصن : أجل والله مجدة كرام . فقال له عمرو بن العاص : قاتلك الله تمدح قومًا مشركين بالامتناع عن رسول الله ﷺ ، وقد جئت تنصره ؟ فقال : إنى والله ما جئت معكم أقاتل ثقيفًا ، ولكنى أردت إن افتتح محمد الطائف أصبت جارية من ثقيف فأتطيها لعلها تلد لى غلامًا ، فإن ثقيفًا قوم مناكير (١) ، فأخبر عمرو بن العاص النبى ﷺ بمقالته فتبسم النبى ﷺ وقال : « هذا الحَمق المطاع » (٢) .

ترى هل كشف ما فى سريرته لعمرو بن العاص معتبراً عَمْرًا مثله ، وله ماض طويل معه فى حرب رسول الله ﷺ ، وهو يعلن بصراحة أنه لم يأت لقتال المشركين ، إنما جاء ليطأ جارية من ثقيف تلد له غلامًا داهية لأن ثقيفًا كذلك ، ولم يدر أن عَمرًا ﷺ بلغ من تغلغل الإيمان فيه ما شهد له رسول الله ﷺ له دون غيره فقال : « أسلم الناس ، وآمن عمرو بن العاص » ، ولما كان جواب رسول الله ﷺ لعمرو فى غاية البلاغة والحكمة والإيجاز . فعيينة هذا الموغل فى الحمق تطيعه الألوف المؤلفة من قومه . فهو لا يريد أن ينكأ جرحًا جديدًا ، ولا يفتح حربًا عوانًا مع غطفان لو قتل سيدهم ، وليظهر أنه هو وقومه مع الإسلام ، فأولى من الناحية السياسية ذلك ، ورسول الله ﷺ يريد الوصول إلى قلوب من وراءه ، ولا يمكن الوصول إليها لو مُسَّ صنمها المعظم عيينة .

وشهدنا حمقه كذلك حين اختار العجوز الشمطاء على أمل أن يغالوا بها بالفداء ، فقال له صاحبه الأقرع بن حابس ـ والذى توتر الجو بينهما قبل برهة : (إنك والله ما أخذتها بكيرًا عزيرة (٣) ، ولا نَصفًا وثيرة (٤) ، ولا عجوزًا حيلة ، عمدت إلى أحوج شيخ من هوازن فسبيت امرأته ، قال عيينة . هو ذاك) (٥) .

و ـ ومع كل هذه المواقف التى أبرزت غدر عيينة وخيانته ، فلم يصف رسول الله

---

(١) مناكير : دهاة .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ت . د.السلمى ٢/٥٥٨، ٥٥٩ .

(٣) العزيرة : المتوسطة فى السن من النساء . (٤) الوثيرة : السمينة اللينة .

(٥) الطبقات وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٩٥ .

ﷺ الحساب معه ، وأعطاه مائة من الإبل ، وهو بذلك يعطى غطفان كلها هذا المبلغ ، ويجعلها تغسل عن جسمها عار المصادة لله ولرسوله ، وتنضوى تحت لواء الإسلام .

ز ـ وسرعان ما كشف نفاق عيينة ، فما أن بلغه خبر وفاة رسول الله ﷺ حتى ارتد مع المرتدين ، وراح يحارب المسلمين .

(قالوا : وكان عيينة قد ارتد حين ارتدت العرب ، ولحق بطليحة بن خويلد حين تنبأ فآمن به ، وصدَّقه على ما ادعى من النبوة ، فلما هُزِم طُليحة ، وهرب ، أخذ خالد ابن الوليد عيينة بن حصن ، فبعث به إلى أبى بكر الصديق فى وثاق ، فقدم به المدينة ، قال ابن عباس : فنظرت إلى عيينة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريد ، ويضربونه ، ويقولون : أى عدو الله كفرت بالله بعد إيمانك ، فيقول : والله ما كنت آمنت . . . فلما كلمه أبو بكر رجع إلى الإسلام فقبل منه ، وعفا عنه . وكتب له أمانًا) (١) .

لقد كشف المخبوء لهؤلاء الغلمان أنه لم يكن قد دخل الإيمان إلى قلبه، ولا خالطت بشاشته فؤاده، وها هو الآن يعلن إسلامه من جديد على يد الصديق ، ونسأل الله تعالى أن يكون أسلم بعدها فحسن إسلامه ؛ وبقى فى زعامته أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما ، وتزوج عثمان ابنته وارتبطت عمليًا بعجلة الإسلام . وانتهى التناقض والفصام النكد بينه وبين هذا الدين .

إن قصة عيينة بأبعادها ومراحلها لتصلح أن تكون مدرسة تربوية كاملة ، فى فن التعامل مع الزعماء الأعداء ، وعبقرية الفقه للنفوس التى تنتهى بها بعد ذلك إلى الصف الإسلامى ، وتجنب مجازر وحروب قد تودى بالمئات من الفريقين ، وخوض الحروب حين لا يكون هناك مناص من ذلك ، حتى يفىء إلى الحق من استحكم به الباطل .

الوقفة الثالثة : مع الأقرع بن حابس سيد بنى تميم :

فقد حضر فتح مكة والطائف مسلمًا كما رأينا ، ولم يكن له موقف أو عليه فيهما ، لكننا نشهده على حقيقته حين حضر مع وفد تميم إلى رسول الله ﷺ ، نعرض فيه مكنون ذاته عارٍ كما برز فى كلامه ، وكلامه غنى عن أى تعليق ، وذلك كما ورد فى ترجمته عند ابن الأثير فى أسد الغابة .

(. . . قدم على النبى ﷺ مع عطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم وغيرهم من أشراف تميم بعد فتح مكة ، وقد كان الأقرع بن حابس التميمى ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٥٦١، ٥٦٢ .

وعيينة بن حصن الفزارى شهدا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنينًا ، وحضرا الطائف .

فلما قدم وفد تميم كان معهم ، فلما قدموا المدينة قام الأقرع بن حابس حين نادى : يا محمد ، إن حمدى زين ، وإن ذمى شين ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلكم الله سبحانه . . . فماذا تريدون ؟ » قالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك ، فقال النبى ﷺ : « ما بالشعر بعثنا ، ولا بالفخار أُمرنا ، ولكن هاتوا » . فقال الأقرع بن حابس لشابٍ منهم : قم يا فلان ، فاذكر فضلك وقومك ، فقال : الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه ، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء ، فنحن خير من أهل الأرض ، أكثرهم عددًا ، وأكثرهم سلاحًا ، فمن أنكر علينا قولنا ، فليأت بقولٍ هو أحسن من قولنا ، وبفعال هو أفضل من فعالنا ، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس الأنصارى ـ وكان خطيب النبى ﷺ : « قم فأجبه » ، فقام ثابت فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . دعا المهاجرين من بنى عمه ، أحسن الناس وجوهًا ، وأعظم الناس أحلامًا ، فأصابوه ، والحمد لله الذى جعلنا أنصاره ، ووزراء رسوله ، وعزًا لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منا منع نفسه وماله ، ومن أباها قاتلناه ، وكان رغمه فى الله تعالى علينا هينًا ، أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . . .

فقام الأقرع بن حابس فقال : إنى والله يا محمد لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء ، قد قلت شعرًا فاسمعه ، قال : هات . فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وأنا رؤوس الناس فى كل معشر ... وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

فقال رسول الله ﷺ : « قم يا حسان فأجبه » ، فقال :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم

فقال رسول الله ﷺ : « لقد كنت غنيًا يا أخا بنى دارم أن يذكر منك ما كنت ترى أن الناس قد نسوه » . فكان قول رسول الله ﷺ أشد عليهم من قول حسان ، ثم رجع حسان إلى قوله :

وأفضل ما نلتم من المجد والعلى ... رِدافتنا من بعد ذكر المكارم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم

فـلا تجـعلوا لله نـدًا وأسـلموا ولا تـفخـروا عنـد النبى بـدارم
وإلا ورب البـيـت مـالـت أكـفنـا عـلى رؤسـكم بالمرهفـات الصوارم

فقام الأقرع بن حابس فقال : يا هؤلاء ، ما أدرى ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا ، فكان خطيبهم أرفع صوتًا ، وتكلم شاعرهم فكان شاعرهم أرفع صوتًا ، وأحسن قولاً ، ثم دنا إلى النبى ﷺ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يضرك ما كان قبل هذا » .

وفى وفد بنى تميم نزل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ④ ﴾ [الحجرات] .

تفـرد بـرواية هـذا الحـديث مـطولاً بأشـعاره المعلـى بـن عبـد الـرحمن بـن الحكم الواسطى) [1] .

وما ندرى إن كان هذا الأمر مسرحية كى يقود قومه إلى الإسلام ، أم أن الأمر الواقع أبهته فأسلم ، وإن كنا نرجح الأخرى ؛ لأن رسول الله ﷺ اعتبر هذا بداية إسلامه ، وقد جب كل ما كان قبله ، وقال له : « لا يضرك ما كان قبل هذا » .

وقد التقى هذا الثلاثى عند رسول الله ﷺ فى المدينة ، سيد بنى عامر : علقمة ، وسيد بنى تميم : الأقرع بن حابس، وسيد بنى غطفان : عيينة بن حصن، فأحسن رسول الله ﷺ وفادتهم وأكرمهم ، كما روى ذلك البخارى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال :

(بعث على بن أبى طالب ﷺ إلى رسول الله ﷺ بذهبية [2] فى أديم مقروظ لم تحصل من ترابها ، قال : فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن حصن، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل ، والرابع : إما علقمة ، وإما عامر بن الطفيل ، فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، قال : فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : « ألا تأمنونى وأنا أمين فى السماء يأتينى خبر السماء صباح مساء . . . ») [3] .

قال ابن حجر : وجزم فى رواية سعيد بن مسروق بأنه علقمة بن علاثة العامرى ثم أحد بنى كلاب وهو من أكابر بنى عامر ، وكان يتنازع الرئاسة هو وعامر بن الطفيل ، وأسلم علقمة فحسن إسلامه . . . وذكر عامر بن الطفيل غلط من عبد الواحد فإنه كان مات قبل ذلك .

---

(1) أسد الغابة لابن الأثير ١/١٢٩، ١٣٠ .
(2) ذهبية : قطعة من ذهب .
(3) البخارى ٥/٢٠٧ .

من فحيح الأرض إلى شعاع السماء :

لكننا إن لم نجد للأقرع بن حابس ﷺ موقفًا ذا بال فى حنين ، فلقد شهدنا العلقم من أحد أتباعه الذين أحضرهم معه ، والتى راحت آثاره فى التاريخ الإسلامى إلى يوم القيامة ، فبنو تميم لم يكن لهم وجود فى الجيش النبوى إلا أولئك العشرة الذين أحضرهم الأقرع معه ، ومن بينهم ذو الخويصرة التميمى ، الذى روت الصحاح وكتب الأحاديث قصته وجوهرها ، كما وردت فى مسلم (عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قَسْمًا ـ وفى الروايات الأخرى : بينما هو يقسم غنائم هوازن ـ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم، فقال : يا رسول الله ، اعدل، قال رسول الله ﷺ : « ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب ﷺ : يا رسول الله ائذن لى فيه أضرب عنقه ، قال رسول الله ﷺ : « دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شيء (وهو القدح) ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء ، سبق الفرث الدم ، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة ، أو مثل البضعة تدردر ، يخرجون على حين فرقة من الناس » قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن طالب قاتلهم وأنا معه ، فأمر بذلك الرجل فالتمس ، فوجد ، فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ) (١) .

وكل روايات الحديث تحدثنا عن نموذج من البشر يوغلون فى العبادة حتى ليحقر أحدنا صلاته إلى صلاتهم وصيامه إلى صيامهم ، ومع هذا هم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، والعلامات المحددة لهذا النموذج أنهم لا يتورعون عن النيل من علماء الأمة وقادتها وصحابتها ، يقذفونهم بالجهل إن اقتضى الأمر ، وبالظلم إن بدا لهم ذلك ، فلا يوقرون عالما ، ولا يعف لسانهم عن صديق ، فإذا كان رأسهم ذو الخويصرة اجترأ على رسول الله ﷺ قائلاً له : لم أرك عدلت . وصحابته الذين خرجوا من ضئضئة . . . لم يجدوا حرجًا أن يقتلوا الخليفة الراشد باسم الإسلام قائلين له : الحكم لله لا لك يا على ، أو لا حكم إلا لله يا على ، وذلك لأنه قبل التحكيم لحقن دماء عشرات الألوف من المسلمين ، فمن إذن يمكن أن ترعى له حرمة بعد رسول الله ﷺ وأخيه فى الدنيا والآخرة على بن أبى طالب ، ووصفهم عليه الصلاة والسلام بقوله فى

---

(١) مسلم ٢/٧٤٨ ح (١٤٨) .

إحدى الروايات : « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان » ومن هذا المنهج أنهم لا أرب لهم إلا تقويم انحراف علماء الإسلام وفقهاء الإسلام ، ومحدثى الإسلام ، وأئمة المسلمين فهو شغلهم الشاغل عن المشركين والمرتدين وأعداء هذا الدين ـ وفى رواية لمسلم كذلك قال فيها :

(فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كث اللحية ، محلوق الرأس ، مشمر الإزار فقال : يا رسول الله ، اتق الله ، فقال : « ويلك ألست أحق أهل الأرض أن يتقى الله » قال : ثم ولى الرجل. فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه ؟ فقال : « لا ، لعله أن يكون يصلى » قال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، فقال رسول الله ﷺ : « إنى لم أؤمر أن أُنقب عن قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم » قال : ثم نظر إليه وهو مقفٍ فقال : « إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » قال : أظنه قال : « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود » [(١)] .

والغريب أن هذه الرواية وأمثالها فى الصحيحين ذكرت مناسبة الحادثة يوم قسم رسول الله ﷺ الذهبية بين الزعماء الأربعة ، ولعل الحادثة تكررت ، أما ذو الخويصرة التميمى فلم يرد ذكره إلا فى هوازن وغنائم حنين ، عن جابر بن عبد الله : (أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة ، منصرفه من حنين وفى ثوب بلال فضة ، ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطى الناس فقال : يا محمد ، اعدل . قال : « ويلك ومن لم يعدل إن لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . . . ») .

والروايات تنطلق من منطلق واحد ، من فكرة الجرأة على رسول رب العالمين فى القول : (اتق الله) أو القول : (يا محمد ، اعدل) . وكيف ذكر رسول الله ﷺ أوصافهم فيما بعد ودعا إلى قتالهم ، علمًا بأنه لم يسمح لعمر رضي الله عنه ولا لخالد رضي الله عنه أن يضرب عنقه ، ويعلل ذلك ابن حجر بقوله :

(وقد استشكل قول: « لئن أدركتهم لأقتلنهم » مع أنه نهى خالدًا عن قتل أصلهم، وأجيب بأنه أراد إدراك خروجهم واعتراضهم المسلمين بالسيف ، ولم يكن ظهر ذلك فى زمانه ، وأول ما ظهر فى زمان على كما هو مشهور) [(٢)] .

ومن حجر الأرض الوطىء إلى أفق السماء العالى ، الذى تبرز فيه خامات هذه الأمة ورجالاتها ، والذين قد يخطر خاطر فى القلب أن رسول الله ﷺ قد نسيهم لفقرهم أو

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٤١ ح (١٤٣/ ١٠٦٤) .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٦٩ .

لضآلة نسبهم أو لدمامة وجههم ، ونذكر من هذا الأفق عظيمين لا يكادان يعرفان فى التاريخ الإسلامى .

أولهما : عمرو بن تغلب :

روى البخارى عن عمرو بن تغلب قال : أعطى رسول الله ﷺ قومًا ومنع آخرين ، فكأنهم عتبوا عليه . فقال :

« إنى أعطى أقوامًا أخاف هلعهم وجزعهم ، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله تعالى فى قلوبهم من الخير والغنى ، منهم عمرو بن تغلب » .

قال عمرو : فما أحببت أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرُ النَعَم) (١) .

ترى كم فى قلبه من الجبال من الخير والغنى حين يكفيه أن رسول الله ﷺ قد ضم إلى هؤلاء الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يذكروا ، ولا أدل على هذه العظمة النفسية من أنه لو سيق له طِلاع الأرض من حُمْر النَّعَم . لا مائة منها فقط ، لهى أقل وأهون عنده من كلمة الحبيب المصطفى فيه .

أى طراز من الرجال هذا الرجل الذى ترتفع نفسه شموخًا واستعلاءً واستصغارًا للمال كلما وجده يوزع على الكبار ، الكبار من رؤساء القبائل لما أودع الله تعالى فى هذه النفس من الخير والغنى ، وحتى لو بحثنا عن ترجمة له فى كتب التراجم لم نجد له حدثًا يذكر ، لكن رب العالمين اختار رسوله لكى يعلم الأمة إلى يوم القيامة عن هؤلاء المكتظة قلوبهم بالخير والغنى ، وأن يعلم عن اسم واحدٍ منهم فقط هو عمرو بن تغلب.

أما فى الرواية الثانية فقد بقى جميعهم مجهولون فى عالم الشهادة ، عرائس فى عالم الغيب .

(روى البخارى عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال : أعطى رسول الله ﷺ رهطًا وأنا جالس فترك منهم رجلاً هو أعجبهم إلىَّ فقمت فقلت : مالك عن فلان ، والله إنى لأراه مؤمنًا . فقال رسول الله ﷺ : « أو مسلمًا » ذكر ذلك ثلاثًا ، وأجابه بمثل ذلك ثم قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله تعالى فى النار على وجهه ») (٢) . وذلك لما فى قلبه من الهلع والجزع كما هو واضح فى الحديث السابق .

فقلوب مكتنزة عامرة بالخير والغنى ، وقلوب مكتنزة مكتظة بالهلع والجزع ، وشتان شتان .

---

(١) البخارى ٢/٤/١١٤ كتاب فرض الخمس . (٢) البخارى ١/٢/١٥٤ .

ويشاء الله تعالى أن يبرز لنا خامة مجهولة ، ذكرها الناس فى الخندق ، وراحوا ينشدون بهذا الحدث السعيد :

سماه من بعد جعيل عَمْرا   وكان للكافر يومًا ظهرا

إنه جعيل بن سراقة الضمرى ، وكان يذكر بدمامة فى وجهه ، وبعد أن أعطاه رسول الله ﷺ هذا الوسام وهذه التسمية ، غدا علمًا محبوبًا عند المسلمين ، وراع أحد المسلمين أن يرى رسول الله ﷺ لا يعبأ به يوم حنين ، وكان موضع احتفاء المسلمين يوم الخندق .

وللتعرف على هذا السبب نستمع لابن إسحاق ينقله لنا من حديث محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمى :

(أن قائلاً قال لرسول الله ﷺ من أصحابه :

يا رسول الله ، أعطيت عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس مائة ، وتركت جعيل ابن سراقة الضمرى . فقال رسول الله ﷺ :

« أما والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، ولكنى تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه ») (١) .

ونفاجأ هنا بعالم من القيم مرفرف مع السموات العلى ، فهذا الدميم المجهول الذى يحسب السائل أن رسول الله ﷺ قد نسيه أمام الزعامات العربية الكبرى ، حين يوضع فى الميزان معهما لا نقول يمكن أن يصل إلى مستواهما لدينه وتقاه ، أو يكافئهما حين توضع الزعامة والمجد والشهرة مقابل الإيمان والتقى .

ولكن نقول ما قال رسول الله ﷺ :

لو أن أهل الأرض جميعًا إنسهم وجنهم أولهم وآخرهم كانوا نماذج قادة شرفاء كبارًا أغنياء أمثال عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، ووضعوا جميعًا فى كفة ميزان واحدة . وجىء بذلك الدميم المجهول من قبائل سراق الحجيج فى كفة أخرى ، لرجح جعيل على كل أهل الأرض وطلاعها من هؤلاء .

« ولجعيل بن سراقة ، خير من طلاع الأرض كلها مثل الأقرع وعيينة » .

وهكذا تبرز القيم العليا فى هذا الدين،ويبرز رسول رب العالمين يعطى الأفراد قيمتهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٩٦ .

على ضوء عقيدتهم ودينهم، وأن هذا المال الذى يعطيهم إنما يتألف به قادة القبائل، وأبناءها على هذا الدين .

أما أن رسول الله ﷺ ينسى مثل هذه الطاقات . فمعاذ الله ، ولا أدل على ذلك من هاتين الحادثتين اللتين ينقلهما لنا صحابيان مغموران كذلك :

أما الأولى فينقلها عبد الله بن أبى حدرد .

ونعيد إلى الذاكرة الثروة الضخمة التى كانت له :

(كان لأبى الشحم اليهودى عند عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى خمسة دراهم فى شعير أخذه لأهله ، فلزمه فقال : أجلنى فإنى أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله ، إن الله عز وجل قد وعدنيه خيبر أن يغنمه إياها ، وكان عبد الله بن أبى حدرد ممن شهد الحديبية . فقال : يا أبا الشحم ، إنا نخرج إلى ريف الحجاز فى الطعام والأموال . فقال أبو الشحم حسدًا وبغيًا : تحسب أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب ؟ فيها التوراة وعشرة آلاف مقاتل ، قال ابن أبى حدرد : أى عدو الله تخوفنا بعدونا ، وأنت فى ذمتنا وجوارنا ؟ والله لأرفعنك إلى رسول الله . فقلت : يا رسول الله ، ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودى ؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم ، فأُسكت رسول الله ﷺ ، ولم يرجع إليه شيئًا ، إلا أنى رأيت رسول الله ﷺ حرّك شفتيه بشىء لم أسمعه، فقال اليهودى: يا أبا القاسم ، هذا قد ظلمنى وحبسنى بحقى وأخذ طعامى، قال رسول الله ﷺ : « أعطه حقه » . قال عبد الله فخرجت ، فبعت أحد ثوبى بثلاثة دراهم ، وطلبت بقية حقه فقضيته ، ولبست ثوبى الآخر ، وكانت علىّ عمامة فاستدفأت بها ، وأعطانى سلمة بن أسلم ثوبًا آخر ، فخرجت فى ثوبين مع المسلمين ونفلنى الله خيرًا ، وغنمت امرأة بينها وبين أبى الشحم قرابة فبعتها منه بمال)[1] .

هذا الصعلوك اختاره رسول الله ﷺ ليكون نجيه فى الحديث من بين الآلاف الاثنى عشر فى طريق عودتهما إلى الجعرانة، ويحدثنا عن هذه الصحبة فيقول: (كنت مع النبى ﷺ فى مسيره وهو يحادثنى فجعلت ناقتى تلصق بناقته ، وكانت ناقتى ناقة شهمة ، فجعلت أريد أن أنحيها فلا تطاوعنى. فلصقت بناقة النبى ﷺ، وأصيبت رجله ، فقال : « أخ ، أوجعتنى » ، فرفع رجله من الغرز كأنها جمارة ، ودفع رجلى بمحجن فى يده ، فمكث ساعة لا يتحدث ، فوالله ما نزلت حتى ظننت أن سينزل فى عذاب ، فلما نزلت قلت لأصحابى : إنى أرعى لكم، ولم يكن ذلك يوم رعيتى، فلما أرحت الظهر عليهم،

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٦٣٥. وسبق أن علقنا على الحادثة من قبل بما فيه الكفاية .

قلت : هل جاء أحد يبغيني ؟ فقالوا : رسول الله ﷺ جاء يبغيك ، فقلت في نفسي: هي والله هي . . . فخرجت خائفًا حتى واجهتُ رسول الله ﷺ، فجعل يبتسم في وجهي وقال : « أوجعتك بمحجني البارحة » ثم قال : « خذ هذه القطعة من الغنم ». قال : فأخذتها فوجدتها ثمانين شاة ضائنة) [1] .

وأما ثاني الرجلين فهو من سراق الحجيج كذلك ، أبو رهم الغفاري رضي الله عنه .

إذ يسوق لنا المقدمات نفسها التي جرت مع أخيه ابن أبي حدرد (. . فلما أصبحنا بالجعرانة خرجت أرعى الظهر وما هو يومي، فرقا أن يأتي رسول الله ﷺ يطلبني . فلما روَّحت الركاب سألت : فقيل لي : طلبك رسول الله ﷺ . فقلت : إحداهن والله ، فجئت وأنا أترقب . فقال : « إنك أوجعتني برجلك ، فقرعتك بالسوط فأوجعتك ، فخذ هذه الغنم عوضًا عن ضربي » واختلف السياقان بين الطعن بالمحجن ، والضرب بالسوط . لكن النتيجة واحدة . ولكن إذا أبرزت الحادثة الأولى عدد الضأن ثمانين ، فقد أبرزت الحادثة الثانية أجمل بألف مرة من عدد الضأن ، أبرزت مكنون قلب أبي رهم الغفاري إذ يقول : (فرضاه عني كان أحب إليَّ من الدنيا وما فيها) [2] .

لقد غدت دنياهم كلها تباع برضا حبيبهم وقائدهم رسول الله ﷺ ، أما رسول الله ﷺ فهو يقص أقل أصحابه منه، ويعوّض عليهم وخزات ألم نزلت بهم بعشرات النعاج.

فالتربية الجماعية التي تتم اليوم لا تسحق الفرد باسم هذه التربية ، كما هي النظم الحديثة التي تضحي بعشرة ملايين من الأمة من أجل استقرار النظام الشيوعي فيها ، وتسحق خمسين مليونًا وتبيدهم إن وقفوا في طريقها ، ويتحول شعبها كله إلى أرقام في سوق النخاسة مستذلٍ كالعبيد لا يحق له أن يتملك درهمًا واحدًا حتى لا يكون مستقلاً ، ويساق كله إلى الموت عندما تقع الحرب الطاحنة بينه وبين الأمم الأخرى ، هذه الأنظمة الجماعية التي تسحق الفرد هي غير ما نشهد من التربية الجماعية للأمة ، وما يساق لكبار القادة من أموال وأنعام لا يفقد الفرد حقه من عطائه ، إنما هؤلاء يأخذون من خمس رسول الله ﷺ ، وتبقى الأربعة أخماس ملكًا للمجاهدين المقاتلين من أفراد الأمة ، ولا ننسى قبل الانتقال إلى الظاهرة الجماعية من عتب الأنصار أن نتحدث عن هذا العطاء الذي لا تعرف الخليقة مثيلاً له إلا في الجندية للحبيب المصطفى ﷺ :

إذ نحن نلتقي مع أمثال ذي الخويصرة التميمي ثانية ـ من هؤلاء الأعراب الجفاة ـ ونلتقي مع أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ونعود ثانية للانتقال من فحيح الأرض إلى شعاع السماء .

---

(1) المغازي للواقدي ٣/ ٩٤٠ .

(2) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٥٦٧ ، ٥٦٨ .

(روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : كنت عند رسول الله ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال ، فأتى رسول الله ﷺ أعرابى فقال : ألا تنجزنى ما وعدتنى ، فقال له : « أبشر » فقال : قد أكثرت على من أبشر ، فأقبل على أبى موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال : « رد البشرى فاقبلا أنتما » قالا : قبلنا .

والبشارة للرعيل الأول من رسول الله ﷺ ذات مذاق خاص ، ونكهة خاصة لا يعرفها إلا هذا الجيل ، والذى يرى بكل ذرة من كيان رسول الله ﷺ أو مست كيان رسول الله ﷺ تقدم حياتهم من أجلها ، فما هى البشارة التى قبلاها ؟

(ثم دعا بقدح فغسل يديه ووجهه ومجَّ فيه ثم قال : « اشربا منه ، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما » وأى عطاء يعدل هذا العطاء النبوى الذى خص أقرب الناس إليه وأحبهم أبا موسى الأشعرى ، وبلال بن رباح . هو نور يسرى فى هذين الكيانين وهداية حتى يلقيا وجه ربهما ، فهو يريد لهذا العطاء أن ينشىء لهما عافية فى بدنهما ، فى ظهورهما ونحورهما، وعافية فى قلبيهما ودينهما فيعصمهما من الفتن والهلع والجزع ، لو قيل لأى منهما : هل لك فى عشرة آلاف من الإبل ، أو تأخذ مج رسول الله ﷺ فى رجيع غسيل وجه النبى ويده ؟ لما كان عندهما مجالاً للمقارنة، فهذه الذرات التى خالطت فم المصطفى ووجهه ونحره قد تطهرت برحيق النبوة، واغتسلت بهدى الوحى، فأصبحت نوراً يضىء فى الوجود، فأحب رسول الله ﷺ هذا النور لصفيين من أصحابه.

« اشربا منه ، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما ، وأبشرا » .

فأخذا القدح ففعلا ، وراحا يتنافسان على حصتيهما ، وإذا بشريك ثالث يطالب بحقه من القسمة . فمن الشريك الثالث ؟

إنه أم المؤمنين أم سلمة رضوان الله عليها ، والعجب لأم المؤمنين ألا تشبع من رسول الله ﷺ ، فهى معه فى بيته تنال من رحيقه ، وتغتسل معه فى إناء واحد ، وتمضى ليلة كاملة معه كل تسع ليالٍ ، وقد تشرب مع رسول الله ﷺ من قدحه ، وتأكل من طعامه ، مع هذا كله مالها ولهذه المجة ولهذا الرحيق من الغسيل تشارك بها الحبيبين بلال وأبى موسى ، ولكنه النور للذى أحسه ، وللذى عاشه ، كلما ازداد نهلاً كلما ازداد ظمأ وشوقًا ، ولذلك خافت أن تفوتها هذه الفرصة .

(فنادت أم سلمة من وراء الستر : أن أفضلا لأمكما ، فأفضلا منه طائفة) (١) .

ومضى الأعرابى محمراً وجهه يندب حظه أن فاته ما وعده محمد به متبرمًا من

---

(١) البخارى ٢/٥/١٩٩ .

قوله: « أبشر » رافضًا هذه البشارة النبوية، والتى تحولت لهذين الصاحبين ولأم المؤمنين.

من لعاعة من الدنيا إلى رسول الله ﷺ :

وهى أول مرة فى تاريخ هذا الدين مع حزب الله من الأنصار ، لقد برزت بعض معالمها همسًا بعد فتح مكة ، وها هى تسرى وتشيع فى حنين .

روى ابن إسحاق والإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، والإمام أحمد والشيخان من طريق أنس بن مالك ، والشيخان عن عبد الله بن يزيد بن عاصم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أصاب غنائم حنين ، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ، وفى رواية : طفق يعطى رجلاً المائة من الإبل ، ولم يكن فى الأنصار شىء منها قليل ولا كثير ، فوجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثر فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : يغفر الله تعالى لرسول الله ﷺ إن هذا لهو العجب ، يعطى قريشًا ، وفى لفظ : الطلقاء والمهاجرين ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، إذا كانت شديدة فنحن ندعى ، ويُعطى الغنيمة غيرنا ، وددنا أن نعلم ممن كان هذا ، فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا ، وإن كان من رأى رسول الله ﷺ استعتبناه .

وراحت المقالة تسرى فى صفوف الأنصار على أكثر من صيغة ، حتى صيغت شعرًا على لسان حسان بن ثابت ، ولأول مرة يدمج حسان بن ثابت شعرًا يعاتب فيه حبيبه المصطفى ﷺ فهو طيلة حياته لا يصوغ إلا الثناء على رسول رب العالمين .

وها هو يكشف لاعج نفسه وهم قلبه :

زاد الهموم فماء العين منحدر ... سحًا إذا حفلته عبرةٌ درر
وجدًا بشماء إذ شماء بهكنة ... هيفاء لا ذنن فيها ولا خورُ
دع عنك شماء إن كانت مودتها ... نزرًا وشر وصال الواصل النذرُ

وترك شماء ، اتجه إلى سيد الخلق قائلاً له :

وائت الرسول وقل يا خير مؤتمن ... للمؤمنين إذا ما عُدّد البشر
علام تُدعى سُليم وهى نازحة ... قدام قوم همُوا آووا وهم نصروا

ولم يسبق لحسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الإسلام أن يسأل مثل هذا السؤال ، لرسوله الحبيب ، أو يبيح لنفسه أصلاً أن يفكر فيه ، أما أن يثنى على الأنصار ، فحيهلاً بذلك:

سماهُمُ الله أنصارًا بنصرهم ... دين الهدى ، وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترضوا ... للنائبات وما خافوا وما ضجروا

والنـاس إلـب علينا فيك ليس لنا إلا السيوف ، وأطـراف القنا وزر

ولا عجب . فتاريخهم تاريخ هذا الدين كله :

نجالد النـاس لا نبقى عـلى أحـد ولا نضيّـع مـا توحـى به السورُ
ولا تهـز جنـاة الحـرب نادينـا ونحـن حـين تلظـى نارهـا سـعر
كمـا رددنـا بـبدر دون مـا طلبوا أهـل النفـاق ففينـا ينزل الظفر
ونحـن جـندك يوم النعف من أحد إذا حـزّبت بطـراً أحزابهـا مُضرُ
فمـا ونينـا ومـا خمنـا وما خبروا منـا عثـاراً وكل النـاس قد عـثروا

وصدق حسان ، فالأنصار كما ذكر وأكثر وأعظم ، لكن نَفَس العتاب يتدسس كل بيت ، فهل هذا جزاؤنا يا رسول الله أن تقدّم علينا سليم ابنة البارحة .

ووصلت الأخبار إلى الحبيب المصطفى بهذا العتاب من أحب خلق الله إليه ، وروايات الصحيح تنفى أن يكون سادة الأنصار قد شاركوا فى هذا العتاب ، كما فى البخارى : (فقام النبى ﷺ فقال : « ما حديث بلغنى عنكم ؟ » فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا ، وأما ناس منا حديثة أسنانهم ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله ، يعطى قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم) .

أما رواية ابن إسحاق فتؤكد أن العتب شمل أكثر الأنصار (فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم ؟ قال : « فيم ؟ » قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك ، وفى سائر العرب ، ولم يكن فيهم من ذلك شىء ، فقال رسول الله ﷺ : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : ما أنا إلا امرؤ من قومى .

أقدم ضباطه عليه الصلاة والسلام ، وأعلاهم رتبًا ، وأعظمهم كفاءة ، ولو كانوا فى ميزان هذا العصر لكانت رتب الجيش العليا من عقيد إلى فوق منهم ، والقادة العسكريون هُم الذين يتحكمون فى مصير أممهم فى ذلك التاريخ ، وهم إضافة إلى ذلك قادة سياسيون هم أركان الدولة ، وعظماء الأمة ، ولا يتقدم أحد عليهم أو يوازيهم إلا المهاجرون ، وأكبر تجمع فى الجيش النبوى إذ يقارب أربعة آلاف ـ بمعنى أنهم ربع الجيش ـ وهم على قلب واحد،وهم قادرون على تنفيذ انقلاب عسكرى ، أو تمرد على الأقل . يعيد الأمور إلى نصابها ، كما لو صدر قرار بإيقاف رواتب هؤلاء جميعًا وتحويل الميزانية كلها للوافدين الجدد الذين كانوا قبل شهر أو أقل من ألد أعداء هذا الدين .

وأدرك سيد ولد آدم ﷺ أنه لابد من معالجة الأمر فقال لسعد :

« فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ـ وفى لفظ فى هذه القبة ـ فإذا اجتمعوا فأعلمنى » .

فخرج سعد يصرخ فيهم حتى جمعهم فى تلك الحظيرة ، وقال أنس : فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم ولم يدع غيرهم ، فجاء رجال من المهاجرين فأذن لهم فيهم ، وجاء آخرون فردهم حتى إذا لم يبق أحد من الأنصار إلا اجتمع له وأتاه فقال : يا رسول الله ، قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « هل منكم من أحد غيركم ؟ » قالوا : لا يا رسول الله إلا ابن أختنا ، قال : « ابن أخت القوم منهم » .

جرى كثيرًا فى أمم الأرض بمثل هذه المناسبة ، وخشية على السلطة أن استدعيت قوات أخرى فأبادت الحاضرين جميعًا فى مجزرة جماعية،وإذا كان الأمر أخف من ذلك، فأن يتم اعتقال جماعى لإيقاف مثل هذا التمرد ، وفى أرفع مستويات أهل الأرض أن يكون تأنيب وتوبيخ وتهديد بالقضاء على كل اعتراض يمكن أن يتم فيما بعد ، وتفريق هؤلاء الضباط أو تسريحهم أو نفيهم حتى يقضى على الفتنة بمهدها .

هذا ما تعرفه أمم الأرض فى جيوشها حين تقع مثل هذه الأزمات ، لكن ما جرى بين الأنصار ، وبين رسول الله ﷺ أفق وضيء أعلى من النجم وأرقى من السماء لم تصل له البشرية فى تاريخها ولن تصل إليه ، لأن مثل هذا الجيل الفريد لم يتكرر فى التاريخ ، وهو الجيل الذى قال الله تعالى فيه عز من قائل :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ [الحشر] .

وما أعتقد أن مثل هذا الثناء من رب العالمين ورد على أحد بعد الأنبياء والمرسلين مثل ما ورد على هؤلاء الأنصار ، فهم جيل العطاء لا جيل الأخذ ، وما تم اليوم يتسق مع مستواهم وأفقهم الذى خصهم الله تعالى به ، ولنمض معًا مع إمام المربين فى الوجود ، ونشهد كيف عالج رسول الله ﷺ هذه الأزمة الجماعية فى أكبر تجمع فى جيشه وحزبه ، وهو فقيه هذه النفوس وخبيرها .

(فقام رسول الله ﷺ خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« يا معشر الأنصار ، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ » وفى رواية: « متفرقين فألفكم الله ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله،

الله ورسوله أمنّ وأفضل .

(وفى رواية : « ألا تجيبون يا معشر الأنصار » . قالوا : وما نقول يا رسول الله ، وماذا نجيبك ؟ المنّ لله ولرسوله) .

ولا شك أن شريط حياتهم قد استعادوه فى هذه اللحظات ، واستعرضوا تاريخهم الدامى من الصراع الذى استمر بينهم مائة سنة ، ما ينتهون من حرب إلا ويقعون فى أخرى، وأنهم كانوا يعيشون فى الضلالة ، ويعبدون الأوثان والحجارة ، وهم برسول الله ﷺ أنقذهم وهداهم ووحدهم وأغناهم ، فأين هم اليوم مما كانوا عليه من قبل .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾

[آل عمران]

هذه حقائق خالدة ثابتة ، لكن أليس بجوارها حقائق أخرى من بلاء الأنصار ، وجهاد الأنصار ، وتضحيات الأنصار ، وأمام هذا الجانب النفسى الآخر ، جاء التقرير النبوى الثانى يقول :

« والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصُدِّقتُم : جئتنا طريدًا فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، وخائفًا فأمناك ، ومخذولاً فنصرناك ، ومكذَّبًا فصدَّقناك » فقالوا : المنّ لله تعالى ولرسوله .

وفى هذا الإكرام النبوى لهم ، تكاد تكون قصة العتب قد أجهضت كلها ، فهم يخشون شيئين :

الشىء الأول : أن يكون نزل بهم سخط من الله ورسوله لذنب اقترفوه فحرموا العطاء من دون الناس جميعًا .

الشىء الثانى : أن يكون رسول الله ﷺ قد نسيهم فى غمرة احتفائه بقومه وبالعرب وبإقبال الناس على هذا الدين .

وإذ إن الأمرين لا وجود لهما ، فلا غضاضة من حرمان العطاء مهما كان شأنه، فأن يقول لهم سيد الخلق مقرًا ومعترفًا بفضلهم: « ولو شئتم لقلتم، ولصدقتم ولصُدِّقتم، ألم تكن طريدًا فآويناك ، ألم تكن . . . » لهو أعظم شهادة من رسول رب العالمين بأنهم هم القادة وهم السادة وهم السباقون ، وكان من الممكن أن ينتهى الأمر بهذه الشهادة النبوية ، ويمسح العتب من الأنصار بناءً عليها .

ولكن الأفق النبوى الأرحب والأعظم ، لا يكفيه من أحب خلق الله له أن يزول العتب من نفوسهم على غصة ، بل يريد أن يرتفع بهم أكثر وأكثر ، وها هو يمضى فى إتمام صياغتهم العليا التى تتناسب مع مقامهم الرفيع الوضىء الذى لا يرقى إليه أحد ، ولنتابع هذه الفقرات التى تعرض أمامهم دوافع العطاء التى يرفضون على ضوئها أن ينالوا شيئًا :

« إنى لأعطى رجالاً حديثى عهد بكفر لأتالفهم بذلك » .

وفى رواية : « إن قريشًا حديثوا عهد بمصيبة وجاهلية ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتالفهم » وفى رواية : « أوجدتم يا معاشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قومًا أسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم » .

وأحس الأنصار العظام هنا أنهم سقطوا فى وهدة لا تتناسب مع مقامهم العالى ، وأحسوا بلذع الندم ، وغصة الذلل أن يكون قد صدر منهم هذا ، وهم المؤتمنون على هذا الدين ، وهم الذين يباهى الله تعالى بهم ملائكته فى ترفعهم عن الدنيا ، وفى فدائهم وتضحياتهم التى كانوا المثل المحتذى فيه ، إنهم الآن فى حالة من تجرع غصص الآلام لهذه الكبوة ولهذه الهفوة ، التى تجعلهم أدنى مما وصفهم به رسول الله ﷺ ، والفرق كبير وكبير بين الوجد والعتب أولاً ، ثم العفو على غصة ثانيًا ، ثم تجرع آلام غصص الندم أن يكون صدر هذا منهم ثالثًا .

ولكن البناء العظيم لا يكفيه هذا الأفق ، فها هو يعطيهم من فيضه ومن مكنون حبه ومن مكنون ثقته ما خبأه عليهم خلال هذه الفترة حفاظًا على قلوبهم من الطيران بالسعادة فى هذا المقام، فهم عنده أكبر من قومه وأكبر من أهله، فقال لهم عليه الصلاة والسلام:

« ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم تحوزونه فى بيوتكم ، فوالله لمن تنقلبون به خيراً مما ينقلبون به » .

وإذا الدنيا غير الدنيا ، وإذا الخلق غير الخلق، وإذا الأنصار ترتفع قلوبهم وترتفع ، وتسمو وتسمو ، وتمرع بالحب وتمرع، وإذا البكاء والنحيب هو مخلصهم من هذه الهفوة، وهو الحل لما آبوا به من الفضل . آبوا برسول الله ﷺ من دون خلق الله جميعًا .

وفى جو هذا البكاء ، وفى جو هذا النحيب ، تقدَّم العطايا ، وتقدَّم الهبات بلا حد ولا قيد ، عطايا لا يعرف فضلها إلا أصحابها ، عطايا نبوية وهبات نبوية بعد أن وهب رسول الله ﷺ لهم ذاته أن يكون المحيا محياهم والممات مماتهم ، يتفجر هذا العطاء النبوى بالقول :

« فوالذى نفس محمد بيده ، لو سلك الناس شعبًا ، وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار » .

« والله لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار » .

« اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

رفقًا بهم يا سيد الخلق ، فما عادت قلوبهم تتسع لأكثر من هذا العطاء ، ومن هذا الفيض تكاد قلوبهم تعتصر عصراً، وتصهر صهراً بحبك وفدائك، والوجد بك لا عليك، والفداء لأدنى ذرة تمسك بأرواحهم وأموالهم وأولادهم وحياتهم .

رفقًا بهم يا سيد الخلق ، فقلوبهم قلوب بشر لم تعد تملك فيها ذرة واحدة لا تنبض بالحب والود والوجد والفداء .

(وبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسمًا وحظًا) .

وأراد رسول الله ﷺ أن ينزل بقلوبهم شيئًا ما بعد هذا الوجد والحب حتى لا تتلف، وكان أعظم ما أمل رسول الله ﷺ أن يأتيه الفتح بالبحرين ، وهى القطيف والإحساء ، وهى ربيع العرب كلهم ، وواحة العرب كلهم ، لكنهم أبوا هذا التسكين ، ومضوا صعداً فى ذلك الإرتفاع .

(وذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أراد حين إذ دعاهم أن يكتب بالبحرين يكون لهم خاصة بعده دون الناس ، وهى يومئذ أفضل ما فتح عليه من الأرض)(١) . لكنهم أبوا هذه اللوثة بالدنيا، وأبوا أن يخالط قلوبهم شىء مع رسول الله ﷺ. (فقالوا: لا حاجة لنا بالدنيا بعدك) .

وإن لذة تجرع حرمان الدنيا بالفوز برسول الله ﷺ لا يودون أن يعدل بها لذة .

فأخبرهم عليه الصلاة والسلام أن هذا الحرمان قد يستمر بعده وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، لكنه معهم بين ظهرانيهم حيًا وميتًا ـ صلوات الله عليه ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وسيبقون معه وحده . . . وحده من دون الدنيا إلى أن يلتقوا معه على الحوض . حيث الآنية بعدد نجوم السماء ، والناس يتزاحفون للوصول إلى رسول الله ﷺ،وهم هم الأوائل آنذاك فى العطاء الربانى ثم فى جنات النعيم: « إنكم ستجدون بعدى أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » ، وإنما هى ساعة قيلولة من

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٥٨ .

وفى صحة هذا النص شك ؛ إذ لم تكن البحرين قد فتحت على رسول الله ﷺ بعد ، وإنما كان ذلك فى العام الذى تلاه .

الدنيا ثم بعدها الآخرة ، وآنذاك يعرف الناس من هم سادات الدنيا فى الوجود .

العودة إلى المدينة وانتهاء الدورة :

قال محمد بن عمر وابن سعد : انتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليالٍ خلون من ذى القعدة ، فأقام بالجعرانة ثلاثة عشر ليلة ، وأمر ببقايا السبى فحبس بمجنة بناحية مرِّ الظهران . قال فى البداية : والظاهر أنه ﷺ أبقى بعض المغنم ليتألف به من يلقاه من الأعراب فيما بين مكة والمدينة ، فلما أراد الانصراف إلى المدينة ، خرج ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ليلاً ، فأحرم بعمرة من المسجد الأقصى [1] الذى تحت الوادى بالعدوة القصوى ، ودخل مكة فطاف وسعى ماشيًا ، وحلق ورجع إلى الجعرانة ليلة ، وكأنه كان بائتًا فيها . . . فلما فرغ رسول الله ﷺ من أمره ، غدا يوم الخميس راجعًا إلى المدينة ، فسلك فى وادى الجعرانة حتى خرج على سرف ، ثم أخذ فى الطريق إلى مرِّ الظهران ، ثم إلى المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة ـ فيما زعمه أبو عمرو المدنى .

قال أبو عمرو : وكانت مدة غيبته ﷺ من حين خرج من المدينة إلى مكة فافتتحها، وواقع هوازن ، وحارب أهل الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يومًا .

هذان الشهران والنصف يمر أمثالهما وعشرة أضعافهما آلاف المرات فى التاريخ دون أن يذكر بهما حدث يذكر، أما هذان الخمس والسبعون يومًا كان لها دور فى تغيير تاريخ البشرية ، وخارطة الأرض . فقد انتهت خلالها الوثنية من الأرض العربية ، والتى كانت تتزعمها مكة المكرمة ، وفى البيت الحرام ، وفى جوار الكعبة المشرفة أول بيت وضع للناس لعبادته وتوحيده ، وغسلت عار عشر قرون عنها كانت تنوء تحت ظل هذا الشرك ، وعرف الشيطان أن دورة له على الأرض قد انتهت وصُفيت، هذه الدورة هى الشرك بالله فى جزيرة العرب ، فهو لن يعبد بعد اليوم ويتبع فى الوثنية والشرك .

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ورضى فيما دون ذلك فيما تحقرون من أعمالكم . . . » .

وهل هناك أعظم من هذا الحدث فى تاريخ البشرية فى أن تتحرر ربقة التوحيد فيها من عبادة الشيطان إلى قيام الساعة،وقد تم خلال هذه الدورة التدريبية صياغة أمة جديدة، خلال ثلاثة أشهر تجاوز عدد أفرادها عشرة آلاف جندى ، وهى تمثل سبعة أضعاف الأمة المسلمة المصاغة خلال عشرين عامًا ، وإن كانت لا تصل إلى مستواها بل دون مستواها

---

(١) المسجد الأقصى : المقصود به البعيد ، وليس المسجد الأقصى فى القدس .

بكثير من ناحية الجوهر ، لكنها جماهير مجندة جاهزة لتجاهد فى سبيل الله وحده ، وتخلص من ربقة القبيلة والعصبة لها إلى الانضمام إلى حزب الله الذى أصبح يقود البشرية نحو النور منذ هذا الوقت ، وإن قورنت هذه الجماهير من العشرة آلاف بالنماذج القيادية السابقة التى تمت صياغتها حتى بيعة الرضوان ، فتبقى أدنى أفقًا منها بكثير ، لكنها إذا قورنت بالبشرية الهابطة كلها دون تلك القمم القيادية ، فستبقى أعلى مرتقى تصل إليه البشرية فيما بعد ، ويكفى شرفًا لها أن ذكرها الله تعالى فى كتبه المقدسة ، حين تبرز فى جبال فاران معلنة كلمة التوحيد فى الأرض ، مقدمة النموذج الأعلى للبشرية سابقها ولاحقها بقيادة رسول رب العالمين .

وحفلت هذه الدورة التدريبية كذلك خلال الخمس والسبعين يومًا المذكورة ، بانتهاء القوى المعادية وانضمامها للإسلام ، فسواءً مثلت بجميع أفرادها وزعاماتها كما هو الحال فى هوازن أو مثلت فى زعمائها كما هو الحال فى تميم وعامر وغطفان وأسد . . . لكنها تعنى أن القوة الوحيدة التى بقيت على الساحة فى الحجاز وفى نجد هى قوة الإسلام ، والقيادة الوحيدة التى بقيت على الساحة الحجازية والنجدية هى قيادة رسول الله ﷺ ، اللهم إلا بعض الجيوب الصغيرة المتناثرة هنا وهناك ، والتى ستعلن تصفيتها النهائية بعد عام كامل من اليوم، حين مضى على رضي الله عنه بصدر سورة براءة وقرأها على العرب كافة فى يوم حجهم ، حيث كان نائب القائد الأعلى ووزيره الأول هو أمير الحج : أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وشهدنا فى هذه الدورة التى خضع لها اثنا عشر ألف قائد وجندى من جميع المستويات والاختصاصات ، كيف تمت التربية الفردية لكثير من النماذج ، وكيف تمت التربية الجماعية ، وكيف تم بناء الدولة ، وكيف تم توحيد الكيانات المتفرقة كلها فى كيان إسلامى موحد، وندع الحديث للصالحى يحدثنا عن بعض الحكم فى مقتطفات منه خلال هذه الدورة :

(... **الثانى** : اقتضت حكمة الله تعالى تأخير فتح الطائف فى ذلك العام لئلا يستأصلوا قتلاً . . . وكما استأنى بهم من قبل لعل الله عز وجل أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى وحده لا يشرك به شيئًا ، ناسب قوله ، بل أستأنى بهم ألا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم ، وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين فى رمضان من العام القابل.

الثالث : ولما منع الله الجيش غنائم مكة فلم يغنموا منها ذهبًا ولا فضة ولا متاعًا ولا سبيًا ولا أرضًا ، وكانوا قد فتحوها بأنجاب الخيل والركاب ، وهم عشرة آلاف وفيهم

حاجة إلى ما يحتاجه الجيش من أسباب القوة، حرَّك الله سبحانه وتعالى قلوب المشركين في هوازن لحربهم ، وقذف في قلب كبيرهم مالك بن عوف إخراج أموالهم ونعمهم وشابِّهم وشيبهم معهم نزلاً وكرامة ، وضيافة لحرب الله تعالى . . . فلما أنزل الله تعالى نصره على رسوله وأوليائه ، قيل : لا حاجة لنا في دمائكم ولا في نسائكم ولا في ذراريكم ، فأوحى الله تعالى إلى قلوبهم التوبة فجاؤوا مسلمين ، فقيل : من شكران إسلامكم وإتيانكم أن ترد عليكم نساؤكم وأبناؤكم وسبيكم و : ﴿ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنفال] .

الرابع : اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن غنائم الكفار لما حصلت قسمت على من لم يتمكن الإيمان من قلبه من الطبع البشرى من محبة المال ، فقسمه فيهم لتطمئن قلوبهم ، وتجتمع على محبته ؛ لأنها جبلت على حب من أحسن إليها ، ومنع أهل الجهاد من كبار المجاهدين ورؤساء الأنصار مع ظهور استحقاقهم لجميعها ؛ لأنه لو قسم ذلك فيهم لكان مقصوراً عليهم بخلاف قسمه على المؤلفة لأن فيها استجلاب قلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضى رئيسهم، فلما كان ذلك العطاء سببًا لدخولهم فى الإسلام، ولتقوية قلب من دخل إليه من قبل . تبعهم من دونهم فى الدخول فكان فى ذلك مصلحة عظيمة.

الخامس : ما وقع فى قصة الأنصار ، اعتذر رؤساؤهم بأن ذلك من بعض أتباعهم وأحداثهم ، ولما شرح لهم رسول الله ﷺ ما خفى عليهم من الحكمة فيما صنعوا رجعوا مذعنين ، وعلموا أن الغنيمة العظيمة ما حصل لهم من عود رسول الله ﷺ إلى بلادهم فسلوا عن الشاه والبعير والسبايا بما حازوه من الفوز العظيم ومجاورة النبى الكريم حيًا وميتًا ، وهذا دأب الحكيم يعطى كلاً ما يناسبه) (١) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

الشاعران

هذان الشاعران هما : عباس بن مرداس ، وكعب بن زهير ، وكلاهما من فحول الشعراء العرب فى الجاهلية ، نتحدث عن قصة انضمامهما لهذا الدين ، ودورهما فى الذود عنه ، ودور التربوية النبوية فى إعادة صياغتهما على ضوء الإسلام .

أولاً : عباس بن مرداس :

أ ـ لقد كان عباس بن مرداس خصمًا عنيفًا للإسلام والمسلمين ، ومن ورائه بنو سليم ، ولا ننسى :

أن محنة بئر معونة إنما كانت بقيادة عامر بن الطفيل ، وجنود قبائل من سليم ، ورعل وذكوان ، ونجده يخوض المعركة الشعرية ضد المسلمين ، ويقف بصف اليهود من بنى النضير ضد المسلمين فيقول :

فبكٍّ بنى هارون واذكر فعالهم ... وقتلهم للجوع إذ كان مجدبا
أخوّات أذرِ الدمع بالدمع وابكهم ... وأعرض عن المكروه منهم ونكبا
فإنك لو لاقيتهم فى ديارهم ... لألفيت عما قد تقول منكبْا
سراع إلى العليا ، كرام لدى الوغى ... يقال لباغى الخير أهلاً ومرحبًا[1]

وذلك فى مساجلة شعرية بينه وبين الشعراء المسلمين .

ب ـ ثم كان الانقلاب الهائل فى أعماقه ، كما روى ابن هشام قال :

(كان إسلام عباس بن مرداس ـ فيما حدثنى بعض أهل العلم بالشعر ـ وحديثه أنه كان لأبيه مرداس وثن يعبده ، وهو حجر كان يقال له : ضَمار ، فلما حضر مرداس (أى حضره الموت) قال : أى بنى : اعبد ضمار ، فإنه ينفعك ويضرك ، فبينا عباس يومًا عند ضمار ، إذ سمع من جوف ضمار مناديًا يقول :

قل للقبائل من سليم كلها ... أودى ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهتد
أودى ضمار وكان يعبد مرة ... قبل الكتاب إلى النبى محمد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٠٢ .

فحرق عباس ضمار ، ولحق بالنبى ﷺ فأسلم) (١) .

جـ ـ ولم يكن عباس بن مرداس السيد الأول فى بنى سليم، إنما كان الشاعر الأول.

ويحدثنا ابن سعد عن السيد الأول ، وعن وفادة سليم لرسول الله ﷺ فيقول :

(أخبرنا هشام بن محمد قال : حدثنى رجل من بنى سُلَيْم من بنى الشريد ، قال : وفد رجل منا يقال له قِدْر بن عمار على النبى ﷺ بالمدينة فأسلم وعاهده على أن يأتيه بألف من قومه على الخيل ، وأنشد يقول :

شددت يمينى إذ أتيت محمدًا ... بخير يد شدت بحُجزة مئزر
وذاك امرؤ قاسمته نصف دينه ... وأعطيته ألف امرئ غير أعسر

ثم أتى إلى قومه فأخبرهم الخبر ، فخرج معه تسعمائة ، وخلف فى الحى مائة ، فأقبل بهم يريد النبى ﷺ . فنزل به الموت ، فأوصى إلى ثلاثة رهط من قومه إلى العباس ابن مرداس وأمَّره على ثلاثمائة ، وإلى الأخنس بن يزيد وأمَّره على ثلاثمائة ، وإلى جبَّار بن الحكم ، وهو الفرار الشريدى وأمَّره على ثلاثمائة ، وقال : ائتوا هذا الرجل حتى تقضوا العهد الذى فى عنقى ، ثم مات ، فمضوا حتى قدموا على النبى ﷺ ، فقال : « أين الرجل الحسن الوجه ، الطويل اللسان ، الصادق الإيمان ؟ » قالوا : يا رسول الله دعاه الله فأجابه ، وأخبروه خبره ، فقال : « أين تكملة الألف الذين عاهدنى عليهم ؟ » قالوا: قد خلّف مائة بالحى مخافة حرب كانت بيننا وبين كنانة . قال: « ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم فى عامكم هذا شىء تكرهونه » ، فبعثوا إليها ، فأتته بالهدة ـ وهى مائة ـ عليها المنقع بن مالك ـ بن سليم ، فلما سمعوا وئيد الخيل قالوا : يا رسول الله أُتينا . قالوا : « لا ، بل لكم لا عليكم ، هذه سليم بن منصور ، قد جاءت » فشهدوا مع النبى ﷺ الفتح وحُنينًا ، وللمنقع يقول العباس بن مرداس القائد :

القائد المائة التى وفَّى بها ... تسع المئين فتم ألف أقرع)(٢)

د ـ وها هو عباس بعد فتح مكة ينضم إلى الشعراء الإسلاميين ، ونجده لأول مرة يشارك فى فرحة الفتح بقوله :

منا بمكة يوم فتح محمد ... ألفٌ تسيل به البطاح مسوَّمُ
نصروا الرسول وشاهدوا أيامه ... وشعارهم يوم اللقاء مقدَّمُ
فى منزل ثبتت به أقدامُهم ... ضنك كأن الهام فيه الحنتم (٣)

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٢٧ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٣) الحنتم : الحنظل .

جـرَّت سـنابكها بنجـد قبلـهـا حـتى استقاد لـهـا الحجاز الأدهم
الـلـه مـكّنـه لـه وأذلـه حـكم السيوف لنا وجَدٌ مزحم (١)
عـود الـرياسـة شـامـخ عـرنينه مـتطلعٌ ثـغَر المكـارم خِضرِمُ (٢) (٣)

ومع أنه لم يكن هناك حرب تذكر فى الفتح ، لكن سُليمًا حاربت مع خالد فى الخندمة ، وانتصرت على فلول قريش التى تجمعت تريد المقاومة .

أما فى حنين ، فقد كانت سُليم أول من فرَّ فى بداية المعركة ، ولعلها عادت فثبتت فى الجولة الثانية ، وكان بلاؤها عاديًا فى المعركة ، لكن الشعر الذى قدَّمه عباس بن مرداس يضع سليم فى المصافّ الأولى ، وأن قبيلته بها تم النصر ، وعلى طريقة الشعر الجاهلى الذى يهوّل كثيرًا ، وينسب لنفسه من البطولات أكثر بكثير من واقعه .

لقد احتل شعر عباس بن مرداس السلمى الموقع الأول فى الساحة الإسلامية ، وطفا على الشعراء الإسلاميين الأوائل ، ويكاد يكون شعر حنين كله لابن مرداس ، فلا نشهد لحسان بن ثابت ولا لكعب بن مالك شيئًا فى هذا الفتح ، وهذا هو الشىء الطبيعى ، فقد كانت حنين هبة ربانية لرسول الله ﷺ ، ولم يكن فيها ذلك القتال الرهيب بدليل نتائجها ؛ إذ لم يستشهد من المسلمين إلا اثنى عشر شهيدًا ليس فيهم شهيد واحد من بنى سُليم ، أما عباس فهو مكثر يكاد الشعر يغلبه ، وكما قال لرسول الله ﷺ : بأبى أنت وأمى ، إنى لأجد للشعر دبيبًا على لسانى كدبيب النمل ، ثم يقرصنى كما يقرص النمل فلا أجد بدًا من قول الشعر ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » وفى قول العباس هذا تعبير عن شاعرية أصيلة ، فحين تواتيه المعانى لا يستطيع لها دفعًا ولا ردًا ، فالشعر يتنزل على لسانه ، وتفيض به قريحته (٤) .

وحيث لم يمر على إسلامه إلا فترة وجيزة . نجد فى شعره تزاوج العنصرين الإسلامى والجاهلى ، حيث لم يكن قد تمت تربيته وصياغته بالتربية الكاملة ، وتشير الروايات إلى أن رسول الله ﷺ جعل قائدهم الضحاك بن سفيان الكلابى الذى كان يعد بمائة فارس (وذكر أبو عمر فى ترجمة الضحاك بن سفيان أن النبى ﷺ لما سار إلى فتح مكة كان بنو سليم تسعمائة ، فقال لهم ـ أى رسول الله ﷺ :

«هل لكم فى رجل يعدل مائة يوافيكم ألفًا» فوافاهم بالضحاك وكان رئيسهم. . .(٥).

---

(١) مزحَم : كثير المزاحمة . (٢) خضرم : الجواد الكثير العطاء .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٢٦ .
(٤) ديوان العباس بن مرداس السلمى. ت.د. يحيى الجبورى ، المقدمة ص ١٦، ١٧ .
(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٢٦٦ ت (٤١٦٠) .

هـ ـ فعباس ﷺ يفتتح القصيدة الأولى برسول الله ﷺ :

يا خاتم النُّبَّاء إنك مرسل ... بالحق كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة ... فى خلقه ومحمداً سماكا

لينتقل بعدها إلى قومه بنى سليم وقائدهم الضحاك : فيفخر فيهم فى عشرة أبيات :

ثم الذين وفوا بما عاهدتهم ... جند بعثت عليهم الضحاكا
رجلاً به ذرب السلاح كأنه ... لما تكنفه العدو يراكا
يغشى ذوى النسب القريب وإنما ... يبغى رضا الرحمن ثم رضاكا

أما بنو سليم معه :

وبنو سليم معنفون أمامه ... ضربًا وطعنًا فى العدو دراكا
يمشون تحت لوائه وكأنهم ... أسد العرين أردن ثمَّ عراكا
ما يرتجون من القريب قرابة ... إلا لطاعة ربهم وهواكا
هذى مشاهدنا التى كانت لنا ... معروفة وولينا مولاكا

وكأنما المعركة فقط بين بنى سُليم وهوازن . وسُلَيْمُ اليوم مسلمة ، والعباس يفخر بإسلامها .

و ـ أما قصيدته الثانية فعلى النسق نفسه منها :

فهناك إذ نُصِرَ النبى بألفنا ... عقد النبى لنا لواءً يلمع
فزنا برايته وأورث عقده ... مجد الحياة وسؤدداً لا ينزع
وغداة نحن مع النبى جناحه ... ببطاح مكة والقنا يتهزع
كانت إجابتنا لداعى ربنا ... بالحق منا حاسر ومقنع

ولا يجد حرجًا أن يقدّم للمعركة وصفًا مجافيًا للحقيقة لا يليق بمستوى الأدب مع النبى ﷺ وكأنما الهزيمة واقعة بالمسلمين لولا بنو سليم :

نُصِرَ النبى بنا وكنا معشرًا ... فى كل بائسة تضر وتنفع

بل يقلب الحقائق ويخل بمقام رسول الله ﷺ إمعانًا فى فخره بقبيلته .

ذُدنا غداتئذ هوازن بالقنا ... والخيل يغمرها عجاج يسطع
إذ خاف حدَّهُم النبى وأسندوا ... جمعًا تكاد الشمس منه تخشع[1]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٦٢، ٤٦٣ .

فسليم التى كانت أول الفارين ـ ورسول الله ﷺ الذى واجه بذاته الشريفة جمع الثلاثين ألفًا من هوازن وحده يُصبح هو الذى يخاف حدّهم وسليم ـ هى التى تنقذ الموقف :

حتى إذا قال الرسول محمد ... أبنى سليم قد وفيتم فارفعوا
رحنا ولولا نحن أجحف بأسهم ... بالمؤمنين وأحرزوا ما جمّعوا

فلولا بنو سليم عند العباس ما كان النصر ، وحقيقة الأمر أن بنى سليم كانوا فى الطليعة أول من فر أمام جحافل الشرك .

ز ـ وها هو يعلن إسلامه أمام امرأته التى اختارت الشرك كما تقول بعض الروايات:

فإن تبتغى الكفار غير ملومة ... فإنى وزير للنبى وتابع

ولا تزال ألف سُليم تستهويه كلما جاء شيطان الشعر له :

فجئنا بألف من سُليْمٍ عليهم ... لبوس لهم من نسج داود رائع
نبايعه بالأخشبين وإنما ... يد الله بين الأخشبين نبايع
فجسنا مع المهدى مكة عنوة ... بأسيافنا والنقع كاب وساطع

إن العباس بن مرداس ﷺ لم يتمكن أن يرتفع ليكون شاعر المسلمين كلهم ، وإنما القضية فى ذهنه أن الصراع القبلى قائم بين يدى رسول الله ﷺ ، ومهمة الشاعر أن يحافظ على أمجاد قبيلته أمام الأمجاد الأخرى ، فالإسلام حاضر معه فى كل لحظة ، وقبيلته كذلك حاضرة معه فى كل لحظة :

ويوم حنين حين سارت هوازن ... إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحاك لا يستفزنا ... قراع الأعادى منهم والوقائع
عشية ضحاك بن سفيان معتصٍ ... بسيف رسول الله ﷺ والموت كانع

وهو على استعداد لحرب بنى عمه هوازن فى سبيل الله :

نذود أخانا عن أخينا ولو نرى ... مصالاً لكنا الأقربين نتابع
ولكن دين الله دين محمد ... رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بعد الضلالة أمرنا ... وليس لأمرٍ حمّه الله دافع

ح ـ ورضى لنفسه أن يكون شاعر بنى سليم فقط ، كما الأمر فى قصيدته الخامسة :

وأنـا مـع الهـادى الـنبى مـحمد وفَيْنـا ولـم يستوفها مـعشر ألفا
بفتيـان صـدق مـن سُـليم أعـزة أطـاعوا فمـا يعصون من أمره حرفا
خفـاف وذكـوان وعـوف تخـالهم مصـاعب زافـت فى طروقتها كلفا

ولا يتورع أن يجعل النصر إنما تم بهم ، فلم يتجرد بعد فى ذهنه مفهوم النصر من عند الله ، وأن الأمر بيد الله ينصر من يشاء :

بنـا عـزَّ ديـن اللـه غيـر تنحـلٍ وزدنا على الحى الـذى معه ضعفا

ويبدع بعدها من الناحية الفنية فى وصف المعركة حتى ليصل الذروة مع الفحول من الشعراء العرب :

فكـائـن تـركنـا مـن قتيل ملّحّبٍ وأرمـلة تـدعو على بعلها لهفـا
رضا الله ننوى لا رضـا الناس نبتغى ولله مـا يـبدو جـميعًا ومـا يخفى

ط ـ وهى المعانى تتكرر كل قصيدة بأسلوب جديد مبدع ، كما يبدو ذلك فى قصيدته السادسة :

واذكـر بـلاء سـليم فى مـواطنها وفـى سُـليم لأهـل الفخـر مفتخـر
قـوم هُم نصـروا الـرحمن واتبعوا دين الـرسـول وأمر النـاس مشتجر

ولا يزال يصر أن عز هذا الدين إنما جاء من سُليم :

ونـحن يـوم حنـين كـان مشهـدنا للـدين عـزًا ، وعنـد الله مـدخر
وقـد صـبرنا بأوطـاس أسـنتنا لـلـه ننصـر مـن شـئنا ونـنتصـر
حـتى تـأوب أقـوام مـنازلهـم لـولا المليك ولـولا نحن ما صدروا
فمـا تـرى مـعشرًا قلوا ولا كثروا إلا قـد أصبـح منـا فيهـم أثـر

ى ـ وننقب عن المعانى الإسلامية غير الفخر بسليم فى قصيدته السابقة ، فيأتينا ذلك المديح النبوى :

يا خير من ركـب المطى ومن مـشى فـوق الـتراب إذا تـعـد الأنـفـس

كما يفخر بتخليه عن عصبيته القبلية وهو يقاتل هوازن :

وغـداة أوطـاس شـددنـا شـدة كفت العدو وقيل منها : يا احبسوا
تـدعـو هـوازن بالإخـاوة بيننـا ثـدْىٌ تمـد بـه هـوازن أيبـس
حـتى تـركنا جـمعهـم وكـأنـه عَـيْرٌ تـعاقبـه السباع مفـرس

ك ـ ويخاف أن يأتى أحد فيدعى أنه أقرب لرسول الله ﷺ منه ، أو يذكر بلاء فى هذه الحرب غير بلاء سُليم فيسد الطريق على الجميع فى قصيدته الثامنة :

ونحن خضبناها دمًا فهو لونها غداة حنين يوم صفوان شاجره
وكنا على الإسلام ميمنة له وكان لنا عقد اللواء وشاهره
وكنا له دون الجنود بطانة يشاورنا فى أمره ونشاوره
دعانا فسمانا الشعار مقدمًا وكنا له عونًا على من يناكره
جزى الله خيرًا من نبى محمدًا وأيَّده بالنصر والله ناصره

ل ـ وتكاد تكون القصيدة الوحيدة التى اعترف فيها بفضل قبيلة أخرى إلى جوار بنى سليم وذلك فى قصيدته التاسعة :

فإن سراة الحى إن كنت سائلاً سليمًا وفيهم منهم من تسلما
وجند من الأنصار لا يخذلونه أطاعوا فما يعصونه ما تكلما

ولا ينسى الثناء على خالد بن الوليد القائد العام لسلاح الفرسان :

فإن تك قد أمرت فى القوم خالدًا وقدَّمته فإنه قد تقدَّما
بجند هداه الله أنت أميره تصيب به فى الحق من كان أظلما

ويعود بعدها إلى ألفه وما فعلت فى المعركة :

حلفت يمينًا برة لمحمد فأكملتها ألفًا من الخيل ملجما

م ـ ومع أن يوم الطائف لم يكن فيه إلا رمى بالنبال ، ولم يكن فيه طعن بالقنا أو ضرب بالسيوف ، فهو يخص ثقيفًا بهزيمتها يوم هوازن قائلاً :

إنى والسوابح يوم جمع وما يتلو الرسول من الكتاب
لقد أحببت ما لقيت ثقيف بجنب الشعب أمس من العذاب
هم رأس العدو من أهل نجدٍ فقتلهم ألذ من الشراب
هزمنا الجمع جمع بنى قسى وحكت بركها ببنى رئاب

ن ـ وبدل أن يجعل سعيه منصبًا للتلمذة فى المدرسة النبوية فيدخل هذه المدرسة جنديًا عاديًا حتى يأخذ موقعه المناسب له فى هذه المدرسة ، راح يشغل باله المنافسة مع زعيم بنى تميم وزعيم بنى غطفان ، وهما حتى هذا الوقت من خارج هذه المدرسة ، وأعلنا موقفيهما بعد الغنائم حيث قال الجيش كله : ما كان لنا فهو لرسول الله ، فيما

يتعلق بالسبايا .

قال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سُليم فلا .

وكانت المفاجأة الصاعقة له ، أن رفضت بنو سُليم رفضه ، فهى قد جاءت مهتدية به راغبة فى الإسلام ولم تأت لتحقيق زعامة عباس وغيره . . . وحين كانوا بنو تميم فى الجيش هم أزلام ابن حابس ، وكان بنو فزارة فى الجيش هم أزلام عيينة وجنده ، فلم يكن بنو سليم كذلك ؛ إنما جاؤوا مهاجرين طائعين مختارين لا طمعًا فى الغنيمة أو السبى، وبذلك خذلوا عباس على الملأ وقالوا : ما كان لنا فهو لرسول الله .

وعوضًا عن أن تقر عينه لتشرب الإسلام فى قلوب قومه ، راح يثأر لذاته وهو يصاول هذين الزعيمين .

فقد رأى أنه أجهض بزعامته أمام قرينه ، فقال لقومه : لقد أوهنتمونى .

فالقضية لا تزال فى ذهنه قضية تناطح على الزعامة ، وقد ثلّت هذه الزعامة بهذا الموقف الخارج عليه .

س ـ وكان الموقف الذى أفقده صوابه حين أعطى رسول الله ﷺ الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مائة من الإبل ، ولم يعطه إلا دون الخمسين ، فجن جنونه واعتبر أن هذا إنقاصًا من قدره ، وإجحافًا بحقه ، فهل عيينة والأقرع خير منه حتى يعطيا المائة من الإبل وهو يأخذ الخمسين أو الأربعين ، وكل زعماء المسلمين العظام وعلى رأسهم رئيسه خالد بن الوليد وقادة المسلمين : أبو بكر وعمر ، وفارس الإسلام الأول على بن أبى طالب ، لم يعطوا شيئًا من ذلك . فلم يقس نفسه على أحد منهم ، إنما كل الذى يهمه فى هذه البادية المترامية الأطراف ألا تمضى الركبان بالقول أن زعيم غطفان عيينة ، وزعيم تميم الأقرع هما أعظم جاهًا عند محمد ﷺ من شاعر سليم العباس بن مرداس ، وحضر شيطان الشعر عنده ليكون جاهزًا فى توجيه تساؤل لرسول الله ﷺ على لسانه فراح يردد :

كانت نهابًا تلافيتها بكرى على المهر فى الأجرع

وإيقاظى القوم أن يرقدوا إذا هجع الناس لم أهجع

فالذى حال بينه وبين الحصول على الغنائم هو انشغاله بحرب المشركين ، وبعدها

يأخذ المتفرجون فى المعركة أكثر منه نصيبًا من الغنائم ، وهو على فرسه العبيد يصول ويجول ويقصف فى ظهور المشركين .

فأصبح نهبى ونهب العبـ ـيدين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذا تُدرأ فلم أعط شيئًا ولم أمنع
إلا أفائل (١) أعُطيتها عديد قوائمها الأربع

وهل نسب زعيم تميم وزعيم غطفان أعظم نسبًا منى ؟

وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى المجمع

وهل هما أعظم غناءً وسؤددًا منه حتى أعطيا أكثر منه ؟

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

وإذا ثبت هذا العطاء ، فستمضى عارًا عليه أنه دون هذين الزعيمين (ومن تضع اليوم لا يرفع) .

٤ ـ واستدعى رسول الله ﷺ العباس بن مرداس الذى رأى النور بعينه وسمع النداء من داخل صنمه ضمار يدعوه للانطلاق لدين الله ، فماله يضع نفسه مع هؤلاء الزعماء الطامعين فى المغنم والرياسة . فكلمه بصفته جنديًا فى الدعوة ـ كما فى بعض الروايات: « أتقول فىَّ الشعر ؟ » .

وأحس بندم شديد ، فاعتذر بقوله :

بأبى أنت وأمى ، إنى لأجد للشعر دبيبًا على لسانى كدبيب النمل ، ثم يقرصنى كما يقرص النمل فلا أجد بدًا من قوله .

وفى رواية موسى بن عتبة عن الزهرى : (فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه فقال : « أنت القائل: أصبح نهبى ونهب العبيدين الأقرع وعيينة » فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: بأبى أنت وأمى لم يقل كذلك ، ولا والله ما أنت بشاعر ، وما ينبغى لك ، وما أنت براويه . . . فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا عنى لسانه » ففزع منها ، وقالوا : أمر بعباس بن مرداس يمثل به ، وإنما أراد رسول الله ﷺ بقوله : « اقطعوا عنى لسانه » أى يقطعوه بالعطية من الشاء والغنم) (٢) .

وتقول رواية ابن إسحاق : فأعطوه حتى رضى أو (فزادوه حتى رضى فكان ذلك قطع لسانه) (٣) .

---

(١) الأفائل : جمع أفيل وهى الصغار من الإبل . (٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ١٨٢ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٩٥ .

لكن هناك رواية أوردتها كتب الأدب ولم تروها كتب السيرة :

(فقال رسول الله ﷺ : « قم يا على فاقطع لسانه ». قال العباس: فقلت يا على، وإنك لقاطع لسانى ، قال : إنى ممض فيك ما أمرت ، فمضى حتى أدخلنى الحظائر . فقال : اعدد ما بين الأربعين إلى المائة ، قلت : بأبى أنت وأمى ما أحلمكم وأعلمكم وأكرمكم ، فقال : إن رسول الله ﷺ أعطاك أربعين ، وجعلك من المهاجرين ، فإن شئت فخذها ، وإن شئت فخذ مائة وكن من المؤلفة قلوبهم. قال : أشر على ؟ قال : إنى آمرك أن تأخذ ما أعطاك فأخذتها) (١) .

فهو مخير بين أن يلتحق بركب المهاجرين ، ويرضى بما قسم له رسول الله ﷺ ، وبين أن يلتحق بركب المؤلفة قلوبهم ، فعندئذ يتساوى مع عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس .

وهو مستوى تربوى عظيم يحرك فى نفسه الصراع بين الهدى والزعامة، وحين طلب رأى على رضي الله عنه نصحه بأن يختار الهدى على الزعامة والهجرة على السمعة والسيادة .

وهى خطوات يمضى بها النبى ﷺ فى صحبه ، حتى ينتهى بهم إلى الصف الإسلامى بعد أن كانوا ألد أعدائه .

لقد كان العباس بن مرداس شاعراً مطبوعًا ، وكان مضطربًا بين انتمائه الإسلامى ، وبين انتمائه القبلى ورسول الله ﷺ يمضى به صعدًا ليلحق بركب الإسلام الخالص النقى البعيد عن الشوائب ، وكان قتاله فى شعره يفوق كثيراً قتاله فى واقعه ، فكان كما وصفه عبد الملك بن مروان حين سأل جلساءه : من أشجع الناس فى شعره ؟ فتكلموا فى ذلك فقال : أشجع الناس فى شعره العباس بن مرداس فى قوله :

أكـــر علـى الكتيبــــة لا أبـالـــى أحتفى كان فيهـا أم سـواها (٢)

ثانيًا : كعب بن زهير :

وهو ابن زهير بن أبى سُلمى أحد الأربعة الكبار من أئمة الشعر الجاهلى ، والذى كان عمر رضي الله عنه يفضله على رفاقه ، وهو من مزينة .

وندرج مع كعب من البدايات ، حيث نضجت شاعريته ، فى صغره فأذهلت الكبار.

أ ـ (قال ابن أبى الدنيا . . . عن الشعبى قال : أنشد النابغة الذبيانى النعمان بن المنذر :

---

(١) زهر الآداب للحصرى القيروانى ٢/ ٩٣٨، ٩٣٩. ت . على البجاوى .
(٢) الإصابة فى تميز الصحابة ٢/٤/ت : (٤٥) .

تـراك الأرض إمـا مـت حقـًا ... وتحـيى مـا حييت بهـا ثقيـلا

فقال له النعمان بن المنذر : إن لم تأت بعده ببيت يوضح معناه وإلا كان إلى الهجاء أقرب ، فتعسر على النابغة النظم ، فقال له النعمان : قد أجلتك ثلاثًا ، فإن قلت ، فلك مائة من الإبل العصافير وإلا فضربة بالسيف بالغة ما بلغت ، فخرج النابغة وهو وجل فلقيَ زهير بن أبى سلمى ، فذكر ذلك له . فقال : اخرج بنا إلى البرية ، فتبعهما كعب فردَّه زهير ، فقال له النابغة : دع ابن أخى يخرج معنا ، وأردفه فلم يحضرهما شىء ، قال كعب للنابغة :

يا عم ، ما يمنعك أن تقول :

وذلـك إن فـلـلـت الـبغـى عنهـا ... فتمـنـع جـانبيهـا أن تمـيـلا

فأعجب النابغة ، وغدا على النعمان ، فأنشده ، فأعطاه المائة ، فوهبها لكعب بن زهير فأبى أن يقبلها ، وذكرها ابن دريد فى آماليه على غير هذا الوجه قال : عن . . . ابن الكلبى قال :

زار النابغة زهيرًا ، فنحر له وأكرمه ، وجاء بشراب فجلسا ، فعرض لهما شعر ، فقال النابغة البيت الأول ، وقال بعده : نزلت بمستقر العز منها ، ثم وقف فقال لزهير : أجز ، فهمهم ولم يحضره شىء ، وكان كعب حينئذ يلعب مع الصبيان بالتراب ، فأقبل فرأى كلاً منهما ذقنه على صدره ، ففكر فقال : يا أبت مالى أراك مغتمًا ، فقال : تنح لا أم لك ، فدعاه النابغة فوضعه على فخذه ، وأنشده فقال ، ما يمنعك أن تقول : فتمنع جانبيها أن تميلا . فضمه أبوه إليه وقال : ابنى ورب الكعبة .

وقال أبو أحمد العسكرى : وكان موت زهير قبل المبعث (١) .

ب ـ ويبلغ كعب مبلغ الرجال مع أخيه بجير ، ويكون الإسلام قد ضرب بجرانه فى الأرض ، وخاصة فى بنى مزينة ـ فيخرجان قبيل الفتح ـ كما روى الحجاج بن ذى الرقيبة بن عبد الرحمن بن كعب بن زهير عن أبيه عن جده قال : (خرج كعب وبجير حتى أتيا أبرق ، فقال بجير لكعب : اثبت فى غنمنا هذا حتى آتى هذا الرجل فأسمع ما يقول : فأسلم ، فبلغ ذلك كعبًا فقال :

ألا أبـلغـا عنـى بجـيرا رسـالة ... على أى شـىء ريـب غـيرك دلّكا

علـى خـلق لم تلـف أمـًا ولا أبـًا ... عليـه ولـم تـدرك عليـه أخـًا لكا

سـقاك أبـو بـكـر بـكأس رويـة ... فأنهـلك المأمـور منهـا وعلّكا

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٣/٥/٣٠٢، ٣٠٣ .

فبلغت أبياته رسول الله ﷺ فقال : « من لقى كعبًا فليقتله » وأهدر دمه) [1] .

جـ - أما بجير فقد مضى جنديًا فى دعوة الإسلام يذود عن حماها ، فشارك فى التغنى بأمجاد الفتح قائلاً :

نفى أهل الحبلق [2] كل فج ... مزينة غدوة وبنو خُفافِ [3]
ضربناهم بمكة يوم فتح النبى ... الخير فى البيض الخفافِ
صبحناهم بسبع من سليم ... وألف من بنى عثمان [4] وافِ
نطا أكتافهم ضربًا وطعنًا ... ورشقًا بالمريشة اللطاف [5]

وإذا كان شاعرنا العباس بن مرداس كما رأينا من قبل يقصر معركته على بنى سليم ، فبجير رضي الله عنه يعرض مزينة وسليم معًا ، ويصف لنا المعركة وصفًا لطيفًا هادئًا ليس باندفاع العباس قبله :

ترى بين الصفوف لها حفيفًا ... كما انصاع الفواق من الرصاف
فرحنا والجياد تجول فيهم ... بأرماح مقومة الثقاف
فأبنا غانمين بما اشتهينا ... وآبوا نادمين على الخلاف
وأعطينا رسول الله منا ... مواثقنا على حسن التصافى
وقد سمعوا مقالتنا فهمَّوا ... غداة الروع منا بانصراف [6]

د - وبعد حنين والطائف نجده ينصهر فى مدرسة النبوة ، ويبتعد عن الحديث عن مزينة وسليم وغيرها ويصبح الشاعر الإسلامى للمسلمين جميعًا فيقول :

لولا الإله وعبده وليتم ... حين استخف الرعب كل جبان
بالجزع يوم حبالنا أقراننا ... وسوابح يكبون للأذقان
من بين ساع ثوبه فى كفه ... ومقطر بسنابك ولبان [7]

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٣/ ٥/ت (٧٤٠٥) .
ونرجح أن إهدار دمه لم يكن لهذه الأبيات فقط ، إنما هناك شعر كثير هجا كعب فيه رسول الله ﷺ فأهدر دمه، بدليل قول بجير لأخيه فيما بعد (إن رسول الله قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه . . .) .
(٢) قال السهيلى : الحبلق : أرض يسكنها قبائل من مزينة وقيس ، والحبلق : الغنم الصغار ، ولعله واد لأصحاب الغنم .
(٣) بنو خفاف : بطن من سليم .
(٤) بنو عثمان : مزينة قبيلة الشاعر .
(٥) المريشة اللطاف : كناية عن السهام .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٢٥، ٤٢٦ .
(٧) مقطر بسنابك ولبان : قد أصابته الجراح وأصابت خيله .

والـلـه أكـرمـنـا وأظهـر ديـنـنـا		وأعـزنـا بـعـبـادة الـرحـمـن
والـلـه أهلكهـم وفـرّق جـمعهـم		وأذلـهـم بـعـبـادة الشـيـطـان

ونلحظ التحول الكبير فى أعماق بجير ﷺ ، فها هو يعيد النصر لله عز وجل ، والثبات لتوفيقه ، وذلة العدو لغضب الله تعالى عليه ، ولم يعد الأمر فخرًا بالقبيلة والنسب والعشيرة ، وما نقله لنا ابن هشام كذلك يحدد المعركة تمامًا كما وقعت ودور رسول الله ﷺ وثباته ، وثبات الأنصار ، واستجابتهم للنداء النبوى الخالد :

إذا قـام عـم نبيـكـم ولـيـه		يـدعـون يـا لكتيبـة الإيمـان
أيـن الـذين هـم أجـابـوا ربـهم		يـوم العـريـض وبيعة الـرضوان

فالفضل لكتائب المهاجرين والأنصار الذين تربوا من قبل ، وصاروا قادة الأمة ، وهم أصحاب بيعة الرضوان ، وقد يكون المذنبون فيها بضعة أفراد أو بضعة عشر ، فلا يضيره ذلك أو يصرفه عن الثناء على الذين استجابوا لنداء رسول الله ﷺ ، وكانوا الكتل اللحمية التى صدت الهجوم وأوقفته .

هـ ـ ومع أن الانحسار عن الطائف تحمل جراحًا فى النفوس ، لكن شاعرنا جعل منها عزًا لا يضام ويربط بينها وبين هزيمة حنين :

كـانـت عـلالـة يـوم بـطن حـنين		وغـداة أوطـاس ويـوم الأبـرق(١)
جـمعـت بـإغـواءِ هـوازن جـمعـهـا		فـتبـددوا كـالـطـائـر المتـمـزق

وشعر بجير شعر خاطف ، فهو ينهى هوازن كالطائر المتمزق حين لاقت المسلمين وفى جولتها الثانية :

لـم يمنعـوا مـنـا مقـامـًا واحـدًا		إلا جـدارهـم وبطـن الخـنـدق
ولـقد تـعرضنـا لكيمـا يـخـرجـوا		فـتحصنـوا مـنـا بـبـاب مـغلق

ويعرض جانب الرعب والخوف عندهم حين لم يجرؤوا على المواجهة :

تـرتـد حسـرانا (٢) إلـى رجراجة (٣)		شـهباء تلمـع بالمنايا يـا فيلـق (٤)

والجيش الإسلامى جيش أسود ، لا تجرؤ ثقيف أن تبرز له :

---

(١) الأبرق : الخيل الملون .
(٢) حسرانًا : جمع حسير وهو المعيى الكليل ، وقد تكون جمع حاسر .
(٣) الرجراجة : الكتيبة الضخمة .
(٤) الفيلق : الجيش الكثير الشديد من الفلق : وهى الداهية .

ملمومة [1] خضراء لو قذفوا بها ... حضنًا [2] لظل كأنه لم يخلق
مشى الضراء على الهراس كأننا ... قُدرٌ تفرقُ فى القياد وتلتقى
فى كل سابغة إذا ما استحصنت ... كالنهى هبت ريحه المترقرق
جُدُلٌ تمس فضولهن نعالنا ... من نسج داود وآل محرق

فهو يصف ذلك الحديد المحمى والحسك الذى وصفوه بين ظهرانى المسلمين ، مثل الآساد التى تخوض بين الأشواك ، وقد لبست دروعها الحصينة وقد نسجت على يد آل داود الذى علمها ﴿ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء]. ونكاد لا نجد لحصار الطائف وصفًا حيًا مثل هذا الوصف .

و ـ وتمضى حنين والطائف ويفترق الأخوان كلٍ فى معسكر ، هذا فى كتيبة الإيمان، وأخوه كعب فى جند الشيطان ، وتأخذ القضية أبعادًا أكبر إذ يتبادلان القصائد فى هجاء بعضهما ، وابتدأ المعركة كعب بن زهير ضد أخيه بجير قائلاً :

ألا أبلغا عنى بجيرًا رسالة ... فهل لك فيما قلتُ ويحك هل لكا
فبيّن لنا إن كنت لست بفاعلٍ ... على أى شىء غير ذلك دلّكا
على خُلقٍ لم تلف أمًا ولا أبًا له ... عليه وما تلفى عليه أبًا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ... ولا قائل إما عثرت لعًا لكا
سقاك بها المأمون كأسًا روية ... فأنهلك المأمون منها وعلّكا

قال ابن هشام : ويروى (المأمون) وقوله : (فبين لنا) عن غير ابن إسحاق وبعث بها إلى بجير ، فلما أتت بُجيرًا كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها ، فقال رسول الله ﷺ لما سمع : (سقاك بها المأمون): « صدق وإنه لكذوب، أنا المأمون » ولما سمع: (على خلق لم تلف أمًا ولا أبًا له عليه) قال : « أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه » .

ثم قال بُجير لكعب :

من مبلغ كعبًا فهل لك فى التى ... تلوم عليها باطلاً وهى أحزم
إلى الله ـ لا العزى ولا اللات ـ وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتَسلِمُ
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ... من الناس إلا طاهر القلب مسلم

---

(١) ملمومة : مجتمعة .

(٢) الحَضَن : جبل بأعلى نجد .

فديـن زهير وهو لا شيء دينـه ودين أبى سُلمى علىَّ محرم (١)

لقد فرقت العقيدة بين الأخوين ، وتلحظ أن بجيراً أشفق على أخيه كعب ، فهو يدعوه بحرارة إلى الإسلام ويحذره مغبة إصراره على الكفر ، وإن كان بقى على ما هو عليه ، فبجير برىء من دين آبائه وأجداده :

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾

[الممتحنة : ٤]

ز ـ وعندما كان يصول كعب فى حربه للإسلام ، كان فى صف كبار الشعراء أمثال ابن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وأبى سفيان بن الحارث ، وهبيرة بن أبى وهب ، والحطيئة ، وعباس بن مرداس ، أما وقد فتحت مكة فقد انهار الصف كله بين معتنق للإسلام، وبين فار بدينه ودمه بعد أن أهدر، يبحث فى الأرض عن منجاة له من محمد، وساعتئذ يفكر التفكير الصحيح بعد أن زال عنه انتفاش الباطل وعز السلطان . وأدرك بجير رضي الله عنه هذا الظرف الدقيق المناسب لإعادة التفكير فى المواقف لدى الرجال . وبروح الداعية المسلم الحريص على هداية أخيه كتب له الكتاب الآتى وفيه :

(. . . إن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وإن من بقى من شعراء قريش ، ابن الزبعرى ، وهبيرة بن أبى وهب ، قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة ، فطر إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائبًا ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض) (٢) .

قال ابن إسحاق : (فلما بلغ كعبًا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان فى حاضره من عدوه ، فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شىء بدًا ، قال قصيدته التى يمدح بها رسول الله ﷺ ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة . . .)(٣) .

ح ـ لاشك أن الهواجس التى كانت تملأ كيانه ـ وهو يراجع رصيده ، وما قاله فى هجاء رسول الله ﷺ ـ تريه الموت رأى عين ، وها هو يمضى ليضع نفسه بين مخالب الأسد ، ومع ذلك فيسمع عن أولئك القادة الأعداء الذين ملؤوا الدنيا حربًا ضد محمد شعرًا وسيفًا ، وكيف أنهم نالهم عفو محمد ، وصاروا من أكرم جنوده وأتباعه ، فلم لا يكون واحدًا من هؤلاء ، ولم يكن كعب يدرى أنه سيدخل التاريخ بهذه القصيدة التى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٠١ ، ٥٠٢ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٠١ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٠٢ .

أعدها ليلقيها بين يدى رسول الله ﷺ بعد إسلامه ، وأن المحبون والمادحون من الشعراء سينهجون نهجه حتى تقوم الساعة ، وكل ما يخشاه أن يغتال قبل الوصول إلى محمد بن عبد الله فيستأمن عنده ، وها هو الآن على مشارف المدينة .

(ثم خرج حتى قدم المدينة ، فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة من جهينة ـ وفى رواية أنه نزل على أبى بكر الصديق ـ فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ، فقال : هذا رسول الله ، فقم إليه فاستأمنه ـ فذكر لى ـ أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه فوضع يده فى يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال :

يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ، قال رسول الله ﷺ : « نعم » ، قال : أنا يا رسول الله كعبْ بن زهير . . .) .

ودخل فى حالة انعدام الوزن ، فهل يأمر أحدًا بقتله ؟

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أنه وثب رجل من الأنصار فقال :

يا رسول الله ، دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، فقال :

فهل يدعه يضرب عنقه ، لقد رأى رأسه قد قط عن جسده أمام عينيه ، ومع ذلك فهو يأمل . (قال : « دعه عنك ، فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه ») .

وأغضى رسول رب العالمين عن كل جراءات كعب وسفاهاته ومنَّ عليه بالحياة ، بالحياة الحقيقية بهذا الدين وله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** (٢٤) ﴾ [الأنفال] .

لقد امتدت حياته رضي الله عنه خمسة عشر قرنًا فى ضمير كل مسلم ، وهو يسمع ذلك الثناء العطر منه على رسول الله ﷺ فى آبدته التى مضت معلمًا من معالم الشعر الإسلامى فى المديح النبوى والتى جاءت فى إطارها الجاهلى العريق .

فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار ، لما صنع بهم صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، وما أجمل ذلك الغضب الذى اعترض رسول الله ﷺ فحوله حبًا ومكرمة ، وسجلاً لمآثر الأنصار فى قصيدته التالية .

ط ـ ولا نستطيع أن نعرض القصيدة كلها ، إذ أفردت كتب فى شرحها والتعليق عليها سواء من شراح الأدب والنقد أو كتاب السير والتراجم ، لكننا سنعرض مقتطفات منها،

نعرض معها كعبًا ﷺ بفنه الشعرى، وذوقه الأدبى ، ووضعه النفسى ، وإشراقة الإيمان فى قلبه كما عرضها هو ﷺ .

بانت سعاد [1] فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول

ويا لعظمة النبوة الخالدة ، وهى تستمع إلى هذا الشاعر الشارد الهارب وهو يصف محاسن محبوبته ، ثم ينتقل إلى وصف أسوأ أخلاقها الذى جعله يعيش التوتر والحرمان الدائم :

فيالها خُلة لو أنها صدقت ... بوعدها أو لو أن النصح مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل
فما تدوم على حال تكون بها ... كما تلون فى أثوابها الغول
وما تمسَّك بالوعد الذى زعمت ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت ... إن الأمانى والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

ترى ، أيصف محبوبته سعاد هنا أم يصف الجاهلية التى كان يعيش فيها ، وليس وراءها إلا السراب والضياع والأمانى الكاذبة، ومن أجل هذا دعا إلى هجرها فى النهاية.

أمست سعاد بأرض لا يبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل

ومن وصف محبوبته إلى وصف ناقته التى يركبها فى هذه الصحراء وهو ماض إلى محمد رسول الله ﷺ وقد استغرق وصفها حوالى عشرين بيتًا ، لينتقل بعدها إلى وصف من حول ناقته :

تسعى الغواة جانبيها وقولهم ... إنك يا بن أبى سلمى لمقتول

وها هو ينتقل إلى نفسه التى تعيش القتل كأنما هو ماثل أمام عينيه ، ويستغيث بوسيط أو شفيع فلا يجده وكلهم يتخلى عنه :

---

(1) قيل : إن سعاد هى امرأته وابنة عمه ، خصها بالذكر لطول غيبته عنها لهروبه من النبى ﷺ ، ونستبعد ذلك؛ لأن الوصف لمحاسنها وللتخلف فى مواعيدها لا يقبله العربى فى شعره عن زوجته .

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول

وإذا كان القتل هو المصير ، وهو الحتم ، فأين المفر من قدر الله ؟

فقلت خلوا سبيلى لا أبًا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يومًا على آلة حدباء محمول

لكن إذا كان الإيعاد بالموت والقتل من رسول الله ، فهل يوجد فى الوجود من يؤمل العفو منه أعظم منه ؟ فهو رسول أرحم الراحمين :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

فأنا مؤمن بالقرآن المنزل من عند الله، أما لهذا الإيمان من أثر فى منجاتى من الموت:

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة (١) ... القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويل

وها أنذا ماثل بين يديك أرعد من الخوف ، وأبرِق من الأمل :

لقد أقوم مقامًا لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لم يسمع الفيل

لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل

وها هى يدى يا رسول الله أبايعك فيها على الإسلام ، وافعل بى ما تشاء :

حتى وضعت يمينى ما أنازعه فى ... كف ذى نقمات(٢) قيلُه(٣) القيل(٤)

فلهو أخوف عندى إذ أكلمه ... وقيل إنك منسوب ومسؤول

ومثولى بين يدى الأسد أقل خوفًا من مثولى بين يديك ، فقولك حكم مبرم ، وها هى الجزيرة قد استسلمت لك :

من ضيغم (٥) بضراء (٦) الأرض مخدره ... فى بطن عثّر (٧) غيل دونه غيل

يغدو فيلحم (٨) ضرغامين عشيهما ... لحم من الناس معفور(٩) خراديل(١٠)

---

(١) النافلة : الزيادة ، وسمى القرآن نافلة لأنه عطيته زائدة على النبوة .
(٢) ذى نقمات : المراد به رسول الله ﷺ لأنه ينتقم من الكفار .
(٣) قيله : قوله .
(٤) القيل : الثابت الماضى .
(٥) ضيغم : أسد .
(٦) ضراء الأرض : الأرض التى فيها شجر .
(٧) بطن عثّر : اسم مكان مشهور بكثرة السباع .
(٨) يلحم : يطعم اللحم .
(٩) معفور : ملقى فى العفر .
(١٠) خراديل : قطع صغار والضرغامين ولداه .

إذا يساور قرنًا لا يحل له ... أن يترك القرن إلا وهو مفلول (١)
منه تظل سباع الجو نافرة ... ولا تمشى بواديه الأراجيل (٢)
ولا يزال بواديه أخو ثقة ... مضرج البز والدرسان مأكول

هذا هو القائد ، أما الرسول الهدى والنور للبشرية . والرسول القائد :

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

ومن حوله ؟ من هذا الحزب الذى أسَّسه وبناه :

فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

فكيف كانوا عندما أطلقهم من عرينهم وسمح لهم بالقتال .

زالوا فما زال أنكاس (٣) ولا كشف (٤) ... عند اللقاء ولا ميل معازيل (٥)
شم العرانين (٦) أبطال لبوسهم ... من نسج داود وفى الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شُكَّت لها حلَق ... كأنها حلق القفعاء (٧) مجدول

وكأنما يقدّم لنا عرضًا عسكريًا لهذا الجيش الإسلامى :

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم ... قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرَّد (٨) السود التنابيل (٩)
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

قال ابن إسحاق ، وقال عاصم بن عمر بن قتادة فلما قال كعب : إذا عرَّد السود التنابيل ، إنما يريدنا معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع ، وخص المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ بمدحته ، غضبت عليه الأنصار . فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ، ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ ، وموضعهم من اليمن .

من سرَّه كرم الحياة فلا يزل ... فى مقنب من صالحى الأنصار

فهم بنو المجد ، وبنو الحرب ، ورثوه كابراً عن كابر :

---

(١) مفلول : مغلوب .
(٢) الأراجيل : جماعة الرجال .
(٣) الإنكاس : جمع نكس وهم الضعاف .
(٤) لا كشف : لا ينكشفون عند الحرب .
(٥) الميل المعازيل : الذين لا سلاح معهم .
(٦) شم العرانين : فى أنفهم علو كناية عن العزة .
(٧) حَلَقُ القفعاء : ضرب من الحسك وهو نبات له شوك .
(٨) عرَّد : فر وأعرض عن قرنه .
(٩) التنابيل : جمع تنبال وهو القصير .

ورثوا المكارم كابراً عن كابر إن الخيار همُ بنو الأخيار

وكما وصفهم زعيمهم سعد : إنا لصُبُّر فى الحرب ، صدق عند اللقاء .

المكرهين السَّمهَرىَّ [1] بأذرع كسوالف الهندى [2] غير قصار

والناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الإبصار

وإذا كانوا كذلك قبل الإسلام ، فكيف يكونون بعده ، وقائدهم وحبيبهم المصطفى عليه الصلاة والسلام :

والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكِرار

والذائدين الناس عن أديانهم بالمشرفى وبالقنا الخطار

وهم يتقربون إلى الله تعالى بدماء الكفار المحاربين لله ولرسوله :

يتطهرون يرونه نسكًا لهم بدماء من علقوا من الكفار

دربوا كما دربت ببطن خفية [3] غلب الرقاب [4] من الأسود ضوارى [5]

أما الذى يبغى حمًى له وإجارة ، فلن يجد ذلك كما يجده عندهم :

وإذا حللت ليمنعوك إليهم أصبحت عند معاقل الأعفار [6]

ومضارب العرب وقبائلها تعرف ضربتهم لعلى يوم بدر ، وعلى هو الذى تنسب له كنانة ، وهى التى هزمت فى بدر :

ضربوا عليًا [7] يوم بدر ضربة دانت لوقفتها جميع نزار

لو يعلم الأقوام علمى كله فيهم لصدَّقنى الذين أمارى

وإذا كانت أعلى قيم العرب هى الشجاعة والندى ، فهى كذلك فى الإسلام ، وهى متمثلة فيهم كذلك .

قوم إذا خوت [8] النجوم فإنهم للطارقين النازلين مقارى [9]

فى الغرّ من غسان من جرثومة أعيت محافرها على المنقار

---

(١) المكرهين السمهرى : الرمح .
(٢) سوالف الهندى : حافات السيوف .
(٣) بطن خفية : إسم مأسدة .
(٤) غلب الرقاب : غلاظ الأعناق .
(٥) ضوارى : معقودات الصيد والافتراس .
(٦) الأعفار : جمع عفر وهو ولد الوعل .
(٧) عليًا : هو على بن مسعود الغسانى وإليه تنسب بنى كنانة .
(٨) خوت النجوم : سقطت ولم تمطر فى نوئها .
(٩) مقارى : جمع مقراة وهى الجفنة التى يصنع فيها الطعام للضيف .

قال ابن هشام :

ويقال إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده : (بانت سعاد فقلبى اليوم متبول) : « لولا ذكرت الأنصار بخير ، فإنهم لذلك أهل » فقال كعب هذه الأبيات وهى فى قصيدة له ، قال ابن هشام :

وذكر لى عن على بن زيد بن جدعان أنه قال : أنشد كعب بن زهير رسول الله ﷺ فى المسجد (بانت سعاد فقلبى اليوم متبول) (١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥١٥ .

العام التاسع للهجرة ... وبعث المصدقين

(قال محمد بن عمر، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهرى وعبد الله بن يزيد عن سعيد بن عمرو قالا : لما رجع رسول الله ﷺ من الجعرانة ، قدم المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى القعدة ، فأقام بقية ذى القعدة وذى الحجة ، فلما رأى هلال المحرم بعث المصدّقين . فبعث بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار بصدقتهم ، ويقال : كعب بن مالك ، وبعث عباد بن بشر الأشهلى إلى سليم ومزينة ، وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة ، وبعث عمرو بن العاص إلى فزارة ، وبعث الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كلاب ، وبعث بُسر بن سفيان الكعبى إلى بنى كعب ، وبعث ابن اللتيبة الأزدى إلى بنى ذبيان ، وبعث رجلاً من بنى سعد بن هذيم على صدقاتهم) (١) .



ونقف مليًا عند هذه الظاهرة ، فقد غدا رسول الله ﷺ رئيس دولة تمتد فى أصقاع الحجاز ونجد ، وأول سمات التمكين فى الأرض إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** (٤١) ﴾ [الحج] ، والحاكم هو المسؤول عن تنفيذ جلب الزكاة من المؤمنين ، حتى جعل الله تعالى نصيبًا للعاملين عليها من أنصبة الزكاة ، واختار رسول الله ﷺ لهذه المهمة أعرق جنده ، فعباد بن بشر سيد الأوس إلى سليم ومزينة ؛ حيث يمثلون أكبر التجمعات الإسلامية ؛ إذ ألفت سليم وألفت مزينة ؛ أى شاركوا فى الجيش النبوى كل قبيلة بألف رجل ، مزينة بألف رجل ومائتى فرس ، وسليم بألف فارس وفرس أو تسعمائة كما فى الروايات الأخرى . ولم يجعل رسول الله ﷺ على صدقاتهم رجلاً منهم . ولا ندرى ما السر فى ذلك ؛ إذ من المحتمل أن تكون القيادات الكبرى فيهم لا يطمئن رسول الله ﷺ لها ، والذين يطمئن إليهم قد يشكل تكليفهم بذلك شرخًا فى القبيلة بينهم وبين الرؤساء الكبار ، فتفادى رسول الله ﷺ هذه النتائج ، ولا تزال القبلية متمكنة فى نفوس أبناء القبيلة .

وأما فى فزارة قبيلة عيينة بن حصن ، فلا يزال عيينة ، وحسب مواقفه السابقة محل

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٧٣ .

تجربة ، ولا تزال طموحاته تغذيه ، ولم يستقر وضعه الإسلامى بعد ، ولا ترضى غطفان زعيمًا لها بديلاً عنه ، فكان أن تفادى رسول الله ﷺ الأمر ، وأرسل الداهية الأريب ، والمسلم الجديد عمرو بن العاص لهذه المهمة ، وهى تحتاج إلى حكمة وحسن سياسة ومداراة ، وإلا وقع الاصطدام داخل القبيلة أو بينها وبين ممثل رسول الله ﷺ . وذبيان جزء من غطفان بعث لها رسول الله ﷺ ابن اللتبية الأزدى .

وأما الآخرون فهم من أقوامهم قد فقهوا دين الله ، وعاشوا بكنف رسول الله ﷺ وليس فى قومهم خلاف لهم ، فبريدة بن الحصيب رضي الله عنه أول المؤمنين إسلامًا من قومه وأسلم سبعون من قومه على إسلامه ، وأسلم وغفار ، قد صارتا جزءًا من المجتمع النبوى المدنى وقال فيهم رسول الله ﷺ : « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما إنى لم أقلها ولكن قالها الله عز وجل » (١) .

ورافع بن مكيث إلى جهينة فهو من قومه ، والضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كلاب بن ربيعة من قومه وقد كان علقمة بن علاثة ممن حضر الفتح وحنينًا ، وهو سيد بنى كلاب بن ربيعة .

إنما الشىء الذى نجهله هو توليته ﷺ لابن اللتبية الأزدى ، ولم تسعفنا كتب التراجم عنه بشىء ولا عن تاريخ إسلامه ، ولا عن جهاده . لكن الحديث فى الصحيحين عنه مستفيض ومشتهر ، وذلك عندما جاء بالصدقات إلى المدينة ، ندع الحديث عنها لأبى حميد الساعدى رضي الله عنه قال : (استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد على صدقات بنى سليم يدعى بن الأتبية ـ وفى الرواية الثانية : ابن اللتبية ـ فلما جاء حاسبه . قال : هذا مالكم . وهذا هدية . فقال رسول الله ﷺ : « فهلا جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا » ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد ، فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولأنى الله ، فيأتى فيقول : هذا مالكم وهذا هدية أهديت لى ، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا ، والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا منها بغير حقه ، إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة . فلأعرفن أحدًا منكم لقى الله يحمل بعيرًا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ثم قال : « اللهم ، هل بلغت ؟ » بصر عينى وسمع أذنى .

وفى الرواية الثانية : ثم قال : « اللهم هل بلغت ؟ » مرتين (٢) .

وحين نتجاوز الجانب الفردى نلحظ عمق الدروس التربوية التى تلقيناها من حادثة

---

(١) مسلم ١٩٥٣/٤ ح (٢٥١٦/١٨٥) .

(٢) مسلم ١٤٦٣/٣ ح (٢٦ ، ٢٧ / ١٨٣٢) .

ابن اللتبية ، فهو عامل رسول الله ﷺ ، ولكنه ليس العامل المطلق اليد الذى ينهب كما يريد ، ويجمع كما يريده ، إنما هو العامل الذى يحاسب على كل ما جاء به بدقة كاملة .

ولا يبعد أن يكون اختيار ابن اللتبية رضي الله عنه لكفاءات عنده فى الخرص والحساب تؤهله لهذا الموقع ولو لم يكن قديم الإسلام وعريقه . وهى صورة تعلمنا أن نستفيد من الاختصاصات والكفاءات فى موقعها المناسب ، ولكن دون أن تترك مطلقة اليد تفعل ما تشاء ، فلا أحد أكبر من الحساب فى ميزان رسول الله ﷺ ، وصدق الرجل الحساب ، وميَّز بين ما أهدى له، وبين ما هو حق الله فى الزكاة. ولم يكن يدرى حرمة ذلك عليه، فجاء الجواب النبوى بأبلغ ما يكون تحديدًا وتأثيرًا .

« فهلا جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقًا » فالأمير الذى يعطى ويهدى لا لشخصه إنما يهدى لموقعه ، فلو عزل اليوم لما نظر له أحد ، ولما أهدى له أحد ، ولتحولت الهدايا إلى خلفه ، خاصة إذا كان طاغية ظالما متجبرًا فى إمارته ، وهذا هو الأمر الذى أوضحه رسول الله ﷺ إلى واليه ابن اللتبية ، وأخذ كل المال المهدى ، وحق الزكاة . والله أعلم .

وفى فقه التربية أن يبقى الأمر سرًا بين رسول الله ﷺ وعامله ؛ لا يفتضح عنده ، لكن عندما تكون القضية تشكل ظاهرة خطيرة تمس بناء المجتمع كله . فلا يجوز السكوت عليها .

إن رسول الله ﷺ يبنى معالم دولته ، وخصائص أمرائه فى كل خطوة وفى كل توجيه وفى كل موقف . ولو بقى الأمر سرًا بين رسول الله ﷺ وبين عامله كيف تتربى الأمة بعدها على هذه القيم الكبرى فى المجتمع .

وللموازنة بين الحفاظ على كرامة العامل الذى أخطأ ، وعدم التشهير به ، وبين توجيه الأمة والتحذير من الظاهرة الخطيرة ـ ظاهرة الرشوة للأمراء . قام رسول الله ﷺ خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأخفى اسم العامل الذى بعثه، والأمير الذى أمَّرهُ على الصدقات ، واكتفى بالكلام العام الذى يعالج الظاهرة ؛ فليس الهدف تحطيم الأمير ، إنما الهدف توجيه الأمة إلى خطورة هدايا الأمراء .

فقال عليه الصلاة والسلام : « ما بال عامل أبعثه » أو « فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل » أو « ما بال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقول » ولم يرد التشهير به فى أى من الروايات المذكورة ، وبعد أن نفى عليه الصلاة والسلام حق العامل فى الهدية ، وأنها لموقعه وليست لشخصه ، وليس له أن يقبلها ، وعليه أن يردها إلى أصحابها . عاد عليه الصلاة والسلام إلى البناء ليس من خلال النظام ، ولكن من خلال الإيمان الذى

رسخ فى نفوس هذه العصبة المسلمة ، فما هو جزاء من يأخذ الهدية على عمله ؟

إنه جزاء فاضح له يوم يقوم الأشهاد ـ وبكل بساطة ـ فهو يحمل هداياه على عنقه يوم القيامة ، ولو كانت جملاً يرغو أو بقراً يخور أو شاة تيعر ، وفى هذه الفضيحة على رؤوس الخلائق ، حتى لو رآه رسول الله ﷺ وهو من أصحابه وهو من عماله ، وهو من أمرائه فلن يملك له من الله شيئًا . ولن يملك له الشفاعة ، إنما سيقف ليحاسب على ما غلَّ ، والغلول عار ونار وشنار يوم القيامة . ولخطورة الأمر ، ختمه عليه الصلاة والسلام بقوله : « اللهم هل بلغت » مرتين . ولم يقلها بصوته فقط إنما قالها بكيانه كله كما نقل لنا أبو حميد رضي الله عنه . فرفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ، وفى الرواية الثانية : فرفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه .

ولم يدع رسول الله ﷺ الحادثة تمر هكذا ، إنما عاد فذكرها بعيدة عن الحادث حتى يعلم الناس حكمها إلى يوم القيامة فى تفصيل دقيق ومثير يحسن عرضه كما سمعه المسلمون ونقلوه لنا ؛ ليكون هاديًا لنا فى بناء المجتمع الإسلامى الذى نصبو إليه ، وهى معالجة لما وراء الهدية ، معالجة لإخفاء حق الله ثم استلابه .

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال :

قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فذكر الغلول ، فعظَّمه وعظَّم أمره ثم قال :

« لا ألفين أحدكم يوم القيامة يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله ، أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول الله ، أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح [1] فيقول : يا رسول الله ، أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع[2] تخفق فيقول : يا رسول الله ، أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت[3] فيقول : يا رسول الله ، أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك » [4] .

وذلك حتى يكون البلاغ المبين ، أن كل من غل وأخذ من حق الأمة سوف يأتى يحمله على رأسه يوم القيامة يفتضح به على رؤوس الخلائق ، حتى ولو كان صاحب

(١) صياح : صوت إنسان .
(٢) رقاع : كناية عن الثياب .
(٣) الصامت من المال : الذهب والفضة .
(٤) مسلم ٣/ ١٤٦٢ ح (٢٤/ ١٨٣١) .

رسول الله ﷺ . فلا يملك له رسول الله شيئًا . ولا يغيثه رسول الله ﷺ بعد أن أبلغه.

فكيف بالحاكمين الذين يسطون على الدور والعقار والثروات كلها يحتجزونها لأنفسهم من دون الناس ، ويثرون من رقابهم ، ويعيشون على امتصاص دمائهم . . وكم من الحاكمين من يحتجن ويحتجز لنفسه كل أملاك أمته من البترول والذهب والفضة حتى ليغدو فى ثروته من أغنى أغنياء العالم ، فلو جلس فى بيت أبيه وأمه ، فكيف يحقق هذه الثروة ؟! وإنها للجنة أبدًا ، أو النار أبدًا .

إنه لا بد لهذه التربية ولا بد لهذه الشدة ، ولا بد لهذا البلاغ المبين مع اللحظات الأولى من قيام دولة الإسلام ، وقيام العاملين على الصدقات . وابتداء تطبيق الإسلام بإيتاء الزكاة . ليكون العدل هو الذى يسود هذه الدولة الفتية . وكما قال النووى رحمه الله :

والمعنى : إن كل شىء يغله الغال يجىء يوم القيامة حاملاً له ليفتضح على رؤوس الأشهاد . سواءً كان هذا المغلول حيوانًا أو إنسانًا أو ثيابًا أو ذهبًا وفضة .

ومن الآداب الكبرى التى رافقت المصدقين أو العاملين على الصدقات ، والتى برزت فى وصيته لعباد بن بشر رضي الله عنه :

« يا عبَّاد ، سر إليهم فخذ صدقات أموالهم ، وتوق كرائم أموالهم » [1] .

فالزكاة تكون من أوسط الأموال لا من أبخسها ولا من أنفسها .

وفى وصيته لمعاذ بن جبل فيما بعد ، إضافة إلى هذه الوصية :

« واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وليس المظلوم المسلم فقط ، إنما المظلوم إنسان كائنًا من كان ، ومهمة الأمير . أخذ حق الله دون ظلم لأحد . وتحقيق العدل فى حكمه وولايته .

ولئن استغرق حديث ابن اللتبية استفاضة مع إشراقة دولة الإسلام ؛ لأهمية الموضوع الذى عالجته الأحاديث ، فسنقف مع حدث آخر مرتبط بصدقات خزاعة رافقته أحداث كبار ، تمثل موقف الدولة المسلمة حين تُمنع الصدقة . أو تُمنع الزكاة .

---

(1) المغازى للواقدى ٣/ ٩٨١ .

بسر بن سفيان وصدقات خزاعة

قال محمد بن عمر : حدثنى محمد بن عبد الله بن مسلم عن الزهرى وعبد الله بن يزيد عن سعيد بن عمرو .

(فخرج بسر بن سفيان على صدقات بنى كعب ـ ويقال : إنما سعى عليهم نعيم بن عبد الله النحام العدوى ـ فجاء وقد حلَّ بنواحيهم بنو جهيم من بنى تميم ، وبنو عمرو ابن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فهم يشربون معهم على غدير لهم بذات الأشطاط ـ ويقال : وجدهم على عسفان . ثم أمر بجمع مواشى خزاعة ليأخذ منها الصدقة قال : فحشرت خزاعة الصدقة من كل ناحية، فاستنكرت ذلك بنو تميم، وقالوا: ما هذا ؟ تؤخذ أموالكم منكم بالباطل ، وتجيشوا ، وتقلدوا القسى ، وشهروا السيوف.

فقال الخزاعيون : نحن قوم ندين بالإسلام ، وهذا من ديننا . قال التميميون : والله لا يصل إلى بعير منها أبدًا . فلما رآهم المصدّق هرب منهم وانطلق موليًا وهو يخافهم ، والإسلام يومئذ لم يعم العرب ، قد بقيت بقايا من العرب وهم يخافون السيف لما فعل رسول الله ﷺ بمكة وحنين ، وقد كان رسول الله ﷺ أمر مصدقيه أن يأخذوا العفو منهم ، ويتقوا كرائم أموالهم . فقدم المصدّق على النبى ﷺ فأخبره الخبر وقال : يا رسول الله إنما كنت فى ثلاثة نفر . فوثبت خزاعة على التميميين فأخرجوهم من محالتهم ، وقالوا : لولا قرابتكم ما وصلتم إلى بلادكم ، ليدخلنّ علينا بلاء من عداوة محمد ﷺ وعلى أنفسكم حين تعرضون لرسل رسول الله تردونهم عن الصدقات . فخرجوا راجعين إلى بلادهم . فقال رسول الله ﷺ : « من لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا ؟ » فانتدب أول الناس عيينة بن حصن الفزارى. فقال: أنا والله لهم، أتبع آثارهم ولو بلغوا بيرين ، حتى آتيك بهم إن شاء الله ، فترى فيهم رأيك أو يسلموا . فبعثه رسول الله ﷺ فى خمسين فارسًا من العرب ليس فيهم مهاجر واحد ولا أنصارى ، فكان يسير بالليل ، ويكمن لهم بالنهار ، خرج على ركوبة حتى انتهى إلى العرج ، فوجد خبرهم أنهم قد عارضوا إلى أرض بنى سليم ، فخرج فى إثرهم حتى وجدهم قد عدلوا عن السقيا يؤمون أرض بنى سليم فى صحراء قد حلوا ، وسرحوا مواشيهم ، والبيوت خلوف ليس فيها أحد إلا النساء ونُفَير . فلما رأوا الجمع ولوا وأخذوا منهم أحد عشر رجلاً ، ووجدوا فى المحلة من النساء إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيًا ، فحملهم إلى المدينة ، فأمر بهم النبى ﷺ فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث . فقدم منهم عشرة من رؤسائهم : العطارد بن حاجب التميمى ، والزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وقيس ابن الحارث ، ونُعيم بن سعد ، وعمرو بن الأهتم ، والأقرع بن حابس ، ورياح بن

الحارث بن مجاشع ، فدخلوا المسجد قبل الظهر . فلما دخلوا سألوا عن سبيهم فأخبروا بهم فجاؤوهم ، فبكى الذرارى والنساء ، فرجعوا حتى دخلوا المسجد ثانية ، ورسول الله ﷺ يومئذ فى بيت عائشة ، وقد أذَّن بلال بالظهر بالأذان الأول ، والناس ينتظرون خروج رسول الله ﷺ فعجلوا خروجه . فنادوا : يا محمد ، اخرج إلينا ، فقام إليهم بلال فقال : إن رسول الله ﷺ يخرج الآن . . . فخرج رسول الله ﷺ ، وأقام بلال الصلاة ، وتعلقوا به يكلمونه ، فوقف رسول الله ﷺ معهم بعد إقامة بلال الصلاة مليًا وهم يقولون : أتيناك بخطيبنا وشاعرنا ، فاسمع منا ، فتبسم النبى ﷺ ، ثم مضى فصلى بالناس الظهر ، ثم انصرف إلى بيته . فركع ركعتين ، ثم خرج فجلس فى صحن المسجد ، وقدموا عليه ، وقدّموا عطارد بن حاجب التميمى . فخطب فقال : الحمد لله الذى له الفضلَ علينا ، والذى جعلنا ملوكًا ، وأعطانا الأموال نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم مالاً ، وأكثرهم عددًا ، فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وذوى فضلهم ؟ فمن يفاخر ، فليعدد مثل ما عددنا ، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكننا نستحيى من الإكثار فيما أعطانا الله أقول قولى هذا لأن يؤتى بقول هو أفضل من قولنا ، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس : « قم ، فأجب خطيبهم » . فقام ثابت فقال :

الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيها أمره ، ووسع كل شىء علمه، فلم يك شىء إلا من فضله ، ثم كان مما قدَّر الله أن جلعنا ملوكًا ، واصطفى لنا من خلقه رسولا، أكرمهم نسبًا، وأحسنهم زيًا، وأصدقهم حديثًا ، أنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، وكان خيرته من عباده ، فدعا إلى الإيمان ، فآمن المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أصبحُ الناس وجهًا ، وأفضلُ الناس فعالاً ، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله ﷺ ، فنحن أنصار الله ورسوله، نقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله. فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر بالله جاهدناه فى ذلك ، وكان قتله علينا يسيرا أقول قولى هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . ثم جلس .

فقالوا : يا رسول الله ، ائذن لشاعرنا . فأذن له ، فأقاموا الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الملوك فلا حى يعادلنا ... فينا الملوك ، وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل الخير يتبع

ونحن نطعم عند القحط ما أكلوا ... من السديف إذا لم يؤنَس القزع

وننحر الكوم عبطًا فى أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فقال رسول الله ﷺ : « أجبهم يا حسان بن ثابت » . فقام فقال :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد شرَّعوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته تقولى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
ولا يضنون عن جارٍ بفضلهم ولا ينالهم فى مطمع طبع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بمنبر فوضع فى المسجد ينشد عليه حسان وقال :

« إن الله ليؤيد حسان بروح القدس ما دافع عن نبيه » ، وسرَّ رسول الله ﷺ يومئذ والمسلمون بمقام ثابت وشعر حسان. وخلا الوفد بعضهم إلى بعض ، فقال قائل : تعلمُنَّ والله أن هذا الرجل مؤيد مصنوع له، والله لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعرهم أشعر من شاعرنا، ولهُم أحلم منا. وكان ثابت بن قيس من أجهر الناس صوتًا. وأنزل الله تعالى على نبيه فى رفع أصواتهم ، التميميين ، ويذكر أنهم نادوا النبى ﷺ من وراء الحجرات فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الحجرات] ، يعنى تميمًا حين نادوا النبى ﷺ ، وكان ثابت حين نزلت هذه الآية لا يرفع صوته عند النبى ﷺ فرد رسول الله ﷺ السبى والأسرى .

وقام عمرو بن الأهتم يومئذ يهجو قيس بن عاصم ـ كانا جميعًا فى الوفد ـ وكان رسول الله ﷺ قد أمر لهم بجوائز ، وكان يجيز الوفد إذا قدموا عليه ، ويفضّل بينهم فى العطية على قدر ما يرى فلما أجازهم رسول الله ﷺ قال : « هل بقى منكم أحد لم نجزه ؟ » قالوا : غلام فى الرحل ، فقال رسول الله ﷺ : « أرسلوه نجزه » ، فقال قيس بن عاصم : إنه غلام لا شرف له ، قال رسول الله ﷺ : « وإن كان ، فإنه وافد وله حق » ، فقال عمرو بن الأهتم شعرًا يريد قيس بن عاصم :

ظللت مفترشًا هلباك تشتمنى عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
إنا وسؤددنا عَودٌ وسؤددكم مخلف بمكان العجب والذنب
إن تبغضونا فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب

قال : حدثنى ربيعة بن عثمان عن شيخ أخبره أن امرأة من بنى النجار قالت : أنا أنظر إلى الوفد يومئذ يأخذون جوائزهم اثنتى عشرة أوقية ونَشًا . قالت : وقد رأيت غلامًا أعطاه يومئذ وهو أصغرهم أعطى خمس أواق . قلت : وما النش ؟ قالت : نصف أوقية) (١) .

* * *

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٧٣ ـ ٩٨٠ .

لقد كانت خزاعة حلفًا للإسلام منذ لحظاته الأولى ، تمسكًا بحلفها مع عبد المطلب جد رسول الله ﷺ ، مسلمها ومشركها وعيبة نصح له ، ثم دخلت كلها فى الإسلام . ونعلم كيف أن الرسول ﷺ خاض حربًا عوانًا مع مكة نصرًا لها عندما اعتدى عليها من بنى بكر . وكان بسر بن سفيان سيدًا من سادات خزاعة ، أسلم سنة ستٍ ، وخزاعة وقد دخلت فى الإسلام مهيأة لأن تدفع صدقات أموالها ، كما هو معروف من أساسيات هذا الدين .

لكن هذا الحى من تميم لا يزال يعيش فى باديته ، معرقا فيها لا يدرى ماذا جرى فى الدنيا ، رغم أن الأقرع بن حابس التميمى أحد زعمائهم قد شهد انتصار الإسلام وسيادته فى الأرض ، غير أن فروع تميم كبيرة ، ولم يكن الاتصال سهلاً لوضع كل قبائل بنى تميم فى الصورة ، خاصة أن هذه الفروع قد تركت موقعها وجاورت خزاعة ، ولأول مرة تشهد عجبًا ، أن يقدم الناس طواعية على إعطاء أموالهم لرجل فردٍ يأخذها إلى محمد بن عبد الله . ولعل الرواية التى تقول : إن نُعيم بن عبد الله النحامَ هو الذى بعثه رسول الله ﷺ مصدقًا لهم هو أقرب للصحة ليتناسب مع هذه الرواية . فما كان لتميم أن تمنع خزاعة من إعطاء أموالها لبسر بن سفيان أحد زعمائها ، إنما كانت النكارة والغرابة أن تعطى الأموال لقرشى مغمور ، بحيث يتحكم فيها فيختار ما يشاء من نعمهم وشائهم ويسوقها وهم ينظرون إليه . وأخذت بنو تميم العزة بالإثم ، وحالوا بالقوة دون أخذ الصدقة ، وليس مع نعيم جيش يواجه به بنى تميم . وكان هذا الموقف بمثابة إعلان حرب على دولة الإسلام ، ومنع إقامة شريعة الله فى الأرض .

وجاء المصدّق لرسول الله ﷺ ، ونقل له الخبر ، وأدركت خزاعة خطورة الأمر الذى سوف يصل إلى رسول الله ﷺ فيسوؤه ، ولن يدعه يمر دون ردع ، فأجلت بنى تميم عنها . ولا يبعد أن تكون قد بعثت إلى رسول الله ﷺ من يحمل صدقاتها .

لكن بقى هذا الجيب الذى يعلن استعصاءً على دولة الإسلام . ولو اتصل دون مواجهة لجر بنى تميم كلها إلى موقف معاد للإسلام ، ورسول الله ﷺ يود أن يعالج القضية بالسرعة اللازمة ، وهذه هى خطته ﷺ فى الحرب الخاطفة ، وفى الرد السريع ، الذى يحصر الأمر بأقل الخسائر ، ويحول دون العدو ، ودون تجييش قواه ، وجمع حلفائه ، فإذا كان الأمر أمر الحرب ، فلا موقع فيه للتباطؤ والتساهل ، فقد بعث ﷺ بالسيف ، وبعد أن يكبح جماح العدو ، ويكسر تحديه تبدأ خطوات الرحمة والمودة والإحسان لفتح قلبه للإسلام ، وطبيعة الأعراب هذه أدركها رسول الله ﷺ حتى قبل أن يخوض حروبه معهم ، فهم لا يصيخون لكلام أو رأى طالما هم أقوياء أشداء ، ولقد رأى

من تعنتهم ما رأى حين كان يمضى إليهم داعيًا إلى الله ، كيف خذلوه جميعًا ، ورفضوا حمايته لأنهم علموا أن قومه قد تخلوا عنه، فلابد أن يتعامل معهم بالمنطق الذى يفهمونه، منطق الرد السريع على هذا العدوان السافر . فقال رسول الله ﷺ :

« من لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا ؟ » .

فانتدب أول الناس عيينة بن حصن .

ويا للطرافة فى هذا الانتداب ، إنه عيينة الذى فعل ما فعل ، والذى انكشفت نفسيته فى أكثر من معترف ، والذى تحكمه عقدة الزعامة ، ويحكمه سوء المحافظة عليها لتفكيره الضيق وحمقه . ولكنه ذو كفاءة حربية عالية وخاصة فى حرب الصحراء ؛ إذ أفنى عمره فيها ، وله سوابق مع بنى تميم وأيام .

فوقف قائلاً لرسول الله ﷺ :

أنا والله لهم ، أتبع آثارهم ولو بلغوا بيرين ، حتى آتيك بهم إن شاء الله ، فترى فيهم رأيك أو يسلموا .

إن القيادة العسكرية التى يريدها رسول الله ﷺ قد وجدت ، لكن من هم جنوده ، هل يسلمه ﷺ قيادة كتيبة من الأنصار والمهاجرين ، وقد لا يعرف لهم حقًا ، ولا يقيم لهم وزنًا ، ويتحكم فى رقابهم كما يشاء ، فهو أمير رسول الله ﷺ ، وله عليهم حق السمع والطاعة .

ورأى عليه الصلاة والسلام حلاً أنجع ، وأكثر جدوى من هذه المغامرة ، وهو أن يكون جنوده جميعًا من طينته ومن الأعراب من قومه أو غيرهم الذين ألفوا قيادته ، وأعجبوا ببطولته ، وأسلسوا له الزعامة ، وعندهم خبرته القتالية فى حرب الصحراء .

فبعثه رسول الله ﷺ فى خمسين فارسًا من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى واحد .

ويقف المرء ليقارن بين موقفين :

بين غزوة ذات السلاسل والتى اختار رسول الله ﷺ لها عمرو بن العاص قائدًا وهو حديث الإسلام مثل عيينة ، فاختار له جنودًا من أعز وأغلى جنوده عنده من سادة المهاجرين والأنصار. وبين هذه المعركة التى لم ينضم لها مهاجرى ولا أنصارى واحد تحت إمرة عيينة ، وهو حديث عهد بالإسلام مثل عمرو بن العاص ، ولكن شتان بين معدنين.

بين معدن عمرو بن العاص الذى تشرب قلبه الإسلام ذرة ذرة ، حتى ليقول فيه رسول الله ﷺ : « أسلم الناس ، وآمن عمرو بن العاص » .

وبين معدن عيينة الذى أسلم نفاقًا ابتداءً ، وكشف عن خبيئة نفسه أنه إنما حضر غزوة الطائف ، لعل محمدًا ﷺ ينتصر فيأخذ جارية ثقيف تلد له ولدًا داهية لأن ثقيفًا قوم مناكير .

وقال الله تعالى فيه وفى أمثاله : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤] ، وهو الذى كشف عن نفسه بعد الردة مقسمًا بالله أنه لم يؤمن قط .

ويعجب الإنسان من عظمة العبقرية النبوية التى لا مثيل لها فى التاريخ . فى كيفية الاستفادة من الطاقات البشرية ، فحتى عيينة رغم كل ما ظهر منه . يمكن أن يكون له دور فى خدمة الإسلام ، ولكن دون أن يحمل المسلمون عبء خلله وانحرافاته ، إنه قائد ولا شك ، ولكنه ليس القائد الإسلامى المؤهل ليمثل هذا الدين قدوة وسلوكًا . إنما هو مندفع لقتال تميم ، بما بينه وبينها من ثارات سابقة . ولم لا توظف هذه العاطفة لصالح هذا الدين ، بعد أن أعلن عيينة إسلامه ، وأعلن هذا الفصيل من تميم شركه وحربه على الإسلام . فلتكن إذن هذه السرية .

وعيينة يعرف ضعف ثقة النبى ﷺ به ، وخاصة حين واجهه بكذبه وغدره يوم التقى ثقيفًا ودعاها إلى الصمود فى وجه محمد ، ثم كذب على رسول الله ﷺ أنه دعاها إلى الإسلام .

وعيينة يريد وقد التقت مصلحته اليوم مع مصلحة الإسلام أن يغطى تلك السوءات بعمل عظيم يخدم فيه هذا الدين ، ويستعيد ثقة رسول الله ﷺ به . ولذلك حدد لنفسه مهمته . وأن ليس هدفه السلب والنهب والغزو والسبى ، إنما سيأتى بهم إلى رسول الله ﷺ يفعل بهم ما يشاء . وعيينة فنان فى قيادة الأعراب أمثاله ، فليكن هو أمير السرية ، وليكن هو المؤهل فى التدريب ليترسخ الإيمان فى قلبه ، وليغسل خطأه بعمل عظيم فى سبيل الله .

وحقق الهدف كاملاً . ونفَّذ ما وعد به .

(فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار ، خرج على ركوبة حتى انتهى إلى العرج ، فوجد خبرهم أنهم قد عارضوا إلى أرض بنى سليم ، فخرج فى أثرهم حتى وجدهم قد عدلوا عن السقيا يؤمون أرض بنى سليم فى صحراء قد حلوا وسرحوا ماشيتهم) .

ألم تكن حرب داحس والغبراء عشر سنين بين العشيرين عبس وذبيان ؟!

وكانت هناك حرب بين فزارة وعلى رأسها عيينة بن حصن وبين بنى تميم وذلك فى

يوم جزع ظلال ، فالحرب التى عاشها عيينة هيأت له متابعة هذا الفرع المستعصى من تميم فى أرض بنى سليم وفى الصحراء بين مكة والمدينة حتى وصل إليهم .

(والبيوت خلوف ليس فيها أحد إلا النساء ونفير ، فلما رأوا الجمع ولوا وأخذوا منهم أحد عشر رجلاً ، ووجدوا فى المحلة النساء إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيًا . فحملهم إلى المدينة) .

وانتهى دور عيينة ، وأبدع فى مغامرته هذه ، وأتى بهم ليرى رسول الله ﷺ فيهم رأيه . (فأمر بهم النبى ﷺ فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث) .

ورسول الله ﷺ لا يريد أن يعيد أيام العرب كما كانت من قبل ، ففى كل حدث عنده هدف لا يدركه أحد ، وكل قضية يجب أن توظف لبناء القلوب لا لتحطيمها ، ولحب الإسلام لا للحقد عليه ، فلم يقم رسول الله ﷺ بتوزيع السبايا والأسرى على المقاتلين، إنما حبسهم فى دار رملة بنت الحارث ، وبدأ ينتظر عليه الصلاة والسلام بثاقب نظره قدوم وفد تميم إليه، كما كان من قبل ينتظر قدوم وفد هوازن إليه ، ليرد لهم سبيهم وأموالهم، ويعلم هذه الأمة التى عاشت على السلب والنهب والغزو أن دينًا جديدًا قد حلَّ فى هذه الأرض ، وأن روحًا جديدًا قد سرى فى هذه الأمة فأحياها من جديد ، وأنه هو الذى نهتم بالحياة والموت من أجله .

فقد سئل عليه الصلاة والسلام عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل عصبية ، ويقاتل رياءً ، فأيها فى سبيل الله ؟ وهذه هى دوافع القتال فى المجتمعات الجاهلية ، محصورة فى هذه القيم ، فيأتى الجواب النبوى ليلغى هذه الأهداف كلها ويضع هدفًا جديدًا هو ميزان التغيير فى الأرض : هو القتال لتكون كلمة الله هى العليا « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

وهذه السرية جزء من هذا الاتجاه ؛ لتكون كلمة الله هى العليا فى تطبيق الزكاة ، وتكون كلمة الذين كفروا السفلى ، أى كلمة بنى تميم الذين حالوا دون تنفيذ الزكاة وإعطائها لمستحقيها هى السفلى ، والله عزيز حكيم .

وكانت الفراسة النبوية ، وقدم وفد بنى تميم فى عشرة من رؤسائه ، ولئن كان الأقرع بن حابس وحده فى حنين والطائف ، فها هى الفرصة مواتية للقاء مع سادة تميم جميعهم ، والتعرف على أعماقهم وما يكنون .

لقد أمضى عيينة عمره فى الصفحة السابقة تحكمه هذه الآية :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾

[التوبة : ٩٧]

وها هو اليوم تحكمه الآية :

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ [التوبة : ٩٩] .

وها نحن نمضى فى خطوات وئيدة مع تميم الذين يمضى الأمر بهم من الكفر إلى الإسلام ، وأرادوا أن يطمئنوا على سباياهم وأسراهم فرأوهم ، وأجهش السبايا والأسرى بالبكاء ، فرجعوا حتى دخلوا المسجد ثانية دون أن يعرفوا حرمة لرسول الله ولا لدين الله ، ونادوا رسول الله ﷺ : أن اخرج إلينا يا محمد ، فليس فى دينهم بالبادية استئذان. ولا حرمة فكأنهم لا يزالون هناك ، ومع أن بلالاً ﷺ قد ذكَّرهم بأن رسول الله ﷺ سيخرج ، فعادوا ونادوه ثانية يطلبون خروجه ، فهم زعماء وقادة ولا يجوز فى عرفهم أن يحتجب عنهم رسول الله ولا يتأخر عليهم ، فهو نقص فى كرامتهم ونقص فى زعامتهم ، وخرج إليهم رسول الله ﷺ ، وما مثل سيد الخلق ينزل الناس منازلهم فهو يعرف قدر هؤلاء عند قومهم ، وأنهم لب العرب ومادته ، فهو حريص على هدايتهم ، وما تأخر فى سباياهم وأسراهم إلا طمعًا فى قدوم هذا الوفد .

وآن أوان الصلاة ، وأقام بلال الصلاة ، وهم لا يدركون هذه القدسية لها ، فراحوا يعرضون القضية الكبرى التى جاؤوا بها وراء طلب سبيهم وأسراهم ، وكأنما هم فى سوق عكاظ يتفاخرون شعرًا ويتنازعون زعامة ، وهم لا يدركون أنهم عند رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فقالوا : (أتيناك بخطيبنا وشاعرنا فاسمع منا ، وتبسم النبى ﷺ) .

لقد كانت هذه البسمة أعمق جواب لهذا الوفد، فكل ما عندهم قابل للإنصات إليه، ولكن الصلاة لله تعالى لا يقدم عليها شىء كذلك، ولينظروا إلى هذا الجيش اللجب يخر راكعًا وساجدًا لله فى شىء لم يألفوه، بل ويأنفون منه، لكنه مع ذلك منظر مهيب رهيب لهم فى هذه الطاعة العجيبة لهم وراء قائدهم محمد عليه الصلاة والسلام، فأبو سفيان بن حرب وهو ابن البيئة القرشية المدنية المتحضرة استغرب تلك الصلاة ، فكيف بجفاة الأعراب الذين لا يعرفون مثل هذا الانضباط فى حياتهم أبدًا !!

(ثم مضى فصلى بالناس الظهر ، ثم انصرف إلى بيته فركع ركعتين ثم خرج فجلس فى صحن المسجد) .

ويالها من عظمة لا تعدلها عظمة ؛ أن ينزل رسول الله ﷺ إلى أفقهم المحدود الضيق المجبول بطينة الأرض ، ويرضى أن يكون الأمر فخارًا بين الخطباء ، وسجالاً بين

الشعراء ، فالداعية اليوم تراه أجهل الناس بطبائع من يدعوهم إلى الله ، ويُنزل السباب والشتم واللعن بالسفهاء الذين يعيشون الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء فى العصبية والجاهلية، ويريد أن ينصاع الناس صاغرين لهذا الدين ولو لم يدركوا قيمه ، ولم يفقهوا أهدافه ، بل يمضى ليحدثهم عن البدع وعن الشركيات ، ويقذف التعصب الجاهلى . بل لا يطيق سماع بيت من الشعر .

وسيد الخلق يعلم هذه الأمة إلى قيامة الساعة : كيف تفك الأقفال المستعصية ، وكيف تأسر القلوب الجاشبة التى لا تعرف فى حياتها إلا العصبية والفخر بالحسب والنسب والجاه والمال ، رضى رسول الله ﷺ هذه المفاخرة لتكون مدخلاً إلى تحطيم تلك الآلهة التى يعبدونها ، فإن شاء أن يستمعوا له فلابد أن يستمع لهم ويستمع إلى ترهاتهم . وأمجادهم وفخارهم ؛ حتى يهيئهم بعد ليسمعوا لقيم هذا الدين ، ويهيئهم ليتلقوا نسمات هذا الدين .

(وقدموا عليه وقدَّموا عطارد بن حاجب التميمى ، فخطب فقال :

الحمد لله الذى له الفضل علينا ، والذى جعلنا ملوكًا وأعطانا الأموال نفعل فيها بالمعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثرهم مالاً ، وأكثرهم عددًا ، فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وذوى فضلهم ؟ فمن يفاخر فليعدد مثل ما عددنا ، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكنا نستحيى من الإكثار فيما أعطانا الله . أقول قولى هذا لأن يؤتى بقول هو أفضل من قولنا) .

هل تستطيع قريش ومعها الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ أن يزعموا أنهم أكثر منهم مالاً ؟ هل يستطيعون أن يزعموا أنهم أكثر منهم عددًا، وتميم أكثر العرب عددًا بلا منازع، وهل يزعمون أنهم أكثر منهم قوة وشكيمة وأبطالهم مشهود لهم فى البادية والحاضرة ، ولعل الحل الذى تعرضه تميم بعد هذه المفاخرة أن يعطى سيد العرب محمدًا البادية لبنى تميم ، وتبقى له الحاضرة ، وبذلك يتقاسمون الأمجاد بينهما وتهدأ الثارات .

(فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس : « قم فأجب خطيبهم » .

فقام ثابت رضي الله عنه وما كان درى من ذلك بشىء وما هيأ قبل ذلك ما يقول . فقال : الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيها أمره ، ووسع كل شىء علمه ، فلم يك شىء إلا من فضله ، ثم كان مما قدَّر الله أن جعلنا ملوكًا ، واصطفى لنا من خلقه رسولاً أكرمهم نسبًا . وأحسنهم زيًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، وكان خيرته من عباده) .

وكم الفرق هائل بين الثرى وبين الثريا !!

كم الفرق بين ذلك الفخر بالحسب والنسب والمال فى هذه الجزيرة المحدودة المنسية فى الأرض ، والمهجورة لولا الإسلام ، وبين الذى السموات والأرض خلقه ، اختار من هذا الخلق محمد بن عبد الله ، وكان هذا المختار المصطفى سيد هذه البشرية خُلقًا ونسبًا وأصدق البشرية حديثًا ، ومن أجل هذا الصدق المحض كان هو الذى شرفه الله تعالى بوحيه ، وأنزل عليه هذا الكتاب وجعله أمينًا على الخلق ، فأين هذا الأفق من ذاك ؟ حيث كان الخطيب يبدئ ويعيد ويكرر فى المال والعدد والقوة والملك ، وإذا هى قفزة هائلة من صحراء فى زاوية من الأرض إلى المثول بين يدى رب السموات والأرض ، والارتفاع بهذا الإنسان من وهدة هذه القيم لكى يكون حزب الله وراء رسول الله المنزل عليه كتاب الله ، الأمين على خلق الله . أين هذا من ذاك ؟

(فدعا إلى الإيمان، فآمن المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أصبحُ الناس وجوهًا، وأفضل الناس فعالاً ، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله) .

فليس الأمر إذن أمر تميم وقريش ، أو أمر غطفان والأوس والخزرج ، لقد طويت هذه الصفحة إلى الأبد ، إن الأمر الآن أمر أنصار الله تعالى ورسوله ، وأمر أعداء الله تعالى ورسوله بغض النظر عن قبيلتهم ونسبهم ومالهم وعددهم وملكهم .

(فنحن أنصار الله ورسوله ، نقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر بالله جاهدناه فى ذلك ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات) .

لقد كان أبلغ درس فى العقيدة ، ما كان ليأخذ وضعه الصحيح لو لم يتم السماع من خطيب القوم ، وعرض بضاعتهم التى عندهم ، وآن الأوان لتميم أن تدرك أن الأمر ليس أمر مفاخرة بالأحساب والأنساب والأموال ؛ إنها أمر عقيدة يدين الخلق بها لخالقهم الواحد ، فإن فعلوا ذلك عصموا دماءهم وأموالهم ، وإن رفضوا هذه العبودية لله ، وليست لأحد من خلقه فكما قال فيهم كعب بن مالك :

يتقربـون يـرونه نسـكًا لـهـم بدمـاء مـن علقـوا مـن الكفـار

وكان قتله يسيراً على المؤمنين .

ومع ذلك فالعرب لا تقيم وزنًا كبيراً للخطابة إذ الشعر هو ديوان العرب وهو مجمع مفاخرهم . فكان لابد أن تتابع تميم خطتها ، ويرضى سيد الخلق أن تتابع تميم فى عرض ما عندها من مفاخر .

فقالوا : يا محمد ، ائذن لشاعرنا . فأذن له فأقاموا الزبرقان بن بدر فقال : (كما

فى رواية ابن هشام :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... فينا الملوك وفينا تقسم البيع (١)

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع

ونحن يُطعِم عند القحط مطعِمُنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع (٢)

بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هُويّاً ثم تصطنع

فننحر الكوم عبطًا فى أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فلا ترانا إلى حى نفاخرهم ... إلا استفادوا فكان الرأس يقتطع

فمن يفاخرنا فى ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع

إنا أبينا فلا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع (٣)

لقد قال الزبرقان شعره وحسان غائب، وهو الشاعر الأول لرسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله خلف حسان . وأكد الزبرقان أنهم الجود كل الجود حين تمحل الأرض وتضن السماء ، فينحرون الإبل السمان العظام يطعمون الناس اللحم والشحم فلا ينصرفون إلا وهم شباع يحمدونهم ، وأما إذا كان البأس ، فالرأس الذى يتطاول علينا يقطع ، ونترك الحديث عن انتصاراتنا لأخبار الركبان يتناقلونها ولا أحد يسامينا حين نأبى ونفخر ، فلا حى يعادلنا ، وكيف تعادلنا الأحياء ومنا الملوك ، وفينا تقسم الربع . إذ يأخذ زعيمنا ربع الغنائم ، ويوزع الباقى للأبطال المجاهدين .

وجاء حسان والشعر يتفتق على لسانه فلا يستطيع له كظمًا ، جاء يقول :

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا ... على أنف راض من معدٍ وراغم

منعناه لما حل بين بيوتنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم

ببيت حريد (٤) عزه وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم (٥)

هكذا ربط الماضى بالحاضر ، فهم أبناء الملوك من غسان الذين أقاموا دولتهم وسط أرض الأعاجم ، وهم اليوم جنود رسول الله ﷺ وهو الذى اختارهم من دون غيرهم .

---

(١) قال ابن هشام : منا الملوك وفينا تقسم الربع وهى الأصح ، فلا معنى لقسم مواضع الصلوات والعبادات التى هى البيع .

(٢) القزع : السحاب الرقيق .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٦٢، ٥٦٣ .

(٤) البيت الحريد : الفريد .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٦٣ .

ولأول مرة يدعى حسان رضي الله عنه لسجال شعرى ، فقد كان هذا فى الجاهلية ، أما فى الإسلام فلم يقع أن جاء وفد يفاخر بشعره المسلمين إلا هذا الوفد . . . وكان حسان يرسل قصائده عبر الأثير لتصل إلى خصومه فى قريش ، بعد الحروب الطاحنة التى كانت تقع بينهم وبين المسلمين ، أما اليوم فهو يأتى لهذا الهدف المخصص ليفاخر شاعر بنى تميم، وسأل عما قاله الزبرقان .

وأرسل قصيدته النارية ليلتهم بها شعر الزبرقان وفخره :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع

هذا الحزب الشديد ، حزب الله الذى تشكل من المهاجرين الذين هم الذوائب من فهر ، ومن إخوتهم من الأنصار ، غدت قيادة العرب كلها لهم ، فهم الذين يسنون الهدى وراء رسول الله ﷺ . والناس خلف هداهم يسيرون ، ويقرنون القول بالفعال .

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

وأبدع حسان فبلغ الذروة ، فالسباقون من الناس هم خلف آخر سباق من المسلمين، اليوم وغداً وإلى قيام الساعة ، فهم الأمة الوسط التى ينقاد الناس لها .

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم أو ... وازنوا أهل مجد بالندى متعوا (١)

أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطبعون (٢) ولا يرديهم طمع

لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طبع (٣)

ولا يوجد فى الأرض من ذكر الوحى فضله وكرمه وجوده فى ترفع عن المن والأذى، وإيثار للضيف على النفس إلا هم ـ أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ـ وصدق حسان ، فلا دنس ولا لوث فى جودهم **﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ**

---

(١) متعوا : زادوا .

(٢) لا يطبعون : لا يدنسون .

(٣) طبع : دنس .

خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] .

وأين يقف الشعر مهما سما أمام هذا الوصف القرآنى الفريد الربانى المعجز ، ويكفى حسان فخرًا أن يشير إلى أن الوحى ذكر عفتهم ، والناس بعد أن يسلموا يعرفون هذا الذكر ؛ لأنهم قبل إسلامهم على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وبعد أن ينتقل لوصف الحرب لهذا الجيش المؤمن نجده يصل قمة إبداعه فى الصور التى يعرضها عنها :

إذا نصبنا لحى لم ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الفزع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

فحين يدب الرعب فى قلب كل جبان ، وقد أنشبت الحرب أظفارها . فنكون نحن الذين نصعدها .

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خوف ولا هلع

ولا شك أن هذا خلق إسلامى أصيل ؛ إذ الفخر ديوان العرب ، وخاصته حين ينالوا من عدوهم .

كأنهم فى الوغى والموت مكتنع ... أسد بحلية فى أرساغها فدع
خذ منهم ما أتى عفوًا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
فإن فى حربهم فاترك عداوتهم ... شرًا يخاض وفيها السم والسلع

فهم الأسد الذين لا يقوم أحد لغضبهم إذا غضبوا ، وهو ينصح الناس أن يتجنبوا حربهم ففيها السم والسلع المسموم ، ولا تفكر بأن تنال منهم ذرة واحدة إذا قدروا منع ما عندهم .

وصدق حسان ، ألم يفعلوها يوم الأحزاب حين أراد رسول الله ﷺ أن يكسر شوكة عدوهم فراح يفاوض غطفان على ثلث ثمار المدينة ، ماذا كان جوابهم :

والله يا رسول الله ، لقد كنا نحن وإياهم فى الجاهلية لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة واحدة إلا قرى أو بيعًا ، فبعد أن أعزَّنا الله بك وأكرمنا بالإسلام نعطيهم أموالنا ، لا والله لا نعطيهم إلا السيف ؛ ولا يكن همك الأمر الذى منعوا .

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والبدع
أهدى لهم مدحتى قلب يؤازره ... فيما أحب لسان حائك صَنِع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إذا جد بالناس جد القول أو شمعوا

وابتدأ الحديث عن صلتهم برسول الله ﷺ ، وانتهى به كذلك فهم شيعة رسول الله ﷺ ، أو شيعتهم رسول الله وحافظهم عن الخلل والزلل . عندما يقود غيرهم الأهواء والبدع ، وأحس التميميون أن الفرق كبير بين الفريقين ، فحاول الأقرع بن حابس أن ينقذ الموقف . فيقدم بعض الشعر فيعدل الكفة المائلة فقال كما فى رواية ابن الأثير :

(فقام الأقرع بن حابس ، فقال : إنى والله يا محمد ، لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء ، قد قلت شعراً فاسمعه . قال : هات . فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا خالفونا عند ذكر المكارم

وأنا رؤوس الناس من كل معشر ... وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

وزاد ابن هشام : وهو ينسبها إلى الزبرقان بن بدر :

وأنا نذود المعلمين (١) إذا انتخوا ... ونضرب رأس الأصيد (٢) المتفاقم

وأنا لنا المرباع فى كل غارة ... نغير بنجد أو بأرض الأعاجم (٣)

فقال رسول الله ﷺ : قم يا حسان فأجبه فقال :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول من بين ظئر وخادم

فقال رسول الله ﷺ : « لقد كنت غنيًا يا أخا بنى دارم أن يُذكَرَ منك ما ترى أن الناس قد نسوه » .

فكان قول رسول الله ﷺ أشد عليهم من قول حسان :

ثم رجع حسان إلى قوله :

وأفضل ما نلتم من المجد والعلا ... ردافتنا من بعد ذكر المكارم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تفخروا عند النبى بدارم

وإلا ورب البيت مالت أكفنا ... على رؤسكم بالمرهفات الصوارم

ولا عجب أن يكون جواب رسول الله ﷺ أشد عليهم من قول حسان بن ثابت ، فقول حسان قد يكتنفه مبالغات شاعر فيما يتنافس فيه الشعراء ، لكن أن يقر رسول الله

---

(١) المعلمين : الذين يعلمون أنفسهم بالحرب لشجاعتهم .

(٢) الأصيد : المتكبر .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٦٦ .

ﷺ هذا الأمر ، وأنه كان ولم ينسه الناس بعد ، فقد أصبح وصفًا لازبًا لهم لا فكاك عنه ، وينهى حسان حديثه بدعوتهم إلى الإسلام ، وإنهاء حالة الحرب ، وإلا فالقتل والقتال هو الذى ينهى الأمر بين الفريقين .

ونعود إلى رواية ابن هشام فقد ساقت أبيات حسان بإضافات جديدة لا يناسب غض الطرف عنها .

(فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

نصرنا وآوينا النبى محمدًا ... على أنف راض من معدٍ وراغم

بحى حريد أصله وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم

نصرناه لما حل وسط ديارنا ... بأسيافنا من كل باغٍ وظالم)

وهنا يدلف الشعر الإسلامى الدافئ الحار الصادق :

جعلنا بنينا دونه وبناتنا ... وطبنا له نفسًا بفىء المغانم

وصدق حسان ، وما يوم حنين بسر ، يوم ذهب الناس جميعًا بالشاء والبعير ، وذهبوا هم برسول الله ﷺ .

ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهفات الصوارم

ونحن ولدنا من قريش عظيمها ... ولدنا نبى الخير من آل هاشم

أو ليس هاشم قد تزوج ليلى النجارية ، فأنجبت له عبد المطلب الذى ينتسب الرسول ﷺ إليه ، فهم الذين ولدوه وهم الذين نصروه ، وعاد بعد هذا المجد الخالد والعز التالد يتحدث عن بنى دارم :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خَول من بين ظئر وخادم

فإن كنتمُ جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تلبسوا زِيًا كزى الأعاجم

وابن هشام اللغوى العالم أعرق بالشعر من غيره وأعرف ، وهذا هو الأنسب أن يدعوهم إلى الإسلام دون أن ينذرهم بالحرب ، ويستثير نخوتهم وجاهليتهم وعصبيتهم .

لقد كانت هذه أغرب سجال تم بين المسلمين وخصومهم من بنى تميم ، ولا تزال

نساؤهم سبايا وأولادهم أسرى ، وأرادوا أن يملكوا الساحة بالبيان حين عجزوا عن ملك ناصيتها بالسنان ، فكانت خسارة اللسان أكبر ، وكانت أدعى أن تعيدهم إلى صوابهم ، وتهدئ روعهم ، وتفتح قلوبهم للإسلام إذ هو الحل الذى لا مفر منه ، هو الإسلام كما قال تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

[الحجرات : ١٤]

وتجمع الروايات كلها بعد على إسلام بنى تميم .

(فقام الأقرع بن حابس فقال :

يا هؤلاء، ما أدرى ما هذا الأمر ؟ تكلم خطيبهم فكان خطيبهم أرفع صوتًا ، وتكلم شاعرهم ، فكان شاعرهم أرفع صوتًا وأحسن قولاً) .

وكما نشهد فلا يحدثهم عن المبادئ والعقائد ، ولا عن بطلان آلهة الكفر وزيفها، وعن العبودية لله الواحد إنما يحدثهم عن الهزيمة فى الشعر والنثر ، فلابد أن يكون شاعرهم موهوبًا ومؤتى من قوة خفية هى فوق قوتهم ، وكان الإيمان أمام هذه الهزيمة .

(. . . ثم دنا إلى النبى ﷺ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « لا يضرك ما كان قبل هذا » .

وفى وفد بنى تميم نزل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ④ ﴾ [الحجرات] . تفرد برواية هذا الحديث مطولاً بأشعاره المعلى بن عبد الرحمن ابن الحكم الواسطى) (١) .

وعند ابن هشام :

قال ابن إسحاق: (فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قام الأقرع بن حابس فقال :

وأبى ، إن هذا الرجل لمؤتى له ؛ لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ؛ ولأصواتهم أحلى من أصواتنا . فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم) (٢) .

وقد نقل لنا الواقدى عن المرأة الأنصارية أنها شهدت هذه الجوائز وأنها كانت اثنتى عشرة أوقية من الفضة . وللغلام الذى معهم ست أوقيات ونشًا ، أى نصف أوقية .

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير الجزرى ١/١٢٨ ـ ١٣٠ ت الأقرع بن حابس .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٦٧ .

وينتهى هذا السجال بالإسلام ، لكن هناك جوانب أخرى قد عرضها القرآن ، أو عرضتها الروايات الأخرى ، تمس الجانب التربوى لا مندوحة من الحديث عندها ، فقد أجمعت الروايات أن هاتين الآيتين نزلتا فى بنى تميم عندما نادوا رسول الله ﷺ : « اخرج إلينا يا محمد » تتحدثان عن سوء أدب الوفد مع سيد الأولين والآخرين، وكأنما هم قادمون لملاقاة عيينة بن حصن سيد غطفان أو غيره ، ومضت تمسهم إلى قيام الساعة : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ④ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ⑤ ﴾ [الحجرات] ، ولئن ذهب عنهم الذنب ، فهل يذهب عنهم الجهل وأنهم لا يعقلون ؟

دعاة ... وقادة

بعد غزوة حنين كان رسول الله ﷺ يعمل على اتجاهات ثلاثة فى التعامل مع عرب الجزيرة :

الاتجاه الأول : هو بعث المصدقين للذين أعلنوا إيمانهم وإسلامهم إيذانًا بقيام دولة الإسلام فى الأرض وانضمامهم إليها ، وهذا ما سبق أن تحدثنا عنه فى الفصل السابق .

الاتجاه الثانى : هو بعث الدعاة فى الأرض العربية من النماذج العليا من أصحابه ، ليقوموا بدل الجيوش بإدخال الأمة فى الإسلام .

الاتجاه الثالث : إرسال بعض السرايا لشمال الجزيرة وجنوبها لمن لا يزالون يتعاملون من خلال القوة ، بحيث تقدم الدعوة لهم ، وإلا فالسيف يحكم بين الفريقين .

وسنتحدث ابتداء عن هؤلاء الدعاة الهداة الذين اختارهم رسول الله ﷺ لهذه المهمة العظيمة :

١ ـ إلى عُمان والبحرين :

(وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فى ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابنى الجُلندى وهما من الأزد يدعوهما إلى الإسلام ، وكتب معه إليهما كتابًا وختم الكتاب) [١] ، ونصه :

« من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبدِ ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد : فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين ، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وَلَّيتُكُما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل ، وخيل تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما » .

قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عمان . فلما قدمتها عمدت إلى عبد ـ وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقًا فقلت : إنى رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال: أخى المقدم علىَّ بالسن والملك ، وأنا أوصلك إليه يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت : أدعو إلى الله وحده لا شريك له وتخلع ما تعبد من دونه ، وتشهد أن

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٢٦٢ .

محمداً عبده ورسوله . قال :

يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا به قدوة ، قلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، وودت أنه كان أسلم وصدَّق به . وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام . قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريبًا . فسألنى أين كان إسلامك ؟ قلت: عند النجاشى، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم، قال : كيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت: أقروه واتبعوه. قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم . قال: انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس خصلة فى رجل أفضح له من الكذب. قلت: ما كذبت وما نستحله فى ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى . قلت : بلى . قال : فبأى شىء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشى يخرج له خرجًا ، فلما أسلم وصدَّق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألنى درهمًا واحدًا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله فقال له النيَّاق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا ، ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا ؟ قال هرقل : رجل رغب فى دين ، فاختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال : انظر ما تقول يا عمرو ؟ قلت : والله صدقتك. قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا ، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ، ونصدّق به . ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا ، قلت : إن أسلم ملَّكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم قال : إن هذا لخلق حسن . وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل . قال: يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم ، فقال : والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا . قال : فمكثت ببابه أيامًا وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يومًا فدخلت عليه . فأخذ أعوانه بضبعى ، فقال : دعوه ، فأرسلت فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس. فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختومًا ، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه أرق منه . قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدًا بقى غيرك فى هذه الحرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته يوطئك الخيل ويبيد

خضراءك. فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال . قال : دعني يومى هذا ، وارجع إلىّ غدًا .

فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه . حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه . فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملَّكت رجلاً ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ها هنا . وإن بلغت خيله لقت قتالاً ليس كقتال من لاقى . قلت : أنا خارج غدًا ، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه . فأصبح فأرسل إلى ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا ، وصدَّقا النبى ﷺ ، وخلَّيا بينه وبين الصدقة ، وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا عونًا لى على من خالفنى) (١) .

(قالوا : وبعث رسول الله ﷺ . منصرفه من الجعرانة العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام ، وكتب إليه كتابًا ، فكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه ، وإنى قد قرأت كتابك على أهل هجر ، فمنهم من أحب الإسلام ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلىَّ فى ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : « إنك مهما تُصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » ، وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فإن أبوا أخذت منهم الجزية ، وبأن لا تنكح نساؤهم ، ولا تؤكل ذبائحهم ، وكان رسول الله ﷺ بعث أبا هريرة مع العلاء بن الحضرمى ، وأوصاه به خيراً .

وكتب رسول الله ﷺ للعلاء فرائض الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال ، فقرأ العلاء كتابه على الناس ، وأخذ صدقاتهم) (٢) .

٢ ـ إلى اليمن :

أخرج البخارى ﷺ عن البراء بن عازب ﷺ قال :

(بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد إلى اليمن . قال : ثم بعث عليًا بعد ذلك مكانه فقال : « مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليُعقّب ، ومن شاء فليقبل » ، فكنت فيمن عقَّب معه ، قال : فغنمت أواقى ذوات عدد) (٣) وقال الحافظ : (كان

---

(١) عيون الأثر ٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩ ، وزاد المعاد لابن القيم ٣/ ٧٤، ٧٥ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٢٦٣ . (٣) المصدر السابق ٨/ ٦٥ .

ذلك بعد رجوعهم من الطائف وقسمة الغنائم بالجعرانة) (١) .

وروى البيهقى فى السنن والدلائل والمعرفة عن البراء بن عازب ﷺ قال البراء :

فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا، ثم إن النبى ﷺ بعث على بن أبى طالب مكان خالد وأمره أن يُقفِل خالدًا وقال: مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقّب معك فليعقب ومن شاء فليقبل . قال البراء : فكنت فيمن عقَّب مع على ، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلى بنا على ، ثم صفَّنا صفًا واحدًا ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعًا ، فكتب على إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجدًا ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان » مرتين . رواه البخارى مختصراً (٢) .

قال الحافظ : (قد ذكر فى آخر الباب حديث جابر ، وأن عليًا قدم من اليمن ، فلاقى النبى ﷺ فى حجة الوداع وقد تقدم الكلام عليه فى كتاب الحج . وقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذى من طريق أخرى عن على قال: بعثنى النبى إلى اليمن فقلت: يا رسول الله ، تبعثنى إلى قوم أسن منى ، وأنا حديث السن لا أبصر القضاء . قال : فوضع يده على صدرى وقال : « اللهم ثبت لسانه واهد قلبه » وقال :

« يا على إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر » فذكر الحديث) (٣) .

بعثة معاذ ﷺ :

أخرج البخارى عن ابن عباس ﷺ قال :

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل : « إنك ستأتى قومًا من أهل الكتاب . فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإياك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب » (٤) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٦٥ ح (٤٣٤٩) .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٣٥٨ . (٣) فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٨/ ٦٥ .
(٤) فتح البارى ٨/ ٦٤ ح (٤٣٤٧) .

وعن أبى بردة قال :

(بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن ، قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف . قال : واليمن مخلافان ثم قال : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا » (١) . فانطلق كل واحد منهما إلى عمله ، وكان كل واحد منهما إذا سار فى أرضه كان قريبًا من صاحبه أحدث به عهدًا فسلم عليه ، فسار معاذ فى أرضه قريبًا من صاحبه أبى موسى ، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه ، فإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه. فقال له معاذ : يا عبد الله بن قيس، أيم هذا ؟ قال : هذا رجل كفر بعد إسلامه . قال : لا أنزل حتى يقتل . قال : إنما جيء به لذلك ، فانزل . قال : ما أنزل حتى يقتل فأمر به فقتل ، ثم نزل فقال : يا عبد الله ، كيف تقرأ القرآن ؟ قال : أتفوقه تفوقًا ، قال : فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال : أنام أول الليل ، فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لى ، فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى) (٢) .

قال الحافظ : (قوله : (باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع) كأنه أشار بالتقييد بما قبل حجة الوداع إلى ما وقع فى بعض أحاديث الباب أنه رجع من اليمن فلقى النبى ﷺ فى حجة الوداع لكن القبلية نسبية ، وقد قدمت فى الزكاة فى الكلام على حديث معاذ متى كان بعثه إلى اليمن، وروى أحمد من طريق عاصم بن حميد عن معاذ: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج يوصيه ومعاذ راكب . . . الحديث ، ومن طريق يزيد بن قطيب عن معاذ : ولما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن . قال : « قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم ، فقاتل بمن أطاعك من عصاك » . وعند أهل المغازى أنها كانت فى ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة) (٣) .

* * *

أكبر القادة العسكريين عند رسول الله ﷺ عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ، واللذين أوكل إليهما إنهاء جيوب الوثنية حول مكة المكرمة ؛ ها هما اليوم يعدان لمهمة غير عسكرية ، لمهمة دبلوماسية سياسية فى ظاهرها ودعوية فى حقيقتها ، ويعلم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام أنهما خلقا للقيادة الحربية ، لكنه وهو يربى هذه الأمة يريد أن ينزع عنهما فى هذه المهمة قصة الحرب والانتصار بالقوة ليتدربا على أن يكونا دعاة فقط، وبدون هذا التدريب سيكونان نسخة مكررة عن القادة الحربيين فى الأرض الذين لا

(١) فتح البارى ٨/ ٦٠ ح (٤٣٤١، ٤٣٤٢) .
(٢) المصدر السابق ٨/ ٦٠ .
(٣) المصدر السابق .

همّ لهم إلا تحقيق الانتصار بالقوة فى سفك الدماء وذبح الأعداء ، يريد لهم رسول الله ﷺ أن يتجردا من السلاح ، ويتحركا بسلاح الإيمان فقط والدعوة إليه والحرقة عليه . ليرافقهما هذا التدريب فى حياتهما التالية كلها ، بحيث يمثلان القيادة المؤمنة فى الأرض لا القيادة فقط وسنتابع معهما، ومع العلاء بن الحضرمى ثالثهما، أخبار هذه المهمة العسيرة. هؤلاء الثلاثة الذين تحركوا نحو عمان واليمن والبحرين فى وقت واحد هو بعد انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة ؛ ليكونوا منبع النور فى هذه الأرض الجديدة ، بعيداً عن الحجاز ونجد حلبة الصراع ، وسنمضى ابتداءً مع عمرو بن العاص ﷺ إلى عمان .

يحدثنا عمرو بن العاص ﷺ عن أعماق نفسه حين أسلم ، وطموحاته الكبرى بعد أن أسلم على يدى النجاشى فيقول :

أسلمت عند النجاشى، وبايعته على الإسلام، ثم قدمت على رسول الله ﷺ المدينة فأعلمته أنى قدمت راغبًا فى الهجرة وفى ظهور الإسلام، وأنا أحب أن يرى أثرى وغناى فى الإسلام وأهله، فقد طال ما كنت عونًا عليه. فقال رسول الله ﷺ: « الإسلام يجب ما قبله ، وأنا باعثك فى أناس أبعثهم إن شاء الله » (١) .

ومر الزمن ، وقاد غزوة ذات السلاسل ، وحضر فتح مكة ، وشهد نصر حنين ، وهدم صنم سواع وعاد من دورته التربوية التى تؤهله ليكون الرجل الداعية فى الإسلام. إن مقدرته الحربية وكفاءته القتالية قد أبرزها مع الجيش الإسلامى فى غزوة ذات السلاسل ولكن دور القوة يكاد ينتهى . فقد انصاع العرب للقيادة المحمدية طوعًا أو كرهًا بعد إسلام مكة ، وأصبح الدور الأهم للدعوة لا للقوة ، وأصبح الإسلام الآن بحاجة إلى الإدارى الماهر ، والدبلوماسى الكفء الذى ينفذ شريعة الله على هذه القبائل التى دانت بالإسلام . وإلى الداعية العظيم المتشرب بروح الإسلام والمعجون فيه كى يدخل الإسلام إلى قلوب الناس رغبة بعد أن دخلوا رهبة .

واختار رسول الله ﷺ من حزبه ثمانية رجال ، وكان أحد هؤلاء الثمانية عمرو بن العاص،يقول عمرو:(فلما كان بعد ذلك بعث رسول الله ﷺ ثمانية نفر سماهم، فكنت أنا المبعوث إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، وكانا من الأزد ، والملك منهما جيفر) (٢).

إذن لقد تحقق الحُلم ، وها هو بمفرده يكلف بدولة عمان ، ورفاقه السبعة كلهم قد مضوا إلى قبائل أعلنت إسلامها، أما هو فيمضى إلى عمان ولا يزال ملكها على الشرك. ورسول الله ﷺ الخبير بالأرض والناس يدرك سماحة أهل عمان ونفاسة معدنهم ، وهو يطمئن إلى حسن استقبالهم لرسول رسول الله ﷺ وذلك كما فى صحيح مسلم :

(١ ، ٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٩/٥٠٧ .

« ولو أن أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك » (١) .

وها هو عليه الصلاة والسلام يحدد جغرافية الأرض ، وطبيعة أهلها كما فى الحديث الذى رواه أحمد : « إنى لأعلم أرضًا يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر ، لو أتاهم رسولى ما رموه بسهم ولا حجر » (٢) ، فهو الوحى الربانى إلى رسوله بطبيعة هذا البلد وأهلها ، والتى سيطؤها عمرو بن العاص لأول مرة وبعد أن أعطى عليه الصلاة والسلام هذه المعلومات لجنديه (كتب إليهما كتابًا يدعوهما فيه إلى الإسلام ، وكتب أبى بن كعب الكتاب وختمه) .

إنه يسير من أقصى غرب الجزيرة بالمدينة ، إلى أقصى شرق الجزيرة ، إلى عمان المتاخمة لأرض فارس ؛ من البحر الأحمر فى الغرب الذى قطعه مرات إلى الحبشة فى الجاهلية والإسلام إلى بحر عُمان فى أقصى الشرق يجوب الصحراء العربية كلها وحيدًا فى مهمته التاريخية ، وهكذا يصنع التاريخ الرجال ، ويصنع الرجال التاريخ .

عند ملكى عمان :

لا ندرى من أين استقى عمرو بن العاص ﷺ معلوماته التاريخية الخاصة عن جيفر وعبد ولدى الجلندى ، وعرف بثاقب نظره أن جيفر الملك أمامه عُقَدٌ ضخمة تحول بينه وبين الإسلام ، بينما أخوه عبد أقل عُقَدًا منه ، فهو أصغر سنًا منه ، وهو بمثابة مستشار لأخيه الملك ، فمن الممكن التوغل إلى قلبه قبل قلب أخيه .

يقول عمرو : (خرجت حتى انتهيت إلى عمان فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين ، وأسهلهما خلقًا . فقلت : إنى رسول رسول الله إليك وإلى أخيك . فقال أخى المقدم علىَّ بالملك والسن وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك) .

وكان من الممكن لدى غير ابن العاص أن يمضى وينتظر حتى يلتقى بجيفر ، لكنه يرى فرصة سانحة للحديث عن الإسلام بين يدى عبدٍ أخيه ، فلم لا يستغلها ، والظاهر أن عبدًا أخا جيفر من طراز عمرو ذكاءً ودهاء وفصاحة ، ولنشهد معركة الكر والفر بين الرجلين .

(ثم قال لى : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عُبِد من دونه وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله) .

والتلجلج فى العقيدة ليس دهاءً ولا عبقرية ، فلابد أن تتضح من اللحظات الأولى طبيعة هذا الدين ومنطلقاته . لقد كان إعلان الحاكمية والوحدانية لله تعالى قبل كل

---

(١) مسلم ٤/ ١٩٧١ ح (٢٢٨/ ٢٥٤٤) . (٢) أحمد ١/ ٤٤ .

شيء ، والتلقى لكل هذه الأمور من رسول الله ﷺ هى هوية هذا الدين الذى لا يقوم ولا يعرف إلا به . ويدرك عمرو بن العاص ـ وهو الذى خاض معركة العقيدة عشرين عامًا يرفض الاعتراف بهذه الوحدانية ـ أنه لا إسلام بلا توحيد . وثبات رسول الله ﷺ وإصراره عليها هو الذى جلى له هذه الحقيقة : « إنما جئتكم بلا إله إلا الله ، وتنبذون ما تعبدون من دونه ، فإن قبلتم فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن أبيتم أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم وهو خير الحاكمين » .

لكن عبد بن الجلندى أبرز جوانب عبقريته بهذا السؤال لعمرو :

(يا عمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة)

وبذلك أوقع عَمْرًا فى معضلة لا يخلص منها إلا مثل عمرو ذكاء ودهاء وحسن حيلة، وهو المنطق الذى استعمله الملأ من قريش مع رسول الله ﷺ: يوم طلبوا منه بعث قصى بن كلاب ليؤمنوا به ، وأدرك عمرو مرامى ابن الجلندى ، وأخذ الكُرَةَ وألقاها ثانية فى مرماه بقوله :

(مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، وودت أنه كان أسلم وصدَّق به . . .) .

ويدرك ابن الجلندى أن عمرو بن العاص عريق فى الجاهلية والكفر ، وأنه جديد على الإسلام ، ومن السهل أن يتراجع عن هذا الدين الذى لم يمر عام واحد على اعتناقه له فى المدينة ، وعرف عمرو ما يجول بذهن عبد فتابع كلامه : (وقد كنت أنا على مثل رأيه ، حتى هدانى الله للإسلام) .

وعاد ابن الجلندى ، فمضى بعمرو يرد سهمه نحوه ، مشيرًا إلى حداثة عهده بالإسلام : (قال : فمتى تبعته ؟ قال : قريبًا ، فسألنى : أين كان إسلامى ؟) .

وما أحرص عمرو على أن يقدّم هذه المعلومات لعبد بن الجلندى عن موطن إسلامه، فالجلندى والنجاشى خاضعان لقيصر ملك الروم ، وكلاهما نصرانيان . يمكن أن يقتدى أحدهما بالآخر [1] .

(فقلت : عند النجاشى وأخبرته أن النجاشى قد أسلم) .

وهو الخبر الذى استحوذ على اهتمام ابن الجلندى، فغدا هو المحور الرئيسى للحديث

(قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقروه واتبعوه) .

---

(١) يقول اللواء شيت خطاب فى كتابه سفراء النبى ﷺ : وهذه المحاورة تدل على أن الأخوين كانا من النصارى، وأن هرقل لأنه ملك أكبر دولة مسيحية . كانت له هيمنة على نصارى الشرق بدون استثناء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ص١٥٨ .

ولم يكد عقل عبدٍ يصدق الخبر ، فدولة النصارى ضاربة أعماقها فى جذور الحبشة، والأساقفة والرهبان هم الذين نخروا نخرة رجل واحد ضد سلفه السابق حين أعلن إيمانه بالوحدانية وبعبودية عيسى ابن مريم ، ولم يتراجعوا حتى حرّكوا الجماهير فى ثورة عنيفة ضده حتى اضطر إلى التراجع عن إعلانه الإسلام ، وأخفى دينه فى أعماقه .

(قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ ! قلت : نعم) .

إن هذا ضد منطق الأحداث ، وعبقرية ابن الجلندى فى حكمه على التطورات السياسية الدينية لا تدعه يقبل هذا التطور المفاجئ ، وأمامه عمرو بن العاص داهية العرب، فكيف يكذبه وهو يعلن أمامه ذلك .

قال : (انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من كذب.

قلت : ما كذبت ، وما نستحله فى ديننا) .

لقد تجاوز الحديث المظاهر الدبلوماسية ، والبروتوكولات الرسمية ، ونفذ عمرو إلى أعماق عبد بن الجلندى حين هزَّه بحديث النجاشى ، يقول ابن الجلندى متفاعلاً مع الحدَث : (ما أرى هرقل قد علم بإسلام النجاشى ؟ ! قلت : بلى) .

إن العقد المتكاثفة على قلب ابن الجلندى بدأت تنحل وتهوى ، ترى ما مصير النجاشى إن صدق عمرو فى معرفة قيصر بإسلامه . أليس اغتياله أو عزله على أقل تقدير؟ !!

وتتابع المفاجآت كأنما يمضى عمرو بلب ابن الجلندى وعقله إلى حيث يريد .

(قال : بأى شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشى يخرج له خرجًا ، فلما أسلم وصدَّق بمحمد ﷺ قال : لا والله ، لو سألنى درهمًا واحدًا ما أعطيته) .

إنه إعلان تمرد على ملك الدنيا هرقل ، وهذا يعنى تعريض الحبشة للاحتلال المباشر من قيصر الذى تربَّع على قمة الدنيا ، وهزم كسرى ملك الملوك ، وحج ماشيًا شكرًا لله على هذا الانتصار .

فهل يقبل هذا التحدى ؟؟

ولا يكاد ابن الجلندى يفيق من ضربة إلا وتأتيه الثانية تنهال كالمطارق على رأسه .

(فبلغ هرقل قوله . فقال له (يناق) أخوه: أتدع عبدك لا يُخرج لك خرجًا ويدين دينًا محدثًا . قال هرقل : رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع) .

ولم يكد يصدق ما سمع قال : (انظر ما تقول يا عمرو ، قال : والله صدقتك) .

إن ابن الجلندى الآن قد انزاحت أمامه أكبر عقدة من عقد الكفر والجاهلية ، وهى عقدة الخوف على الملك ؛ فله فى النجاشى أسوة ولا خطر على ملكه لو أسلم إذن .

فليعد إلى عمرو يسأله عن هذا الدين .

وكما نجح جعفر ﷺ ، وحطم مؤامرات عَمرو ضد الإسلام والمسلمين فى الحبشة، ونفذ إلى قلب النجاشى ، فها هو عمرو بن العاص المسلم الآن . يسجل انتصارًا باهرًا فى تحطيم عقدة الخوف على الملك من قلب ابن الجلندى ، فى الوقت الذى كان عند النجاشى يهوّلها ويضخمها ليبعده عن الإسلام حين قال له : إن هذا الرجل الذى بين أظهرنا وأفسد فينا وتناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك ، ونحن لك ناصحون ، وأنت لنا عيبة صدق ، تأتى إلى عشيرتنا بالمعروف ، ويأمن تاجرنا عندك فبعثنا قومنا إليك ، لننذرك فساد ملكك) .

وكم الفرق شاسع بين عمرو الجاهلى الذى يحذر النجاشى فساد ملكه وزواله لو اتبع الإسلام ، وبين عمرو المسلم الذى يذلل نفسية ابن الجلندى ليقتدى بالنجاشى الذى أسلم وتحرر من سيطرة قيصر وحافظ على ملكه !! « هو الذى أخرجكم من الظلمات إلى النور » .

قال عبد : (فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟) .

ولا يزال جعفر الرمز فى قلب عمرو وعقله ، كيف عرض الإسلام على النجاشى فأسر قلبه ولبه، هو القدوة والمثل الأعلى لعمرو . فها هو يمضى على طريقه نفسه قائلاً:

(يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . فقال :

ما أحسن هذا الذى يدعو إليه. لو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدّق به ، ولكن أخى أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا .

قلت : إنه إن أسلم ملّكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردّها على فقيرهم) .

والجديد عند عمرو ﷺ هو أنه يريد أن يقنع ابنى الجلندى ليس بعقيدة الإسلام فقط إنما بشريعة الإسلام كذلك ، ولا يثبت هذا الملك إلا بتطبيق هذه الشريعة ، فلذلك أردف حديثه عن تثبيت ملك الجلندى بحديثه عن تطبيق نظام الإسلام فى الصدقة .

(قال : إن هذا الخلق حسن ، وما الصدقة ؟

فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل فقال : يا عمرو ، تؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟ قلت : نعم. فقال :

والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا) .

وكانت نظرة عبد بن الجلندى بعيدة الغور . فردة العرب معظمها كانت من أجل ذلك، فالملك سلطة مطلقة ، والعدل وإنقاذ الفقير من فقره ليست سمة من سمات صاحب السلطان والصولجان ، إن لم ترافقه عقيدة وازعة . ودين رادع .

قال عمرو : (فمكثت ببابه أيامًا ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى) .

فلقد كان يرسل نسائم الإسلام وأعلامه وأحكامه المرة بعد المرة إلى جيفر بن الجلندى عن طريق أخيه . وكان اللقاء الحاسم .

(ثم إنه دعانى يومًا فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضيعى [١] . فقال : دعوه ؛ فأرسلت فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس ؛ فنظرت إليه ، فقال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختومًا ، ففض ختمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه ، فقرأه مثل قراءته إلا أننى رأيت أخاه أرق منه ثم قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟) .

وأدرك عمرو من الموقف كله ، طبيعة اللهجة التى يتكلم بها أمام هذا الملك البدوى الخشن الذى يعلم أن سعار الحرب كلها كانت بين محمد وقريش التى نصبت لحربه .

(قلت : تبعوه إما راغب فى الدين ، وإما مقهور بالسيف) .

وإذا كان العدو الأول قد سقط رغبة أو رهبة، فمن أتباعه؟! واستطاع عمرو رضي الله عنه بعبقريته النادرة إلى أن يغوص إلى أعماق جيفر ، وأبعاد تفكيره ، وخفقات قلبه ، واستجمع كل بلاغته وكل شجاعته وكل إيمانه ليلخص الموقف كله ، فلن يستطيع الحوار الطويل مع هذا الملك المعتد بملكه وأتباعه . قال :

(قال : ومن تبعه ؟ قلت : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم فى ضلال ، فما أعرف أحدًا غيرك فى هذه الحرجة[٢] ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتَّبِعْهُ يوطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم

(١) الضيع : ما بين الإبط إلى نصف العضد .

(٢) الحرجة : غيضة الشجر الملتفة ، لا يقدر أحد أن ينفذ فيها .

ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

قال : دعنى يومى هذا وارجع إلىَّ غدًا) .

وصدقت فراسة عمرو ، فلو لم ينقل الموقف كاملاً ، بحيث أوضح فيه كل ما لديه من قوة فى احتمال زوال ملكه وإبادته إن وقف فى وجه الإسلام ، وكل ما لديه من حكمة فى ثبات ملكه لو أسلم ودخل فى دين الله ، لو لم يتمكن من إيضاح هذا الموقف الجلى تمامًا لما أمكن لجيفر أن يفكر تفكيرًا صحيحًا فى اتخاذ الموقف المناسب ، ولم يقف عمرو مع هذا مكتوف اليدين فهو يريد أن يتابع الأمر من كل جهة حرصًا على اعتناق هذا الملك للإسلام . حيث يتبعه قومه كلهم بذلك .

(فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو ، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضنّ بملكه !

حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لى ، فانصرفت إلى أخيه . فأخبرته أنى لم أصل إليه ، فأوصلنى إليه . فقال :

إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملّكت رجلاً ما فى يدىَّ وهو لا تبلغ خيله ها هنا ، وإن بلغت ألفَت [1] قتالاً ليست كقتال من لاقى) .

وعوضًا عن أن يلجأ عمرو إلى الحوار والكلام . لجأ إلى أسلوب زعزع به شخص جيفر بكلمة واحدة . (قال : وأنا خارج غدًا) . وهذا يعنى أن الموقف النهائى سيتحمل تبعته كاملة .

(فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال :

ما نحن فيما ظهر عليه !! وكل من أرسل قد أجابه ؟!

فأصبح فأرسل إلى ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه ، وصدَّقا النبى ﷺ وخليًا بينى وبين الصدقة ، وبين الحكم بينهم ، وكانا عونًا لى على من خالفنى) .

وندع التعليق للواء شيت خطاب على هذه الدعوة قائلاً :

(لقد كان جيفر أكبر من أخيه عبد سنًا ، فكان هو الملك ، ولكن أخاه عبدًا كان أكثر عقلاً واتزانًا وروية من أخيه ، وأرحب صدرًا ، وأوسع أفقًا ؛ لذلك تأثر بكتاب النّبى ﷺ قبل أخيه ، ومال إلى الإسلام .

أما جيفر ففكَّر بملكه أولاً ، وخشى عليه من الإسلام ، فما تجاوب مع الكتاب النبوى تجاوبًا سريعًا كما تجاوب أخوه ، فطلب جيفر أن يمهله عمرو يومًا واحدًا ليفكر فى

---

(١) ألفت : وَجَدَتْ .

أمره مليًا ، وليقرر ما يفعله بعد أن يقلب الأمور كما ينبغى .

وهنا برز دور أخيه عبد فى حث جيفر على اعتناق الإسلام ، وحمل أخاه على الإيمان بدين الله ، وألا يرد عمرو بن العاص من عُمان إلى المدينة المنورة خائبًا .

واقتنع جيفر بالإسلام كما اقتنع أخوه عبد ، فأسلما عن قناعة كاملة لا غبار عليها ؛ لذلك قدما الصدقات طوعًا ، وعاونا عمرو بن العاص على جمع الصدقات من الأغنياء وردِّها على الفقراء ، وجمع الجزية من المجوس ، وكان خير عونٍ له فى النهوض بمهمته فى واجبات الحكم والإدارة فى عُمان وما حولها من البلاد، كما أنهما ثبتا على الإسلام، ولم يرتدا كما ارتد غيرهما من أهل عُمان ، وتعاونا مع القائد الذى بعثه أبو بكر الصديق إلى عُمان ، ومع جيشه فى حرب المرتدين ، حتى عادت عُمان إلى الإسلام .

أما عمرو فقد كان بحق سفيرًا متمرسًا، مارس السفارة مرتين قبل الإسلام، ومارسها هذه المرة الثالثة بعد الإسلام ، فلا عجب أن يكون تصرفه فى هذه السفارة تصرفًا حصيفًا يدل على الألمعية والذكاء الخارق ، فكان حاسمًا فى جوابه لجيفر بعد يوم من لقائه الأول به ؛ إذ أظهر له أنه راحل غدًا ، فخاف جيفر من عواقب الأمور ، وبخاصة أن العرب دخلوا فى دين الله أفواجًا ، وفُتحت مكة المكرمة ، وأصبحت وفود العرب تتقاطر إلى المدينة من كل حدب وصوب معلنة إسلامها وأنها انضوت تحت راية الوحدة والتوحيد فى ظل الإسلام .

وقد أخفق عمرو فى سفارتيه قبل الإسلام ، ولكنه نجح أعظم النجاح فى سفارته النبوية بعد الإسلام مع أنه حشد الهدايا للنجاشى ملك الحبشة فى سفارته الأولى والثانية ولرجالات النجاشى من رجال الدين ورجال الدنيا ، أما فى سفارته الثالثة التى كانت بعد الإسلام ، فلم يحشد شيئًا من متاع الدنيا يستعين به على إنجاح سفارته ، فنجحت بحوافز الروح لا بحوافز المادة، وانتصر الإسلام بمبادئه، ولم ينتصر بشيء آخر من مغريات الحياة.

وهكذا استطاع عمرو أن يضم عددًا ضخمًا من العرب إلى الإسلام ، وأن يضم بلادًا شاسعة إلى بلاد المسلمين) (١) .

مع الجلندى الأب :

ويحدثنا وثيمة فى كتاب الردة عن ابن إسحاق :

(أن النبى ﷺ بعث إلى الجلندى عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام. . .) .

فيرجح للجمع بين الروايات أن عبدًا وجيفر ولدى الجلندى بعد أن أسلما أدخلا

(١) سفراء النبى ﷺ للواء الركن محمود شيت خطاب ص ١٥٦ .

عمرو بن العاص على أبيهما الجلندى، ولعله لتقدمه فى السن قد تنازل عن الملك لولديه، وكان لدى عمرو من الوقت والسعة والاطمئنان ما يدخل الإسلام هينًا طريًا إلى قلبه .
فيقول : بعد أن نجح عمرو ﷺ فى إسلام بيت الجلندى كله أبًا وأبناءً يقول الجلندى والإسلام قد عشعش فى قلبه وفؤاده :

(لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يهجر ، وأنه يفى بالعهد وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبى ثم أنشد :

أتانى عمروٌ بالتى ليس بعدها ... من الحق شىء والنصيح نصيح
فقلت له : ما زدت أن جئت بالذى ... جلندى عُمان فى عُمان يصيح
فيا عمرو قد أسلمتُ لله جهرة ... ينادى بها فى الواديين فصيح)(١)

ولا شك أن هذه الرواية تحمل فى ثناياها أن الجلندى متعمق فى كتب النصرانية ، وعارف أن هناك نبيًا سيبعث بهذه المواصفات ، وأنه كان يبشر بهذا النبى ، ولم يأت عمرو إلا بما كان يبشر به الجلندى قومه ، وهنا يعلن أن ما قرأه قد تحقق تمامًا بهذا النبى الأمى الذى وجد وصفه فى التوراة والإنجيل كما سمع ولا يبعد أن يكون إسلام ولديه قد تجاوب مع قناعة أبيهما ، فأسلم الثلاثة كلهم لله رب العالمين .

ومن عمرو بن العاص إلى العلاء بن الحضرمى ، وهو من الرعيل الأول من المهاجرين. ولعل كون أصله من حضرموت هو الذى دعا رسول الله ﷺ إلى إرساله إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين (٢) .

مع أمير البحرين :

لقد كان العلاء بن الحضرمى أحد إخوة أربعة حلفاء لبنى أمية فى قريش ، وكان أباهم الحضرمى هو الذى حالف حرب بن أمية ، وبقى أولاده حلفاء لبنى أمية ، وكان عمرو بن الحضرمى أول قتيل قتله المسلمون فى سرية عبد الله بن جحش ، وكان أخوه عامر هو الذى قام ينشد خفرة أخيه عمرو عندما فكر عتبة بن ربيعة زعيم بنى أمية أن يوقف الحرب بين المسلمين والمشركين ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمى ، وانتهى الجميع فى صف الشرك إلا العلاء الذى قدَّر الله تعالى له الهداية ، وعاش فى مدرسة

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ١/ ٢٧٥ ت (١٢٦٢) .
(٢) لابد من الإشارة إلى أن ما يُطلق عليه اليوم اسم دولة البحرين ليست هى المقصودة فى السيرة ، وفى الماضى، لقد كانت البحرين تطلق على ما يسمى اليوم بالأحساء والهفوف والقطيف ، وهو المنطقة الشرقية فى المملكة العربية السعودية. وكثير من الأسماء والمواقع سابقًا لا تزال على اسمها اليوم فى هذه المنطقة .

النبوة عشرين عامًا يتلقى من رسول الله ﷺ ، ويشهد معه مشاهده كلها ، ولقد أترع الإيمان فى قلبه ، وأجرى على يديه فى الفتوحات الإسلامية كرامات لا تبلى أبد الدهر.

(يقول أبو هريرة ﷺ :

رأيت من العلاء ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبدًا ، قطع البحر على فرسه يوم دارين ، وقدم يريد البحرين ، فدعا الله بالدهناء فنبع لهم ماء فارتووا . ونسى رجل منهم بعض متاعه فرد فلقيه ولم يجد الماء. . .) [1] .

وفى اجتياز البحر قال عفيف بن المنذر :

ألم تر أن الله ذلل بحره ... وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعَونْا الذى شق البحار فجاءنا ... بأعجب من فلق البحار الأوائل) [2]

وكان هذا فى الجولات اللاحقة للعلاء ﷺ ، أما الجولة الأولى فكانت مذللة ميسرة مسهلة ليس فيها حرب ولا ضرب ، إنما فيها رسالة من رسول الله ﷺ إلى المنذر ابن ساوى ليس بين يدينا أى تفاصيل عن اللقاء بين العلاء والمنذر إلا أن الله تعالى شرح قلب المنذر للإسلام بلا سيف ولا سلاح ، وكان جواب الرسالة النبوية :

(إنى قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلىَّ فى ذلك أمرك) .

لقد استسلم لله رب العالمين ، ووضع نفسه جنديًا بين يدى رسول الله ﷺ ينتظر أمره . فكان الجواب النبوى له :

« إنك مهما تُصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » ، وبهذا تعلم المنذر إمكانية التعايش بين الأديان من خلال هذا الكتاب . لكن هذا التعايش لا يعنى إلغاء الدعوة إلى الله ، فجاء الكتاب الثانى : (وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فإن أبوا أخذت منهم الجزية ، وألا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم) .

فهم على شبهة أهل كتاب ، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب »،وتحدد هذا النص العام حين استثنى منه نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم، بينما يجوز ذلك بالنسبة لليهود والنصارى ، وبذلك انحصرت شبهتهم بأهل الكتاب من خلال أخذ الجزية فقط ، وعدم إجبارهم على التخلى عن دينهم ، وإذا كانت الجزية هى

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى ١/ ٢٦٥.
(٢) المصدر السابق هامش ١/ ٢٦٥ .

نصيب المجوس واليهود ، فما فرض الله على المؤمنين من زكاة لا تقل عما فرض على المجوس من جزية . فالصدقات والزكاة من المسلمين ، والجزية من اليهود والمجوس ، وتحددت أنصبة الزكاة من رسول الله ﷺ (وكتب رسول الله ﷺ للعلاء فرائض الإبل والغنم والبقر والثمار والأموال . فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقاتهم) .

فالعلاء هو الحاكم الإسلامى الذى ينفذ شريعة الله على المسلمين ، والمنذر هو الحاكم الأول للبحرين .

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [الحج : ٤١] .

وأما الصلاة فقد كان الوزير المفوض بإقامتها هو أبو هريرة رضي الله عنه ، وكان هو رفيق العلاء فى قدومه من المدينة إلى البحرين ، وأبو هريرة مثل العلاء كلاهما من اليمن ، واختار أن يكون مؤذنه (فعن سالم مولى بنى نصر قال : سمعت أبا هريرة يقول : بعثنى رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمى . وأوصاه بى خيرًا ، فلما فصلنا قال لى : إن رسول الله ﷺ قد أوصانى بك خيرًا فانظر ماذا تحب ؟ قال : تجعلنى أؤذن لك ، ولا تسبقنى بآمين ، فأعطاه ذلك) (١) .

وقدَّر الله تعالى لأبى هريرة أن يكون أميرًا على البحرين فيما بعد ، فقد كانت خبرته التى اكتسبها سببًا فى هذه الولاية ، ولم يشهد المسلمون مالاً وغنائم كما شهدوا يوم جاء أبو هريرة من البحرين .

مع خالد رضي الله عنه إلى اليمن :

واليمن أوسع الأقطار فى تلك الأيام فهى تمتد من جنوبى الطائف إلى البحر ، وهى أكبر من الحجاز ومن نجد ، ولذلك تتابعت عليها السرايا والبعوث والوفود لفتح مغاليقها أمام الإسلام ، وكان أول هؤلاء الوافدين سيف الله خالد بن الوليد الذى برز من أعظم القادة العسكريين بين يدى رسول الله ﷺ ، ولابد له أن يتدرب على الدعوة ، ويلقى السيف جانبًا ، ويعمل جاهدًا داعيًا إلى الله تعالى بلسانه ، ولا يحتكم إلى القوة حين يصد عنه الناس .

وها هو خالد رضي الله عنه يدعو همدان إلى الإسلام ، ولم يمض وحده إنما كان معه سرية كبيرة من المسلمين لكنه لم يؤذنهم بقتال ، إنما مضى يدعوهم إلى الله عز وجل ، وهم يصدون عن سبيل الله ، ومتى كان خالد بن الوليد يصبر هذا الصبر على لأواء الدعوة ، ويذوق مرارة الصد، إنه أمضى حياته يحتكم إلى السيف، وينهى أمره فى التو واللحظة،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢/ ٧٧ .

أما اليوم فهو داعية إلى الله عز وجل عليه أن يصبر ويصبر ، ويتجرع عقابيل الصد عن الدعوة والدعاة ، فهو لم يعش هذه المرحلة إطلاقًا فى حياته ، بل كان فى صف المعاندين والمكابرين والمحاربين لله ورسوله ، وكان يذيق الدعاة غصص الصد والاستكبار والاستهزاء بشريعة الله هو وأبوه من قبله . وتشاء إرادة الله تعالى أن يمضى ستة أشهر فى هذه الدعوة ، ولا تفتح القلوب الغلف ، ولا تبصر الأعين العمى ، ولا تسمع الآذان الصم ، وهو ماض فى سبيل الله مذعن لقدر الله ، لكم كان يقرأ قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦]، لكنه لم يكن يحس بها إنما كان يقرؤها بلا شعور ، أما الآن فهو يعيش مأساتها ويحترق بمشاعرها ، وكم يتمنى لو تفتح هذه القلوب ، ويرسل البشرى لرسول الله ﷺ بذلك ، ولكن دون جدوى ، مما اضطره أن يبعث إلى رسول الله ﷺ بواقع الأمر ، وجاءه على بن أبى طالب ﷺ بإثره ، وعادت إلى ذاكرته سرية بنى جذيمة يوم قتل الأسرى ، وتبرأ رسول الله ﷺ من عمله بكل شجونها ومآسيها، وأن عليًا هو الذى آسى الجراح، وودى القتلى وطيب القلوب ، فهل يقوم على ﷺ بهذا الدور من جديد مع هذه القلوب الجاسية.

يروى لنا البراء بن عازب ﷺ ذلك بقوله :

(كنت ممن خرج مع خالد بن الوليد إلى أهل اليمن ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، ثم إن النبى ﷺ بعث على بن أبى طالب مكان خالد ، وأمره أن يقفل خالدًا وقال : « مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقّب معك فليعقّب ، ومن شاء فليقبل » . قال البراء : كنت فيمن عقَّب مع على، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلى بنا على، ثم صفنا صفًا واحدًا ، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ ، فأسلمت همدان جميعًا . فكتب على إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجدًا ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان مرتين » .

ونعود إلى خالد بن الوليد ﷺ الذى عجز عن تحقيق نصرٍ فى مجال الدعوة ينضم إلى انتصاراته العسكرية ، فهل يدعه رسول الله ﷺ مربى البشرية يحمل هذه العقدة فى حياته ؟ أبدًا، إنه ابن هذا الدين، وليس ابن الوليد الجاهلى فقط، فلنفتح أمامه تجربة ثانية فى اليمن، ومع بنى الحارث بن كعب الذين لا يقلون نسبًا وشرفًا وعددًا عن همدان، وذلك بعد مرور عامٍ على تجربته الأولى التى فشل فيها ، وبعد نجاحه الباهر فى إحضار أكيدر بن عبد الملك إلى رسول الله ﷺ فى تبوك ، وذلك ليغسل آثار تلك المهمة الشاقة التى لم تتحقق فيها أهدافها .

وفى بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى بنى عبد المدان ـ كذا عند ابن سعد ـ فى السرايا

وهم من بنى الحارث بن كعب بنجران فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر.

قالوا : بعثه رسول الله ﷺ إليهم وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثة أيام ، فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم ، فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : « أسلموا تسلموا » فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهم شرائع الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه) .

لقد كان رضي الله عنه يُعدُّ العدة لستة أشهر أخرى كما كان الأمر فى جولته مع همدان ، ولكن ذلك الصبر العظيم هو الذى قَدَّم له هذا النصر الكبير ، فثلاثة أيام فقط ، والرسل تجول فى بنى الحارث بن كعب تدعوهم إلى الله تعالى قبل المعركة الفاصلة ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تفتح هذه القلوب على يديه فكانت الفرحة الكبرى التى غمرته بانتصار هذا الدين فى القلوب ، وقدَّمت له أعظم درس عليه أن يحافظ عليه فى حياته إلى أن يموت ، وهو أن يكرر هذه التجربة كلما حاصر قومًا أو قاد جيشًا أو نزل بعدو ، لابد من الدعوة إلى الله تعالى والإعذار للناس قبل المعركة ، واللذة التى ذاقها بهذه الهداية جعلته يمضى فى فتوحاته القادمة كلها على هذه السنة ، وكان رسول الله ﷺ يعدُّه هذا الإعداد لأنه يتوسم فيه أن يكون قاهرًا لفارس الروم والعرب ، فهو سيف الله فى الأرض ، ولابد لهذا السيف أن يحمل المرحمة مع الملحمة ، وما حلم به رضي الله عنه من قبل يراه اليوم واقعًا يتحرك ، فها هو يكتب جوابه لنبيه ﷺ حول مهمته :

بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد النبى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد :

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك قد بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتنى إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركبانًا ينادون : يا بنى الحارث أسلموا تسلموا فأسلموا ولم يقاتلوا ، وإنى مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى ﷺ ، حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته) .

وواضح من ثنايا الرسالة ، والتفصيلات المسهبة فيها تلك السعادة الغامرة التى ملكت خالدًا رضوان الله عليه حتى تحس بكل سطر إشعاع هذا النور الذى ملأ نجران بدخولهم

فى دين الله عز وجل .

ولعل أهل نجران من بنى الحارث بن كعب إنما استجابوا لهذا الدين ، كما فعل الأنصار من قبل ، لجوارهم لنصارى نجران الذين كانوا يتحدثون أمامهم دائما عن النبى الأمى الذى أظل زمانه ، وحين نراجع السيرة النبوية نلاحظ أن وفد نجران من النصارى رغم أنه جادل بالباطل ورفض الإسلام ، إلا أنه رفض المباهلة فى اللحظة الحاسمة . (فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله عنه ، والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك ، فقالوا له : يا أبا القاسم ، دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال :

والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيًا قط فبقى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضًا) (١) .

وبمقدار ما سعد سيف الله بإسلام القوم ، وإخبار النبى ﷺ بهذا الإسلام ، سعد كذلك بالجواب النبوى له :

(فكتب إليه رسول الله ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قبل أن نقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم ، وأنذرهم ، وأقبل، وليقبل معك وفدهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته) (٢) .

قيس بن سعد والصدائى :

قال ابن إسحاق : لما رجع رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ثمانٍ بعث قيس بن سعد إلى ناحية اليمن ، وأمره أن يطأ صُداء ، فعسكر بناحية قناة فى أربعمائة من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٨٣ ، ٥٨٤ . (٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/ ٣٥٤، ٣٥٥ .

المسلمين ، فقدم رجل من صداء ، فسأل عن ذلك البعث فأخبر به ، فجاء رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله ، جئتك وافدًا على من ورائى ، فاردد الجيش فأنالك بقومى) .

فردهم من قناة ، وخرج الصدائى إلى قومه ، فقدم منهم بعد ذلك خمسة عشر رجلاً فأسلموا ، فقال رسول الله ﷺ : « إنك مطاع فى قومك يا أخا صُداء » . فقال: بل الله هداهم ، ثم وافاه فى حجة الوداع بمائة منهم) (١) .

وقيس بن سعد هو ابن سيد الخزرج سعد بن عبادة وهو أولى بأهل اليمن لأن الأنصار يمنيون ، وصداء حى من عرب اليمن وهو حليف بنى الحارث بن كعب بن مذحج. ومضى قيس رضي الله عنه بهذا الجيش منصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة هو جزء من الخطة التى بعث فيها خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى همدان فى اليمن فى محاولة لاجتذابهم إلى الإسلام ، وتأهب الجيش ماضيًا إلى صُداء ، ويشاء قدر الله أن يرد المدينة سيد من سادات هذه القبيلة ، ويعرف أن هذا الجيش ماض لقبيلته يدعوها إلى الإسلام أو يطؤها حربًا لا هوادة فيها . ونظفر بنصٍ بلسان زياد رضي الله عنه يحدثنا فيه عن ذاته ومشاعره رواه ابن سعد فى طبقاته ، يعطينا إضاءات تربوية رائعة بين يدى المربى الأعظم عليه الصلاة والسلام .

روى البغوى والبيهقى وابن عساكر وحسنه عن زياد بن الحارث الصدائى رضي الله عنه قال:

أتيت رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام ، فأخبرتُ أنه قد بعث جيشًا إلى قومى.

قال ابن سعد رحمه الله : لما انصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ثمان بعث قيس بن سعد بن عبادة إلى ناحية اليمن وأمره أن يطأ صداء فعسكر بناحية قناة فى أربعمائة من المسلمين .

وإلى هنا ونحن نتثبت من المكان والزمان والسبب، وننتقل بعدها إلى صاحبنا زياد:

قال زياد بن الحارث الصدائى : فقلت : يا رسول الله ، قد جئتك وافدًا على من ورائى ، فاردد الجيش . وأنا لك بإسلام قومى وطاعتهم . فقال لى : « اذهب فردهم » فقلت : يا رسول الله ، إن راحلتى قد كلَّت فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فردهم من صدر قناة . فقدم منهم بعد ذلك على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم فأسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ على من وراءهم من قومهم .

فقد كان هذا الصدائى يعيش لقومه ، يريد أن ينقذهم بالإسلام لا يفنيهم بالقتل ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٩٢، ٥٩٣ .

فتعهد رسول الله ﷺ بإسلام قومه راجيًا أن يرد الجيش المتأهب للمضى نحوهم . وبفراسة النبى العظيم صلوات الله عليه أدرك أن الرجل ذو جاه فى قومه . فقال له : «اذهب فردهم» والزمن له قيمته عند أخى صداء ؛ فناقته التى جاء بها إلى اليمن قد نزل بها الإعياء بحيث لا تصل إلى قناة إلا والبعث قد مضى لمهمته ، فكانت جرأته فى مقابلة رسول الله ﷺ طالبًا منه أن يعطيه ناقة ذلولاً يدرك البعث قبل تحركه ، ورأى إمام المربين جدية هذا الأعرابى ، وحرصه على قومه وأنه بهم زعيم أن يسلموا ، وكان هذا هو الأحب لرسول الله ﷺ أن يرى هذه القلوب عامرة بالإيمان من أن يراها مضرجة بالدماء، وليدع الفرصة أمام هذا الأعرابى ينقذ قومه من الكفر والموت ، فأرسل رسول الله ﷺ رسولاً خاصًا من عنده لإيقاف الجيش عن التحرك أمام كفالة فرد واحد من القبيلة .

(فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فردهم من صدر قناة) .

ونمضى مع زياد بن الحارث الصدائى فى حديثه عن قومه قائلاً :

(وكتب إلى قومى كتابًا فقدم وفدهم بإسلامهم)

وما أروعه من لقاء بدل أن يمضى قيس بن سعد رضي الله عنه فى نحر القوم يقتُل ويبيد . أن يتقدم أبو قيس سعد بن عبادة باستضافة هذا الوفد عنده حباءً وكرمًا وضيافة وكسوة.

(فقدم منهم بعد ذلك على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً . فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله ، دعهم ينزلوا على ، فنزلوا عليه، فحباهم وأكرمهم وكساهم ، ثم راح بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا وبايعوا رسول الله على من وراءهم من قومهم).

إنها رسالة الهداية للبشرية وليست رسالة الإبادة ، أو رسالة الحكم والسيطرة ، إن هذه العصبة المؤمنة فى الأرض تود أن تنشر النور فيها والحياة فيها ، والكفر عندها عديل الموت .

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) ﴾ [الأنعام] .

ونعود إلى أخى صداء يطلعنا على أسرار جديدة عنه وعن قومه .

(قال زياد: فقال لى رسول الله ﷺ: « يا أخا صُداء، إنك لمطاع فى قومك ». قال: فقلت : بل الله هداهم للإسلام ، فقال لى رسول الله ﷺ : « أفلا أؤمرك عليهم ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله ، فكتب لى كتابًا أمّرنى فيه . فقلت : يا رسول الله ، مر لى بشىء من صدقاتهم قال : « نعم » . فكتب لى كتابًا آخر) .

ورأى رسول الله ﷺ هذا الانصياع من صداء لابنها البار زياد بن الحارث ، ورأى موقعه العظيم فيهم حتى ليتخلوا عن دينهم لدينه وهو عند رسول الله ﷺ .

فأراد أن يسبر غوره فى هذه الإشارة اللمَّاحة « يا أخا صداء، إنك لمطاع فى قومك » وعوضًا عن أن تأخذه العنجهية والاعتزاز بهذه الثقة من قومه به ، والتى يشهد رسول الله ﷺ بها ، إذ به يُجبل دَمُه بالإسلام ، ويصاغ بمفاهيمه وعقائده فيقول للمربى الأعظم ﷺ : بل الله هداهم للإسلام .

إنها فرصة مواتية لأن يعدد مآثره ومآثر قومه ، والمرات السابقة التى أطاعوه فيها تدليلاً على زعامته وموقعه وقيادته ، وقد رأى ﷺ من هذه النماذج الكثير ، فهؤلاء زعماء بنو تميم راحوا يمنون بزعامتهم وأمجادهم وشعرائهم وخطبائهم على رسول الله ﷺ ، أما هذا المعدن النفيس الخالد ، الذى نسى ذاته ، والتى ذكَّرَهُ رسول الله ﷺ بها: « إنك لمطاع فى قومك » قد بدت الصياغة الإسلامية فيه خلال هذه الأيام القليلة التى أمضاها فى المدرسة الإيمانية واعتبر هذا فضلاً من الله تعالى عليه وعلى قومه فقال : بل الله هداهم للإسلام .

وأمام هذا الجواب الإسلامى الصراح ، رآه رسول الله ﷺ أهلاً لأن يقود قومه القيادة الإسلامية بمفاهيمها الجديدة فقال له : « أفلا أؤمرك عليهم ؟ » .

وأن يأتى العرض من الرسول المصطفى ﷺ ، فهو شرف لا شرف فوقه ، فلم يتردد لحظة واحدة أن قال : بلى يا رسول الله . (فكتب لى كتابًا أمَّرنى فيه) .

وتطلعت نفس هذا الفتى إلى المال الذى لا تصلح الإمرة إلا به، فكيف يقود قومه. وليس هو ذلك الفتى الذى يملك المال ليسدد به ثغرة السيادة فى قومه ، فقلت : يا رسول الله ، مر لى بشىء من صدقاتهم قال : « نعم » ، فكتب لى كتابًا آخر ، وبذلك غدا سيد قومه وأعطى مفاتيح هذه الزعامة بما أمر له من صدقاتهم ، ولم يعد عليه إلا أن ينهى الدورة التربوية فى مدرسة القادة ، ويمضى إلى قومه ، وكان آخر مواد هذه الدورة هو مرافقة رسول الله ﷺ فى سفرٍ له ؛ لمتابعة أعلى أنواع التدريب له ليتسلم بعدها قيادة قومه.

وكانت المفاجآت فى هذه المادة العملية .

(قال زياد : وكان ذلك فى بعض أسفاره ، ونزل رسول الله ﷺ منزلاً فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم ويقولون : أخَذَنا بكل شىء بيننا وبين قومه فى الجاهلية ، فقال النبى ﷺ : « أفَعَلَ ذلك ؟ » قالوا : نعم . فالتفت رسول الله ﷺ لأصحابه وأنا

فيهم فقال : « لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن » ، قال زياد : فدخل قوله فى قلبى .

ثم أتاه آخر فقال : يا رسول الله أعطنى . فقال رسول الله ﷺ :

« من يسأل الناس عن غِنًى فصداع فى الرأس وداء فى البطن » فقال السائل : أعطنى من الصدقة . فقال رسول الله ﷺ :

« إن الله عز وجل لم يرض فيها بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك ، وإن كنت غنيًا عنها فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن » . وسمع زياد هذين الجوابين بحساسية عالية ، ونفس مرهفة ، وتملكه العجب الكبير .

رسول الله ﷺ يؤمره على قومه،ويقول الآن: «لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن »، ورسول الله ﷺ يكتب له من صدقات قومه ويقول لمن يطلبها : « فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن » ولو كان من عشاق الإمارة ومن صرعى الزعامة لرمى الأمر بعيدًا عن نفسه فهو الذى عُرِضت عليه الإمارة من رسول الله ﷺ وقبلها ، فليس هو المعنى فى هذه الكلمة : « لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن » ، وهو الذى طلب من الصدقات فأعطاه رسول الله ﷺ دون أن يسأله ، أما هذا فرفض أن يعطيه لأنه ليس أهلاً لذلك .

كان بإمكان زياد ﷺ أن يعتبر هذين الحديثين لا علاقة له بهما ، وقد أخذ من رسول الله ﷺ صك الإمارة ، وصك المال اللازم لها ، غير أن هذا المعدن العظيم ارتج كيانه كله لهذين الموقفين ، وراح ينتظر الفرصة السانحة ليطارح حبيبه المصطفى بما يعانى، ويسأله عما فوجئ به وإلى أن يخلو له الجو مع رسول الله ﷺ أتحفنا ﷺ بالمعلومات الغالية التالية :

(قال زياد : فدخل فى نفسى أنى سألته من الصدقات وأنى غنى ، ثم إن رسول الله ﷺ اعتشى (١) من أول الليل فلزمت غرزه ، وكنت قريبًا منه ، فكان أصحابه ينقطعون عنه ويستأخرون عنه حتى إذا لم يبق معه أحد غيرى ، فلما كان أذان صلاة الصبح أمرنى فأذنت، فجعلت أقول: أقيم الصلاة يا رسول الله ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ناحية المشرق إلى الفجر ، ويقول : لا ، حتى إذا طلع الفجر نزل رسول الله ﷺ فذهب لحاجته ، ثم انصرف إلىَّ وتلاحق أصحابه فقال : « هل من ماء يا أخا صداء ؟ » فقلت : لا ، إلا شىء قليل لا يكفيك ، فقال رسول الله ﷺ : « اجعله فى إناء ثم ائتنى به » ففعلت ، فوضع كفه فى الماء ، فقال زياد : فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه

---

(١) اعتشى فى أول الليل : سار فى وقت العشاء .

عينًا تفور ، ثم قال لى رسول الله ﷺ :

« يا أخا صداء لولا أنى أستحيى من ربى عز وجل لسقينا واستقينا ، ناد فى أصحابى من له حاجة فى الماء » فناديت فيهم فأخذ من أراد منهم شيئًا .

ثم قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة فأراد بلال أن يقيم فقال له رسول الله ﷺ: « إن أخا صداء هذا أذَّن ، ومن أذَّن فهو يقيم » قال الصدائى : فأقمت الصلاة) .

كان لابد أن يشهد هذا الوافد ـ بعد أن اختلط لحمه وعظمه بالإيمان ـ إكرامًا له شيئًا من المعجزات النبوية ـ والتى لم تكن تخطر له على بال ، فهو مشغول مرتج عليه بما سمع عن الإمارة وأموال الصدقة ، ولعل الظروف لم تسعفه فى مفاتحة رسول الله ﷺ فى الأمر، فرسول الله يكره الحديث بعد العشاء ، فانتظر وبقى بجواره ينتظر أن يتلقى أمرًا من رسول رب العالمين ، وكان الأمر أن أمره أن يؤذّن فمضى يصدح بما عند أهل اليمن من مزامير داود بصوته الشجى فى الأذان ، وأفاق المسلمون على صوته . وفرح بهذه المهمة السعيدة التى كلفه بها قائده وحبيبه، وانتظر الإذن بالإقامة ، فهو يعلم أنهما قرينتان لا تفترقان ، ولم يكن يحلم إلا بالإقامة بعد الأذان ، ولم يكن يدور بخلده ما أعد الله تعالى له من الكرامة فى هذه اللحظات الخالدات .

انبلج الفجر ، ومضى رسول الله ﷺ لحاجته ، وبدأ الأصحاب يتجمعون ، فينتظرون قدوم روحهم وحياتهم محمد رسول الله ﷺ ، فلا يستطيعون فراقه ، ورأى أن الأمل قد ضعف فى إفضاء ما فى نفسه لقائده . وإذا إمام المربين ﷺ يختاره من بين الأصحاب ، ويناديه بشخصه وعينه ، وهو ليس من خاصته فهو وافد جديد تحت المراقبة ، قال له رسول الله :

« هل من ماء يا أخا صداء ؟ » فأقبل بكليته على حبيبه قائلاً : لا ، إلا شيء قليل لا يكفيك ، وأغمَّه ألا يكون عنده الماء الذى يتوضأ به النبى عليه الصلاة والسلام ، لكن الصوت الشجى الذى سمعه وكشف غمه هو قول الحبيب المصطفى له : « اجعله فى إناء ثم ائتنى به » ففعلت .

ها هو الآن وقد دخل فى خدمة المصطفى ﷺ ، وسيسجل التاريخ له أنه قد استعمله فى حاجة من شؤونه الخاصة ، وسوف يحدث قومه بهذه الميزة الخاصة ، لكنه لم يكن يدرى أنه معد فعلاً ليخبر الأمة عبر القرون ، لا قومه خاصة بهذه المعجزة الربانية للنبى الكريم .

(فوضع كفه فى الماء ، فقال زياد : فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينًا تفور).
إنه يفرك عينيه أفى منام هو أم فى يقظة ، إنه هو هو ، وهو الذى يرقب انبلاج الفجر

ليقيم، وها هو الماء يفور بين أصابع الرسول ﷺ، وقد أدرك الآن سر هذه الميزة الخاصة، إنه لابد أن ينقلب إلى قومه ، ويحدثهم عما يرى ، ولا يزال الماء ينبع وينبع ، ويفور ويفور ، وكأنما هى عيون ماء تتفجر ، إنه يعلم أن الماء الذى جاء به إنما كان فى قعر الإناء لا يكفى للوضوء ، أما الآن فلا ، الماء يتفجر والرسول يتوضأ ، ويستمع إلى الكلمة الخالدة من نبى الرحمة :

(ثم قال لى رسول الله ﷺ :

« يا أخا صداء ، لولا أن أستحيى من ربى عز وجل لسقينا واستقينا ») .

لقد آمن بنبوته مجرد سماعه لكلامه الذى شهد فيه صدقه من سيماه ﷺ ، أما الآن فهو يرى بأم عينه آثار النبوة ، ومعجزة النبوة ، وتدفق الماء من أصابع النبى المصطفى صلوات الله عليه ، وزيادة قدر قليل من الماء عند الكهنة تدفعهم لأن يبنوا عليها مجداً إلى أن يموتوا ، بشعوذة معينة منهم ، أما هنا فالماء يتزايد ، والعيون تفور ، وينظر بوجه نبيه ﷺ ، وقد ذاب حبًا فيه ، وملأ الإيمان بنبوته كل ذرة من كيانه يسمع هذا المقام العظيم له عند ربه ، فلولا حياؤه منه لسقى الجيش كله ، ولكن لابد من شيء من هذا الفضل النبوى أن ينال الجيش فقال له :

(« ناد فى أصحابى من له حاجة فى الماء » فناديت فيهم،فأخذ من أراد منهم شيئًا).

وقرت عينه بحضور الدرس الأخير ، فى الدورة النبوية ، وقد شهد فى هذه المدة ما لم يشهده أحد ، ورأى بأم عينيه المعجزة النبوية الخالدة ، وبينا هو فى غيبوبة من السعادة فيما شهد . إذ بمنادى رسول الله ﷺ يذكر اسمه مرة ثانية ، حين أراد بلال أن يقيم ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أخا صداء هذا أذَّن ، ومن أذن فهو يقيم » وأقام الصلاة ، وكانت أسعد صلاة صلاها فى حياته ، وأسعد لحظات حياته ، فيما رأى وشاهد . وانتهت الصلاة ، وآن الأوان لأن يطرح نفسه بين يدى رسوله من أجل صك الإمارة ، وصك مال الصدقة ، بعد أن كاد ينسى هذه القضية الرئيسية .

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة أتيته بالكتابين . فقلت :

يا رسول الله ، اعفنى من هذين الكتابين .

فقد عَمُر قلبه بأعظم بكثير من الإمارة والمال ، عَمُر قلبه بالإيمان الخالص ، وصغرت فى عينه الدنيا ، وكبر فى عقله ورأسه ذلك القول الذى لا يزال يرن فى أذنه : « لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن » ، والقول الآخر : « إنما هى صداع فى الرأس ، وداء فى البطن » .

(فقال رسول الله ﷺ : « ما بدا لك ؟ ». فقلت : سمعتك تقول يا رسول الله :

« لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن »، وأنا مؤمن بالله تعالى ورسوله، وسمعتك تقول للسائل: « من سأل الناس عن غنىً فصداع فى الرأس وداء فى البطن » وقد سألتك وأنا غنى .

هذه هى عظمة التربية النبوية بالإيحاء والإشارة ، وهى التربية العملية التى تمت من خلال هذا السفر الطويل ، وإسماع هذا الفتى خطورة الإمارة ، وبيده صك فيها ، وإسماعه خطورة أخذ الصدقة عن ظهر غنى وبيده صك فيها ، وأعطت التجربة ثمارها اليانعة مباشرة حيث رمى بالصكين بين يدى رسول الله ﷺ ، وأعلمه عن خوفه على نفسه من آثارهما .

وجاء الجواب النبوى: « هو ذاك، فإن شئت فاقبل، وإن شئت فدع »، فقلتُ: أدَعُ.

ولكن أن يبقى القوم دون أمير فلا ، وهذا الذى برئت نفسه من حظوظ نفسه ، هو الأقدر على اختيار الأنسب لإمارة صداء ، فقال لى رسول الله ﷺ : « فدلنى على رجل أؤمره عليكم » فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه فأمَّرَه عليهم .

وبعد أن تخلى طائعًا مختاراً عن الإمارة ، وعن مال الصدقة ، كان له هَمٌّ آخر وهو حياة قومه الذين يعانون القحط والجفاف عندما تقل مياه بئرهم ، فهل يمكن لهذه العيون التى فارت بين يدى رسول الله ﷺ أن تفور فى بئرهم ، إنه ليس همه نفسه ، بل همه قومه ، وهمه حياة قومه لا الإمرة والسيطرة عليهم ثم قلنا : يا رسول الله ، إن لنا بئراً إذا كان الشتاء كفانا ماؤها واجتمعنا عليها ، وإذا كان الصيف قلّ ماؤها فتفرقنا على المياه حولنا وكل من حولنا لنا عدو ، فادع الله لنا فى بئرنا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليها ولا نتفرق) . وهى هى البركة النبوية تمس الأرض كلها حين يطلب منها ذلك بإذن الله . وحفرتِ الآبار الارتوازية التى يصل عمقها إلى مائة متر من خلال سبع حصيات ، (فدعا بسبع حُصيَّات ففركهن بيده ، ودعا فيهن ثم قال : « اذهبوا بهذه الحصيات ؛ فإذا أتيتم البئر ، فألقوا واحدة واحدة واذكروا اسم الله تعالى » ، وكانت المعجزة النبوية الأولى فى أرض صداء وبئرها .

قال زياد الصدائى: ففعلنا ما قال ، فما استطعنا بعد ذلك أن ننظر إلى قعرها) (١) ، وبذلك أنقذ قومه من الفرقة والحاجة وكان ذلك أجدى عليه مائة مرة من إمرة قومه وهو الرجل المؤمن .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٦/٥٣٢ ـ ٥٣٤ ، وقال : روى البغوى والبيهقى وابن عساكر وحسنه عن زياد ابن الحارث وهى فى الدلائل ٥/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧ .

القادة

الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كلاب :

(قال أبو عبيد : صحب النبى ﷺ وعقد له لواءً ، وقال الواقدى : كان على صدقات قومه ، وكان من الشجعان يعد بمائة فارس ، وبعثه النبى ﷺ على سرية ، وفيه يقول العباس بن مرداس :

إن الذين وفوا بما عاهدتهم | جيش بعثت عليهم الضحاكا
أمَّرته ذرب اللسان كأنه | لما تكشفه العدو يراكا
طوراً يعانق باليدين وتارة | يفرى الجماجم صارماً بتاكا

وقال ابن سعد : كان ينزل ضرية نجد فى موالى ضرية ، وكان والياً على من أسلم هناك من قومه . وأخرج ابن السكن بسند صحيح عن عائشة قالت : نزل الضحاك بن سفيان الكلابى على رسول الله ﷺ فقال له وبينى وبينه الحجاب : « هل لك فى أخت أم شبيب امرأة الضحاك » ، فتزوجها النبى ﷺ ثم طلقها ولم يدخل بها ، ولما رجع النبى ﷺ من الجعرانة بعثه على بنى كلاب يجمع صدقاتهم. . .) (١) .

وهذه البعثة على الصدقات تعنى أنهم قد أسلموا ودخلوا فى دين الله .

لكن البعث الثانى كان إلى فريق خاص من بنى كلاب وهم القرطاء (٢) .

(قال محمد بن عمر وابن سعد : سنة تسع ، وقال الحاكم : فى آخر سنة ثمان ، وقال محمد بن عمر الأسلمى : فى صفر ، وقال ابن سعد : فى ربيع الأول ، وجرى عليه فى المورد والإشارة .

قالوا : بعث رسول الله ﷺ جيشاً إلى القُرطاء عليهم الضحاك بن سفيان الكلابى، ومعه الأصيد بن سلمة بن قرط ، فلقوهم بالزِّج ؛ زج لاوة بنجد ، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا ، فقاتلوهم فهزموهم فلحق الأصيد أباه سلمة ، وسلمة على فرس له فى غدير بالزج ، فدعا أباه إلى الإسلام ، وأعطاه الأمان ، فسبَّه وسب دينه ، فضرب الأصيد عرقوبى فرس أبيه ، فلما وقع الفرس على عرقوبيه ارتكز سلمة على رمحه فى

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣/ ٢٦٧ ت (٤١٦١).

(٢) فى شرح المواهب : القرطاء : هم بطن من بنى كلاب واسمه عبيد بن كلاب .

الماء ، ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتل سلمة ولم يقتله ولده) .

والضحاك بن سفيان هو الذى اختاره رسول الله ﷺ أميرًا على قومه بضرية ، وكان يراوح بين قومه وبين صحبة المصطفى ﷺ، وبقى هذا الفرع من قومه لم يدخل الإسلام. فبعثه رسول الله ﷺ إليهم ، وكلاب بن ربيعة هم أحد أعز فرعين من بنى عامر ، والذى يقابله كعب بن ربيعة وفيهما قال الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

والمطلوب أن تذلل الجزيرة كلها للإسلام ، وحين يكون أحد أبناء القبيلة هو قائد السرية يكون هذا أقرب لقبول دعوته من القريب من قبيلة أخرى ، لكن هؤلاء الممعنين فى البادية ، مثل بنى العنبر من بنى تميم الذين يرون دنياهم هى كل الدنيا ، فلا تزال العزة القبلية تتملكهم ، ورفضوا الانصياع للإسلام ، ووجد القوم المسلمون أن المعركة مفروضة عليهم فخاضوها .

لقد شهدنا الفرق بين زياد وافد صداء ، والذى أنقذ قومه من الموت والكفر ، ووظف كل جاهه عند عشيرته فى خدمة هذا الدين ، بينما واجه القرطيون بنو عبيد بن كلاب أخاهم الضحاك بالحرب ورفض هذا الدين ، وكان فى جيش الضحاك أحد الأفذاذ المسلمين . الأصيد بن سلمة الكلابى ، بينما كان أبوه فى صف أعداء الله ، وجدها فرصة سانحة حين فاته قومه ألا يفوته أبوه ، فمضى إليه يدعوه ويلح عليه فى الدعاء ليسلم ويدخل فى دين الله ، فما كان من الأب إلا أن سبَّه وسبَّ دينه .

وانقلبت الصورة عند الفتى المسلم ، ولم يعد ير فى أبيه إلا عدوًا لدودًا منتهكًا لحرمات الله،فهل يقتل أباه فى سبيل الله كما فعل أخوه أبو عبيدة بن الجراح ذات يوم ، أم يدعه ، وقد سبَّ دين الله تعالى وأعلن التحدى لله ولرسوله ، ولم يدع هذا الصراع ليأخذ منه الكثير ، فقد ضرب عرقوبى فرس أبيه حتى يقعى الفرس ، ويقع أباه عن ظهره فتناوشه السيوف المسلمة ، لكن سلمة اتكأ على رمحه ، وبقى ابنه يصاوله حتى جاء من شارك الأصيد فى قتال أبيه وقاتله ، ثم قتل سلمة أبا الأصيد ، وهو الذى هيأ قتل أبيه فى سبيل الله .

ولا شك أن هذه الحادثة ستنتشر فى مضارب الجزيرة ويتحدث الناس عن عظمة هذه العقيدة فى القلوب ، والتى تجعل هذا الدين فوق الولد والأهل والأب ، وسيسارعون فى السؤال ، والتعرف على هذا الدين الجديد الذى غزا هذه القلوب فى مجتمع دينه العصبية ، ولو أن سلمة والد الأصيد قد قتل فى الجاهلية لكان الأصيد هو حامل رايات الثأر لأبيه ، فى قوم لا ينام الثأر عندهم ، وهم أشراف بنى كلاب بن ربيعة كما يقول ابن

حزم في الجمهرة : (وقرط ، وقريط ، وقريطة وهم القرطاء ولهم شرف) [1] .

سرية علقمة بن مجزز المدلجي رضي الله عنه إلى الحبشة :

قال ابن سعد : في شهر ربيع الآخر سنة تسع . . . قالوا : وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من الحبشة تراآهم أهل الشعيبة في ساحل جدة بناحية مكة في مراكب ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ علقمة بن مجزز في ثلثمائة فانتهى إلى جزيرة في البحر وقد خاض إليهم في البحر فهربوا منه . فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهليهم فأذن لهم) [2] .

والشيء المهم في هذه السرية هو تفكير الأحباش بالوصول إلى مكة عن طريق البحر، والشعيبة تبعد عن مكة قرابة مائة كيلو متر ، وخبير الصحراء علقمة بن مجزز المدلجي ، وابن بني مدلج أدلاء الساحة العربية حول مكة ، وخاض البحر إلى جزيرة ، فهربوا منها في مراكبهم ، وعلى الغالب أن هؤلاء الثلاثمائة قد مضوا في مراكب خلفهم كذلك، ولعلها أول معركة بحرية في التاريخ الإسلامي يغامر فيها المسلمون خلف عدوهم ويطاردوه ، وبعد عودتهم مظفرين جرى الحدث الذي مضى مفصلاً في مفهوم السمع والطاعة للأمير .

(كما روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

بعث رسول الله ﷺ علقمة بن مجزز وأنا فيهم حتى إذا بلغنا رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش ، واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السهمي ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت فيه دعابة ، فنزلوا ببعض الطريق ، وأوقدوا نارًا يصطلون عليها ويصطنعون ، فقال : عزمت عليكم إلا تواثبتم في هذه النار ، فقام بعضهم فتحجزوا [3] حتى ظُنَّ أنهم واثبون فيها ، فقال لهم : اجلسوا إنما كنت أضحك معكم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال :

« من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه ») [4] .

وفي الرواية نفسها تفصيل دقيق عن المحادثة بينه وبين جنده : (قال : أليس لي عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى . قال : أفما أنا آمركم بشيء إلا فعلتموه ؟ قالوا : نعم. قال: فإني أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلا تواثبتم في هذه النار. . .)، وأما الرواية الثانية التي ذكرها البخاري عن علي رضي الله عنه : (أن أحد الأنصار هو الذي فعل هذا، فقال أليس أمركم النبي أن تطيعوني ؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطبًا . . . فجمعوا.

---

(1) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٢٨٢ .
(2) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/ ٣٣١ .
(3) فتحجزوا : يشد ثوبه على صخرة بمنزلة الحزام .
(4) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٩، ٦٤٠ .

فقال : أوقدوا نارًا فأوقدوها . فقال : ادخلوها . فهمُّوا ، وجعل بعضهم يمسك بعضًا ويقولون : فررنا إلى النبى ﷺ من النار ، فما زالوا حتى خمدت النار ، فسكن غضبه ، فبلغ النبى ﷺ فقال : « لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة ، والطاعة فى المعروف») (١) .

وندع التعليق للحافظ ابن حجر رحمه الله على الحادثة بقوله :

(وفى الحديث من الفوائد : أن الحكم فى حال الغضب ينفذ منه ما لا يخالف الشرع، وأن الغضب يغطى على ذوى العقول ، وفيه : أن الإيمان بالله ينجى من النار لقولهم : إنما فررنا إلى النبى ﷺ من النار . . . وفيه : أن الأمر المطلق لا يعم الأحوال لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير ، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى فى حال الغضب وفى حال الأمر بالمعصية ، فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه من غير معصية . . . واستنبط منه الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة أن الجمع من هذه الأمة لا يجتمعون على خطأ لانقسام السرية قسمين ، منهم من هان عليه دخول النار ، ومنهم من فهم حقيقة الأمر وأنه مقصور على ما ليس بمعصية ، فكان اختلافهم سببًا لرحمة الجميع ، قال : وفيه أن من كان صادق النية لا يقع إلا فى خير ، ولو قصد الشر فإن الله يصرفه عنه ، ولذلك قال بعض أهل المعرفة : من صدق مع الله وقاه الله ، ومن توكل على الله كفاه الله) (٢) .

إلى الفلس صنم لطيئ لهدمه :

كان شهر ربيع الآخر سنة تسع شهرًا عامرًا بالحركة فى جميع الاتجاهات لإنهاء جيوب الوثنية فى الحجاز ونجد واليمن .

قال الصالحى: الباب الرابع والستون فى سرية أمير المؤمنين على بن أبى طالب ؓ إلى الفُلس (٣) صنم لطيئ ليهدمه فى شهر ربيع الآخر سنة تسع .

قالوا : بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ؓ فى خمسين ومائة رجل أو مائتين كما ذكره ابن سعد : من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسًا ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى الفُلس ليهدمه ، فأغاروا على أحياء من العرب، وشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموا الفلس وخرَّبوه وملؤوا أيديهم من السبى والنعم والشاء،

---

(١) فتح البارى ٨/ ٥٨ ح ٤٣٤٠ . (٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ٦٠ .

(٣) قال ابن دريد : الفلس : بكسر الفاء صنم كان لطيئ فى الجاهلية ، وفى كتاب الأصنام للكلبى : كان أنفًا أحمر فى وسط جبلَهم أجا أسود كأنه تمثال إنسان وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ، ويعترون عنده عتائرهم ، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده . . . وكان سدنته بنو بولان .

وكان فى السبى سفَّانة أخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام ، ووجد فى خزانة الفلس ثلاثة أسياف : رسوب والمِخدَم ـ كان الحارث بن أبى شمر قلده إياهما ـ وسيف يقال له اليمانى وثلاثة أدرع ، واستعمل علىٌّ على السبى أبا قتادة واستعمل على الماشية والرِّقَّة [1] عبد الله بن عتيك . فلما نزلوا ركك اقتسموا الغنائم ، وعزلوا للنبى ﷺ صفيا رسوبًا والمخدم ثم صار له بعد السيف الآخر ، وعزِل الخُمس ، وعُزِل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة .

طيئ من القبائل العربية الكبرى وهى قحطانية ، وبرز اسم حاتم الطائى فى دنيا العرب على أنه أجود العرب حتى صار مضرب الأمثال فى الكرم ، كما يقول الشاعر:

إقدام عمروٍ فى سماحة حاتم ... فى حِلم أحنف فى ذكاء إياس

ويروون قصصًا عن جوده تفوق الوصف، وها هو عدى بن حاتم وريث هذا المجد، وقد دخلت النصرانية إلى هذه القبيلة لقربها من الشام ، وكان هذا الصنم رمزًا لطيئ ووثنيتها ، ويريد رسول الله ﷺ أن يمحى معالم الوثنية فى هذه الأمة ، فكان أن عهد إلى رجل المهمات الكبرى عنده على بن أبى طالب مع مائة وخمسين من الأنصار ليؤدوا هذه المهمة، وليس بين يدينا تفصيلات حول المعركة وعلى الغالب كما سيرد معنا أن طيئًا لم تقاوم ، إنما فرت من القوة الإسلامية ، ورغم أن القوة قليلة ، وبإمكان هذه القبيلة أن تواجه أضعافها ، إلا أن القوة المعنوية التى امتلأت بها الساحة العربية للمسلمين ، جعلت الأعداء يرهبون المقاومة ، ويخشون المواجهة ، خاصة بعد فتح مكة بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ، وبعد هزيمة هوازن التى تكاد تكون أكبر القبائل العربية ، فقد بُث الرعب فى المشركين وأهل الوثن ، وراحت أخبار القوة الإسلامية تنفذ إلى مضارب الجزيرة العربية فى كل مكان ، وعلى رضي الله عنه الفدائى الذى قتل القادة الكبار فى المبارزة له سمعته وصيته كذلك .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية : نجد عبقرية على رضي الله عنه فى كسر الصنم وأخذ كل ما فيه من سيوف ودروع ليهدم خلف ذلك كل ما فى نفوس عباده من قداسة ، وتكريم، وحين وزع على رضوان الله عليه الغنائم لم يقدم على توزيع بنت حاتم الطائى ، إنما ترك أمرها لرسول الله ﷺ ، فهو يدرك البعد المعنوى لتوزيع مثل شريفة قومها هذه على المسلمين ، وكون على رضوان الله عليه داعية قبل أن يكون قائدًا عسكريًا جعله يحسب حساب المستقبل لقبيلة طيئ كلها ، ويدرك الأنفة العربية التى ستثور من أجل كرامة سفانة والحقد الذى ستحمله طيئ على المسلمين ، فتبعدها عن الإسلام ، أما حين تراعى حرمة

---

(١) الرقة : الفضة وأصله الورِق فحذفت الواو وعوض عنها بالهاء .

ابنة سيدها وتعامل معاملة خاصة ، سيكون لهذه المعاملة دور إذابة الجليد الجاثم على قلب هذه القبيلة ، ولم تكن هذه المعانى لتغيب عن ذهن الداعية العظيم أخى رسول الله ﷺ ، وهو الذى كان يعد لغسل الجراح ، ويعد لرأب الصدع ، ويعد لفتح القلوب كما كان يعد للمهمات المستعصية ، فهو يمثل القوة العادلة الداعية ، لا القوة القاهرة الظالمة ، ومن معه من الأنصار يحسون كأنما هم مع رسول الله ﷺ فلعلى فى قلوبهم حب نابع من حبهم لحبيبهم المصطفى ﷺ، فهو أخص أهل بيته، وهو زوج ابنته فاطمة، ولهذا كانت الكتيبة كلها من الأنصار ، وكان قائد رجالة المسلمين أبو قتادة هو المسؤول عن الحفاظ على السبى ، كما كان ابن عتيك أحد الفدائيين الكبار هو المسؤول عن الحفاظ على الماشية والمال والفضة .

شخصيتان عظيمتان تنضمان إلى الإسلام

أما الشخصية الأولى فهى عدى بن حاتم ، ونأخذ الحديث منه مباشرة كما فى رواية ابن إسحاق : (قال ابن إسحاق : وأما عدى بن حاتم فكان يقول فيما بلغنى :

ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به منى ، أما أنا فكنت امرأ شريفًا وكنت نصرانيًا ، وكنت أسير فى قومى بالمرباع (١) . فكنت فى نفسى على دين ، وكنت ملكًا فى قومى ، لما كان يصنع بى . فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته ، فقلت لغلام كان لى عربى وكان راعيًا لإبلى : لا أبا لك ، أعدد لى من إبلى أجمالاً ذللاً سمانًا ، فاحتسبها قريبًا منى ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذنى ، ففعل ، ثم إنه أتانى ذات غداة فقال :

يا عدى ، ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيل محمد ، فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد ، قال ، فقلت : فقرّب إلى أجمالى ، فقرَّبها ، فاحتملت بأهلى وولدى . وقلت : ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام ، فسلكت الجوشية ـ ويقال : الحوشية فيما قاله ابن هشام ، وخلفت بنتًا لحاتم فى الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها .

وتخالفنى خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت ، فقُدِم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا من طيئ ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام. . .) .

هذه هى الجولة الأولى من الحديث النفسى الذى قدمه لنا عدى رضي الله عنه . وهو يمثل نفسية كل قائد من قادة الجزيرة العربية . حيث يحمل مباشرة الكره لرسول الله ﷺ لإحساسه أنه سينازعه ملكه ، وسينتزع منه سلطانه ، ومن أجل هذا يؤكد لنا ابن حاتم أنه ما كان أحد أشد كراهية لرسول الله ﷺ منه ، وقد سمعنا هذه الكلمة من قبل من كثير من هؤلاء الزعماء ، وعلى رأسهم عمرو بن العاص قبل إسلامه ، والذى يقول : ما كرهت أحدًا كراهيتى لمحمد ، ولو تمكنت منه لقتلته . إنه شعور التنافس الذى يجيش فى صدور هؤلاء الزعماء ، وهو شعور عبد الله بن أبى الذى سلخ فى الإسلام زهاء ثمانى سنين ، ولم ينفتح قلبه لهذا الدين ، ولم ينفتح قلبه لرسول الله ﷺ لأنه يرى أنه استلبه ملكًا ، وهو شعور أبى جهل من قبل ، حين يرى القضية صراعًا على السلطة فى قريش

(١) أى آخذ ربع الغنيمة ، وكذلك كان يفعل الرؤساء فى الجاهلية .

بين بنى عبد مناف وبنى مخزوم ، إننا بحاجة إلى دراسة هذه النفسيات ، وما يعتلج فيها حين تقاوم الإسلام وتحاربه .

والعنصر الثانى الذى عمَّق الكراهية فى نفس عدى هو أنه نصرانى ، لكن هذه النصرانية أخذها لتناسبها مع سلطته ، فليس من أولئك الأحبار والرهبان الذين يجدون صفة محمد ﷺ عندهم فى كتبهم ويجحدونها ظلمًا وعلواً ، بل أخذ دين النصرانية الذى رأسه على قومه وأخذ ربع الغنائم مع أن النصرانية لا تبيح له ذلك ، ولكنه تآلف معها بحيث حافظ من خلالها على زعامته ، ولم يمس مقدسات قومه المشركين ، حين بقى محافظًا على صنم الفلس يُعبد من دون الله ، وتنحر عنده الذبائح ، وتقدَّم له القرابين ، وجميع قومه النصارى والمشركين مذعنين له بالقيادة والسيادة ، لا ينازعه عليها أحد .

لكن أخبار محمد ترده تباعًا ، فقد حطم عيينة بن حصن أكبر أعدائه وزعيم غطفان حتى صار تبعًا له ، وذاك علقمة بن علاثة سيد بنى عامر أعلن ولاءه له ، وتلك هوازن التى جيشت الجيوش ضده ، عاد زعيمها مالك بن عوف فانضم إليه بعد هزيمة قومه ، لقد بقى عدى فى الساحة وحده ، وهو يعلم أن محمداً لن يدعه ، ولا قِبَل له بمواجهته بعد انهيار كل المواجهات حوله ؛ ولذلك أعد الخطة إن جاءت جيوش محمد إليه أن يلوذ بالفرار سالمًا بروحه وجسده ، ويمضى حياته لاجئًا سياسيًا عند العرب النصارى ؛ فهم يعرفون شرفه وفضله، وأوكل للأعرابى المسؤول عن رعاية إبله أمر إعلامه بجيوش محمد إذا جاءت ، وأن يعلف له خير إبل الذللُ السريعة ؛ حتى يتمكن من الفرار عليها هو وأهله وكان ما حسبه ؛ إذ جاءه الأعرابى قائلاً له :

يا عدى ، ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيل محمد ، فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت رايات فسألت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد .

ولم يتوان لحظة واحدة إذ جمع أهله وولده ، وامتطى جماله المعدة للفرار ، ومضى بعيداً قبل وصول جيش النبوة إليه ،وفى غمرة هذه العجلة نسى أخته سفانة فى الحاضر . لكن أنى يعود لها إلا على خيط رقبته ، ومضى يقيم فى أقصى أرض العرب . حيث لا يتصور وصول محمد إلى هذه البقاع فى أرض الشام أو حدودها ، لكنه بقى منغصًا لما آل إليه أمر أخته من السبى ؛ حيث بلغه أن الجيش قد أخذها وهدم صنم طيئ الفلس وأخذ هداياه كلها ، ولم يكن أمر الصنم يشغله كثيراً ، إنما آلمه ألا تكون هذه السيوف المشهورة من نصيبه خاصة وهى من هدايا الحارث بن أبى شمر للصنم .

وها هو فى منفاه يزداد حقدًا على محمد ﷺ وقد سبى الكثير من أهله وعشيرته ، وعلى رأسهم أخته سفانة بنت حاتم ، وأذل كبرياء قبيلته ، وأخذ ثرواتها من الإبل

والنعم والشاء والفضة ، لكن الغريب الذى يعانى منه هو أنه لا يجد الراحة فى هذا المنفى الجديد الذى اختاره وكما يقول فى رواية أخرى رواها البيهقى عن أبى عبيدة : فخرجت إلى أقصى أرض العرب مما يلى الروم ثم كرهت مكانى أشد ما كرهت مكانى الأول ، وعاد ليضطرب بنصرانيته التى تعمق فيها ، فلم يعد يجد فيها لذته المنشودة بعد أن فقد عزه وسلطانه ، وراحت أفكار ترد إلى نفسه فيطاردها عن ماهية رسالة محمد الذى دانت له العرب .

وإلى الجولة الثانية من حديث عدى الذى يعتبر من أنفس الوثائق التى وصلتنا عنه :

(فقُدِم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا طيئ ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام ، فجُعلت بنت حاتم فى حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا يحبسن فيها ، فمرَّ بها رسول الله ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد، وغاب الوافد ، فامنن علىَّ منَّ الله عليك . قال : « ومن وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم ، قال : « الفارّ من الله ورسوله ؟ » قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركنى حتى إذا كان من الغد مرَّ بى ، فقلت له مثل ذلك ، وقال لى مثل ما قاله بالأمس ، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مرَّ بى وقد يئست منه ، فأشار إلى رجل من خلفه أن قومى فكلميه . قالت : فقمت إليه ، فقلت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد فامنن علىَّ منَّ الله عليك . فقال ﷺ : « قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنينى » . فسألت عن الرجل الذى أشار إلىَّ أن أكلمه فقيل : على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، وأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاعة ، قالت : وإنما أريد أخى بالشام . قالت : فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ . قالت : فكسانى رسول الله ﷺ ، وحملنى وأعطانى نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام. . .) .

وهذا حديث أخته ، وحديث المعاناة التى لاقتها وهى الأسيرة السبية ، ولاشك أنها هى التى حدثت أخاها عدى بهذه المعاناة ونقلها لنا عنها ، فقد حبست فى حظيرة مع بقية السبايا ينتظرن حكم رسول الله ﷺ فيهن ، وسفَّانة ليست امرأة عادية ، بل هى سيدة من نساء العرب لها جزالتها وفصاحتها ومجرد سماعها برسول الله ﷺ قامت إليه غير هيابة ولا وجلة وبكلام محكم فصل تقول له :

يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن علىَّ منَّ الله عليك .

وسمع رسول الله ﷺ كلامها ، وأعلن لهذا الكلام اهتمامه ، وهو يعير للطفل

الصغير اهتمامه إذا كلمه ، فكيف إذا كانت المتكلمة بهذه الفصاحة والجزالة !! قال لها : « من وافدك ؟ » قالت : عدى بن حاتم، وأدرك رسول الله ﷺ السر كله وأنها ابنة أحد أمجاد العرب وسادتها ، لكنه يود أن يعطيها درسًا أوليًا فى الإيمان ، فقال لها : « الفارّ من الله ورسوله » .

وبذلك سدَّ عليها طريق المحاجة . ومضت تعالج أحزانها وآلامها صامتة بينما ينطق قلبها بآلاف الكلمات . ولم تيأس ، فأعادت محاولتها فى اليوم الثانى ، وجاءها الجواب نفسه ، وأيقنت أن الطريق مسدودة أمامها ، وأن مستقبلها المظلم أن توزع سبية على بيت من بيوتات هؤلاء المسلمين ، تباع وتشرى بعد أن كانت السيدة الأولى فى قومها .

وكان اليوم الثالث ، ولم تكن تدرك أن حوارها مع رسول الله ﷺ قد استحوذ على اهتمام العديد من الصحب ، وراعهم بيانها الآسر ، وإذا بها تجد من يشير إليها أن تقوم ثالثة ، وتطلب المنَّ من رسول الله ﷺ عليها من جديد ، وأمام هذا الاهتمام حولها بها قامت وأعادت الكرة ثالثة ، وقالت : يا رسول الله ، مات الوالد ، وهلك الوافد ، فامنن علىَّ منَّ الله عليك .

ولم تتلق الجواب المرعب المؤلم : « الفار من الله ورسوله » . إنما جاءها أجمل جواب تتلقاه فى حياتها « قد فعلت » .

وشعرت بعظمة العفو النبوى بعد ذلك التقريع السابق لأخيها الذى تحمل من الغيظ عليه ما لا يطاق ، فهو سبب نكبتها ، وبدأ النحت فى قلبها المسدود يحفر حفرًا عميقة حين سمعت تتمة الجواب :

« فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة ، فآذنينى » .

يا لها من مكرمة خالدة ، فليست بدار مضيعة ولا هوان ، لقد غدت الآن فى ذمة محمد بن عبد الله ورعايته ، ولا يريد لها الضياع فى البيد ، والموت فى التيه ، إنما يريد لها أن تعود مصونة معززة مكرمة إلى أهلها ، فقد ارتفعت من ذل السبى إلى إكرام الضيف، وعادت صورة أبيها حاتم تتلألأ فى محياها وهو يفك العانى ، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق ، وهذا الطراز من الرجال هو الذى تعشقه .

ولم ننس فضل ذلك الرجل الذى أشار عليها وألح عليها بإعادة الطلب من رسول الله ﷺ أن يمن عليها ، فقيل لها : على بن أبى طالب .

ولا شك أنه قد تناهى إلى سمعها أن قائد جيش المسلمين إلى طيئ هو على رضي الله عنه ، ولم تنس أنه هو الذى أكرمها ولم يقسمها مع السبى ، وعرفت فيما بعد أنه ابن عم

رسول الله ﷺ وأقرب المقربين إليه ، ودليل مدى شكرها لهذا القائد العظيم ، أن أخاها عدى بن حاتم بعد أن أسلم ﷺ حارب فى جيش على فى مواقعه كلها ، وكان من جنده المخلصين .

قالت: وإنما أريد أن آتى أخى بالشام، قالت: فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ) . وكانت تحسب أن قمة الإحسان إليها هو أن يسمح لها بالسير إلى أهلها وإعتاق حريتها ، لكنها عرفت أنها مع رسول كريم فى فضله أعظم من كل حساباتها .

(فكسانى رسول الله ﷺ وحملنى ، وأعطانى نفقة ، وخرجت معهم حتى قدمت الشام) . لقد كساها رسول الله ﷺ الإيمان بهذه الكسوة التى ألبسها إياها ، وحملها الإيمان بهذه الناقة الذلول التى أعطاها إياها لتركب عليها إلى الشام ، وانفق من قلبها كل عقد الكفر بهذه النفقة من الدراهم والدنانير التى سلمها إياها ، ولا يعرف الفضل إلا أصحاب الفضل ، وهى بنت حاتم الطائى ، فهى تعرف معنى المروءة والإكرام ، وتعلم أن الكريم إذا قدر عفا .

وتطالعنا فى رواية أخرى للبيهقى زيادات يحسن أن نتناولها ، تلقى إضاءات على عظمة التربية النبوية التى غيَّرت تركيب سفانة من موتورة حاقدة إلى معجبة مؤمنة .

(أخرج البيهقى بسنده عن كميل بن زياد النخعى قال: قال على بن أبى طالب ﷺ :

يا سبحان الله ، ما أزهد كثيراً من الناس فى الخير ، عجبًا لرجل يجيئه أخوه المسلم فى الحاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا لكان ينبغى له أن يسارع فى مكارم الأخلاق فإنها تدل على سُبُل النجاح ، فقام إليه رجل فقال: فداك أبى وأمى يا أمير المؤمنين ، أسمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، وما هو خير منه .

لما أتى بسبايا طيئ وقفت جارية حمراء (١) لعساء (٢) ذلفاء (٣) عيطاء (٤) ، شماء الأنف، معتدلة القامة والهامة درماء الكفين(٥) ، خدلجة الساقين(٦) ، لفاء الفخذين(٧) ، خميصة الخصرين ، ضامرة الكشحين(٨) ، مصقولة المتنين(٩) . قال : فلما رأيتها أعجبت

---

(١) حمراء : بيضاء .
(٢) لعساء : فى لونها أدنى سواد ومشربة بحمرة .
(٣) ذلفاء : صغر الأنف واستواء الأرنبة .
(٤) عيطاء : طويلة العنق مع اعتدال .
(٥) درماء الكفين : لا حجم لعظامها .
(٦) خدلجة الساقين : متدانيتهما من السمن .
(٧) لفاء الفخذين : متدانيتهما من السمن .
(٨) ضامرة الكشحين : قليلة لحمها غير مرهلة .
(٩) مصقولة المتنين : مضمرتهما .

بها وقلت : لأطلبن من رسول الله ﷺ يجعلها فى فيئى . فلما تكلمت أنسيت جمالها لما رأيت من فصاحتها ، فقالت :

يا محمد ، إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ولا يرد طالب حاجة قط . أنا ابنة حاتم الطائى .

فقال النبى ﷺ : « يا جارية هذه صفة المؤمنين حقًا ، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه، خلو عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » .

فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ، الله عز وجل يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ: « والذى نفسى بيده، لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق »(١) .

والذى يعنينا فى هذه الزيادة عن أمير المؤمنين على رضوان الله عليه هو التركيز على الجانب الخلقى فى هذا الدين الذى رأيناه فى لحظة انبثاق النور المحمدى فى هذا الوجود على لسان خديجة رضي الله عنها : كلا والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتحمل الكل ، وتفك العانى ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وهذا هو خلق النبى المجتبى ولا يمكن أن يكون نهبة للشيطان من يملك هذا الخلق الفذ أو يتخلى الله عنه ، وهنا ، فمثل من كان أبوها بهذه المكارم والمعالى من الأخلاق لابد أن تنال ثمرة هذا الخلق العظيم بأن تطلق حريتها ، وتكرم وفادتها ، ويغسل جرحها ، ولو كان أبوها حاتم مسلمًا لترحمنا عليه ، وجاء الإسلام ليجعل للخلق الحسن مقامًا بجوار مقام الأنبياء . وبه يتمثل كمال الإيمان .

« أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا » (٢) .

« ألا أدلكم على أقربكم منى مجلسًا يوم القيامة . أحاسنكم أخلاقًا » .

وتروعنا من طرف آخر بلاغة أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو يصف هذه الجارية، التى أُنسى جمالها أمام فصاحتها. وهذا ينبهنا إلى الدور العظيم الذى ستقوم به فى دفع أخيها الفار من الله ورسوله إلى الله ورسوله، وهذا ما نشهده فى الجولة الثالثة من حديث عَدى رضي الله عنه :

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٣٤١ .

وقال المحقق فى هامشه : نقله الحافظ ابن كثير فى المصنف البداية والنهاية وقال حديث حسن المتن غريب الإسناد جدًا عزيز المخرج .

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود .

(قال عدى : فوالله إنى لقاعد فى أهلى إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلى تؤمنا . فقلت : ابنة حاتم ، قال : فإذا هى هى ، فلما وقفت علىَّ انسحلت [1] تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك . قلت : أى أخيَّة . لا تقولى إلا خيراً ، فوالله مالى من عذر ، لقد صنعت ما ذكرت . قال : ثم نزلت فأقامت عندى . فقلت لها : وكانت امرأة حازمة ـ ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعًا ، فإن يكن الرجل نبيًا فللسابق فضله ، وإن يكن ملكًا فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت . قلت : والله إن هذا الرأى) .

لقد كان دورها دور أسيد بن حضير ، وهو يبعث سعد بن معاذ إلى لقاء مصعب بن عمير ، فهى تريد أن يلتقى أخوها مع رسول الله ﷺ ، ويشهد عظمته ونبوته ، ولم تعلمه بإسلامها حتى لا يشك فيها ، وتركت الأمر معلقًا ، وأدركت نفسيته وخوفه على زعامته، فأغرته أن الأمر لابد أن يعيد له زعامته على كل الأحوال ، فإن كان الرجل نبيًا، فلابد أن يكون سباقًا للإيمان به،وإن كان زعيمًا فمثله يرعى حق الزعماء أمثاله، ولا شك أنها قصت عليه حسن تعامله معها ، والمبالغة فى إكرامها والاحتفاء بها ونأتى بعدها إلى الجولة الأخيرة من حديث عدى والتى هى أهم جولاته ، حيث تنقل لنا نقلته الهائلة لهذا الدين وبهذا الدين :

(قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجده ، فسلمت عليه ، فقال : « من الرجل ؟ » فقلت : عَدِى بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ ، فانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها ، قال : قلت فى نفسى ، والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بى بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا ، فقذفها إلى ، فقال : « اجلس على هذه » . قلت : بل أنت فاجلس عليها . فقال: « بل أنت » . فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض. قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال : « إيه يا عدى بن حاتم ، ألم تك ركوسيًا ؟ » قلت : بلى . قال : « فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك » . قلت : أجل والله ، وقال : وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يُجهل . ثم قال : « لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخولٍ فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ؛ ولعله إنما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القَادسية على بعيرها حتى تزور

(١) انسحل : جرى بالكلام ، وشتم ولام .

هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ». قال : فأسلمت .

وكان عدى يقول : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة . والله لتكونن ، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وايم الله لتكونن الثالثة ، ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه) (١) .

ونمضى مع عدى رضي الله عنه إلى المدينة ، وقد رسم فى نفسه خطة يستطيع أن يعرف بها نبوة محمد من ملكه وكيف لا ، وهو ملك ونصرانى ، لكن جدار الحقد بدأ يتحات عنده لإعجابه بمعاملة محمد ﷺ لأخته وإكرام وفادتها ، ولقوة تأثير أخته عليه بحيث دفعته دفعًا إلى لقاء رسول الله صلوات الله عليه .

ونعود إلى رواية للإمام أحمد ، تحدثنا عن اللحظات الأولى للمقابلة ، فهو علم فى الأمة ليس بنكرة ، ومجرد أن رآه الناس استبشروا وفرحوا (فلما قدمت قال الناس : عدى بن حاتم) (٢) ، ولاشك أن سيد البشرية قد سرَّ به .

وفى الرواية الثانية : (أظنه قال : ثلاث مرار) . فقد تداعى الناس اسمه مرات ثلاث تعبيراً عن فرحتهم بقدومه لكن الشيء الذى رآه مع ملك العرب شيء لا يصدق.

(فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبى ـ فذكر قربهم من النبى ﷺ) .

ولا يمكن لملك من ملوك الدنيا أن يقبل بجلوس على الأرض مع صبيان ، وبمجلس آخر مع امرأة عجوز .

ورواية ابن إسحاق تؤكد أن المرأة العجوز الكبيرة لقيته على الطريق واستوقفته طويلاً، وهو زار ملوك الأرض ورآهم ، فأيقن أنه ليس أمام ملك، أما النبوة ففى خطوة لاحقة .

وهذه الخطوة تلاحقه مباشرة ، فما يكاد يلتقط أنفاسه حتى يسمع صوت النبوة ينفذ إلى أعماقه مقتحمًا جُدُر الشك المسلحة كلها . وذلك كما فى رواية أحمد :

(فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر ، فقال له :

« يا عَدِى بن حاتم ما أفرّك أن يقال : لا إله إلا الله،فهل من إله إلا الله ؟ ما أفرك

---

(١) المقاطع الأربعة هى رواية ابن إسحاق فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٧٨، ٥٨١ .
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٥٧ .

أن يقال : الله أكبر ، فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل ؟ ») (١) .

إنه حين يزيح عن قلبه ران التثليث النصرانى ، ويعود إلى فطرته النقية الصفية ، يرى أن لا إله إلا الله ولا أكبر من الله ، لكنه يريد أن يتشبث بهذه النصرانية التى يعتد بها ، والتى اختارها إرضاء لجيرانه الروم ، (فقال لى : « يا عدى بن حاتم ، أسلم تسلم » . فقلت : إنى من أهل دين . قالها ثلاثًا) .

وهذا التكرار مقصود من إمام المربين عليه الصلاة والسلام ، فهو يريده أن يعلن تمسكه بدينه على الملأ أولاً وثانيًا وثالثًا ، ليهدم الباطل الذى يحمله فى ثنايا هذا الدين ؛ لأن قضية الألوهية قد حسمت عنده بالفطرة الصافية عنده ، أما قضية النبوة والرسالة ، فلابد لها من دليل عملى حسب مفهومه عن النبوة فى اتصالها بالغيب، والتلقى من الله.

(قال : « أنا أعلم بدينك منك » . قال : أنت أعلم بدينى منى ؟ .

ودخلت القضية عملية التحدى ، وإثارة الاهتمام وتوفزالأعصاب إلى قمته .

(قال : « نعم » . قال : « أليس ترأس قومك » . قلت : بلى ، قال : فذكر محمد الركوسية ، قال كلمة التمسها يقيمها فتركها) .

ولا يزال الأمر فى قمة الاضطراب والشك . فقد قدّر عدى بن حاتم أن كلمة الركوسية قد التقطها محمد من النصارى فى بيئته ، فليست كافية فى الدلالة على النبوة ، لكن الطلقة الأخيرة من البندقية على الكفر : عند عدى كانت : « فإنه لا يحل فى دينك المرباع » .

أى أخذ ربع غنائم قومه ، ولا غرو فهذه مما اختص به نبينا محمد ﷺ من دون سائر الأنبياء :

« أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من قبلى ... وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ... » (٢) .

فلما قالها تواضعت منى هنية .

وفى الرواية الثانية : قلت : أجل والله ، وقال : وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل.

فقد أيقن الآن أنه أمام نبى يوحى إليه من السماء ، جاء ليصحح أخطاء البشر فى دين الله ، وجاء بالرسالة الخاتم ، والكتاب المهيمن على كل الكتب التى قبله .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٣٧٨ .

(٢) متفق عليه وهو عند مسلم ١/ ٣٧٠ ح (٣/ ٥٢١) .

ويمضى رسول الله ﷺ فى إزاحة الركام المتهدم من جدر قلبه ، حين مضى فى أعماق قلبه الذى يتوقف عن إعلان الإسلام خوف ملوك الأرض كسرى وقيصر ، وما يرى من ضعف المسلمين وفاقتهم أمام كنوز الأرض المفتوحة لأولئك الملوك .

« قال : وإنى قد أرى أن مما يمنعك خصاصة تراها ممن حولى وأن الناس علينا إلبًا واحدًا. هل تعلم مكان الحيرة ؟ » قال : قد سمعت بها ولم آتها . قال :

« لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف بالكعبة » .

وفى رواية للبيهقى : (« فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله » . قلتُ : فيما بينى وبين نفسى : فأين زعار طيئ الذين سعروا البلاد) (١) .

وبمقدار ما وثق بصدق نبيه الذى نطق عما يعتلج فى نفسه بمقدار ما عجب من هذا الأمر ، فهل تنتهى سلطة طيئ . وينتهى سراق الحجيج منها ومن غيرها ، حتى لا تخاف إلا الله وحده ، وهل سيستقر أمر هذا الدين ، ويتمكن فى الأرض حتى يحكم هذه الأرض، وتنتهى صعاليك طيئ وغفار وغيرهم من السطوة على الحجيج . كلها تساؤلات وانفعالات تدور فى نفسه ـ وهل سيسكت كسرى ملك الملوك على سلطان هذا الدين للعرب ، ومع هذا التساؤل العنيف جاء الطرق العنيف عليه من نبى الله يقول له :

« ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز أن تفتح » قلت: كسرى بن هرمز ؟ قال: « كسرى ابن هرمز » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى بن هرمز » ، قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « كسرى بن هرمز » . ثلاث مرات) (٢) .

فما يكاد يملك عقله من مسيرة الظعينة أشهرًا لا تخاف إلا الله ، حتى يأتيه الخبر الصاعق فى فتح كنوز كسرى بن هرمز فى سبيل الله ، ومحمد اليوم لا يتجاوز حدود الجزيرة ، وهل ستصبح هذه الكنوز كلها بين يدى محمد بن عبد الله ، ولم يكد يتحرك فى نفسه هذا السؤال ، حتى جاءه الجواب المفحم عليه من دون أن يغادر التساؤل أعماق قلبه .

« وليوشكن أن يبتغى من يقبل منه ماله صدقة فلا يجد » .

أو « ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه » .

وانتهت كل هذه التساؤلات فأعلن إسلامه بين يدى رسول الله ﷺ ، وانضم قائد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/٣٤٣، ٣٤٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٣٧٨ .

جديد إلى هذه الدعوة سنشهده فيما بعد على الثغور الإسلامية ، ومع القادة المحاصرين للقصور البيض فى بابل وهى التى وعده بها رسول الله ﷺ : « وايم الله ، ليوشكن أن نسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم » .

يقول ﷺ :

(قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، والله لتكونن : قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت ، وايم الله لتكونن الثالثة : ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه)(١) .

ونودع عديًا ﷺ فى جزئية لم نلقها فى كتب السيرة ، حدثنا عنها الحافظ ابن كثير رحمه الله فى تفسيره قال: روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم ﷺ أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته ، وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغّبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ، فقدم عدى المدينة، وكان رئيسًا فى قومه طيئ وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ، وفى عنق عَدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة : ٣١] . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى ، إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » . ثم دعاه إلى الإسلام ، فأسلم وشهد شهادة الحق قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون »(٢) .

ويسعدنا عَدى ﷺ بتسجيل خطبة نبوية سمعها منذ لحظاته الأولى بين يدى رسول الله ﷺ بعد أن شرح الله صدره للإسلام . ففى رواية أحمد :

(فأسلمت فرأيت وجهه استبشر ، وقال : « إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى » ، ثم سألوه ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد ، فلكم أيها الناس أن ترضخوا من الفضل ، ارتضخ امرؤ بصاعٍ ببعض صاع ، بقبضة ، ببعض قبضة ـ قال شعبة : وأكثر علمى أنه قال : بتمرة بشق تمرة : وإن أحدكم لاقى الله عز وجل فقائل ما أقول :

ألم أجعلك سميعًا بصيرًا ؟ ألم أجعل لك مالاً وولدًا ؟ فماذا قدمت ؟

فينظر من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فلا يجد شيئًا ، فما يتقى النار إلا بوجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوه ، فبكلمة لينة .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٨١.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٥ .

إنى لا أخشى عليكم الفاقة ، لينصرنكم الله تعالى ، وليعطينكم أو ليفتحن عليكم حتى تسير الظعينة بين الحيرة ويثرب أو أكثر ما تخاف السرَق على ظعينتها » (١) .

إنها من أبلغ الخطب التى صكت أسماعه فى حياته ، وهو يجد الحديث عن رب العزة حديثًا شيقًا يختلف عن الإله عند النصرانية الذى تجسد بولد ، وصُلب من اليهود ، وحمل خطيئة آدم ، بينما يجد رب العزة جل جلاله يحاسب عبده يوم القيامة عما قدَّم وقاءً من النار، ولو شق تمرة ، ولو كلمة طيبة ، فلابد من الإنفاق والبذل فى سبيل الله. ولم الخوف من الفقر ، خشية الفاقة . فليطمئن هذا الركب المؤمن أن نصر الله قادم ، وأن الأموال ستتدفق على المدينة ، وأن المجرمين قتلة الحجيج وسلابهم من غفار وطيئ سوف يمسون كأمس الدابر ، وأن الأمن سيتم فى ربوع الجزيرة بهذا الدين ، وتصبح راية الإسلام خفاقة فيه من الحيرة إلى يثرب .

لقد سطع الإسلام فى قلب عدى ، وملأ كيانه من فرقه إلى قدمه ، وسنجد فى مقبلات الأيام أن إيمانه لم يكن كإيمان بقية الزعماء وإيمان خوف ومصلحة ، إنما كان إيمان يقين وهدى جعله يسخر كل طاقاته فى سبيل الله ، ومن أجل هذا شهدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن رأى زيد الخير الزعيم الثانى لطيئ والذى أسلم فيما بعد نجده يقول لزيد : (لله درك يا أبا مكنف ، فلو لم يكن لطيئ غيرك وغير عدى بن حاتم لقهرت بكما العرب) (٢) .

الشخصية الثانية : عروة بن مسعود الثقفى :

وعروة ليس جديدًا على الساحة ، وليس نكرة فى عالم العرب بل هو علم من أعلامها فى الجاهلية ، وهو من أعظم سادة ثقيف ، بل كانت العرب ترى أنه أهل لنزول الوحى عليه بصفته زعيم ثقيف .

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله : (وقالوا) أى كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] ، أى هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقتادة والسدى وابن زيد وقد ذكر غير واحد منهم أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى) (٣) .

وهو الذى أنقذ قومه من حرب طاحنة كان يمكن أن تفنى ثقيفًا حين حمل دية ثلاثة

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٣٧٨، ٣٧٩ .
(٢) الأغانى للأصفهانى ١٧/ ٢٢٥، أخبار زيد الخيل .
(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٢٤ ، وهناك آراء أخرى للمفسرين تذكر غير عروة من ثقيف .

عشر رجلاً من بنى مالك قتلهم ابن أخيه المغيرة بن شعبة .

وهو الذى قاد مائة من قومه، ونزل بهم إلى مكة عونًا لقريش ضد رسول الله ﷺ، وهو أخيرًا الداهية الأريب الذى أوفدته مكة إلى رسول الله ﷺ للفت فى أعضاد المسلمين وليقود الحرب النفسية ضد المسلمين والتى يحسن أن نستحضرها كما وردت فى السير .

قال الزهرى فى حديثه: ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى فقال:

يا معشر قريش ، إنى قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد ـ وكان عروة لسُبيعة بنت عبد شمس ـ وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم[1] بنفسى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم ، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد ، أجمعت أوشاب[2] الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك[3] لتفضها [4] ، بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلنها عليهم عنوة أبدًا ، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً . قال: وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد فقال : امصص بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبى قحافة. قال : أما والله لولا يد [5] كانت لك عندى لكافأتك بها ، ولكن هذه بها. قال: ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه . قال : والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ . قال : فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك. قال : فتبسم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد ؟ قال: « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » ، قال : أى غُدر ، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس . قال الزهرى : فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربًا .

فقام من عند رسول الله ﷺ ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ؛ لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقًا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ،

---

(١) آسيتكم : عاونتكم .
(٢) الأوشاب : الأخلاط .
(٣) بيضة الرجل : أهله وقبيلته .
(٤) تفضها : تكسرها .
(٥) اليد التى لأبى بكر رضي الله عنه عند عروة عند عونه فى الديات الثلاثة عشر التى تحملها عن قومه ليعطيها لبنى مالك ، وقد أعانه أبو بكر .

والنجاشى فى ملكه ، وإنى ما رأيت والله ملكًا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشىء أبدًا . فروا رأيكم) [١] .

فهو الذى أقنع قريشًا بشكل غير مباشر بقبول المصالحة ، وقد غزا الإسلام قلبه ، وغزا رسول الله قلبه دون أن يعلن شيئًا من ذلك ، ووراءه ذلك التفانى والحب من المسلمين لقائدهم عليه الصلاة والسلام ، ولم ير هذا عند أحد من ملوك الأرض ، وبعد أن قال لمحمد بن عبد الله ما تقتضيه الدعابة : لكأنى بك قد انكشفوا عنك غدا ، ها هو يعلن بعد انتهاء المقابلة : ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشىء . وفى رواية : (واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم ، ولقد رأيت قومًا ما يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم ، والله لقد رأيت نسيات [٢] معه إن كن ليسلمنه أبدًا على حال) [٣] .

وعروة بن مسعود هو الذى مدحه الأعشى بقوله عندما حمل ديات قومه :

تحـمـل عـروة الأحـلاف لمـا　　رأى أمـرًا تضيـق بـه الصـدور

ثـلاث مئين فى ديـه وألـفـًا　　كذلك يفعـل الجلـد الصبور)[٣]

(وكان عروة بن مسعود حين حاصر النبى ﷺ أهل الطائف بجُرش ، يتعلم عمل الدبابات والمنجنيق ، ثم رجع إلى الطائف بعد أن ولى رسول الله ﷺ ، فعمل الدبابات والمنجنيق والعرادات) ، وتمكنت زعامته فى قومه ، إذ أدخل إليهم هذا السلاح الجديد الذى استعمله محمد ﷺ ضد ثقيف، وحدَّثت ثقيف أسلحتها بحيث لو جاءها هجوم مفاجئ من محمد ﷺ، فقد أعدَّت له العدة،لكن خبيرها الحربى، وزعيمها العسكرى كان يعيش عالمًا آخر ، كان قلبه يخفق بحب محمد ﷺ العدو الألد الثقيف؛ لذلك ما أن أنهى مهمته فى تدريب قومه على هذا السلاح حتى غادر الطائف سرًا ميممًا صوب المدينة ، (وأعدَّ ذلك حتى قذف الله عز وجل فى قلبه الإسلام ، فقدم المدينة على النبى ﷺ فأسلم) وهو تعبير موحٍ فعلاً ، أن قذف الله فى قلبه الإسلام ، فهو نور ربانى يدخل هذا القلب فيحرق كل عقائد الجاهلية ولكن الزعماء عادة وكثيرًا ما يحجب حب الزعامة والسيادة النور عن قلوبهم حتى لو أسلموا ، أما عروة فلا شك أن له معدنًا نفيسًا وكان مطمورًا فى ركام الجاهلية .

وآذن الله تعالى لهذا المعدن أن ينفض عنه هذا الركام ويزحزحه عنه ، ولا يبعد أن يكون موقف الرسول ﷺ من قومه حينما حاصرهم له دور كبير فى فتح مغاليق قلبه حين

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣١٣، ٣١٤.

(٢) نسيات : تصغير نسوة ، أى عدد قليل من النساء .

(٣) المغازى للواقدى ٢/ ٥٩٨ .

سمعِ مقالة رسول الله ﷺ : « اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم » ، وذلك حين طُلِبَ منه أن يدعوَ عليهم ـ بعد أن استشهد العديد من أصحابه ـ ولا شك أن اللقاء الوحيد الذى تم بينه وبين رسول الله ﷺ فى الحديبية قد بقى له آثار ضخمة تعمل فى كيانه ، ولا شك وأنه هو الشخص الداهية الذى ينظر إلى الأفق البعيد ويدرك أبعاد المستقبل أكثر ممن حوله الذين لا يرون إلا لحظتهم الآنية. ومن خلال هذا الأفق الواسع الرحيب أدرك أن المستقبل للإسلام ، فقد بقيت ثقيف وحدها جزيرة من الشرك فى بحر من الإسلام ، وهو قد عاش تطور هذا الدين عندما كان بحيرة صغيرة ، وجزيرة ضئيلة فى قلب بحر الشرك الزاخر حين كان المسلمون قليلاً مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس .

وكل هذه العوامل وغيرها كان لها دور فى تحقيق هذا الانقلاب العظيم لديه ، ولعل أشد ما زلزل كيانه أن يقوم ابن أخيه الذى كان يفديه بحياته المغيرة بن شعبة بتهديده بقطع يده إن امتدت إلى لحية رسول الله ﷺ فما هو هذا المفعول السحرى لهذا الدين الذى جعل ابن أخيه المغيرة يستعد لقتله ، بعد أن كان مستعدًا لقتل كل من تسول له نفسه المساس به .

ليس بين أيدينا حدث معين كان هو السبب المباشر فى هذا الاتجاه نحو الإسلام ، ومن التحرك من الطائف إلى يثرب ، ولعل الجهالة فى الروايات جعلت هذا السبب غائبًا عن الذهن ، فهو لم يقدم على المدينة مجرد إعلان للإسلام وإنهاء للحياة ، بل هو إعلان للإسلام وإيذان بحياة جديدة فى هذا الدين ومن أجله .

(فقدم المدينة على النبى ﷺ فأسلم ثم قال :

يا رسول الله ، إيذن لى فآتى قومى فأدعوهم إلى الإسلام ، فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب) يا سبحان الله ، أبعد عشرين عامًا من الجهاد لهذا الدين يعجب عروة لذهاب عقول الناس عن هذا الدين ، وحربهم له ، (فوالله ما رأيت مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب ، فأقدمُ على أصحابى وقومى بخبر قادم ، وما قدم وافد قط على قومه إلا من قدم بمثل ما قدمت به) .

إنه لا يكتفى بذلك بل يستعيد صفحة حياته كاملة ، فإذا هى كلها صد عن سبيل الله ، فهل يمكن أن يسجل فى الصفحة الجديدة لحياته بعض معالم النور المضيئة فوق هذا الظلام الدامس : (وقد سبقت يا رسول الله فى مواطن كثيرة) .

فقال رسول الله ﷺ : « إنهم إذن قاتلوك » ، قال : يا رسول الله ، لأنا أحب إليهم من أبكار أولادهم . ثم استأذنه الثانية فأعاد عليه الكلام الأول ، وقال رسول الله ﷺ : « إنهم إذن قاتلوك » قال : يا رسول الله ، لو وجدونى نائمًا ما أيقظونى) .

لقد غاب عن عروة حلمه ، من شدة انفعاله بهذا الدين ، وهو يسمع رسول الله ﷺ يحذره من قومه ، وهو يعلم أنه النبى الموحى إليه ، فلن يتكلم هذا الكلام عرضًا أوظنًا ، لكن رغبته الجامحة بإيمان قومه ، وما يعرفه من رسوخ زعامته فى قلوبهم دفعته إلى الإصرار على العودة إليهم ليأتى بهم أفواجًا إلى الإسلام واستأذنه الثالثة « فقال : إن شئت فاخرج » .

فخرج إلى الطائف فسار إليها خمسًا ، فقدم على قومه عشاء فدخل منزله ، فأنكر قومه دخوله منزله قبل أن يأتى الربة (أى اللات) ثم قالوا : السفر قد حصره .

أما عروة فهو على يقين أنه سيعيد سيرة سعد بن معاذ فى قومه ، فكما لا يعد فى بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة ولا طفل إلا دخلوا فى هذا الدين ، فتوقع ألا يبقى فى الأحلاف (فرع عروة) رجل ولا امرأة ولا طفل إلا دخل فى الإسلام . (فجاؤوا منزله فحيوه تحية الشرك ، فكان أول ما أنكر عليهم تحية الشرك ، فقال : عليكم تحية أهل الجنة ، ثم دعاهم إلى الإسلام وقال :

يا قوم ، أتتهموننى ؟ ألستم تعلمون أنى أوسطكم نسبًا ، وأكثركم مالاً ، وأعزكم نفرا) . وهكذا راح يحشد كل ماله من مكانة وحسب وعلو كعب فى قومه ليوظفها لخدمة هذا الدين الجديد ، ويدعوهم إلى الله عز وجل ، فتابع قوله : (فما حملنى على الإسلام إلا أنى رأيت أمرًا لا يذهب عنه ذاهب ، فاقبلوا نصحى ، ولا تستعصونى، فوالله ما قدم وافد على قوم بأفضل مما قدمت به عليكم) ، وانتظر من هذه الوجوه التى جاءت مستبشرة بقدومه ، وتعتلج شوقًا إليه ، نظر فى هذه الوجوه فإذا بها باهتة كالحة . (فاتهموه ، واستفشوه وقالوا : قد واللات وقع فى أنفسنا حيث لم تقرب الربة ، ولم تحلق رأسك عندها إنك صبوت ، فآذوه ونالوا منه) ، وتجرع عروة غصصًا قاتلة ، فمتى كان قومه يردون عليه ، ومتى لم تكن كلمته قانونًا ينفذ ، إنها مفاجآت جارحة مؤلمة له، لكنه مع ذلك لا يزال يأمل أن بالإمكان معالجة الموقف ، وأعاد هذا الأمر لشدة تعلقهم بآلهتهم ، فراح يحلم بإعادة الجولة معهم بالحديث عن هذا الدين. أما هم (فقد خرجوا من عنده يأتمرون كيف يصنعون به ، حتى إذا طلع الفجر أوفى على غرفة له فأذن بالصلاة) . وكان قدر الله النافذ ، ونبوءة رسول الله ﷺ الصادقة (فرماه رجل من الأحلاف يقال له : وهب بن جابر ـ ويقال أوس بن عوف من بنى مالك ـ وهذا أثبت عندنا ـ وكان عتبة رجلاً من الأحلاف ، فأصاب أكحله ، فلم يرقأ دمه ، وحشد قومه فى السلاح ، وجمع الآخرون وتجايشوا) .

وكما كان عروة سيدًا لقومه استطاع أن يجنب قومه المقتلة العظيمة يوم جريمة ابن

أخيه، فها هو وهو على فراش الموت يحرص على ألفة قومه، وصلاح ذات بينهم، لعلهم يدخلون فى هذا الدين وافرين (فلما رأى عروة ما يصنعون قال : لا تقتتلوا فىّ ، فإنى قد تصدقت بدمى على صاحبه ليصلح بذلك بينكم فهى كرامة أكرمنى الله تعالى بها. الشهادة ساقها الله إلىّ) .

وأدرك وهو يتضرج بدمه ، تحذير حبيبه المصطفى ﷺ من هذا المصير فقال وقلبه يذوب حبًا وشوقًا إليه :

(أشهد أن محمدًا رسول الله ، خبَّرنى عنكم أنكم تقتلوننى) .

إنه مثل زيد الخيل الطائى ، الذى كتب سعيدًا وهو فى بطن أمه ، فقد أمضوا حياتهما فى الجاهلية ، وربهم يعرف صدقهم وصلاحهم ، فهيأ لهما سعادة قبل الموت بأيام أن يدخلا فى هذا الدين ويحملا رايته . من دون أن يكون لهم دور فى المستقبل الإسلامى العظيم .

وغدا حلم عروة ﷺ بعد أن ذاق لذة الشهادة أن يدفن بجوار إخوانه من الشهداء الذين قضوا نحبهم تحت حصون الطائف ، فقد أصبح اليوم ابن هذا الدين ، ولم يعد ابن اللات ولا ولد ثقيف العصاة المشركين ، فكانت وصيته: (ثم قال لرهطه : ادفنونى مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، قال : فدفنوه معهم .

ولم يعش عروة فى هذا الدين إلا أيامًا قد لا تبلغ أسبوعًا واحدًا ، لكن الله تعالى زكَّى هذه الأيام ، وقبل إسلام عبده عروة ، فإذا به يصبح رمزًا من رموز هذا الدين ، وعلمًا من أعلامه بحيث يكون صاحب يس هذه الأمة من دون الناس جميعًا ، صاحب يس الذى يتلو المؤمنون قصته أبد الدهور : ﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)** ﴾ [يس] .

وكان عروة هو هذا الداعية العظيم فى قومه الذى فدى دعوته ودينه بحياته .

(وبلغ رسول الله ﷺ قتله فقال :

« مَثَل عروة مثل صاحب يس ؛ دعا قومه إلى الله عز وجل فقتلوه ») .

وأقض مضجع ولدى الشهيد أبى مليح بن عروة ، وابن أخيه قارب بن الأسود .

قتالاً لأهل الطائف : (لا نجامعكم على شىء أبدًا وقد قتلتم عروة) .

وكان هذا الدم الزكى الفوار قد سقى أرض الطائف فأزهر منها هاتين النبتتين اللتين انضمتا إلى الإسلام ، (ثم لحقا برسول الله ﷺ فأسلما ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « توليا من شئتما » ، قالا : نتولى الله ورسوله) . فهما ثلاثة أيتام من ثقيف مع المغيرة ابن شعبة ابن عمهما . فقال النبى ﷺ : « وخالكما أبو سفيان بن حرب ، حالفاه » ، ففعلا ، ونزلا على المغيرة بن شعبة وأقاما بالمدينة) . وحين توضع النبتة الطيبة المعطاء وتُسقى بالنجيع الفوار ، لابد أن تزهر وتثمر .

لقد غُيبت النبتة (عروة) تحت الثرى ، وامتدت جذورها دون أن يُرى امتدادها فى أشهر الشتاء الموسومة بالبرد والزمهرير لكن إذا أقبل الربيع ، تموج الأرض ، وتخضوضل الأرض ، وتبرز من جديد تلك الثمرات اليانعات ، لقد امتدت هذه النبتة تحت الأرض وامتدت حتى غطت أرض ثقيف كلها . وما أن جاء الربيع ، ومضت أشهر الشتاء القاسية العاصفة حتى برزت هذه النبتة وغطت أرض ثقيف كلها بالإسلام . كل أرض ثقيف .

(حتى قدم وفد ثقيف فى رمضان سنة تسع) [1] .

لعل استشهاد عروة كان فى جمادى ، ومر الجمادان ورجب وشعبان ، وجاء رمضان ربيع المؤمنين ، وعاد رسول الله ﷺ من تبوك ليتلقى أول وفد إسلامى من ثقيف فى رمضان سنة تسع ، ليتلقى هذا الوفد وعلى رأسه من قال لرسول الله ﷺ : أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك ، هذا الوفد الذى أعطاه الله عمر جيل كامل حتى يأتى عمر خمسين عامًا . « لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله » . ولكنها عشر سنين فقط ، وبالسماد الكيماوى الذى غذى هذه الأرض اختصر الزمن ، وجاء الوفد قبل أربعين عامًا من الميلاد ، وضن رسول الله ﷺ بهذا الجيل عن الفناء ، حين عرض عليه ملك الجبال إفناءه ليس من أجله ، ولكن ليخرج من أصلابه من يقول: لا إله إلا الله . لكن الله تعالى كان يدخر هذا الجيل نفسه لا غير ؛ ليكون حامل راية الإسلام فى أرض العرب مع القادة المسلمين الآخرين .

(١) هذه المقاطع كلها بين الأقواس هى رواية الواقدى فى المغازى عن إسلام عروة ٢/ ٩٦٠ ـ ٩٦٢ .

غزوة تبوك

أسباب الغزوة ووقتها :

ويقال إنها غزوة العسرة والفاضحة : اختُلف فى سببها؛ فقيل إن جماعة من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ذكروا للمسلمين أن الروم جمعوا جموعًا كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معهم لخم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، ولم يكن لذلك حقيقة، ولما بلغ رسول الله ﷺ ذلك ندب الناس إلى الخروج. نقله محمد بن عمر، ومحمد بن سعد.

وروى الطبرانى بسند ضعيف عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل : إن هذا الرجل الذى قد خرج يدعى النبوة هلك ، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن ، فبعث رجلاً من عظمائهم ، وجهز معه أربعين ألفًا ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأمر بالجهاد .

وقيل : إن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقًا فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء ، فغزا تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى الآيات من سورة بنى إسرائيل : ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً** (٧٦) ﴾ [الإسراء] رواه ابن أبى حاتم ، وأبو سعد ، والنيسابورى ، والبيهقى بإسناد حسن .

وقيل : إن الله سبحانه وتعالى لما منع المشركين من قربان المسجد الحرام بالحج وغيره قالت قريش : لتُقطعُنَّ عنا المتاجر والأسواق . وليذهبن ما كنا نصيب منها ، فعوضهم الله تعالى عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٢٨) **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** (٢٩) ﴾ [التوبة] ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** (١٢٣) ﴾ [التوبة] ، وعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس

إليه ، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام . رواه ابن مردويه عن ابن عباس وابن أبى شيبة وابن المنذر عن مجاهد ، وابن جرير عن سعيد بن جبير (١) .

وذكر ابن إسحاق فى السيرة قوله :

(ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذى الحجة إلى رجب ، ثم أمر الناس بالتهيؤ إلى غزو الروم، وقد ذكر لنا الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر . . . وغيرهم من علمائنا . . أن رسول الله ﷺ أمر بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمان عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المُقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له . إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد الشقة وشدة الزمان، وكثرة العدو الذى يصمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاد ، وأخبرهم أنه يريد الروم) (٢) .

وروى ابن أبى شيبة والبخارى وابن سعد عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ فى قيظ شديد ، واستقبل سفراً بعيدًا ، وغُزى عددًا كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم وأخبرهم بوجهه الذى يريده (٣) .

وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى غزوهم ، فبعث إلى أسلم بريدة بن الحصيب ، وأمره أن يبلغ الفُرع ، وبعث أبا رهم الغفارى إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم ، وخرج أبو واقد الليثى فى قومه ، وخرج أبو الجعد الضمرى فى قومه بالساحل وبعث رافع بن مكيث ، وجندب بن مكيث فى جهينة ، وبعث نعيم بن مسعود فى أشجع ، وبعث فى بنى كعب بن عمرو بديل بن ورقاء ، وعمرو بن سالم ، وبشر ابن سفيان ، وبعث فى سُليم عدة منهم العباس بن مرداس .

يقول الحافظ ابن حجر :

وتبوك مكان معروف هو نصف طريق المدينة إلى دمشق ، ويقال بينه : وبين المدينة أربع عشرة مرحلة . . . وفى حديث ابن عباس : قيل لعمر : حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، قال : خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد ، فأصابنا عطش . . . وفى تفسير عبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل ، قال : خرجوا فى قلة من الظهر وفى حر شديد حتى

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٢٦، ٦٢٧ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥١٦ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٢٨ .

كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء ، فكان ذلك عسرة من الماء وفى الظهر وفى النفقة ، فسميت غزوة العسرة [1] .

نحن على أبواب مرحلة جديدة أعقبت مرحلة فتح الحجاز وخضوعه للسيادة الإسلامية بعد فتح مكة ، وحيث أن شمال الجزيرة العربية يستمد قوته من فتح حدوده مع الروم ، والمسلمون كانوا من قبل يتحرجون من قتال النصارى فهم أهل كتاب مثلهم ، وانهيار مكة مركز الوثنية فى الأرض العربية يعنى أن الجهاد قد توقف ، فلابد إذن من الانتقال إلى المرحلة الجديدة التى تعنى فتح الجبهة مع الروم النصارى الذين يحادون الله ورسوله ، وجاء البناء العقائدى أولاً ليوضح للمسلمين كفر النصارى ثم حربهم انطلاقًا من هذا المفهوم .

فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة] .

ويأتى الحديث بعدها عن حنين ، وقتال المشركين الذى تم فيه ، وانهيار هوازن أكبر قبائل العرب المشركة فى الأرض العربية ، وإنهاء الشرك فيها بحيث لا يجوز اقتراب المشركين من المسجد الحرام .

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) ﴾ [التوبة] .

وبعد انتهاء حرب المشركين يعلن القرآن الكريم فتح جبهة الحرب ضد أهل الكتاب لكن بصيغة تختلف عن صيغة المشركين ، وهى إيجاد الخيار الثالث بعد الخيارين الأولين الإسلام أو الحرب ، وهو خيار الجزية واستمرار المعايشة من خلالها بين المؤمنين وأهل الكتاب .

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا

---

(١) فتح البارى للحافظ ابن حجر ٨/ ١١١ .

يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾

[التوبة]

وسبب القتال هو الكفر :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ [التوبة] .

وانطلاقًا من هذا الفهم والتقرير العقيدى سيكون موقفهم الأصيل هو حرب الله ورسوله :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

[التوبة]

فلابد أن يظهر الإسلام على الدين كله ، على المشركين وعلى النصارى وعلى اليهود الذين لا يدينون دين الحق ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

فى هذه الأجواء كانت هذه الآيات تتنزل، وتعد المؤمنين، وتعبئهم للمرحلة الجديدة، وانطلاقًا من هذا الفهم فلا داعى للبحث عن أسباب خارجة عن الإرادة الإلهية فى حرب أعداء هذا الدين ، والأسباب التى ذكرت للغزوة هى روايات ضعيفة تريد أن تجعل الحرب حربًا دفاعية ضد هجوم محتمل من النصارى على أرض الإسلام ، ولو فرضنا جدلاً وجود مثل هذه الحشود على الأراضى العربية ، والتى تريد أن تغزو المسلمين، فهذا يؤكد المفهوم القرآنى نفسه ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة] .

وتأتى الآيات القرآنية بعد ذلك تحث الناس على الجهاد فى الوقت الذى تعلقت فيه النفوس بالأرض وأخلدت إليه حيث طابت الظلال وأوقرت الثمار ، واشتد الحر فى هذا الوقت بالذات تريد أن تنتزع هؤلاء المؤمنين من دنياهم إلى جهادهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾ [التوبة] .

وإذا كان الحديث من قبل عن فضل الجهاد والمجاهدين وما أعد الله لهم من جنات ونعيم ، فالحديث هنا عن أن التخلف عن الجهاد يعنى العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، واستخلاف هذه الأمة بغيرها .

﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [التوبة] .

وإذا اعتبرتم أن الإسلام قام بكم فاذكروا يوم لم يكن مع عبده ورسوله محمد ﷺ وصاحبه فى الغار إلا الله ، فأين كنتم أنتم جميعًا حين نصره الله ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ [التوبة] .

وجاء الأمر النهائى الذى لا يقبل الجدل :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة] .

ولابد من الإشارة من جهة ثانية أن هذه الغزوة فى المصطلح العسكرى المعاصر مناورة عسكرية أو استعراض للقوات الإسلامية فى الجزيرة العربية . فإذا كان التحرك قبل ثلاث سنوات بثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم مولى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، فجيش اليوم عشرة أضعاف ذلك الجيش ، جيش اليوم ثلاثون ألفًا ، وعلى رأسهم محمد ابن عبد الله سيد الجزيرة العربية ، ورسول رب العالمين ﷺ ، وهذا يعنى أن كل الأراضى التى تحرك بها الجيش قد غدت خاضعة للحكم الإسلامى ، رغبة أو رهبة ، وما روى أن رسول الله ﷺ عندما وصل إلى تبوك قال : « ها هنا شام » ، فهذا يعنى أن الجزيرة العربية غدت كلها تحت سيادة الإسلام ، أما الشام فلها جولة أخرى ومرحلة قادمة تبدأ الحرب مع أهلها ، ومن أجل هذا وجدناه ﷺ يرسل إلى قلب الجزيرة العربية خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك ، هذه الجزيرة التى تدين للروم بالولاء يرسل إليه خالد بن الوليد لينزعه عن عرشه ، ويقدمه أسيرًا بين يدى رسول الله ﷺ ، وينزع الولاية الرومية ليكون محلها الولاية الإسلامية .

وأخيرًا فرحلة الثلاثين ألفًا هؤلاء هى رحلة تدريبية تربوية لأكبر عدد ممكن من المسلمين مع قائدهم عليه الصلاة والسلام ، فالمدينة لا تتسع لمثل هذه الأعداد لتلتقى مع

رسول رب العالمين ، فلابد من هذه الدورة الكبرى فى الصحراء المترامية الأطراف ، يعيش فيها المسلمون بهذه الأعداد مع قائدهم عليه الصلاة والسلام ، ومع بعضهم بحيث يخلصون من سلطان العشيرة إلى سلطان الأمة الواحدة .

لقد كانت رحلة العشرة آلاف إلى مكة،وشهدنا حلقات التربية الكاملة فيها،وها نحن نشهد الآن ثلاثة أضعاف أولئك فى رحلة شاقة بعيدة المدى ، تهيء هذا الجيل ليقوم بمهمته القادمة وليواجه أمم الأرض بهذا الدين ، فلابد من إعداد هذه الأعداد الضخمة بمثل هذه الدورة الضخمة .

وقد مثلت الرحلة الأولى مجتمع المهاجرين والأنصار ، فقد تحدد الأنصار ، وتحدد المهاجرون إذ لا هجرة بعد الفتح ، وانضم إلى هذه الدورة وفى منتصفها مسلمة الفتح الذين تجاوز عددهم الألفين .

وتأتى هذه الدورة الجديدة لتمثل مجتمع المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، والذين انضموا إليهم ممن حول المدينة من الأعراب كما حددتهم الآية : ﴿ **مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ [التوبة : ١٢٠] ، وهم والأنصار والمهاجرون جميعًا يمثلون صحابة رسول الله الذين سعدوا بهذه الصحبة لشهرين متكاملين مع سيد ولد آدم .

وذلك قبل الدورة الأخيرة فى حجة الوداع ، والتى ارتفعت الأعداد فيها إلى مائة وثلاثين ألفًا بزيادة مائة ألف من قبائل العرب المنتشرة فى أنحاء الجزيرة ، ونشهد فى هذه الرحلة معالم جديدة ومعالم ثابتة فى تربية القاعدة العريضة كما نشهد استمرار التربية الفردية والقيادية للمرشحين للقيادة ، والقادة الكبار الذين لم تنقطع تربيتهم حتى اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ .

الجهاد بالمال فى سبيل الله :

(فى حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عند الطبرانى : أن النبى ﷺ كان يجلس كل يوم على المنبر فيدعو فيقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد فى الأرض » فلم يكن للناس قوة .

قال محمد بن عمر : حض رسول الله ﷺ على الصدقات فجاؤوا بصدقات كثيرة ، فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، جاءه بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال رسول الله ﷺ: « هل أبقيت لأهلك شيئًا ؟ » فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله فقال رسول الله ﷺ: « هل أبقيت لأهلك شيئًا ؟ » قال:

نعم، مثل ما جئت به ، وحمل العباس ، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن عبادة رضي الله عنهم ، وحمل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مائتى أوقية إلى رسول الله ﷺ ، وتصدَّق عاصم بن عدى رضي الله عنه بسبعين وسقًا من تمر ، وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش حتى أنه كان يقال : ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم شُنُق أسقيتهم) (١) .

قلت : كان ذلك الجيش زيادة على ثلاثين ألفًا ، فيكون رضي الله عنه جهز عشرة آلاف .

وذكر أبو عمرو فى الدرر ، وتبعه فى الإشارة أن عثمان حمل على تسعمائة بعير ومائة فرس بجهازها) (٢) .

وقال ابن إسحاق رحمه الله : (أنفق عثمان فى ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها) ، ونقل ابن هشام عن من يثق به : (أن عثمان رضي الله عنه أنفق فى جيش العسرة ألف دينار) (٣) .

قلت : غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه » ، وروى الإمام أحمد والترمذى وحسَّنه (٤) والبيهقى عن عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال : جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بألف دينار فى كُمّه حين جهز رسول الله ﷺ ، فصبَّها فى حجر النبى ﷺ ، فجعل النبى يقلبها بيده ويقول: « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » يرددها مراراً . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائد المسند والترمذى والبيهقى عن عبد الرحمن بن خباب رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ، فحث على جيش العسرة، فقال عثمان رضي الله عنه : علىَّ مائة بعير بأحلاسها (٥) وأقتابها (٦) ، ثم نزل مرقاة أخرى من المنبر ، فحث فقال عثمان : على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل مرقاة أخرى فحث فقال عثمان : علىَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها للتعجب : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا اليوم » أو قال بعدها) (٧) .

وروى الطيالسى والإمام أحمد والنسائى (٨) عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى قال: سمعت عثمان رضي الله عنه يقول لسعد بن أبى وقاص وعلى والزبير وطلحة : أنشدُكُم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز جيش العسرة غفر الله له » فجهزتهم

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٢٨، ٦٢٩. والشَّنَق : جمع شنق وهى أربطة الأسقية .

(٢) المصدر السابق ٥/٦٢٩ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥١٧، ٥١٨ .

(٤) سنن الترمذى ٥/٦٢٦ح (٣٧٠١) مناقب عثمان .

(٥) الأحلاس : جمع حلس وهو كساء يكون تحت البرذعة .

(٦) الأقتاب : جمع قتب : وهو البرذعة التى توضع على البعير .

(٧) وهى عند الترمذى ستمائة بعير ٥/ ٦٢٥، ٦٢٦ .

(٨) سنن النسائى ٦/ ٣٩ .

حتى ما يفقدون خِطامًا ولا عقالاً ؟ قالوا : اللهم نعم) (١) .

(ورغب أهل الغنى فى الخير والمعروف، واحتسبوا فى ذلك الخير، وقوّوا أناس دون هؤلاء من هو أضعف منهم حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه ، ويأتى الرجل فيعطيها بعض ما يخرج ، حتى إن كُنَّ النساء ليُعِنَّ بكل ما قدرن عليه .

قالت أم سنان الأسلمية : لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدى رسول الله ﷺ فى بيت عائشة رضي الله عنها فيه مسك ومعاضد وخلاخل وأقرطة وخواتيم وخدمات مما يبعث به النساء يُعِنَّ به المسلمين فى جهازهم) (٢) .

وروى أبو داود (٣) ومحمد بن عمر عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : نادى منادى رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فخرجت إلى أهلى ـ وقد خرج أول أصحابه ـ فطفت فى المدينة أنادى . ألا من يحمل رجلاً وله سهمه ، فإذا شيخ من الأنصار (سماه محمد ابن عمر : كعب بن عجرة) فقال : سهمه على أن نحمله عقبة وطعامه معنا ؟ فقلت : نعم ، فقال : سر على بركة الله تعالى ، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا.

قال محمد بن عمر: بعثه رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة. قال: فأصابنى قلائص (قال محمد : ستة) فسقتهن حتى أتيته بهن . فخرج فقعد على حقيبة من حقائب إبله ثم قال : سقهن مقبلات ، فسقتهن ، ثم قال : سقهن مدبرات ، فقال: ما أرى قلائصك إلا كرامًا ، فقلت : إنما هى غنيمتك التى شرطت لك ، قال : خذ قلائصك يا بن أخى ، فغير سهمك أردنا) .

وروى الحافظ ابن كثير فى تفسيره قال :

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد الجريرى عن أبى السليل قال : وقف علينا رجل فى مجلسنا بالبقيع فقال : حدثنى أبى أو عمى أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول : « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال : فحللت عمامتى لوثًا أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فأدركنى ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتى ، فجاء رجل لم أر بالبقيع أشد منه سوادًا ولا أصغر منه ولا أذم ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها ، فقال: يا رسول الله، أصدقة ؟ قال : « نعم » . قال : دونك هذه الناقة، قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه فوالله لهى خير منه . قال : فسمعها رسول الله ﷺ فقال: : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات) (٤) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٣٠ . (٢) المغازى للواقدى ٣/ ٩٩١، ٩٩٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٦٣١، والواقدى ٣/ ٩٩١ . (٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٠ وهى فى المسند ٥/ ٣٤ .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء ، وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع .

وقال العوفى عن ابن عباس : إن رسول الله خرج إلى الناس يومًا فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل من آخرهم فتصدق بصاع من تمر فقال : يا رسول الله ، هذا صاع من تمر ، بت ليلتى أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما ، وأتيتك بالآخر . فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره فى الصدقات ، فسخر منه رجال وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا ، وما يصنعون بصاعك من شىء . ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقى أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ: « لم يبق أحد غيرك ». فقال له عبد الرحمن ابن عوف : فإن عندى مائة أوقية من ذهب فى الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب : أمجنون أنت ؟ قال : ليس بى جنون . قال : أفعلت ما فعلت ؟ قال : نعم مالى ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربى ، وأما أربعة آلاف فلى ، فقال له رسول الله ﷺ : «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » (1) .

(وكان الذى تصدق بجهده أبو عقيل أخو بنى أنيف الأراشى حليف بنى عمرو بن عوف أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة فتضاحكوا به وقالوا : إن الله غنى عن صاع أبى عقيل) (2) .

وأما علبة بن زيد فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله ، ثم بكى وقال : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسول الله ﷺ ، ولم تجعل فى يد رسول الله ﷺ ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى بها فى مال أو جسد أو عِرض ، ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله ﷺ : « أين المتصدق هذه الليلة ؟ » فلم يقم أحد، ثم قال: « أين المتصدق ؟ » فليقم، فقام إليه فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « أبشر ، فوالذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة المقبلة » (3) .

* * *

(1) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٣٠ .

(2) المصدر السابق ٣/ ٤٣١ .

(3) دلائل النبوة للبيهقى ٥/٢١٨ ، ٢١٩ .

رسول الله ﷺ يقدم على أخطر قرار فى تاريخ الدعوة ، وأعظم مواجهة ، ففتح الجبهة مع الروم يعنى تعرضه لأكبر دول الأرض. وهو يريد أن يعبئ أعظم الطاقات عنده، ويحشد كل قواته الفدائية والاحتياطية فى استعراض عسكرى شامل ، يمكن أن تفتح على طريقته جبهات عدة من القبائل التى لا تزال موالية للروم فى شمال الجزيرة ، إضافة إلى احتمال المواجهة المباشرة مع جيوش الروم ، ويذكر صلوات الله وسلامه عليه سرية مؤتة التى مضت وأوغلت فى أرض الروم وكان قوامها ثلاثة آلاف مقاتل كيف حشد لمواجهتها مائتا ألف من الروم والعرب الأتباع لهم ، وكان على رأسها مولاه زيد ﷺ فماذا يعد الروم لمواجهة سيد الجزيرة محمد بن عبد الله ورسول رب العالمين ؟

إن الإمكانات البشرية لابد من استنفار كامل لها من جميع الذين أعلنوا انتماءهم وانتسابهم للإسلام ؛ ولهذا مضت الرسل إلى القبائل فى كل مكان تدعوهم إلى الحضور للمدينة ، كما فعل يوم فتح مكة، لقد مر أقل من عام على غزوة الفتح ، وارتفع الجيش النبوى إلى اثنى عشر ألف مقاتل حين دخلت قريش المعركة بجوار رسول الله ﷺ، لكن التعبئة القتالية تحتاج إلى الأموال الطائلة للسلاح والعتاد والتموين ، فموقع المعركة بعيد جدًا عن العاصمة (المدينة) ، والمسير فى وقت غير ملائم للنفير فى شدة من الحر ، وشدة من القيظ ، والنفوس ـ غير مهيئة للمعركة ـ قد استرخت ، وطابت الظلال ودنت الثمار وأخلد الناس إلى الأرض .

هذه المعركة كما قلنا هى أخطر قرار على الساحة، فلابد من إعداد الأهبة الكافية لها.

وكان أول تغيير فى التخطيط العسكرى هو الإعلان عن زمان ومكان المعركة عكس كل المعارك السابقة كلها التى كان رسول الله ﷺ يورى عن غيرها ، ولا يعلن حتى موعدها حفاظًا على السرية الكاملة ، وطبيعة الغزوات السابقة أنها تمتد لمسافات قريبة باتجاه القبائل المجاورة .

والمال والقوة البشرية هو عصب المعركة ، وكلما ازدادت الطاقة البشرية كلما زادت التكاليف الباهظة لها . أقدم رسول الله ﷺ على هذا القرار وليس بين يديه درهم واحد للمعركة ، فلم يكن هناك ميزانيات عادية ولا احتياطية لمثل هذا المواجهة ، ومع ذلك فثقة رسول الله ﷺ بقاعدته الصلبة جعلته يتخذ القرار بعد التوكل على الله اعتماداً عليها، وبعد إعلان النفير الشامل والتعبئة العامة ، وبعد الإعلان الذى نزل من رب السموات والأرض يدعو إلى استثمار الطاقات كافة :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ [التوبة : ٤١] .

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... ﴾ [التوبة : ٣٦] .

ومن أين يأتى العتاد والعدة والطعام والشراب لهذه الآلاف المؤلفة ؟؟

الطريق الوحيد لذلك هو الحث على الصدقات فى هذه العسرة ، وهذه الظروف الصعبة .

فهل تستطيع القاعدة الصلبة تحمل مثل هذا القرار ، وتلبى حاجات الجيش الإسلامى كافة ؟

ويأتى الجواب من هذه القاعدة فى أنها نجحت أيما نجاح فى هذا الامتحان القاسى .

لم تبرز الحاجة إلى المال كما برزت اليوم ، ففى النفير الأول فى فتح مكة لم نجد مثل هذا الأمر خلال التعبئة ؛ لأن كل قبيلة كانت تتحمل تكاليف أبنائها ، وتسليحهم وتموينهم . أما الآن ، فقد توافد على المدينة الآلاف من أفراد القبائل من كل مكان ، والراغبون فى الجهاد ، ولم يفدوا من خلال زعامة قبيلتهم إنما وفدوا من خلال الاندفاعات الشخصية يملكون أنفسهم فقط ، ويطلبون التسليح والتموين من قيادة الدولة؛ من رسول الله ﷺ . والقائد الأعظم ماض فى الحث على الصدقات .

وبرز الرجل الأول فى الأمة أبو بكر الصديق ، والذى حق له أن يكون الوزير الأول، والرجل الأول ، فقدم كل ثروته ووضعها بين يدى رسول الله ﷺ ، وكانت الثروة أربعة آلاف درهم . إن هذا الأمر لا ينظر له من خلال هذه الثروة المتواضعة ، فقد كانت ثروة الصديق عشرة أضعاف هذه الثروة ، أربعون ألف درهم ، وأنفقها كلها فى سبيل الله ، وتجاوبًا مع النداء الأول جاء الصديق رضي الله عنه بكل ما يملك ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل أبقيت لأهلك شيئًا ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وعندما يقدّم رئيس الوزراء كل ثروته لله ، ولا يدع لأهل بيته شيئًا فهذا من ناحية معنوية يعنى العظمة المطلقة لهذا القائد الذى لا يصل إلى مستواه أحد، وكل الذين أنفقوا فى سبيل الله لم يقدم واحد منهم على تقديم ثروته كلها إلا الصديق الأكبر رضي الله عنه ؛ ولهذا كان موقعه فى قمة هذه الأمة والسيد الأول فيها ، أما الرجل الثانى فى الأمة عمر رضي الله عنه فقد قدم نصف ثروته ، وأبقى لأهله نصفها الآخر. لقد مثل الصديق القدوة العليا لعمر رضي الله عنه ، ومثل عمر وأبو بكر القدوة لأغنياء الأمة فى البذل والتبرع يؤكد هذا المعنى ما قاله عمر رضي الله عنه : (وبلغ عمر ما جاء به أبو بكر فقال : ما استبقنا إلى الخير قط إلا سبقنى إليه) (١) .

وما كان لرسول الله ﷺ أن يقبل إنفاق المال كله من غير أبى بكر لما يعلم من عظمة

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٩١ .

نفسيته ، وعظمة توكله ، وعظمة ثقته بربه .

ثم جاء ما يملأ الخزينة العامة ، جاء عثمان بن عفان ﷺ الرجل الثالث فى الأمة ، الذى بعث ابتداءً بألف دينار ، وصبها بين يدى رسول الله ﷺ ، ونال أعظم وسام نبوى فى حياته على هذه النفقة : « ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم » .

ثم كانت المرحلة الثانية من البذل بعد الألف دينار التى تعدل عشرة آلاف درهم أو تزيد ، حين كان يعلن أمام الأمة كلها لتقتدى به فى البذل ، وهو يسمع رسول الله ﷺ يحث على الصدقة على المنبر ، قال على : مائة ناقة بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ، ولابد أن يبرز هذا السيد العظيم أمام الأمة كلها ؛ ليكون القدوة العليا فى البذل لأغنياء الأمة ، ونزل رسول الله ﷺ درجة وحث على الصدقة ، فقال عثمان ﷺ : على مائتا ناقة بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ، وتستمع الأمة ولا تكاد تصدق أفى حلم أم فى حقيقة ، أمام تبرع وبذل ذى النورين عثمان بن عفان ﷺ ، ونزل رسول الله ﷺ درجة أخرى، وحث على البذل، فوقف عثمان ثالثة، وقال: على ثلاثمائة ناقة بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله : خمسمائة ناقة وألف دينار وفى رواية لابن عدى : أنها عشرة آلاف دينار . والذى اتفق عليه الرواة أنه جهز ثلث الجيش أى عشرة آلاف جندى بكل ما يحتاجون حتى كفاهم شنق أسقيتهم ، فهو تمويل كامل وتموين كامل لثلث الجيش . . . لقد قام عثمان ﷺ مقام الدولة ، وسد ثغرة ثلث الخزينة المعدة للمعركة ، وكم يكون رسول الله ﷺ قرير العين ، يوم يجد الرعيل الأول ليس جاهزاً فقط للجندية والموت فى سبيل الله. بل يجد كذلك ممولاً للجيوش. رغم كل انشغاله بالجهاد مع رسول الله ﷺ.

هؤلاء الثلاثة من العشرة المبشرين ، ويطالعنا بقية العشرة المبشرين وهم طلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف ﷺ ، فعبد الرحمن بن عوف يصب بين يدى رسول الله ﷺ مائة أوقية من الذهب ، لتنفق فى سبيل الله ، وطلحة الجود . طلحة الخير لم تنقل لنا الروايات ما قدم ، لكنا نعرف أن اسمه قد رافقه ألقاب ثلاثة كلها منصبة على العطاء والبذل ، فهو طلحة الخير ، وطلحة الجود ، وطلحة الفياض ، وكم هو دور عظيم لهذا الجيل القائد يسد مسد دولة ، وهم الذين لم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ عن معركة قط .

هذا عن قادة المهاجرين ، ويطالعنا من قادة الأنصار كذلك سيد الخزرج سعد بن عبادة ، وسيدان آخران من الأنصار محمد بن مسلمة وعاصم بن عدى بتقديم الكثير الكثير لتلبية حاجات الجيش وتجهيز المقاتلين وينضم إلى هؤلاء جميعًا سيد عظيم من سادات الأمة وهو عم رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب الذى هيأ الله تعالى له

الفرصة الأولى لينفق فيها مع رسول الله ﷺ ماله ، وينضم جنديًا بعد حنين إلى هذه المعركة الجديدة .

فى خضم تربية القاعدة العريضة . وتذليل السبل أمام المقاتلين من كل فج ، تبرز هذه القيادات السابقة التى ذكرناها تمثل الميزانية الرئيسية والاحتياطية لدولة الإسلام ، وتكون عند حسن ظن نبيها فى الأزمات الصعبة ، والمواجهات الهائلة ، وتبرز عظمة الفراسة النبوية يوم اتخذ القرار الخطير فى مواجهة الروم وليس بين يديه درهم واحد ، لتلقى بين يديه آلاف الدنانير ومئات الألوف من الدراهم غير المساعدات العينية ، والتكفل بمئات المقاتلين .

ولا ننسى الميزانية الاحتياطية التى مثلها ربات الخدور من المسلمات . حيث كانت حليهن تملأ الثوب من كل أنواع الحلى لتوظف للإنفاق فى سبيل الله ، ولتحمل الناس على الجهاد .

تحدثنا عن نصف قيادات الأمة الذين شكلوا العنصر الأكبر فى نجاح قرار المعركة .

ونتحدث عن نصف القيادات الأخرى للذين ساهموا بشكل متواضع فى عملية النفقة والحملان ، فرسول الله ﷺ يبنى الأمة كلها ، ويبنى القاعدة العريضة ، فهو يريد من كل جندى أن يساهم بكل ما لديه من طاقات فى عملية البناء ، والذى يكفى نفسه هو الأساس الأولى الذى يريده رسول الله ﷺ من كل جندى ، لكن الحث على النفقة والحملان لم ينقطع ، ونجد أن هذه النماذج العظيمة قد ارتفعت حتى وصلت إلى مستوى القيادات العظيمة .

فهذا الذى همَّ بالتصدق ببعض عمامته رضي الله عنه ثم أدركه ما يدرك الإنسان من الحرص فتراجع عن ذلك ، هو نفسه يحدثنا عن ذلك الأسود الدميم القصير الذى لم نعرف اسمه إلى الآن رضي الله عنه ، والذى قدم أجمل ناقة فى المدينة ، وآثر بها رسول الله ﷺ على نفسه فكان هو أبو بكر الفقراء ، حتى لا يستهزئ به أحد المنافقين ممن غلّف قلبه بالران قائلاً : هذا يتصدق بهذه ، فوالله لهى خير منه . فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت ، بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ، وكم هو بائس وتافه ذلك الإنسان الذى يقول له رسول الله ﷺ على الملأ ثلاث مرات : « كذبت » ، هذا إن كان به ذرة إيمان لذاب خجلاً من هذا الموقف ، لقد قدم هذا الأعرابى أنفس ما عنده وما ضن بها على رسول الله صلوات الله عليه .

ويطالعنا عمر الفقراء رضي الله عنه الذى تبرع بنصف ثروته كما تبرع عمر الفاروق رضي الله عنه . هذا الذى جمَّع ثروته منذ أن سمع النداء النبوى يطالب بالبذل فقال : (يا رسول الله ،

بت ليلتى أجر الجرير بالماء حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر ، وعندما تكلم الطابور الخامس يضحك بصاع هذا الصحابى الأنصارى العظيم . لم يرُد عنه رسول الله ﷺ ، إنما تكفل الله رب السموات العلى أن يرد عنه بقوله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [التوبة] .

وماذا يتبقى من الكرامة والوزن لمن يسخر الله تعالى منه لأنه يسخر بالمجاهدين المتصدقين بجهدهم فيدعون نصفه لعيالهم ، ويتصدقون بنصفه .

أما حتى الذين لا يملكون هذا الجهد ، ولا يملكون درهمًا واحدًا يتصدقون به ، لا يملكون إلا البكاء على فقدانهم آلة الجهاد : اللهم إنك أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسول الله ﷺ ، ولم تجعل فى يد رسول الله ﷺ ما تحملنى عليه) .

ووجد حلاً موفقًا للصدقة يملكها وهو أن يتصدق بعرضه على من ناله منه .

(وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها من مال أو جهد أو عِرض)

ثم أصبح مع الناس،أما الملائكة المقربون فقد باتوا ساهرين ينقلون ما قال ويكتبونه، وجاء الجواب من رب العالمين على لسان رسوله الكريم لتبليغه جواب رسالته إلى ربه أمام الناس جميعًا ، مع أن الرسالة كانت فى ظلمات الليل البهيم لا يعلمها إلا رب العالمين .

قال رسول الله ﷺ : « أين المتصدقون هذه الليلة ؟ » .

ولم يكن يحسب فى ذهنه أن الأمر يعنيه فلا درهم ولا دينار يملك ليجيب ، (فلم يقم أحد) . ثم قال : « أين المتصدق ، فليقم » ، واستحيا ، فيخشى أن يكون هو المقصود ولا يجيب . (فقام إليه فأخبره) وأعلن على الملأ عن صدقة هذا الفقير المدقع، لم يعلن هو ، إنما أعلن ذلك رسول رب العالمين ، باسم ربه جل وعلا . أنه قد أدى زكاته كاملة هذا العام والعام الذى يليه ، والإعلان الأعظم أنها قُبلت من رب العزة جل جلاله ، ويقسم رسول الله ﷺ على ذلك مبشرًا لهذا المدقع البائس : « أبشر ، فوالذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة المقبلة » .

ونقف مليًا مع هذا المجتمع العظيم الذى لم تشهد البشرية مثيلاً له ، والذى يقوم على التطوع والعطاء الاختيارى فى تجهيز الجيش ، وما الذى تبقى من عجز الميزانية عن تنفيذه .

وبمراجعة وثائق الأيام التى تمت بها التعبئة والنفير يطلع علينا ما يلى :

١ ـ (روى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن إسحاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهرى . . . أن عصابة من أصحاب رسول الله ﷺ جاؤوه يستحملونه، وكلهم معسر ذو حاجة لا يحب التخلف عن رسول الله ﷺ فقال رسول الله : « لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون » وهم سبعة. واختلفوا فى أسمائهم ، فالذى اتفقوا عليه سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف ، وعُلبة بن زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وهرمى بن عبد الله . . . واختلفوا فى العرباض بن سارية، وعبد الله بن مغفل المزنى ، وسلمة بن صخر ، وعمرو بن عتمة، وعبد الرحمن بن زيد ، ومعقل بن يسار . . . وبعضهم يقول : البكاؤون بنو مقرّن السبعة وهم من مزينة) (١) .

وفيهم نزل قول الله عز وجل :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة] .

٢ ـ (قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر: لما خرج البكاؤون من عند رسول الله ﷺ، وقد أعلمهم أنه لا يجد ما يحملهم عليه لقى يامين بن عمرو النضرى أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان ، فقال : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ فأعطاهما ناضحًا له ، وزوّد كل واحد منهما صاعين من تمر ، زاد محمد بن عمر : وحمل العباس بن عبد المطلب منهم رجلين ، وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة نفر بعد الذى جهز من الجيش .

٣ ـ روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فى نفر من الأشعريين ليحملنا ـ وفى رواية : أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان. فقلت: يا رسول الله، إن أصحابى أرسلونى لتحملهم. فقال: والله لا أحملكم على شيء وما عندى ما أحملكم عليه، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، فرجعت حزينًا من منع رسول الله ﷺ، ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ وجد فى نفسه، فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بالذى قال رسول الله ﷺ ثم جيء رسول الله ﷺ بنهب إبل فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادى: أين عبد الله بن قيس ؟ فأجبته ، فقال : أجب،

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٣٣، ٦٣٤ .

رسول الله ﷺ يدعوك . فلما أتيت رسول الله ﷺ قال: « خذ هذين القرينين ، وهذين القرينين ، وهذين القرينين لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد » ، وفى رواية : فأمر لنا بخمس ذودِ غُرّ الذُرى . فقال : « انطلق بهن إلى أصحابك فقل : إن الله - أو قال : إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فاركبوا » ، فانطلقت إلى أصحابى فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء . ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم ومنعه فى أول مرة ، ثم إعطائه إياى بعد ذلك ، لا تظنوا أنى حدثتكم شيئًا لم يقله . فقالوا : والله إنك عندنا لمصدق ، ولنفعلن ما أحببت ، فانطلق أبو موسى بنفرٍ منهم حتى أتوا الذين سمعوا مقالة رسول الله ﷺ من منعه إياهم ثم إعطائه بعد ذلك فحدثوهم بمثل ما حدثهم به أبو موسى . ثم قلنا : تغفلنا رسول الله ﷺ يمينه ، والله لا يبارك لنا فرجعت . فقلنا له فقال : « ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم » . قال : « إنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت التى هى خير وتحللتها » . فقال : « كفرت عن يمينى ») [1] .

هذه هى الوثائق التى بين أيدينا عن العجز الذى تبقى فى ميزانية الدولة عن استيعاب المتطوعين فى التعبئة العامة أى قرابة ثلاثة عشر من ثلاثين ألفًا ، والملاحظ أن هذا العجز سُدّد فيما بعد ، وتم حمل الجميع ، ولم يكن لأحد عذر بالتخلف، فهو إما حامل لنفسه وغيره ، وإما حامل لنفسه ، وإما مُعان من خزينة الدولة ، ولكن التربية الربانية لهذا الجيل بإشراف إمام المربين عليه الصلاة والسلام هى التى أبرزت قصدًا هذا العجز ، وذلك لكشف خبايا النفوس ، وتمييز الخبيث من الطيب .

فهذا واثلة بن الأسقع رضي الله عنه يعجز عن حمل نفسه ، ولا يجد عند رسول الله ﷺ ما يحمله (فطفت فى المدينة أنادى : ألا من يحمل رجلاً وله سهمه) فلابد من كشف المخبوء من نفس واثلة وأنه على استعداد للتضحية فى المستقبل فيما يغنمه من الحرب مقابل حملانه إليها ، إنه حين يتبرع بسهمه كاملاً لمن يحمله ، يعنى أنه قد خرج فى سبيل الله لا يبغى مغنمًا من الدنيا ، ولا نصيبًا منها إنما يبغى مرضاة الله والدار الآخرة وألا يتخلف عن غزوة مع رسول الله ﷺ .

وجاء الشيخ الأنصارى ، ورأى هذا الشاب المتحمس المتوقد غيرة على الجهاد ، فدعاه ليكون رفيقه فى خروجه ، يشاركه فى الركوب ، ويشاركه فى المؤونة ، ويشاركه فى الجهد ، وقُدّر لكتيبة فدائية واحدة من هذا الجيش الكبير أن تخوض معركة ، وتكسب منها . وكان واثلة بن الأسقع أحد أفراد هذه الكتيبة ، حيث كان سهمه سبعة أبعرة سمان ذلل جيدة ، جاء بها لرفيق دربه الشيخ الأنصارى ، وفاء بما التزم به ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٣٥، ٦٣٦ .

وكانت هذه المحادثة العظيمة بين الشيخ والشاب .

أما شيخنا فهو كعب بن عجرة ﷺ ، ولم يكن أحسن حالاً بكثير من شابنا واثلة ابن الأسقع ، فقد جاء النبى ﷺ يومًا سائلاً . فتغير لون النبى ﷺ ، فمضى يكسب قوته من كدّ جبينه (فذهبت فإذا يهودى يسقى إبلاً له فسقيت له على كل دلو بتمرة ، فجمعت تمراً . . .)[1] .

فهو إذن على حالٍ متواضعة ، لكن قلبه الكبير لم يقبل تخلف جندى محبٍ للنبى ﷺ عن الغزوة فكأنما قاسمه جهده وقال له :

(أنا أحملك عُقبة بالليل ، وعقبة بالنهار ، ويدك أسوة يدى ولى سهمك . قال واثلة : نعم) .

وحدثنا عن معاملته له قائلاً : (لقد كان يحملنى عُقبتى[2]، ويزيدنى ، وآكل معه، ويرفع لى) .

أما الكتيبة الفدائية، فيحدثنا عنها بإيجاز قائلاً: (حتى إذا بعث رسول الله ﷺ خالد ابن الوليد إلى أكيدر الكندى بدُومة الجندل، خرج كعب معه، وخرجت معه، فأصبنا فيها كثيرًا ، فقسمه خالد بيننا فأصابنى ست قلائص [3] ، فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب بن عُجرة فقلت : اخرج رحمك الله فانظر إلى قلائصك فاقبضها ، فخرج إلى وهو يبتسم ويقول : بارك الله لك فيها ، ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئًا)[4] .

وآن الأوان للوفاء ، وآن الأوان للاستيفاء ، وليعود الحق إلى نصابه فكان جواب الشيخ الأنصارى العظيم :

خذ قلائصك يا بن أخى فغير سهمك أردنا ، بعد أن ساقهن واثلة مقبلات ومدبرات قائلاً : ما أرى قلائصك إلا كرامًا. فقلت : خذ قلائصك يا بن أخى فغير سهمك أردنا.

لقد ظهر هذا العجز كما قلنا لإبراز جوانب التربية العظيمة للشيخ الأنصارى والشاب الليثى . وأن كليهما يتسابقان فى مرضاة الله ، ويخلصان من حظوظ نفسيهما .

فواثلة ﷺ ابتداء تخلى عن دنياه التى ستأتيه من غنيمته ؛ ليربح أجر صحبة النبى ﷺ فى غزاته تلك .

وكعب بن عُجرة ﷺ لم يكن فى ذهنه ابتداءً أن يأخذ غنيمة وافده وضيفه واثلة

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٣/ ٥/ ٣٠٤ .
(٢) العُقْبة : فترة من الوقت ثم يمشى ، ثم يركب نهاراً ، ثم يمشى تناوبًا مع صاحب الدابة .
(٣) القلائص : جمع قلوص ، وهى الشابة من الإبل .
(٤) مغازى الواقدى ٣/ ٩ ، ١٠ .

كما قال : (فغير سهمك أردنا) .

وبذلك تبرز القدوة والتربية العظيمة عند الرجلين .

كما ظهر العجز عند السبعة البكائين . حين قابلهم رسول الله ﷺ قائلاً : « لا أجد ما أحملكم عليه ، حتى يبقوا مثلاً فى عين التاريخ لصدق العاطفة ، وصدق الرغبة فى البلاء فى سبيل الله ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع ، ولم يتولوا فرحين بإعفائهم من أعظم مشقة يتعرض لها المسلمون . إن حبهم للنبى ﷺ ، وللجهاد فى سبيل الله هو الذى ملك قلوبهم وأفئدتهم وملك كيانهم . وجاء القرآن الكريم ليقدمهم قدوة للناس فى هذا المجتمع فيشهد لهم بصدقهم وإخلاصهم ، ومن الذى يفوز بهذه الشهادة من رب العالمين إلا القليل القليل ، النادر النادر ، وأحد هؤلاء السبعة هو الذى تصدق بعرضه على الناس فجاءه الوحى : « والذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة المقبلة » .

ولا أدل على ذلك من أن هؤلاء السبعة قد لقوا من يحملهم فى اليوم الثانى ، فقد حملهم يامين النضرى والعباس بن عبد المطلب ، وعثمان بن عفان ، ولو أن الحملان كان منذ اليوم الأول لم يكن فى تاريخنا من يحدثنا رب العزة والجلال عنه بأنه بكى حرقة على الجهاد ، ولوعة على فراق رسول الله ﷺ .

لابد أن تبرز هذه النماذج حتى تكون القدوة فى الوزير الأعظم ، والجندى العادى البسيط ، والأعرابى الموغل فى البادية حين يقدم أجمل ناقة فى المدينة صدقة فى سبيل الله ، ويبرز فى الجندى الذى أمضى ليله ونهاره ليتصدق بنصف ماله من الصاعين اللذين ربحهما نتيجة هذا الجهد .

وتلك قصة الأشعريين رضي الله عنهم كما رواها لنا أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه ، وذلك حين جاءه أبو موسى يطلب الحملان له ولشباب عشيرته ، ويوافى رسول الله ﷺ غاضبًا فيقسم رسول الله ﷺ ألا يحملهم .

إن المعنى الأعمق وراء هذا القسم من رسول الله ﷺ ليس هو الغضب ، بمقدار ما هو التربية لهذا الجيل الرائد أن يتعود على تحمل المسؤولية ، خاصة والأشعريون هم أحباب رسول الله ﷺ وقد أثنى على تحملهم المسؤولية من قبل فقال فيهم :

« إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو، أو قل طعام عيالهم فى المدينة ، جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم » [1] .

فلم يفعلوا هذا اليوم ، ولِمَ لَمْ يتدبروا أمرهم بينهم فيحمل غنيهم فقيرهم ؟ ولا

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٤٥ ح (١٦٧/ ٢٥٠٠) .

يريد رسول الله ﷺ أن يحمل همهم وهم حملانهم ، فالأعراب المتوافدون من أصقاع الجزيرة هم الذين يحمل هم حملائهم ، وليس تجافيًا عنهم ، وبعدها حملهم رسول الله ﷺ ، وعلمهم أن العود أحمد ، وأن التراجع عن اليمين ليمين خير منها هو الأكمل والأفضل ، ولهذا وبعد أن تلقوا درس التربية الأول فى اعتمادهم على ذاتهم حسب المستوى الذى هم فيه عاد فأعطاهم درسًا جديدًا فى العودة إلى الأكمل دائمًا ، ولو كان فى الأقل يمين فيكفّر عن اليمين للأفضل .

مجتمع النفاق

١ ـ قال ابن عقبة رحمه الله تعالى : (وتخلّف المنافقون ، وحدَّثوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لا يرجع إليهم أبدًا) [١] .

٢ ـ (والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يعنى بذلك الديوان ـ يقول : لا يجمعهم ديوان مكتوب ـ قال كعب : فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيُخفى له ذلك ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل) [٢] .

٣ ـ روى ابن المنذر والطبرانى وأبو نعيم فى المعرفة عن ابن عباس ، وابن مردويه عن جابر ، وابن عقبة ، ومحمد بن إسحاق ، ومحمد بن عمر عن شيوخهم ، زاد ابن عقبة :

أن الجد بن قيس أتى رسول الله ﷺ وهو فى المسجد معه نفر . فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فى القعود ، فإنى ذو ضيعة وعلة فيها عذر لى . فقال رسول الله ﷺ : « تجهز فإنك موسر ـ ثم اتفقوا : لعلك تُحقِبُ من بنات بنى الأصفر ؟ » قال الجد :

أو تأذن لى ولا تفتنّى ، فوالله لقد عرف قومى ما أحد أشد عُجبًا من النساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذنّا لك » . زاد محمد بن عمر [٣] : فجاءه ابنه عبد الله بن الجد ـ وكان بدريًا وهو أخو معاذ بن جبل لأمه فقال لأبيه : لم ترد على رسول الله ﷺ مقالته ؟ فوالله ما فى بنى سلمة أكثر منك مالاً أبدا ، ولا تخرج ولا تحمل أحدًا قال : يا بنى، مالى وللخروج فى الريح والحر والعسرة إلى بنى الأصفر ؟ والله ما آمَنُ خوفًا من بنى الأصفر ، وأنا فى منزلى بخربى ، فأذهب إليهم فأغزوهم إنى والله يا بنى عالم بالدوائر! فأغلظ له ابنه فقال : لا والله ، ولكنه النفاق والله لينزلن على رسول الله ﷺ قرآن يقرؤونه . قال فرفع نعله فضرب بها وجهه ، فانصرف ولم يكلمه ، وجعل الخبيث يثبط قومه، وقال لجبار بن صخر ونفرٍ معه من بنى سلمة : يا بنى سلمة ، لا تنفروا فى الحر، يقول : لا تخرجوا فى الحر زهادة فى الجهاد ، وشكًا فى الحق ، وإرجافًا برسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن**

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٣٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣٢ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٣٣ .

يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ [التوبة] .

(وفيه نزلت : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) ﴾ [التوبة] .

أى كأنه إنما يخشى الفتنة من نساء بنى الأصفر ، وليس ذلك به ، إنما تعذر بالباطل، فما سقط فيه من الفتنة أكثر ، بتخلفه عن رسول الله ﷺ ، ورغبته بنفسه عن نفسه . يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) ﴾ يقول : إن جهنم لمن ورائه . فلما نزلت هذه الآية جاء ابنه إلى أبيه فقال : ألم أقل لك إنه سوف ينزل فيك قرآن يقرؤه المسلمون ؟ يقول أبوه : اسكت عنى يا لكع ، والله لا أنفعك بنافعة أبدًا ، والله لأنت أشد علىَّ من محمد . . .) (١) .

٤ ـ قال ابن هشام : (. . . بلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى ، وكان بيته عند جاسوم ، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فبعث إليهم النبى ﷺ طلحة بن عبيد الله فى نفرٍ من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة بن عبيد الله ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه ، فأفلتوا فقال الضحاك فى ذلك :

كادت وبيت الله نار محمد ... يشيط بها الضحاك وابن أبيرق
وظلت وقد كبَّست بيت سويلم ... أنوء على رجلى كسيراً ومرفقى
سلام عليكم لا أعود لمثلها ... أخاف ومن تشمل به النار يُحرَق)(٢)

٥ ـ وجاء أهل مسجد الضرار إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله ، قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة ، ونحب أن تأتينا فتصلى معنا فيه . فقال رسول الله ﷺ : « إنا فى شغل السفر ، وإذا انصرفت سيكون » (٣) .

٦ ـ أخرج البخارى عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك ، واستخلف عليًا فقال : أتخلفنى فى الصبيان والنساء ؟ قال : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه ليس نبى بعدى » (٤) .

قال الحافظ ابن حجر : (. . . فى رواية عطاء بن أبى رباح مرسلاً عند الحاكم فى

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٩٢، ٩٩٣ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥١٧ .
(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٣٢ .
(٤) فتح البارى ٨/ ١١٢ ح (٤٤١٦) .

الإكليل « فقال : يا على ، اخلفنى فى أهلى ، واضرب وخذ وعِظ » ثم دعا نساءه فقال: « اسمعن لعلى وأطعن ») (١) .

أما رواية ابن إسحاق فهى :

وخلَّف رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضي الله عنه على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً له، وتخففًا منه. فلما قال ذلك المنافقون أخذ على بن أبى طالب رضوان الله عليه سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف ، فقال : يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلّفتنى أنك استثقلتنى، وتخففت منى فقال : « كذبوا ، ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى - إلا أنه لا نبى بعدى » . فرجع على إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ على سفره) (٢) .

٧ - (وجاء ناس من المنافقين إلى رسول الله ﷺ ليستأذنوه فى القعود من غير علة فأذن لهم ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً .

وروى ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : استدار برسول الله ﷺ رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس يستأذنون يقولون: يا رسول الله، ائذن لنا فإنا لا نستطيع أن نغزو فى الحر ، فأذن لهم ، وأعرض عنهم .

وجاء المعذرون من الأعراب ، فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم الله . قال ابن إسحاق: (وهم نفر من غِفار قال محمد بن عمرو : كانوا اثنين وثمانين رجلاً . منهم خفاف بن إيماء) (٣) .

٨ - (قالوا : خرج رسول الله ﷺ فى رجب سنة تسع فعسكر ﷺ فى ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفًا . قال ابن إسحاق ومحمد بن عمر ، وابن سعد ، وزاد محمد بن عمر ، ونقله ابن الأمين عن زيد بن ثابت ، وروى الحاكم فى الإكليل عن معاذ بن جبل قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة عن ثلاثين ألفًا . ونقل الحاكم فى الإكليل عن أبى زرعة قال : كانوا بتبوك سبعين ألفًا ، وجمع بين الكلامين بأن من قال : ثلاثين ألفًا ، لم يعد التابع ، ومن قال : سبعين ألفًا عدَّ التابع والمتبوع ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس ، وقيل : بزيادة ألفين .

وروى عبد الرزاق وابن سعد عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ

---

(١) فتح البارى ٨/ ١١٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥١٩، ٥٢٠ .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٣٣.

إلى تبوك يوم الخميس ، وكانت آخر غزوة غزاها، وكان يستحب أن يخرج يوم الخميس، وعسكر عبد الله بن أبى معه على حدة، عسكره أسفل منه نحو ذباب، قال ابن إسحاق، ومحمد بن عمر، وابن سعد : كانوا فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين . قال ابن حزم: وهذا باطل ، لم يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا ما بين السبعين إلى الثمانين فقط ، فأقام ابن أبى ما أقام رسول الله ﷺ ، فلما سار رسول الله ﷺ نحو تبوك ، تخلّف ابن أبىّ راجعًا إلى المدينة فيمن تخلف من المنافقين . وقال : يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين بالحبال ، إرجافًا برسول الله ﷺ وأصحابه) (١) .

* * *

لابد من الإشارة ابتداءً إلى أننا لا نتحدث عن نخبة مختارة من المجتمع ونحن نتناول القاعدة العريضة فى الأمة ، إنما نتناول المجتمع كله ، والمجتمعات الإنسانية عادة تنقسم إلى ثلاث فئات :

١ ـ الفئة الممتازة من الأمة : وفيها أذكياؤها وقادتها ومصلحوها ودعاة الخير فيها ، والذين تتمثل بهم القدوة والأسوة ، وهى فئة قليلة .

٢ ـ الفئة المتخلفة من الأمة : وفيها السيئون ، والعصاة ، وضعاف العقول ، والشريرون ودعاة الرذيلة والشر ، وهى فئة قليلة كذلك ، وعادة يكون الصراع بين الفئة الأولى والثانية على القطاع العريض فى المجتمع حيث تحاول كل فئة أن تسيطر على الفئة الثالثة ، وتقودها باتجاهها .

٣ ـ الفئة الثالثة : وهى التى تمثل القطاع العريض فى المجتمع وغالبًا تكون أكثر من النصف ، فيهم متوسطوا المواهب ، والعاديون من الناس ، والذين تأخذهم نوازع الخير والشر هنا وهناك حسب التأثيرات الأقوى التى تهب عليهم .

أما المجتمع النبوى الإسلامى فيختلف تركيبه عن مجتمعات الأرض بأن الفئة الممتازة فيه تمثل القطاع الواسع العريض ، وتكاد تكون الفئة الثالثة غير موجودة . وذلك لقلة أعدادها ، وقلة تأثيرها ، وهذا لا نجده إلا فى هذا المجتمع المثالى الذى شهدته البشرية حقبة من الزمن ، وبقى بعدها حلمًا ترنو إلى الوصول إليه .

وإذا أردنا أن نطبق هذه المعايير على المسلمين فى غزوة تبوك . فنجد مثلاً أن الذين

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٣٨ .

جاؤوا يعتذرون من الأعراب هم بضعة وثمانون رجلاً . ولم يعذرهم الله ، كما تخلف اثنان ابتداءً وهم من الطبقة الممتازة . لكنهم سرعان ما تداركوا الأمر ولحقوا بالجيش ، والنشاز فى هذه الغزوة هو تخلف الثلاثة الكبار عن المعركة : كعب بن مالك ، وهلال ابن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وحتى نأخذ صورة حية عن هذا المجتمع نأخذ شهادة كعب بن مالك رضي الله عنه عن المجتمع المدنى المتخلف عن الغزوة ، والذى كان فيه كعب بن مالك يقول : (فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه بالنفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله تعالى من الضعفاء) [1] .

لكن الذين يمثلون الفئة الثانية فى المجتمع الإسلامى فئة الشريرين والمفسدين فى الأرض ، فإنما هى فئة المنافقين ، والتى أفرزت هذه الفقرة للحديث عنها قبل المعركة ودورها فى الكيد لهذا الدين وأهله . ولعل أبرز شخصيتين قياديتين فى المدينة من زعماء النفاق هما عبد الله بن أبى والجد بن قيس ، وكلاهما ممن عتا فى الجاهلية ، وفاته المنصب فى الإسلام ، فبقى قلبه منكوسًا مغموصًا عليه بالنفاق ؛ ورأينا رسول الله ﷺ يعرض النفير على الجد بن قيس ، فوراءه مجموعة تدين له بالولاء والزعامة : « تجهز فإنك موسر ، لعلك تُحقب من بنات بنى الأصفر » والرواية الأخرى تبرز محاولة انتزاع فتيل التمرد عنده من رسول الله ﷺ . حين يناديه بكنيته :

« يا أبا وهب ، هل لك العام تخرج معنا لعلك تحتقب من بنات بنى الأصفر » ، وفى رواية ابن إسحاق : « هل لك يا جد فى جلاد بنى الأصفر » .

فهو عرض فيه تكريم له ، وترغيب له وتشجيع فى أن يغتنم من الروم لو مضى مع رسول الله ﷺ ، وهو شديد العجب بالنساء ، ومع كل هذا التعامل ، ومع كل هذا التكريم كان جوابه :

يا رسول الله ، أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجبًا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذنت لك » .

وحسب الجد أن هذه الحيلة قد طليت على رسول الله ﷺ ، لكن الذى كشف زيفه ابنه المؤمن الصادق الإيمان : (فجاء ابنه عبد الله بن الجد بن قيس قائلاً له :

لم ترد على رسول الله ﷺ مقالته ، فوالله ما فى بنى سلمة أكثر مالاً منك . ولا

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٨/ ١١٤ من الحديث (٤٤١٧) .

تخرج ولا تحمل أحدًا . قال : يا بنى ، ما لى للخروج فى الريح والحر والعسرة إلى بنى الأصفر) ، وكشف المخبوء من نفسه بقوله : ما آمن خوفًا من بنى الأصفر ، وإنى فى منزلى بحزبى ، فأذهب إليهم فأغزوهم ، إنى يا بنى عالم بالدوائر ، فهو يقدم نفسه العبقرى الطلقة الذى يدرك عواقب الأمور ، ولا يتسرع تسرع المتحمسين من الشباب ، بل هو السياسى البارع الحكيم فى عدم الانجرار وراء غزو بنى الأصفر ، أما ابنه وهو ربيب المدرسة النبوية ، وأحد تلامذتها النجباء ، لم يجد لهذا تفسيرًا غير قوله :

لا والله ، ولكنه النفاق .

وغضب الأب للفضيحة التى نالته من ابنه ، ففقد عقله وصوابه ، وقام يضرب ابنه بنعله على وجهه ، والولد من عظمة الأدب الإسلامى فى احترام الأبوة لا يرفع يده على أبيه ، ولا يرد عليه ، لكنه يكتفى بنصحه وزجره بقوله : والله لينزلن على رسول الله ﷺ فيك قرآن يقرؤونه .

ولم يكتف الجد بن قيس بدوره وحده فى عدم الخروج ، وبعد فضيحته من رب العالمين ، وكشف عوراته ، لم يكتف بذلك ، بل راح يسعى جاهدًا للتثبيط عن الجهاد فى صفوف من يدينون له بالولاء من المنافقين ، وفى صفوف أنصارهم الجدد من الأعراب ، كما ذكر القرآن الكريم ذلك فى تعرية هذا الحزب فى أعضائه القدامى وأعضائه الجدد .

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾ [التوبة] .

وصار ديدن الاعتذار الجديد بعد اعتذار الجد خوفًا من الفتنة هو الخوف من الحر ، وبنو سلمة من أكبر البطون الأنصارية المؤيدة للإسلام ، وقد حقد الجد بن قيس حين لم يختر نقيبًا عليهم منذ بيعة العقبة ، وقد سبق أن غير رسول الله ﷺ زعامته لشاب مقبل على الإسلام ومن خلال حوار مباشر مع بنى سلمة .

فعن ابن شهاب الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب الأنصارى أن النبى ﷺ قال : « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا : جَدّ بن قيس . قال : « بم تسودونه » فقالوا: إنه أكثرنا مالاً ، وإنا على ذلك لنزنه بالبخل . قال : « وأى داء أدوء من البخل؟ ليس هذا سيدكم » قالوا : فمن سيدنا يا رسول الله ؟ قال : « بشر بن البراء بن معرور » تابعه ابن إسحاق عن الزهرى ، وقال فى روايته : « بل سيدكم الأبيض الجعد بشر بن البراء »)(١) .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١/ ١/ ١٥٥ ت (٦٥١) .

وبشر بن البراء رضي الله عنهما هو ولد البراء بن معرور نقيب بنى سلمة يوم بيعة العقبة ، لكنه توفى إثر وصوله إلى المدينة . فنقّب رسول الله ﷺ ولده بشر الذى اختلط الإسلام بلحمه ودمه ، وبقيت آثار فقدان الزعامة تعمل عملها عند الجد بن قيس كما فعلت فعلها مع عبد الله بن أبى . ونجح الجد فى تثبيط بضعة وثمانين رجلاً عن الالتحاق بالجيش الإسلامى ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

[التوبة : ٩٠]

وكانت المهمة الخفية موزعة بين الزعيمين ، عبد الله بن أبى ، والجد بن قيس . فالجد يثبّط . وعبد الله بن أبى يتظاهر بالاستعداد للخروج ، ويلتقى سرًا مع أنصاره يبيت مؤامرة فى اللحظة المناسبة ، ويود أن يثبت له موقعًا على ساحة المدينة ، ومن أجل ذلك عندما ابتدأ تجمع الجيش الإسلامى وكان عبد الله بن أبى يجعل له تجمعًا خاصًا ومعسكرًا خاصًا منفصلاً عن مواقع الجيش الإسلامى ؛ على أساس أنه رديف للجيش ، وماضٍ معه إلى المعركة ، وبعد فضيحة عبد الله بن أبى لم يبق معه إلا الذين لا يخشون الله تعالى ولا يؤمنون به ، واستفاد ابن أبى من حركة الأعراب الجديدة والذين دخلوا فى الإسلام ، وبدأ يؤوى إليه أصحاب المصالح ، والحاقدين على زعمائهم ، والذين كان يغريهم بالمال والمنصب والموقع ، وبدا معه عدد لا بأس به من المؤيدين جعلت كتاب السير يبالغون فيه حتى قالوا : وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين ، غير أن ابن حزم رحمه الله أبطل هذا القول وفنده حين عاد إلى الجمع بين الروايات فقال : وهذا باطل لم يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا ما بين السبعين إلى الثمانين .

ومع فضيحة ابن أبى يوم أحد ، وما أنزل الله تعالى فيه من وحى ، وكذلك يوم بنى المصطلق ، مع ذلك كله ، لم يلن قلبه للإسلام ، ولم يفتح له ، وبقى محافظًا على التظاهر فى الإسلام والكيد له فى الباطن، والقرآن الكريم يتولى فضح هذا الباطن، وأعاد مؤامرة أحد ، لكن شتان بين الموقفين ، ففى أحد انفصل بثلث الجيش ، حين كان عدد المسلمين ألفًا . أما اليوم فبم ينفصل والمسلمون ثلاثون ألفًا غير الأتباع ، لكن الحقد الذى أكل قلبه ، لم يطاوعه أن يمضى مع الجيش ، ورضى بأن يتخلف عن المعركة على أمل أن يُقتل المسلمون فى خروجهم هذا ، ويفر من يفر منهم عائدًا إلى المدينة ، وتعود زعامته إليها ، وكان على ثقة من ذلك حيث أعلن الموقف والرأى فى اللحظة المناسبة ، لحظة تحرك الجيش الإسلامى قال :

(يغزو محمد بنى الأصفر جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى

الجبال. إرجافًا برسول الله ﷺ وأصحابه ، وانضم هؤلاء المخلفون أتباعه إلى القاعدين الذين اعتذروا ابتداءً أتباع الجد بن قيس ، وشكلوا جيبًا وجبهة معادية فى المدينة يخشى خطرها فى غياب رسول الله ﷺ على المدينة وعلى نسائها ، ومن أجل ذلك اختار رسول الله ﷺ رجلين من أعظم رجاله ليبقيا فى حراسة المدينة ، خاصة وقد يطول الغياب فى هذا الخروج الشاق .

اختار رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة أميرًا على المدينة فى غيابه ، وهذه هى الغزوة الوحيدة التى تخلف محمد فيها عن رسول الله ﷺ ، وهو قائد أوسى أشهلى ، وهو ممن نفَّذ قتل كعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق ، أما البطل الثانى فهو على بن أبى طالب ، وناهيك عنه بطلاً مغواراً أشهر من علم فى رأسه نار ، وكان بقاء على فى المدينة كبقاء الهم على قلوب المنافقين .

وقد خلف رسول الله ﷺ عليًا على أهله ، وأمر نساءه أن يسمعن له ويطعن ، وحاول المنافقون جاهدين فى إخراج على من المدينة بحجة الإشاعات التى أطلقوها عليه بأن رسول الله ﷺ استثقله فتركه ، ومضى على ﷺ ، والهم يملأ كيانه من هول هذه الشائعات ، مضى يسأل رسوله الحبيب ، وينقل له ما يتحدث به الواشون والمنافقون ، وعلى رضوان الله عليه يدرك إفك هذه الافتراءات ، ولكنه يود أن يسمع تكذيبها من حبيبه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت ... أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طيب عرف العود

وقد قلب الله تعالى كيد المنافقين عليهم ، وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، وكان لهم بالرغم عنهم ، وأنفهم فى الرغام أن تحدّث رسول الله ﷺ عن منقبة لعلى ما كان يعرفها أحد ، كشفت بكيد هؤلاء المنافقين فقال له :

« كذبوا ، لكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك » وما سمعه على يرضيه وزيادة بعد تكذيب المنافقين من المصطفى ﷺ ، وبعد الثقة به أن يكون خليفته على أهل رسول الله ﷺ ، لكن المنقبة العظيمة التى طارت صيتًا فى قلب التاريخ لترضى عليًا أبد الدهر ، والتى لم يفز بمكرمة تعدلها ، ووسام ينافسها . ألا وهى :

« أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » .

لقد كان هارون فى قلب موسى يوم كلمه ربه فقال: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ

كَثِيراً ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴿٣٥﴾ ﴾ [طه] .

فهارون أعظم شيء فى حياة موسى ، ووزيره فى أهله ، وشريكه فى أمره يشد به أزره . فما أعظم أن يكون على ﷺ من رسول الله ﷺ بمنزلة هارون من موسى ، والفرق الوحيد فقط هو فرق النبوة ؛ لأنه لا نبوة بعد رسول الله ﷺ .

وأخزى الله تعالى المنافقين ، وبقى على ﷺ جاثمًا على صدورهم ، وراحوا يأكلون قلوبهم من الغيظ فسوف تفسد كل مخططاتهم بوجوده .

بقى علينا أن نشير إلى تخطيط المنافقين المحكم ، وبإجراء اللقاءات السرية لتنفيذ خططهم الخبيثة وكان ذلك فى محاولتين :

المحاولة الأولى : محاولة إيجاد موقع رسمى معترف به يجتمعون به دون أن يثير الشكوك ، وتفتقت العبقرية الشيطانية عندهم فى بناء مسجد للعبادة يلتقون فيه ظاهرًا ، ويحيكون المؤامرات والدسائس فيه باطنًا ، وأرادوا استغلال ظروف القائد الأعظم ﷺ ليبارك لهم هذا العمل .

(وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا ، فتصلى لنا فيه ، فقال : « إنى على جناح سفر وحال شغل ـ أو كما قال ﷺ ـ ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا فيه » ، وما كان يخطر بذهن المصطفى ﷺ أن يحول دون بناء مسجد ، حتى جاء القرآن الكريم ليفضح نوايا أربابه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [التوبة] .

ودخل فى مفهوم التربية الجديد مدى وعى الأمة لمخططات أعدائها ، حين تُتمسك بمظاهر من هذا الدين . لتضرب به الدين كله ، وخاصة حين يكون هؤلاء الأعداء داخل الصف الإسلامى ، وعلى القيادة المسلمة أن تدرس بعمق وتحلل ، كل العوامل والشبهات التى تحيط بهؤلاء الناس، فاتخاذ المسجد قد يكون كفرًا، وتحويل دار العبادة إلى دار تآمر على المسلمين ، وموقع لرسم المخططات لحرب هذا الدين باسم ـ هذا الدين ـ الإسلام .

المحاولة الثانية : وهذه المحاولة عندما كانت مكشوفة ، ووصلت إلى حد الاجتماع فى دار اليهودى سويلم أحد أعداء هذه الأمة ، فهى مؤامرة خيانية ، وتحد سافر لدولة الإسلام وقوانينه ، وكان الجزاء من جنس العمل هو تحريق هذا البيت بمن فيه ؛ لأنهم لا

يخفون هدفهم وهو تفشيل هذه الحملة العسكرية وتثبيط الناس عن الجهاد ، وإذا وصلت الجرأة والوقاحة لهذا الحد من التحدى ، فلابد أن تقابل بما يناسبها من عقوبة زاجرة تجتث هذا التحدى من الجذور ، فبعث إليهم النبى ﷺ طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرّق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت ، فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا .

ولعل الضحاك صحا ضميره ، وعرف حدود خيانته ، فقال الأبيات التى يعلن فيها توبته عن المشاركة مع الخائنين .

سلام عليكم لا أعود لمثلها أخاف ومن تشمل به النار يحرق

وبذلك وئدت الكثير من المؤامرات التى ظهرت على الساحة ، وبقى الكثير منها مختفيًا من خلال الذين أوكل إليهم مرافقة الجيش ؛ لتحقيق المخطط الأكبر فى اغتيال رسول الله ﷺ ، وتحقيق انقلاب عسكرى يعود فيه ابن أُبىٍّ إلى سدة الحكم .

تحرك الجيش ... وتربية على الطريق

١ ـ (. . . فقال رسول الله ﷺ : « لا يخرج معنا إلا مقوٍ » فخرج رجل على بكر صعب فصرعه ، فقال الناس : الشهيد ، الشهيد . فبعث رسول الله ﷺ منادٍ ينادى : «لا يدخل الجنة إلا مؤمن ـ أو إلا نفس مؤمنة ـ ولا يدخل الجنة عاصٍ » . وكان الرجل طرحه بعيره بالسويداء) (١) .

٢ ـ وقال رسول الله ﷺ : « استكثروا من النعال فإن الرجل لا يزال راكبًا ما دام متنعلاً » ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أبى فيمن تخلف من المنافقين . . . فلما رحل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع إلى تبوك وعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر الصديق ﷺ ، ورايته العظمى إلى الزبير ، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى أبى دجانة ، ويقال إلى الحباب بن المنذر) (٢) .

٣ ـ (وقالوا : وإذا عبد لامرأة من بنى ضمرة لقيه على رأس ثنية النور ، والعبد متسلح . قال العبد : أقاتل معك يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ : « وما أنت ؟ » قال : مملوك لامرأة من بنى ضمرة سيئة الملكة . قال رسول الله ﷺ : « ارجع إلى سيدتك ، لا تقتل معى فتدخل النار ») (٣) .

٤ ـ قال : حدثنى رفاعة بن ثعلبة بن أبى مالك عن أبيه عن جده قال : جلست مع زيد بن ثابت فذكرنا غزوة تبوك ، فذكر أنه حمل لواء مالك بن النجار فى تبوك ، فقلت: يا أبا سعيد ، كم ترى كان المسلمون ؟ قال : ثلاثون ألفًا ، لقد كان الناس يرحلون عند ميل الشمس ، فما يزالون يرحلون والساقة مقيمون حتى يرحل العسكر ، فسألت بعض من كان بالساقة . فقال : ما يرحل آخرهم إلا مساءً . ثم نرحل على أثرهم فما ننتهى إلى العسكر إلا مصبحين من كثرة الناس) (٤) .

٥ ـ (وتخلف نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ حتى تخلفوا من غير شك ولا ارتياب ، منهم : كعب بن مالك ، وكان كعب يقول : كان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ عن تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٩٥ ، والمقوى : هو صاحب الدابة القوية .

(٢ ـ ٤) المصدر السابق ٣/٩٩٦، ٩٩٧ .

الغزوة ، فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أعدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول فى نفسى: أنا قادر على ذلك، فلم أزل يتمادى بى حتى شمَّر الناس بالجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غازيًا والمسلمون ، وذلك يوم الخميس، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يخرج فيه ، ولم أقض من جهازى شيئًا ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعدما فصلوا أتجهز ، فرجعت ولم أفعل شيئًا، ثم غدوت فلم أفعل شيئًا، فلم أزل يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، وقلت أرتحل فأدركهم ، ويا ليتنى فعلت ، ولم أفعل . وجعلت إذا خرجت فى الناس فطفت فيهم يحزننى ألا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه بالنفاق، أو رجلاً ممن عذر الله . . .) (١) .

٦ ـ قال هلال بن أمية الواقفى حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى تبوك :

والله ما تخلفت شكًا ولا ارتيابًا ، ولكن كنت مقويًا فى المال قلت : أشترى بعيراً ، ولقينى مرارة بن الربيع فقال : أنا رجل مقوٍ ، فأبتاع بعيرًا وأنطلق به . فقلت : هذا صاحب أرافقه. فجعلنا نقول : نغدو فنشترى بعيرين فنلحق بالنبى ﷺ ولا يفوت ذلك، نحن قوم مخفون على صدر راحلتين فغداً نسير ، فلم نزل ندفع ذلك ، ونؤخر الأيام حتى شارف رسول الله ﷺ البلاد ، فقلت : ما هذا بحين خروج ، فأرجع مغتمًا بما أنا فيه ، وجعلت لا أرى فى الدار ولا فى غيرها إلا معذوراً أو منافقًا معلنًا ، فأرجع مغتمًا بما أنا فيه) (٢) .

٧ ـ روى ابن إسحاق عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل يتخلف عنه الرجل فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان فيقول :

« دعوه ، فإن يك به خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . حتى قيل : يا رسول الله ، تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال رسول الله ﷺ : « فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه » . وتلوَّم أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده . فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا ذر » ، فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » (٣) .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٩٧ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٩٩٨.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٢٤ .

٨ ـ قال ابن إسحاق : ثم رجع على إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره ، ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه ، قد رشّت كل واحدة منهما عريشها ، وبرّدت له فيه ماءً وهيأت له فيه طعامًا ، فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ فى الضّح (١) والريح والحر، وأبو خيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف ، ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيئا لى زادًا ، ففعلتا ، ثم قدّم ناضحه فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك . قال أبو خيثمة لعمير بن وهب إنى لى ذنبًا ، فلا عليك أن تخلف عنى حتى آتى رسول الله ﷺ ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك . قال الناس : هذا راكب على الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا خيثمة » فقالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة . فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله : « أولى لك يا أبا خيثمة » . ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله خيراً ، ودعا له بخير .

قال ابن هشام ، وقال أبو خيثمة فى ذلك شعراً ، واسمه مالك بن قيس :

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا ... أتيت التى كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدى لمحمدٍ ... فلم أكتسب إثمًا ولم أغش مُحرما
تركت خضيبًا فى العريش وصرمة ... صفايا كرامًا بسرها قد تحمما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدين نفسى شطره حيث يمما)(٢)

٩ ـ (ومضى رسول الله ﷺ من المدينة فصبح ذا خُشُب ، فنزل تحت الدومة ، وكان دليله إلى تبوك علقمة بن الفغواء الخزاعى ، فقام رسول الله ﷺ تحت الدومة ، فراح منها ممسيًا حيث أبرد ، وكان فى حر شديد ، وكان يجمع من يوم نزل ذا خُشُب بين الظهر والعصر فى منزله ، يؤخر الظهر حتى يبرد ، ويعجل العصر ، ثم يجمع بينهما ، فكل ذلك فعله حتى رجع من تبوك، وكانت مساجده فى سفره إلى تبوك معروفة ، صلى تحت دومة بذى خُشُب ، ومسجد الفيفاء ، ومسجد بالمروة ، ومسجد بالسقيا ، ومسجد بوادى القرى ، ومسجد بالحجر ، ومسجد بذنب حوصاء ، ومسجد بذى الجيفة ، من حوصاء ومسجد بشق تاراء ، مما يلى جوبر ، ومسجد بذات الخِطمى ، ومسجد بسمنة،

---

(١) الضّح : الشمس .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٢٠، ٥٢١ .

ومسجد بالأخضر ، ومسجد بذات الذرّاب ، ومسجد بالمدران ، ومسجد بتبوك) (١) .

١٠ ـ وكان أبو رهم الغفارى وهو كلثوم بن الحصين ، وقد بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة فقال : غزوت مع رسول الله ﷺ تبوكًا . قال : فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر ، وأنا قريب من رسول الله ﷺ، وألقى علىّ النعاس ، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتى من راحلة رسول الله ﷺ ، فيفزعنى دنوها منه خشية أن أصيب رجله فى الغرز، فطفقت أحوز راحلتى حتى غلبتنى عيناى فى بعض الطريق ونحن فى بعض الليل ، فزاحمت راحلتى راحلته ورجله فى الغرز فما استيقظت إلا بقوله : « حَسّ » : فقلت : يا رسول الله ، استغفر لى ، فقال رسول الله ﷺ : « سر » . فجعل رسول الله يسألنى عمن تخلَّف من غِفار فأخبره بهم . وهو يسألنى : « ما فعل النفر الحمر الطوال النطانط (٢) ؟ » فحدثته بتخلفهم . قال : « فما فعل النفر السود القصار الجعاد الحَلس (٣) ؟ » فقلت : والله يا رسول الله ، ما أعرف هؤلاء . قال : « بلَى ، الذين هم بشبكة شدخ » . قال : فتذكرتهم فى بنى غفار فلا أذكرهم .

ثم ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا فينا ، وكانوا يحلون بشبكة شدخ ، لهم نَعَم كثير . فقلت : يا رسول الله ، أولئك رهط من أسلم حلفاء لنا. فقال رسول الله ﷺ: « ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعيرٍ من إبله رجلاً نشيطًا فى سبيل الله ممن يخرج معنا، فيكون له مثل أجر الخارج، إن كان لَمن أعز أهلى علىّ أن يتخلف عنى: المهاجرون من قريش والأنصار ، وغِفار وأسلم » (٤) .

١١ ـ وقالوا : بينا رسول الله ﷺ فى مسيره مرَّ على بعير من العسكر قد تركه صاحبه من العجف والضعف، فمرَّ به مارٌ فأقام عليه وعلفه أيامًا . ثم حوَّله إلى منزله ، فصلح البعير فسافر عليه ، فرآه صاحبه الأول ، فاختصما عليه إلى النبى ﷺ فقال :

« من أحيا خفًا أو كراعًا بمهلكة من الأرض فهو له » (٥) .

١٢ ـ وكانوا مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفًا ، ومن الخيل عشرة آلاف ، وأمر رسول الله ﷺ كل بطن من بطون الأنصار أن يتخذوا لواءً وراية ، والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية ، وكان رسول الله ﷺ قد دفع راية مالك بن النجار إلى عمارة بن حزم. فأدرك رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ، فأعطاه الراية ، قال عمارة : يا رسول الله، لقد وجدت على . قال : « لا ، ولكن قدّموا القرآن ، وكان أكثر أخذًا للقرآن منك ،

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ٩٩٩ .
(٢) النطانط : جمع نطناط وهو الطويل المديد القامة .
(٣) الحلس : جمع أحلس وهو الذى لونه بين السواد والحمرة .
(٤) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٠٣، ١٠٠٤ .
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٠٠٤ .

والقرآن يقدم ، وإن كان عبدًا أسود مجدعًا » ، وأمر فى الأوس والخزرج أن يحمل راياتهم أكثرهم أخذًا للقرآن ، وكان أبو زيد يحمل راية عمرو بن عوف ، وكان معاذ بن جبل يحمل راية بنى سلمة ، وصلى رسول الله ﷺ يومًا بأصحابه فى سفره ، وعلية جبة صوف ، وقد أخذ بعنان فرسه ـ أو قال مقود فرسه ـ وهو يصلى . فبال الفرس فأصاب الجبة ، فلم يغسله فقال : « لا بأس بأبوالها ولعابها وعرقها » (١) .

١٣ ـ روى الطبرانى عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بالخليجة فى سفره إلى تبوك قال له أصحابه : المبرك يا رسول الله ، الظل والماء ـ وكان فيها دوم وماء ـ فقال : « إنها أرض زرع نفر ، دعوها فإنها مأمورة » فأقبلت حتى بركت تحت الدومة التى كانت فى مسجد ذى المروة . . . قال أبو حميد الساعدى : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام تبوك حتى أتينا وادى القرى ، فإذا امرأة فى حديقة لها فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « اخرصوا » فخرص القوم ، وخرص رسول الله ﷺ عشرة أوسق وقال رسول الله ﷺ للمرأة : « احفظى ما يخرج منها حتى أرجع إليك إن شاء الله تعالى » ، ولما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك إلى وادى ذى القرى قال للمرأة : « كم جاءت حديقتك ؟ » قالت : عشرة أوسق ، خَرْص رسول الله ﷺ . رواه ابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ومسلم (٢) .

١٤ ـ قال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر : (وكان رهط من المنافقين يسيرون مع النبى ﷺ فى تبوك منهم وديعة بن ثابت أحد بنى عمرو بن عوف، والجلاس بن سويد ابن الصامت، ومخشن بن حميّر من أشجع حليف لبنى سلمة،وثعلبة بن حاطب فقال: تحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين فى الحبال ، إرجافًا برسول الله ﷺ ، وترهيبًا للمؤمنين ؟ فقال وديعة بن ثابت : مالى أرى قراءنا أوعبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء، وقال الجلاس بن سويد ـ وكان زوج أم عمير، وكان عمير يتيمًا فى حجره : هؤلاء سادتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ـ والله لئن كان محمد صادقًا لنحن شر من الحمير. فقال مخشن بن حمير: والله، لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأنا ننفلت من أن ينزل فينا القرآن بمقالتكم، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا. فإن أنكروا فقل : بلى قد قلتم كذا وكذا » . فذهب إليهم عمار فقال لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه . فقال : وديعة بن ثابت ، ورسول الله ﷺ على ناقته ، وقد أخذ بحقب ناقة النبى ﷺ ورجلاه تنسفان الحجارة وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا

---

(١) المغازى للواقدى ٣/١٠٠٢، ١٠٠٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٤٣، ٦٤٤ وهى عند مسلم ٤/١٧٨٥ ح (١١/١٣٩٢) .

نخوض ونلعب ، ولم يلتفت إليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ** ﴾ [التوبة : ٦٥] ، وقال مخشن بن حمير : يا رسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى ، وكأن الذى عفى فى هذه الآية مخشن بن حميّر . فتسمى عبد الرحمن وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم مكانه ، فقتل شهيداً يوم اليمامة فلم يوجد له أثر .

ويقال فى الجلاس بن سويد : أنه كان ممن تخلف من المنافقين فى غزوة تبوك ، فكان يثبط الناس عن الخروج وكانت أم عمير تحته ، وكان عمير يتيمًا فى حجره ولا مال له . فكان يكفله ويحسن إليه ، فسمعه وهو يقول : والله لئن كان محمد صادقًا لنحن شر من الحمير ، فقال له عمير :

يا جلاس قد كنت أحب الناس إلى ، وأحسنهم عندى أثرًا ، وأعزهم على أن يدخل عليه شىء تكرهه. والله، لقد قلت مقالة لئن ذكرتُها لأفضحنك ، ولئن كتمتها لأهلكن، وإحداهما أهون من الأخرى ، فذكر للنبى ﷺ مقالة الجُلاس ، وكان رسول الله ﷺ قد أعطى الجُلاس مالاً من الصدقة لحاجته وكان فقيرًا ، فبعث النبى ﷺ إلى الجلاس فسأله عما قال عمير ، فحلف بالله ما تكلم به قط ، وأن عميرًا هو الكاذب ، وهو حاضر عند النبى ﷺ فقام وهو يقول : اللهم أنزل على رسولك بيان ما تكلمت به ، فأنزل الله على نبيه : ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [التوبة : ٧٤] ، للصدقة التى أعطاها النبى ﷺ ، فقال الجُلاس : أسمع الله قد عرض على التوبة ، والله لقد قلتُ ما قال عمير : ولما اعترف بذنبه وحسنت توبته ، ولم يمتنع عن خير كان يصنعه إلى عمير بن سعيد ، فكان ذلك مما عرفت به توبته) (١) .



صدرت تعليمات نبوية عامة للجيش بعد كل التجهيزات التى تم تسليمها لكل جندى. وأهم هذه التعليمات والتعميمات :

١ ـ « ألا يخرج معنا إلا مقو » : (أى ذو دابة قوية) .

٢ ـ « استكثروا من النعال ، فلا يزال الرجل راكبًا مادام منتعلاً » .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٢٤، ٥٢٥ ، والمغازى للواقدى ٣/ ١٠٠٣ ـ ١٠٠٥ .

وعلى دقة هذين التعميمين . فلهما أثر كبير على مسير الجيش كله ؛ ذلك لأن الجيش له خطة يسير فيها من مرحلة إلى مرحلة ، ولا يود أن ينشغل بالمتخلفين عن المسير، والذين تقطع نعالهم ، أو تنهك دوابهم ، فسوف يمضى ويتركهم ؛ لأن هذه الأعداد الضخمة تحتاج إلى تنظيم واسع وتعبئة كاملة للتحرك نحو تبوك .

وكان التعميم الثالث : هو مطالبة كل قبيلة بأن تتخذ راية أو لواء لها يتجمع أبناء القبيلة حوله .

وبهذا التنظيم الدقيق وتوزيع المسؤوليات أمكن أن تعرف التحركات للجيش كله ، ويكفينا وصف طبيعة هذا التحرك الذى قدمه لنا زيد بن ثابت رضي الله عنه ، أحد أئمة القرآن فى الأمة ، والذى أوكل إليه فيما بعد من بين الأمة جميعًا مهمة جمع القرآن من الصحاف والعسب وصدور الرجال ، ها هو يصف تحرك هذا الجيش بقوله :

(لقد كان الناس يرحلون عند ميل الشمس ، فما يزالون يرحلون والساقة مقيمون ، حتى يرحل العسكر فسألت من كان بالساقة ، فقال : ما يرحل آخرهم إلا مساءً ، ثم نرحل على أثرهم فما تنتهى إلا مصبحين مع كثرة الناس) .

وأمام هذه التعميمات الثلاثة ، ما هو الخلل الذى وقع فى الجيش ؟

كان هناك ثلاث مخالفات :

المخالفة الأولى : أن رجلاً ركب على دابة بكر صعب . أى على جمل صغير لم يدرب بعد على الركوب عليه ، فكلما أراد صاحبه الركوب عليه كان ينفر منه ، حتى رماه وصرعه ، فصاح الناس الشهيد الشهيد ، فهو مع رسول الله ﷺ ، وقد خرج عن رغبة صادقة فى سبيل الله . وقد صرعته دابته . فلا عجب أن يتبارى الناس بإعطائه هذا اللقب ، كما نرى اليوم فى توزيع هذا اللقب حتى رخص وبهت ، وكانت التربية النبوية فى هذا المجال ، تربية للبشرية كافة . فى أن المعصية لا تثبت شهادة ، ولا تنبت قربى ، ولا تنبت جنة . إنما تورث المعصية حسرة وندامة ونارًا .

(فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادى :

« لا يدخل الجنة إلا مؤمن - أو نفس مؤمنة - ولا يدخل الجنة عاصٍ » .

وذلك لأنه خالف التعليمات الصادرة عن النبى ﷺ وخرج عليها ، بركوبه على هذا البكر الصعب ، فلابد أن يتحمل مسؤولية معصيته ، ويا لهول هذه النتيجة ، التى يجب أن يعيها الدعاة العاملون للإسلام بأن الخروج على أمر الأمير ، ولو كان بالنية الصادقة ، والحماس للجهاد ، والرغبة فى الخير لا يعفيهم من هذا المصير الرهيب .

أما المخالفة الثانية فكانت مخالفة أبى ذر ﷺ وذلك عندما أبطأ به بعيره الأعجف الهزيل ، وتابع الجيش مسيرته ، وتابع أبو ذر ﷺ محاولته فى تهيئة هذا البعير ، لكن دونما فائدة . ومضى الجيش بعيدًا ، وتناهت الأنباء إلى رسول الله ﷺ أن قد تخلف أبو ذر ، وأبو ذر ﷺ هو من الرعيل الأول لهذه الأمة ، ومن الذين تلقوا المحنة والصبر والتعذيب فى سبيل الله ، بل يمكن القول أنه هو أول من أعلن كلمة التوحيد فى الأرض فى بيت الله الحرام ، وعلى الملأ من قريش ، وأمضى حياته جنديًا صابرًا فى سبيل الله، لكن لا مراعاة لظروف أحد ، ولن يتوقف مسار الجيش لأحد مهما علا شأنه ، ولذلك عندما قيل للرسول ﷺ :

تخلف أبو ذر ، أبطأ به بعيره ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« فإن يكن به خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك ، فقد أراحكم الله تعالى منه » .

لم يتوقع المسلمون أن تقال هذه الكلمة فى حق أبى ذر ﷺ ، لكن جدية الأمر لم تعف أحدًا مهما كان كبيرًا من هذا الحكم ، فإن كان به خير ، فلابد أن يلتحق بالركب ويتجاوز ظروفه ، وإن لم يكن كذلك ، فعدم خروجه خير للمسلمين من مرافقته لهم .

لكن أبا ذر ﷺ الذى يمثل الهمة القعساء فى الإسلام نسيج وحده ، لا يمكن أن يلحق به أحد ، وخانه بعيره ، فلا يستجيب له ، والجيش مضى بعيدًا بعيدًا عنه ، فماذا يفعل إنه بعظمة إيمانه ونفاسة معدنه ، وقدره وصبره وتجلده على حياة الصحراء ، فهو ابنها الذى قتلها ، وما قتلته يحمل حمل بعيره ، فيضعه فى عنقه ، ويدع بعيره الأعجف الهزيل ، ويمضى ممعنًا وحده فى الصحراء ، يلحق ركب الإيمان ، فهو الخير كله ، ولابد أن يلحق بحبيبه المصطفى ﷺ حتى لا تفوته غزوة مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

من على الأفق بعيدًا ؟ شبحٌ غارق فى الآل يطوى البيد طيا
ورمى الأصحاب أبصارهمُ هو ذا شطرهمُ يهوى هويا
مجهد الخطوة معصور القُوى كاد يشويه لهيب الرمل شيا
من تراه ؟ يتخطى وحده رهبة الصحراء والدرب العصيا
غُصّ بالدمع أبو ذرٍ وقد ضمه الحشد إليه سمهريا
أدركوا الظامئ تطفئ ناره يا أبا ذرٍ عرفناك وفيا
بأبى أنت وأمى نقعت غُلتى ، حسبى رسول الله ريا

عاقنى عنكم بعـــير أعجـف عِفتهُ خلــفى لأحد وقدميا)[1]

إنه يمشى فى هذه الصحراء تحت حر الهاجرة ، ووهج الشمس المحرقة فى أيام الصيف وحدتها عندما تقذف باللهب من الأرض ، لكن لهيب الإيمان فى قلبه كان أكبر وأعظم بكثير من لهيب الصحراء ، فقد أحرقت النار النار ، لقد كان فى الجاهلية يطرق الصحراء وحده ، ويهاجم الركب فيستلب منه كل ما عنده كأنه السبع ، فهل تخونه همته فى الإسلام أن يمضى فى هذه المجاهيل ملتحفًا بركب محمد ﷺ ، وعليه أن يسارع الخطا ليستدرك ما فاته من التأخير ، وأطلت عليه من بعيد ملامح الجيش العظيم الذى نزل فى موقع من المواقع يستريح على الطريق ، كما برزت ملامحه من بعيد .

(فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده) .

ويرى رسول الله ﷺ خيالاً قادمًا من بعيد، ويبحث عمن يفطر قلبه بعده عنه ، فهو يعرف مستوى الكبار الكبار عنده ، ولا ينقص هؤلاء العظام إلا أبا ذر الغفارى رضي الله عنه ، ومن أجل هذا قال : « كن أبا ذر » ، فهو حبة العقد الناقصة لهذا العقد ، فهل يعقل أن يكون أحد الخمسة الأوائل فى هذا الدين خارج الثلاثين ألفًا الذين جاؤوا من أقاصى الأرض العربية .

(فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر) .

وكشف الرسول ﷺ عن هوية أبى ذر الذى يمثل كلمة الحق فى الأمة يصدع بها حتى لا تبقى الكلمة له صديقًا ، فيقول عنه :

« رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

ولا عجب فهو فى الزهد المسيح ابن مريم فى هذه الأمة :

« أبو ذر فى أمتى على زهد المسيح ابن مريم » .

وهو فى الصدق ، لا يبلغ شأوه أحد فى هذه الأمة ولا فى غيرها :

« ما أقلت الغبراء ، ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر » .

* * *

ويأتى أخ آخر لأبى ذر من السابقين الأولين من الأنصار هو : أبو خيثمة ، الذى تلكأ وتأخر ابتداء بالالتحاق مع الجيش ، وانفصل الجيش الإسلامى من المدينة ، وهو

(1) من ديوان : فتى غِفار ، للشاعر سليمان العيسى .

لا يزال فيها على أمل اللحاق بالركب ، (ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ إلى بيته فى يوم حار فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائط له ، قد رشَّت كل واحدة منهما عريشها ، وبرَّدت له فيها ماءً ، وهيأت له طعامًا) .

وها هو شيطانه بكل ما يملك من قوة وإغراء يدفعه دفعًا ليمضى إلى الماء البارد على الظمأ ، والظل الهنى فى الحر المهلك ، لكن لَمَّة الملك جاءته فوخزته وخزًا عنيفًا أيقظته من سباته ، أين هو ؟ وأين رسول الله ﷺ ، قائلاً له من أعماق أعماقه :

رسول الله ﷺ فى الضح والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف .

واستجاب للنداء المَلَكِى من أعماقه مباشرة بلا تردد ، يستحيل أن يكون هذا الأمر ، ورسول الله ﷺ والمسلمون جميعًا معه ، وهو وحده من بين الناس جميعًا فى النعيم والظل والراحة والماء البارد ، وكانت الاستجابة : (والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيئا لى زادًا ، ففعلتا ، ثم قدَّم ناضحه فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ) ، لكن أنى له أن يلحق به ، وبينه وبين المسلمين آماد وآفاق، ومسافات لا تحصى ، فيمضى لا يلوى على تعب ، ولا يلوى على حر ، ولا يلوى على عطش ، ولا يلوى على شىء أبدًا فى هذا الوجود إلا مرضاة الحبيب ، لقد ارتقى فى سلم الإيمان الذى فيه بضع وسبعون درجة ، ارتقى إلى القمة العليا فيه إلى قمة لا إله إلا الله التى جعلته يقطع وحده ستمائة كيلو متر دون أن تلين له قناة ، أو تنثنى له عزيمة ، أو يفتح للشيطان ثقب إبرة يدخل منها ، مضى حتى وصل إلى تبوك ، وقبل وصوله التقى بعمير بن وهب الجمحى رضي الله عنه ، والذى كان فى مهمة فى الساقة ، ولم يأت ليمنّ على الله ورسوله بهذا العمل العملاق، يقطع الصحراء كلها وحده ملتحقًا بركب الإيمان، إنما رأى عميرًا ، ولا تزال عقدة الذنب تملك قلبه ، وهو على مشارف تبوك ، فقال لعمير ابن وهب : إن لى ذنبًا فلا عليك أن تُخلّف عنى حتى آتى رسول الله ﷺ .

لقد كانت غزوة تبوك أعسر امتحان يخوضه المسلمون السابقون الأولون منهم واللاحقون بهم فى جوها ، وفى بعدها ، وفى حرها ، وفى عسرتها ، وفى كل شىء فيها ، وعادة يكون الامتحان الأخير دائمًا ذروة الامتحانات ، لتؤهل المؤمن بهذه الدورة أن يغدو القمة والقدوة لمن بعده ، حتى أولئك الذين انضموا حديثًا لدين الله عز وجل ، كان لهم شرف دخول هذا الامتحان بجوار السابقين السابقين ، ولئن نجحوا فى هذا الامتحان فسيعاملون معاملة الرواد الأوائل، والقادة العظام ، والتحق أبو خيثمة بالركب، وقد مضى نصف الدورة كاملة وفاته ، ومن أجل هذا فهو مذنب ، لكن هذا أولى من

أن يحمل أعباء التخلف كاملاً ، كما جرى مع الثلاثة الكبار الآخرين الذين قعدت همتهم به ولم يلحقوا بالركب كما لحق أبو خيثمة .

وتلقاه رسول الله ﷺ بالبشر ، وأكبر فيه هذه الهمة ، وهو الذى كان ينتظره حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل تبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا خيثمة » فقالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له : « أولى لك يا أبا خيثمة » ، فهو الأولى والأكمل والأنسب لشخصيته ﷺ ، ولا يناسب شخصيته أن يكون قابعًا عند حسناوتيه فى المدينة ، فليست حيلته كذلك .

(ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير ، أما الذين تخلفوا من المنافقين فصدق فيهم قول رسول الله ﷺ : « فقد أراحكم الله منه لأنه لا خير فيه » ، وهؤلاء المنافقون هم الذين هيجوا أبا خيثمة على اللحاق بالركب ، وإلا فهو واحد منهم .

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا ... أتيت التى كانت أعف وأكرما

وبايعت باليمنى يدى لمحمدٍ ... فلم أكتسب إثمًا ولم أغش محرما

أما الدنيا وأما المرأة وأما المال والنخيل فقد تركه لأهله المتثاقلين إلى الأرض ، المجبولين فيها .

تركت خضيبًا فى العريش وصرمة ... صفايا كرامًا بسرها قد تحمما

وعندما وجد نفسه ، فى موقع المنافقين ، ووجد إخوانه المهاجرين والأنصار فى الصحراء ، عرف أن موقعه ليس هنا ، وأن عليه أن يمضى لإخوانه ، ولو كلفه ذلك روحه .

وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدين نفسى شطره حيث يمما

فإذا يمم الدين إلى تبوك ، فليمض شطر هذا الدين نحوه أينما كان .

وإذا تدارك الأمر أبو ذر وأبو خيثمة ، لكن ثلاثة من الطبقة الأولى فى الأمة من أهل بدر لم يتداركوا الأمر ، وقعدت همتهم بهم ، وتخلفوا عن الركب ، وسنعرض لكعب تفصيلاً إن شاء الله . لكننا بحاجة لأدبه الرفيع وذوقه الفنى نتعرف منه على واقع هؤلاء الثلاثة ، فهو يصدقنا الأمر قائلاً : (كان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ عن تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة) فهو ليس من البكائين

الذين لا يجدون ما يحملون أنفسهم عليه ، ولا يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه ، فلم يكن أيسر منه فى ذلك الوقت ، وعنده عوضًا عن الراحلة الواحدة راحلتين ، وقد أصابه وإخوانه الثلاثة ذلك الإهمال ، وتلك العزيمة ، ثم التراخى إلى الدنيا ، فعاشوا فى صعود وهبوط لا يتناسب مع مستواهم العالى الرفيع ومع ماضيهم المجيد .

(وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أعدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، فأصبح رسول الله ﷺ غازيًا وذلك يوم الخميس ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يخرج فيه ، ولم أقض من جهازى شيئًا) . ولا شيء إلا الإهمال (فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد ما فصلوا ولم أفعل شيئًا) لم يفعل التى كانت أعرف وأكرم كما فعل أبو خيثمة ، ورفعته همته إلى الالتحاق بإخوانه ، بل أخلد إلى الأرض ، والثمار والظلال ، (فلم أزل يتمادى بى حتى أسرع الناس ، وتفارط الغزو ، وقلت : أرتحل فأدركهم ويااليتنى فعلت ، ولم أفعل) بينما فعلها أخوه أبو خيثمة ، والتحق بهم حتى قطع الفيافى والقفار وحده ، ووصل إليهم وهم فى تبوك ، وعرف أى جريمة ارتكب يوم يخرج كل يوم من بيته ، (وجعلت إذا خرجت فى الناس فطفت فيهم يحزننى ألا أرى إلا منافقًا مغموصًا عليه بالنفاق أو رجلاً ممن عذر الله) .

وهو الذى جرى مع صاحبيه هلال بن أمية الواقفى ومرارة بن الربيع ، حيث يحدثنا هلال عن خفقان قلبه ، (والله ما تخلفت شكًا ولا ارتيابًا) ولم يتخلف لضعف وعجز ، (لكن كنت مقويًا من المال فقلت: أشترى بعيرًا ، ولقينى مرارة بن الربيع فقال: أنا رجل مقو فأبتاع بعيرًا وأنطلق به ، فقلت : هذا صاحب أرافقه) وبدل أن تبعث هذه الشراكة العزم على الشراء ، كوَّنت لديهما شيئًا من التراخى . فهما سيتصاحبان على كل الأحوال ، (فجعلنا نقول : نغدو فنشترى بعيرين فنلحق بالنبى ﷺ ولا يفوت ذلك) ، وسهَّل الشيطان لهما الأمر ، (نحن قوم مخفون على صدر راحلتين فغدًا نسير) وتسابق القوم ، وكان الشيطان معهما يرخى همتهما ، ويهوّن الأمر عليهما ، (فلم نزل ندفع ذلك ونؤخر الأيام حتى شارف رسول الله ﷺ البلاد ، فقلت : ما هذا بحين خروج فأرجع مغتمًا بما أنا فيه ، وجعلت لا أرى فى الدار ولا غيرها إلا معذورًا أو منافقًا معلنًا فأرجع مغتمًا بما أنا فيه) ، وهكذا كان حال أبى خيثمة لكنه نجا بعزمته الحديدية ، ومضى شطر الدين حيث كان فى تبوك وتدارك الأمر ، أما هؤلاء الثلاثة ، فقعدت همتهم فى النهاية عن اللحاق بالركب ، وهم إذن ثلاثة من ثلاثين ألفًا أى نسبة واحد إلى عشرة آلاف ، هم الذين قصَّروا عن المستوى المعهود فيهم وتخلفوا عن المعركة ، ولمعرفة رسول الله ﷺ فيهم ، وانتظرهم عليه الصلاة والسلام كما انتظر أبا خيثمة فهذه ثقته فيهم لكن كانوا دون ثقته ، ولم يتمالك رسول الله ﷺ عندما رأى بعض أهليهم وذويهم

أن سأل : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » ، فقال رجل من بنى سلمة (أى من أقربائه وأهله) يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر فى عطفيه ، فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . وسنعود للحديث عن هؤلاء الثلاثة فيما بعد والذين كانوا من جيل بدر وبيعة العقبة وبيعة الرضوان .

هذا الأمر بالنسبة لهؤلاء الثلاثة فى المدينة المنورة ، لكن المجتمع الإسلامى الذى تكون تجاوز حدود المدينة ، وضم القبائل المجاورة لها من الأعراب ، ودخلوا مع المهاجرين والأنصار فى سلك واحد كما هو التعبير القرآنى .

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ [التوبة : ١٢٠] ، فقد رفض رسول الله ﷺ عذر الأعراب الثمانين من غفار والذين قدموا المدينة لذلك ، **﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ... ﴾** [التوبة : ٩٠] ، بينما أذن للمنافقين بصفتهم خارجين عن المجتمع الإسلامى ، وبث رسول الله شجونه لأبى رهم الغفارى ، فغفار من أقرب المقربين إلى رسول الله ﷺ ، ولا يرضى أن يتخلف منهم أحد ، فقال لأبى رهم رضي الله عنه :

(فجعل رسول الله ﷺ يسألنى : « ما فعل النفر الحمر النطانط ؟ » فحدثته بتخلفهم. قال : « فما فعل السود القصار الجعاد الحلس ؟ » فقلت : والله يا رسول الله ما أعرف هؤلاء .

ورسول االه ﷺ بين عشرات الألوف يدرك بين بعض العشرات من تخلف من غفار. والغفارى أبو رهم ينساهم ولا يذكرهم ،فيذكره رسول الله ﷺ بهم قائلاً : « بلى الذين هم بشبكة شدخ » . قال : فذكرتهم فى بنى غفار ، فلا أذكرهم ، ثم ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا فينا ، وكانوا يحلون بشبكة شدخ لهم نَعَم كثير . فقلت : يا رسول الله ، أولئك رهط من أسلم حلفاء فينا .

وسواءً كانوا من أسلم أو غفار فهم من المجتمع الإسلامى ، ويعيشون فى قلب رسول الله ﷺ القائد الأعظم للأمة ، ويعتبرهم من أهله وخاصته .

يقول عليه الصلاة والسلام : « ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله رجلاً نشيطًا فى سبيل الله ممن يخرج معنا ؟ » .

والعتب المرير عليهم أنهم لم يجاهدوا بأموالهم إذ فاتهم الجهاد بأنفسهم ، فهم مخلفون على الحالتين ثم يُتبع ذلك ﷺ : « إن كان لمن اعز أهلى على أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش والأنصار ، وغِفار وأسلم » .

التعميم الرابع : وكان هذا التعميم عندما وقع خلاف بين مسلمين أحدهما ترك بعيره لعجفه وهزاله وضعفه وجاء الآخر فأطعمه وغذاه وسقاه وداواه حتى برئ وعوفى فاستاقه، فلمن هو ؟ فجاء الحكم النبوى الذى عم على الجيش كله :

« من أحيا خفًا أو كُراعًا بمهلكة من الأرض فهو له » .

ويهدف هذا التعميم إلى معاقبة الذى يترك دابته ويهملها ببيداء فى الأرض ، بأن تنتزع منها ملكيته إن وُجد من يحييها ويغذيها ويداويها ، كا يهدف إلى التشجيع على معالجة الدابة الصعبة العجفاء وعدم التخلى عنها ، ومن يفعل ذلك فلن يذهب تعبه سدى فستكون الدابة له ، سيان كانت خيلاً أو إبلاً فهو صاحب الحق يملكها مثل ملكية « من أحيا أرضًا مواتًا فهى له » تشجيعًا على ذلك وحثًا عليه .

التعميم الخامس : وهو تابع للتعميم الثالث : حيث قامت القبائل بتوزيع راياتها وألويتها على أبنائها لتبقى كل قبيلة تحت لوائها ، وتتلقى التعليمات الكبرى من قيادتها ، والأمثل أن تكون هذه القيادات اختيارية من أبناء القبيلة ، لكن التعديل الذى أجراه النبى ﷺ يهدف إلى أسلمة هذا المجتمع القبلى ؛ بحيث يكون القرآن الكريم هو الذى تنبثق منه الأمة ، وطبقه رسول الله ﷺ عمليًا على بعض قبائل الأنصار بأن سلم الراية لمن هو أكثرهم أخذًا للقرآن ، فراية بنى مالك بن النجار وهم من أخواله ﷺ كانت مع عمارة بن حزم ، فأدرك رسول الله ﷺ زيد بن ثابت فأعطاه الراية . قال عمارة : يا رسول الله ، لقد وجدت على ؟ قال : « لا ، ولكن قدّموا القرآن وكان أكثر أخذًا للقرآن منك ، والقرآن يقدم وإن كان عبدًا أسود مجدعًا . . . » .

هى تربية عملية ، حيث قام رسول الله ﷺ بتنفيذها بنفسه ، وهذا الجيل الذى رباه عليه الصلاة والسلام فبما رباه عليه ، وبمقدار ما كان يملك الأدب العظيم مع رسوله وقائده ، بمقدار ما كان يملك الوعى العظيم الذى رباه عليه قائده، فعمارة بن حزم رضي الله عنه ، وقد أخذت منه الراية لابد أن يعرف لم أخذت منه ، لابد أن يعرف لم أخذت منه ، وعنده الجرأة الكافية ليسأل سيده وقائده عن ذلك، هل عن تقصير منه فى حمل الأمانة ؟ هل عن معصية أو زلل وقع منه فنزعت منه الراية ؟ وكان الجواب النبوى ليس بإخراسه عن الكلام وليس باعتقاله ، وليس بتهزئته وقمعه ، بل بإبداء السبب لذلك أمام هذا الجندى العادى ـ لا ، فليس غضبًا من رسول الله ﷺ ، وليس موجدة عليه منه ، ولكنه التقديم والتعظيم للقرآن . وحامل القرآن متصل بالله يعلو على المتصل بالنسب ، ولو كان عبدًا مجدّعًا ، ويشير هذا التعميم من جهة ثانية إلى حساسية هذا الجيل ورهافة حسه، فكل الذى يخشاه هو غضب قائده أو عتبه عليه ، ولا يضيره بعد ذلك ما يؤخذ

منه وما يمنع منه أو ينتزع منه ، ولو كان اللواء أو الإمرة أو القيادة ، فكان جواب رسول الله ﷺ : « لا ، ولكن قدّموا القرآن » ، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذلك . بل أبدى إيضاحًا يصل إلى درجة الاعتذار بأن زيد بن ثابت أكثر أخذًا للقرآن من عمارة بن حزم ، ولم يكتف القائد الحبيب ﷺ بإيضاح أسبقية زيد فى كتاب الله ، بل رباهم كذلك على أن يتبعوا القرآن ، ولو كان حامله عبدًا مجدعًا حبشيًا فكرامة القرآن فوق كرامة القبيلة .

التعميم السادس : وهو تعميم عملى كان سببه أن بال فرس النبى ﷺ على جبته ، ولم يغسل منه رسول الله ﷺ هذا البول الذى انطلق من إطعام هذا الفرس ، وبما أن خروج هذا الفرس فى سبيل الله ، فسيكون كل ما يخرج منها فى سبيل الله قال :

« لا بأس بأبوالها وعرقها ولعابها » .

وهذا قد يقع مع كل جندى وعليه أن يقوم بتطهير ثيابه منها ، وأصبحت الفرس جزءًا من حياة المسلم ترافقه فى كل مكان ، فقد بلغت الأفراس عشرة آلاف فرس بعد أن كانت فرسين فى غزوة بدر .

وهذه هى الخيل كما يحدث عنها رسول الله ﷺ :

« الخيل لثلاثة : هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر . فأما الذى هى له أجر : فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال لها فى مرج أو روضة ، فما أصابت من طيلها من المرج والروضة كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت ولم يرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات ، ورجل ربطها تغنيًا وسترًا وتعففًا ، ثم لم ينس حق الله فى رقابها وظهورها فهى له ستر، ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواء لأهل الإسلام فهى له وزر »[(1)] .

وفى رواية لمسلم :

« . . . فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شىء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات ، ولا تقطع طولها فاستنت شرفًا أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات » .

ويطالعنا خرص رسول الله ﷺ لتمر حديقة المرأة، وهو لا يزال فى أول نموه وظهوره حيث قدره رسول الله ﷺ بعشرة أوسق ، وعاد الجيش الإسلامى من تبوك ، ومروا

---

(١) مالك وأحمد وابن ماجه والشيخان وهو عند مسلم ٢/ ٦٨١ ح (٢٤/ ٩٨٧). والشرف : هو العالى من الأرض، وقال ابن الأثير : الشرف هو الشوط ، واستنت : جرت وعَدَت .

بحديقة المرأة ، وسألوها عن تمرها فأخبرتهم أنه عشرة أوسق ، وكان المسلمون الذين معه من الأنصار أرباب النخل والذين عاشوا وتربوا ونشؤوا فى خدمته وجنيه والعمل فيه .

نذكر هذا الحديث فى مقابل حديث تأبير النخل ، والذى قال فيه رسول الله ﷺ للمسلمين : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ، ثم جاء المغرضون بعد هذا ليجعلوا من هذا الحديث تكأة لفصل رسول الله ﷺ عن الدنيا ، وعن علمه بها ، وحصر علمه بالآخرة، وهو افتئات على مقامه الشريف ، وإنقاص من قدره ﷺ . فما من خير فى الدنيا والآخرة إلا دلنا عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وما من أمر من أمور الدنيا حدثنا عنه إلا كان كما قال عليه الصلاة والسلام ، وإنما كانت تلك الحادثة التى لم تتكرر فى السيرة النبوية لإثبات العبودية لله سبحانه ، فما يعلم الغيب إلا الله ، وحتى يبقى المسلمون دائمًا على وعى فى الفصل بين العبودية والألوهية ، ورأينا كيف غرس رسول الله ﷺ ثلاثمائة غرسة من النخل ، فما يبست منها واحدة ، فهو المبارك المعصوم ﷺ ، وهو الهادى لنا إلى كل خير فى الدنيا والآخرة ، والذين يريدون أن يجعلوا من رسول الله ﷺ واعظًا للآخرة فقط ، هم مجرمون بحقه أو جاهلون بمقامه ، فهو الحياة لنا هكذا بدون قيد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الأنفال] .

وهو النور لنا فى الدنيا والآخرة ، هكذا بدون قيد ، ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [المائدة] .

وهو قدوتنا فى كل ذرة من ذرات حياته ﷺ ، هكذا بدون قيد :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب] .

فهى التربية النبوية لهذا الجيش كله حتى يتعرف على معجزة من معجزاته ﷺ خاصة من الذين يلتقون معه للمرة الأولى ، فلابد أن يروا فى هذا الرسول الأمى دنياهم وآخرتهم ووجودهم وحياتهم ، وما هذه التعميمات الستة إلا جزء من التربية للقاعدة العريضة الممتدة فى الصحراء ، بحيث تتفقه فى دين الله من خلال كل جزئية تواجهها فتتعرف عليها من رسول رب العالمين .

هذه التربية العامة التى لم تقطع التربية الخاصة والقيادية أبدًا ، فلم تمنع الحديث مع أبى رهم الغفارى عن خواصه ﷺ من جنده الذين تخلفوا عنه ، ولم تتوقف التربية

الخاصة أبدًا للقيادات الكبرى فأبو ذر وهو من الرواد الخمسة الأوائل يسمع التقريع النبوى فيه: « إن يكن به خير فسيلحق بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، وأبو خيثمة من جيل السابقين الأولين من الأنصار ، يسمع ما قال فيه رسول الله ﷺ من أنه قد يسقط من القمة الشاهقة لو لم يلحق بهذا الركب ، ويسبقه الثلاثون ألفًا ولو دخلوا اليوم فى دين الله : « وإن كان غير ذلك فقد أراحكم الله منه » ، ثم يتلقيان معًا الثناء النبوى الخالد لهما عندما تجاوزا ظروفهما والتحقا فى الركب النبوى : « إنك لمن أعز أهلى على تخلفًا » و « أولى لك يا أبا خيثمة » .

ولم يمنع كذلك من السؤال عن كعب بن مالك ﷺ أخص خواصه وشاعره المحبب إليه : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » واختلاف الآراء فى سبب تخلفه دون أن يؤيد أو يعارض عليه الصلاة والسلام . فيمن أحسن الظن ومن أساء .

النفاق ... والنزول فى الحجر

١ ـ (روى الإمام مالك وأحمد والشيخان . . وابن إسحاق . . أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بالحجر تقنع بردائه وهو على الرحل ، فاتضع راحلته حتى خلّف أبيات ثمود . ولما نزل هناك سارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، واستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا ، ونصبوا القدور باللحم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنودى فى الناس : الصلاة جامعة . فلما اجتمعوا قال رسول الله ﷺ :

«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم، ولا تشربوا من مائها ، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وأعلفوا العجين للإبل » ، ثم ارتحل بهم حتى نزل على العين التى كانت تشرب منها الناقة ، وقال :

« لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، سألوا نبيهم أن تُبعث آية ، فبعث الله تبارك وتعالى لهم الناقة ، فكانت ترد هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها . وكانت تشرب مياههم يومًا ، ويشربون لبنها يومًا ، فعقروها ، فأخذتهم صيحة أهمد الله تعالى من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحدًا كان فى حرم الله تعالى » ، قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رغال . فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ، ما تدخلون على قوم قد غضب الله عليهم » .

فناداه رجل منهم : تعجب منهم ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم فينبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئًا ، وسيأتى الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم بشىء، وإنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقومن أحد ، ومن كان له بعير فليوثق عقاله ولا يخرجن أحدكم إلا ومعه صاحب له » . ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا رجلين من بنى ساعدة ، خرج أحدهما لحاجته ، والآخر فى طلب بعيره ، فأما الذى خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه ـ أى موضعه ـ وأما الذى خرج فى طلب بعيره، فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلى طيئ اللذين يقال لأحدهما : أجأ ، ويقال للآخر : سلمى ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : « ألم أنهكم عن أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه ، ثم دعا للذى أصيب على مذهبه فشفى ، وأما الآخر فإن طيئًا أهدته لرسول الله ﷺ حين رجع إلى المدينة) (١) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٤٤، ٦٤٥ .

٢ ـ وكان أبو هريرة يحدث فيقول: وتحولنا إلى بئر صالح النبى ﷺ، فجعلنا نستقى من الأسقية ونغسلها ، ثم ارتوينا ، فلم نرجع يومئذ إلا ممسين ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسألوا نبيكم الآيات ، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم آية ، فكانت الناقة ترد عليهم من هذا الفلج تسقيهم من لبنها يوم وردها ما شربت من مائها ، فعقروها فأوعدوا ثلاثًا ، وكان وعد الله غير مكذوب ، فأخذتهم الصيحة ، فلم يبق أحد منهم تحت أديم السماء إلا هلك ، إلا رجل فى الحرم ، منعه الحرم من عذاب الله ، قالوا : يا نبى الله ، من هو ؟ قال رسول الله ﷺ: « أبو رغال، أبو ثقيف » قالوا فماله بناحية مكة ؟ قال: « إن صالحًا بعثه مصدقًا ، فانتهى إلى رجل معه مائة شاة شصص [١] ، ومعه شاة والد ، ومعه صبى ماتت أمه بالأمس ، فقال : إن رسول الله أرسلنى إليك ، فقال : مرحبًا برسول الله وأهلاً ، خذ ، قال : فأخذ الشاة اللبون ، فقال : إنما هى أم هذا الغلام بعد أمه ، خذ مكانها عشرًا . قال : لا ، قال : عشرين . قال : لا . قال : خمسين . قال : لا. قال : خذها كلها إلا هذه الشاة . قال : لا . قال : إن كنت تحب اللبن فأنا أحبه ، فنثر كنانته ثم قال : اللهم تشهد ، ثم فوّق له بسهم فقتله . فقال : لا يسبق بهذا الخبر إلى نبى الله أول منى ، فجاء صالح فأخبره الخبر . فرفع صالح يديه مدًا فقال : اللهم العن أبا رغال ثلاثًا ، وقال : « لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم فيصيبكم ما أصابهم » [٢] .

٣ ـ (روى البيهقى عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب رحمه الله تعالى قال :

خرج المسلمون إلى تبوك فى حر شديد ، فأصابهم يوم عطش ، حتى جعلوا ينحرون إبلهم ليعصروا أكراشها ويشربوا ماءها ، فكان ذلك عسرة فى الماء ، وعسرة فى النفقة ، وعسرة فى الظهر .

وروى الإمام أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن عمر بن الخطاب ﷺ ، وابن إسحاق عن .. قال عمر : خرجنا إلى تبوك فى يوم قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً ، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى أن الرجل يذهب يلتمس الرجل فلا يرجع ، حتى يظن أن رقبته ستنقطع حتى أن الرجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله عوّدك فى الدعاء خيرًا . فادع الله تعالى لنا ؟ قال : « أتحب ذلك ؟ » قال : نعم ، فرفع يديه نحو السماء

---

(١) شصص : جمع شصوص وهى الناقة التى ذهب لبنها .

(٢) المغازى للواقدى ٣/١٠٠٧، ١٠٠٨ .

فلم يرجعهما حتى قالت السماء ، فأظلت ثم سكبت ، فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر . . ونزلوا الحجر فأمرهم رسول الله ﷺ ألا يحملوا من مائها شيئًا، ثم ارتحل، ثم نزل منزلاً آخر وليس معهم ماء ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقام فصلى ركعتين ، ثم دعا ، فأرسل الله سبحانه وتعالى سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يتهم بالنفاق: ويحك قد ترى ما دعا رسول الله ﷺ فأمطر الله علينا السماء ، فقال : إنما أمطرنا بنوء كذا وكذا فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة] . وذكر ابن إسحاق أن هذه القصة إنما كانت بالحجر ، ورُوى عن محمود بن لبيد عن رجال من قومه قال : كان رجل من المنافقين معروف نفاقه يسير مع رسول الله ﷺ حيثما سار ، فلما كان من أمر الحجر ما كان . ودعا رسول الله ﷺ حين دعا ، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس ، قالوا : أقبلنا عليه نقول : ويحك ، هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة) [١] .

٤ ـ قال محمد بن إسحاق ، ومحمد بن عمر ـ رحمهم الله تعالى : (ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق متوجهًا إلى تبوك فأصبح فى منزل ، وضلت ناقة رسول الله ﷺ (قال محمد بن عمر : هى القصواء) فخرج أصحابه فى طلبها ، وعند رسول الله ﷺ عمارة بن حزم وكان عقبيًا بدريًا ، قتل يوم اليمامة شهيدًا ، وكان فى رحله زيد بن اللصيت ، أحد بنى قينقاع كان يهوديًا فأسلم فنافق ، وكان فيه خبث اليهود وغشهم ، وكان مظاهرًا لأهل النفاق ، فقال زيد وهو فى رحل عُمارة بن حزم ، وعُمارة عند رسول الله ﷺ : محمد يزعم أنه نبى ، ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ! فقال رسول الله ﷺ وعُمارة عنده : « إن منافقًا قال : محمد يزعم أنه نبى وهو يخبركم بأمر السماء ولا يدرى أين ناقته . وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله تعالى ، وقد دلنى الله عز وجل عليها ، وهى فى الوادى فى شعب كذا وكذا ـ لشعب أشار لهم إليه ـ حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها » . فذهبوا فجاؤوا بها (قال محمد بن عمر : الذى جاء بها الحارث بن خزيمة الأشهيلى) فرجع عُمارة إلى رحله فقال : والله العجب لشيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفًا عن مقالة قائل أخبره الله تعالى عنه ، قال كذا وكذا ـ للذى قال زيد ـ فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ـ قال محمد بن عمر : وهو عمرو بن حزم أخو عمارة ـ ولم يحضر رسول الله ﷺ : زيد والله قائل هذه المقالة ، قبل أن تطلع علينا . فأقبل عمارة على زيد يجأ فى عنقه ،

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٤٥، ٦٤٦ ، وهى عند ابن إسحاق ٢/ ٥٢٢ .

ويقول : إن فى رحلى لداهية وما أشعر ، اخرج يا عدو الله من رحلى فلا تصحبنى ، قال ابن إسحاق : زعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك ، وقال بعض الناس : لم يزل متهمًا بشر حتى هلك) (١) .

٥ ـ روى ابن سعد بسند صحيح عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال :

(لما كنا ما بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله ﷺ لحاجته . وكان إذا ذهب أبعد ، وتبعته بماء بعد الفجر ، وفى رواية قبل الفجر . فأسفر الناس بصلاتهم وهى صلاة الفجر حتى خافوا الشمس ، فقدموا عبد الرحمن بن عوف ﷺ ، فصلى بهم ، فحملت مع رسول الله ﷺ أداوة فيها ماء ، وعليه جبة رومية من صوف ، فلما فرغ صببت عليه فغسل وجهه ، ثم أراد أن يغسل ذراعيه فضاق كم الجبة . فأخرج يديه من تحت الجبة فغسلهما ، فأهويت لأنزع خفيه فقال : « دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين » فمسح عليهما ، فانتهينا إلى عبد الرحمن بن عوف ، وقد ركع ركعة فسبَّح الناس لعبد الرحمن حين رأوا رسول الله ﷺ حتى كادوا يفتنون ، فجعل عبد الرحمن يريد أن ينكص وراءه ، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن اثبت، فصلى رسول الله ﷺ خلف عبد الرحمن بن عوف ركعة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف تواثب الناس، وقام رسول الله ﷺ يقضى الركعة الباقية ثم سلم بعد فراغه منها ثم قال : « أحسنتم ـ أو قد أصبتم ـ فغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها ـ إنه لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته » ورواه مسلم بنحوه) (٢) .

٦ ـ عن يعلى بن أمية ﷺ : (أتى رسول الله ﷺ بأجير له نازع رجلاً من العسكر فعضه ذلك الرجل ، فانتزع الأجير يده من فم العاضّ فانتزع ثنيتيه فلزمه العاض ، فبلغ به رسول الله ﷺ وقمت مع أجيرى لأنظر ما يصنع ، فأتى بهما رسول الله ﷺ فقال :

« أيعمد أحدكم فيعض أخاه كما يَعضُّ الفحل » فأبطل رسول الله ﷺ ما أصاب من ثنيته ، وقال : « أفيدع أحدكم يده فى فيك تقضمها وكأنها فى فم فحل يقضمها ؟ » رواه البخارى وغيره) (٣) .

٧ ـ عن سهيل بن بيضاء ﷺ (أن رسول الله ﷺ أردفه على رحله فى تبوك . قال سهيل : ورفع رسول الله ﷺ صوته : « يا سهيل » ، كل ذلك يقول سهيل : يا لبيك يا رسول الله ﷺ ـ ثلاث مرات ـ حتى عرف الناس أن رسول الله ﷺ يريدهم ، فانثنى عليه من أمامه ، ولحقه من خلفه من الناس فقال رسول الله ﷺ :

« من يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، حرَّمه الله على النار » . رواه

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٤٦ ، ٦٤٧ ،وهو عند ابن هشام ٢/٥٢٣ ، وعند الواقدى ٣/ ١٠٠٩ ، ١٠١٠ .

(٢ ، ٣) سبل الهدى والرشاد ٥/٦٤٨ .

الإمام أحمد والطبرانى ومحمد بن عمر) [1] .

٨ ـ ذكر محمد بن عمر ، وأقره أبو نعيم فى الدلائل ، وابن كثير فى البداية ، وشيخنا فى الخصائص الكبرى قال : (عارض الناس فى مسيرهم حية . ذكر من عظمها وخلقها ، فانصاع الناس عنها ، فأقبلت حتى وافقت رسول الله ﷺ وهو على راحلته طويلاً ، والناس ينظرون إليها ، ثم التوت حتى اعتدلت الطريق ، فقامت قائمة ، فأقبل الناس حتى لحقوا برسول الله ﷺ فقال : « هل تدرون من هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إلىَّ يستمعون القرآن . فرأى عليه من الحق حين ألم به رسول الله ﷺ أن يسلم عليه ، وها هو يقرئكم السلام، فسلموا عليه » فقال الناس جميعًا : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته) [2] .

٩ ـ فلما كان رسول الله ﷺ فى وادى المشقق سمع حاديًا فى جوف الليل فقال : اسرعوا بنا نلحقه ورسول الله ﷺ يقول: « ممَّن الحادى، منكم أو من غيركم ؟ » قالوا: بلى من غيرنا . قال : فأدركه رسول الله ﷺ ، فإذا جماعة ، فقال : « ممَّن القوم ؟ » قالوا : من مضر . قال رسول الله ﷺ : « وأنا من مضر » ، فانتسب حتى بلغ مُضر ، قال القوم : نحن أول من حدا بالإبل ، فقال النبى ﷺ : « وكيف ذلك ؟ » قالوا : بلى ، إن أهل الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض . فأغير على رجل منهم ومعه غلام له ، فندَّت إبله ، فأمر غلامه أن يجمعها ، فقال : لا أستطيع ، فضرب يده بعصا ، فجعل الغلام يقول : وايداه ، وايداه وتجتمع الإبل ، فجعل سيده يقول : قل هكذا بالإبل ، وجعل النبى ﷺ يضحك ، وقال رسول الله ﷺ : « الا أبشركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، وهم يسيرون على رواحلهم ، فقال :

« إن الله أعطانى الكنزين فارس والروم ، وأمدَّنى بالملوك ملوكِ حمير ، يجاهدون فى سبيل الله ويأكلون فىء الله » [3] .

١٠ ـ قال أبو سعيد الخدرى : (رأيت رجلاً جاء إلى النبى ﷺ بخاتم وجده فى الحجر فى بيوت المعذبين فقال : فأعرض عنه واستتر بيده أن ينظر إليه وقال : « ألقه » فألقاه ، فما أدرى أين وقع الساعة ، وكان ابن عمر يقول : إن رسول الله ﷺ قال لأصحابه حين حاذاهم : « هذا وادى النفر » ، فجعلوا يوضعون فيه ركابهم حتى خرجوا منه) [4] .

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥/٦٤٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٤٩ .

(٣) المغازى للواقدى ٣/١٠١١ .

(٤) المصدر السابق ٣/١٠٠٨ .

١١ ـ عن يعقوب بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد أنه قال له : هل كان الناس يعرفون أهل النفاق فيهم ؟ فقال : نعم ، والله إن كان الرجل ليعرفه من أبيه وأخيه وبنى عمه ، سمعت جدك قتادة بن النعمان يقول : تبعنا فى دارنا قوم منافقون منهم ، ثم سمعت من بعد زيد بن ثابت يقول : فى بنى النجار من لا بارك الله فيه ، فيقال : من يا أبا سعيد ، فيقول : سعد بن زرارة وقيس بن فهر) [١] .

* * *

لقد كان حزب المنافقين منفصلاً تمامًا عن حزب الله ،كما هو الفرق اليوم بين الأحزاب العلمانية والأحزاب الإسلامية ، وإن كان المظهر الخارجى لهذا الحزب مظهراً إسلاميًا ، لكنه ينتمى إلى قيادة غير قيادة النبى ﷺ ، ويتلقى منها الأوامر ، هذه القيادة هى قيادة عبد الله بن أبى ، ولكن خطة هذا الحزب هو العمل جاهدين على عدم كشف أعضائه ، وإن كانت الخطة فاشلة . فالمغموص عليهم فى النفاق كانوا مغضوحين فى قومهم كما مرَّ معنا فى النص السابق : (نعم والله إن كان الرجل ليعرفه من أبيه وأخيه وبنى عمه) ، ونادرًا ما يبقى المنافق عميلاً سريًا فى الصف الإسلامى دون أن يكشف ، ولا مناص لنا من التحدث عن دور هذا الحزب فى داخل الصف الإسلامى خلال هذه المرحلة حتى الوصول إلى تبوك .

ونشير إلى أن سورة التوبة التى سميت سورة براءة ، والفاضحة ، والمبعثرة ؛ لأنها فضحت كل مخططات المنافقين ، وسنعرض للآيات التى تتحدث عن عملاء هذه المرحلة[٢] .

يطالعنا قبل الوصول إلى الحجر ذلك اللقاء السرى الخاص بين أربعة من هؤلاء المنافقين الذين وجدوا فرصة يكشفون عمّا تحمل صدورهم من إحن وحقد على الإسلام والمسلمين .

ـ ثعلبة بن حاطب : (تحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم ، والله لكأنا غدًا مقرنين فى الحبال) .

وهى كلمة سيده عبد الله بن أبى الذى برَّر فيها تخلفه عن رسول الله ﷺ ، وأصدرها تعليمات تلقاها أعضاء الحزب فنكثوا عن الجهاد ، لكن هؤلاء العملاء السريين

---

(١) المغازى للواقدى ٣/١٠٠٩ .

(٢) سبق أن تحدثنا تفصيلاً من خلال النص القرآنى فى سورة التوبة فى كتابنا : (التربية الجهادية ، الجزء الثالث) ، حيث كانت الآية هى الأساس فى البحث .

مضوا مع الجيش بهدف تحطيم المعنويات وإشعال الفتنة فى الصف الإسلامى .

ـ وديعة بن ثابت : (مالى أرى قراءنا ، أوعبنا بطونًا ، وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء) .

وعند تحطيم هذه القدوات والنيل منهم ـ يعنى تفتيت الثقة بالإسلام نفسه ـ فهؤلاء أهل القرآن هم الأكذب ، وهم الأجبن ، وهم الأكبر بطونًا وشرها وحبًا للدنيا .

ولابد أن نشير إلى أن هذا المزاح كثيرًا ما يستعمل فى صفوفنا الإسلامية اليوم ـ وهو من سمات المنافقين ، ويتباهى الناس فى تجسيد أخطاء (المشايخ) من باب الدعابة والنكتة ، وهى قاصمة الظهر للصف الداخلى .

ـ الجلاس بن عمرو : (والله لئن كان محمد صادقًا لنحن شر من الحمير) ، أو (هؤلاء سادتنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ، والله لئن كان محمد صادقًا لنحن شر من الحمير) .

وهو تتمة الكلام السابق ، فهؤلاء القراء ـ السادة والأشراف وأولوا الفضل ـ هم الأكذب ، وهم الأجبن ، وهم الأكبر بطونًا ، فإن كانوا كذلك ـ وهم كذلك فى رأيهم ـ فنحن شر من الحمير ، بينما هم الأذل والأوضع . ونحن أصحاب العقل الواعى الذين يدركون الأخطار الذى يقودنا إليه محمد بن عبد الله .

ـ مخشن بن حميّر : (والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإننا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم) .

وواضح أن رابعهم موقن بصدق محمد ، وموقن أن هذا الاجتماع سيكشف ويود أن يجلد مائة جلدة ولا يفضح بآية من كتاب الله .

هذا الاجتماع السرى حضره مسلم صغير لما يناهز البلوغ، ولم يلتفت إليه الجالسون، أو يعيروه أهمية ، وهو يتيم فى حجر الجلاس بن سويد زوج أمه . هذا اليتيم يمثل الأصالة الإسلامية للجيل الجديد الذى نشأ على الإسلام ، فقال لربيبه الجلاس :

(يا جُلاس ، قد كنت أحب الناس إلى ، وأحسنهم عندى أثرًا ، وأعزهم علىَّ أن يدخل عليه شيء نكرهه . والله لقد قلت مقالة لئن ذكرتُها لتفضحنك ، ولئن كتمتُها لأهلكن ، وإحداهما أهون علىَّ من الأخرى) ، وهو يهم أن يمضى إلى رسول الله ﷺ ليعلمه بما قال زوج أمه ورفاقه .

إن الصورة تتكرر كما برزت قبل خمس سنوات فى غزوة بنى المصطلق عندما أعلن عبد الله بن أبى حربه على الإسلام والمسلمين ، وختمها بقوله : لئن عدنا إلى المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقام زيد بن أرقم ، ونقل تفصيلات الحرب كلها لرسول الله ﷺ ، وجاء القرآن الكريم بصدق الغلام الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « لقد صدقت أذنا هذا الغلام ، وفضح ابن أبى » ، لكن الحقد كان أكبر عنده من الاستسلام ، فتابع مسيرته ، وهذه المجموعة من ثماره المرة التى التى زرعها فى الجيش الإسلامى .

ولم يكن الأمر بحاجة ليمضى غلامنا الجديد إلى رسول الله ﷺ ، فقد ضبطوا بالجرم المشهود من عمار بن ياسر الذى أوفده رسول الله ﷺ ليحضر معهم خلوتهم ، ويخبرهم بما قالوا بالتفصيل ، فقد كانت التعليمات النبوية : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ، فقد قلتم كذا وكذا » ونفذت التعليمات بدقة ، وما ندرى هل أنكروا ابتداءً أن يكونوا قالوا شيئًا فجوبهوا بكلام الله تعالى فيهم ، أم أقروا منذ اللحظة الأولى للسؤال ؛ لكنهم مضوا مع عمار إلى رسول الله ﷺ يعتذرون ، وكان عذر الثلاثة الأُول ، أنه مزاح لا جد ، وهم لا يعنون ما يقولون ، بينما كان عذر مخشن بن حميّر رابعهم : (يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى) فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن أو عبد الله .

وصدر التقرير الربانى من رب السموات والأرض بنتيجة هذه المحاكمة :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) ﴾ [التوبة] .

وصدر العفو عن واحد من المجرمين ، بينما أدين الباقون ودمغوا بالكفر والإجرام.

﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾ [التوبة] .

فى الحجر :

وصل الجيش الإسلامى للحجر ، وللقوم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾ [الحجر] .

وهذه الصيحة يحدثنا القرآن الكريم عنها فى سورة أخرى :

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الذاريات] .

ويحدثنا رسول الله ﷺ بقوله: « . . . فعقروها فأوعدوا ثلاثًا ، وكان وعد الله غير مكذوب ، فأخذتهم الصيحة ، فلم يبق أحد منهم تحت أديم السماء إلا هلك ، إلا رجل فى الحرم منعه الحرم من عذاب الله ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » (١) .

ولا يعرف المسلمون توجيهات معينة للتعامل مع ديار هؤلاء القوم المعذبين فلأول مرة يتعرضون لهذا الموقف، أما رسول الله ﷺ (لما مرَّ بالحجر تقنع بردائه وهو على الرحل، فاتضع راحلته حتى خلَّف أبيات ثمود) بينما تصرف المسلمون تصرفًا عاديًا (ولما نزل هناك سارع الناس إلى الحجر يدخلون عليهم، واستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا ونصبوا القدور باللحم) كما هو الحال اليوم فى زيارة الآثار للأمم البائدة حيث يتجشم الناس السفر من أقصى الأرض ليروها ويستمتعوا بجمالها ويعجبوا بقوة أهلها وعبقريتهم فى البناء، وأصبح هذا الأمر رسالة عالمية يجمع عليها الناس فى أهميتها ، بل غدت مورد رزق للدول الحديثة تدر عليها أرباحًا طائلة ولها وزارات خاصة هى وزارات السياحة، ومعروف أن هذه الأمم التى بادت معظمها كانت أممًا وثنية كافرة مشركة بالله عز وجل ، والكثير منها نزل بها عذاب الله كما ذكر القرآن الكريم ، وقد قال الله تعالى عن قوم ثمود خاصة أنهم : ﴿ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الحجر] ، وقال: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

[الأعراف]

فالأمم اليوم ؛ المسلمون منهم وغيرهم يتباهون بآثار الأمم الذين ظلموا أنفسهم ، ويدعون السواح من كل مكان لزيارتهم ، هذا الوضع العادى الذى تصرف به المسلمون مع قوم صالح ، استدعى أن يصدر النداء للمسلمين جميعًا ، للثلاثين ألفًا تحت عنوان : الصلاة جامعة ، وما ينادى بالصلاة جامعة إلا لأمر هام ، خاصة عندما يكون ذلك فى غير وقت صلاة ، وهذا يعنى أن تعليمات هامة ستبلغ للمسلمين .

(فنودى فى الناس الصلاة جامعة ، فلما اجتمعوا قال رسول الله ﷺ :

«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٩٤ .

ولا تشربوا من مائها ، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، واعلفوا العجين للإبل » .

إنها تربية جديدة لهذه الأمة على التعامل مع الأمم التى أهلكها الله، وآثارها الباقية، ومنهج جديد لهذه القاعدة العريضة كلها محددة فى أربع تعميمات قاسية على النفس ؛ لتتدرب هذه النفس على أن تنفطم عن الهوى . وهذه التعميمات هى :

١ ـ « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم » .

فلابد من الخضوع والتذلل لله والخوف من عذابه وعقابه الذى يرافقه البكاء حتى لا يصيبنا ما أصاب الأمم السالفة قبلنا . إنها بعث للحدث من جديد، وكأنما القوم الساعة قد أخذتهم الصيحة بحيث يأخذ الرعب بكل الأفئدة من هول العقوبة الربانية، وليتصنع المرء البكاء حين يعجز عن البكاء العادى ، فإن لم يكن باكيًا فمتباكيًا ومتصنعًا البكاء ، لابد من استجاشة هذه الأحاسيس بحيث يمر المرء مسرعًا خائفًا وجلاً باكيًا ، وهذا غير أن يدخل ضاحكًا لاهيًا مستمتعًا ، يتصور عند أصنامهم ، ويتناول أشهر المأكولات فى مطاعمهم ، وكأنما القوم من أولياء الله يُتَقَربُ بالحياة معهم وبجوارهم ، ويستأنس بقربهم ، فالدخول حصرًا لابد من مرافقته البكاء أو التباكى والسرعة ، والخوف من الأعماق ألا يصيبنا ما أصابهم .

٢ ـ « لا تشربوا من مائها » فلا يمكن التعايش أو المعيشة مع هؤلاء ـ على الإطلاق ـ ورغم الحاجة الماسة للجيش الإسلامى للماء ـ وقد ذُبحوا عطشًا ـ فلا إذن فى الشرب من ماء هؤلاء القوم ، وذلك مثل تجربة طالوت لقومه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فلقد سقطوا فى الامتحان ، لكنا لم نسمع أحدًا من المسلمين أنه رسب فى الامتحان بعد إصدار التعميمات النبوية المطلوبة .

٣ ـ وإذا كان العطش قد ذبح الجيش ، فالجوع قد قتله ، وها هى قدور اللحم تنصب وها هو العجين يخمر ليتم تناول الخبز الشهى ، فإذا بالأوامر تصدر بمنع تناول الخبز، وإعلاف العجين الذى عجن بماء الذين ظلموا أنفسهم للإبل ، ويحظر تناوله أو أكله ـ وهى تربية ثالثة وتجربة ثالثة لهذا الجيل المتفرد فى التاريخ ، وبمقارنة هذه التربية مع تربية الجيل القيادى فى الحديبية نلاحظ أنها تسير على نفس النسق ، لكن بصورة أخف مما كانت عليه عند أهل بيعة الرضوان .

فرأينا هناك فطم النفس عن شهوة الجنس من خلال تحريم نكاح المتعة ، وفطم النفس عن شهوة الطعام من خلال إكفاء القدور التى تفور باللحم ، بعد تحريم الحمر

الأهلية ، وفطم النفس عن شهوة الثأر حين مضى رسول الله ﷺ فى الصلح مع قريش، إنها تجارب أشد من تجارب اليوم ؛ لأن مهمة الجيل القيادى فى بدر والحديبية هى أعظم من مهمة هذا الجيل، ولكنه يمضى على النسق نفسه ، فهؤلاء الثلاثون ألفًا لم يحرموا من الماء ؛ لأنهم مضوا بعد ذلك للعين التى كانت تردها الناقة فشربوا منها ، كما أن الأوامر صدرت لهم بعدم الشرب بعد أن شرب قسم منهم من مياه الحجر ، وإعلاف العجين للإبل لم يرافقه إكفاء قدور اللحم ، ثم كانت التربية التوجيهية الثابتة فى الحجر ، والتى تم تبليغها للمسلمين جميعًا هى ألا يسألوا الله تعالى الآيات حتى لا يهلكوا كما هلك الذين من قبلهم حين لم يؤمنوا « سألوا نبيهم أن تبعث آية ، فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم وعقروها وقالوا : ﴿ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف] ، فأخذتهم صيحة أهمد الله تعالى من تحت أديم الأرض منهم .

وطلب الآيات الذى ينهى عنه رسول الله ﷺ هو توقيف الإيمان عليها ، فلا يدرون أيؤمنون بعدها أم لا ، أما طلب بركته عليه الصلاة والسلام وطلب الاستسقاء منه ﷺ ، فلا يدخل فى هذا الحظر . وهو ما سنتناوله فيما بعد .

﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] . وكانت معجزة القرآن الخالدة أبد الدهور كافية لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ، وبعد هذا التحذير النبوى ، يأتى الإلحاح النبوى بالبعد عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم بقوله عليه الصلاة والسلام : « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم ؟ » .

فكان جواب ذلك الصحابى الذى يود كل المسلمين اليوم أن ينطقوا به هو الموعظة والتعجب والإعجاب (فناداه رجل منهم : نعجب منهم) . ووجَّه رسول الله ﷺ الأمة كلها لبناء ذاتها ، وصياغة نفسها صياغة ذاتية ، لترى أن أعظم هدية قدمت للبشرية ، وأعجب ما أُهدِيَته البشرية هو هذا النبى سيد الأولين والآخرين ، والذى يفكر فيه لا تنقضى عجائبه ، ولا تدرك عظمته ، ولا يعرف كنهه، هو خيرة الله وصفوته من خلقه، « ألا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم فينبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا » . وما فى هذا الدين من أسرار ، وما فى هذا النبى من عظمة وآيات بينات يشغل المسلمين عن كل ما على هذه البسيطة من آيات ومعجزات ، وهل لهم أن يتعرفوا على قدر رسول الله ﷺ عند ربه ، وهو من العرب أنفسهم نشأ فى نفس بيئتهم وجاهليتهم ، وظلماتهم ﴿ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ**

صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② ﴾ [إبراهيم] .

٤ ـ وبعد أن نفذوا الأوامر النبوية وتوقفوا عن الشرب ـ مع شدة عطشهم ـ من عيون وآبار الذين ظلموا أنفسهم ، وكلفوا بمتابعة السير فى هذا الظمأ القاتل ، وليس فى هذه الصحراء إلا السماء المحرقة والأرض الملتهبة ، والأجواف المحترقة على قطرة ماء ، فماذا يفعلون أمام هذا الظمأ ، حتى ليحسوا أنهم إلى الموت أقرب منهم إلى الحياة ؟ فلجأ بعضهم ـ وقد نفذ صبره من العطش ـ إلى أن يذبح جمله (وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى أن الرجل يذهب يلتمس الرجل فلا يرجع ، حتى يظن أن رقبته ستنقطع حتى أن كان الرجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه ، فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده) . هذا حزب الله وجيش الله يوشك على الهلاك ، فيتحرك الرجل الأول فى الأمة أبو بكر الصديق لإنقاذ هذا الجيش من الفناء. ليس هناك عمال ، ولا آبار ارتوازية، ولا هواتف إلى المدينة لإيصال قوافل المياه، ولابد أن تحل هذه القضية مع سيد ولد آدم، وقائد الجيش محمد ﷺ وذلك من خلال هاتف ربانى إلى رب السموات والأرض من عبد الله ورسوله ، فهو السلطان الأعلى فى السموات والأرض لإنقاذ هذا الجيش من الهلاك ؛ هذا الجيش الذى يمثل خيرة الخلق فى هذه الأرض .

ما هو هذا الهاتف الربانى ، الذى يعرف الصديق رقمه ، ولا يتم الاتصال به إلا عن طريق القائد الأعلى للجيش ؟ ! (فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله عوّدك فى الدعاء خيرًا ، فادع الله تعالى لنا ؟ قال : « أتحب ذلك ؟ » قال : نعم) فهو قرار مشترك من القائد الأعظم ونائبه ، وهو الأخذ بشوراه من أجل إرسال هذا الهاتف إلى الله سبحانه .

(فرفع يديه إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر) هكذا بدون حاملة طائرات ولا طائرات عمودية ، إنما بأوامر وجهت من رب السموات والأرض ، أن جيشه فى مكان كذا ، وعلى السماء أن تمطر فى مكان كذا حيث صدرت الأوامر الربانية إلى ميكائيل ، فأصدر أوامره بعد أن عرف من ربه (بالرادار السماوى) مكان وجود الجيش، ونزل المدد لهؤلاء الثلاثين ألفًا دون أن يغادر العسكر قطرة واحدة ، وأحس الجيش كله بعظمة النعمة وعظمة الهاتف النبوى لجبار السموات والأرض ، ومدى حب ربه له ، والصلة المباشرة بين عبد الله ورسوله وبين رب الأرباب أدرك الجيش كله ذلك ، وازداد إيمانًا على إيمانه ، وانسكب اليقين فى قلبه ، وقرابة ثلثى الجيش يشهد لأول مرة هذه الصلة بالله رب

العالمين ، فيوقن أنه مع رسول رب العالمين الذى ابتعثه لخلقه وهو على صلة به فى الليل والنهار يدعوه فيجيبه ، لكن بعض العتاولة الغلاظ الأكباد الذين يعيشون مع رسول الله ﷺ منذ ثمانى سنوات ، وقد ملأ كيانهم بغض رسول الله ، وحب عبد الله بن أبى ، لم يستطع أن يخفى وجهه الكالح ، وانتماءه لحزب أعداء الله ـ حزب المنافقين ـ فسأله : أبعد هذا شىء ؟

فأخرج له بطاقة انتمائه للحزب الكافر . قال :

سحابة مارة فأمطرت أو قال : (إنما أمطرنا بنوء كذا) ، وأنزل الله تعالى قوله فيه: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ [الواقعة] .

٥ ـ ويريد الله تعالى أن يكشف المدسوسين جميعًا فى الصف الإسلامى ، فقد كشف بعضهم يوم التقوا لقاءهم السرى ، وحسبوا أن نجواهم لن يطلع عليها أحد ، وفاتهم أنه ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ... ﴾ [المجادلة : ٧] .

وتم كشف هذا العميل الجديد بعد هطول الغيث العميم ، وارتواء المعسكر بالماء الزلال ، وكانت هذه المناسبة الثالثة لكشف بقية الخيوط المختبئة داخل الصف الإسلامى، ولها مهمات متعددة سوف ينكشف جانب منها فيما بعد .

كانت هذه القضية هى ضلال ناقة النبى ﷺ ، وحدث مثل هذا يتناقله العسكر مثل حدث الغيث الذى نال كل فرد فيه ، فما يخص القيادة يسرى مسرى النار فى الهشيم ، والمسلمون الصادقون جميعًا يعرفون أن محمدًا هو عبد وليس بإله ، وسوف يعلمه ربه عنها إن شاء وفى أى لحظة ، لكنها الفرصة المناسبة لاصطياد العملاء وضعاف الإيمان ، ووجد زيد بن اللصيت فرصته المواتية لبث السم فيمن حوله ، وإعلان كفره بقوله : محمد يزعم أنه نبى ويخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته .

فهو لا يكتفى بكتابة التقارير أو حفظها فى عقله ، بل لا بد أن يبث الإشاعات داخل الصف ، ويزعزع إيمان من حوله ، وهذه مهمة رئيسية من مهماته .

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾ [التوبة] .

وها هو هذا ينفذ ما قال الله تعالى فيه : ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ .

فرد واحد يقول كلمته فى رحل عمارة بن حزم بين الثلاثين ألفًا من المسلمين ، يتنزل الوحى الربانى لفضحه وللقبض عليه فى الجرم المشهود ، فهذا عمارة بن حزم عند رسول الله ﷺ ينهل من علمه ، ويتربى على سلوكه ، وينعم بالنظر إليه ، ولا يصدق قلبه أنه بجوار حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ها هو يصغى إلى قول رسوله الحبيب :

«إن منافقًا قال: محمد يزعم أنه نبى وهو يخبركم بأمر السماء ولا يدرى أين ناقته».

وبناء العقيدة عند رسول الله ﷺ هو الهدف الرئيسى ، وليس الفخر أو التعالى أو التكبر على عباد الله، وها هو يعلن عليه الصلاة والسلام على هذا الجيش الذى كاد يفتن بالمعجزة أنه عبد لله عز وجل لا يعلم إلا ما علمه : ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ** ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، « وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله عز وجل » .

فهذه الكتائب الإسلامية الضخمة التى كان الكثير منها يعبد الأوثان والأصنام وهى لا تضر ولا تنفع ، فكيف بها الآن وهى ترى بشرًا مثلها يستدعى السحاب فيغيث عشرات الألوف منها، فقد تفتن فيه ، وتعبده من دون الله ، فلابد من الفصل والتبيان لهذه الجماهير أنه الغيب بيد الله ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وبعد رسوخ هذه العقيدة يأتى الجواب لهذا المنافق الدجال :

« وقد دلنى الله عز وجل عليها ، وهى فى الوادى فى شعب كذا وكذا ـ لشعب أشار لهم إليه ـ حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها » فذهبوا فجاؤوا بها .

ومضى عمارة بن حزم ؓ موقر الثمار بهذه المعجزة التى رآها بأم عينيه ، ومضى إلى رحله يقص على أهله وولده وإخوانه ما قاله رسول الله ﷺ عن هذا المجرم الأفاك الذى يشكك بنبوة محمد ﷺ وهو جندى فى جيشه ، وكيف أعلم الله تعالى نبيه بمكان ناقته ، وجاؤوا بها على ما وصفها به رسول الله، لكن المفاجأة التى أذهلته وكادت تشله أن هذا المنافق هو رفيق دربه من المدينة وقعيده وأكيله وشريبه . هو زيد بن اللصيت الذى أشفق عليه وحمله من المدينة ، فقد قال له أخوه عمرو بن حزم : زيد والله هو القائل هذه المقالة قبل أن تطلع علينا .

إنه الإعلام الربانى بالتو واللحظة عن طريق وحى الله لكلمة زيد، وكاد عمارة يجن جنونه، وقد رأى المعجزة بعينه ، والنفاق بعينه (فأقبل عمارة على زيد يجأ عنقه : إن فى رحلى داهية ولا أشعر ، اخرج يا عدو الله ولا تصحبنى ، وكان هذا من تمام المعجزة أن يكون عمارة عند رسول الله ﷺ ويأتى ليرى القائل فى رحله فيطرده من خيمته ، أما أين مضى زيد ؟ وأين اندس ؟ وهل غيَّرت المعجزة قناعاته أم زادته شرًا على شره ؟ فالله

أعلم أيما ذلك كان ؛ لأن النصوص التى بين أيدينا لا تسعفنا عنه بجديد .

٦ ـ وبمقدار ما يشرئب النفاق ، ويبرز من خلال ممثله ، فنرى الإيمان يشرئب ويبرز فى هذه الكتائب العظيمة فقد حانت وقت صلاة الفجر ، وخرج رسول الله ﷺ لحاجته معه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وقد علمنا فى رفقته تلك مع النبى ﷺ حكم المسح على الخفين حيث لم ينزعهما عليه الصلاة والسلام لأنه أدخلهما طاهرتين ، ولكن الأهم من هذا أن المسلمين جميعًا كانوا فى قلق شديد فقد أسفر الفجر ولم يُقدم رسول الله ﷺ من حاجته ، وتربوا فى هذه المدرسة النبوية على أن ﴿ **الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النساء] ، فمهما كان مقام النبوة فلا تفوِّت الصلاة من أجل هذا المقام وهذه الإمامة، ويدرك هذا الأمر خاصة الجيل الأول من السابقين الأولين، وطال الانتظار وتأخر النبى ﷺ ، وتبقى إقامة الصلاة فى عنق هذا الجيل خاصة ، فاتفقوا وقدموا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إمامًا عليهم وهو أحد العشرة المبشرين ، لكن المحنة كانت يوم قدم رسول الله ﷺ ، ورأى أصحابه وتلامذته قد وعوا درس الصلاة وأهميتها وأقاموها بغيابه حتى لا يفوتهم الوقت ، إنما المشكلة فماذا يفعل هذا الجندى وقد حضر قائده وهو فى الصلاة ؟ وعاش الجيش كله حين رأى قائده فى قلق عن التصرف المناسب ، لكن رسول الله ﷺ حسم الأمر وأشار إلى عبد الرحمن رضي الله عنه أن يستمر فى إمامته ، ثم أخذ رسول الله ﷺ موقعه بين جنوده واقتدى بجنديه عبد الرحمن بن عوف ، ثم قام فأتم ما فاته ، ولم يتسع عقل المسلمين إلى أن يقتدى سيد ولد آدم بجندى من جنوده ، لكنه القدر المخبأ لهذا الجندى العظيم عبد الرحمن بن عوف « أنه لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته » وتكررت هذه السنة فى الأنبياء جميعًا ، وكان قدر الله مع نبيه المصطفى ﷺ أن يكون هو الرجل الصالح الذى اختاره رب السموات والأرض ليؤم نبيه، وليهنك يا عبد الرحمن هذا الشرف العظيم المذخور لك فى غيب الله .

٧ ـ وحيث إن الجيش الإسلامى يمثل المجتمع كله بكافة طبقاته وفئاته ، فقد شهدنا نموذجًا من النفاق ، وشهدنا نموذجًا من الإيمان ولابد أن نشهد نموذجًا من الناس العاديين الذين يختلفون فيما بينهم على التافه من الأمور ، ولا يضبطون أعصابهم ، فينفلتون على سجيتهم وذلك من خلال الحديث الذى رواه يعلى بن أمية رضي الله عنه حين تنازع أجيره مع رجل من العسكر ، فعضه الرجل ، فانتزع الأجير يده ، وانتزع مع يده ثنية الرجل ، هذا هو المجتمع على طبيعته بكل مستوياته والإسلام جاء ليحكم كل هذه المستويات وليس خاصًا بالمستويات العليا من الأمة ، وحكم رسول الله ﷺ بالأمر بأن أهدر ثنية الرجل لأنه هو الذى أقدم على عض أخيه ، ولن يصبر المعضوض على هذا الألم فيدفع الألم عنه بنزع يده ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « أفيدع يده فى فيك تقضمها كأنها فى فم فحل يقضمها » ومع هذا الإهدار ، فقد كان جانب التربية بجوار العقوبة . فإشعار

هذا العاصّ أن هذا العمل هو عمل الإبل وليس عمل الآدميين . هو تنفير له من معاودة مثل هذه الخطيئة ، إضافة إلى ما عاناه من سقوط ثنيته .

٨ ـ وانطلاقًا من هذه القاعدة، في أن الأمة كلها هي في هذا الجيش بجميع مستوياتها وليست النخبة فقط ، لكنها تعد لتكون النخبة بعد أن يدخل العرب جميعًا في دين الله ، وسيكون مقام تشريفها أنها تلقت التربية النبوية لمدة شهرين بمرافقة النبى ﷺ ، بينما لم يتح لغيرها أكثر من لقاء أو لقاءين ، نستمع إلى حديث سهيل بن بيضاء رضي الله عنه ، وقد أردفه رسول الله ﷺ على رحله ؛ لهدف تربوى واضح فى ذهن المصطفى صلوات الله عليه ، فهو إضافة إلى تعليم الأمة التواضع والحد من كبرياء الأمراء والملوك . وبَتّ ذلك الفارق بين الأمير والسوقة ، فهناك هدف تعليمى آخر يحدثنا عنه سهيل رضي الله عنه (قال سهيل: ورفع رسول الله ﷺ صوته : « يا سهيل » ، كل ذلك يقول : يا لبيك يا رسول الله ، ثلاث مرات) فسهيل خلف رسول الله ، وما كان من خلق المصطفى ﷺ رفع صوته ، فيمكن أن يسمع سهيل بأخفض صوت ممكن ، ويجيب سهيل بسرعة تأكيداً لسماعه : يا لبيك يا رسول الله ، لكن النداء يتكرر والصوت يرتفع مرة ثانية ، فإذن هنا شيء غير عادى وغير مألوف ، يثير انتباه الصحابة إلى أمر يريده المصطفى ﷺ ، وها هو يعيد النداء ثالثة : « يا سهيل » بصوت عالٍ مرتفع . فأدرك الناس أن رسول الله يريد أن يسمعهم شيئًا عامًا، فالتفوا حوله (فانثنى الناس من أمامه ، ولحقه من خلفه من الناس. وعندما اطمأن عليه الصلاة والسلام إلى هذه المجموعة حوله قال :

« من يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، حرَّمه الله على النار ») .

ومضى كل واحد ممَّن سمع هذا من فم رسول الله ﷺ يبشر بها إخوانه وأهله وأقربائه . نلاحظ أن الخطة اختلفت هنا عما كانت مع معاذ بن جبل رضي الله عنه يوم قال له ذلك رسول الله ﷺ .

(فقد أخرج مسلم عن أنس بن مالك قال ؛ أن النبى ﷺ ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل قال : « يا معاذ » قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال :

« ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إلا حرَّمه الله على النار » .

قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : « إذًا يتكلوا » . فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا (١)) (٢) .

(١) تأثمًا : خشى أن يكتم شيئًا علمه رسول الله ﷺ إياه فيأثم .
(٢) مسلم ١/٦١ ح (٥٣ / ٣٢) .

فالخطة هنا لرديف رسول الله ﷺ معاذ هى : أن تبقى خاصة به ، ولا يبشر بها الناس حتى لا يتكلوا . بينما الخطة هناك لرديف رسول الله ﷺ سهيل بن بيضاء هى أن يعرف بها أكبر عدد ممكن من صحبه ، ولم يمنعهم من نشرها وإبلاغها لإخوانه .

والهدف هنا هو تثبيت الوحدانية فى قلوب هذه الألوف المؤلفة ودعوة الناس إلى نبذ الأصنام والأوثان ، وإخلاص العبودية لله ، وهؤلاء الذين انضموا إلى الإسلام حديثًا بهذه الأعداد الكبيرة لابد أن يُركز فيهم على العقيدة وبلورتها فى نفوسهم ، والتخلص من براثن الشرك ، وآثار الوثنية . وقد انتهت عقيدة أهل السنة والجماعة فى هذا المجال إلى رأى جمعت فيه بين الأحاديث ، حيث فسرت النار هنا بنار الخلود ، أى بمعنى : لا يخلد فى النار من يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وسنجد العودة ثانية من رسول الله ﷺ إلى هذا الأمر فى الغزوة نفسها فى طريق العودة من تبوك . بأسلوب تربوى آخر .

٩ ـ هذه البشارة العظيمة التى تناقلها أفراد الجيش كله ، وراحوا ينقلونها لبعضهم فرحين بها رافقتها بشارة أخرى فى رفع معنويات هذا الجيش ، وتوجيهه لمسؤوليته الكبرى فى الأمم ، وذلك بعد الحديث عن هلاك أمة ثمود ، وبمناسبة المرور من الحجر ، وذلك عندما سمعوا الحادى فى الليل يحدوا الإبل فقال رسول الله ﷺ: « أسرعوا بنا نلحقه »، ورسول الله ﷺ يقول : « ممن الحادى . منكم أو من غيركم ؟ » قالوا : بلى ، من غيرنا، فأدركه رسول الله ﷺ فإذا جماعة ، قال : « ممن القوم ؟ » قالوا : من مضر. قال رسول الله ﷺ : « وأنا من مضر » فانتسب حتى بلغ مُضر ، قال القوم : نحن أول من حدا بالإبل . . .) إلى آخر القصة وسعد المسلمون وأكثرهم من مضر بهذا الانتساب النبوى ، وبقصة حداء الإبل من الغلام الذى كُسِرت يده وراح يصرخ: وايداه ، وايداه، وراحت الإبل تجتمع على صوته .

كل هذه المقدمات وقلوب المسلمين تخفق، وقد أخذتهم روعة القصة، وهم مشدودو الانتباه إليها ، وحبيبهم المصطفى يصغى إليها معهم ، وفى هذه اللحظات التى تعلقت الأنظار والأبصار والقلوب بسماع القصة الشيقة جاء السؤال النبوى الذى هو الهدف الرئيسى من كل هذه المقدمات .

(وقال رسول الله ﷺ : « ألا أبشركم ؟ » . قالوا : بلى يا رسول الله ، وهم يسيرون على رواحلهم) . ونسى القوم قصة الإبل وحداتها ، واتجهوا بكينونتهم إلى رسول الله ﷺ ينتظرون البشارة النبوية التى جاءت بصيغة سؤال ، تشتاق القلوب وتخفق لسماع جوابه .

فماذا كانت البشارة ؟

« فقال : إن الله أعطانى الكنزين فارس والروم » .

وهم ماضون الآن إلى لقاء الروم ، وفى قلوب المنافقين الرعب من هذا المسير كما وصفه رب العزة جل جلاله : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [التوبة] .

وقد عبَّروا عن هذا الرعب والخوف بقول سيدهم الجد بن قيس فى المدينة : والله ما آمن خوفًا من بنى الأصفر ، وإنى فى منزلى بخُربى ، فأذهب إليهم فأغزوهم ؟!

وهو يمثل نفسية العرب قبل أن يكرمهم الله بهذا الدين ، فما طمح أى زعيم عربى مهما انقادت له القبائل أن يغزو الروم أو يغزو الفرس، وأقصى ما حفظ فى تاريخ العرب من بطولات ، أنهم دافعوا بشرف عن أنفسهم خوفًا من الذل والعار ، بل كان من ينشد الزعامة فى العرب يمضى إلى الروم أو الفرس ، فيأتى بجيش منهم لينتصر به على خصومه، ويوضع التاج على مفرقه ، وهذا تاريخ العروبة كله بصفحاته المفتوحة كاملة ، فليس فيها أن يفكر أحد مجرد تفكير ـ بله أن ينفذ ـ فى غزو الروم .

ومثَّل هذه الصورة من الخوف كذلك جواب السيد الأكبر للمنافقين عبد الله بن أبى يوم انخذل بحزبه عن رسول الله ﷺ من ثنية الوداع ، وانخنس فى جحره قائلاً :

(يغزو محمد بنى الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ، إلى ما لا قبل له به، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب ؟ والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين فى الحبال) ، إرجافًا برسول الله ﷺ وأصحابه .

وهو هو جواب العملاء المدسوسين فى الصف والذين قالوا فى اجتماعهم السرى الذى شهدته ملائكة رب العزة جل جلاله : (تحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين فى الحبال) .

فهم مهزومون نفسيًا ، والفرق والخوف يقطِّع قلوبهم ، وحقٌ لمن لم يذق طعم الإيمان أن يحس بهذه الأحاسيس ويركبه هذا الرعب ، فمن ذا الذى يفكر بمواجهة الروم وهم ملوك الأرض وقد هزموا ملوك الفرس وانتصروا عليهم ، إن أقصى ما يطمح به زعيم عربى أن تدين له مضر ، أو تدين له قيس أو نزار أو عدنان ، وإذا كان من ملوك الجنوب أن تدين له حمير أو همدان أو مذحج أو زبيد أو غيرها .

أما أن يفكر بغزو ملوك الأرض ، فهذا ما لم تشهده هذه الأمة إلا على يد بانيها محمد ﷺ ، وقد عبأ النفوس كلها لمواجهة بنى الأصفر وها هو يعدهم الآن بأن بنى الأصفر، وملوك الفرس سوف تفتح كنوزهما لرسول الله ﷺ « إن الله أعطانى الكنزين

فارس والروم » .

« . . . وأمدنى بالملوك ملوك حمير، يجاهدون فى سبيل الله ، ويأكلون فىء الله ».

فالجيش الإسلامى اليوم معظمه من مضر ، ومعظمه من عدنان . وبهؤلاء الثلاثين ألفًا مضى رسول الله ﷺ يغزو الروم ، ولن يفتح كنزهم إلا بالجهاد فى سبيل الله ، وعلى المسلمين أن يعدوا أنفسهم لهذه المواجهة ، لكن البشارة الثانية هى أنهم لن يكونوا وحدهم فى الساحة، فسيكون معهم ملوك حمير، هؤلاء سينضمون لهذا الدين ويدخلون فيه ، ويأتون مددًا لإخوانهم المجاهدين فى سبيل الله ، والماضين اليوم إلى تبوك وهم العصبة المؤمنة فى الأرض ، لقد كانت هذه العصبة ثلاثمائة فى بدر وقال يومها رسول الله ﷺ : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فإن تشأ لا تعبد فى الأرض » ، وها هى الآن تبلغ أضعاف بدر مائة مرة ، وهى العصابة المؤمنة فى الأرض ، وإذا كانت العصابة الأولى قد فرحت بنصر الروم الذى جاء خبره مع أعقاب بدر فهى تمضى اليوم إلى غزو الروم ، وستكبر هذه العصابة وستنمو وتزداد حتى يكون من أتباعها وأبنائها ملوك حمير الذين يجاهدون فى سبيل الله ، ويأكلون فىء الله ، ويا سعادة هذا الجيل الذى يعيش مع رسول رب العالمين ، وهو يرى المعجزة تلو المعجزة تتحقق ، وهو من الذين أسعدهم الله أن يكونوا من المجاهدين فى سبيل هذا الدين ونشره ، وهو شرف كبير لهم أن ينتموا إلى الله تعالى ، ويكون قائدهم ومربيهم سيد ولد آدم ، وكل فرد فى هذه الكتائب العظمى يحرص على كل كلمة ، وكل توجيه ، ويستمع لكل خبر ، ولكل حدث ، فهو سوف يعود إلى قومه ويخبرهم بكل ما سمع ، وبكل ما رأى ، وبكل ما تعلم ، فيكون هو رسول رسول رب العالمين إلى قومه .

١٠ ـ ولا تنتهى هذه المرحلة من الرحلة إلا بالبشارة الثالثة التى عرفها المؤمنون فى كتاب الله ، وها هم يرونها بأم أعينهم ، عرفوا أن رسول الله ﷺ ، قد استمع إليه نفر من الجن ، ومضوا دعاة إلى الله فى قومهم لكنهم لم يروا شيئًا عيانًا من هذه الأمور ، فكانت المعجزة وكانت البشارة و(عارض الناس فى مسيرهم حية ذُكِر من عظمها وخلقها فانصاع الناس عنها ، فأقبلت حتى وافقت الرسول ﷺ ، فهى تقف أمامه بأدب كامل حيث ابذعر الناس عنها وهم ينظرون إليها ، وإذا كانت معجزة عصا موسى ﷺ أن تنقلب حية ، فالمعجزة للنبى ﷺ أن تقف هذه الحية تكلمه طويلا (وهو على راحلته ـ والناس ينظرون إليها ، ثم التوت حتى اعتدلت الطريق فقامت قائمة) وأقبل الناس حتى لحقوا برسول الله ﷺ ، فقال : « هل تدرون من هذا ؟ » وذلك على طريقته ﷺ باستثارة الاستثارة ؛ لتكون القلوب مشرئبة إلى السماع ، فهم متلهفون ليعرفوا خبرها ، ورسول الله ﷺ يزيد لهفتهم بسؤاله: (« هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا: الله ورسوله

أعلم، فقال : « هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إلىَّ يستمعون القرآن ، فرأى عليه من الحق حين ألم به رسول الله ﷺ أن يسلم عليه ، وها هو يقرئكم السلام فسلموا عليه » فقال الناس جميعًا : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته). فهو من الثمانية المبشرين مثل العشرة المبشرين فى الجنة من الإنس ، ومن حق رسول الله ﷺ أن يسلم عليه ، ويواقفه طويلاً ، ويبلغ التحية للمؤمنين من الإنس ، ويتعانق الثقلان فى الحب والفداء لرسول الله ﷺ حين كان المسلمون يرددون: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.

١١ ـ وفاتنا أن نتحدث عن التعميم الرابع الذى أصدره المصطفى ﷺ :

(وإنها ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقومن أحد ، ومن كان له بعير فليوثق عقاله ، ولا يخرجن أحدكم إلا ومعه صاحب له) فهو تعميم بثلاثة توجيهات ضمنة لغير المكابر أن يشهد صدق النبى ﷺ من خلال هبوب الريح الشديدة ، فقد تنبأ بها عليه الصلاة والسلام قبل وقوعها ، ويكفى أن تهب بهذا العنف ليلاً حتى يعلم أنه مع رسول رب السموات والأرض. ومن خلال هذا الإيمان سوف ينفذ التوجيهات كاملة، أن يبقى فى مكانه ، ويوثق عقال بعيره باكرًا قبل هبوب الريح ، ولا يخرج وحده لحاجته فهى أوامر صادرة للتنفيذ ، وقد خالف من الثلاثين ألفًا رجلان خرجا لحاجتهما أو طلب بعيرهما ، ولم يدر المسلمون سر هذه التوجيهات حتى استيقظوا صباحًا ، ووجدوا بأعينهم ثمرة المخالفة فقد فُقد الذى مضى يبحث عن بعيره ، ولم يمض مع صاحب له ليُعرف ما نزل به وأين افتقد ، كما وجدوا الذى مضى لحاجته ، مخنوقًا فى المكان الذى مضى إليه ، وعرفوا أنه ما من أمر يصدر من النبى ﷺ إلا وهو لصالح المؤمن المجاهد ، وبعد أن رأوا عقوبة المعصية ، أراد الله تعالى أن يكرم نبيه بالعفو عن هذين الصاحبين . فأما الذى خنق على مذهبه فدعا الله تعالى فشفى ، وأما الذى افتقد ، فقد أعادته طيئ إلى رسول الله ﷺ وهو عائد من تبوك ، لكن لابد أن تستقر فى نفوس العصبة المؤمنة خطورة معصية أمر الله وأمر رسوله ، فهذه العصبة مقدمة فيما بعد على أن تحمل راية الإسلام إلى الخافقين فتتربى على الجندية كما تتربى على القيادة ، وتعلم أنه قد يكون على كاهلها فيما بعد الإمعان فى غزو الروم والإمعان فى غزو فارس ، والإمعان فى غزو كل من يقف مصاداً لله ولرسوله .

ويتوجه الركب بعدها إلى تبوك بأمان الله .

في تبوك : الأمة والدولة

١ ـ (روى الإمام مالك ، وابن إسحاق ، ومسلم عن معاذ بن جبل والإمام أحمد برجال الصحيح عن حذيفة رضي الله عنه ، ولفظ مسلم : (أن أبا الطفيل عامر بن واثلة أخبره أن معاذ بن جبل أخبر قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك ، فكان يجمع الصلاة ، فصلى الظهر والعصر جميعًا ، والمغرب والعشاء جميعًا ، حتى إذا كان يومًا أخَّر الصلاة ، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا ، ثم دخل ، ثم خرج بعد ذلك ، فصلى المغرب والعشاء جميعًا ثم قال: « إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتى »، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، قال فسألهما رسول الله ﷺ: « هل مسستما من مائها شيئًا ؟ » قالا : نعم . فسبهما النبي ﷺ ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء . قال وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ، ثم أعاده فيها . فجرت العين بماء منهمر ـ أو قال غزير ـ شك أبو على أيهما قال ـ حتى استقى الناس ثم قال : « يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانًا » [(١)] ولفظ ابن إسحاق : فانخرق الماء حتى كان يقول من سمعه : إن له حسًا كحس الصواعق وذلك الماء فوارة تبوك) [(٢)] .

وروى البيهقي وأبو نُعيم عن عروة أن النبي ﷺ حين نزل تبوك وكان في زمان قل ماؤها فاغترف غرفة بيده من ماء فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت، فهي كذلك حتى الساعة .

٢ ـ روى البيهقي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فاسترقد رسول الله ﷺ ، فلما كان منها على ليلة، فلم يستقظ حتى كانت الشمس قيد رمح ، قال : « ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر » . فقال : يا رسول الله ، ذهب بي النوم فذهب بي الذي ذهب بك ، فانتقل رسول الله ﷺ من ذلك المجلس غير بعيد. ثم صلى ، ثم هدر بقية يومه وليلته ، فأصبح بتبوك ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

---

(١) مسلم ٤/ ١٧٨٤ ح (١٠ / ٧٠٦) .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٤٩، ٦٥٠ .

« أيها الناس: أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملة ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتل قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى ، خير مما كثُر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دُبْرا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكم مخافة الله عز وجل ، وخير ما وقر فى القلوب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حثاء جهنم ، والسكر كى فى النار ، والشّعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المآكل مال اليتيم ، والسعيد من وُعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى أربع أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الروايا روايا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسُباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألى على الله يكذبه ، ومن يغفر يُغفر له ، ومن يعف يَعفُ الله عنه ، اللهم اغفر لى ولأمتى . اللهم اغفر لى ولأمتى . قالها ثلاثًا ثم قال : أستغفر الله لى ولكم »(١) .

٣ ـ قال شيوخ محمد بن عمر : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجرًا قبلة مسجد تبوك وأومأ بيده إلى الحجر وما يليه ثم صلى بالناس الظهر ، ثم أقبل عليهم فقال:

« ما ها هنا شام ، وما ها هنا يمن » .

وروى الإمام أحمد : خطب رسول الله ﷺ عام تبوك وهو مسند ظهره إلى نخلة ، فقال : « ألا أخبركم بخير الناس، وشر الناس، إن من خير الناس رجلاً يحمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره ، أو على قدميه حتى يأتيه الموت ، وإن من شر الناس رجلاً فاجرًا جريئًا يقرأ كتاب الله ولا يرعوى إلى شىء منه »(٢) .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٤٢ وقال محققه فى الهامش : نقله الحافظ ابن كثير (٥ / ١٣، ١٤) عن المصنف وقال: هذا حديث غريب ، وفيه نكاره ، وفى إسناده ضعف .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٥٠، وعند أحمد ٣/ ٣٧ ـ ٤١ .

٤ ـ (وقال رجل من سعد هذيم جئت رسول الله ﷺ وهو جالس بتبوك فى نفرٍ من أصحابه هو سابعهم فوقفت فسلمت فقال : « اجلس » . فقلت : يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ؛ قال : « أفلح وجهك » ثم قال : « يا بلال ، أطعمنا » قال : فبسط بلال نطعًا [١] ثم جعل يخرج من حميت [٢] له فأخرج خرجات بيده من تمر معجون بالسمن والأقط ، ثم قال رسول الله ﷺ : « كلوا » ، فأكلنا حتى شبعنا، فقلت: يا رسول الله، إن كنت لآكل هذا وحدى، قال رسول الله ﷺ: « الكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، والمؤمن يأكل فى معيٍ واحد » .

قال : ثم جئته من الغد متحينًا لغدائه لأزداد فى الإسلام يقينًا ، فإذا عشرة نفر حوله . قال : « هات أطعمنا يا بلال » . قال : فجعل يخرج من جراب تمر بكفه قبضة قبضة . فقال : « أخرج ولا تخف من ذى العرش إقتارًا » فجاء بالجراب فنثره . قال : فحزرته مدَّين . قال : فوضع النبى ﷺ يده على التمر ثم قال : « كلوا باسم الله » . فأكل القوم وأكلت معهم ، وكنت صاحب تمر ، قال : فأكلت حتى ما أجد له مسلكًا ، قال : وبقى على النطع مثل الذى جاء به بلال ، كأنا لم نأكل تمرة واحدة ، قال : ثم عدت من الغد قال : وعاد نفر حتى باتوا ، فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين . فقال : « يا بلال أطعمنا » فجاء بذلك الجراب بعينه أعرفه فنثره ، ووضع رسول الله ﷺ يده عليه فقال: « كلوا باسم الله » فأكلنا حتى نهلنا، ففعل مثل ذلك ثلاثة أيام) [٣] .

٥ ـ (عن عرباض بن سارية قال: كنت ألزم باب رسول الله ﷺ فى الحضر والسفر، فرأيتنا ليلة ونحن بتبوك وذهبنا لحاجة ، فرجعنا إلى منزل رسول الله ﷺ وقد تعشى ومن عنده من أضيافه ، ورسول الله ﷺ يريد أن يدخل فى قبته ومعه زوجته أم سلمة بنت أبى أمية ، فلما طلعت عليه قال : « أين كنت منذ الليلة ؟ » فأخبرته ، فطلع جعال بن سراقة ، وعبد الله بن مغفل المزنى فكنا ثلاثة كلنا جائع . إنما نعيش بباب النبى ﷺ ، فدخل رسول الله ﷺ البيت فطلب شيئًا نأكله فلم يجده ، فخرج إلينا فنادى بلالاً ، « يا بلال هل من عشاء لهؤلاء النفر ؟ » قال: لا والذى بعثك بالحق لقد نفضنا جُرُبنا وحُمُتنا. قال: « انظر عسى أن تجد شيئًا » فأخذ الجرب ينفضها جرابًا جرابًا فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت بين يديه سبع تمرات ، ثم دعا بصحفة فوضع فيها التمر ، ثم وضع يده على التمرات وسمى الله وقال : « كلوا باسم الله » فأكلنا ، فأحصيت أربعًا وخمسين تمرة أكلتها أعدها ونواها فى يدى الأخرى ، وصاحباى يصنعان ما أصنع ،

---

(١) النطع : بساط من أدم .
(٢) الحميت : الزق الذى لا شعر فيه وهو للسمن .
(٣) المغازى للواقدى ٣/١٠١٧ ، ١٠١٨ .

وشبعنا . وأكلنا كل واحد منا خمسين تمرة ، ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هى فقال : « يا بلال ، ارفعها فى جرابك ، فإنه لا يأكل أحد منها إلا نهل شبعًا » فبينا نحن حول قبة رسول الله ﷺ ، فكان يتهجد فى الليل ، فقام تلك الليلة يصلى ، فلما طلع الفجر ركع ركعتى الفجر وأذن بلال وأقام فصلى رسول الله ﷺ بالناس، ثم انصرف إلى فناء قبته ، فجلس وجلسنا حوله فقرأ من المؤمنين عشرًا ، فقال : « هل لكم فى الغداء » فقال عرباض : فجعلت أقول فى نفسى : أى غداء ؟ فدعا بلال بالتمر ، فوضع يده على الصحفة ثم قال: « كلوا باسم الله » فأكلنا ـ والذى بعثه بالحق ـ حتى شبعنا وإنا لعشرة، ثم رفعوا أيديهم منها شبعا ، وإذا التمرات كما هى فقال رسول الله ﷺ : « لولا أنى أستحيى من ربى لأكلنا من هذا التمر حتى نرد المدينة عن آخرنا » وطلع غُلَيِّم من أهل البلد وأخذ رسول الله ﷺ التمرات بيده فدفعها إليه ، فولى الغلام يلوكهن) [1].

٦ ـ (وقدم نفر من بنى سعد هذيم على رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إنا قدمنا عليك وتركنا أهلنا على بئر لنا قليل ماؤها ، وهذا القيظ ، ونحن نخاف إن تفرَّقْنا أن نقتطع ؛ لأن الإسلام ولم يفش حولنا بعد ، فادع الله لنا فى ماء بئرنا ، وإن روينا منه فلا قوم أعز منا ، لا يعبر بنا أحد مخالف لديننا ، قال رسول الله ﷺ : « أبلغونى حصيات » فناولت ثلاث حصيات فدفعتهن إليه ، ففركهن بيده ثم قال : « ادفعوا بهذه الحصيات إلى بئركم فاطرحوها واحدة واحدة ، وسموا الله » فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ ، ففعلوا ذلك فجاشت بئرهم بالرواء ، ونفوا من قاربهم من المشركين ووطئوهم . فما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى أوطئوا من حولهم غلبة ودانوا بالإسلام) [2] .

٧ ـ قالوا : وكان زيد بن ثابت يحدث فيقول : غزونا مع رسول الله ﷺ تبوك ، فكنا نشترى ونبيع ورسول الله ﷺ يرانا ولا ينهانا .

(وكان رافع بن خديج يحدث يقول : أقمنا بتبوك فأرملنا من الزاد وقرمنا إلى اللحم ونحن لا نجده، فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن اللحم ها هنا، وقد سألت أهل البلد عن الصيد ، فذكروا لى صيدًا قريبًا ، فأشاروا إلى ناحية المغرب ، فأذهب فأصيد فى نفر من أصحابى ؟ قال رسول الله ﷺ : « إن ذهبت فاذهب فى عدة من أصحابك وكونوا على خيل فإنكم تتفرقون من العسكر » قال فانطلقت فى عشرة من الأنصار فيهم أبو قتادة ـ وكان صاحب طرد بالرمح ، وكنت راميًا ، فطلبنا الصيد فأدركنا

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٣٧ ، وأبو نعيم وابن عساكر كما فى سبل الهدى والرشاد ٥/ ٦٥٤ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٠٣٥ .

صيداً فقتل أبو قتادة خمسة أحمرة بالرمح على فرسه ، ورميت قريبًا من عشرين ظبيًا ، وأخذ أصحابنا الظبيين والثلاثة والأربعة ، وأخذنا نعامة طردناها على خيلنا ، ثم رجعنا إلى العسكر ، فجئناهم عشاء ورسول الله ﷺ يسأل عنا « ما جاؤوا بعد ؟ » فجئنا إليه فألقينا ذلك الصيد بين يديه فقال: « فرقوه بين أصحابكم » . قلت : يا رسول الله، أنت مربه رجلاً . قال : فأمر رافع بن خديج . قال : فجعلت أعطى القبيلة بأسرها الحمار والظبى ، وأفرّق ذلك حتى كان الذى صار لرسول الله ﷺ ظبى واحد مذبوح . فأمر به فطبخ فلما نضج دعى به ـ وعنده أضياف ـ فأكلوا، ونهانا بعد أن نعود وقال: « لا آمن » أو قال : « أخاف عليكم ») (١) .

٨ ـ قالوا : وكان رجل من بنى عذرة يقال له عَدى . يقول : جئت رسول الله ﷺ بتبوك فرأيته على ناقة حمراء يطوف على الناس يقول : « يا أيها الناس يد الله فوق يد المعطى، ويد المعطى الوسطى، ويد المعطَى السفلى، أيها الناس فتغنوا ولو بحزم الحطب، اللهم هل بلغت » ثلاثًا ، فقلت : يا رسول الله ، إن امرأتَىَّ اقتتلتا ، فرميت إحديهما فرمى فى رميتى ـ يريد أنها ماتت ـ فقال رسول الله ﷺ : « تعقلها ولا ترثها » فجلس رسول الله ﷺ فى وضع مسجده بتبوك فنظر نحو اليمين ورفع يده يشير إلى أهل اليمين. فقال : « الإيمان يمان » ونظر نحو المشرق فأشار بيده وقال : « إن الجفاء وغلظ القلوب فى الفدادين أهل الوبر من نحو المشرق يطلع الشيطان قرنيه » (٢) .

٩ ـ (وهاجت ريح شديدة بتبوك فقال رسول الله ﷺ : « هذا لموت منافق عظيم النفاق» قال : فقدموا المدينة ، فوجدوا منافقًا قد مات عظيم النفاق) (٣) .

١٠ ـ وأتى رسول الله ﷺ بجبنة تبوك فقالوا : يا رسول الله ، إن هذا طعام تصنعه فارس وإنا نخشى أن يكون فيه ميتة ، فقال رسول الله ﷺ : « ضعوا فيه السكين واذكروا اسم الله ») (٤) .

١١ ـ (وأهدى رجل من قضاعة إلى النبى ﷺ فرسًا فأعطاه رجلاً من الأنصار،وأمره أن يربطه حياله استئناسًا بصهيله ، فلم يزل كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ففقد صهيل الفرس فسأل عنه صاحبه فقال : خصيته يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ :

« فإن الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة . اتخذوا من نسلها وباهوا بصهيلها المشركين ، أعرافها أدفاؤها (٥) ، وأذنابها مذابها . والذى نفسى بيده إن الشهداء ليأتون

---

(١) المغازى للواقدى ٣/١٠٣٦ .

(٢) المصدر السابق ٣/١٠١٧ .

(٣، ٤) المصدر السابق ٣/١٠١٩ .

(٥) أدفاؤها : تتدفأ بها .

يوم القيامة بأسيافهم على عواتقهم لا يمرون بأحد من الأنبياء إلا تنحى عنهم ، حتى إنهم ليمرون بإبراهيم خليل الرحمن فيتنحى لهم حتى يجلسوا على منابر من نور ، يقول الناس: هؤلاء الذين أهريقوا دماءهم لرب العالمين ، فيكون كذلك حتى يقضى الله عز وجل بين عباده » .

قالوا : وبينا رسول الله ﷺ بتبوك قام إلى فرسه الظرب فعلق عليه شعاره وجعل يمسح ظهره بردائه ، قيل : يا رسول الله تمسح ظهره بردائك . قال : « نعم : وما يدريك ؛ لعل جبريل أمرنى بذلك مع أنى قد بت الليلة وإن الملائكة لتعاتبنى فى حَسّ الخيل ومسحها » وقال : « أخبرنى خليلى جبريل أنه يكتب لى بكل حسنة أوفيتها إياه حسنة ، وإن ربى عز وجل يحط عنى سيئة ، وما من امرئ من المسلمين يربط فرسًا فى سبيل الله فيوفيه بعلفه ، يلتمس به قوته إلا كتب الله له بكل حبة حسنة ، وحط عنه بكل حبة سيئة » قيل : يا رسول الله، وأى الخيل خير ؟ قال : « أدهم [1] ، أقرح [2]، أرثم [3] ، محجَّل الثلث ، مطلق اليمين ، فإن لم يكن أدهم فكميت [4] على هذه الصفة » وقيل : يا رسول الله ، فما فى الصوم فى سبيل الله ؟ قال : « من صام يومًا فى سبيل الله تباعدت منه جهنم مائة سنة كأغذ السير ، ولقد فضل نساء المجاهدين على القاعدين فى الحرمة كأمهاتهم ، وما من أحد من القاعدين يخالف إلى امرأة من نساء المجاهدين فيخونه فى أهله إلا وقف يوم القيامة فيقال له : إن هذا خانك فى أهلك ، فخذ من عمله ما شئت فما ظنكم ؟ ») [5] .

١٢ ـ (وكان عبد الله بن عمر أو عمرو بن العاص يحدث قال : فزع الناس بتبوك ليلة، فخرجت فى سلاحى حتى جلست إلى سالم مولى أبى حذيفة وعليه سلاحه ، فقلت : لأقتدين بهذا الرجل الصالح من أهل بدر ، فجلست إلى جنبه قريبًا من قبة رسول الله ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ علينا مغضبًا فقال : « أيها الناس ما هذه الخفة ؟ ما هذا النزق ؟ ألا صنعتم ما صنع هذان الرجلان الصالحان ؟ » يعنينى وسالمًا مولى أبى حذيفة) .

١٣ ـ (وكان عبد الله ذو البجادين من مزينة ، وكان يتيمًا لا مال له ، قد مات أبوه فلم يورّثه شيئًا ، وكان عمه ميلاً [6] ، فأخذه وكفله حتى كان قد أيسر ، فكانت له إبل وغنم ورقيق ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام ، ولا

---

(١) الأدهم : الأسود .
(٢) الأقرح : الذى له مثل الغرة فى وجهه .
(٣) الأرثم : الذى له بياض فى أنفه .
(٤) الكميت : الذى خالط حمرته قنوء .
(٥) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٣٨ .
(٦) ميلاً : كثير المال .

يقدر عليه من عمه ،حتى مضت السنون والمشاهد كلها ، فانصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة راجعًا إلى المدينة . فقال عبد الله لعمه : يا عم قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمدًا ، فائذن لى فى الإسلام . فقال : والله لئن اتبعت محمدًا لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعته منك حتى ثوبيك . فقال عبد العزى ـ وهو يومئذ اسمه ـ وأنا والله متبع محمدًا ومسلم ، وتارك عبادة الحجر والوثن ، وهذا ما بيدى فخذه ، فأخذ كل ما أعطاه ، حتى جرده من إزاره ، فأتى أمه فقطعت بجادًا لها باثنين فاتزر بواحد وارتدى بالآخر ، ثم أقبل إلى المدينة ، وكان بورقان ـ جبل من حمى المدينة ـ فاضطجع فى المسجد فى السحر ، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فنظر إليه فأنكره . فقال : « من أنت ؟ » فانتسب له ، فقال : « أنت عبد الله ذو البجادين » ثم قال : «انزل منى قريبًا » ، فكان يكون فى أضيافه ، ويعلمه القرآن ، حتى قرأ قرآنًا كثيرًا ، والناس يتجهزون إلى تبوك ، وكان رجلاً صيتًا ، فكان يقوم فى المسجد ، فيرفع صوته بالقراءة فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع إلى هذا الأعرابى يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة ؟ فقال النبى ﷺ : « دعه يا عمر ، فإنه خرج مهاجرًا إلى الله ورسوله » ، قال : فلما خرجوا إلى تبوك قال : يا رسول الله ، ادع الله لى بالشهادة ، قال: « ابلغنى لحاء سمرة » فأبلغه لحاء سمرة، فربطها رسول الله ﷺ على عضده وقال: « اللهم إنى أحرّم دمه على الكفار » فقال : يا رسول الله ، ليس أردت هذا . قال النبى ﷺ : « إنك إذا خرجت غازيًا فى سبيل الله ، فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد ، ووقصتك دابتك فأنت شهيد ، لا تبال بأيةِ كانت » فلما نـزلوا تبـوكًا فأقاموا بها توفى عبد الله ذو البجادين ، فكان بلال بن الحارث يقول : حضرت رسول الله ﷺ ، ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر واقفًا بها ، وإذا رسول الله ﷺ فى القبر ، وإذا أبو بكر وعمر ﵄ يدلّيانه إلى النبى ﷺ ، وهو يقول : « أدنيا إلىَّ أخاكما » ، فلما هيأه لشقّه قال: « اللهم إنى أمسيت عنه راضيًا فارض عنه » قال : فقال عبد الله بن مسعود : يا ليتنى كنت صاحب اللحد) (١) .

١٤ ـ روى الطبرانى فى الكبير والأوسط عن معاوية ، وابن سعد والبيهقى عن أنس ﵁ قالوا :

(كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك . قال أنس : فطلعت الشمس بشعاع وضياء ونورٍ لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال رسول الله :

« يا جبريل مالى أرى الشمس اليوم طلعت بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم

---

(١) المغازى للواقدى ٣/١٠١٣، ١٠١٤ .

فيما مضى ؟ » قال : ذاك معاوية بن معاوية المزنى مات بالمدينة اليوم ، فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه ، فهل لك فى الصلاة عليه ؟ قال : « نعم » . فخرج رسول الله ﷺ يمشى ، فقال جبريل بيده هكذا يفرج له عن الجبال والآكام ، ومع جبريل سبعون ألف ملك، فصلى رسول الله ﷺ، وصف الملائكة خلفه صفين فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لجبريل : « بم بلغ هذه المنزلة ؟ » قال : بحبه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص] . يقرؤها قاعداً أو قائمًا أو راكبًا أو ماشيًا وعلى كل حال) .

(قال الحافظ فى لسان الميزان فى ترجمة محبوب بن هلال : هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وله طرق يقوى بعضها بعضًا ، وقال فى فتح البارى ، فى باب الصفوف على الجنازة : إنه خبر قوى بالنظر إلى مجموع طرقه ، وقال فى اللسان فى ترجمة نوح ابن عمر طريقه أقوى طرق الحديث . انتهى .

وأورد النووى فى الأذكار فى باب : الذكر فى الطريق ، فعلم من ذلك رد قول من يقول : إن الحديث موضوع لا أصل له) (١) .

١٥ ـ وروى الطبرانى برجال وثقوا ، وأبو نعيم عن محمد بن حمزة بن عمر الأسلمى عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ، وكنت على خدمته [فى] ذلك ، فنظرت إلى نحى السمن قد قلّ ما فيه ، وهيأت للنبى ﷺ طعامًا فوضعت النحى فى الشمس، ونمت فانتبهت بخرير النحى ، فقمت فأخذت رأسه بيدى، فقال رسول الله ﷺ ورآنى : « لو تركته لسال الوادى سمنًا » (٢) .

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٥٦، ٦٥٧ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٦٦٢ .

الدولة : غزوة أكيدر بن عبد الملك

١ ـ روى الواقدى عن شيوخه قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من تبوك فى أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل ، وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانيًا فقال خالد : يا رسول الله ، كيف لى به وسط بلاد كلب، وإنما أنا فى أناس يسير ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ستجده يصيد البقر فتأخذه » . قال : فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين فى ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له، ومعه امرأته الرباب بنت أنيف بن عامر بن كندة، وصعد على ظهر الحصن من الحر، وقينته تغنيه ، ثم دعا بشراب فشرب ، فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن . فأقبلت امرأته الرباب ، فأشرفت على الحصن فرأت البقر فقالت : ما رأيت كالليلة من اللحم ؛ هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا . ثم قالت من يترك هذا ؟ قال : لا أحد . قال : يقول أكيدر : والله ما رأيت . جاءتنا ليلة بقر غير تلك الليلة ، ولقد كنت أضمر لها الخيل إذا أردت أخذها شهراً ، ثم أركب بالرجال والآلة . فنزل فأمر بفرسه فأسرج، وأمر بخيل فأسرجت ، وركب معه نفر من أهل بيته ، معه أخوه حسان ومملوكان فخرجوا من حصنهم بمطاردهم ، فلما فصلوا من الحصن ، وخيل خالد تنظرهم لا يصهل منها فرس ، ولا يتحرك ، فساعة فصل أخذته الخيل ، فاستأسر أكيدر ، وامتنع حسان، فقاتل حتى قتل، وهرب المملوكان، ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن، وكان على حسان قباء ديباج مخوَّص بالذهب ، فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية الضمرى حتى قدم عليهم فأخبرهم بأخذ أكيدر .

قال أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله : رأينا قباء حسان أخى أكيدر حين قُدِمَ به على رسول الله ﷺ ، فجعل الناس يتلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه . فقال رسول الله ﷺ : « أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » ، وقد كان رسول الله ﷺ قال لخالد بن الوليد : « إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله ، وائت به إلى فإن أبى فاقتلوه » فطاوعهم ، فقال بجير بن بحرة من طيئ ، ذكر قول النبى ﷺ لخالد : « إنك تجده يصيد البقر » وما صنع البقر تلك الليلة تصديق قول رسول الله ﷺ ، قال شعراً :

تبارك سائق البقرات إنى ... رأيت الله يهدى كل هاد

ومن يك عائدًا عن ذى تبوك ... فإنا قد أُمرنا بالجهاد

وقال خالد بن الوليد لأكيدر : هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتى بك رسول‌الله ﷺ على أن تفتح لى دُومة ؟ قال : نعم . ذلك لك . فلما صالح أكيدر ، وأكيدر فى وثاق . انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحصن ، ونادى أكيدر أهله : افتحوا باب الحصن ، فأبى عليه مضاد أخو أكيدر ، فقال أكيدر لخالد : تعلم والله لا يفتحون لى ما رأونى فى وثاق . فخلّ عنى ، فلك الله والأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صالحتنى على أهله ، قال خالد : فإنى أصالحك ، فقال أكيدر : إن شئت حكّمتك ، وإن شئت حكّمنى . قال خالد : بل نقبل منك ما أعطيت ، فصالحه على ألفى بعير ، وثمانمائة فراس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، على أن ينطلق به وأخيه إلى رسول الله ﷺ فيحكم فيهما حكمه ، فلما قاضاه خالد على ذلك خلّى سبيله ففتح الحصن ، فدخله خالد ، وأوثق أخاه مضادًا أخا أكيدر ، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسلاح، ثم خرج قافلا إلى المدينة ، ومعه أكيدر ومضاد ، فلما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ صالحه على الجزية ، وحقن دمه ودم أخيه وخلّى سبيلهما ، وكتب رسول الله ﷺ كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم ، وختمه يومئذ بظفره .

وكان بلال بن الحارث المزنى يحدث فيقول : أسرنا أكيدر وأخاه ، فقدمنا بهما على النبى ﷺ ، وعزل يومئذ صفى خالص قبل أن يقسم شىء من الفىء ، ثم خمس الغنائم فكان للنبى ﷺ الخمس وكان عبد الله بن عمرو المزنى يقول : كنا أربعين رجلاً من مزينة مع خالد بن الوليد ، وكانت سهماننا خمس فرائض كل رجل مع سلاح يقسم علينا درع ورماح .

وعن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال : رأيت أكيدر حين قدم به خالد ، وعليه صليب من ذهب ، وعليه الديباج ظاهر . قال الواقدى : وحدثنى شيخ من أهل دومة أن رسول الله ﷺ كتب له هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام ، وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله فى دومة الجندل وأكنافها ، وإن لنا الضاحية من الضحل (١) والبور (٢) والمعامى (٣) وأغفال الأرض (٤) ، والحلقة والسلاح والحافر(٥) والحصن، ولكم الضامنة من النخل(٦)، والمعين(٧) من المعمور

(١) الضحل : الماء القليل .
(٢) البور : ما ليس فيه زرع .
(٣) المعامى : ما ليست له حدود معلومة .
(٤) أغفال الأرض : مياه .
(٥) الحافر : الخيل .
(٦) الضامنة من النخل : التى نبتت عروقها فى الأرض .
(٧) المعين : الماء الطاهر .

بعد الخمس، لا تُعد سارحتكم، ولا تعد رافدتكم[1]، ولا يحظر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر البتات [2] تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين » [3].

قالوا : وأهدى له هدية فيها كسوة ، وكتب له رسول الله ﷺ كتابًا آمنه فيه ، وفيه الصلح ، وآمن أخاه ووضع عليه فيه الجزية ، فلم يك فى يد النبى ﷺ خاتم فختمه بظفره .

٢ ـ (وكانت دومة وأيلة وتيماء قد خافوا النبى ﷺ لما رأوا العرب قد أسلمت ، وقدم يُحنَّة بن رؤبة على النبى ﷺ وكان ملك أيلة ، وأشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر ، وأقبل معه أهل جرباء وأذرح ، فأتوه فصالحهم ، فقطع عليهم الجزية ـ جزية معلومة ـ وكتب لهم كتابًا : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنَّة بن رؤبة وأهل أيلة لسفنهم وسائرهم فى البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، ومن أحدث حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يريدونه ، ولا طريقًا يريدونه من بر أو بحر ، هذا كتاب جهيم ابن الصلت ، وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله ﷺ » . ووضع رسول الله ﷺ الجزية على أهل أيلة ، ثلاثمائة دينار كل سنة ، وكانوا ثلاثمائة رجل . قال : حدثنى يعقوب بن محمد الظفرى عن عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال : رأيت يُحنَّة بن رؤبة يوم أُتى به إلى النبى ﷺ عليه صليب من ذهب ، وهو معقود الناصية ، فلما رأى النبى ﷺ كفَّر وأومأ برأسه ، فأومأ إليه النبى ﷺ : « ارفع رأسك » وصالحه يومئذ ، وكساه رسول الله ﷺ بردًا يمنة ، وأمر له بمنزل عند بلال) [4] .

٣ ـ وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح هذا الكتاب : « من محمد النبى لأهل أذرح ، أنهم آمنون بأمان الله ، وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم » .

قال الواقدى : نسخت كتاب أذرح وإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبى ﷺ لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون ، حتى يحدث إليهم

---

(١) لا تعد رافدتكم : لا يعد ما يبلغ أربعين شاة .
(٢) البتات : المتاع ليس فيه زكاة .
(٣) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٢٥ ـ ١٠٣٠ مقتطفات .
(٤) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٣١، ١٠٣٢ .

محمد قبل خروجه » [١] .

٤ ـ وكتب لأهل مقنا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزولهم ، وربع ثمارهم ، وكان عبيد بن ياسر بن نمير أحد سعد الله ، ورجل من جذام أحد بنى وائل قدما على النبى ﷺ بتبوك ، فأسلما وأعطاهما رسول الله ﷺ ربع مقنا مما يخرج من البحر ومن الثمر من نخلها وربُع المغزل) [٢] .

٥ ـ وروى الإمام أحمد وأبو يعلى بسند حسن لا بأس به عن سعيد بن أبى راشد قال: لقيت التنوخى رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص ، وكان جارًا لى شيخًا كبيرًا قد بلغ (لعلها المائة) أو قرب فقلت : ألا تحدثنى عن رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل ؟ فقال : بلى . قدم رسول الله ﷺ تبوك ، فبعث دحية الكلبى إلى هرقل ، فلما أن جاء كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسى الروم وبطارقته ، ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال : قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم ، وقد أرسل يدعونى إلى ثلاث خصال : أن أتبعه على دينه ، أو أن أعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا ، أو نلقى إليه الحرب ، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ، ليأخذن أرضنا ، فهلم فلنتبعه على دينه ، أو نعطه مالنا على أرضنا ، فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم وقالوا : تدعونا أن نذر النصرانية ، أو نكون عبيدًا لأعرابى جاء من الحجاز ؟ فلما ظن أنهم إذا خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رقَّاهم ولم يكد ، وقال : إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب قال : ادع لى رجلاً حافظًا للحديث عربى اللسان ، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه ، فجاءنى ، فدفع إلىَّ هرقل كتابًا فقال: اذهب بكتابى هذا إلى هذا الرجل ، فما سمعته فاحفظ لى منه ثلاث خصال: هل يذكر صحيفته التى كتب بشىء ؟ وانظر إذا قرأ كتابى هذا هل يذكر الليل ؟ وانظر فى ظهره هل فيه شىء يريبك ؟ قال : فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكًا فإذا هو جالس بين ظهرى أصحابه محتبيًا على الماء، فقلت: أين صاحبكم ؟ قيل: ها هو ذا . فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابى فوضعه فى حجره ثم قال: « ممن أنت ؟ » فقلت : أنا أخو تنوخ . فقال : « هل لك فى الحنيفية ملة أبيك إبراهيم؟ » فقلت : إنى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم . فضحك وقال : « ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]. يا أخا تنوخ ، إنى كتبت بكتاب إلى كسرى فمزَّقه ، والله ممزقه وممزق ملكه ، وكتبت إلى النجاشى بصحيفة فمزقها ، والله ممزقه وممزق ملكه ، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها ،

(١ ، ٢) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٣٢ .

فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا ما دام فى العيش خير ». قلت : هذه إحدى الثلاث التى أوصانى بها صاحبى ، فأخذت سهمًا من جعبتى فكتبتها فى جفن سيفى، ثم ناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قلت : من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ قالوا: معاوية ، فإذا فى كتاب صاحبى: تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار ؟ فقال رسول الله ﷺ: « سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟ » قال : فأخذت سهمًا من جعبتى ، فكتبته فى جفن سيفى ، فلما فرغ من قراءة كتابى قال : « إن لك حقًا ، وإنك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوَّزناك بها ، إنا سفر مرملون »[1] . قال قتادة ، فناداه رجل من طائفة الناس قال : أنا أجوِّزه ، ففتح رحله، فإذا هو بحلة صفورية فوضعها فى حجرى . قلت : من صاحب الجائزة ؟ قيل لى : عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ: « أيكم ينزل هذا الرجل ؟ » فقال فتًى من الأنصار : أنا، فقام الأنصارى وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس نادانى رسول الله ﷺ فقال : « تعال يا أخا تنوخ » فأقبلت أهوى حتى كنت قائمًا فى مجلسى الذى كنت بين يديه ، فحل حبوته وقال : « ها هنا امض لما أمرت له » فجُلت فى ظهره، فإذا أنا بخاتم النبوة فى موضع غضروف الكتف مثل المحجمة الضخمة)[2] .

قال محمد بن عمر : فانصرف الرجل إلى هرقل فذكر ذلك له ، فدعا قومه إلى التصديق بالنبى ﷺ فأبوا حتى خافهم على ملكه ، وهو فى موضعه بحمص لم يتحرك ولم يزحف ، وكان الذى خبر النبى ﷺ من تعبئة أصحابه ودنوه إلى وادى الشام لم ير ذلك ولا همَّ به[3] .

وذكر السهيلى : (أن هرقل أهدى لرسول الله ﷺ هدية ، فقبل رسول الله ﷺ هديته وفرقها على المسلمين[4] .

ثم إن هرقل أمر مناديًا ينادى : ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه ، فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره تريد قتله ، فأرسل إليهم : إنى أريد أن أختبر صلابتكم فى دينكم ، فقد رضيت عنكم ، فرضوا عنه ثم كتب إلى رسول الله ﷺ كتابًا مع دحية يقول فيه : إنى معكم ، ولكنى مغلوب على أمرى ، فلما قرأ رسول الله ﷺ كتابه قال : « كذب عدو الله ، وليس بمسلم بل هو على نصرانيته »)[5] .

٦ ـ وكان عبد الله بن عمر يقول : كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك فقام يصلى من الليل ، وكان يكثر التهجد من الليل ولا يقوم إلا استاك ، وكان إذا قام يصلى صلى بفناء خيمته ، فيقوم ناس من المسلمين فيحرسونه فصلى ليلة من تلك الليالى ، فلما فرغ أقبل

---

(١) مرملون : الزاد عندنا قليل .
(٢) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٤٢ .
(٣ ـ ٥) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٦٠ .

على من كان عنده فقال: « أعطيت خمسًا ما أعطيهن أحد قبلى : بعثت إلى الناس كافة، وإنما كان النبى يبعث إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، أينما أدركتنى الصلاة تيممت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك ولا يصلون إلا فى كنائسهم أو البيع ، وأحلت لى الغنائم كلها ، وكان من قبلى يحرمونها ، والخامسة هى ما هى ، هى ما هى ، هى ما هى (ثلاثًا) » قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قيل لى : سل ، فكل نبى قد سأل ، فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله » .

٧ ـ (وشاور رسول الله ﷺ أصحابه فى التقدم فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله إن كنت أمرت بالسير فسر ، فقال رسول الله ﷺ :

« لو أمرت بالسير لما استشرتكم فيه » فقال : يا رسول الله ، فإن للروم جموعًا كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله عز وجل لك فى ذلك أمرا) [1] .

* * *

الخطوط الكبرى التى نتناولها فى الإقامة فى تبوك ضمن إطار الأمة . هى :

أولاً : تثبيت وترسيخ الوحدانية والرسالة من خلال المعجزات النبوية .

ثانيًا : التوجيهات النظرية والعملية للأمة حتى تتفقه فى دينها .

ثالثًا : المزنيان نموذجان للإيمان الخالص .

أولاً : تثبيت وترسيخ الوحدانية والرسالة :

هؤلاء الأعراب الذين قدموا من كل فج كانوا يتعاملون مع الأصنام والأوثان فى كل مكان يوجدون فيه ، ويدعون مع الله آلهة أخرى يرجون منها الضر والنفع خشية ورغبة، وهم اليوم قد نبذوا هذه العبادة مصدقين رجلاً منهم يقول : إنه رسول الله ، وأن لا إله إلا الله ، وقد اقتنعوا نظريًا بقوله وصدقوه واستجابوا له ونفروا معه ، ولم يوقفوا إيمانهم على طلب المعجزات منه، وهذه الفرصة الأولى لكثير منهم أن يلتقوا معه، وكل رجل منهم سيمضى إلى قومه يحدثهم بما رأى وما سمع ، فيزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويؤمن الشاكون والمرتابون ، ولهذا كانت المعجزات بعضها عامة يشهدها الجيش كله ، وبعضها خاصة يشهدها نفر من الجيش ، ويمضى ليحدث إخوانه بما رأى وشاهد .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٢٢ .

وكانت المعجزة الأولى قبيل الوصول إلى تبوك معجزة عين تبوك أو فوارة تبوك ، وكما شهدنا قصتها ابتداء : « إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتى » .

فقد حدَّد رسول الله ﷺ يوم الوصول وساعة الوصول ، ويكفى أن يصدق هذا التحديد حتى يستجيب الناس للنداء الثالث ألا يمسوا من مائها شيئًا . لكننا لا ندرى هل هناك مخطط من المنافقين بأن تتم مخالفة أمر رسول الله ﷺ ، وتحدى هذه الأوامر، ولابد من فدائيين اثنين يقومان بهذه المهمة ، لأننا لا نتوقع أن يقدم مسلم عادى على هذه المخالفة ، بعد أن شهد صدق النبى ﷺ فى تحديد يوم الوصول وساعة الوصول كما علمه ربه، إنما يقدم على هذه المخالفة مكذب منافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر (فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشىء من مائها ، فسألهما رسول الله ﷺ : « هل مسستما من مائها شيئًا ؟ » قالا : نعم . فسبهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، فالماء يسيل قليلاً قليلاً ، لا يكاد يشبع ظمأ رجل واحد إلا فى غرفات عدة . ويحلم المنافقون أنهم إن مسوا ماءها أن يبطلوا المعجزة النبوية ، ويشك الناس فى النبوة، فهم أصحاب رسالة فى حرب هذا الدين وأهله ، لكن أبطل الله تعالى كيدهم ، والناس جميعًا مجتمعون عند عين تبوك ينتظرون قطرة ماء يبلون صديهم . وعيونهم مسمرة بنبيهم ﷺ ماذا يفعل .

وثم غرفوا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شن ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ومضمض ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير .

وأقبل الجيش على العين يشرب ويرتوى ويملأ آنيته ، ولا داعى لأن يرى عملية إنبجاس الماء كل جندى ، لكن ما من جندى إلا وجاء يملأ شنه ويتبرد ويشرب ويتوضأ ، ومئات الشهود وآلافهم أكدوا أن العين لم يكن فيها ماء يذكر .

وإذا أخذنا برواية ابن إسحاق : (فانخرق الماء حتى كان يقول من سمعه : إن له حسًا كحس الصواعق) ، ونحن بإمكاننا أن نشهد العين ، فلا تزال تزار حتى اليوم ، ونشهد عظمة المعجزة ، وبذلك انفجرت عيون الإيمان فى قلوب الجيش مثل انفجار عين تبوك ، وأصبحت القلوب تفور باليقين مثل فوارة تبوك بعد أن كانت مثل شراك النعل ، وأدرك القوم أنهم حزب الله ، والله لا يتخلى عن حزبه وجنده وفيهم عبده ورسوله ونبيه ، ولا يمكن أن يهلك حزب الله فى هذه البيداء القاحلة وهم خيرة الله من خلقه ومعهم سيد ولد آدم ، فكان لانبجاس الماء فى هذه الصحراء حياة للمؤمنين وحياة للقلوب بهذا الدين الذى أسعدهم الله به ، وأقر أعينهم بالماء الذى جعل الله منه كل شىء حى .

وبعد أن اطمأن الجيش إلى هذه المعجزة ، لا شك أن كثيرًا من الصحابة أخذت تتوق نفسه إلى أن يلتقى مع رسول الله ﷺ ويحدثه ، ويكلمه ، ويخبر قومه بما جرى بينه وبين رسول الله ﷺ .

وشهدنا هذه الصورة مع رجل من سعد هذيم لا هم له إلا أن يشهد جديدًا من المعجزات النبوية ، حيث جاء ورسول الله ﷺ مع نفر من أصحابه هو سابعهم (فوقفت فسلمت . فقال : « اجلس » فقلت : يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . قال : « أفلح وجهك ») .

وحق الضيف القرى على مضيفه . ثم قال : « يا بلال ، أطعمنا » وكانت نفس السعدى تتوق لترى شيئًا خاصًا تفخر به على الآخرين (فبسط بلال نطعًا ، ثم جعل يخرج من حميت له ، فأخرج خرجات بيده من تمر معجون بالسمن والإقط ، ثم قال رسول الله ﷺ : « كلوا ») .

وأقدم على الطعام وهو يرى أن الأكل لا يكفيه وحده ، فماذا يأكل السبعة الآخرون وثامنهم رسول الله ﷺ ، وتقدم وأكل ، وهو يود أن ينسحب فمن العيب أن يأكل مع الآخرين ويلتهم طعامهم كله، وأكل وهمّ أن يتوقف، لكنه يرى التمر لم ينقص ، ويأكل ولا يزال فى التمر مدد حتى شبع، وها هو يرى المعجزة بعينه لم يحدثه عنها أحد فما تمالك أن قال لنبيه المصطفى ﷺ : يا رسول الله ، إن كنت لآكل هذا وحدى ، وكان الجواب النبوى يحمل فى ثناياه التعليل التربوى المناسب لهذا الأعرابى قائلاً: « الكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، والمؤمن يأكل فى معى واحد » فالأصل قلة الأكل بالنسبة للمؤمن خاصة إذا قيس بالكافر ، ومضى لا يكاد يصدق نفسه مما رأى ، ولو سمعها من غيره لشك فى كلامه ، وقرر أن يعود فى اليوم الثانى متحينًا الغداء ، ويحدثنا عن هدفه من ذلك : (لأزداد فى الإسلام يقينًا) فهو يدخل دفقات الإيمان إلى قلبه مع كل معجزة يراها (فإذا عشرة نفر حوله ، قال : « هات أطعمنا يا بلال ») ورسول الله ﷺ يدرك لم جاء هذا السعدى مرة ثانية وفى وقت الغداء . (قال : فجعل يخرج من جراب تمر بكفه قبضة قبضة ، فقال : « أخرج ولا تخف من ذى العرش اقتارا » فجاء بالجراب فنثره قال : فحزرته مدّين) وهو اليوم مؤمن ، وسوف يقيس طعامه اليوم بطعام الأمس وهو مؤمن ليس بكافر ، وهو يراقب كل كلمة وكل نأمة وكل حركة (أى قرابة نصف كيلو من التمر ، وقد اجتمع عليه عشرة نفر ، فهل يبلغ لكل واحد منهم ثلاث تمرات ؟) يجيبنا السعدى عن هذا التساؤل بقوله بعد المس النبوى له : (فوضع النبى ﷺ يده على التمر ثم قال : « كلوا باسم الله » فأكل القوم ، وأكلت معهم ، وكنت صاحب تمر ، فأكلت حتى ما أجد مسلكًا) فقد كفى المدان هؤلاء عشرة أشخاص ، لكن الذى أدهشه

أن التمر على ما هو عليه. ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الطور] ، بل هو الحق والنبوة الصادقة الموصولة بالله رب العالمين ، (ثم عدت من الغد ، قال : وعاد نفر حتى باتوا ، فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلين فقال : « يا بلال أطعمنا ») فإذا بالجراب نفسه لم يتغير ولم يتبدل ، والتمرات نفسهن اللاتى كن فى النطع وزادت المأدبة، وزاد الضيوف، وزاد الشبع ، والتمر هو هو (فأكلنا حتى نهلنا ثم رفع مثل الذى صب، ففعل مثل ذلك ثلاثة أيام) .

ومضى السعدى إلى قومه وقد غدا منورًا بنور النبوة يحدثهم عما رأى بعينه ، لم يحدثه أحد . ليست مرة واحدة بل ثلاث مرات ، وإذن فلتحل مشكلة القبيلة كاملة ، مضى هذا السعدى وجاء بوفد من قبيلته الذين آمنوا بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا ، جاؤوا بأمر لا يعجز رسول الله ﷺ ، وهمهم أن يبلغ هذا الدين كل ذرة رمل فى هذه الصحراء ، وكل نفس حرًى فيها ، (وقدم نفر من بنى سعد هذيم على رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إنا قدمنا إليك ، وتركنا أهلنا على بئر لنا قليل ماؤها ، وهذا القيظ ونحن نخاف إن تفرقنا أن نتقطع) . فإذا مضت القبيلة تبحث عن الماء فى كل جانب وكل متاهة ، فسيلقاهم المشركون ويفترسوهم ، وقد سمعوا كيف جاش الماء فى تبوك عندما مضمض فيه رسول الله ﷺ وغسل فيه وجهه ويديه ، فهل يقتضى الأمر أن يرد رسول الله ﷺ ماءهم ليبصق فيه ، ويغسل وجهه ويديه ، وقد سمعوا عن التمر الذى أكل منه ما ينوف عن العشرة وهو لا يزيد عن المدين ، وشبعوا وأتخموا والتمر هو التمر لم تنقص منه تمرة واحدة ، وسمعوا عن البئر التى جاشت بالرواء بعد أن كانت تبض كالشراك ، والأمر أمر هذه القبيلة وهمها كلها فبالماء الحياة وبالماء الرواء ، وبالماء الطهور (فادع الله لنا فى بئرنا ، وإن روينا فلا قوم أعزمنا) فهم كتلة واحدة إذا اجتمعت على الإسلام هابت الأعداء جانبها ، ولن نضطر بعدها لتتفرق بحثًا عن المرعى والكلأ، وحُفِر أعظم بئر أرتوازى عند سعد هذيم، وكانت تكاليفه عوضًا عن مئات الألوف من الدنانير بضعة حصيات فركهن رسول الله ﷺ بيده وقال : « ادفعوا بهذه الحصيات إلى بئركم ، فاطرحوها واحدة واحدة ، وسموا الله » وكانت هذه الآليات المطلوبة ، وهذه الخبرات الاختصاصية المستوردة ، وكل ذلك منطلق باسم الله عز وجل وليس باسم محمد ﷺ ، كل هذا لتثبيت الوحدانية الخالصة لله ، وإثبات الرسالة لرسول الله .

ومن منطلقات المنهج التربوى لهذه القاعدة أن يفسح المجال أمام أكبر عدد ممكن من المؤمنين ليشهدوا هذه المعجزات ويكونوا دعاة ورسلاً إلى قومهم وعشائرهم بهذا الدين ، وعلى هذا النهج قصة عرباض بن سارية الذى لم يكن ضيفًا على رسول الله ﷺ مثل

أخيه السعدى ، إنما كان ملازمًا لرسول الله ﷺ فى الحضر والسفر ، فهو مع معجزاته باستمرار ينقل لنا إحداها حين حضر الضيوف لبيت النبوة فقال رسول الله ﷺ لبلال : «يا بلال هل من عشاء لهؤلاء النفر ؟ » قال : لا والذى بعثك بالحق ، لقد نفضت جربنا وحُمُتنا . قال : « انظر عسى أن تجد شيئًا » فأخذ الجرب ينفضها جِرابًا جِرابًا فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت بين يديه سبع تمرات ، ولا ندرى فلعل هؤلاء التمرات قد ابتعثهن رب العزة من عنده ليكرم رسوله فى ضيفه ؛ إذ أن أوعية التمر قد نفضت كلها ، وعهد بلال أن لا شىء فيها . (ثم دعا بصحفة فوضع فيها التمر ، ثم وضع يده على التمرات وسمى الله وقال : « كلوا باسم الله ») اليد المباركة والبسملة الخالصة ومعمل التمر الذى بدأ يفرز ما تحتاجه الوليمة (فأكلنا ، فأحصيت أربعة وخمسين تمرة أكلتها أعدها ونواها فى يدى الأخرى ، وصاحباى يصنعان ما أصنع ، وشبعنا وأكل كل واحد منا خمسين تمرة ، ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هى . فقال : « يا بلال ، ارفعها فى جرابك، فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل شبعًا » . وتكررت المأدبة ثلاثة أيام متتالية قال على إثرها رسول الله ﷺ : « لولا أنى أستحى من ربى لأكلنا من هذا التمر حتى نرد المدينة عن آخرنا » فهو العبد ذو الحظوة العليا عند ربه ، ولو طلب من ربه الواحد الأحد أن يطعم الجيش كله حتى يرد الجيش المدينة من هذه التمرات لأعطاه ربه ذلك ، ولكن عظمة عبوديته فى عظمة استحيائه من خالقه ، وعلى هذه القواعد التى سمعت ورأت أن تمضى ضاربة فى الأرض داعية إلى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

فوات الفجر :

وخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك،حتى إذا كنا منها على ليلة استرقد رسول الله ﷺ فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قيد رمح،وهذا يعنى أن المسلمين جميعًا لم يستيقظوا ومما ينزل بالجيش من التعب والإرهاق بعد المسير المضنى يجعل قضية استيقاظهم صعبة للغاية ما لم يكن الأذان الذى يوقظهم للصلاة. (فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال ألم أقل لك إكلأ لنا الليل ؟ » فقال بلال : ذهب بى النوم ، ذهب بى الذى ذهب بك) .

وكان هذا درسًا جماعيًا للجيش حتى يتعلم ماذا يفعل لو أخذه النوم فلم يستيقظ على الصلاة ، (فارتحل رسول الله ﷺ من ذلك المكان غير بعيد ، ثم صلى ركعتين قبل الفجر ، ثم صلى الفجر) . ولعل الارتحال كان لمكان فيه شىء من الماء ، وأقيمت الصلاة بعد صلاة ركعتى السنة ، وصلى رسول الله ﷺ بالمسلمين الفجر ، وكانت أهمية هذا الدرس الجماعى فى أن الصلاة لابد أن تقام حتى لو فات وقتها ، وخاصة صلاة الصبح التى تصلى ولو كان الاستيقاظ متأخرًا ، ولم يفهم المسلمون أنها أديت قضاءً ، إنما فهموها أداءً وعلى ذلك رأى الفقهاء فى هذا الأمر .

ثانيًا : التوجيهات النظرية والعملية :

(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجرًا قبلة مسجد تبوك وأومأ بيده إلى الحجر وما يليه ، ثم صلى بالناس الظهر ، ثم أقبل عليهم فقال : « ما ها هنا شام ، وما هاهنا يمن » وعرف المسلمون أن هذا الحجر هو دار الرئاسة والقيادة ، فعنده يؤم رسول الله ﷺ المسلمين للصلاة ، وعنده يجلس ويتحدث إلى المسلمين ، وفى جواره يفتى ويجيب على الأسئلة ، ومنه ينطلق إلى ما يخص المسلمين فى دنياهم وأخراهم ، ويمثل وحدتهم واتحادهم .

وكان أول إعلام نبوى فيه أن كان هذا الحجر هو الحد الفاصل بين اليمن والشام ، ووصل رسول الله ﷺ إلى تخوم الشام وآخر حدود الجزيرة ، حيث كان موقعه اليوم ، وهذا يعنى من طرف آخر أن الجزيرة العربية قد دانت له، وأصبحت قبائلها إما مسلمة أو مسالمة ، وسبق أن بشر المسلمين بما أمره الله تعالى به من ملوك حمير فى أقصى الجنوب اليمنى يقاتلون فى سبيل الله ويأكلون فىء الله ، ويدخلون فى دين الله ، وتجسد فى هذا الموقع كذلك ما نشهده فى الكعبة المشرفة حيث الركن اليمانى باتجاه اليمن، والركن الشامى باتجاه الشام ، فكانت هذه الحجرة التى حددت قبلة المسجد ، وحددت الحدود بين الشام واليمن ، وحددت بوصلة الاتجاه نحو القبلة المشرفة من كل مكان فى الأرض.

وكان الإعلام الثانى بعد البشارة الأولى بملوك حمير أن تكون اليمن من أعظم معاقل الإسلام ، وكأنما اليمن هى الإيمان والإيمان هو اليمن ، فسماه رسول الله ﷺ : « الإيمان يمان » ، وفى رواية أخرى : « والحكمة يمانية ») وكأنما الأعرابية وخباؤها وغلظتها ليست منتشرة هناك ، فلذلك اتجه رسول الله ﷺ صوب المشرق وقال : « إن الجفاء وغلظ القلوب فى الفدادين أهل الوبر من نحو المشرق حيث يطلع الشيطان قرنيه » ، ونعرف الأهوال التى لاقاها المسلمون فى حرب فارس ، وحرب العرب الموالين لهم أو الذين ارتدوا من قبل المشرق ، وكأنما الشيطان قد اتخذ من المشرق موقعًا لحرب هذا الدين ، وراح ينطح بقرنيه هذا الدين .

كناطح صخرة يومًا ليوهنها   فلم يهنها وأدمى قرنه الوعل

وكان الإعلام الثالث لكتائب الإسلام المتجمعة من كل أنحاء الجزيرة بعد أن تحدث عن خير المواقع فى تعاملها مع الإسلام وشرها فى ذلك ، أن يتحدث عن خير الناس وشر الناس .

« ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس » وما أحرص المسلمين على التعرف على هذه النماذج « إن من خير الناس رجلاً يحمل فى سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت » فذروة سنام الإسلام الجهاد ، وإذا كان الله تعالى

عافى المسلمين فى هذه الجولة من مواجهة الروم كما يظهر حتى الآن ، لكن هذا لا يعنى أن الجهاد انتهى ، وأن تبقى الشام رهينة بأيدى الروم وغير الشام كذلك خاصة ورسول الله ﷺ مع أنه وضع الحجر الذى حدد فيه الشام عن اليمن ، لكنه قال : « اللهم بارك لنا فى شامنا ويمننا » فنسب الشام إلى رسول الله ﷺ واليمن كذلك ، فالجهاد ماض ولن يتوقف ولا خير فى الدنيا يعدل فضل الجهاد أو أحد يفضل على المجاهد .

لكن شر الناس هو المفاجأة التى فاجأت عساكر المسلمين ، فكان المتوقع أن يكون شر الناس هو الذى يركب فرسه أو بعيره أو قدميه ليصد عن سبيل الله ، وهم المشركون المحاربون ، كانت المفاجأة غير ذلك . « وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئًا يقرأ كتاب الله ولا يرعوى إلى شىء منه » [1] .

فإذن قد يوجد من يحمل اسم الإسلام ويقرأ كتاب الله ، ولكنه لا يحل حرامه ، ولا يحرم حلاله ، ولا يرعوى إلى شىء منه ينتهك حرمات الله بفجوره وجرأته على حدود الله وعلى دينه وكتابه ورسوله ، وهذا الخطر لم يكن ليخطر على ذهن المسلمين ، وأن هناك مواجهة مع العدو الداخلى الذى حمل اسم الإسلام وقرأ كتاب الإسلام ، وحارب هذا الكتاب وأهله وتجرأ عليهم فهو من شر الناس .

الخطة الجامعة المانعة :

إنها تربية جماعية لهذه الكتائب الإسلامية منها ما يسمع الخطبة ، ومنها ما ينقل له نصها أثناء الخطابة أو معناها بعدها . فهؤلاء الثلاثون ألفًا قد جمعتهم هذه الصحراء المترامية الأطراف ويود كل فرد منهم أن يعى هذه الموعظة ، وكثير منهم يسمع كلام رسول الله ﷺ للمرة الأولى .

روى البيهقى عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أصبح بتبوك حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال . . . وتعلم هذا الجيل منه أنه لو قدر لأى واحد أن يكون أميرًا وخطيبًا فى قومه فلابد أن يحمد الله تعالى ابتداء ، ويثنى عليه بما هو أهله ، وأن يصلى على نبى الهدى والرحمة ، ثم يبدأ بكلامه وخطبته .

وبعد أن حدَّث رسول الله ﷺ فى الجولة الأولى وفى الخطبة الأولى عن خير الناس وشر الناس ، جاءت هذه الخطبة الجامعة المانعة ليحدث عشرات الألوف هذه عن الخيرية فى كل شىء والشرية فى كل شىء .

فقد قدم لنا رسول الله ﷺ الخيريات العشر فى هذا الوجود :

---

(١) سبق أن ذكرنا أن هذا الحديث فى مسند أحمد ٣/ ٣٧ ـ ٤١ .

١ ـ فإن أصدق الحديث كتاب الله .

٢ ـ وأوثق العرى كلمة التقوى .

٣ ـ وخير الملل ملة إبراهيم .

٤ ـ وخير السنن سنة محمد .

٥ ـ وأشرف الحديث ذكر الله .

٦ ـ وأحسن القصص القرآن .

٧ ـ وخير الأمور عوازمها .

٨ ـ وأحسن الهدى هدى الأنبياء .

٩ ـ وأشرف الموت قتل الشهداء .

١٠ ـ وخير الأعمال ما نفع .

هذه الخيريات العشر التى يحب أن ترسخ فى قلوب هذه الألوف المؤلفة ، يقابلها الشريات الخمس :

١ ـ شر الأمور محدثاتها .

٢ ـ وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى .

٣ ـ وشر العمى عمى القلب .

٤ ـ وشر المعذرة حين يحضر الموت .

٥ ـ وشر الندامة يوم القيامة .

وبعد هذه الكليات من الخير والشر ، يعود إمام المربين صلوات الله وسلامه عليه ليلقى الضوء على بعض الجزئيات الهامة التى تقود هذا الجيل إلى النور وتخرجه من الظلمات ، فيكون موصول القلب بدنياه وآخرته فيريد جيلاً فاعلاً معطاءً عمليًا يقول له:

١ ـ واليد العليا خير من اليد السفلى .

٢ ـ وما قل وكفى خير مما كثر وألهى .

وبصدد الحديث عن اللهو يذكر بيوم القيامة وما سبق أن ذكرناه عن شر الندامة ، وشر المعذرة .

ويعرض بعدها لنماذج محذورة مرفوضة .

٣ ـ ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبرا .

٤ ـ ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا .

٥ ـ ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب .

ليعرض بعدها نماذج محتذاة مقتداة فى أربع فقرات تتصل بحبلها الوثيق بالخيريات العشر الأولى :

١ ـ وخير الغنى غنى النفس .

٢ ـ وخير الزاد التقوى .

٣ ـ ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل .

٤ ـ وخير ما وقر فى القلب اليقين .

ليقابلها عشر نماذج مرفوضة تتصل بحبلها الوثيق فى الشريات الخمس الأولى :

١ ـ والارتياب من الكفر .

٢ ـ والنياحة من أعمال الجاهلية .

٣ ـ والغلول من جثى جهنم .

٤ ـ والسكركة من النار .

٥ ـ والشعر من إبليس [1] .

٦ ـ والخمر جماع الإثم .

٧ ـ والنساء حبالة الشيطان [2] .

٨ ـ والشباب شعبة من الجنون [3] .

٩ ـ وشر المكاسب كسب الربا .

١٠ ـ وشر المآكل أكل اليتيم .

---

(١) إلا ما استثناه الله تعالى بقوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء : ٢٢٧] ، وما قاله عليه الصلاة والسلام : « إن من الشعر لحكمة » .

(٢) والنساء حبالة الشيطان إلا الصالحات القانتات الحافظات للغيب .

(٣) إلا من كانت سراته إلى الله ورسوله .

ويكون جماع هذه الأمور كلها فى خطين : الشقاء والسعادة .

١ ـ والسعيد من وُعِظ بغيره .

٢ ـ والشقى من شقى فى بطن أمه .

ويختصر الدنيا كلها لتعبر من القبر إلى الآخرة .

٣ ـ وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع .

٤ ـ والأمر إلى الآخرة .

٥ ـ وملاك العمل خواتمه .

ومن أين يأتى الشقاء فمن هذه الخطوط :

١ ـ وشر الرؤيا رؤيا الكذب .

٢ ـ وكل ما هو آت قريب .

٣ ـ وسباب المؤمن فسوق .

٤ ـ وقتال المؤمن كفر .

٥ ـ وأكل لحمه من معصية الله عز وجل .

٦ ـ وحرمة ماله كحرمة دمه .

٧ ـ ومن يتأل على الله يكذبه .

ومن أين تأتى السعادة فمن هذه الخطوط :

١ ـ ومن يغفر يغفر الله له .

٢ ـ ومن يعف يُعف عنه .

٣ ـ ومن يكظم غيظه يأجره الله .

٤ ـ ومن يصبر على الرزية يعوّضه الله .

وختم رسول الله ﷺ خطبته العظيمة الفذة البليغة بقوله :

١ ـ « ومن يبتغ السمعة يسمع الله به » .

٢ ـ « ومن يصبر يضعف الله له (الأجر) » .

٣ ـ « ومن يعص الله يعذبه الله » .

« اللهم اغفر لى ولأمتى ـ قالها ثلاثًا ـ أستغفر الله لى ولكم » .

ثلاث وخمسون فقرة كانت هذه الخطبة النبوية جمعت معالم الخير والشر فى الحياة، بحيث لو تمثلها هذا الجيل فى قلبه وعقله لكانت أكبر زادٍ له على الطريق وحيث ينقلها كل فرد إلى أهله وقومه وذويه وعشيرته ، فتبنى الأمة بهذه الأخلاقيات الكبرى والمحاذير الكبرى كذلك ، وتتهيأ هذه القاعدة العريضة بهذه الخطبة وأمثالها ، لتمثل الصياغة الربانية بالإشراف النبوى الذى اختاره الله تعالى لتحقيق هذه المهمة .

ولم يكتف رسول الله ﷺ بإلقاء خطبته على جنده ، أو استقبال ضيوفه ، إنما مضى يطوف على جيشه يتعرف عليهم عن كثب ، ويلتقى بوجوههم وساداتهم ، وجاءتنا لقطة واحدة من هذه اللقاءات قدمها لنا رجل من بنى عذرة اسمه « عدى » إذ يقول :

جئت رسول الله ﷺ بتبوك، فرأيته على ناقة حمراء يطوف على الناس يقول: « أيها الناس يد الله فوق يد المعطى ، ويد المعطِى الوسطى ، ويد المُعطَى السفلى » .

فتوجيهاته ﷺ لجيشه ليست فى باب الجهاد فقط، إنما فى كل باب من أبواب الحياة، وهذا التوجيه الذى يود به رسول الله ﷺ دفع أمته للعمل والسعى ، والبعد عن التواكل والدعة ، فجعل يد الله تعالى فوق يد المعطى ، ويد المعطى هى يد الغنى القوى الذى يتصدق ولا يُتصدق عليه، وزاد هذا المعنى جلاءً بقوله: « اقنعوا ولو بحزم الحطب » ويود أن ينقلها إلى الأمة كلها وتنقل عنه : فقال : « اللهم هل بلغت ، اللهم اشهد » ثلاثًا .

وفى غضون ذلك وفى تلك الحلقة التى رآها عدى كانت فرصته سانحة له أن يسأله عن همه وغمّه فقال : يا رسول الله ، كان لى امرأتان اقتتلتا ، فرميت فأصبت إحداهما فرمى فى رميتى ـ يعنى ماتت ـ فقال : « تعقلها ولا ترثها » فكان الحكم أن يدفع ديتها ويحرم ميراثها ، وكم فاتنا من الحلقات والتعليمات والاستفسارات التى لم ينقلها لنا أناس مثل عدى العذرى رضي الله عنه .

وحتى تتحول التعليمات إلى واقع عملى نشهد توجيه رسول الله ﷺ جنوده إلى السعى ، كما حدثنا رافع بن خديج رضي الله عنه يقول : (أقمنا بتبوك ، فأرملنا من الزاد ، وقرمنا إلى اللحم ، ونحن لا نجده ، فجئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن اللحم ها هنا ، وقد سألت أهل البلد عن الصيد ، فذكروا لى صيدًا قريبًا ، فأشاروا إلى ناحية المغرب ، فأذهب فأصيد فى نفر من أصحابى ؟) .

قال رسول الله ﷺ :

« إن ذهبت فاذهب فى عدة من أصحابك ، وكونوا على خيل فإنكم متفرقون من العسكر » .

فلم يعرض عليه رسول الله ﷺ معجزة يطعمها فيه مع أصحابه ، كما رأينا من قبل مع أصحاب التمر ، ولم يدعه إلى الزهد قائلاً : « مالك واللحم ، والتمر يكفيك » بل أراد له أن يغامر فيصطاد ضمن مراعاة الناحية الأمنية ؛ لأن العدو محيط من كل جانب، ورغم هذا الخطر فلم يمنعه ، لكن دعاه لأخذ احتياطه الكافى من العدة القوية والعدد المناسب ، وخرجت مجموعة الصيادين المهرة ، وعلى رأسهم رافع بن خديج ، وأبو قتادة فارس رسول الله ﷺ (فانطلقت فى عشرة من الأنصار فيهم أبو قتادة ، وكان صاحب طرد بالرمح وكنت راميًا ، فطلبنا الصيد ، فأدركنا صيدًا ، فقتل أبو قتادة خمسة أحمرة بالرمح على فرسه، ورميتُ قريبًا من عشرين ظبيًا، وأخذ أصحابى الظبيين والثلاثة والأربعة ، وأخذنا نعامة طردناها على خيلنا ثم رجعنا إلى المعسكر ، فجئناهم عشاءً ورسول الله ﷺ يسأل عنا « ما جاؤوا بعد ؟ ») إنه عليه الصلاة والسلام لم ينس وضع هذا النفر الصغير من بين الثلاثين ألفًا ، وقد خرجوا يصطادون للجيش ، وهو قلق عليهم يخشى أن يغتالهم العدو ، وقلبه على أحر من الجمر ينتظر قدومهم ، فظفر جندى واحد عنده يعدل جيش عدو بأكمله ، وهو لا يريد أن يشغل حربًا فيما حوله ، لكن لو مسَّ هؤلاء النفر خطر لأشعل حربًا مع العدو من أجلهم، وإلا استخف العدو بجيشه وجنده، وشهدنا فى الحديبية كيف قرَّر رسول الله ﷺ حربًا من أجل عثمان بن عفان حين بلغه أنه قتل ، وكانت بيعة الرضوان . فكما ذكر لنا رافع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يسأل عنهم بقلق بالغ « ما جاؤوا بعد ؟ » .

(فجئنا إليه فألقينا ذلك الصيد بين يديه ، فقال : « فرقوه بين أصحابكم » .

وهذا هو جانب التربية العظيم ، فليس هذا الصيد للقيادة فقط ، وللمجموعة التى اصطادت ، ويبقى سرًا لا يعلم به أحد كما هو الحال دائمًا عند القيادات التى تستأثر بالخيرات لنفسها ولأتباعها وخواصها بحجة المصلحة العامة ، بينما هو للأمة ولأصحاب المجموعة التى مضت تصطاد ، وليس للمصطادين فقط ، إنها الروح الجماعية التى يبثها رسول الله ﷺ فى جنده : « فرقوه بين أصحابكم » وعلى هذا النسق العالى من التربية قلت : يا رسول الله أنت مر به رجلاً ، قال : فأمر رافع بن خديج .

قال : فجعلت أعطى القبيلة بأسرها الحمار والظبى ، وأفرق ذلك حتى كان الذى صار لرسول الله ﷺ ظبى واحد ذبح ، فأمر به فطبخ ، فلما نضج دعا به وعنده أضياف فأكلوا .

وحصة القيادة مثل حصة القاعدة ظبى واحد للرسول ﷺ وضيفانه الذين لا يفارقونه أبدًا . وتتوزع القبيلة الحمار الوحشى والظبى ، وذاق الجيش اللحم الذى حرم منه منذ شهرٍ ونيف ، وتحقق الهدف ، لكن لم يعد هناك ضرورة لمثل هذه المخاطرة مرة

ثانية حتى لا تأتى بنتائج أكثر خطورة من ذوق اللحم .

(ونهانا بعد أن نعود ، وقال : « لا آمن » أو قال : « أخاف عليكم ») .

إنه التوازن الكامل بين سلامة الفرد المسلم ، وبين إطعام الجيش المسلم ، وبين تنمية الروح الجماعية والإيثار والتضحية فى الصف المسلم ، بحيث تحقق الخطوات العملية التوجيهات النظرية فى السعى للرزق ، والجهد فيه ، مع عدم الاستئثار بهذا الجهد فى هذه الرحلة الجماعية الكبرى ، فقد كانت الإقامة فى تبوك عشرين يومًا تحقق فيها أعظم قدر ممكن من التربية نظرًا وسلوكًا ، لم ينقل لنا منه إلا هذا النزر اليسير . عشرون يومًا للقاء رسول الله ﷺ مع أكبر عدد ممكن من جنده ، وتقديم أكبر قدرٍ ممكن من هذا الدين ليتفقه به الجيش ، وتوجيه الطاقات كلها لذلك ، ويسعدنا حقًا أن نشهد كل همسة نبوية، أو توجيه أو إشارة نتفقه منها فى دين الله ، فتبوك لم تشهد حربًا ، إنما هى دورة تربوية ضخمة على مستوى الأمة ، نعيش فيها مع سيد الخلق صلوات الله عليه ، وهذه نبذة أخرى نشهدها فى تبوك تعطينا إضاءات عن التربية النبوية الخالدة ، هى ليست فى مجال الطعام والشراب ، إنما فى مجال الجهاد .

الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة :

(وأهدى رجل من قضاعة إلى النبى ﷺ فرسًا فأعطاه رجلاً من الأنصار ، وأمره أن يربطه حياله استئناسًا بصهيله ، فلم يزل كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة) .

ولا شىء أغلى من الفرس يهدى للمجاهد ، وسعادة رسول الله ﷺ به أن يكون بجواره ليستأنس بصهيله ، فصهيله مثار عزٍ وقوة ، ولم يبعده عنه ﷺ طيلة إقامته بتبوك ورافقه إلى المدينة ، وهو غير فرسه الظرب الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، ريثما نتابع رحلتنا مع الفرس الهدية إلى المدينة حيث افتقد رسول الله ﷺ صوته بعد الوصول إلى المدينة بأيام فسأل جنديه الأنصارى عن ذلك فقال : خصيته يا رسول الله ﷺ ، وكانت هذه مناسبة طيبة جدًا للحديث عن الخيل وفضل اقتنائها فى سبيل الله . نستمع إلى التوجيه النبوى فيه :

« فإن الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، اتخذوا من نسلها ، وباهوا بصهيلها المشركين » .

فلابد أن تتناسل الخيل العربية الأصيلة ، ولابد أن تكون السلاح الذى لا يفل للمسلمين ، وصهيلها حين تكون ذات أعداد ضخمة تثير الرعب فى صفوف المشركين ، «وباهوا بصهيلها المشركين » . لقد كان سلاح الفرسان فى بدر التاريخ فرسين فقط ، واليوم بلغ سلاح الفرسان عند رسول الله ﷺ عشرة آلاف فرس . وتأتى الدعوة النبوية

لإكثار نسلها والاستزادة منها ، ثم هى « أعرافها أدفاؤها وأذنابها مذابها » فهى تقوم بأود نفسها ، ولا تحتاج إلا إلى علفها ، ودواؤها فيها ، ولكن هذه الخيل ليست للمباهاة والفخفخة والاستكبار كما هى الحال عند الكثير ممن يقتنونها ، إنها أداة الموت والشهادة فى سبيل الله ، وهى التى تقدم المسلم وروحه مهراً للجنة ، ولهذا انتقل رسول الله ﷺ إلى الحديث عن الشهداء والشهادة فى صورة حية تكاد تلتقط تلفزيونيًا من عظمة وصفها: «والذى نفسى بيده إن الشهداء ليأتون يوم القيامة بأسيافهم على عواتقهم لا يمرون بأحد من الأنبياء إلا تنحى عنهم ، حتى إنهم ليمرون بإبراهيم خليل الرحمن ، فيتنحى لهم حتى يجلسوا على منابر من نور ، يقول الناس : هؤلاء الذين أهريقوا دماءهم لرب العالمين ، فيكون ذلك حتى يقضى الله عز وجل بين عباده . . . » فهم وفد الرحمن المكرم على منابر من نور ، يطوفون بين صفوف الخلق ، وتفسح لهم الطرقات ، ومعهم سيوفهم ، ولماذا هذا العرض العسكرى فى عرصات يوم القيامة ، إنه تكريم لهم لأنهم أهرقوا دمهم فى سبيل الله عز وجل ، فيجلسون على سدة الاحتفال العليا ، بحيث يراهم الخلق جميعًا ، وهم يعانون ما يعانون من أهوال يوم القيامة .

وعودة إلى فرس رسول الله ﷺ الظرب ـ الفرس الرفيق لرسول الله ﷺ فى رحلته من المدينة إلى تبوك ، وقام فى خلال الإقامة هناك إلى صديقه ، فعلّق عليه شعاره ، وجعل يمسح ظهره بردائه ، أى إكرام لهذا الفرس الذى تود عشرات الألوف من الرجال أن ينالوا مثله يمسح ظهره بردائه ، ويقلده شعاره .

(قيل يا رسول الله ، تمسح ظهره بردائك ؟) ونحن نود ذرة من ذلك الرداء نتبرك به ، ونمسح به على قلوبنا وظهورنا ، فليهنك الله أيها الفرس السبوح بهذا الفخر ، خاصة ورسول الله ﷺ هو الذى يجيب عن هذا المسح بقوله : « وما يدريك ؟ لعل جبريل أمرنى بذلك ، مع أنى قد بت الليلة ، وإن الملائكة لتعاتبنى فى مسِّ الخيل ومسحها » وأى معانٍ من الحماس والحب للخيل تتدفق فى قلب هذا الجيل الربانى نحو الخيل وإكرامها بعد سماع معاتبة الملائكة لحبيب رب العالمين فى التقصير فى حسِّ الخيل ومسحها .

ويتابع الرسول ﷺ إيقاد هذه القلوب بهذا الحب لاقتناء الخيل والاعتناء بها ، والاهتمام بأحاسيسها ومشاعرها ، (وقال : « أخبرنى خليلى جبريل أنه يكتب لى بكل حسنة أوفيتها إياه حسنة ، وإن ربى عز وجل يحط عنى سيئة . . . » وحتى لا يتدسس الشيطان فى هذا الجيل الحبيب فيوسوس له أن هذا الفضل خاص برسول الله ﷺ ، جاء الكلام النبوى المعجز ليروى ظمأ كل فرد فى هذا الجيش تجاه فرسه « وما من امرئ من المسلمين يربط فرسًا فى سبيل الله فيوفيه بعلفه ، يلتمس به قوته إلا كتب الله له بكل

حبة حسنة ، وحطَّ عنه بكل حبة خطيئة » .

وسعد الجيل السعيد بما وعده ربه ، وكانت فرصته لسؤال خبير الخيول العربية رسول الله ﷺ عن أنواعها ، وأجوادها ، فقيل : يا رسول الله ، وأى الخيل خير ؟ فقد تاقت نفس كل جندى ليقتنى فرسًا أو حصانًا فى سبيل الله، فأى الخيل خير ؟ قال: « أدهم[1]، أقرح [2] ، أرثم [3] ، محجل [4] الثلث ، مطلق اليمين ، فإن لم يكن أدهم فكميت [5] على هذه الصفة » .

وإذا كانت الأمة قد خرجت كلها لتتفقه فى الدين مع رسول الله ﷺ ، فهى الفرصة المناسبة للسؤال عن كل شىء (قيل : يا رسول الله ، فما فى الصوم فى سبيل الله؟ قال :

« من صام يومًا فى سبيل الله تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة سنة كأغذ السير ») .

وتتحرك لواعج المهاجرين المنقطعين عن أهليهم ما ينوف عن شهر ونيف ، ما هى أوضاعهم وما هى أحوالهم ؟ هم مطمئنون عليهم ، فمسلمة بن مخلد ، وعلى بن أبى طالب ، فارسى رسول الله ﷺ ، يثيران الرعب فى قلب كل منافق تحدثه نفسه المساس بنساء المجاهدين، وكأنما يمضى رسول الله ﷺ فى رحلة داخلية إلى أعماقهم ، ويستجيش أشواقهم إلى أهليهم قائلاً : « ولقد فضل نساء المجاهدين على القاعدين فى الحرمة كأمهاتهم ، وما من أحد من القاعدين يخالف إلى امرأة من نساء المجاهدين إلا وقف يوم القيامة فيقال له : إن هذا خانك فى أهلك فخذ من عمله ما شئت ، فما ظنكم ؟ » .

وهذا فرس آخر يُهدى لرسول الله ﷺ من عبيد بن ياسر السعدى من أهل قضا واسمه : مُراوِح ، ولمعرفة عراقة الفرس عرضه عبيد للسباق فسبق ، فأخذه رسول الله ﷺ ، وجاء فارس الإسلام الأول أو الثانى أحد أبطال بدر : المقداد بن عمرو يستهدى هذه الفرس من رسول الله ﷺ ، ولننظر إلى هذا الحوار الطريف بين القائد العظيم ﷺ وفارسه :

قال رسول الله ﷺ : « أين سبحة ؟ » (فرس للمقداد المشهور شهد عليها بدراً).

قال : يا رسول الله ، عندى قد كبرت وأنا أضن بها للمواطن التى شهدت عليها ،

---

(١) الأدهم : إذا اشتد سواده .
(٢) الخيل الأقرح : هو ما كان فى جبهته قُرحة ، وهو بياض يسير فى وجه الفرس دون الغرة .
(٣) الأرثم : الذى أنفه أبيض وشفته العليا .
(٤) المحجل : هو الذى يرتفع البياض فى قوائمه إلى موضع القيد .
(٥) الكميت : الذى خالط حمرته قنوء .

وقد خلَّفتُها لبعد هذا السفر وشدة الحر عليها ، فأردت أحمل هذا الفرس المعرق عليها فتأتينى بمهر .

قال النبى ﷺ : « فذاك إذن » .

ولن يضن المصطفى الحبيب ﷺ على أعز جنوده عليه بهذا الحصان ، يحمله المقداد على فرسه سبحة لتنتج خيلاً عرابًا أصيلة قوية، وتم ذلك . (فنتجت له مهراً كان سابقًا يقال له : الزيال سبق فى عهد عمر وعثمان ، فابتاعه منه عثمان بثلاثين ألفًا).

ومن معين التربية أن يكرم رسول الله ﷺ فرسانه ، وتبلغ قيمة الفرس الأصيلة ثلاثين ألف ، كما يطالعنا من طرف آخر فرسان آخرون كان على رأسهم عباد بن بشر ، وهم الحرس النبوى الخاص ، فكان عباد بن بشر يطوف على أصحابه فى العسكر ، فغدا على رسول الله ﷺ يومًا فقال : يا رسول الله ما زلنا نسمع صوت تكبير من ورائنا حتى أصبحنا ، فوليت أحدنا يطوف على الحرس ؟ قال رسول الله ﷺ : « ما فعلت ، ولكن عسى أن يكون بعض المسلمين على خيلنا انتدب » ، وكانت أخلاقيات هذا الجيل تبرز ثمرة عظمة التربية النبوية .

(فقال سلكان بن سلامة: يا رسول الله خرجت فى عشرة من المسلمين على خيلنا، فكنا نحرس الحرس) فهى الأعماق الصافية الطاهرة التى تحمل هم حَرَس رسول الله ﷺ أن ينالها سوء ، فتمضى دون تكليف ولا تهديد ولا تلميح ، تمضى لتحرس حرس المصطفى ﷺ ، وقرت عين المصطفى لهذا المستوى العالى الذى ارتفع له جنده وقال : «رحم الله حرس الحرس فى سبيل الله ، فلكم قيراط من الأجر على كل من حرستم من الناس جميعًا أو دابة » .

وهو الجيل الذى يتنافس على الأجر ، طارداً الذكر والصيت بعيداً بعيداً عن حياته ، بعد أن غدا حياته ومماته لله ، وهذا محمد بن حمزة بن عمر الأسلمى ﷺ يحدثنا عن قصة أبيه ونحى السمن والإعجاز فيه ، وحمزة من أهل بيعة الرضوان يكرمه ربه برفقة حبيبه المصطفى فى تبوك ، ورؤية المعجزات التى لا تكاد تنقطع فيزداد قلبه هدى ونوراً يضىء به للسالكين من بعده قال :

(خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك وكنت على خدمته ذلك السفر ، فنظرت إلى نحى السمن قد قلَّ ما فيه ، وهيأت للنبى ﷺ طعامًا ، فوضعت السمن فى الشمس ونمت فانتبهت بخرير النحى فقمت فأخذت برأسه بيدى ، فقال رسول الله ﷺ ورآنى :

« لو تركته لسال واديًا سمنًا » (١) .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٦/ ١٩١، وقال فيه : رواه الطبرانى من طريقين إحداهما فى علامات النبوة ورجالها وثقوا .

إن السمن ليستأذن ربه جل وعلا أن ينمو ويتبارك على يد نبيه المصطفى ﷺ ، كما ينمو ويتبارك التمر واللحم والماء والطعام ، والمنفذ الوحيد الذى وصلنا منه هذا المجد للسمن هو منفذ محمد بن حمزة بن عمر الأسلمى والذى مضى القرون تلو القرون نستمع لتلك المعجزة النبوية : « لو تركته لسال الوادى سمنًا » .

ثالثًا : المزنيان نموذجان للإيمان الخالص :

المزنى الأول :

وهذا منفذ آخر ومعجزة أخرى وردت لنا عن طريق معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه وأنس بن مالك رضي الله عنه وروته العديد من كتب السنة (1) .

(فعن أنس قال : كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك ، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى) ، وهذا يعنى أن ظاهرة يحتفل بها الكون حتى بدت الشمس وكأنها فى عرسها ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ :

« يا جبريل مالى أرى الشمس اليوم طلعت بضياءٍ وشعاع ونور لم أرها طلعت بمثلهم فيما مضى ؟ » . قال : ذلك معاوية بن معاوية المزنى مات بالمدينة اليوم ، فبعث الله تعالى سبعين ألف ملك يصلون عليه .

فهو عبد مؤمن صادق الإيمان ، قلبه مع الله ورسوله ، وقد جاء أجله وليس فى المدينة إلا منافق مغموص عليه فى النفاق حاشا على وابن مسلمة ، والثلاثة المخلفين ، فهل يكفى هؤلاء ليصلون على سيد من سادات أهل الآخرة ؛ لهذا بعث الله تعالى من سماواته العلى سبعين ألف ملك يصلون عليه .

وإذا كان الله تعالى قد أنزل سبعين ألف ملك من علياء سماواته ، فهل يعجزه - تعالى الله عن ذلك - أن يأتى بسيد ولد آدم ورسول رب العالمين الذى تلقى معاوية بن معاوية النور والهدى على يديه ، هل يعجز رب العالمين أن يحضره إلى المدينة ليؤم الملائكة ، ويشهد عرس معاوية وزفافه إلى الجنة ؟ إن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وكانت الأوامر صادرة للروح الأمين جبريل أن يحضر محمدًا ﷺ يؤم ملائكة السماء بالصلاة على المزنى ، ولا غرو فقد أم أنبياء الله من قبل فى القدس ، فلم لا يؤم ملائكة الله وجنده فى المدينة ، وهو اليوم فى وسط الطريق بين الشام والحجاز ؟

(1) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وابن سعد ، والبيهقى وأبو يعلى .

(قال جبريل . . . فهل لك فى الصلاة عليه ؟ قال : « نعم ») .

وما أسعد الجبال والآكام والأودية أن سيمر عليها اللحظة أعظم وفد فى الوجود : الروح الأمين جبريل وسيد ولد آدم محمد ﷺ ، وقد أعلمت بذلك فراحت تتطامن وتتسابق ليطأها سيد الخلق .

(فخرج رسول الله ﷺ يمشى ، فقال جبريل بيده هكذا يفرج له عن الجبال والآكام ومع جبريل سبعون ألف ملك) فهذا الوفد كله لمرافقة عبد الله ورسوله محمد ﷺ من تبوك إلى المدينة .

(فصلى رسول الله ﷺ ، وصف الملائكة خلفه صفين ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لجبريل : « بم بلغ هذه المنزلة ؟ ») .

ولا عجب أن يسأل رسول الله ﷺ جبريل عن هذه الحظوة لهذا العبد الصالح عند ربه ، فهو لا يعلم الغيب ، ولا يعلم إلا ما علمه الله ، فهو يعلم صاحبه سعد بن معاذ الذى اهتز له العرش فرحًا بمقدمه وخشى رسول الله ﷺ أن تسبق الملائكة الصحابة إليه، ويعرف جهاده وفضله وسابقته . لكن معاوية بن معاوية المزنى الذى تحتفى ملائكة السموات السبع بوفاته ، ويُستدعى رسول الله ﷺ من المدينة ليصلى عليه ، لا يعلم سر هذه الحظوة ، وجاء الجواب من رب السموات والأرض على لسان جبريل الأمين :

(قال : « بحبه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يقرؤها قائمًا أو قاعدًا أو راكبًا أو ماشيًا وعلى كل حال ») (١) .

فهو إنسان يعيش فى قلبه ولسانه مع ربه جل وعلا فى كل لحظات حياته ، يشهد وحدانيته ، وتفرده بالربوبية ، ولا يغيب عن قلبه لحظة من اللحظات ، وحق لمثل هذا العابد الموصول بالله أن تحتفى السموات والأرض ، وتطوى الأرضين لرسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فهو يحب ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ويقرؤها ويتلوها فى ليله ونهاره ، فى سره وعلانيته ، وعلى جميع أحواله ، فلم لا ينال هذه الحظوة إذًا .

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر حول صحة هذا الحديث ما نقله الصالحى عنه ، قال الحافظ فى لسان الميزان فى ترجمة محبوب بن هلال: هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وله طرق يقوى بعضها بعضًا ، وقال فى فتح البارى، فى باب الصفوف على الجنازة : إنه خبر قوى بالنظر إلى جميع طرقه . وقال فى اللسان فى ترجمة نوح بن عمرو : طريقه أقوى طرق الحديث. انتهى وأورد النووى الحديث فى الأذكار فى باب : الذكر فى الطريق ، فعلم من ذلك رد قول من يقول : إن الحديث موضوع لا أصل له ، ولعله يقصد قول ابن كثير فى البداية والنهاية ٤/ ١٤ : وهذا الحديث فيه غرابة شديدة ونكارة .

المزنى الثانى :

ويشترك المزنيان إضافة إلى أنهما من قبيلة واحدة فى أن قلبهما عامر بالإيمان منوّرًا بنور الله ، ولم نسمع عن أحد منهما مشاركته فى غزوة أو سابقة له فى الدين ، وهذه قصة صاحبنا المزنى الثانى - ذى البجادين - عبد الله :

(كان عبد الله ذو البجادين من مزينة مات أبوه وهو صغير ، فلم يورّثه شيئًا ، وكان عمه مَلِيًّا فأخذه فكفله حتى أيسر ، وكانت له إبل وغنم ورقيق ، فلما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، جعلت نفسه تتوق إلى الإسلام ، ولا يقدر عليه من عمه حتى مضت السنون والمشاهد كلها) .

وماله وللإسلام ، وهذه الدنيا قد فتحت ذراعيها له ، وأشرقت له ، وابتسمت له الحظوظ بعد أن كان فقيرًا مدقعًا ، فإذا هو صاحب الإبل والغنم والرقيق ، وهى ثروة يحلم بها شبان عشيرته جميعًا ولا يصلون إلى القليل القليل منها ، وهو يعلم أن عمَّه ولى نعمته ، وعمه لا يحب الإسلام ، بل ويمتعض من ذكره ، أما قلب صاحبنا المزنى فلم يكن فيه موقع لهذه الدنيا رغم أنها مرتمية بين يديه ، إن قلبه يتوق إلى محمد ﷺ ويحلم فى اللحظة التى تكتحل عيناه بمرآه ، (فانصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة راجعًا إلى المدينة) .

وبلغ السيل الزبى عند عبد الله . فحتام ينتظر ، وكانت اللحظة الحاسمة التى كاشف فيها عمه بما تعتلج به نفسه :

(فقال عبد الله ذو البجادين لعمه : يا عم قد انتظرت إسلامك فلا أراك تريد محمداً ، فائذن لى فى الإسلام ! فقال : والله لئن اتبعت محمداً لا أترك بيدك شيئًا كنت أعطيتكه إلا نزعته منك حتى ثوبيك) .

وكانت مفاجأة صاعقة له ، فهو ليس مع رجل حيادى ، وليس مع رجل يهوى محمدًا ، بل هو مع رجل عدوٍ لدود لمحمد ﷺ ولدينه ، وليس الأمر أمر غضب من عمه أو عتب عليه ، بل هو أمام مصير يتحطم ، ومستقبل يهدم ، وثروة تجتث ، ومالٍ يُنتزع ، وعودة إلى ما كان عليه أيام فقره وحاجته وعوزه ، ترى هل يعتذر عن ذكر ما يؤذى عمه ، ويعلن له أنه إنما أخطأ وهو يتوب عما بدر منه ؟ أم يصمت عن هذا الموضوع ، حتى تأتى الفرصة السانحة ، فيعيد ذكر الإسلام أمام عمه ؟ وماله وللإسلام وهو فى هذه الصحراء يتيه فى ماله وجاهه وعزه وثروته ورقيقه ، يتحسر على وضعه معظم فتيان العشيرة ، وكيف تكون شماتة الحساد والمبغضين . والشانئين له إن عاد لا يملك شروى نقير ؟ !

لا شك أن هذه الخواطر قد هيَّجها الشيطان على قلبه ، وكاد يمسك بخناقه فيخنقه عن أن يمضى إلى محمد ، كما فى الحديث النبوى الشريف :

« إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول فعصاه فهاجر ، ثم قعد له فى طريق الجهاد فقال : تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة . وإن وقصته دابة كان حقًا على الله أن يدخله الجنة »(١) .

أما صاحبنا هذا فقد جاء الشيطان دفعة واحدة له بكل هذه الثلاثة ، لكن القلب المعمور بين جنبيه بحب الله ورسوله جعل الدنيا عنده جناح بعوضة كما هى عند ربه عز وجل؛ لأنه يستمد نظرته إليها من ربه ، ومن يعرف حقيقة هذا القلب إلا خالقه وفاطره؟ ومن يعرف من الجيش الإسلامى ودولة الإسلام ، وتاريخ البهاليل من المسلمين خلال واحد وعشرين عامًا شيئًا عن قلب هذا الأعرابى ؟ لا أحد . فهو نسى منسى لا وجود له فى تاريخ الإسلام الحافل ، أما عند الله تعالى فهو مثل أخيه معاوية ، الذى لم يعرف مقامه عند ربه إلا بموته ، لكن صاحبنا هذا يتم التعرف عليه قبيل موته .

(فقال عبد العزى ـ وهو يومئذ اسمه : وأنا والله متبع محمدًا ومسلم ، وتارك عبادة الحجر والوثن ، وهذا ما بيدى فخذه) وهى صورة صهيب بن سنان تتجدد يوم أعطى ماله كله ليفوز بالهجرة فى سبيل الله، فلم يدعه الله تعالى من ثنائه بقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾ [البقرة] .

وهذا صهيبنا الثانى يسلّم كل ثروته لعمه (فأخذ كل ما أعطاه حتى جرَّده من إزاره) ويح هذا المجرم هل يبلغ به الحقد إلى هذا الحد ، وهل يبلغ الإيمان بالمؤمن حتى هذا الحد ، أن يصبح عاريًا حتى من إزاره ليفوز بصحبة حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام ، ومضى سريعًا إلى أمه ، تلك المؤمنة التى ربته ليدخل عليها بلا إزار ويقص عليها قصته، فقامت وليس فى قومها فى هذا الحزب إلا هى وابنها ، قامت إلى البجاد ـ إلى بساط البيت الذى تجلس عليه ـ فقطعته قطعتين جعلت أحدهما إزارًا لحبيبها عبد العزى ، وثانيهما رداءً ، وودعته لينقل تحياتها لهذا الذى اختاره رب العالمين رسوله إلى خلقه ،

(١) أحمد والنسائى وابن ماجه، وهو عند أحمد ٣/ ٤٨٣ وهو صحيح .

(فأتى أمه فقطعت بجادًا لها باثنين فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ثم أقبل إلى المدينة ، وكان بورقان جبل من حِمى المدينة) وهو يمضى ويكاد يتقد حرًا من ردائيه ويتقد شوقًا للحظة لقاء حبيبه، (فاضطجع فى المسجد فى السحر، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح، وكان رسول الله ﷺ يتصفح الناس إذا انصرف من الصبح) إذ هو به أمام رجل غريب لم تسبق أن وقعت عيناه عليه، ويلفت النظر بطرافته وطرافة ملبسه، وخشونة عيشه، ترى هو جنى أو إنسى بهذا اللباس الموحش الموغل فى الأعرابية . (فأنكره ، فقال : « من أنت ؟ » فانتسب له ، فقال: « أنت عبد الله ذو البجادين » ثم قال : « انزل منى قريبًا » ولم يقل له : اغرب عن وجهى لا أراك بعد اليوم ، إنما قال له : « انزل منى قريبًا » فكان يكون فى أضيافه ويعلمه القرآن) ، ووصل ذو البجادين إلى حلمه ، ترى هو فى حلم أم فى يقظة ، وحتى الآن لا كساء له إلا بجاديه يتوشح بهما فى قلب هذا اللظى حتى قرأ قرآنًا كثيرًا والناس يتجهزون إلى تبوك .

وارتفع ذو البجادين ليغدو من أهل الله ، فقد كان يسبح الله ويقدسه فى أعماقه بما يفتح الله عليه ، أما اليوم فهو مع القرآن وكلام الله (وكان رجلاً صيتًا فكان يقوم فى المسجد فيرفع صوته بالقراءة ، فقال عمر : يا رسول الله ، ألا تسمع إلى هذا الأعرابى يرفع صوته بالقرآن حتى قد منع الناس القراءة) وعندما يتكلم عمر بن الخطاب فهذا يعنى ظاهرًا إظهار أمر بإبعاد هذا الأعرابى الغليظ الذى يُثقل على الناس ويشغلهم عن عبادتهم لكن الأوامر العليا عكس ذلك : « دعه يا عمر » فهو إذن من خاصة رسول الله ممن لا يناله سلطان عمر بن الخطاب ولا أعلى منه « دعه يا عمر ، فإنه خرج مهاجرًا إلى الله ورسوله » ومن الهجرة إلى الجهاد ، فها هو يمضى ببجاديه لا يملك غيرهما ، ولا يريد من الدنيا إلا شيئًا واحدًا . وهذا الشيء أن يفارقها شهيدًا ، ومحط الآمال عند قائده الحبيب فجاء إليه قائلاً : (يا رسول الله ، ادع الله لى بالشهادة . قال : « أبلغنى لحاء سمرة » وهرول صاحبنا إلى لحاء السمرة يتشوق أن تكون الشهادة فيها،فربطها رسول الله ﷺ على عضده وقال : « اللهم إنى أحرم دمه على الكفار » ولم يكد يصدق ما يسمع ، ولا تزال الكلمة ترن فى أذنه « أحرم دمه على الكفار » وعاها قلبه ، ووعتها جوارحه ، وليس هذا الذى يريد فلم يتمالك أن قال : « يا رسول الله ، ليس أردت هذا » إنما أراد أن يُحلَّ دمه على الكفار فيجرى أنهارًا على يديهم ليذوق طعم الشهادة فى سبيل الله ، وهل يا ترى لفقره وعوزه وبجاديه لا يستحق الشهادة . وعلّمه حبيبه المصطفى ﷺ مذاقًا جديدًا للشهادة لم يسمع به من قبل « إنك إذا خرجت غازيًا فى سبيل الله فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد ، ووقصتك دابتك فأنت شهيد ، لا تبالى بأيةِ كان ») . فلما نزلوا تبوكًا فأقاموا بها أيامًا كان صاحبنا ذو البجادين قد أخذته الحمى، وارتفعت حرارته،

وثقل لسانه ، و(توفى عبد الله ذو البجادين) حيث لم يدر بوفاته إلا رجل من قومه مزينة جيء به ليحضرهذه الوفاة حتى لا يكون وحده، وراح يحدثنا عن اللحظات الأخيرة التى غُيِّب فيها هذا الأعرابى المزنى فى جوف الثرى ، ولا يملك من الدنيا إلا بجاديه ، ويحضر بلال بن الحارث (كاميرته) لتلتقط جنازته التى لم يحضرها إلا خمسة أو ستة من عشرات الألوف هناك ، وفى بهيم الليل مما اضطرهم أن يحضروا شعلة من نار لدفنه ، ويسلط بلال(كاميرته) فى هذا الليل البهيم وتكاد تلتقط الصورة للحاضرين، فمن هم؟

(فكان بلال بن الحارث يقول : حضرت رسول الله ﷺ ومع بلال المؤذن شعلة من نار عند القبر واقفًا بها ، وإذا رسول الله ﷺ فى القبر ، وإذا أبو بكر وعمر يدليانه إلى النبى ﷺ وهو يقول : « أدنيا إلى أخاكما » فلما هيأه لشقه قال: « اللهم إنى أمسيت عنه راضيًا فارض عنه » فسيد الخلق سيد ولد آدم يشهد ربه أنه راض عنه ، فهو آخر من مسَّه ودفنه وهيأه لشقه، أما مساعداه فرئيس الوزراء ونائبه، هؤلاء الثلاثة هم الذين تولوا دفن هذا الأعرابى ذى البجادين ، ويسترق ابن مسعود رضي الله عنه النظر والمشهد ويستمع لدعاء رسول الله ﷺ له وهو يدفنه ويوسده التراب (فيقول: يا ليتنى كنت صاحب هذا اللحد) ويتمناها كل مؤمن فى هذا الوجود أن يوسد التراب بيد نبيه ، ويقول له : « اللهم إنى أمسيت عنه راضيًا فارض عنه » آه ، آه ، آه ، يا ليتنا كنا أصحاب ذلك اللحد ، وننال رضا المصطفى كما ناله ذو البجادين ؟!

تبوك ... الدولة

لقد كان أكبر جيب نصرانى تابع للروم فى الأرض العربية هو جيب دومة الجندل ، وكان للمسلمين جولات عديدة معه منذ السنين الأولى لدولة الإسلام .

أولاً : ففى سنة خمس للهجرة غزا رسول الله ﷺ بنفسه غزوة الجندل ، وكانت هذه الغزوة كما ذكرها ابن إسحاق فى السيرة .

(غزوة دومة الجندل فى شهر ربيع الأول سنة خمس)

قال ابن إسحاق : (ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فأقام من مقدم رسول الله ﷺ بها أشهراً حتى مضى ذو الحجة ، وولى تللك الحجة المشركون وهى سنة أربع، ثم غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل) ، قال ابن هشام : (فى شهر ربيع الأول ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى) ، قال ابن إسحاق : (ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها ، ولم يلق كيداً ، فأقام بالمدينة بقية سنته) (١) .

وكانت هذه الغزوة استعراضية على أعقاب ليل المحنة الطويل فى أحد والرجيع ومعونة وقبيل غزوة الخندق ، وبعد غزوة بدر الآخرة .

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه قال مخاطبًا قريش عقب غزوة بدر الآخرة :

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الأوارك

بأيدى رجالٍ هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقًا وأيدى الملائك

إذا سلكت للغور من بطن عالجٍ ... فقولا لها ليس الطريق هنالك

فإن نلق فى تطوافنا والتماسنا ... فرات بن حيان يكن رهن هالك(٢)

ومن أجل التنفيذ العملى للسيطرة على طريق الشام الذى تحدث عنه حسان ، كانت غزوة دومة الجندل فى هذا الوقت المبكر .

ثانيًا : سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فى شعبان سنة ست :

حدثنى سعيد بن مسلم بن قمادين عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عمر قال : (دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف فقال : تجهز فإنى باعثك فى سرية من يومك هذا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢١٣ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢١١ .

أو من غد إن شاء الله ، فسمعتُ ذلك فقلت لأدخلن فأصلين مع النبى الغداة فلأسمعن وصيته لعبد الرحمن بن عوف ، قال فغدوت فصليت فإذا أبو بكر وعمر وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دُومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن : « ما خلَّفك عن أصحابك ؟ » ـ قال ابن عمر : وقد مضى أصحابه فى السحر فهم معسكرون بالجرف ، وكانوا سبعمائة رجل ـ فقال : يا رسول الله ، أحببت أن يكون آخر عهدى بك وعلىَّ ثياب سفرى . قال : وعلى عبد الرحمن بن عوف عِمامة قد لفَّها على رأسه ـ قال ابن عمر : فدعاه النبى ﷺ فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده ، ثم عمَّمه بعمامة سوداء . فأرخى بين كتفيه منها ثم قال : « هكذا فاعتم يا بن عوف » قال : وعلى ابن عوف السيف متوشحه ثم قال رسول الله ﷺ :

« اغز باسم الله ، وفى سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً » . . .

قال : فخرج عبد الرحمن بن عوف حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلما حلَّ بهم دعاهم إلى الإسلام فمكث بهم ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أبوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف ، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى ـ وكان نصرانيًا وكان رأسهم ـ فكتب عبد الرحمن بن عوف إلى النبى ﷺ يخبره بذلك ، وبعث رجلاً من جهينة يقال له : رافع بن مكيث ، وكتب يخبر النبى ﷺ أن يتزوج بنت الأصبغ تُماضر ، فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها ، ثم أقبل بها وهى أم أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف) .

(حدثنى عبد الله بن جعفر عن ابن أبى عوف عن صالح بن إبراهيم أن النبى ﷺ بعث عبد الرحمن بن عوف إلى كلب ، وقال : « إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم أو ابنة سيدهم » ، فلما قدم دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا ، وأقاموا على دفع الجزية وتزوج عبد الرحمن بن عوف تُماضر بنت الأصبغ بن عمرو ملكهم ، ثم قدم بها المدينة وهى أم أبى سلمة) [1] .

وتضمنت الروايات بعدها عن وضع دومة . ودخول ملكهم بالإسلام منذ السنة السادسة إلى السنة التاسعة لنشهد توجيه رسول الله ﷺ خالدًا إلى أكيدر دومة .

والمرجح أن الروم عادوا فاستعادوا دومة وقضوا على المسلمين ، وملكوا أكيدر بن

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٢ .

عبد الملك ، وبلغت الأخبار رسول الله ﷺ فوجد الفرصة سانحة لاسترداد هذا الثغر الإسلامى الذى تعدى النصارى واحتلوه وأجلوا المسلمين عنه ، وبقاء هذا الجيب بيد النصارى التابعين للروم هو تهديد للقوة الإسلامية التى ملكت الساحة العربية كلها .

قال الواقدى عن شيوخه : (بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من تبوك فى أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أكيدر بن عبد الملك بدُومة الجندل ، وكان أكيدر بن كندة قد ملكهم ، وكان نصرانيًا) .

بينما كان الأصبغ بن عمرو كلبيًا من قومه ، أما أكيدر فهو من كندة وقد ملكهم وسيطر عليهم ، ومن تبوك إلى دومة الجندل مسافات شاسعة تتقطع فيها الرقاب ووسط أرض لا يعرف خالد عنها شيئًا .

(فقال خالد : يا رسول الله ، كيف لى وسط بلاد كلب ، وإنما أنا فى أناس يسير؟ فقال رسول الله ﷺ : « ستجده يصيد البقر فتأخذه ») .

وخالد هو البطل الذى أنقذ المسلمين فى مؤتة ، وحاز على لقب سيف الله ، وتكسرت فى يده تسعة أسياف ولم يثبت بيده إلا صفيحة يمانية ، فهو ابن الصحراء ، وأبو المهمات الصعبة ، لكن أربعمائة فارس حين يوغلون فى وسط بلاد كلب فما هم فاعلون فى قلب هذا البحر الخضم من العدو ، وجاء الجواب النبوى لقائده الفارس : «ستجده يصيد البقر فتأخذه » وفقه خالد ﷺ من نبيه المصطفى ﷺ أن الطريق مأمون، وأن المهمة العسيرة عليه هو أن يأتى به حيًا أسيراً ، لكن النص النبوى يؤكد أنه سيأخذه، وهذا يعنى أن كل السبل ستذلل لتحقيق هذه النبوءة ، وسوف تسخر كل الطاقات لتنفيذ هذه المهمة وهذا ما حدث بالفعل ، فبقر الوحش كلّفت من رب العالمين بمهمة أن تترك مواقعها فى الصحراء وتتجه لحصن أكيدر فتدعوه إلى صيدها ، استجابة لدين الله: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

(فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين فى ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته الرباب بنت أنيف بن عامر من كندة ، وصعد على ظهر الحصن من الحر ، وقينته تغنيه، ثم دعا بشراب فشرب،فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن، فأقبلت امرأته الرباب فأشرفت على الحصن فرأت البقر فقالت ما رأيت كالليلة من اللحم ، هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا ، ثم قالت : من يترك هذا ؟ قال : لا أحد. قال: يقول أكيدر : ما رأيت جاءتنا ليلة بقر غير تلك الليلة ، ولقد كنت أضمِّر لها الخيل إذا أردت أخذها شهراً أو أكثر ، ثم أركب بالرجال وبالآلة) كان هذا فى غير التسخير الربانى لنبيه وعبده ، حيث يضطر أكيدر تهيئة خيله شهراً للصيد ، أما اليوم فالبقر تناديه : هلم إلى

اللحم ، ولا يضيرها أن تكون الفدائية فى سبيل الله . كما صدر أمر ربانى آخر إلى الخيل المسلمة أن تمتنع عن الصهيل خلال هذه الساعات التى يخرج فيها أكيدر ، وليست بقر الوحش بأطوع من الخيل المسلمة لله سبحانه ، والتى يمتطيها حزب الله ، ونفذت الخيل الأوامر الربانية إكرامًا لرسول الله ﷺ .

(فنزل فأمر بفرسه فأسرج ، وأمر بخيل فأسرجت ، وركب معه نفر من أهل بيته ، معه أخوه حسان ومملوكان ، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم ، فلما فصلوا من الجيش ، وخيل خالد تنظرهم لا يصهل منها فرس ولا يتحرك ، فساعة فصل أخذته الخيل ، فاستأسر أكيدر وامتنع حسان ، فقاتل حتى قُتِل وهرب المملوكان ، ومن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن ، وكان على حسان قباء ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية الضمرى حتى قدم عليهم فأخبرهم بأخذهم أكيدر ، قال أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله : رأينا قباء حسان أخى أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ :

« أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » .

وبذلك ينقلهم عليه الصلاة والسلام من هذا الحطام الفانى ، وهذه الزينة الأخاذة إلى جنة عرضها السموات والأرض ، ومناديل سعد فى هذه الجنة التى يستعملها للتنظيف أرق وأجمل وأندى من هذا القباء الذى أخذ بلب المسلمين ، أما المجاهدون فقد راعهم هذا التوفيق الربانى اللطيف فى بعث البقرات من رب السموات والأرض لاستجرار أكيدر من عرشه وتسليم القائد الإسلامى ، فصاغها ابن بحيرة شعراً :

تبارك سائق البقرات إنى ... رأيت الله يهدى كل هاد
ومن يك عائدًا من ذى تبوك ... فإنا قد أمرنا بالجهاد

ولو كان غير خالد بن الوليد لمضى بأكيدر فقد نفذ المهمة ، لكن البطل العظيم لا يرضى لنفسه إلا أن يفتح دومة على مصاريعها لجيش محمد ﷺ ، وتعلن استسلامها ، ولا يكفى خطف قائدها والفرار به بعيداً عن الحصن والعودة إلى الحصن ، عودة إلى قلب الخطر ، ونار الموت ، لكن خالد لا يعرف لهذا الخطر معنىً أمام الهدف الكبير الذى يود تحقيقه ، وهو فتح حصن دومة .

(وقال خالد بن الوليد لأكيدر : هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتى بك رسول الله ﷺ على أن تفتح لى دُومة ؟ قال : نعم ، ذلك لك . فلما صالح خالد أكيدر ، وأكيدر فى وثاق ، انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحصن ، ونادى أكيدر أهله :

افتحوا باب الحصن ، فرأوا ذلك فأبى عليهم مضاد أخو أكيدر ، فقال أكيدر لخالد : تعلم والله لا يفتحون لى ما رأونى فى وثاق ، فخل عنى فلك الأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صالحتنى على أهله ، قال خالد : فإنى أصالحك) .

ما هى القوة التى يعتد بها خالد بن الوليد ﷺ ليفرض صلحًا على أكيدر ، وكيف تكون عبقرية التخطيط عنده فيما لو غدر أكيدر بعد فك وثاقه ودخل إلى الحصن ، واستنفر أهل دُومة ، وواجهوا هؤلاء الأربعمائة ، واستنفروا عليهم كلبًا كلها ، وأبادوهم قتلاً عن بكرة أبيهم ؟ ماذا يستفيد خالد من هذه المغامرة إلا إبادة جيشه ، وفشل مهمته ، وفى أحسن الأحوال أن ينجو بنفسه دون أكيدر ، إن منطق الأشياء كان يقتضى من خالد ﷺ أن يمضى فاراً بأكيدر نحو المدينة أو تبوك ميممًا حيث رسول الله ﷺ ؛ لكن منطق البطولة شىء آخر ، فاختطاف قائد شىء ، وافتتاح حصن شىء آخر ، إن اختطاف قائد لا يعنى فى عالم البطولة إلا أخذه حين غرة ، وبقاء قوته وفتوته وجيوشه على ما هى عليه مستعدة للموت والمواجهة ، أما إنهاء الجيب فلا تحل قضية إلا بفتح الحصن ، واستسلامه ، وخطا خالد رضوان الله عليه خطواته هذه بحكمة وعبقرية بعيدة عن منطق التحدى ، واستعمال لمنطق الدهاء والحكمة والروية حتى أخذ العهد والميثاق من أكيدر أن يصالحه ، ولن تتم المصالحة دون فك وثاقه .

(قال خالد : فإنى أصالحك ، فقال أكيدر : إن شئت حكمتك أو شئت حكمتنى . قال خالد : بل نقبل منك ما أعطيت، فصالحه على ألفى بعير وثمانمائة رأس ، وأربعمائة درع، على أن ينطلق به وأخيه إلى رسول الله ﷺ فيحكم فيهما حكمه ، فلما قاضاه خالد على ذلك خلى سبيله ففتح الحصن) وخالد يريد لهؤلاء الأبطال الأربعمائة الذين قطعوا مجاهيل الصحراء أن يؤوبوا بالغنيمة بجوار الأجر ، فهى العملية العسكرية الوحيدة التى تمت فى تبوك ، ونلاحظ أن خالدًا ﷺ يحسب حساب تسليح جيشه وتموينه من هذه المصالحة ، فالأربعمائة الأبطال الفرسان الذين معه سيكون لكل واحد منهم من الغنيمة خمسة أبعرة ورأسا غنم ودرع ورمح . حين توزع الغنائم ، وهذا واثلة بن الأسقع أحد هؤلاء الأبطال الأربعمائة يتحدث عن غنائمة قائلاً : (حتى إذا بعث رسول الله ﷺ خالد ابن الوليد إلى أكيدر الكندى بدومة الجندل خرج كعب بن عجرة فى جيش خالد بن الوليد، وخرجت معه فأصبنا فيها كثيراً فقسمه خالد بيننا، فأصابنى ست قلائص، فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب بن عجرة) .

وذاك عبد الله بن عمرو المزنى يقول: كنا أربعين رجلاً من مزينة مع خالد بن الوليد، وكانت سهماننا خمس فرائض ، كل رجل مع سلاح يقسم علينا درع ورماح ، وكان أبو سعيد الخدرى رحمه الله يحدث يقول :

(أسرنا أكيدر فأصابنى من السلاح درع وبيضة ورمح وأصابنى عشر من الإبل . . .)
ولعل اختلاف الإبل من خلال تقسيمها برؤوس الغنم وتوزيعها حسب ذلك ، فخالد إذن يريد لهذه الكتيبة أن تؤوب من المعركة بالغنيمة إلى جوار الأجر لا بالإياب فقط ، (فلما قاضاه خالد على ذلك ، خلى سبيله ففتح الحصن ، فدخله خالد ، وأوثق أخاه مضاداً أخا أكيدر ، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسلاح ، ثم خرج قافلاً إلى المدينة ومعه أكيدر ومضاد) إنه الرعب الذى حلّ بالقوم فلم يجرؤوا على مواجهة خالد الذى بلغ صيته الآفاق . على أنه سيف الله الذى لا يقهر (فلما قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ صالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه ، وخلى سبيلهما ، وكتب رسول الله ﷺ كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم وختمه يومئذ بظفره) .

وهذا وصف لأكيدر بين يدى رسول الله ﷺ يقدمه لنا جابر بن عبد الله ﷺ يقول : (رأيت أكيدر حين قدم به خالد، وعليه صليب من ذهب، وعليه الديباج ظاهر) فمظاهر النصرانية عليه ولا غرو فالتعايش مع أهل الكتاب قائم ، وهو واحد من أهل الكتاب ؛ فلا يتدخل رسول الله ﷺ وهو الحاكم الأعلى بشؤون دينه حين يصير على نصرانيته وصليبه .

قالوا : وأهدى له هدية فيها كسوة ، وكتب له رسول الله ﷺ كتابًا أمنه فيه وفيه الصلح ، وأمن أخاه ووضع عليه فيه الجزية ، فلم يك فى يد النبى خاتم فختمه بظفره.

كما ينقل لنا الواقدى نص الكتاب عن شيخ من أهل دومة أن رسول الله ﷺ كتب له هذا الكتاب ، والكتاب يدل على أنه أسلم وتعهد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام ، وهو رأى ضعيف خاصة أنه مروى عن شيخ من أهل دومة غير معروف .

يقول الحافظ ابن حجر : (أكيدر دومة هو أكيدر بن عبد الملك . . . بن السكون صاحب دومة الجندل ذكره ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة وقالا : كتب إليه النبى ﷺ ، وأرسل إليه سرية مع خالد بن الوليد ، ثم إنه أسلم وأهدى إلى النبى ﷺ حلة سيراء فوهبها لعمر ، وتعقب ذلك ابن الأثير فقال : إنما أهدى إلى النبى ﷺ وصالحه ولم يسلم، وهذا لا خلاف فيه بين أهل السير ، ومن قال إنه أسلم فقد أخطأ خطأ ظاهرًا بل كان نصرانيًا ، ولما صالحه النبى ﷺ عاد إلى حصنه وبقى فيه ، ثم إن خالد بن الوليد أسره فى أيام أبى بكر فقتله كافرًا ، وقد ذكر البلاذرى : أن أكيدر دومة لما قدم على النبى ﷺ مع خالد أسلم وعاد إلى دومة ، فلما مات النبى ﷺ ارتد ومنع ما قبله ، فلما سار خالد بن الوليد إلى الشام قتله ، قال ابن الأثير : فعلى كل حال لا ينبغى أن يذكر بين

الصحابة) [1] .

وهذا التعامل مع أكيدر فى عدم إجباره فى الدخول فى هذا الدين هو الذى شجَّع الجيوب الصغيرة النصرانية المجاورة أن تأتى فتعقد العقد نفسه مع رسول الله ﷺ وتصالحه على الجزية .

وهذه الجيوب هى : أيلة ، وتيماء ، وأهل جرباء ، وأذرح ، ومقنا فمن ساحل البحر الأحمر وحدود فلسطين من أرض الشام جاؤوا جميعًا يهادنون ويصالحون ، حيث خافوا أن يرسل رسول الله ﷺ إليهم كما أرسل إلى أكيدر فينتزعهم من عروشهم ، ويأسرهم ويقتلهم ، ولا قبل لهم بذلك ، فجاءت وفودهم إلى رسول الله ﷺ تصالحه على الجزية والأمان والخضوع لدولة الإسلام ، وهذه بعض نصوص الكتب بين رسول الله ﷺ وبينهم .

أيلة [2] :

(وكانت دومة وأيلة وتيماء قد خافوا النبى ﷺ لما رأوا العرب قد أسلمت ، وقدم يحنَّة بن رؤبة على النبى ﷺ وكان ملك أيلة ، وأشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر ، وأقبل معه أهل جرباء وأذرح ، فأتوه فصالحهم ، فقطع عليهم الجزية ، جزية معلومة ، وكتب لهم كتابًا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنَّة بن رؤبة وأهل أيلة لسفنهم وسائرهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ، وذمة محمد رسول الله ، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، ومن أحدث حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماءً يريدونه ، ولا طريقًا يريدونه من بر أو بحر ، هذا كتاب جهيم بن الصلت . وشرحبيل ابن حسنة بإذن رسول الله ﷺ .

ووضع رسول الله ﷺ الجزية على أهل أيلة ثلاثمائة دينار كل سنة وكانوا ثلاثمائة رجل) [3] .

وها هو جابر رضي الله عنه يصف لنا يحنة بن رؤبة كما وصف لنا أكيدر بن عبد الملك يقول:

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة ١/ ١/ ١٢٩ ت (٥٤٦) .

(٢) أيلة : وهى التى تسمى إيلات اليوم ، وهى مدينة على شاطئ البحر الأحمر فى فلسطين المحتلة .

(٣) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٣١ .

رأيت يوحنة بن رؤبة يوم أتى به إلى النبى ﷺ عليه صليب من ذهب ، وهو معقود الناصية فلما رأى النبى ﷺ كفَّر (١) وأومأ برأسه ، فأومأ إليه النبى ﷺ: « ارفع رأسك » وصالحه يومئذ وكساه رسول الله ﷺ بُردًا يمنية ، وأمر له بمنزل عند بلال .

أهل جرباء :

وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء وأذرح هذا الكتاب :

(من محمد النبى ﷺ لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل عليهم) (٢) .

وزاد الواقدى : (والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين ، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين وهم آمنون ، حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه) (٣) .

أهل مقنا :

وكتب لأهل مقنا أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربع غزولهم ، وربع ثمارهم (٤) .

وليس بين يدينا نص كتاب أهل تيماء وهى التى تبعد ثمانى مراحل عن الشام ، أما جرباء وأذرح فقريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام .

بين النبى ﷺ وقيصر :

ودحية رضي الله عنه كان من أجمل الناس ، ولهذا كان جبريل عليه السلام إذا جاء بصورة رجل جاء بصورة دحية (ويروى أنه كان إذا قدم من الشام لم تبق امرأة إلا خرجت تنظر إليه ، بعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر فى الهدنة سنة خمس،قاله خليفة. وقال محمد بن عمر : لقيه بحمص سنة سبع ، وقال فى المنهل : وظاهر الخبر يدل على أن رسول الله ﷺ أرسله إليه مرتين : الأولى فى الهدنة (هدنة الحديبية) ، والثانية : فى تبوك ، قلت : أرسله من تبوك ، رواه أبو يعلى وعبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند وأبو نعيم وابن عساكر عن سعيد مولى راشد عن التنوخى رسول هرقل ، وأرسله فى الهدنة، رواه البخارى عن ابن عباس عن أبى سفيان) (٥) .

أما الوفادة الأولى فسبق أن استعرضناها فى الأجزاء السابقة ، وكيف استدعى هرقل

---

(١) كفَّر : أومأ برأسه للتحية من غير سجود .
(٢ ـ ٤) المصدر السابق ٣/١٠٣١، ١٠٣٢ .
(٥) سبل الهدى والرشاد الصالحى ١٢/٣٤٧ .

مجموعة من العرب يسألهم عن رسول الله ﷺ ، وكان أبو سفيان على رأسهم وذلك بعد هدنة الحديبية ، وكيف استبد الرعب بقلب أبى سفيان زعيم المشركين يومذاك وقال:

لقد أمر أمْرُ ابن أبى كبشة أن تخافه ملوك بنى الأصفر ، وذلك حين قال :

(فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدميه) .

لكن رسول الله ﷺ ضمن خطته التى أتى فيها كما أعلم المسلمين لغزو بنى الأصفر أراد أن يعيد الكرة مع هرقل ملك الروم حيث إنه يعرف فى أعماقه صدق رسول الله ﷺ ليقيم الحجة عليه .

روى أبو يعلى وعبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند وأبو نعيم وابن عساكر عن سعيد بن أبى راشد قال : (لقيت التنوخى رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ فقلت : ألا تخبرنى عن رسالة هرقل ؟ قال : بلى . قدم رسول الله ﷺ تبوك ، فبعث دحية إلى هرقل ، فلما جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسّيسى الروم وبطارقتها ، ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال : إن هذا الرجل قد أرسل إلىَّ يدعونى ، ووالله لقد قرأتم فيما تقرؤون من الكتب ، إنه ليأخذن ما تحت قدمى فهلمّ إلى أن نتّبعهُ ، فنخروا نخرة رجل واحد ، فلما ظن أنهم إن خرجوا أفسدوا عليه الروم قال : إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم فى دينكم . .) (١) . وفى رواية أخرى :

(ثم أخذ كتاب رسول الله ﷺ فوضعه فوق رأسه ، ثم قبله وطواه فى الديباج والحرير وجعله فى سَفَط (٢) صاحب له برومية وكان نظيره فى العلم ، وسار هرقل إلى حمص ولم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل بخروج النبى ﷺ وأنه النبى الذى يُنتظر لاشك فيه فاتبعه ، فأمر عظماء الروم فجمعوا له فى دسكرة (٣) ملكه ، ثم أمر بها فأغلقت عليهم ، ثم اطّلع عليهم من عِلية له وهو منهم خائف فقال:

يا معشر الروم إنه جاءنى كتاب أحمد ، وإنه والله النبى الذى ينتظر لا شك فيه الذى بشَّر به عيسى ، وإنه والله للنبى الذى ننتظره ، ونجد ذكره فى كتبنا نعرفه بعلاماته وبزمانه ، فأسلموا واتبعوه ، تسلم لكم آخرتكم ودنياكم) .

ترى لو استجاب الروم لهرقل عظيمهم كم كانوا وفروا على البشرية من الدماء

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ١٢/ ٣٥٣ .

(٢) سَفَط : محركة وعاء كالجولق أو القفة .

(٣) الدسكرة : بناء كالقصر حوله بيوت .

والأحقاد والنكبات ، والضلال والشقاء ، ولكنها النفوس التى آثرت الهوى على الحق .
(فنخروا نخرة رجل واحد ، وحاصوا حيصة حمر الوحش ، وابتدروا أبواب الدسكرة فوجدوها مغلقة دونهم ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان وخافهم قال : ردوهم على ، فردوهم عليه) .

إنها صورة الوليد بن المغيرة تتكرر اليوم مع هرقل ، فقد تفوتهما الزعامة ، وقد يـعرّض نفسـه للقتل ، ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ㉔ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ㉕ ﴾ [المدثر] .

وبذلك سطَّر على نفسه أنه من أهل النار بعد أن شهد بأن هذا ليس قول بشر : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ㉖ ﴾ [المدثر] . وهذا هرقل بين خيارين كبيرين ؛ خيار الإيمان والجنة كما اختار عبد الله بن سلام ﷺ حبر يهود الأعظم ، وكيف اختار الإسلام ، فحاربه قومه ولعنوه وسبوه . كما قال عنهم : « أنهم قوم بهت » أو يختار هرقل دنياه وملكه وصولجانه وجيوشه وجنده وزعامته ، كما اختار الوليد بن المغيرة ، وآثر ملكه على ربه ، وآثر دنياه على دينه (قال : ردوهم على ، فردوهم عليه ، فقال : يا معشر الروم ، إنما قلت مقالتى هذه لأختبر صلابتكم على دينكم ، وقد رأيت ما يسرنى ، فوقعوا له سجداً ورضوا عنه) .

لكن كان بين هذا الجمع كله صاحب يس ، وكان فيه عبد الله بن سلام آخر ، كان فيهم الأسقف قاضيه فقال : أشهد أنه رسول الله ، فأخذوه فما زالوا يضربونه ، ويعضونه حتى قتلوه ، فقال عنه النبى ﷺ : « إنه يبعث أمة وحده » . ثم فتحت له أبواب الدسكرة فخرجوا .

وكم ارتفع شأنه ومجده يوم سجدوا له بدل أن يقتلوه ، وكم سقط فى أعماقه يوم كذَّب النبى الحق المرسل من عند الله ، وهو لن يجرؤ على مواجهة محمد ﷺ لأنه يعرف أنه خاسر ، وأنه سيملك ما تحت قدميه ، يحدثنا دحية ﷺ عن موقفين أقدم عليهما فى محاولة التقرب من النبى المنتظر .

(فقال دحية : ثم بعث إلىَّ من الغد سرًا ، فأدخلنى بيتًا عظيمًا فيه ثلثمائة وثلاثة عشر صورة ، فإذا هى صور الأنبياء والمرسلين ، قال : انظر أين صاحبك من هؤلاء ؟ فرأيت صورة النبى ﷺ كأنه ينطق ، قلت : هذا ؟ قال : صدقت) . فهو يريد أن يتيقن أنه النبى نفسه ، ولهذا أدخل دحية على هذه القاعة ، ليتركه يكتشف صورة رسول الله ﷺ بين مئات الصور المبثوثة فى القاعة ، ورآها دحية واستخرجها من هذه المئات . (قال

صدقت، صورة من هذا عن يمينه ؟ قلت : رجل من قومه ، يقال له : أبو بكر . قلت: فمن ذا الذى عن يساره ؟ قلت : رجل من قومه يقال له : عمر ، قال : إنا نجد فى الكتاب أن بصاحبيه هذين يتمم الله هذا الدين ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته فقال : « صدق بأبى بكر وعمر يتمم الله هذا الدين بعدى ويفتح » (١) .

فهما من الأزل ومن قبل خلق آدم وزيرى رسول الله ﷺ ، تتوارث الأجيال بعد الأجيال ، والنبى بعد النبى الحديث عن النبى الخاتم وصاحبيه اللذين يقيم الله تعالى بهما الملة العوجاء ويحيى البشرية من ضلالها المبين ، وصدق رسول الله ﷺ ، فبأبى بكر اجتثت الردة ودفنت ، ولولاه كما قال أبو هريرة رضي الله عنه : (والله الذى لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عُبِد الله ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة ، فقالوا : مه يا أبا هريرة. . .) (٢) . وعلى يد عمر رضي الله عنه كان انهيار الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية .

وكان الأمر الثانى الذى أقدم عليه هرقل أن كتب إلى رسول الله ﷺ : إنى مسلم ولكنى مغلوب على أمرى . فلما قرأ رسول الله ﷺ كتابه قال :

« كذب عدو الله ، وليس بمسلم ، بل هو على النصرانية » .

لقد أراد رسول الله ﷺ من تبوك أن يحفظ البشرية من الدماء بإسلام هرقل ، وإسلام الروم معه . لكن الجواب الذى جاءه أكد له أن هرقل لا يمكن أن يخرج على عظماء الروم ويعلن إسلامه ، إنما بعث يهادن رسول الله ﷺ ، ويطلب منه قبوله فى صفه جنديًا على ما هو عليه ، ولكنه آثر ملكه على دينه كما آثر أبو طالب عمه ملة عبد المطلب خوف السبة عليه من العرب ، وشتان بين هجومهم عليه القتله ، وبين أن يخروا سجودًا له حين أعلن أنه يختبر صلابتهم فى دينهم .

ويريد الله تعالى لهذا الدين أن يحرر البشرية من ضلالات النصرانية وسيطرة الرومان ؛ فردًا فردًا وقرية قرية ويدخلها فى دين الله على بصيرة وهدى ، لا أن يكون إيمان هذه البشرية لإيمان عظيمها هرقل ، أو عظماء الروم ، وبذلك ينحرفون بانحراف هؤلاء الأشخاص .

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى ٢/ ٦ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٣٤٤ ، وقد وردت قصة بعثة دحية لهرقل عند البخارى ٤/ ٥٤ ـ ٥٧ ، ومسلم ٥/ ١٦٣ ـ ١٦٦ ، وتاريخ الإسلام للذهبى ٤٢٠ ، ودلائل النبوة لأبى نعيم ص ٢٣٩ ، ٣٤٣ ـ ٣٤٥ ، وفتح البارى ٦/ ٤٥٠ ، وأحمد فى المسند برقم ٢٣٧٠ ، وأبو داود فى الأدب ، والترمذى فى الاستئذان ، والنسائى فى التفسير ، ولم يخرجه ابن ماجه كما قال العسقلانى فى شرح البخارى ، وانظر : الاصطفا فى تاريخ المصطفى ٣/ ٢٧ ، وانظر : سبل الهدى والرشاد للصالحى هامش ١٢/ ٣٥٢ .

كم جر إيمان ملك الروم بالنصرانية التى يريدها على البشرية من ويلات حين فرضها بضلالاتها وانحرافاتها ولا تزال تعانى إلى اليوم بعد مئات القرون من هذا الانحراف ، وشاءت إرادة الله عز وجل أن يحفظ هذا الدين من هوى الطواغيت وتحكمهم فيه . ليبقى كما قال عليه الصلاة والسلام :

« تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » .

وأى إيمان هذا الذى ينتقل من أنه يريد أن يغسل الأرض بين قدميه إلى أن يخر قومه سجوداً له لردته عن دين الله ، لقد حفظ الله البشرية من الضياع بضياع دينها الإسلام ، وبقيت مرتبطة برسول رب العالمين ، بعيدة عن أهواء ورغبات الطواغيت والحاكمين كما هو الحال فى النصرانية حتى اليوم .

(وقد تدخل قسطنطين إمبراطور الرومان فى الأمر . فجمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥، ويقول ابن البطريق المسيحى فى وصف المجتمعين وعددهم ما نصه : بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان ، فجمع البطاركة والأساقفة ، فاجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، وكانوا مختلفين فى الآراء والأديان . . . وسمع قسطنطين مقال كل فرقة من ممثليها ، فعجب أشد العجب مما رأى وسمع ، فأمرهم أن يتناظروا لينظر الدين الصحيح مع من، وأخلى داراً للمناظرة ، ولكنه جنح أخيراً إلى رأى بولس، وعقد مجلساً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأى ، وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة . ويقول فى ذلك ابن البطريق : وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً ، وجلس فى وسطهم ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتى لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا بما فيه قوام الدين ، وصلاح المؤمنين ، فباركوا الملك ، وقلدوه سيفه وقالوا له : أظهر دين النصرانية ، وذب عنه ، ووضعوا له أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع ، منها ما يصلح للملك أن يعمل به ، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به) .

وضع هذا المجمع المحدود من الأساقفة قرارات فى العقيدة وفى الشرائع ليقيدوا بها المسيحيين ، ولا يهمنا إلا بيان العقيدة التى قررها المجمع وفرضها على المسيحيين ، وقد ذكرها صاحب كتاب الأمة القبطية فقال عنها ما نصه : (إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرِّمُ كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شىء ، أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب ، وكل من يؤمن أنه خُلِق ، أو من يقول : إنه قابل للتغير ، ويعتريه ظل دوران) .

(إذن قرّر المجمع ألوهية المسيح،وأنه من جوهر الله،وأنه قديم بقدمه، وأنه لا يعتريه تغيير ولا تحويل وفرضت تلك العقيدة على المسيحيين قاطبة مؤيدة بسلطان قسطنطين ، لاعنة كل من يقول غير ذلك ، والذين فرضوا هذا القول (٣١٨) أسقفًا ، ويخالفهم فى ذلك نحو سبعمائة وألف أسقف ، وإن لم يكونوا متفقين على نحلة واحدة) (١) .

هذا ما جناه دخول قسطنطين إمبراطور الروم على المسيحية ، وفرض ألوهية المسيح عقيدة فيها . وبعدِ مرور أربعة عشر قرنًا ، ولا تزال هذه الشركية تملأ النصارى فى فجاج الأرض .

﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ [المائدة : ١٧] .

فكيف لو سيطر هرقل على الأرض، وجاء ليقوم بحل وسط بين الإسلام والنصرانية ليرضى أساقفته ويرضى محمدًا ﷺ ، ويقدم دينًا جديدًا خليطًا بينهما ، فنحمد الله عز وجل على دين الإسلام .

وجرت المحاولات جادة من اليهود ـ كذلك ـ لإدخال رسول الله ﷺ فى متاهات أهل الكتاب :

(فقد روى البيهقى بسند جيد عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يومًا فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقًا أنك نبى فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء ، فصدّق ما قالوا ، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة : ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً** (٧٦) **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً** (٧٧) ﴾ [الإسراء] . فأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة وقال : فيها محياك ، وفيها مماتك ومنها تبعث ، فرجع رسول الله ﷺ) (٢) .

وإن كان بين يدينا رواية أخرى شاور فيها رسول الله ﷺ وزيره عمر بن الخطاب بالتقدم إلى أرض الروم ، ولعل هذا كان قبل نزول الآيات السابقة .

قال محمد بن عمر : (شاور رسول الله ﷺ أصحابه فى التقدم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، إن كنت أمرت فى السير فسر ، فقال رسول الله ﷺ : « لو أمرت بالسير لما استشرتكم فيه » ، فقال : يا رسول الله ، إن للروم جموعًا كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا منهم وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه

(١) محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله. ط٤ ١٣٩٢هـ. ط دار الفكر العربى .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٦٤ .

السنة حتى ترى أو يحدث الله لك أمرا) [1] .

ولم يكن يدرى الوزير الثانى عمر ﷺ أن قدر الله قد أعدَّه ليكون قاهر الفرس والروم ، وأنه سيتم الرسالة النبوية ويجيش الجيوش إلى أرض الروم تحمل رايات هذا الدين إلى كل صقع ، وأنه هو الذى سيسقط إمبراطور الروم من أرض الشام حتى يمضى قائلاً :

(سلام عليك يا سوريا سلامًا لا لقاء بعده) .

وتصبح أرض المحشر ، وأرض الأنبياء بؤرة إسلامية للنور تشع منها إلى الخافقين ، ولم يكن يدرى ﷺ أن صورته هناك فى أرض الروم بجوار أخيه أبى بكر ، يتم الله بهما فتوح هذا الدين .

ونعود إلى قيصر الذى لم يبل حرقته كتاب من رسول الله ﷺ ، ولا حديث من أبى سفيان عن رسول الله ﷺ ، عن هذا النبى المنتظر ، إنما أراد أن يستيقن اليقين الأخير ، فاستدعى ذلك التنوخى الذى أوصاه أن يمضى إلى محمد فى تبوك ، ويسعدنا أن يكون هو هو نفسه محدثنا عن هذه المهمة .

(ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب قال : ادع لى رجلاً حافظًا للحديث عربى اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه ، فجاءنى ، فدفع إلىّ هرقل كتابًا فقال :

اذهب بكتابى هذا إلى هذا الرجل . فما سمعته من حديثه فاحفظ لى منه ثلاث خصال :

هل يذكر صحيفته التى كتب بشىء ؟ وانظر إذا قرأ كتابى هذا هل يذكر الليل ؟ وانظر فى ظهره هل فيه شىء يريبك ؟ قال : فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكًا) .

هذه الأسئلة الثلاثة اثنان منها يدلان على عمق تفكير هرقل وسعة أفقه ، والثالث مرتبط بعلمه فى الكتاب الأول وصفة خاتم النبوة فى ظهر رسول الله ﷺ .

(حتى جئت تبوكًا فإذا هو جالس بين ظهرى أصحابه محتبيًا على الماء ، فقلت : أين صاحبكم ؟ قيل: ها هو ذا ، فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه فناولته كتابى فوضعه فى حجره ثم قال :

« ممن أنت ؟ » فقلت : أنا أخو تنوخ ، فقال : « هل لك فى الإسلام ، الحنيفية

---

(1) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٦٤ ، والمغازى للواقدى ٣/ ١٠١٩ .

ملة أبيك إبراهيم ؟ » فقلت : إنى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم فضحك وقال :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾

[القصص]

ورسول الله ﷺ يعنيه إسلام هذا الأعرابى أكثر مما يعنيه رسالة هرقل أعظم أباطرة الأرض ، ولهذا عرض عليه الإسلام قبل أن يفض الرسالة ، وذكَّره أن هذا الدين هو ملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والعرب تفخر أن تنتسب لإبراهيم الذى مثَّل رمز مقدساتها فى البيت الحرام الذى أقامه مع ابنه إسماعيل ، لكن صاحبنا التنوخى ينظر أنه يمثل أعظم أباطرة الأرض ، وهو رسول هذا الإمبراطور ، فكيف يترك دينه ويقبل بهذه الملة التى تكاد أن تكون دين البدو ، فهو سامق فى سلم الحضارة ومرتبط بأعظم ملوك الأرض ، وإذا كان محمد ﷺ ملك العرب ، فهرقل ملك الأرض كلها بعد أن هزم خصمه الأكبر ملك الفرس ، ولا شك أن جواب رسول الله ﷺ وضحكه ، ثم تلاوة الآية المباركة أدخلت شيئًا من القلق والحيرة إلى نفس هذا التنوخى ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ [القصص : ٥٦] .

(قال: « يا أخا تنوخ إنى كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشى بصحيفة فمزقها ، والله ممزقه وممزق ملكه[١] ، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا مادام فى العيش خير » قلت : هذه إحدى الثلاث التى أوصانى بها صاحبى ، فأخذت سهمًا من جعبتى فكتبتها فى جفن سيفى) .

ومن هنا صدق ظن هرقل وحدسه فى أن الرسول ﷺ قد يتحدث عن هذا الكتاب لأنه بعث جوابًا آخر مع دحية بن خليفة الكلبى ، ويختلف مضمون الرسالتين عن بعضهما، فالمتوقع أن يشير إلى ذلك . ولا يتناقض ، ومن أجل ذلك كان السؤال الثانى مرتبطًا بمضمون هذه الرسالة الثانية .

(ثم ناول الصحيفة رجلاً عن يساره ، قلت : من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ قالوا : معاوية . فإذا فى كتاب صاحبى : تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فأين النار ؟ فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله أين النهار إذا جاء الليل ؟ » قال : فأخذت سهمًا من جعبتى فكتبته فى جفن سيفى) وحسب فهم هرقل

---

(١) المعروف أن النجاشى استجاب لدعوة رسول الله ﷺ وأسلم، ولعلها مصحفة فى المخطوطة عن كلمة أخرى.

للنفوس البشرية يجب أن يكون الجواب المنطقى لمثل تساؤله هو هذا الجواب ، وهرقل إذن من أعاظم الرجال فى الأرض ، ومن عباقرتهم ، وذلك حين يوصى هذا الأعرابى بهذين الأمرين أن يتأكد من ذكرهما ، ويدرك هرقل أن عظمة هذا النبى وعبقريته تقتضى مثل هذين الأمرين .

(فلما فرغ من قراءة كتابى قال : « إن لك حقًا ، وإنك لرسول ، فلو وجدتُ عندنا جائزة جوّزناك بها ، إنا سفر مرملون » قال قتادة : فناداه رجل من طائفة الناس ، فقال: أنا أجوّزُه . ففتح رحله ، فإذا بحلة صفورية فوضعها فى حجرى ، قلتُ : من صاحب الجائزة ؟ قيل لى : عثمان . ثم قال رسول الله ﷺ : « أيكم ينزل هذا الرجل ؟ » فقال فتًى من الأنصار: أنا، فقام الأنصارى، وقمت معه ، حتى إذا خرجت من طائفة المجلس نادانى رسول الله ﷺ فقال : « تعالى يا أخا تنوخ » فأقبلت أهوى حتى كنت قائمًا فى مجلسى الذى كنت بين يديه ، فحل حبوته وقال : « ها هنا امض لما أمرت له » فجلت فى ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة فى موضع غضروف الكتف مثل المحجمة الضخمة) [1] .

ويدرك الحبيب الأعظم ﷺ أن قضية ختم النبوة هى قضية متواترة عند أهل الكتاب الأول ، فقد جاء سلمان الفارسى الذى جاب الآفاق كلها يبحث عن ختم النبوة فى جسد المصطفى الشريف ﷺ . ودعاه لرؤيته ، وهذا أخو تنوخ حسب التعليمات الموجهة له من هرقل عظيم الروم، يدعوه رسول الله ﷺ خصيصًا ؛ ليرى ختم النبوة فى ظهره الشريف حتى تكتمل رسالة هرقل ، وحتى يعرف التنوخى أنه أمام رسول رب العالمين ، فالأمور الثلاثة التى أصدرها له هرقل ، رآها كاملة ، وسيمضى مغتبطًا إلى هرقل بها ، ولكنه سيمضى وقلبه معلق برسول اله ﷺ الذى يخشاه هرقل ويصانعه ويصالحه .

كما أننا نشير من خلال الحديث إلى عراقة الأعراف الدبلوماسية فى أصول التعامل مع الرسل ، فمع أن التنوخى لم يسلم ، لكن رسول الله ﷺ يعتذر له من إجازته ؛ لأن حق الرسل ذلك ، ويقوم عثمان رضي الله عنه بسد هذه الثغرة ، وإهدائه الحلة الصفورية ، والرسل تُكرم ، فيسأل رسول الله ﷺ عمَّن يستضيفه ، ويقوم الفتى الأنصارى بذلك ، والمعروف عنه ﷺ أنه كان يكرم الرسل والوفود ، وقلما جاء وفد إليه ولم يخرج بهدايا وجوائز تناسبه ، وسنستفيض فى هذا الحديث عند الوصول إلى عام الوفود الذى هو هذا العام نفسه ، وأخيرًا نتابع مع التنوخى إلى هرقل كما يحدثنا الواقدى :

قال محمد بن عمر : (فانصرف الرجل إلى هرقل فذكر ذلك له ، فدعا قومه إلى

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٥٩ وفى هامشه قال المحقق : قال ابن كثير فى البداية والنهاية ٥/ ١٦ : هذا حديث غريب وإسناده لا بأس به. تفرد به الإمام أحمد .

التصديق بالنبى ﷺ فأبوا حتى خافهم على ملكه ، وهو فى موضعه فى حمص لم يتحرك ولم يزحف ، وكان الذى خبر النبى ﷺ من تعبئة أصحابه ودنوه إلى وادى الشام لم يُرِد ذلك ولا هم به) (1) .

وهذا هو المتوقع من هرقل فهو لن يقود حربًا ضد نبى مرسل ، وشاءت إرادة الله تعالى أن يتم هذا الاستنفار العظيم للمسلمين جميعًا ليحضروا هذه الدورة التربوية الخالدة، ويشهدوا أعظم أباطرة الأرض ، يسالم رسول الله ﷺ ويطلب رضاه ، ويبعث له الهدايا كما ذكر السهيلى (أن هرقل أهدى لرسول الله ﷺ هدية . فقبل رسول الله ﷺ هديته ، وفرقها على المسلمين) .

وهذه هى المرة الثالثة التى يبعث بها قيصر الروم هداياه ، والمرة الثالثة التى يحاول قيصر الروم أن يدخل قومه فى الإسلام ويقنعهم فيه، وهذه هى الرسالة الثالثة التى يبعثها هرقل إلى رسول الله ﷺ يصانعه ويداريه ، ويعلن إسلامه ، ويعتذر لرسول الله أنه مغلوب على أمره ، ويطلب رضاه . ولكن رسول الله ﷺ يعلن كذبه ، وأنه آثر دنياه وملكه على آخرته ودينه، ولكن هذا لا يمنع من قبول الهدية، ولا يمنع من إكرام رسوله، ولا يمنع من الثناء عليه على موقفه من رسالته، واحتفاظه فيها بحق من عاج تكريمًا لها ، وكل هذا لا يتعارض مع التميز والمفاصلة الذى جاء الإسلام بها فى مجال العقيدة . وطلب التعايش فى مجال السلوك ما لم يكن إثمًا أو قطيعة رحم أو بغيًا أو عقوقًا أو شيئًا من ذلك .

لقد شهدنا فى تبوك الدولة التعاقدات الدولية مع معظم قادة الشام من العرب ، وشهدنا أكثر من ذلك الرسائل المتبادلة بين هرقل عظيم الروم وبين رسول الله ﷺ ، وما كانت هذه الغزوة إلا توطئة لفتوح الشام وتهيئة لهذه النفوس أن تمضى فاتحة بعد ذلك ، بعد عام ونصف العام تقريبًا ، ماضية بدين الله إلى كل صقع . وقد تعلمت وتربت على فقه الأعراف الدبلوماسية التى أجازها الشرع فيما أجازه ، وعلى البحث عن الهدف الأول من نشر الدعوة لا نشر السيف والقتل فى النفوس ، فمسيرة رسول الله ﷺ شهران بكل ما كلفته وأرهقت أصحابه وحملتهم من متاعب ومصاعب وتكاليف ، لم يدفعه ذلك كله إلى خوض حرب لا ضرورة لها ، ولم يجد لها مبررًا طالما أن هرقل سالم ولم يحارب ، وعلّمت هذا الجيل الكثير من أحكام دينه ومن تفصيلات شريعته ، وكيف أن امتدادات هذا الدين عند أهل الكتاب الأول ضاربة فى الأعماق ، موغلة فى التاريخ من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة ، وأن هذا الجيل نفسه مذكور فى كتب

---

(1) المغازى للواقدى ٣/١٠١٩ .

النصارى واليهود سيفتح الله به الأرض . ويغير به الباطل والفساد إلى الحق والهدى والنور ، وجاءت الآيات فى سورة التوبة تؤكد هذه المعانى جميعًا وتفصلها بعد أن فندت دعاوى النصارى وضلالاتهم لتقول : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)** ﴾ [التوبة] ويدعوهم إلى الحرب العامة الشاملة ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)** ﴾ [التوبة] .

فى العودة إلى المدينة : تربية كذلك

١ ـ (روى مسلم عن أبى هريرة ، وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب ﷺ ، ومحمد بن عمر عن شيوخه ، قال شيوخ محمد بن عمر : لما أجمع رسول الله ﷺ السير من تبوك أرمل الناس إرمالاً فشخص على ذلك من الحال .

قال أبو هريرة : فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهنا.

قال شيوخ محمد بن عمر : فلقيهم عمر بن الخطاب وهم على نحرها فأمرهم أن يمسكوا عن نحرها،ثم دخل على رسول الله ﷺ فى خيمة له (ثم اتفقوا) فقال:يا رسول الله أأذنت للناس فى نحر حمولتهم يأكلونها فقال رسول الله ﷺ : « شكوا إلىَّ ما بلغ منهم الجوع فأذنت لهم بنحر الرفقة البعير والبعيرين ، ويتعاقبون فيما فضل من ظهرهم ، وهم قافلون إلى أهليهم » فقال : يا رسول الله ، لا نفعل فإن يكن للناس فضل من ظهرهم يكن خيرًا ، فالظهر اليوم رقاق [١] ، ولكن ادع بفضل أزوادهم ثم اجمعها فادع الله فيها بالبركة كما فعلت فى منصرفنا من الحديبية حيث أرملنا ، فإن الله عز وجل يستجيب لك) ، فنادى منادى رسول الله ﷺ : من كان عنده فضل من زاد فليأت به ، وأمر بالأنطاع فبسطت ، فجعل الرجل يأتى بالمد الدقيق والسويق والتمر ، والقبضة من الدقيق والسويق والتمر والكِسر ، فيوضع كل صنف من ذلك على حدة ، وكل ذلك قليل ، فكان جميع ما جاؤوا به من الدقيق والسويق والتمر ثلاثة أفراق [٢] حزرًا [٣] ، ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين ، ثم دعا الله عز وجل أن يبارك فيه) [٤] .

فكان أربعة من أصحاب النبى ﷺ يحدثون جميعًا حديثًا واحدًا ، حضروا ذلك وعاينوه أبو هريرة ، وأبو حميد الساعدى، وأبو زُرعة الجهنى معبد بن خالد ، وسهل بن سعد الساعدى ، قالوا : ثم انصرف رسول الله ﷺ ونادى مناديه : هلموا إلى الطعام ، خذوا منه حاجتكم ، وأقبل الناس فجعل كل من جاء بوعاء ملأه ، فقال بعضهم : لقد طرحت يومئذ كسرة من خبز وقبضة من تمر ، ولقد رأيت الأنطاع تفيض ، وجئت بجرابين فملأت أحدهما سويقًا والآخر خبزًا ، وأخذت فى ثوبى دقيقًا ، ما كفانا إلى

---

(١) الرقاق : جمع رقيق ، أى ضعيف .

(٢) الأفراق : جمع فرق ، وهو مكيال فى المدينة يسع ثلاثة آصع ، أو يسع ستة عشر رطلاً .

(٣) الحزر : التقدير والخرص .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٦٥ .

المدينة ، فجعل الناس يتزودون عن آخرهم حتى نهلوا عن آخرهم ، حتى كان آخر ذلك أن أُخِذت الأنطاع ونثر ما عليها ، فجعل رسول الله ﷺ يقول وهو واقف :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى عبده ورسوله ، وأشهد أنه لا يقولها أحد من حقيقة قلبه إلا وقاه الله حر النار » (١) .

وفى رواية لمسلم عن أبى هريرة : (فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: « خذوا فى أوعيتكم »، قال فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى العسكر وعاءً إلا ملؤوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة » (٢) .

٢ - وروى محمد بن عمر بسنده عن أبى قتادة قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ نسير فى الجيش ليلاً وهو قافل وأنا معه ، إذ خفق خفقة وهو على راحلته ، فمال على شقه ، فدنوت منه فدعمته فانتبه فقال : « من هذا ؟ » قلت : أبو قتادة يا رسول الله ، خفت أن تسقط فدعمتك . قال : « حفظك الله كما حفظت رسول الله » ثم سار غير كثير ، ثم فعل مثلها ، فدعمته فانتبه ، فقال : « يا أبا قتادة ، هل لك فى التعريس ؟ » فقلت : ما شئت يا رسول الله ، فقال : « انظر من خلفك » فنظرت فإذا رجلان أو ثلاثة فقال : « ادعهم » . فقلت أجيبوا رسول الله . فجاؤوا فعرَّسنا ونحن خمسة برسول الله ﷺ ، ومعى إداوة فيها ماء وركوة لى أشرب فيها ، فنمنا ليلتنا فما انتبهنا إلا بحر الشمس ، فقلنا : إنا لله ، فاتنا الصبح . قال رسول الله ﷺ : « لنغيظن الشيطان كما أغاظنا » فتوضأ من ماء الإداوة ففضل فضلة فقال : « يا أبا قتادة احتفظ بما فى الأداوة والركوة فإنَّ لها شأنًا » ثم صلى بنا الفجر بعد طلوع الشمس فقرأ بالمائدة ، فلما انصرف من الصلاة قال : « أما إنهم لو أطاعوا أبا بكر وعمر لرشدوا » وذلك أن أبا بكر وعمر أرادا أن ينزلا بالجيش على الماء ، فأبوا ذلك عليهما ، فنزلوا على غير ماء بفلاة من الأرض ، فركب رسول الله ﷺ فلحق بالجيش عند زوال الشمس ونحن معه ، وقد كانت تقطع أعناق الرجال والخيل عطشًا فدعا رسول الله ﷺ بالركوة ، فأفرغ ما فى الأداوة فيها ، فوضع أصابعه عليها فنبع الماء من بين أصابعه ، وأقبل الناس فاستقوا ، وفاض الماء حتى ترووا ، وأرووا خيلهم وركابهم ، فإن كان فى المعسكر اثنا عشر ألف بعير ، ويقال : خمسة عشر ألف بعير ، والناس ثلاثون ألفًا ، والخيل عشرة آلاف ، وذلك قول النبى ﷺ لأبى قتادة : « احتفظ بالركوة والأداوة . . . ») (٣) .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/١٠٣٨، ١٠٣٩ .
(٢) مسلم ١/٥٦ ح (٤٤ / ٢٧) .
(٣) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٤٠ .

وكان فى تبوك أربعة أشياء ، فبينا رسول الله ﷺ يسير منحدراً إلى المدينة وهو فى قيظ شديد عطش العسكر بعد المرتين الأولين عطشًا شديدًا حتى لا يوجد للشفة ماء قليل ولا كثير ، فشكوا اذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل أسيد بن حضير فى يوم صائف وهو متلثم فقال رسول الله ﷺ : « عسى أن تجد لنا ماءً » فخرج وهو ما بين الحجر وتبوك ، فجعل يضرب فى كل وجه . فيجد راوية من ماء مع امرأة من بلى ، وكلمها أسيد فخبَّرها بخبر رسول الله ﷺ فقالت : « هذا الماء فانطلق به إلى رسول الله ﷺ ، وقد وضعت لهم الماء ، وبينهم وبين الطريق هنية ، فلما جاء أسيد بالماء ، دعا فيه رسول الله ﷺ بالبركة . ثم قال : « هلموا أسقيتكم » فلم يبق معهم سقاء إلا ملؤوه ، ثم دعا بركابهم وخيولهم فسقوها حتى نهلت ، ويقال : إنما أمر رسول الله ﷺ بما جاء به أسيد، وصبَّه فى قعب عظيم من عِساس أهل البادية ، فأدخل رسول الله ﷺ فيه يده ، وغسل يديه ووجهه ورجليه ، ثم صلى ركعتين ، ثم رفع يديه مدًا ، ثم انصرف وإن القعب ليفور ، فقال رسول الله ﷺ زوّدوا ، فاتسع الماء ، وانبسط الناس حتى يصف عليه المائة والمائتان ، فأرووا ، وإن القعب ليجيش بالرواء ، ثم راح رسول الله ﷺ مبرِدًا مترويًا من الماء .

قال : وحدثنى أسامة بن زيد بن أسلم عن أبى سهل عن عكرمة قال : خرجت الخيل فى كل وجه يطلبون الماء وكان أول من طلع به ويخبره صاحب فرس أشقر ، ثم الثانى أشقر ، ثم الثالث أشقر فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك فى الشقر » .

وروى بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الخيل الشقر » (١) .

٣ ـ قال ابن إسحاق : (وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل ما يروى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادى المشقق ، فقال رسول الله ﷺ : « من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يستيقن منه شيئًا حتى نأتيه » . قال : فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه، فلم ير فيه شيئًا. فقال: « من سبقنا إلى هذا الماء ؟ » فقيل له : يا رسول الله ﷺ ، فلان وفلان. فقال : « أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئًا حتى آتيه » ثم لعنهم رسول الله ﷺ ، ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل(٢) ، فجعل يصب فى يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به، ومسح يده ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به فانخرق من الماء كما يقول من سمعه إن له

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٤٠ ـ ١٠٤٢ .

(٢) الوشل : حجر أو جبل يقطر منه الماء قليلاً قليلاً ، وهو أيضًا الماء القليل .

حسًا كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله ﷺ: « لئن بقيتم أو بقى منكم لتسمعن بهذا الوادى وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه » (١) .

٤ ـ وروى الطبرانى بسند صححه الشيخ وحسَّنه الحافظ ـ خلافًا لمن ضعَّفه ـ عن فضالة بن عبيد ﷺ أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك فجهد الظهر جهدًا شديدًا ، فشكوا ذلك إليه، ورآهم يزجون ظهرهم(٢)، فوقف فى مضيق والناس يمرون فيه ، فنفخ فيها فقال: « اللهم احمل عليها فى سبيلك ، فإنك تحمل على القوى والضعيف والرطب واليابس فى البر والبحر » فاستمرت ، فما دخلنا المدينة إلا وهى تنازعنا الأعنة(٣))(٤) .

٥ ـ روى الإمام أحمد عن أبى الطفيل ، والبيهقى عن حذيفة ، وابن سعد عن جبير ابن مطعم وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك ، ومحمد بن عمر عن شيوخه أن رسول الله ﷺ لما كان ببعض الطريق مكر به ناس من المنافقين وائتمروا بينهم أن يطرحوه من عقبة فى الطريق ـ وفى رواية كانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ ـ فجاؤوا يلتمسون غِرته ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يسلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، وقالوا : إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى ، فأخبر الله تعالى رسوله بمكرهم، فلما بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة نادى مناديه فى الناس: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ، واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع ، فسلك الناس بطن الوادى إلا النفر الذين مكروا برسول الله ﷺ، لما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا ، وسلك رسول الله ﷺ العقبة، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها ، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه ، فبينا رسول الله ﷺ يسير من العقبة ، إذ سمع حس القوم قد غشوه ، فنفَّروا ناقة رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه، وكان حمزة بن عمرو الأسلمى لحق برسول الله ﷺ بالعقبة، وكانت ليلة مظلمة، قال حمزة : فنوِّر لى فى أصابعى الخمس فأضاءت حتى جمعت ما سقط من السوط والحبل وأشباههما، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم، وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ومعه محجن فجعل يضرب وجوه رواحلهم وقال : إليكم إليكم يا أعداء الله تعالى فعلم القوم أن رسول الله ﷺ قد اطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ. فقال: « اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار » فأسرعوا حتى استوى بأعلاها، وخرج رسول الله ﷺ من العقبة ينتظر الناس ، وقال لحذيفة : « هل عرفت أحدًا من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٢٧، ومن المرجح أن تكون هذه الحادثة فى الذهاب إلى تبوك كما مر معنا .

(٢) يزجون ظهورهم : يعوقون ظهورهم . (٣) تنازعنا الأعنة : تريد أن تترك أعنتها من نشاطها .

(٤) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/٦٦٨ .

الركب الذين رددتهم ؟ ». قال: يا رسول الله، قدعرفت رواحلهم ، وكان القوم ملثمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل قال: « هل علمتم ما كان شأنهم وما أرادوا ؟ » قالوا: لا والله يا رسول الله ، قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معى فإذا طلعت العقبة زحمونى فطرحونى منها وإن الله قد أخبرنى بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبركم بهم إن شاء الله تعالى » قالوا : أفلا تأمر بهم يا رسول الله ، إذا جاء الناس أن تضرب أعناقهم ؟ قال : « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمداً قد وضع يده فى أصحابه » فسماهم لهما ثم قال : « اكتماهم » فانطلق إذا أصبحت فاجمعهم لى ، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال له أسيد بن الحضير : يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سلوك الوادى ؟ فقد كان أسهل من العقبة . فقال : « يا أبا يحيى ، أتدرى ما أراد بى المنافقون وما هموا به ؟ قالوا : نتبعه من العقبة ، فإذا أظلم عليه الليل قطعوا أنساع راحلتى ونخسوها حتى يطرحونى عن راحلتى » قال أسيد: يا رسول الله قد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى همَّ بهذا ، فيكون الرجل من عشيرته هو الذى يقتله وإن أحببت فوالذى بعثك بالحق، فنبئنى بأسمائهم فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم. قال : « يا أسيد ، إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم » .

وفى رواية : « إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً لما قضيت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه » فقال : يا رسول الله ، فهؤلاء ليسوا بأصحاب ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ؟ » قال : بلى ، ولا شهادة لهم قال : « أليس يظهرون أنى رسول الله ؟ » قال : بلى ، ولا شهادة لهم . قال : « فإنى نهيت عن قتل أولئك » .

وقال ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال لحذيفة: « ادع عبد الله ، وأبا حاضر الأعرابى ، وعامراً وأبا عامر ، والجلاس بن سويد بن الصامت » وهو الذى قال : لا ننتهى حتى نرمى محمداً من العقبة . ولئن كان محمد وأصحابه خيراً إنا إذن لغنم وهو الراعى ، ولا عقل لنا وهو العاقل ، وأمره أن يدعو مجمع بن جارية ، وفليح التميمى ، وهو الذى سرق طيب الكعبة ، وارتد عن الإسلام وانطلق هاربًا فى الأرض فلا يدرى أين ذهب ـ وأمره أن يدعو حصين بن نُمير ـ الذى أغار على تمر الصدقة فسرقه، فقال له رسول الله ﷺ: « ويحك ما حملك على هذا ؟ » قال : حملنى عليه أنى ظننت أن الله تعالى لم يطلعك عليه ، أما إذا أطلعك عليه ، فإنى أشهد اليوم أنك رسول الله ، فإنى لم أومن بك قط قبل الساعة ، فأقاله رسول الله ﷺ وعفا عنه بقوله الذى قاله ، وأمر رسول الله حذيفة أن يأتيه بطعمة بن أبيرق ،

وعبد الله بن عيينة ، وهو الذى قال لأصحابه : اشهدوا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، فوالله مالكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل فدعاه رسول الله ﷺ فقال : « ويحك ما كان ينفعك من قتلى لو أنى قتلت يا عدو الله ؟ » فقال عدو الله : يا نبى الله . والله ما تزال بخير ما أعطاك الله تعالى النصر على عدوك ، فإنما نحن بالله وبك فتركه رسول الله ﷺ وقال لحذيفة : « دع مرة بن الربيع » وهو الذى ضرب على عاتق عبد الله بن أبى ثم قال : تمطى ، أو قال تمططى ، والنعيم كائن لك بعده ، نقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : « ويحك ما حملك على أن تقول الذى قلت ؟ » قال : يا رسول الله إن كنت قلت شيئًا من ذلك فإنك العالم به ، وما قلت شيئًا من ذلك .

وهم اثنا عشر رجلاً الذين حاربوا الله تعالى ورسوله ، وأرادوا قتله ، فأخبرهم رسول الله ﷺ بقولهم ومنطقهم وسرهم وعلانيتهم ، وأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك يعلمه وذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ [التوبة : ٧٤] .

ومات الاثنا عشر منافقًا محاربين لله تعالى ورسوله .

قال حذيفة ـ كما رواه البيهقى : ودعا عليهم رسول الله ﷺ فقال : « اللهم ارمهم بالدبيلة » قلنا : يا رسول الله ، وما الدبيلة ؟ قال : « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » .

وروى مسلم عنه (أى حذيفة) أن رسول الله ﷺ قال : « فى أصحابى اثنا عشر رجلاً منافقًا لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، ثمانية تكفيهم الدبيلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » (١) .

قال البيهقى : (وروينا عن حذيفة ﷺ أنهم كانوا أربعة عشر أو خمسة عشر) .

٦ ـ روى البخارى وابن سعد عن أنس عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال :

« إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم » فقالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة حبسهم العذر » (٢) .

٧ ـ روى الإمام أحمد والشيخان عن أبى حميد الساعدى ، وعبد الرزاق وابن أبى شيبة فى مصنفيهما . . . عن أنس وجابر وأبى قتادة قالوا :

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٦٩ ـ ٦٧٢ . (٢) المصدر السابق ٥/ ٦٧٢ وهى عند البخارى .

أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى أشرفنا على المدينة قال :

« هذه طابة ـ زاد ابن أبى شيبة : أسكننيها ربى ـ تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد » انتهى ـ فلما رأى أُحُدًا قال : « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه ، ألا أخبركم بخير دور الأنصار ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم دار بنى عبد الأشهل ، ثم دار بنى الحارث بن الخزرج ثم بنى ساعدة » . فأدرك سعد رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا آخرها دارًا ، فقال : «أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار ؟ ») (١) .

٨ ـ روى البخارى وأبو داود والترمذى عن السائب بن يزيد ﷺ قال : أذكر أنى خرجت مع الصبيان نتلقى رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من تبوك) (٢) .

(وروى البيهقى عن ابن عائشة رحمه الله تعالى قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البــدر علينــا ... مـن ثنيـات الــوداع

وجب الشكر علينــا ... ما دعا لله داع)(٣)

٩ ـ روى ابن إسحاق عن أبى رهم كلثوم بن الحصين الغفارى قال :

ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

فقال : « إنى على جناح سفر ، وحال شغل » أو كما قال ﷺ ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه . فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد . فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ، ومعن بن عدى أو أخاه عاصم بن عدى أخا بنى العجلان فقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه » ، فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لمعن: أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفان من نخل، فأشعل فيه نارًا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرَّقاه وهدماه ، وتفرّقوا عنه،

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣ ، وهى عند مسلم ٤/ ١٩٤٩ح (٧٧ ـ ١٨٠/ ٢٥١١) .
(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٧٣ وهى عند البخارى .
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٦٦ .

ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ... ﴾ إلى آخر القصة) [التوبة : ١٠٧ ـ ١١٠] (١) .

وروى البيهقى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ... ﴾ [التوبة : ١٠٧] هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم، واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم ، فأخرج محمدًا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ يعنى مسجد قباء ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ إلى قوله ﴿ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ يعنى قواعده ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى الشك ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعنى الموت) (٢) .

وروى الواقدى عن شيوخه قال: وكان عاصم بن عدى يقول: كنا نتجهز إلى تبوك مع النبى ﷺ فرأيت عبد الله بن نبتل ، وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الضرار وهما يصلحان ميزابًا قد فرغا منه فقالا: يا عاصم ، إن رسول الله ﷺ قد وعدنا أن يصلى فيه إذا رجع . فقلت فى نفسى : والله ما بنى هذا المسجد إلا منافق معروف بالنفاق ، أسَّسهُ أبو حبيبة بن الأزعر ، وأُخرج من دار خِذام بن خالد ، ووديعةُ بن ثابت فى هؤلاء النفر، والمسجد الذى بنى رسول الله ﷺ بيده، يؤسسه جبريل عليه السلام يؤم به البيت. فوالله ما رجعنا من سفرنا حتى نزل القرآن بذلك وذم أهله الذين جمعوا فى بنائه وأعانوا فيه: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة] . وقيل لعاصم بن عدى : ولِمَ أرادوا بناءه ؟ قال : كانوا يجتمعون فى مسجدنا ، فإنما هم يتناجون فيما بينهم ، ويلتفت بعضهم إلى بعض ، فيلحظهم المسلمون بأبصارهم ، فشقّ ذلك عليهم، وأرادوا مسجدًا يكونون فيه لا يغشاهم فيه إلا من يريدون ممَّن هو على مثل رأيهم، فكان أبو عامر يقول: لا أقدر أن أدخل مِربدكم هذا، وذلك أن أصحاب محمد يلحظوننى، وينالون منى ما أكره. قالوا: نحن نبنى مسجدًا نتحدث فيه عندنا) (٣) .

١٠ ـ قال ابن سعد : وجعل المسلمون يبيعون أسلحتهم ويقولون : قد انقطع الجهاد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فنهاهم وقال :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٣٠ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٦٢، ٢٦٣ .

(٣) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٤٨، ١٠٤٩ .

« لا تزال عصابة من أمتى يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال »[1] .

١١ ـ روى البيهقى عن خريم بن أوس بن حارثة بن لام قال :

هاجرت إلى رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك فأسلمت ، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله ، إنى أريد أن أمتدحك . فقال رسول الله ﷺ : « قل لا يفضض الله فاك » . فقال العباس :

من قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يُخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرًا وأهله الغَرَقُ
تُنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق
حتى احتوى بيتك المهيمنُ من ... خندفَ علياء تحتها النُطُقُ
وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ض وضاءت بنورك الأُفُق
فنحن فى ذلك النور وفى الضيا ... ء وسُبل الرشاد نخترق

وفى رواية عن زكريا بن يحيى الطائى (فذكره بإسناده إلا أنه قال : « حدثنى ابن أوس قال : هاجرت ثم ذكره بمثله وزاد :

ثم قال رسول الله ﷺ : « هذه الحيرة البيضاء قد رُفعت لى ، وهذه الشيماء بنت نفيلة ، الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود » فقلت : يا رسول الله ، إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما تصف فهى لى ؟ قال : « هى لك »)[2] .

* * *

أهم الأحداث التى تواجهنا بعد الاتجاه من تبوك إلى المدينة هى :

أولاً : إطعام الجيش كله وإسقاؤه .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٧٤ وهى عند ابن سعد ٢/ ١٦٧ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٦٨. وينقل لنا الحافظ البيهقى عن خريم بن أوس رضي الله عنه ، كيف تحقق معه موعود رسول الله ﷺ يوم كان فى الجيش الذى مضى إلى الحيرة مع خالد بن الوليد رضي الله عنه فيقول : (... ثم أقبلنا على طريق الطف إلى الحيرة فأول من يلقانا حين دخلناها الشيماء بنت نفيلة كما قال رسول الله ﷺ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود ، فتعلقت بها وقلت : هذه وهبها لى رسول الله ﷺ ، فدعانى خالد عليها بالبينة فأتيته بها وكانت البينة محمد بن مسلمة ، ومحمد بن بشير الأنصاريان ، فسلمها إلى ، فنزل إلينا أخوها عبد المسيح يريد الصلح. قال : بعنيها ، فقلت : لا أنقصها والله عن عشرة مائة درهم. فأعطانى ألف درهم ، وسلمتُها إليه. فقيل : لو قلت مائة ألف لدفعها إليك ، فقلت : ما كنت أحسب أن عددًا أكثر من عشر مائة). الدلائل ٥/ ٢٦٩ .

ثانيًا : مؤامرات المنافقين فى محاولة قتل النبى ﷺ ومسجد الضرار .

ثالثًا : الجو النفسى للمسلمين بعد غزوة تبوك .

وسنستعرض تباعًا هذه القضايا الثلاث :

أولاً : إطعام الجيش كله وإسقاؤه :

والملاحظ أن التربية الفردية تكاد تكون أحداثها نادرة أثناء هذه الغزوة بينما تنصب التربية على الجماعة المسلمة كاملة ، فليست المعجزة ضمن مجموعة محددة من الجيش ، إنما تعرض المعجزة الربانية ، فيشهدها الجيش الإسلامى كله ، وذلك بعد عشرين يومًا من التربية المستمرة الخاصة والعامة التى أتاحت أكبر قدر ممكن لأكبر عدد من الصحابة أن يلتقوا بقائدهم ورسولهم ، فى استفسار أو استماع لخطبة ، أو شهود لمعجزة ، أو حل لمشكلة . وتعرف الجيش على سيد ولد آدم بين ظهرانيهم ، فينهلوا من نوره ما شاء الله أن ينهلوا ، أما وقد تحرك بجيش قافلاً إلى المدينة ، فلا عجب فى هذه المسافة الطويلة التى تتجاوز ستمائة كيلو متر أن تحصل المجاعة فى الجيش ، وأن ينفد الزاد ، ولا عجب أن يشرف الجيش على الهلاك ، وتقطع أعناق الرجال والدواب مرات ومرات ، والطريق كله صحراء قاحلة ، يندر أن تلقى بها الماء ، وها هو الجيش يعود دون معركة تذكر أو حرب يحصل منها على غنائم أو ثروات ، اللهم إلا الكتيبة العدائية إلى دومة الجندل ، وقد أثبت الجيش انضباطًا عظيمًا وكفاءة كبيرة وصبرًا على الجوع والحر والعطش . هذا الجيش الذى نجح فى هذا الامتحان ورضى ربه عنه ، لن يدعه عز وجل يهلك فى هذه الصحراء جوعًا وعطشًا ، إنما يدربه ويعجم عوده ، ويقوى ساعده استعدادًا للجولات التالية . وهو الثروة البشرية التى أعدها رسول الله ﷺ خلال اثنين وعشرين عامًا ، وهو المرشح للتغيير الشامل فى الأرض ، فلا عجب أن يشهد رسولَ رب العالمين ، وكيف يطعم ثلاثين ألف من البشر ببركته ﷺ ، وكيف يسقى العطاش الظمأى من البشر والدواب ببركته عليه الصلاة والسلام ، ليزداد الذين آمنوا إيمانًا ويزداد الذين فى قلوبهم مرض رجسًا ولعنة وغضبًا من الله .

فالجيش يؤدب عائدًا برعاية الله ، والطريق طويل ، والجوع كافر ، والصحراء ممتدة فقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادهنا . فهذا هو الحل المنطقى ، أن يضحى بالقليل من البعير ، وتتناوب كل مجموعة فى الركوب ، وهذا هو الأمر الذى أصدره رسول الله ﷺ أو الإذن بالأحرى ، لكن الوزير الثانى رضي الله عنه تدخل وأوقف الإذن ، ثم دخل على رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، أذنت للناس فى

نحر حمولتهم يأكلونها ؟ ورأى رسول الله ﷺ أن الإذن قد فهم على غير صورته الحقيقية، من خلال هذه الإشاعة ، فقال صلوات الله وسلامه عليه لوزيره :

« شكوا إلىَّ ما بلغ منهم الجوع فأذنت لهم ، ينحر الرفقة البعير والبعيرين ، ويتعاقبون فيما فضل بينهم » .

وعلى ضوء هذه الخطة ، فقد تنقص الركائب حوالى ثلاثمائة بعير من اثنى عشر ألف بعير ، وذلك قياسًا على غزوة بدر ، حيث عرف رسول الله ﷺ عدد القوم مما ينحرون من الإبل كل يوم . إذ قال الأسير القرشى ، ينحرون كل يوم تسعًا أو عشراً من الإبل ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم بين التسعمائة والألف » . لكن هذا العدد اليومى حين ينقص كل يوم فقد يجهز على الكثير من البعير ، فلو احتملت العودة عشرة أيام فهذا يعنى أنهم ينحرون ثلاثة آلاف بعير ، بينما لو احتملت العودة عشرين يومًا فهذا يعنى أنهم ينحرون ستة آلاف بعير ، أى نصف مراكبهم ، وهذا يهدد الجيش بالهلاك .

لم يكن لدى ابن الخطاب ﷺ حرج أن يراجع رسول رب العالمين فى أمر رآه ، فهو مسؤول وقائد وليس جنديًا عاديًا فحسب ، والجندى العادى يراجع فكيف بالوزير المسؤول ، ومع أنه لم يستشر ، ولم يطلب رأيه ، لكنه مع ذلك ومن موقع المسؤولية أوقف الإذن ، ودخل على قائده يناقشه فيه .

قال عمر : يا رسول الله، لا تفعل، فإن يك فى الناس فضل من الظهر يكن خيراً، فالظهر اليوم رقاق ، والمسؤول ليست مهمته فقط أن يبين أبعاد القرار المتخذ ، بل مهمته كذلك أن يقدم القرار البديل لحل الأزمة .

إن الإسلاميين اليوم يطرحون شعارهم الحل الإسلامى ، ويوجهون نقدهم المستمر لكل الحلول القائمة للأزمات المستعصية فى الأمة ، لكن لا يكفى أن نوضح خطأ البعد عن الحل الإسلامى . فهذا يستطيعه الكبير والصغير ، أما المطلوب منا فهو أن نقدم الحل الإسلامى للأزمة المستعصية ، ولاشك أن الفكرة التى تقول : إن هذه الأزمات والمشاكل إنما نتجت عن تطبيق غير الإسلام ، وليس الإسلام مسؤولاً عنها هى فكرة صحيحة والقول : دعوا الإسلام يحكم ، ثم حاسبوه على المشكلات التى تنشأ من حكمه ، هذه الفكرة وجيهة ، لكن المغالاة فيها أحيانًا تحول الوضع إلى صورة خيالية ، فهناك أزمات اقتصادية مستعصية ، وحُكّم الإسلام فى أكثر من قطر ، ولم يتمكن الإسلاميون من أن يقدموا المجتمع النموذجى الذى يعدون به الجماهير بعد حكم الإسلام ، ونخشى أن يوقعوا هذه الجماهير بالسراب كما أوقعتهم الشيوعية فيه ، حين يعجزون عن حل هذه الأزمات ، وهذا عمر ﷺ أمامه مشكلة الجوع المستحكمة فى الجيش ، ولا يكفى أن

نحافظ على الركائب والظهر أمام فتك الجوع بهذه النفوس ، بل لابد من إيجاد حل واقعى .

إن ثقة الوزير الثانى بقائده رسول رب العالمين ثقة لا تعرف الحدود ، وما أعجب هذا الحل الذى طرحه ؟

(ولكن يا رسول الله، ادع الله بفضل أزوادهم ثم اجمعها، وادع الله تعالى بالبركة لعل الله تعالى أن يجعل فيها البركة كما فعلت فى منصرفنا من الحديبية حين أرملنا ، فإن الله تعالى مستجيب لك) .

فقد كان هذا الحل منطلقًا من الخبرات السابقة ، حيث أرمل الجيش فى الحديبية ، وأطعم الله ذلك الجيش ، ولكن الفرق كبير بين الألف والخمسمائة وبين الثلاثين ألفًا ، لكن عند الله عز وجل لا يعنى هذا الفرق شيئًا .

« يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا على صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » .

ورأى رسول الله ﷺ الأخذ برأى وزيره عمر ﷺ ، كما أخذ فى القدوم إلى تبوك برأى وزيره الصديق حين قال له : يا رسول الله ، إن الله عز وجل قد عوّدك فى الدعاء خيرًا ، فادع الله تعالى لنا . قال : « أتحب ذلك ؟ » قال : نعم .

وهنا يقول لوزيره الثانى : نعم .

(فدعا بنطع فبسط ، ونادى منادى رسول الله ﷺ : من كان عنده فضل من زاد فليأت به ، وهو امتحان عسير جدًا لإيمان هؤلاء المؤمنين ، فالذى عنده القليل من الزاد إن لم يكن الإيمان يملأ كيانه أن الله تعالى سيبارك له فيه ، كيف يفرط بما عنده ، ويدع نفسه جائعًا ليطعم غيره ، وما أعسره من اختبار أن تتنازل عما تملك فى أشد الساعات عسرة وأصعب الأوقات حرجًا ، إن التمرة فى مثل هذه الحال ليضن بها صاحبها على غيره . ولكن الأوامر النبوية لا تدع مجالاً للاحتفاظ بشىء ، والذى يحتفظ بما عنده يعلم أن الله تعالى يراه ، فقد يخبر رسوله عنه ، ويفتضح أمره بين المسلمين .

(فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ، ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة وفى الرواية الثانية : وجعل الرجل يأتى بالدقيق أو التمر أو القبضة من الدقيق والسويق والتمر ثلاثة أفراق حزرًا ، والفرق ثلاثة آصع قال : فجزأنا ما جاؤوا به فوجدناه سبعة وعشرين صاعًا) . ويمكن لهذه الكمية من التمر أن تشبع مائة من جنود هذا الجيش الذى يبلغ عشرات الألوف ، والله تعالى يريد لهذا الجيش المعرض للهلاك أن يقدم له مأدبة

لهذه الوجبة الغذائية على حساب رسوله ﷺ، وتموينًا للجيش على الطريق للأيام القادمة، ويعلم هذا الجيش مكانة هذا النبى العظيمة عنده ، وأثرته لديه ، وحبه له ، وأنهم قد أكرمهم ربهم برفقة إمام الأنبياء ، وأعظم خلق الله فى هذا الوجود ، وفى هذه العملية وحين يستجيب الله تعالى لعبده ورسوله ، إنما يطال كل جندى من جنود هذا الجيش ، ما يكرمه الله تعالى به من دفقات الإيمان إلى قلبه ، والجيش كله يشهد هذه العملية ، والكل يتطلعون بكل أعصابهم وجوارحهم ، وبكل ما يملكون من جوع فاتك يتطلعون إلى هذه الأصع السبع والعشرين ، وإلى هذه الكسرات والذرة ، وهذا الطعام الذى يطعم مائة أو مائتين كيف يمكن أن يطعم الجيش كله ، وها هو ﷺ بين يدى جيشه يقوم بالعمليات اللازمة لإطعام الجيش كله ، والجيش ينظر إليه ، والمؤمنون تهفو قلوبهم حبًا وشوقًا وهيامًا بسيدهم ، والمنافقون يشمتون ويصمتون ويتظاهرون بالإيمان الكاذب .

(فتوضأ ، وصلى ركعتين ، ثم دعا الله تعالى أن يبارك فيه ، قال عمر : فجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه فدعا فيه بالبركة ثم قال :« أيها الناس ، خذوا ولا تنتهبوا ») .

وانتهت المعامل الكبرى للتصنيع الغذائى ، التى تحتاج إلى المليارات ، لتأمين طعام الجيش وتموينه حتى العودة إلى المدينة .

(فأخذوه فى الجُرب والغرائر ، حتى جعل الرجل يعقد قميصه فيأخذ فيه . قال أبو هريرة رضي الله عنه : وما تركوا فى المعسكر وعاءً إلا ملؤوه ، وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة . قال محمد بن عمر : قال بعض الصحابة : لقد طرحت يومئذ كسرة من خبز ، وقبضة من تمر ، ولقد رأيت الأنطاع تفيض ، وجئت بجرابَيْن فملأت أحدهما سويقًا والآخر خبزًا ، وأخذت فى ثوبى دقيقًا كفانى إلى المدينة) .

إن رسول الله ﷺ ليعجب لهذا الفيض الربانى الذى بعثه ربه على يديه فموَّن الجيش كله وأطعمه ، والجيش يملؤون جراب قلوبهم إيمانًا ويقينًا قبل أن يملؤوا أوعيتهم خبزًا وتمرًا ، وكان عرسًا خالدًا من أعراس الإيمان التى لم تتكرر فى التاريخ ولن تتكرر لهذا الجيش الضارب فى الصحراء ، والذى يمثل الهدى فى الأرض ، وهو الوحيد فى هذا الوجود والذى يمثل نور الوجود وهداه .

ولهذا كان الحدث مناسبة لتعميق الإيمان فى القلوب يقول عقبه رسول الله ﷺ : «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يقولها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة » وفى لفظ : « لا يأتى بها عبد محق إلا وقاه الله حر النار » ، إننا لتغمرنا السعادة ونحن نقرأ عن هذه المعجزة ونحلم برؤاها ، فكيف بمن شهدها عيانًا ورآها بعينه ؟!

وليس إسقاء الجيش كله بأقل معجزة من إطعامه ، فهى مضافة ربانية لأحبابه فى الأرض ، أن سقاهم من عنده تكريمًا لرسوله ﷺ ثلاث مرات بعد عطش مضن فى هذه البيد ، وأى عجب فى ذلك أن يرعى الله تعالى عبيده وأحبابه الذين أطاعوا الله تعالى ورسوله ، ونفروا معه فى الحر والعسرة والشدة ، وتركوا الظلال والثمار والنعيم المقيم ، وانضموا إلى جيش التوحيد يقطع الصحراء جيئة وذهابًا فى سبيل الله ، ويرفع رايات التوحيد خفاقة فى الأرض العربية كلها .

وما أجمل قصة الإداوة والركوة التى نبه رسول الله ﷺ على أهميتها قبل وقوع المعجزة ومحدثنا فى ذلك أبو قتادة رضي الله عنه ، الذى أكرمه الله تعالى برفقة سيد الثقلين ، وهو الذى يحمل هموم الأمة كلها : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ ﴾ [المزمل] ، وها هو عليه الصلاة والسلام بطبيعته البشرية يأخذ منه الإرهاق كل مأخذ ، (فمال على شقه فدعَمتُه فانتبه ، فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أبو قتادة يا رسول الله ، خفت أن تسقط فدعمتك . فقال رسول الله ﷺ : « حفظك الله كما حفظت رسوله » وهنيئًا لك يا أبا قتادة دعوة نبيك . (ثم سار غير كثير ، ثم فعل مثل هذا فدعمته فانتبه . فقال : « يا أبا قتادة ، هل لك فى التعريس ؟ » فقلت : ما شئت يا رسول الله) وهذا أحب إلى أبى قتادة ، فسوف يبيتون ويجلسون ، ويستمع لحديث نبيه المصطفى ، ويتاح له أن يخدمه ، وفى هذا من المتعة والسعادة أكثر من حديث الراكبين على راحلتيهما يتحدثان ، وانضم أربعة صحابة مع أبى قتادة أحاطوا برسول الله ﷺ (فنمنا فما انتبهنا إلا بحر الشمس ، فقلنا : إنا لله ، فاتنا الصبح ، فقال رسول الله ﷺ : « لنغيظن الشيطان كما أغاظنا » .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۝٤٨ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩ ﴾ [سبأ]

فتوضأ من ماء الإداوة ففضل فضلة فقال :

« يا أبا قتادة ، احتفظ بما فى الإداوة والركوة ، فإن لهما شأنًا » .

وينظر أبو قتادة فرحًا سعيدًا بهذه الإداوة والركوة ، ترى أية معجزة سيشهدها بهما ، ويضمهما إلى صدره، ويحبهما الحب الغامر ، فهما مرشحتان لمعجزة من معجزات الدنيا.

(وصلى رسول الله ﷺ بنا الفجر بعد طلوع الشمس ، فقرأ بالمائدة ، فلما انصرف من الصلاة قال : « أما إنهم لو أطاعوا أبا بكر وعمر لرشدوا » . وذلك أن أبا بكر وعمر أرادا أن ينزلا بالجيش على الماء فأبوا ذلك عليهما،فنزلوا على غير ماء بفلاة من الأرض). فالجنود يحدوهم الشوق إلى أهليهم فى المدينة ويودون لو تطوى بهم الأرض ليصلوا إلى

بيوتهم وثمارهم وظلالهم ، وإذا بهم يجدون أنفسهم بفلاة من الأرض حيث لا ماء ولا ظل ولا هناء ، وكانت مناسبة لإعلام المسلمين فى الأرض إلى يوم القيامة ، وليس جيش العسرة فقط ، لإعلامهم جميعًا أن طاعة أبى بكر وعمر هى الرشد بعينه ، سواءً كان ذلك فى تبوك وغيرها ، وسواءً فى الجيل المعاصر لهما أو ما بعدهما ، فهما أمناء الله تعالى فى أرضه على رسالة نبيه محمد ﷺ حتى ليقول لهما سيد ولد آدم: « لو اجتمعتما على أمر ما خالفتكما » ، ولكنا نحمد الله أن المسلمين فى هذه المناسبة ما استجابوا للوزيرين ، وما نزلوا على الماء ، حتى نشهد معجزة جديدة تغمر الكون بعظمتها تنبع من بين أصابع المصطفى ﷺ .

(فركب رسول الله ﷺ فلحق بالجيش عند زوال الشمس ونحن معه ، وقد كادت أعناق الخيل والرجال والركاب تقطعُ عطشًا ، فدعا رسول الله ﷺ بالركوة فأفرغ ما فى الإداوة فيها ووضع أصابعه عليها فنبع الماء من بين أصابعه ، وأقبل الناس فاستقوا وفاض الماء حتى رووا ، ورووا خيولهم وركائبهم ، وكان فى العسكر اثنا عشر ألف بعير ، والناس ثلاثون ألف ، والخيل اثنا عشر ألف فرس ، فذلك قول رسول الله ﷺ : «احتفظ بالركوة والإداوة ، فإن لهما شأنًا ») وإن الخيل وكل فرس فيها لتشهد شهادة الحق بالوحدانية والرسالة ، وإن كل ناقة لتسعد بهذا المدد الربانى ، وتشعر أنها مع نبى هذا الوجود ، وقد أكرمت من ربها بفضل رسوله بهذا الماء الزلال فى الصحراء ، وإن الصحراء كلها بكل ذرة رمل فيها لتفخر على أخواتها أن مسها رسول الله ﷺ ومشى على ثراها ، وغمرها بالماء الربانى بفضل الله عز وجل ، ويبقى هو عبد الله ورسوله ، وتبقى الوحدانية الخالصة هى الهدف من وراء كل هذه المعجزات ، فالنصارى لم يتسع عقلهم لبعض المعجزات التى أجراها الله تعالى على يد نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام أن يحيى الموتى بإذن الله ، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ، فجعلوه إلهًا من دون الله ؛ لأنهم يرون ألا يفعل هذا أحد إلا الله . بينما نشهد عشرات الألوف هنا ، والتى كانت تعبد الحجر من دون الله ، تلقاه فى الطريق فتستنظفه وتغسله وتعبده ، بل وتعبد التمر والخشب يبخرها البخار فيذهب عقلها بها ، وهى لاتملك نفعًا ولا ضرًا ولا تردد كلامًا ، ولا تنطق شيئًا . ومع كل ذلك يقدمون لها القرابين ويخافون منها ، ويتمسحون فيها . وهذا محمد ﷺ يطعم جيشًا من سبع وعشرين صاعًا من التمر، ويسقى جيشًا قوامه ثلاثون ألفًا من بقية ماء فى ركوة ، ويفور الماء من أصابعه ، ومع هذا كله فيقول: « إنى عبد الله ورسوله » . ويدعو معلنًا فى هذا الجيش « أن من يأتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى عبد الله ورسوله ، لم يحتجب عن الجنة أو يقيه الله تعالى النار » . أى وحدانية هذه وأى عظمة هذه ، وأى عبودية هذه ، يصبغ بها رسول الله ﷺ جنده وحزبه « إن

الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ورضى أن تطيعوه بما تحقرون من أعمالكم ».

إنها راية الوحدانية الخالصة ، والعبودية الخالصة لله وحده ، ولو كان رسوله يطعم عشرات الألوف فإنما يطعمهم بإذن الله ، ويدعو الله تعالى بذلك ، وحين يسقى عشرات الألوف ، إنما يسقيهم بإذن الله ، وبعطاء الله . وخشية منه ﷺ أن يتلبس إيمانهم بظلم أو يتلبس بشرك ، يعود ليقرر لهم فى كل لحظة عبوديته لله وحده ، وامتثاله لأمر ربه سبحانه، وأنه بشخصه لا يملك نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا إلا فيما يعطيه الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، بل يمضى به جبريل ﷺ ليصلى فى المدينة على جندى من جنوده حضر صلاة جنازته سبعون ألف ملك ، وبماذا نال هذا الوسام ، ناله بحبه ، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص] يتلوها قائمًا وقاعدًا أو راكبًا أو ماشيًا على كل حال . وما سقاية الماء الذى تفجر من الوشل تختلف عن الماء المتفجر من بين أصابع المصطفى ﷺ ، يفجر من هذا النبع القليل الذى يؤخذ بالمصة والمصتين ليتفجر أنهارًا فيسمعون له كحس الصواعق من هدير تفجره ، وما سقاء المرأة البلوية الذى باركه رسول الله ﷺ فأصبح عينًا من عيون الماء ، ومعينًا من معينه ، يستقى منه الجيش ، إلا شواهد لوحدانية الله ، الذى رضى عن هذا الجيش ، ورضى عن قائده ، وأكرمهم بالطعام والماء وغذاهم وسقاهم من عنده. إن الحواريين ليلحون بالمائدة من السماء ، والتى تلا رسول الله ﷺ آياتها قبل معجزة المائدة التى أطعمت ثلاثين ألفًا ، أرادوا أن يجعلوا منها عيدًا ، كما قال المسيح ﷺ عنها:

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة] .

ترى كم من الأعياد (١) علينا أن نحتفل بها بمناسبة هذا الغذاء الربانى والسقاء الربانى من خلال هذه الآيات التى أجراها جل وعلا على يد نبيه محمد ﷺ ورزقه ورزق حزبه وجنده وهو خير الرازقين .

(فيجد راوية من ماء مع امرأة من بلى ، فكلمها أسيد ، وأخبرها خبر رسول الله ﷺ، وقد وصفت له الماء وبينه وبين الطريق هنيهة، فلما جاء أسيد بالماء ، دعا فيه رسول الله ﷺ ، ودعا فيه بالبركة ، ثم قال : « هلم أسقيتكم » . فلم يبق معهم سقاءً إلا ملؤوه ، ثم دعا بركابهم وبخيولهم فسقوهاحتى نهلت . ويقال : إنه ﷺ أمر بما جاء به

---

(١) وهذا من باب ذكر الشيء بالشيء . فلا يغيب عن الذهن أن أيام الأضحى والفطر والجمعة هى الأعياد الوحيدة للمسلمين ، والأعياد تثبت بنص شرعى ، لا بابتداع بشرى .

أسيد فصبه فى قعب عظيم من عساس أهل البادية . فأدخل رسول الله ﷺ فيه يده ، وغسل وجهه ويديه ورجليه ثم صلى ركعتين ، ثم رفع يديه مدًا ، ثم انصرف وإن القعب ليفور . فقال رسول الله ﷺ للناس « رِدوا » فاتسع الماء وانبسط الناس حتى يصنّف عليه المائة والمائتان . فارتووا وإن القعب ليجيش بالرواء ، ثم راح رسول الله ﷺ مبردًا مترويًا .

وتأتى خاتمة المعجزات فى تبوك ، وقد كلّ الظهر وتعب من هذه الرحلة الصحراوية المهلكة ، وجهد جهدًا شديدًا ، ويخشى أن ينقطع بهم هذا الظهر فى تبوك ، فالإبل أمضت شهرين فى الرواح والغدو، وقطعت هذه المسافات الشاسعة، حتى أنهم ليسوقونها بعنف ، ولا تقدر على المسير ، (فوقف فى مضيق والناس يمرون فيه ، فنفخ فيها وقال: « اللهم احمل عليها فى سبيلك فإنك تحمل على القوى والضعيف والرطب واليابس فى البر والبحر » ، وكانت هذه الدعوة العظيمة المباركة بمثابة إدخال هذه الإبل فى عملية استجمام واسعة، قد تزيد عن الشهر ، حيث استعادت قوتها ، وعادت لها فتوتها ، وكما يقول فضالة بن عبيد رضي الله عنه (فاستمرت فما دخلنا المدينة إلا وهى تنازعنا أزمتها) يحاول المسلمون كبح جماحها فما يستطيعون من النشاط والفتوة والحركة . ونعيد إلى الذاكرة فضالة بن عبيد الذى ابتدأ حياته بالإسلام بمعجزة خالدة يوم أقدم على اغتيال الرسول ﷺ وفكر فيه ، فأخبره رسول الله ﷺ بما كان يفكر . (فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « أفضالة ؟ » قال : نعم . قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : لا شىء ، كنت أذكر الله . فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خُلِق شىء أحب إلىَّ منه . ورجع فضالة إلى أهله قال : فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت : هلم إلى الحديث . فقال : لا . وانبعث يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمدًا وقبيله ... بالفتح يوم تأسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيننا ... والمشرك يغشى وجهه الإظلام)(١)

فإن كانت المعجزة لفضالة خاصة يوم فتح مكة ، ففتحت قلبه المقفل للإسلام ، بعد أن كان مزمعًا قتل نبى الإسلام فها هو يحدثنا عن المعجزة التى عمت الجيش كله ، وبعثت النشاط والحركة والحيوية فى الإبل التى يركبها المسلمون والتى تبلغ اثنا عشر ألف بعير ،

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٥٦.

وبالمعجزة الكبرى الأخرى التى حمت نصفه من الذبح ، وطالما حن الإبل لرسول الله ﷺ . فلا عجب أن يكون الإبل اليوم وهو ينازع ركابه الأعنة يود أن يسابق الريح فرحًا برسول الله ﷺ ، وشوقًا إليه وإلى مدينة المصطفى ﷺ . وأى غرابة في ذلك . ألم تقف النملة محذرة قومها بطش سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** (١٨) ﴾ [النمل] .

أو لم يعلن الهدهد التوحيد ، ويعلن ثورته على ملكة سبأ . قائلاً :

﴿ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** (٢٢) **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** (٢٣) ﴾ [النمل] ، وكلف بعدها بالسفارة بين نبى الله سليمان وملكة سبأ ، أى غرابة أن يحن الإبل إذا كان الجذع حن لرسول الله ﷺ وخار متفجعًا على فراقه . وجاء الجمل إليه وشكا له معاناته من صاحبه . أليس هذا الظهر هو لخيرة خلق الله فى الأرض، لم يركبها خيراً منهم قط، ولن يركبها كذلك، وهم يسعدون بصحبة خاتم رسل الله ، فلم لا تفرح الإبل وتتراكض بين رسول الله ﷺ سعيدة به وبصحابته ، ويشكرون المصطفى ﷺ على ما أزال بدعوته عنهم من وصب وتعب وجهد وضنك وكلل .

والأرض ترجف من زهوٍ ومن فرق	والجو يزهر إشراقًا من الجذل[1]
والخيل تختال زهواً فى أعنتها	والعيس تنثال زهواً فى ثنى الجُدُل[2]
الملك لله هذا عِزّ من عقدت	له النبوة فوق العرش فى الأزل[3]

ثانيًا : مؤامرات المنافقين :

لقد كان التخطيط عند المجرمين المنافقين على مستوى عالمى . شارك فيه زعماؤهم الكبار وعلى رأسهم عبد الله بن أبى والجد بن قيس ، وعاد أبو عامر الراهب من جولته فى أرض الشام والروم ليشارك فى هذه المؤامرات ، وشارك اليهود ، والشيطان فى هذا الأمر بكل ما أوتوا من قوة .

وقد تحدثنا عن المؤامرات السابقة ، ونتابع فضح المؤامرات هنا فى العودة من تبوك ، وإن كان القرآن الكريم هو الذى سجلها لتبقى أبد الدهر تدل على الكيد لهذا الدين ، وكيف يحبط الله تعالى هذا الكيد حتى أن سورة براءة من كثرة ما فضح فيها من مؤامرة وخبث وكيد . أطلق عليها اسم (الفاضحة) و(المبعثرة) .

---

(١) الجذل : الفرح . (٢) الجدل : جمع جديلة وهى زمام الناقة .

(٣) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٣٩٥ من قصيدة للإمام الشقراطيسى .

أما المؤامرة الكبرى التى بين أيدينا فهى محاولة اغتيال رسول الله ﷺ ، ويحسن أن نبرز المخطط الذى انطلق منه المنافقون فى الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين معه :

أولاً : إطلاق الإشاعات عن استعداد قيصر لغزو المدينة ، مع إغراءات اليهود لرسول الله ﷺ أن يرد أرض المحشر ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]. فاليهود والمنافقون يحلمون بأن يمضى المسلمون لأرض الروم وغزو الشام حتى تكون مقبرتهم هناك .

ثانيًا : تثبيط المؤمنين على الجهاد وإثارة الشكوك فى الصف المسلم ؛ لتكون لهم الأعذار المناسبة فى عدم اللحاق بالجيش كى ينجوا بأنفسهم وتستقيم لهم السيطرة على المدينة وكان المسؤول عن هذه الجريمة الجد بن قيس .

ثالثًا : التظاهر بالاستعداد للنفير ، ثم التخلى عنه فى اللحظات الأخيرة ، والانفصال بالمنافقين عن الجيش الإسلامى .

رابعًا : بناء مسجد الضرار ليكون مركز القيادة للمنافقين ، ويتمكن أبو عامر الفاسق من الانضمام إليهم ، وتشكيل قيادة مؤقتة بديلة عن القيادة الإسلامية .

خامسًا : بث عناصر متنوعة فى داخل الجيش لكشف الأسرار الإسلامية ، والتعرف على المخططات ضد المنافقين .

سادسًا : إعلان قيام دولة المنافقين فى حالة هزيمة المسلمين مع الروم ، وطرد المسلمين منها .

سابعًا : قتل رسول الله ﷺ أثناء عودته من غزاته لأرض الروم فى حالة العودة المظفرة .

ثامنًا : إعلان قيام دولة المنافقين حين ينجح مخطط الاغتيال لرسول الله ﷺ .

تاسعًا : استدعاء قوات من عند قيصر لتقوم باحتلال المدينة ، وإنهاء الإسلام من الأرض .

عاشرًا : مبايعة عبد الله بن أبى ملكًا على المدينة، وقيام أبى عامر الفاسق بدور القائد العسكرى ، وتبنى النصرانية دينًا عوضًا عن الإسلام ، والتحالف مع قيصر حاميًا لجزيرة العرب .

أما قضية الهم بقتل الرسول ﷺ فقد سجلها القرآن الكريم بقوله جل وعلا :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا

وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [التوبة] .

و(كانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ ، فجعلوا يلتمسون غرته ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يسلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه) .

ويح هؤلاء المنافقين الجاسية قلوبهم، والغليظة أكبادهم، فى كل ساعة يرون معجزة، وفى كل لحظة يشهدون انتصاراً ، وفى كل مرة يأتى وحى من السماء يفضح مؤامراتهم ، ثم لا يرعوون .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾ [البقرة] .

صحيح أن الآيات السابقة إنما تتحدث عن اليهود ، والمنافقين منهم الذين تظاهروا بالإيمان . ولكنها تتحدث كذلك عن تلامذتهم من المنافقين الذين ربوهم على الحقد على هذا الدين ، وشجعوهم عليه ، بل كان انضمام بعض أحبار اليهود علنًا إلى الإسلام ، وإبطانه الكفر ليقود إخوانه الآخرين للثبات على هذا الموقف ، لقد نكسوا على رؤوسهم، وعرفوا الإسلام ثم كفروا ، لقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا . وهم فى ظاهر الأمر جند من جند الله تحت راية رسول الله ﷺ يقاتلون أعداء الله ، ورضوا بأن يعانوا كل هذه المعاناة من المشقة والعسرة ، والتعب والأهوال ، تنفيذًا لمآربهم النجسة الدنسة ، وتحقيقًا للمؤامرة التى يخططون لها .

والله تعالى يمكر بهم ، ويستهزئ بهم ويمكرهم ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾ [البقرة]. فيدع الله عز وجل الأمر يمضى بنبيه حتى يروا أنهم قاب قوسين أو أدنى من أهدافهم ، ثم يفضحهم متلبسين بالجرم المشهود ؛ ولهذا كان الأمر واضحًا وصريحًا فى منع سلوك العقبة لأحد ؛ لأن رسول الله ﷺ سوف يمر منها وعلى المسلمين جميعًا أن يمضوا فى الوادى بعيدين عنها ، وفى هذا الأمر تعرية مكشوفة للمنافقين ، بحيث لا يضيعون فى خضم المسلمين ، وفى ظلمة الليل حيث يصعب كشفهم ؛ ولهذا كان الأمر النبوى :

« إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ، واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع » .

والمفروض أن يتراجع المنافقون عن مؤامراتهم حيث ستفتضح تمامًا ؛ إذ سيكونون وحدهم هم المخالفون للأوامر ، لكن الحقد الذى ينهش قلوبهم أغراهم أكثر وأكثر فى تنفيذ مخططاتهم ، قالوا : (إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى) فهم مطمئنون لنجاح خطتهم ، وإلقاؤه من العقبة إلى الوادى ، يعنى الانتهاء منه ، ويعنى العودة بالمسلمين إلى جاهليتهم الأولى كما يتوهمون ، وتعود القيادة لابن أبى وابن قيس وأبى عامر الراهب فابن قيس المعزول عن سيادة بنى سلمة يعود فيتسلم قيادتهم ، ويعزل أسيد بن حضير عن الأوس ليعود أبو عامر الراهب الملاحق إلى قيادة الأوس ، ويمكن أن تعود البيعة لابن أبى إذا رتب الأمر بين الأوس والخزرج ، ولاشك أن لهم عملاء فى كل قبيلة يقومون بالانقضاض على القيادات المسلمة ، واستلام أمر قبائلهم عنها .

إنه انقلاب عسكرى شامل ، لن ينجح بدون القوات التى وعد أبو عامر الراهب بإحضارها من عند قيصر ؛ كما فعل سيف بن ذى يزن يوم استنجد بالفرس ، وطرد الأحباش من اليمن .

وكل الاحتياط الذى أخذه هؤلاء المغامرون هو أن يكونوا ملثمين بحيث لا يعرفهم أحد .

(فسلك الناس بطن الوادى إلا النفر الذين مكروا برسول الله ﷺ لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وسلك رسول الله ﷺ العقبة ، وكان معه جنديان فدائيان فقط ، هما : عمار بن ياسر الآخذ بزمام الناقة يقودها، وحذيفة بن اليمان يسوقها من خلفها).

لقد اعتمدوا عنصر المفاجأة بأن ينفروا الناقة ، ويقطعوا حزامها ، ويدفعوا برسول الله ﷺ إلى الوادى ، ويفروا بعدها تحت جنح الظلام ليختلطوا فى الناس .

(فبينا رسول الله ﷺ يسير فى العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه ، ونفروا ناقة رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه). وكانت هذه هى الخطوة الأولى من المؤامرة ، ولم يبق إلا أن يتبعوا الخطوة الثانية والثالثة ، لكن لم يأخذوا بحسبانهم حماية الله تعالى لنبيه ، وافتداء رسول الله ﷺ من الفدائيين اللذين معه ، (فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة أن يردهم) .

وحذيفة وحده هو الفدائى المشهور يوم الخندق ، فهو الذى اختاره رسول الله ﷺ ليأتيه بخبر القوم حين خاف الناس جميعًا من شدة البرد والريح والظلمة ، فجاء الأمر

النبوى : « قم يا حذيفة » ، وقام حتى دخل فى صف الجيش المكى . واختلط فيه ، وعرف أخباره ، وعاد إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فهو مدرب أعظم تدريب على الأعمال الفدائية ، وحيث إنه كان فى الخلف فهو الذى صدرت له الأوامر بمواجهة القوم، والمنافقون على كل ما يبرزون من عضلات هم أجبن وأذل من أن يواجهوا مثل حذيفة ﷺ فقد اتجه حذيفة نحوهم بمحجنه لا بسيفه ، وراح يضرب وجوه رواحلهم بالمحجن صارخًا بهم :

(إليكم إليكم يا أعداء الله تعالى) وكان هذا النداء كفيلاً أن يخلع قلوبهم من الخوف كما وصفهم القرآن الكريم : ﴿ **أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ...** ﴾ [الاحزاب : ١٩] .

لم يتقدموا ليتابعوا تنفيذ مخططهم، وكشفهم الله وفضحهم ، فعلم القوم أن رسول الله ﷺ قد اطلع على مكرهم ، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس .

ولحق برسول الله ﷺ أحد الأدلاء الخبيرين وهو حمزة بن عمرو الأسلمى ﷺ وهو صاحب نحى السمن المعروف ، فوضعت النحى فى الشمس ، ونمت فانتبهت بخرير النحى ، فأخذت رأسه بيدى ، فقال رسول الله ﷺ ورآنى : « لو تركته لسال الوادى سمنًا » ، وهو الآن تتحقق الكرامة بيديه ، حتى يجمع فى هذا الظلام متاع رسول الله ﷺ .

(وكانت ليلة مظلمة ، قال حمزة : فنُور لى فى أصابعى الخمس ، فأضاءت حتى جمعت ما سقط من السوط والحبل وأشباههما) .

وبذلك انتهت كل آثار هذه المؤامرة . بحيث لم يفقد رسول الله من متاعه شيئًا ، بعد أن كان التخطيط العالمى قائمًا على فقده ﷺ من خلال قتله ، فالله تعالى يرعى نبيه حتى بسوطه وحبله . ويجرى الله تعالى الكرامة على يد أحد أصحابه لذلك ، فأين هؤلاء الذين يحلمون بقتل رسول رب العالمين ؟

ولاحتمالات أن يكون القوم قد أعدوا مكمنًا ثانيًا للاغتيال ، ومن طبيعة الأخذ بالأسباب التى أمر الله تعالى بها نبيه ﷺ (أقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : « اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت يا عمارة » ، فأسرعوا حتى استوى بأعلاها ، وخرج رسول الله ﷺ من العقبة ينتظر الناس) . وابتدأت التحقيقات لكشف خيوط المؤامرة على التو .

(قال لحذيفة : « هل عرفت أحدًا من الركب الذين رددتهم ؟ » .

قال : يا رسول الله ، قد عرفت رواحلهم ، وكان القوم ملثمين فلم أبصرهم من

أجل ظلمة الليل) .

ويأتى جبريل عليه الصلاة والسلام أحد الشهود والمرسل من رب العالمين ليطلع الرسول ﷺ على تفصيلات الخطة ، ويضع رسول الله ﷺ هذه التفصيلات عند أمين سره حذيفة .

قال : « هل علمتم ما كان من شأنهم وما أرادوا ؟ » .

قال : لا والله يا رسول الله .

قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معى فإذا طلعت العقبة زحمونى فطرحونى منها » . وهذه قائمة بأسمائهم: « وإن الله تعالى قد أخبرنى بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وسأخبركم بهم إن شاء الله تعالى » .

وطالبت النيابة العامة بإعدامهم فوراً وبدون محاكمة طالما أن الله العليم الخبير هو الذى أخبرهم بأسمائهم .

قالوا : ألا تأمر يا رسول الله إذا جاء الناس أن تضرب أعناقهم ؟

وخلافًا لكل المحاكم الميدانية الأمنية فى الأرض التى تصدر أحكامها بالإعدام فوراً وعلى الساحة العامة ، ولا تقبل استئنافًا ولا تمييزًا ، نجد المحكمة النبوية تعلن رفض طلب النائب العام .

قال : « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمدًا قد وضع يده فى أصحابه » .

فسماهم لهما : (أى لعمار ، وحذيفة رضوان الله عليهما) . وأمر الرسول ﷺ بأن تكون الجلسة سرية ، ولا يعرف أحد إلا أمينى الوحى أسماء هؤلاء المجرمين . ثم قال : « اكتماهم » .

وأصدر أمره عليه الصلاة والسلام بالقبض عليهم مع الصباح مخفورين ، ليساقوا إلى قاعدة المحكمة .

« فانطلق إذا أصبحت فاجمعهم لى » .

وأضاف رسول الله ﷺ إلى عضوية المحكمة سيد الأوس أسيد بن حضير ، حيث دعاه مع الصبح ، (فقال أسيد : يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سلوك الوادى ؟ فقد كان أسهل من العقبة) . فقال : « أتدرى يا أبا يحيى ما أراد بى المنافقون وما هموا به ؟ ») .

وأسيد لا يعلم من وقائع المؤامرة شيئًا فقال له عليه الصلاة والسلام :

(« قالوا : نتبعه من العقبة ، فإذا أظلم عليه الليل ، قطعوا أنساع راحلتى ونخسوها حتى يطرحونى عن راحلتى » . وكان جواب سيد الأوس متجاوبًا مع رأى النائب العام ، بل أشد عنفًا منه . فقال :

(يا رسول الله ، قد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى هم بهذا ؛ فيكون الرجل الذى من عشيرته هو الذى يقتله) وكان هذا هو الاقتراح الأول ، أما الاقتراح الثانى من سيد الأوس أن يكون هو المكلف بقتلهم جميعًا . والقضية تتوقف على إشارة نبوية من رئيس المحكمة ﷺ . (وإن أحببت والذى بعثك بالحق فنبئنى بأسمائهم ، فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم) .

ولم يتغير قرار سيد ولد آدم ، فهو يرفض قتلهم . قال :

« يا أسيد ، إنى أكره أن يقول الناس : إن محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أمر بقتلهم » ، وفى رواية : « إنى أكره أن يقول الناس : إن محمدًا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه » .

ووجدها أسيد فرصة سانحة ليعلن براءة المؤمنين من هؤلاء المنافقين . لعل رسول الله ﷺ يثنى عزمه عن العفو عنهم فهؤلاء سدنة النفاق ، وعريقو الإجرام ، وسوابقهم تدمغهم فى كل مواقفهم فقال : (فهؤلاء ليسوا لك بأصحاب) وكيف يكونوا من أصحابه وهم يهمون بقتله ؟!

فقال رسول الله ﷺ : « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ؟ » .

قال : بلى ولا شهادة لهم ، قال : « فقد نهيت عن قتل أولئك » .

وهذه تربية لا يملكها إلا نبى ، فالسلطان لا يعرف حدودًا للرحمة حين يقع الخطر عليه، وهؤلاء قد أدانهم رب العزة جل جلاله وفضحهم على الخلائق ، والتفكير البشرى العادى لا يرى عقوبة لهؤلاء إلا القتل وقد هموا بقتل النبى ﷺ ، وأدينوا متلبسين بالجريمة، وطالب قادة المهاجرين والأنصار بقتلهم فهم عملاء الكفر فى جيش الإسلام ، لكن النبى ﷺ يرفض قتلهم؛ لأن الجيش الذى يقوده إمام الأنبياء جيش الهداية للبشرية، لا يمكن أن تكون صورته عند هذه البشرية أنه يقتل للسلطان والحفاظ عليه ، خاصة من أنصاره الذين آووه ونصروه فيضع السيف فيهم ، وهذا يعنى أن السيف لمن يأتون بعد أسرع، وأنهم معصومون بـ لا إله إلا الله التى قالوها ، لكن هذا لا يعنى تركهم يعيثون فسادًا فى الأرض ، فلابد من فضحهم ومحاكمتهم .

(فلما أصبح قال : « ادع عبد الله وأبا حاضر الأعرابى ، وعامرًا وأبى عامر ،

والجلاس بن سويد بن الصامت » والجلاس هذا من المخططين للقتل ، فهو الذى يقول: لا ننتهى حتى نرمى محمدًا من العقبة الليلة ، ولئن كان محمد وأصحابه خير منا إنا إذن لغنم وهو الراعى ، ولا عقل لنا وهو العاقل .

والشريك الثانى فى القتل والمهيج له هو : عبد الله بن عيينة ، وهو الذى قال لأصحابه : اشهدوا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، والله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل ، فمستقبل النفاق والمنافقين متوقف على قتل هذا الرجل .

والشريك الثالث هو : مرة بن الربيع . وهو الذى تعهد لعبد الله بن أبى بتنفيذ الخطة . فهو الذى ضرب على عاتق عبد الله بن أبى ثم قال : تمطى ، والنعيم لنا من بعده كائن ، نقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين .

وعندما حوكم الشريك الثانى ابن عيينة وسأله رسول الله ﷺ بقوله : « ويحك ما كان ينفعك من قتلى لو أنى قتلت ؟! » فأصبح كالحية الرقطاء يتلوى قائلاً : يا نبى الله لا تزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك ، إنما نحن بالله وبك . فهو يتزلف لرسول الله ﷺ ويثنى عليه ، ويعترف له بالرسالة فيتركه رسول الله ﷺ بعد أن أعلمه أن الله تعالى مطلع على قوله ، ومطلع على فعله ومطلع حتى تبييت النية التى لا يعرفها أحد ، وقد أطلع رسوله على ذلك كله ، فليعد لقلبه إن كان له قلب لعل هذا الكشف يجعله يعيد النظر فى كفره ، ويفتح أمامه مغاليق الإيمان ، وإن لم يكن ذلك فلا أقل من أن يعلم أن رسول الله قد منَّ عليه بحياته وسلامته وقد كشف مؤامرته وخبثه ، فلعل هذا الإحسان يدفعه إلى القرب من رسول الله ﷺ، وأن يبقى الرسول ﷺ أعظم من فى حياته؛ لأنه منَّ عليه فى حياته .

وكذلكم الشريك الثالث قال له رسول الله ﷺ : « ويحك ما حملك على أن تقول الذى قلت ؟ » .

قال : يا رسول الله إن كنت قلت شيئًا من ذلك ، إنك لعالم به ، وما قلت شيئًا من ذلك ، فهو إصرار على الإنكار ، واعتراف بالرسالة ، وترك له المجال ليراجع نفسه.

﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [التوبة] .

إنها الفسحة الأخيرة للتوبة من الجرم الفاضح المخزى ، أما استمرارهم على خطهم فلن ينتهى دون عقوبة فى الدنيا ، ودون عقوبة فى الآخرة .

واستدعى آخرون بجرائم أخرى اقترفوها وهما: مجمع بن جارية، وفليح التميمى،

أما فليح فهو الذى سرق طيب الكعبة ، وارتد عن الإسلام فانطلق هاربًا فى الأرض فلا يُدرى أين ذهب .

ما هو هذا الإنسان الذى يترك كل الأرض العربية، وقد استسلمت لله ، ويصير على كفره هاربًا خائفًا مذعورًا ، ولا يلين قلبه للإسلام ؟! إن الله يهدى من يشاء .

واستدعى حصين بن نمير الذى أغار على تمر الصدقة فسرقه ، فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك ما حملك على هذا ؟ » قال : حملنى عليه أنى ظننت أن الله لم يطلعك عليه ، فأما إذا أطلعك عليه وعلمتَهُ فإنى أشهد اليوم أنك رسول الله ، وإنى لم أؤمن بك قط قبل الساعة يقينًا ، فأقاله رسول الله ﷺ ، وعفا عنه بقوله الذى قال .

وهو موقف مشرف ، يعترف بالحقيقة ، ويعلن دخوله فى الإيمان ، ويعلن نفاقه من قبل أنه إنما كان عن غير قناعة بالنبوة،والإسلام يفسح صدره لعودة أمثال هؤلاء، والأصل أن يكون موقف جميع هؤلاء هو موقف حصين بن نمير هذا ، لكنها العزة بالإثم ، والإصرار على الباطل يدفعهم للتمادى فيه . فجمعهم رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً الذين حاربوا رسوله وأرادوا قتله ، فأخبرهم رسول الله ﷺ بقولهم ومنطقهم وسرهم وعلانيتهم ، وأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك بعلمه ، ومات الاثنا عشر منافقين محاربين لله تعالى ورسوله .

بناة مسجد الضرار :

ولابد من وصل مؤامرة القتل بمؤامرة مسجد الضرار فجميعها تصدر من وحلٍ واحد، وحل هؤلاء المنافقين ؛ لقد صحا النفاق بالانضمام الكثير من الأعراب إليه ، واستدعى أبو عامر الفاسق ليشارك فى قيادة تجمعه من جديد ، وما فكرة مسجد الضرار إلا تنفيذ لهذه المهمة التى تهيئ لأبى عامر المشاركة الفعلية (وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار ، وهو الذى كان يقال له : الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ : الفاسق ، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة فأرسلوا إليه فقدم عليهم أخزاه الله وإياهم ، وانهارت تلك البقعة فى نار جهنم ، وقال مجمعً حين بنى المسجد : إن هذا المسجد إذا بنيناه اتخذناه لسرنا ونجوانا ، ولا يزاحمنا فيه أحد ، فنذكر ما شئنا ، ونخيِّل إلى أصحاب محمد إنما نريد الإحسان) (١) .

إن أغرب ما تفتقت عنه عبقرية النفاق هى بناء مسجد ، والمساجد هى بيوت الله فى أرضه ، لكنها هنا كما قال عنها القرآن الكريم بأجلى بيان وأنصع عبارة :

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٥/٢٥٨ ، ٢٥٩ .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾ [التوبة] .

إن المظهر الخارجي واحد تمامًا مثل مظهر المؤمن والمنافق ، فكلاهما مسجدان تقام فيهما الصلوات ، لكن شتان بين المسجدين والفرق بينهما كما بين السماء والأرض .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) ﴾ [التوبة] .

فهل يستوى من يبنى على تقوى من الله ورضوان ، ومن يبنى على شفا جرف هار فى نار جهنم ؟!

معاذ الله .

﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٠] .

وسيان كان المسجد النبوى أو مسجد قباء فكلاهما بنيا بيد النبى ﷺ ، وكلاهما بنيا على التقوى ، أما مسجد اليوم فإنما هو مسجد قيادة النفاق فى المدينة ، وكان رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه هذه الآيات قد وعد بناة مسجد الضرار أن يصلى فى مسجدهم، لو لم يكن على جناح سفر، ورأوا هم أن المؤامرة قد نجحت، وكانت محبوكة بحيث انطلت على رسول الله ﷺ ، وتم استدعاء أبى عامر الفاسق ، وتمت الاستعدادات للاحتفالات الكبرى بقيام دولة النفاق فى الأرض ، وهذا هو مركز الدولة ورأسها، ولكن قبل وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة نزل القرآن الكريم فى مسجد الضرار وأهله، وبدلاً من أن يمضى رسول الله ﷺ ليصلى فيه ، بعث مالك بن الدخشم ، عاصم بن عدى إلى المسجد قائلاً : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه واحرقاه » وعاصم رضي الله عنه كان قبله على الجمر ينتظر هذا الأمر ، فقد ارتاب به منذ الخروج إلى تبوك ، وذلك حين رأى عبد الله بن نبتل ، وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الضرار ، وهما يصلحان ميزابًا قد فرغا منه ، فانتفخت أوداجهما أمامه قائلين له : يا عاصم ، إن رسول الله ﷺ قد وعدنا أن يصلى فيه إذا رجع ، فقلت فى نفسى : والله ما بنى هذا المسجد إلا منافق معروف بالنفاق، أسسه أبو حبيبة بن الأزعر، وأُخرج من دار خِذام بن خالد، ووديعة بن ثابت فى هؤلاء النفر ، والمسجد الذى بنى رسول الله ﷺ بيده يؤسسه جبريل يؤم به البيت ، لقد انفعل فى نفسه من طمس هذا الأمر ، فكيف يتشابه المسجدان ؟ وكان يود

من أعماق قلبه لو يفضح هذا المسجد وأهله ، وعَرَفَ الله تعالى فى قلب عبده الصالح عاصم هذه الحمية الإيمانية . فألهم رسوله ﷺ أن يختار عاصمًا ليكون أحد الرجلين المكلفَيْن بتحريق المسجد على أهله .

يقول: (فوالله ما رجعنا من سفرنا حتى نزل القرآن يذمه ، وذم أهله الذين جمعوا فى بنائه وأعانوا فيه ، وعاصم الذى ارتاب فيهم فى البداية هو الذى فضحهم فى النهاية بعدما فضحهم القرآن فقيل له: لم أرادوا بناءه ؟ قال: كانوا يجتمعون فى مسجدنا، فإنما هم يتناجون فيما بينهم ويلتفت بعضهم إلى بعض فيلحظهم المسلمون بأبصارهم ، فشقّ ذلك عليهم ، وأرادوا مسجدًا يكونون فيه لا يغشاهم فيه إلا من يريدون ممَّن هو على مثل رأيهم ، فكان أبو عامر يقول : لا أقدر أن أدخل مربدكم هذا ، وذلك أن أصحاب محمد يلحظوننى وينالون منى ما أكره ، قالوا : نحن نبنى مسجداً نتحدث فيه عندنا) .

وأبو عامر الفاسق هو الوحيد الذى لم يعلن إسلامه ، وكان مع العدو فى أحد ، وأرجح أن حضوره كان سراً، ولا يمكن بهذه السهولة أن يبرز بعد ذلك العداء السافر الذى أعلنه فى أحد إلا أن يقتل ، أما هؤلاء ـ جنده ـ فقد تستروا تحت راية لا إله إلا الله ، وأرادوا أن يكملوا جريمتهم باعتراف رسمى بهم فى مركز مستقل . وهذا ما رفضه الإسلام ، ويأباه الله تعالى ورسوله والمؤمنون ، ولذلك كان الأمر من الحزم والصرامة بحيث لا يقبل الجدل ، وكان الأمر لعاصم بن عدى الذى تحدثنا عن حسِّه الإسلامى ، وغيظه من المنافقين ، ومالك بن الدخشم ، كان الأمر : « اذهبا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه ثم حرّقاه » .

(فخرجا سريعين على أقدامهما حتى أتيا مسجد بنى سالم ، فقال مالك بن الدخشم لعاصم بن عدى :

أنظرنى حين أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه النار ، ثم خرجا يعدوان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعشاء) .

بقى أن نتعرف على هذه الأسماء التعيسة الملوثة التى حرصت على كتمان حقدها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، لكن حقدها الطافح كان أكبر من أن يكتم ، وقد ساق ابن هشام أسماء البناة الاثنى عشر لهذا المسجد، بينما رفعهم الواقدى إلى خمسة عشر ، وكان رأسهم جارية بن عامر بن العطاف وهو حمار الدار، وابنه مجمع بن جارية وهو إمامهم، وابنه زيد بن جارية ، وهو الذى احترقت أليته فأبى أن يخرج لثباته على نفاقه ونتن هذا النفاق ، ووديعة بن ثابت ، وخذام بن خالد ـ ومن داره أخرج ـ وعبد الله بن نبل ، وبجاد بن عثمان ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، ومعتب بن قشير ، وعبَّاد بن حنيف وثعلبة ابن حاطب .

ويصف لنا عاصم بن عدى ساعة الاحتراق هذه ، ومن كان منهم فيه فقال عاصم : ما أنسى تشوفهم إلينا كأن آذانهم آذان السرحان ، فأحرقناه حتى احترق ، وكان الذى ثبت فيه من بينهم زيد بن جارية حتى احترقت أليته ، فهدمناه حتى وضعناه بالأرض وتفرقوا .

لقد هُدِم مركز النفاق فى المدينة وأحرق ، وأحرق معه النفاق كله ، واحترقت كل المخططات التى وضعوها ، وتبخرت كل الأحلام التى عاشوها فى أن تقوم دولتهم ، وينتهى المسلمون أسارى بيد بنى الأصفر ، ويؤتى برأس محمد بن عبد الله إليهم، وتموج المدينة بجموع الروم ، ويوضع التاج على رأس عبد الله بن أبى وأبى عامر الفاسق والجد ابن قيس كما وضع على رأس سيف بن ذى يزن .

وهناك ثلاثة منهم ذكروا بأسمائهم وأشخاصهم ؛ لأنهم غائصون فى النفاق إلى آذانهم ، فقال فيهم رسول الله ﷺ : « زمام خير من خِذام ، وسوط خير من بجاد » . أما الثالث فهو عبد الله بن نبتل الذى وصل من القحة فى النفاق والشهرة فيه أن يأتى جبريل عليه الصلاة والسلام لينبه على نفاقه .

(فقال جبريل عليه السلام : يا محمد إن رجلاً من المنافقين يأتيك فيسمع حديثك ، ثم يذهب به إلى المنافقين. قال رسول الله ﷺ : « أيهم هو ؟ » قال : الرجل الأسود ذو الشعر الكثير، الأحمر العينين كأنهما قِران من صُفر، كبده كبد حمار فينظر بعين شيطان).

أما البقية ، فقد شاء رسول الله ﷺ أن يجعلهم ضمن مجموعة عامة ، بحيث يكونون موضع الشك والارتياب دون تحديدهم .

وقد تكفل الله تعالى بإحراقهم كما قال عليه الصلاة والسلام :

« فى أصحابى اثنا عشر منافقًا لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط . ثمانية يكفيهم الدبيلة ، سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » (١) .

قال البيهقى : وروينا عن حذيفة أنهم كانوا أربعة عشر رجلاً أو خمسة عشر .

(يقول حذيفة : وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يقوم الأشهاد) (٢) .

ثالثًا : المدينة تستقبل رسول الله ﷺ :

أنفاس المدينة الحرى وأشواقها إلى رسول الله ﷺ وصحبه بدأت تفوح ، وها هو

---

(١) مسلم ٤/ ٢١٤٤ ح (١٠/ ٢٧٧٩) .

(٢) المصدر السابق (١١/ ٢٧٧٩) .

رسول الله ﷺ يدنو من المدينة يحس ما يحسه يعقوب نحو يوسف عليهما الصلاة والسلام.

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف] .

ويذكر رسول الله ﷺ أحبابه فيها ، ويذكر أهله ، ويذكر عليًا ومحمد بن مسلمة ، ويذكر أناسًا يعرف صدق إيمانهم وثبات عقيدتهم ، لم يتمكنوا أن يشاركوا معه في هذه الغزوة ، وأقوامًا قد تخلفوا على غير نفاق ولا دخل ، فأما الذين عذرهم الله فيقول عنهم والمسلمون معه بنفسٍ واحد شوقًا وتحنانًا إلى المدينة :

« إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم » فقالوا : يا رسول الله ، وهم في المدينة ؟ قال : « وهم في المدينة ، حبسهم العذر » .

لقد تكونت أمة جديدة ، حين تفقد فردًا من أفرادها تحس به ، وهذا الفرد حين يضطر للبعد عنها يحس كأنما انبت وانقطع عن أهله ورحمه ، وهؤلاء المؤمنون المخلصون الصادقون الذين حبسهم العذر في المدينة كانوا يحسون أن من حولهم من المنافقين هم رجس من الرجس ، أما موقفهم فهو مع رسولهم الحبيب ﷺ يكون لفراقه ، ويحنون للقائه ، فلا يحسن حين لقاء هؤلاء من إخوانهم المجاهدين أن يفخروا عليهم ، وأن يتيهوا بصحبة المصطفى ، فيبكتوهم بذلك ، ويزيدونهم حسرة إلى حسرة ، فكان هذا التعميم العظيم على الجيش كافة أن هؤلاء المؤمنين ولو كانوا في المدينة ، إنما هم مع الجيش الإسلامي . « ما هبطتم واديًا إلا كانوا معكم » . وبذلك يعتبر أولاء من الجيش وجزء ولحمة منه ، أما هؤلاء المنافقون الذين أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، وزادوا رجسًا إلى رجسهم فأحبابهم في المدينة ، وقلوبهم تحن وتخور لعبد الله بن أبي وللجد بن قيس ولأبي عامر الراهب ، هم منبتون من هذا الجسم الإسلامي ، هذا الجسم الذي لا يقبل أي غريب دخيل عليه ، سرعان ما يفرزه وسرعان ما يطرده ، وسرعان ما ينبذه ، فموقع المؤمنين الذين حبسهم العذر موقع القلب من الإنسان الذي يغادره ، وموقع المنافقين في الجيش الإسلامي والأمة المسلمة موقع القاذورات التي تطردها وتطرحها .

لقد جاء الحديث النبوي الشريف في وقته المناسب قبيل ساعات الوصول إلى المدينة وفي مكانه المناسب قبيل دخول المدينة ؛ ليشد انتباه هذه الأمة العظيمة الفريدة في التاريخ إلى أبنائها الذين حبسهم العذر في المدينة بأنهم أشد شوقًا ، وأشد حبًا ، وأشد استعدادًا للجهاد من إخوانهم المجاهدين ؛ ولهذا فهم قد شاركوا في الأجر كله ، واعتبرهم رسول الله ﷺ كمن حضر تبوك ، وجاهد مع المجاهدين .

لقد كان الأمر نفسه في أول غزاة كبرى للمسلمين يوم بدر ، وكان في آخر غزاة

للمسلمين فى تبوك .

وتكفل سعد بن معاذ فى بدر بذكر أولئك الصادقين المخلصين الذين فاتتهم الغزوة لأنهم لم يعرفوا أن رسول الله ﷺ يلقى كيداً ، يقول سعد :

(يا رسول الله ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببناه ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله خيراً ودعا له بخير ، ثم بُنى لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه) (١) .

أما هؤلاء وعددهم قليل ، فكان لابد أن يخصهم رسول الله ﷺ بالذكر .

وبقيت قضية كبيرة تشغل بال هذه الأمة التى خرجت إلى الحرب كلها ، فالشعب المسلم كله قد انضم إلى رسول الله ﷺ فى هذه الغزاة لكى ينخلع من قبائله ونوازعه وعصبياته ، وينصهر فى لحمة جديدة هى الأمة المسلمة التى تجعل ولاءها فقط لله ولرسوله ، هذه القضية هى أنهم لم يلقوا حربًا ، ولم يواجهوا عدوا ، ولم يضربوا بسيف ، ولم يطعنوا برمح ، فأين أجر الجهاد لهم ، وأين أجر الغزو لهم . وعرف ربهم جل وعلا ما فى قلوبهم ، وما يحيك بها من تساؤل ، فكان الجواب من رب العالمين الذى أعطاهم الجائزة الكبرى بعد عودتهم من تبوك وهى أعظم جائزة يفوز بها جيش مسلم لم يقاتل عدوًا ، ولم يرق دمه فى معركة ، جاءهم الجواب فى سورة التوبة :

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ [التوبة] .

فهم إذن مجاهدون يكتب لهم الأجر فى كل وعثاء سفر ، وفى كل جهد ، وفى كل مشقة ، وفى كل واد هبطوه ، أو جبل صعدوه ، أو قوز ركبوه ، أو مفازة قطعوها ، كل ذلك والتسجيل بالأجر والعمل الصالح مسطر لهم عند ربهم، وشركاؤهم تلك الحفنة الصغيرة التى حبسها العذر ، أو حبسها رسول الله ﷺ بمهمة له .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٢٠ ـ ٦٢١ .

(إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة ، وهم أهلها الأقربون ، وهم بها ولها ، وهم الذين آووا رسول الله ﷺ وبايعوه، وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مجتمع الجزيرة كله ، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت ، وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة ، فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه . وحين يخرج رسول الله ﷺ فى الحر أو البرد ، فى الشدة أو الرخاء ، فى اليسر أو العسر ، ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لا يحق لأهل المدينة أصحاب الدعوة ، ومن حولهم من الأعراب وهم قريبون من شخص رسول الله ﷺ ، ولا عذر لهم فى ألا يكونوا قد علموا أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ ... إنه على الظمأ جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء وعلى كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء ، وعلى كل نيل من العدو جزاء ، يكتب به للمجاهد عمل صالح ، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع الله لهم أجرا ، وإنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر ، وعلى الخطوات لقطع الوادى أجر ؛ أجر كأحسن ما يعمل المجاهد فى الحياة) (١) .

وبعد هذا التعميم الذى كان قبل دخول المدينة ليحسن المجاهدون لقاء إخوانهم المجاهدين معهم ولو كانوا مقيمين فى المدينة (قالوا : يا رسول الله ، وهم فى المدينة . قال : « نعم وهم فى المدينة حبسهم العذر » .

بعد هذا التعميم الذى حفظ حق هذه الحفنة المؤمنة الصغيرة نقترب مع رسول الله ﷺ وأصحابه حتى تبدو معالم المدينة ، وتترقرق الدموع فى العيون وتجف القلوب ، وتخفق الأفئدة ، وعلى رأسى هؤلاء جميعًا قلب الحبيب المصطفى ﷺ ، والمسلمون حوله يكادون يطيرون من الفرح ، وتقفز قلوبهم من أجوافهم ذوبًا وحنانًا وحبًا لكل حبة رمل فى المدينة يسمعون التعميمات الجديدة الخالدة التى نحياها نحن اليوم بعد خمسة عشر قرنًا من الزمان ، فتحرك فينا القلوب والمشاعر والأفئدة .

(قالوا : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى أشرفنا على المدينة قال :

« هذه طابة ـ وزاد ابن أبى شيبة : أسكننيها ربى ـ تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد ») (٢) ،فإذن ستبقى المدينة طهوراً كلها ، ستكون طيبة لا تقبل الخبث فيها، ولابد أن ينتهى المنافقون موتًا ، أو دخولاً فى هذا الدين ، فهى لا تحمل الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد . هى موطن أنصار الله ورسوله ، وهى سكنى حبيبه المصطفى ﷺ،

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب ١٧٣٣/٣ ، ١٧٣٤ .

(٢) رواه أحمد والشيخان وغيرهم .

وهى مثواه الأخير ، وهى مهوى أفئدة المؤمنين فى الأرض إلى يوم الدين ، فلا مكان فيها للخبث ولا للرجس ولا للنفاق ، وهى على وشك أن تنفى هذا الخبث إلى الأبد ، وتخرجه كلما هم أن يدخل فيها .

فكيرها موجود ، حتى الدجال يدخل كل الأرض إلا مكة والمدينة على كل نقب من أنقابها ملك يحرسه . ولتقر عيون المؤمنين بطيبة هذه ، فما لها فى الأرض من مثيل .

ويلوح الجبل الأشم أحد ، معبقًا برائحة الدم الذكى التى سفحت على ربوعه ، وتعود ذكراه حية كلها بكل ما فيها من بطولات وتضحيات ، ويبدو الأسد النصور حمزة أسد الله ورسوله قابعًا فى عرينه على السبعين الذين معه ، والذين قضوا شهداء ، وأمام هذه الذكريات الغزار الغزار ينطق المصطفى ﷺ عن تلك العلاقة الوثيقة الوشيجة بينه وبين أحد ، وبين حزب الله وبين أحد ، وبين المؤمنين فى الأرض وبين أحد ، فيقول عليه الصلاة والسلام :

« هذا أحد جبل يحبنا ونحبه » .

آه ما أروعه من تعبير ، وما أعظمه من آصرة ، وما أخلده من عاطفة ، فأحد ابتداء هو الذى يعشق المؤمنين الذين قد أراقوا دماءهم فى حضنه ذودًا عن نبيهم عليه الصلاة والسلام ، والذين سطرت أرواحهم سطور المسجد بين يديه ، فمكثوا برفقته إلى يوم القيامة أحياء عند ربهم يرزقون ، لا تزال أجسادهم غضة طرية كما هى ونحن نحبه ، ولم لا نحبه وهو يحمل هؤلاء السبعين الشهداء بجواره ، حتى لنرى رسول الله ﷺ عندما ودعه بعد المعركة الفاصلة يتمنى أن يكون مع الشهداء هناك فيقول :

« أما والله لوددت أنى غودرت مع أصحابى بفحص الجبل (١) » (٢) .

فيصعب عليه ﷺ أن يغادر هؤلاء الشهداء الذين قضوا بين يديه ، ولا يبقى معهم . وصار أحد فى وجدان المسلمين تهتز أعماقهم لذكره ، وتتماوج الجبال والوديان من كل مكان فى الأرض تفسح مجالاً لهذا الحب وهذا اللقاء بين جبل الفداء ، وجبل الفداء فى الأرض :

« أحد جبل يحبنا ونحبه » .

كان ﷺ فى صبيحة كل عيد وقبل أن يمضى إلى أهله وصحبه يمضى إلى البقيع فيستغفر لموتى البقيع إكرامًا لحقهم قبل حقوق الأحياء ، ومن حق شهداء أحد أن يكونوا هم أول المستقبلين لحبيبهم محمد عليه الصلاة والسلام الذى ينتظرون لقاءه بفارغ الصبر ،

---

(١) فحص الجبل : كل موضع يسكن .

(٢) رواه الحاكم والحارث بن أبى أسامة فى مسنده .

ومن أجل ذلك أكرم الله المسلمين بهذا السجل العظيم الذى شهد به رسول الله ﷺ لأحد وشهدائه : « أحد جبل يحبنا ونحبه » .

ومن أحد إلى ثنيات الوداع ، هذه الثنيات التى استقبلت حبيبها المصطفى يوم جاء مهاجرًا مع الصديق أبى بكر ، وها هى اليوم تستقبله ليس معه الصديق فقط ، وإنما معه ثلاثون ألفًا من كرام المسلمين وغرر العرب تنتظرهم أزواجهم وأمهاتهم وبناتهم وإخوانهم الذين حبسهم العذر .

وليس فى المدينة اليوم رجالات الأنصار ينتظرون كل يوم حتى تزول الشمس قدوم قائدهم الحبيب ، فهم اليوم مع أبنائهم الشباب ، ومع إخوانهم من القبائل الأخرى بجوار رسول الله ﷺ ، إنما خرجت المدينة نساءً وصبيانًا وجوارى وولائد ، خرجت كلها تستقبل الجيش المظفر ، الذى كان يحلم المنافقون أن يأتوا جميعًا أسارى يسلمون إليهم ، ها هو الجيش يعود وعلى رأسه قائده الحبيب المصطفى ﷺ ، ورمز هذه الأمة كلها هو رسول رب العالمين ، فليكن النشيد له ، ولتكن الأغاريد له ، وليكن الاستقبال له .

وقد اخترن رضوان الله عليهن أن يكون نشيدهن هو :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

هذا النشيد الذى سرى فى شريان كل مسلم فى الأرض ، فما أن يسمع لحنه ، وما أن تصل إليه كلماته حتى يحس بالتيار يجرى فى عروقه ، حبًا وشوقًا وتحنانًا لرسول الله ﷺ :

أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

وسواءٌ كان هذا النشيد يوم الهجرة ، أو يوم تبوك ، فالطبيعى أن يكون بعد طول غياب ، وبعد طول انتظار ، وبعد طول شوق وجوى وحنين ووجد ، عادت روح المدينة إليها بعودة حبيبها المصطفى صلوات الله عليه . أما القصيدة التى ألقيت فى هذا الاحتفال فكانت للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ الذى استأذن ابن أخيه محمدًا قائلاً : يا رسول الله ، إنى أريد أن أمتدحك . قال : « قل لا يفضض الله فاك » . وكانت قصيدة لم يشهد تاريخ الشعر لها مثيلاً ، فقد رافقت رسول الله ﷺ ، وعرضت تاريخه منذ الأزل من لدن آدم عليه السلام .

من قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يخصف الورق

من يوم أن أكل أبوانا آدم وحواء من الشجرة ، حيث شهدت يا رسول الله الحياة هناك ، وهبطت مع أبيك آدم .

ثـم هبطـت البـلاد لا بشـر أنـت ولا نطفـة ولا عـلق

إلى أن عشت مع نوح عليه الصلاة والسلام دعوته ، وانتصار عقيدته :

بـل نطفـة تـركـب السـفـين وقـد ألجم نسـرًا وأهـله الغـرق

ورحت :

تنقـل مـن صالـب إلى رحـم إذا مـضـى عـالـم بـدا طبـق

وكان هذا تقلبك فى الساجدين ، حتى هوتك أمك خندف :

حـتى احتوى بيتك المهيمن من خـندف عليـاء تحتهـا النـطق

وكانت إشراقة الأرض بالنور :

وأنـت لمـا ولـدت أشـرقـت الأر ض فضـاءت بنـورك الأفـق

وسيبقى هذا النور حتى يرث الله الأرض ومن عليها :

فنحـن فى ذلك النـور وفى الضيا ء وسبـل الـرشـاد نخـترق

هذا وقد قدَّر الله تعالى أن ينقل لنا القصيدة العباسية أعرابى حضر من عند قومه وسمع بالإسلام وجاء ليسلم ، ومما نقل لنا كذلك حديث رسول الله ﷺ عقب قصيدة عمه .

هذه الحيرة البيضاء قد رفعت لى ، وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود . فقلت : يا رسول الله ، إن نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما تصف فهى لى ؟ قال : « هى لك » . هذا الصفاء الخالص عند هذا الأعرابى الذى ارتفع بالإسلام فصار صحابيًا لا يخامره الشك لحظة واحدة فى صدق رسوله، حيث آمن لتوه، وآمن أن الحيرة ستفتح أبوابها أمام هذا الدين ، وطالب بالشيماء بنت الحارث التى يراها رسول الله ﷺ بعين قلبه بخمارها وركُوبها حتى ليحدد لون الخمار ، وهذا يعنى أنه بجوارها وليس بعيدًا عنها ، لم يتمالك هذا الأعرابى الصحابى أن يطالب بها أن تكون له إن شارك فى فتح الحيرة ، حيث ملوك العرب هناك ، وعزهم الأثيل .

ولم يمر أكثر من ثلاث سنوات حتى كانت أبواب الحيرة تدق من قبل خالد بن الوليد فتفتح له .

(ثم أقبل خالد بن الوليد حتى نزل الحيرة ، فخرج إليه أشرافهم مع قبيصة بن إياس ابن حية الطائى ، وكان أمَّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر . فقال له خالد ولأصحابه: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين ، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ؛ فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم الجزية فقد آتيكم بأقوام هم

أحرص على الموت منكم على الحياة ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم .

فقال له قبيصة بن إياس : ما لنا بحربك من حاجة ، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية ، فصالحهم على تسعين ألف درهم . فكانت أول جزية وقعت بالعراق) (١) .

ونعود إلى صاحبنا خريم وإلى أخباره مع الشيماء بنت نفيلة إذ يقول :

ثم أقبلنا على طريق الطف إلى الحيرة فأول من يلقانا حين دخلناها : الشيماء بنت نفيلة كما قال رسول الله ﷺ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود ، فتعلقت بها وقلت: هذه وهبها لى رسول الله ﷺ . فدعانى خالد عليها بالبينة ، فأتيته بها ، وكانت البينة محمد بن مسلمة ، ومحمد بن بشير الأنصاريان ، فسلمها إلى ، فنزل إلينا أخوها عبد المسيح (٢) يريد الصلح قال : بعنيها . فقلت : لا أنقصها والله عن عشرة مائة درهم ، فأعطانى ألف درهم وسلمتها إليه . فقيل : لو قلت مائة ألف لدفعها إليك ، فقلت : ما كنت أحسب أن عددًا أكثر من عشر مائة) (٣) .

هذه هى الأمة الوارثة لموعود الله فى الأرض فيها قوم لا يعرفون عددًا فوق الألف، ضاربون فى التيه ، ممعنون فى الصحراء ، رفعهم الإسلام حتى صاروا سادة الأمم كلها ، وقد مثل هذا المعنى مقالة خالد ورسالته إلى أهل المدائن عقر كسرى ومعقله :

(من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، أمَّا بعد فالحمد لله الذى فضَّ خَدَمَتكم (٤) ، وسلب ملككم ، ووهَّن كيدكم ، وإنه من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا ، أما بعد ، فإذا جاءكم كتابى فابعثوا إلىَّ بالرهن ، واعتقدوا منى الذمة ، وإلا فوالذى لا إله غيره لأبعثن إليكم قومًا يحبون الموت كما تحبون الحياة) .

فلما قرؤوا الكتاب ، أخذوا يتعجبون وذلك سنة اثنتى عشرة) (٥) .

خالد الذى بعث هذا الكتاب كان قبل خمس سنوات فقط ، يفكر بالهروب من مكة ملتجئًا إلى فارس خوفًا من دخول محمد مكة ، وكان يمكن أن يكون أحد الأسرى فى الحيرة لولا دخوله فى هذا الدين ، فإذا به يغدو سيف الله فى الأرض ، وهذا هو حديثه مع نفسه قبل أن يسلم :

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٣/ ٣٤٤ .

(٢) فى الرواية الثانية عند الطبرى أن الذى عقد الصلح هو عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة ، وهى أخته. انظر الطبرى ٣/ ٣٤٥ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٦٩ .

(٤) فض خَدَمَتكم : فرَّق جماعتكم .

(٥) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٣/ ٣٤٦ .

(فقلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟ أين المذهب إلى النجاشى ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده . فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية فأقيم مع عجم تابعًا ؟ أو أقيم فى دارى فيمن بقى ؟) [1] .

واختار الإسلام بعد هذا الضياع ، فإذا به اليوم يخاطب ملوك الفرس بتحرير الأرض العربية منهم لا باسم القومية العربية ، إنما باسم هذا الدين الذى يقول لهم فيه (وإنه من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا).

وحين شهد المسلمون الأرض العربية قد دانت لهم ، ومضوا إلى تبوك وعادوا ولم يعرض لهم عدو ، ولم يقف أمامهم محارب ، رأوا أن الحرب قد انتهت كما روى ابن سعد (وجعل المسلمون يبيعون أسلحتهم ويقولون : قد انقطع الجهاد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهم ، وقال : « لا تزال عصابة من أمتى يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال ») . إنها إذن استراحة المحارب الذى أنهى جولته الأولى فى جزيرة العرب ، وأعلمهم قائدهم الحبيب أن الطريق طويل لاحب ، فليس همهم تحرير الأرض العربية وقد حررت ، إنما رسالتهم تحرير الأرض كلها من طواغيتها فى الامتداد المكانى ، ومتابعة الجهاد حتى تقوم الساعة فى الامتداد الزمانى،ولا تزال أمامهم إمبراطوريات الروم وفارس تنتظر جولتهم الثانية ، والحيرة أول الطريق الثانى حيث ينفل خريم بالشيماء بنت نفيلة.

---

(١) المغازى للواقدى ٢/ ٧٤٦ .

المدينة بعد تبوك

المتخلفون عن الغزوة :

(قال ابن عقبة : لما دنا رسول الله ﷺ من المدينة ، تلقاه عامة الذين تخلفوا عنه وقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا تكلموا رجلاً منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم » فأعرض عنهم رسول الله ﷺ والمؤمنون حتى أن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه ، وحتى إن المرأة لتعرض عن زوجها ، فمكثوا كذلك أيامًا حتى ركب[1] الذين تخلفوا ، وجعلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ بالجهد والأسقام، ويحلفون له، فرحمهم وبايعهم واستغفر لهم) [2] .

وعند ابن إسحاق : (فصفح عنهم رسول الله ﷺ ، ولم يعذرهم الله ولا رسوله) [3] .

وفي رواية كعب : وصبّح رسول الله ﷺ المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فجعلوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى) [4] .

كعب بن مالك وإخوانه :

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام[5] ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها .

كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ،

---

(١) ركب : هي في الأصول وفي سبل الهدى والرشاد : كرُب. وهي أصح .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/٦٧٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣١ .

(٤) المغازي للواقدي ٣/١٤٩ .

(٥) تواثقنا على الإسلام : يعني بيعة العقبة الثانية يوم بايعوا رسول الله ﷺ على أن يحموه مما يحمون به نساءهم وأولادهم وتسمى بيعة الحرب .

والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى (١) بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرًا بعيدًا ، ومفازًا (٢) وعدوًا كثيرًا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا (٣) أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد الديوان) ، قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيَّب إلا ظنَّ أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لأتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئًا ، فأقول فى نفسى ، أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئًا ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئًا ، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئًا ، فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ، فلم يقدَّر لى ذلك .

فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت بهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب ؟ » فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه ونظره فى عطفه (أو عطفيه) (٤) فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا ، فسكت رسول الله ﷺ ، قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أنه توجه قافلاً حضرنى همى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا ، واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ أظلَّ قادمًا زاح عنى الباطل وعرفت أنى لن أخرج منه أبدًا بشىء فيه كذب ، فأجمعت صدقه .

وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفُون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسُّم المغضب ثم قال : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى: « ما خلّفك ، ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ » فقلت : بلى،

---

(١) ورّى بغيرها : أوهم الناس أنه يريد غيرها . (٢) المفاز : الصحراء .

(٣) يتأهبوا : يستعدوا .

(٤) شغله برداه والنظر فى عطفيه : أى انشغل بلباسه وزينته عن الجهاد .

إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكنَّ الله أن يسخطك علىَّ ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علىَّ [1] فيه إنى لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى منى ولا أيسر حين تخلفتُ عنك ، فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت .

وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذلك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم . رجلان قالا مثل ما قُلت فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى، وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى بالتى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ ، فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرَّك شفتيه برد السلام علىَّ أم لا ، ثم أصلى قريبًا منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال علىَّ ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد علىَّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة : أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسوَّرت الجدار .

فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلىَّ كتابًا من ملك غسان فإذا فيه :

أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة،

---

(١) تجد على : تغضب علىَّ .

فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها : وهذا أيضًا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجَّرته بها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتينى فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسلِ إلى صاحبى مثل ذلك فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فىَّ هذا الأمر ، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يقربك » قالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، والله ما زال يبكى منذ أن كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لهلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت ، والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت علىَّ نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . قال : فخررت ساجدًا ، وعرفت أن قد جاء فرج .

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلىَّ رجل فرسًا ، وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ . واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقانى الناس فوجًا فوجًا يهنئونى بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، قال كعب ، حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس ، فقام إلىَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور :

« أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ أن ولدتك أمك » قال : قلت : يا رسول الله ، أمِن عندك أم من عند الله ، قال : « لا ، بل من عند الله » . وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت :

(يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى

رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » . قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر. فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدّث إلا صدقًا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبًا وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت.

وأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ** ﴾ إلى قوله : ﴿**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)** ﴾ [التوبة] . فوالله ما أنعم الله علىَّ من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبت فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شرَّ ما قال لأحد ، فقال تبارك وتعالى: ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)** ﴾ [التوبة] .

قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال : ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا** ﴾ [التوبة : ١١٨] . وليس الذى ذكر الله مما خُلفنا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه) (١) .

(وروى ابن عساكر عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : لما نزلت توبتى قبَّلت يد رسول الله ﷺ) (٢) .

وأما أجواء المدينة بتوبة كعب فينقلها لنا الواقدى بقوله عن شيوخه :

(فكانت أم سلمة زوج النبى ﷺ تقول : قال لى رسول الله ﷺ من الليل : « يا أم سلمة ، قد نزلت توبة كعب بن مالك وصاحبيه » فقلت : يا رسول الله ، أفلا أرسل إليهم فأبشرهم ، فقال رسول الله ﷺ : « يمنعونك النوم آخر الليل ، ولكن لا يُرَون حتى يصبحوا » قال : فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح أخبر الناس بما تاب الله على هؤلاء النفر ؛ كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فخرج أبو بكر رضي الله عنه فوافى على جبل سلع فصاح: قد تاب الله على كعب ، يبشره بذلك ، وخرج الزبير على فرسه فى بطن الوادى، فسمع صوت أبى بكر قبل أن يأتى الزبير، وخرج أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى هلال يبشره ببنى واقف، فلما أخبره سجد ،

(١) صحيح البخارى ٢/٦/٤ ـ ٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٨٥ .

قال سعيد : فظننت أنه لا يرفع رأسه حتى تخرج نفسه ، وكان بالسرور أكثر منه بكاء بالحزن حتى خيف عليه ، ولقيه الناس يهنئونه ، فما استطاع المشى إلى رسول الله ﷺ لما نال من الضعف والحزن والبكاء حتى ركب حمارًا ، وكان الذى يبشر مرارة بن الربيع سلكان ابن سلامة أبو نائلة ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ووافيا الصبح مع النبى ﷺ من بنى عبد الأشهل ثم انطلقا إلى مرارة فأخبراه ، فأقبل مرارة حتى توافوا عند النبى ﷺ)[1] .

وقال كعب ـ قال الواقدى : (أنشدنيه أيوب بن النعمان بن عبد الله بن كعب :

سبحان ربى إن لـم يـعف عـن زللى فقد خسرتُ وتبَّ القول والعمل)[2]

ذكر أقوام تخلفوا من غير عذر :

روى ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والبيهقى عن سعيد بن المسيب رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة : ١٠٢] قال ابن عباس :

كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك منهم أبو لبابة ، وسمى قتادة منهم جد بن قيس ، وجذام بن أوس ، رواه ابن أبى حاتم :

فلما قفل رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد ، وكان ممرّ رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم ، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال : « من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ » قالوا : أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم ، فترضى عنهم وتعذرهم، وقد اعترفوا بذنوبهم ، فقال رسول الله ﷺ : « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » . فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله تبارك وتعالى هو الذى يطلقنا فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٢] . وعسى من الله واجب : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة] . فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إليهم فأطلقهم وعذرهم ، قال ابن المسيب : فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى لبابة ليطلقه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ فأطلقه بيده فجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أمرت أن آخذ

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ . (٢) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٥٥ .

أموالكم » فأنزل الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة] . يقول : رحمة . فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم ، وكان ثلاثة نفر منهم لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى ، فأرجئوا سنة لا يدرون يعذبون أو يتاب عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ إلى آخر الآية [التوبة : ١١٧] . وقوله : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] . يعنى استقاموا فأنزل الله تبارك وتعالى فى شأن هذه الغزوة كثيرًا من سورة براءة تقدم كثير من ذلك فى محالّه .

قال البيهقى : (وزعم ابن إسحاق أن ارتباط أبى لبابة كان فى وقعة بنى قريظة ، وقد روينا عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ما دل على أن ارتباطه كان بتخلفه فى غزوة تبوك) (١) .

(وفى شرح المواهب : من حديث ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة : ١٠٢] . قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد ، وثلاثة لم يوثقوا ، وهم كعب ومرارة وهلال ، والذين أوثقوا أبو لبابة ، وأوس بن خذام ، وثعلبة بن وديعة ، رواه ابن مندة وأبو الشيخ عن جابر بإسناد قوى ، وجد بن قيس ، وجذام بن أوس ومرداس رواه ابن حميد وابن أبى حاتم من مرسل قتادة .

والسابع وداعة بن حرام الأنصارى - رواه المستغفرى عن ابن عباس) (٢) .

مصرع النفاق بموت عبد الله بن أبى :

قالوا : ومرض عبد الله بن أبى فى ليال بقين من شوال ، ومات فى ذى القعدة ، وكان مرضه عشرين ليلة . فكان رسول الله ﷺ يعوده فيها ، فلما كان اليوم الذى مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه، فقال : « قد نهيتك عن حب اليهود ». فقال عبد الله بن أبى : أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه ، ثم قال ابن أبى : يا رسول الله ، ليس بحين عتاب، هو الموت، فإن مت فاحضر غُسلى ، وأعطنى قميصك أكفن فيه. فأعطاه الأعلى - وكان عليه قميصان - فقال : الذى يلى جلدك ، فنزع قميصه الذى يلى جلده فأعطاه ثم قال : صلِّ علىَّ واستغفر لى .

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحى ٥/ ٦٨٥ - ٦٨٧ . (٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ٣/ ٨٧ .

قال : وكان جابر بن عبد الله يقول خلاف هذا ، يقول : جاء رسول الله ﷺ بعد موت ابن أبى إلى قبره ، فأمر به فأُخرِج . فكشف عن وجهه ، ونفث عليه من ريقه ، وأسنده إلى ركبتيه ، وألبسه قميصه ، وكان عليه قميصان ـ وألبسه الذى يلى جلده ـ والأول أثبت عندنا أن رسول الله ﷺ حضر غُسله وحضر كفنه ، ثم حل إلى موضع الجنائز ، فتقدم رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام وثب عمر بن الخطاب فقال : أتصلى على ابن أبى ، وقد قال يوم كذا كذا ويوم كذا كذا ؟ فعدَّ عليه قوله ، فتبسم النبى ﷺ وقال : « أخِّر عنى يا عمر » . فلما أكثر عليه قال : « إنى قد خيِّرت فاخترت، ولو أعلم أنى إن زدت عن السبعين غفر له زدت عليه » وهو قوله عز وجل : ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٨٠] . فيقال إنه قال : « سأزيد عن السبعين » فصلى رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يكن إلا يسيراً حتى نزلت هذه الآيات من براءة : ﴿ **وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ** ﴾ [التوبة : ٨٤] . ويقال : إنه لم تزل قدماه بعد دفنه حتى نزلت عليه هذه الآيات ، فعرف رسول الله ﷺ المنافقين فكان من مات لم يصل عليه ، وكان مجمع بن جارية يقول : ما رأيت رسول الله ﷺ أطال على جنازة قط ما أطال عليها من الوقت ، ثم خرجوا حتى انتهوا إلى قبره وقد حمل على سرير يحمل عليه موتاهم عند آل نبيط ، وكان أنس بن مالك يحدث يقول : رأيت أبى على السرير وإن رجليه لخارجتان من السرير من طوله ، وكانت أم عمارة تحدث قالت : شهدنا مأتم ابن أبى ، فلم تتخلف امرأة من الأوس والخزرج إلا أتت ابنته جميلة بنت عبد الله بن أبى وهى تقول : وا جبلاه ، ما ينهاها أحد ولا يعيب عليها ، وا جبلاه ، وا ركناه ، قالوا : ولقد انتهى به إلى قبره ، فكان عمرو بن أمية الضمرى يحدث يقول :

لقد جهدنا أن ندنو من سريره فما قدرنا عليه ، قد غلب عليه هؤلاء المنافقون وكانوا قد أظهروا الإسلام وهم على النفاق من بنى قينقاع وغيرهم : سعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، وسلامة بن الحمام ، ونعمان بن أبى عامر ، ورافع بن حرملة ، ومالك بن أبى نوفل ، وداعس وسويد ، وكانوا أخابث المنافقين ، وكانوا هم الذين يعرضونه ، وكان ابنه عبد الله ليس شىء أثقل عليه ولا أعظم من رؤيتهم ، وكان به بطن ، فكان ابنه يغلق دونهم الباب ، فكان ابن أبى يقول : لا يلينى غيرهم ، ويقول : أنت والله أحب إلى من الماء على الظمأ ويقولون : ليت أنا نفديك بالأنفس والأموال والأولاد ، فلما وقفوا على حفرته ، ورسول الله ﷺ واقف يلحظهم ، ازدحموا على النزول فى حفرته ، وارتفعت الأصوات حتى أصيب أنف داعس ، وجعل عبادة بن الصامت يذبهم ويقول : اخفضوا أصواتكم عند رسول الله ، حتى أصيب أنف داعس فسال الدم ،

وكان يريد أن ينزل فى حفرته. فنحِّىَ ونزل رجال من قومه أهل فضل وإسلام ، وكان لما رأوا رسول الله ﷺ من الصلاة عليه وحضوره ، ومن القيام عليه ، فنزل فى حفرته ابنه عبد الله ، وسعد بن عبادة بن الصامت ، وأوس بن خولى حتى سوًّى عليه . وإن علية أصحاب رسول الله ﷺ والأكابر من الأوس والخزرج يدلونه فى اللحد وهم قيام مع النبى ﷺ ، وزعم مجمع بن جارية أنه رأى رسول الله ﷺ يدليه بأيديه إليهم . ثم قام على القبر حتى دفن ، وعزَّى ابنه وانصرف ، فكان عمرو بن أمية يقول : ما لقى عليه أصحابه هؤلاء المنافقون إنهم هم الذين كانوا يحثون فى القبر التراب ويقولون : يا ليت أنا نفديك بالأنفس وكنا قبلك ، وهم يحثون التراب على رؤوسهم . فكان الذى يحسّن أمره يقول : قوم أهل فقر ، وكان يحسن إليهم) (1) .



(قالوا : وقدم رسول الله ﷺ المدينة فى رمضان سنة تسع ، فقال : « الحمد لله على ما رزقنا فى سفرنا هذا من أجر وحسنة ومن بَعْدَنا شركاؤنا فيه » فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله ، أصابكم السفر وشدة السفر ومن بعدكم شركاؤكم فيه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن بالمدينة لأقوامًا ما سرنا من مسير ولا هبطنا واديًا إلا كانوا معنا ، حبسهم المرض » ، أوَ ليس الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ [التوبة : ١٢٢] . فنحن غزاتهم وهم قعدتنا ، والذى نفسى بيده لدعاؤهم أنفذ فى عدونا من سلاحنا) (2) .

شهران من الزمن استغرقت رحلة الثلاثين ألفًا ، وهما شهران مستمران من التربية النبوية لهذه الكتائب الإسلامية لتنصهر كما قلنا فى بوتقة الأمة الواحدة ، ورأينا كيف اعتبر رسول الله الذى حبسهم العذر جزءًا من هذه الأمة ، شاركوا فى الأجر كله كما لو كانوا فى الغزوة ، والإضافة الجديدة فى هذا النص ، هو فضل دعائهم لهؤلاء المجاهدين:

« والذى نفسى بيده لدعاؤهم أنفذ فى عدونا من سلاحنا » .

وبقى معنا الحديث عن هؤلاء العشرة الذين هم أعضاء فى جسم الأمة المسلمة ، لكن تخلفوا بدون عذر وقصروا فى الالتحاق بالركب النبوى أو الانضمام إليه عندما مضى إلى تبوك ، وهؤلاء كما تقول الروايات أنهم عشرة ، وهؤلاء العشرة كانوا على قسمين :

---

(1) المغازى للواقدى ٣/١٠٥٧ ـ ١٠٦٠ .
(2) المغازى للواقدى ٣/١٠٥٦ ، ١٠٥٧ .

المسجد إعلانًا عن جريمتهم ، واعترافًا بخطئهم ليتحملوا مسؤولية هذا الخطأ بشجاعة متناهية.

وقسم اكتفى بالاعتراف بين يدى رسول الله ﷺ ، وصدق رسول الله أنه لم يكن لديه أى عذر بالتخلف ، ولم يقسم الأيمان المغلظة كذبًا وزورًا وبهتانًا أنه لم يتمكن من الخروج .

وستتحدث عن الفريقين ، وإن كنا لابد أن نشير إلى عظمة هذه الأمة التى لا يتجاوز المقصرون فيها والمتخلفون عدد أصابع اليدين ، لأى مستوىً ارتفعت هذه الأمة بالتربية ، بعد أن كانت فى مرحلة من المراحل يتخلف ثلثها عن المعركة فى أحد أى نسبة ٣٠٪ ، وبمتابعة التربية والجهد الدؤوب فى بنائها تصل إلى حد ١/٣ ٪ من دون حساب البضعة والثمانين من المنافقين وبحسابهم تبلغ النسبة ١٠٫٪ ، وهذا يعنى أن الأمة قد مثلت أعظم انضباط والتزام فى تاريخ البشرية وذلك بدون قهرٍ أو خوف أو سيف إنما بالاندفاع الذاتى. والدافع الشخصى .

ونعود إلى قصة هؤلاء العشرة التى مثلت فى روعتها أعظم دروس التربية ، حتى لنكاد نقول : إننا ما كنا نتمنى ألا يكون هذا التخلف ، وذلك لنتعلم الدروس من هذه المستويات التى هبطت عن الحد العادى ، وتخلفت فى المدينة ، وتأتى الآية القرآنية لتتحدث عن هؤلاء العشرة بأنهم قد تداركهم رحمة الله ، وبقوا أعضاء فى جسم هذه الأمة ، دون أن ينسلخوا عنها .

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة] .

والقرآن اعتبر الطبقة العليا فى الأمة هى طبقة المهاجرين والأنصار ، وهى التى تمثل العشرة آلاف الذين شاركوا فى فتح مكة المكرمة ؛ لأنه لا هجرة بعد الفتح ، وعظمة التكريم لهذه الطبقة أن الله تعالى أشرك معهم نبيه فى التوبة ، ولاشك أن القيادة فى هذه الطبقة هى للسابقين الأولين ، لكنها وبعد انضمام المؤمنين فى تبوك ، أصبحت هى التى تقود هؤلاء الثلاثين ألفًا المشتركين فى هذه الغزوة ، هؤلاء المهاجرون والأنصار كاد يزيغ قلوب فريق منهم وهم هؤلاء العشرة الذين تخلفوا بدون عذر .

وابتدأ القرآن الكريم بالحديث عن الثلاثة الذين خلفوا من هذا الفريق ، وسنتابع الحديث عنهم كما ورد فى كتاب الله عز وجل .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

﴿أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾
[التوبة]

ومن حسن حظنا أن كان أحد هؤلاء الثلاثة أمير من أمراء البيان الإسلامى وهو كعب بن مالك رضي الله عنه الذى أبدع فى العرض والوصف والتحليل لوضعه مع رفيقيه ، بحيث لم يدع لأحد زيادة ، ومهمتنا أن نتملى هذا العرض والوصف والتحليل الذى يعتبر قمة من قمم الإبداع البشرى ، وآية من آيات الله سبحانه فى إبراز هذا المجتمع العظيم.

ماضى كعب بن مالك :

هو ماض ناصع نظيف خالد يحمل رفقة المصطفى ﷺ فى كل معركة وغزاة ولم يتخلف عنه فى غزاة قط إلا فى غزوة بدر ، ولم يكن ذلك التخلف عن ضعف أو وهن أو تقصير ، إنما لم يكن المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا ، كان الخروج لملاقاة القافلة ؛ ولهذا قال سعد رضي الله عنه : (قد تخلف عنك أقوام يا رسول الله ، ما نحن بأشد لك حبًا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك) .

وفى أحد كان الفدائى العظيم لرسول الله ﷺ ، فهو الذى نقل البشارة للمسلمين بحياة قائده الحبيب .

قال ابن إسحاق : وكان أول من عرف رسول الله بعد الهزيمة وقول الناس : قُتِل رسول الله كما ذكر لى ابن شهاب الزهرى كعب بن مالك . قال : عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إلىَّ رسول الله ﷺ أن أنصت [١] .

وعن كعب قال: (لما انكشفنا يوم أحد، كنت أول من عرف رسول الله ﷺ، وبشرت به المؤمنين حيًا سويًا ، وأنا فى الشعب ، فدعا رسول الله ﷺ كعبًا بلأمته ـ وكانت صفراء ـ فلبسها كعب ، وقاتل يومئذ قتالاً شديدًا ، حتى جرح سبعة عشر جرحًا) [٢] .

وكان أحد ثلاثة كبار هم شعراء رسول الله ﷺ ، وهم : حسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

صدق كعب :

ويصوّر لنا كعب صورًا عديدة لداخل أعماقه ، ولأجواء المدينة ، ولأجوائه وهو يسعى للتأهب للغزوة ، كأنما نحن ننظره فى تلفاز متحرك .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٢٤ .

أما داخل أعماقه فقوله : (كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة). وهل هو معذور فى تخلفه ؟ يجيب عن ذاته: (ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى عن غيرها حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا وعددًا كبيرًا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا) فلا عذر فى الإمكانات المادية ، ولا عذر فى المفاجأة أو الجهل أو السرعة ، وبإمكان من يريد أن يتخلف ألا يُعرف أمره ؛ لأن أعداد المسلمين كبيرة كذلك ، وليس هناك سجل يحفظ أسماء الناس جميعًا ـ وهو ما يسمى بالديوان ـ فيعرف تخلفه ، إنما الإيمان هو العاصم والدافع للانضمام إلى المعركة ، فالذى يتعامل مع هذه النبوة وهذا الوحى ، يدرك أن الله تعالى مطلع على الغيب ، وسيكشف أمره لرسوله ﷺ ، وقد يُنزل الله تعالى به قرآنًا ، فالعجب عند كعب رضي الله عنه أنه ينفى أى عذرٍ يخطر على بالٍ لأحد ، يعذره عن التخلف ، بينما النماذج المنافقة تبحث من تحت أظفارها بكل عذر قويٍ أو عذرٍ واهٍ لتدافع عن نفسها ، ولو جاء النائب العام ليقدم قرار الاتهام بالإدانة ، لما جاء بأكثر مما جاء به كعب رضي الله عنه ليدين به نفسه . فهو يقدم اعترافاته كاملة ، بل يشير إلى الأهواء الداخلية التى تدفعه إلى التخلف وهو حب الدنيا ، والركون إلى الأرض ، ولا يجد حرجًا فى ذلك وهو فى موطن القدوة ، وموقع القيادة من الأمة .

(وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه) .

وهذه أجواءه وهو يمضى للاستعداد للغزو ، يراوح بين العرض الخارجى لسعيه ، وبين العرض الداخلى لتثاقله (فطفقت أغدو لأتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئًا ، فأقول فى نفسى : أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد) وعلينا أن ندرك أن كعبًا رضي الله عنه كان مشغولاً بأرضه ، ومستجيبًا لتلك الظلال الوارفة فى حديقته ، فلم يعط كل وقته لإتمام تجهيز سفره لأرض الروم (فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئًا). لكن الشيطان جالس بالمرصاد له ، فما زال يمهله ويدفعه للتسويف ، ويحدثنا عن محاولات الشيطان معه قائلاً : (فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئًا ، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئًا ولم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو) .

فى هذه الأثناء كان أخوان له يعيشان واقعه نفسه ، واقع التقصير وعدم المبادرة كما يسميها الله تعالى فى كتابه تثاقلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾ [التوبة] .

يقول هلال بن أمية الواقفى وهو أحد هؤلاء الثلاثة وبدرى من أهل بدر : (والله ما تخلَّفت شكًا ولا ارتيابًا ، ولكن كنت مقويًا [١] فى المال قلت : أشترى بعيراً ، ولقينى مرارة بن الربيع [٢] فقال : أنا رجل مقوٍ فأبتاع بعيراً وأنطلق به ، فقلت : هذا صاحب أرافقه ، فجعلنا نقول : نغدو فنشترى بعيرين فنلحق بالنبى ﷺ ، ولا يفوت ذلك ، نحن قوم يخفُّون على صدر راحلتين فغدًا نسير ، فلم نزل ندفع ذلك ونؤخر الأيام حتى شارف رسول الله ﷺ البلاد ، فقلت : ما هذا بحين خروج ، وجعلت لا أرى فى الدار ولا فى غيرها إلا معذوراً أو منافقًا معلنًا فأرجع مغتمًا بما أنا فيه) [٣] .

وكان كعب أكثر شبابًا وحيوية من أخويه هلال ومرارة ، فقد هم أن يرحل كما رحل أبو خيثمة ، ولكنه عاد متثاقلاً ، وعض أصابعه ندمًا قائلاً : يا ليتنى فعلت ، فلم يقدر لى ذلك ، وشهدنا أبا خيثمة كيف جاب الفيافى والقفار وحده حتى التقى برسول الله ﷺ فى تبوك .

المنافق يفرح بكعب وبتخلفه ، ويأمل أن ينضم إلى صفه ، لكن كعب ؓ يقتله الألم ، ويخنقه الندم أن يرى أصحابه الذين يلتصق بهم وينتمى إليهم هناك فى الصحراء والحر والقيظ أما هنا فهو بين أعدى العدو المنافقين المتربصين (فأنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت بهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذره من الضعفاء . وكان يقلقه وهو فى هذه الحالة الكئيبة هَمُّ ملاقاة النبى ﷺ ، وما يترتب من عقوبة ربانية على هذا التخلف ، فالآيات القرآنية هددت بعذاب للمتخلفين عن الجهاد .

﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [التوبة] . ويبلغ التهديد مبلغه أن يستغنى الله تعالى عن المتخلفين بقوم آخرين خير منهم ، وهو يتابع الأخبار من كل صقع عن أخبار الجيش الإسلامى وأين نزل ، ومتى تحرك ، حتى تناهى إلى سمعه أن الجيش عاد قافلاً بنصر الله وتوفيقه ، وعاد الهم والغم إليه تتجسد بين عينيه لحظات المواجهة مع قائده الحبيب .

---

(١) مقو : قوى فى المال .

(٢) مرارة بن الربيع هو ثالث الثلاثة الذين نزل القرآن بحقهم .

(٣) المغازى للواقدى ٣/ ٩٩٨ .

(فلما بلغنى أنه توجه قافلاً حضرنى همى) وأكبر هذا الهم كيف يخرج من غضب الله ورسوله ، ولم يسبق له فى حياته قط أن لقى مثل هذا الموقف ، وراح يفكر باختراع بعض الحجج التى تجعل رسول الله راضيًا عنه فيعذره ، ثم يستغفر الله تعالى بعدها بينه وبين ربه (وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا ، واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى) . ولعلهم كانوا يشجعونه على العمل على إرضاء رسول الله ﷺ بأية صيغة ، وبعدها يستغفر الله بينه وبين ربه .

وفى رواية الواقدى : (حتى ربما ذكرته للخادم رجاء أن يأتينى بشىء أستريح إليه) وهو فى تناقض داخلى عنيف بين أن يقدم الأعذار المناسبة ، ولا يعجزه ذلك ، وبين أن يصدق رسول الله ﷺ الخبر ، ولتكن النتائج ما تكون ، وهو عاجز عن ترجيح أى جانب (فلما قيل : إن رسول الله ﷺ أظل قادمًا زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لن أخرج منه أبدًا بشىء فيه كذب ، فأجمعت صدقه) .

إنه الإيمان الذى عمر فى هذا القلب طيلة هذه الحياة لا يمكن أن يكون مغزوًا أو مغلوبًا إنه يغالب ، أو ليس كعب بن مالك هو الذى أحب ربه من وصفه تلك القوة المؤمنة التى يفتخر بها على أعداء الله .

قال له رسول الله ﷺ : « ما نسي ربك لك ـ وما كان ربك نسيًا ـ بيتًا قلته » قال : ما هو ؟ قال : « أنشده يا أبا بكر » فقال :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ولـيُغلبن مـغالب الغـلاب (١)

لقد اختار الأرشد ، وقدم تقريره وافيًا أمام حبيبه المصطفى ﷺ ، ولا ينسى وهو الفنان البارع ، والأديب المبدع ، أن يعرض لنا كل جزئيات الساحة داخلية كانت أو خارجية ، ونحس كأننا فى المسجد معه هناك نشهد لقاءه العظيم العنيف .

(وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ﷺ ووكل سرائرهم إلى الله .

فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال : « تعال » . فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ ») .

لقد قدَّم لنا الصورة الظاهرة الوضاءة والكالحة الباطن مع هؤلاء المنافقين ، أيمان وكذب واستخفاف ، وشعور بأنهم نجحوا فى لعبتهم على الله ورسوله ، وسنعود إليها فيما بعد ، وها هو ينقل لنا سجله الذاتى بين يدى حبيبه المصطفى ﷺ ، وما كان يكنٍ ،

(١) سير اعلام النبلاء ٢/ ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

وما يحس ، وما يعتقد ، وما فعل .

(فقلت : بلى ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، لكنى والله لقد علمت لو حدَّثتك اليوم بحديث كذبٍ ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخِّطك على ، ولئن حدَّثتك بحديث صدق تجد علىَّ فيه إنى لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى منى ولا أيسر حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله ﷺ :

« أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت) .

وهذا يعنى أن كل الذين سبقوه كانوا كاذبين ، وتعامل رسول الله ﷺ مع مظاهرهم. وترك فضح سرائرهم لربهم متى شاء أن يفضحها عز وجل أو أن يسترها ، لكن جنديه القائد الشاعر كعب هو من غير هذه الطينة ، ومن غير هذا الطراز ، هذا صدق ، وما كذب وما حلف وما تأثم ، ولم يستغفر له ، ولم يعذره ، إنما أمره أن يمضى حتى يحكم الله تعالى فيه .

وحساب القائد الملتزم يختلف عن حساب المشبوه المنافق .

وبنو سلمة أمرهم عجيب ، ففيهم أعلى المستويات الإيمانية ، وفيهم أدنى المستويات، لقد أنزل الله تعالى قرآنًا بهم بأنهم كادوا يستجيبون لابن أبى فى أحد ، لولا أن عصمهم الله :

﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) ﴾

[آل عمران] . وكانوا أكثر الناس جراحًا وشهداء فى أحد .

ومن هذا المنطلق نشهد اندفاع شباب منهم غرتهم مظاهر عفو رسول الله ﷺ عن المنافقين ، بينما زعيمهم كعب يخرج دون استغفار ودون قبول عذر ، وهذا إهانة لهم ولزعيمهم ، وعرفوا سبب ذلك أنه لم يعتذر كما اعتذروا فهو المسؤول عن هذه النتيجة ، فمضوا مقهورين يقولون له :

(والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذلك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسى) .

ولعل هذا الجو الجماعى كان قد ألقى ظلاله عليه فى قولهم : قد كان كافيك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فأى ربح يعدل فى الدنيا استغفار رسول الله ﷺ له ، وقد حُرِمه ولا سبيل له إلا أن يفعل كما فعل الذين سبقوه ، وكاد يحس بالندم الشديد ، ويمضى عائدًا فيبرز عذره لولا أن تداركه الرحمة العظمى مرة ثانية ، وذلك حين سأل

أصحابه وأحبابه : (هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكرا لى رجلين صالحين شهدا بدراً فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى) .

هناك بضعة وثمانون من دونه ، حلفوا واعتذروا واستغفر لهم رسول الله ﷺ وهو يعرف أن أكثرهم مغموصًا عليه فى النفاق ، لكن ترى هل له مثيل آخر ممن كان يعرف بالصلاح والاستقامة وقَصَّرَ مثل تقصيره ، فهو لم يكن يرى فى المدينة أحدًا مثله ، ترى هل أصبح واحدًا من هؤلاء المنافقين ؟

وهل سقط فى بئرهم ؟! لا يدرى ، وإذا به يجد القشة التى يتعلق بها أملاً بالنجاة، ذكرا له رجلين صالحين من أهل بدر ، صدقا رسول الله ﷺ ، واعترفا بقدرتهما على الخروج ، وتقصيرهما فى العدة ، وتسويفهما فى المسير واللحاق برسول الله ﷺ ، وهذين الرجلين من أهل بدر وارتدت روحه له ، فليس هو وحده على الساحة ولم يحشر مع المنافقين ، وإنما أمرهما رسول الله ﷺ مثله : « قوما حتى يقضى الله فيكما » وله فى البدريين أسوة حسنة ، ولا يزال يذكر قصة حاطب بن بلتعة يوم الفتح ، وكانت أكبر من قصته ، ومع ذلك فقد غُفِر له وقيل له : « لعل الله اطلع يوم بدر على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فإذن هو سعيد أن يصيبه ما أصابهم ـ وهو من أهل العقبة الأولى ـ فماله وهؤلاء المنافقين ، وبهذا حسم أمره وعاد عن تردده ، وانتظر أمر الله تعالى فيه ، ولاشك أن المعاناة صعبة للغاية ، فله إخوان هناك قد ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد ينتظرون توبة الله عليهم قد تخلفوا مثله ، وتركهم رسول الله ﷺ مربوطين حتى يقضى الله فيهم أمره . وبدأت المحن الأكبر تحل بساحته ، وعليه أن يتحمل بصبر وثبات آثار خطيئته .

(ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى بالتى أعرف) لقد كان الأمر أهون عليه بكثير ـ على صعوبته ـ يوم كان المسلمون فى تبوك ، فإخوانه بعيدون عنه ، وسيحضرون إليه ، وسيبثهم أشواقه ووده ، وسيعتذر لهم عن اللحاق بهم ، أما الآن ، فالدنيا تغيرت عليه والأرض تنكرت ، فكل صديق له صد عنه ، وكل حبيب له فارقه ، وكل قريب قطع صلته به بعد أن صدر الأمر النبوى بالمقاطعة وعدم الكلام معه ، فصار كما قال لبيد : وأفردت إفراد البعير المعد ، بعد أن تحامته العشيرة الإسلامية كلها ، إنها سهام تغرز فى كبده كلما رأى إخوانه يصدون وجوههم عنه ، ويبتعدون عنه ، لكن المنافقين يقدمون ويسلمون عليه . . .ويحاول جاهدًا أن يصل إلى مرضاة رسوله الحبيب ،

لعله يستغفر له ربه ، ولكن دون جدوى ، فقد قال له : « قم حتى يقضى الله فيك » وأخواه الآخران استسلما للمصيبة ، ولجأ إلى البكاء فهو السبيل الوحيد الذى يبل حرقة الكبد من الألم ، أما هو فما يريد أن يستسلم ، لا يزال يرجو رحمة الله تعالى تنزل عليه فى كل لحظة ، والله أعلم بقلبه ومدى حبه لله ولرسوله .

(فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق فلا يكلمنى أحد) وهو يعلم أن لا جدوى من كلام أحد له ، فالأمر صادر من الرسول ﷺ ولن يخالف أحد من المسلمين أمره إلا الذين فى قلوبهم مرض ، إذن فليحاول مع رسول الله ﷺ وذلك بما له من ماضٍ إسلامى مشرق ، وموقع كبير فى الدعوة ، لعل رسول الله ﷺ يدعو ربه أن يغفر له بعد هذا العذاب النفسى القاتل .

(وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرَّك شفتيه برد السلام علىَّ أم لا ؟ ثم أصلى قريبًا منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى) .

إن حياته بهذا المجتمع الإسلامى ، وبرسول الله ﷺ ، وحين ينفصل عن هذا المجتمع ينفصل عن روحه ، ولا باب إلى الله تعالى إلا من خلال رسول الله ﷺ ، فليلق نفسه بين يديه، وليسلم عليه ، فهو لم يُنه عن إلقاء السلام على إخوانه، ولم يؤمر بمقاطعة إخوانه، وليمض إليهم وليسلم عليهم فهو مصر على ألا حياة له إلا بهم ، ولا خط له إلا خط هذا الدين ، مهما كانت العقوبة جسيمة ، ومهما كانت العقوبة أليمة فطريقه هو سبيل المؤمنين لا طريق سواه ، يسارق رسول الله ﷺ النظر على أمل نظرة حانية منه ، لكن لا جدوى (إذ أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى) . ويعود من جولته كل يوم كليم القلب كسير الفؤاد دامع العين ، ولا ييأس ، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، لن يكون منهم . وتذكر أحب أحبابه ، وأقرب أصدقائه له : أخاه أبا قتادة :

(حتى إذا طال عليه ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه ، فوالله ما ردَّ علىَّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت فنشدته ، فسكت ، فعدت فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسوَّرت الجدار) .

ولن يحاول مع أحد بعد محاولته مع ابن عمه وأحب الناس إليه ، فحب الله تعالى

ورسوله وطاعة الله ورسوله أولى من طاعة وحب العبيد ، ولن يكمل إيمان المؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولو كان مكان ابن عمه أبى قتادة لفعل مثل ما فعل ، ولن يخالف أمر رسول الله ﷺ ، وعاد كئيبًا حزينًا باكيًا ، تكاد تقطع أنياط قلبه الألم ، حتى متى ، هل لهذا الليل من آخر ؟ متى يكون الفرج ؟ أسئلة لا جواب لها عنده إلا البكاء والدعاء والاستغفار واللجوء إلى أرحم الراحمين أن يتوب عليه ، ويأتى الشيطان يحاول أن ينفخ فيه دواعى العزة والاستعلاء والجاهلية فيستغفر الله تعالى من هذه الخواطر ، وهل بلغ الذنب إلى هذا الحد حتى لا يكلمه المسلمون جميعًا ، وها قد مر قرابة شهرٍ على مقاطعته ولم يتغير فى الساحة شىء .

أى تربية فى هذا الوجود أعظم من هذه التربية ، فحين تقتضى القسوة فلابد منها ، وقد تربى هذا الجيل على الولاء الخالص لله ورسوله مهما اشتدت نيوب الشيطان وزبانيته، وهذا رسول من رسل شياطين الإنس والجن يصل إليه ليقتلعه من هذه الأرض، ويحمله إلى أرض الشام حيث أرومته هناك ، وجرثومة غسان هناك الذين كان يعتد بهم ويفخر بهم ؛ ولهم ملك عريض قد بسط قيصر عليه سلطانه ، فهم يأخذون العزة من هذا الانتماء الرومى ، وجاءه وهو فى أشد لحظات ألمه وحرب المجتمع الإسلامى له ، جاءه من يدعوه إلى عزة النصر وعزة المجد فى الشام .

(فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءنى دفع إلىَّ كتابًا من ملك غسان فإذا فيه : أما بعد ، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت : هذا أيضًا من البلاء ، فتيممت بالتنور فسجّرته بها) .

وتبرز هنا عظمة التربية النبوية لهذا الجبل ، فقد فتحت الدنيا مصراعيها له ، وملك غسان يفتح ذراعيه لاستقباله ، والمجتمع الإسلامى مفتوح ، فعندما يسأل النبطى عن كعب يشيرون إليه ، ولا يجرى تحقيق بعد ذهاب هذا النبطى عن الصلة التى نمت معه ، وهنا نجد كعب بكل ما يحمل من ماضٍ عريق ، وبشاعريته التى رفعته إلى الشخص الثانى فى الإعلام الإسلامى ، وشعره يتداوله العرب فى كل مكان ، وبتعريض حياته للموت بين يدى رسول الله ﷺ فى أحد ، وهو الآن منبوذ لا يكلمه أحد من المسلمين حتى ابن عمه وأقرب الناس إليه ، وهنا حيث يسقط الكبار ، الكبار أمام إغراءات المنصب ، نجد كعبًا رضي الله عنه يضع الكتاب فى موقعه الصحيح ، فهو ليس أهلاً للمناقشة ، وهذا من شدة البلاء والابتلاء .

ويقول فى رواية أخرى : (قد بلغ منى ما وقعت فيه أن طمع فىَّ رجال من أهل

الشرك) فقد هانت عنده نفسه وصغرت حين رأى أن ملك غسان يدغدغه ويدعوه إليه ، وذلك بدل أن تجمح نفسه وترغى وتزبد بأهميته وأهمية موقعه وشهرته ، وكان الحل الذى لا حل سواه .

(فعمدت إلى تنور فسجرته بها) .

وكانت ثقة قائده به ﷺ وثقة إخوانه أن لم يخطر ببال أحد أن يشك به ويسأله عن هدف النبطى من البحث عنه ؛ إذ كان السؤال عنه علنًا وفى الشارع : (من يدلنى على كعب بن مالك ؟) .

لقد رفض إخوانه التشكيك به وهو متخلف فى المدينة ، فعندما سأل رسول الله ﷺ عنه فى تبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر فى عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله، ما عرفنا عليه إلا خيراً .

وتمر الأيام كالسنون واللحظات كالأيام ينتظر كعب ﷺ جديداً من السماء أو رسول السماء فلا جديد ، وها هو يلوح إليه من بعيد رسول رسول الله ﷺ . فخفق قلبه بعنف لعله جاء الفرج وجاءت التوبة ، وانتظر على أحر من الجمر أن يحدثه عن الرسالة التى يحملها فإذا هى :

(حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبىّ بمثل ذلك ، فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك، فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر) .

وبعد طول الانتظار هذا وبعد أربعين يومًا يبلّغ ﷺ عقوبة جديدة أقسى من العقوبة الأولى بكثير ، فالإسلام يتدخل حتى فى فراشه ، وجاء الأمر النبوى باعتزال امرأته ، فلم يغضب ولم يثر ولم يعلن العصيان ، نحن نتحدى أمم الأرض كلها أن تملك تربية فعلت برجالها ما فعل الإسلام برجاله ، بل سأل رسول رسول الله عن تفصيلات العقوبة. أطلقها أم ماذا ؟ ولو كان الأمر بالطلاق لما تردد لحظة واحدة فى التنفيذ ، ولكن الأمر كله فى الاعتزال فقط ، وأصدر أمره إلى امرأته أن تغادر البيت إلى أهلها إلى أن يقضى الله فى هذا الأمر .

ونغادر إلى صاحبيه الآخرين رضوان الله عليهما ، وقد صدر الأمر لهما باعتزال زوجيهما ، وخاصة شيخنا هلال بن أمية الواقفى ﷺ فقد روى الواقدى عنه :

(وأما هلال بن أمية فكان رجلاً صالحًا ، فبكى حتى إن كان يرى أنه هالك من

البكاء، وامتنع عن الطعام ، فإن كان يواصل اليومين والثلاثة من الصوم ما يذوق طعامًا، إلا أن يشرب الشربة من الماء أو اللبن ، ويصلى الليل ، ويجلس فى بيته لا يخرج ؛ لأن أحدًا لا يكلمه حتى إن كان الولدان ليهجرونه لطاعة رسول الله ﷺ ، فجاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع، لا خادم له، وأنا أرفق به من غيرى ، فإن رأيت أن تدعنى أن أخدمه فعلت . قال : « نعم ، ولكن لا تدعيه يصل إليك » فقالت : يا رسول الله ، ما به حركة إلىَّ ، والله ما زال يبكى منذ يوم كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، وإن لحيته لتقطر دموعًا الليل والنهار ، ولقد ظهر البياض على عينيه حتى تخوفت أن يذهب بصره) (١) .

وحدا هذا بمن حول كعب رضي الله عنه أن يطلبوا منه إذنًا كإذن هلال (قال كعب : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لهلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ما يقول لى إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب) .

وهل فى الدنيا من العذاب النفسى أقسى من أن تُمنع المرأة عن زوجها عقوبة له من الله، فالمرء لو قاطعه كل أهل الدنيا ، فيمكن أن يدخل إلى بيته ، فيجد فى زوجه وأهله من يواسيه ويمسح دموعه ويخفف همه ، فكيف إذا انقلب هذا البيت عدوًا له ، حتى يمتنع عن الحديث معه استجابة لأمر الله ورسوله ، فذاك الشيخ الفانى هلال بن أمية لم يعذر وهو بهذا السن عن التخلف ، وكان الولدان يقاطعونه طاعة لرسول الله ﷺ ، والمنافقون يسرحون ويمرحون ويتكلمون مع المسلمين ، وكأن لم يجرموا بشىء وقد كذبوا على الله ورسوله ، ولو كان هذا الأمر فى غير هذا المجتمع لانقسم المجتمع قسمين ، ووقع انشقاق وانقلاب عسكرى لمثل هذه العقوبة ، والنهى عن الكلام عقوبة يساهم فيها كل فرد فى المجتمع النبوى المسلم ، وليست هناك مخابرات عسكرية وأجهزة أمن تراقب هذه العقوبة ، وتراقب هذه المقاطعة إنما هو الوازع الداخلى فقط هو الذى يملى التنفيذ أو عدمه ، فمن يرى كعبًا إن تكلم مع أحد من المسلمين ، أو ليس هذا ابن عمه وأحب الناس إليه ، ولا يوجد غيرهما أحد يسأله بالله ثلاث مرات : هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ حتى يجيب فى الثالثة: الله ورسوله أعلم ،بل لا يرد عليه السلام حين يسلم عليه ، ولا رقيب عليهما إلا الله ، بل إن كعبًا ليعين من حوله على تنفيذ العقوبة ، فلا يدع امرأته بين يديه ليجربها تمتنع أم لا ، بل يطلب منها اللحاق بأهلها لتنفيذ العقوبة عليه ، ويرفض أن يستأذن رسول الله ﷺ أن تقوم بخدمته طلبًا لمرضاة الله سبحانه .

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٥٢ .

وكان هذا فى صبيحة الأربعين فحتام تبقى هذه العقوبة الجدية ، وإلى متى تستمر ، والله أعلم ، وعليه أن يأتى إلى بيته ليلقى فيها الجدران ، وكأنها هى مقاطعة كذلك ، فيفر إلى السطح ، ويلجأ إلى السجود ضارعًا باكيًا أن يغفر الله له ، وكانت تلك اللحظة الحالمة الخالدة التى يعطينا كعب عنها ﷺ أدق التفاصيل فى شعوره وقلبه وفى سلوكه ومن حوله .

(فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت علىَّ نفسى ، وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر .

قال : فخررت ساجدًا ، وعرفت أن قد جاء فرج) .

أى أرض تقله وأى سماء تظله ، لقد طار فرحًا ، فما يصدق حاله أيقظة أم منامًا ، ويفرك عينيه . لقد سمعت أذناه البشارة ، وخر على أثرها ساجدًا لله (وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبَلَ صاحبىّ مبشرون وركض إلىَّ رجل فرسًا ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس) .

أى مجتمع هذا ، وهو قبل ثوان يقاطع كعبًا وإخوانه ، ويمتنع عن الحديث معهم ، ويعتبر الحديث معهم خيانة ، لكن نياط أفراده تتقطع لهذه المقاطعة ، وما أن جاءت التوبة حتى ماج المجتمع الإسلامى فى عرس من أعراسه ، فيطير أحد أفراده على رأس جبل سلع صارخًا بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، فالمجتمع كله يخفق بقلب كعب وصاحبيه، ويعيش مأساتهم ، بينما يركب الآخر فرسه ويطاردها فينهب بها الأرض ليبشره بتوبة الله عليه ، لقد عبَّر رسول الله ﷺ عن هذا المجتمع من خلال حواره مع أم سلمة ﵅ كما روى الواقدى : « يا أم سلمة ، قد نزلت توبة كعب بن مالك وصاحبيه » . فقلت: يا رسول الله ، أفلا أرسل إليهم فأبشرهم ، فقال : « يمنعونك النوم آخر الليل، ولكن لا يردن حتى يصبحوا » ولم يمنعون أم سلمة النوم ، وأم سلمة قرشية مخزومية لا تمت بصلة قرابة ولا نسب إلى كعب بن مالك ، ولكن لو علموا تلك الليلة لما ذاقوا طعم النوم يسألون ويهنئون ويفرحون ويستفسرون ، أليس هو مجتمع الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، فإذن ليُنتظر الخبر إلى الفجر ، وتعلن للدنيا توبة الله تعالى على الثلاثة .

والقرآن الكريم ينزل من لدن رب العالمين على لسان جبريل أمين وحى الله ، من أجل ثلاثة أفراد تخلفوا عن المعركة ، ويعطيهم من الاهتمام والعناية ما يمكن أن يهتم بإشارة للنبى ﷺ دون وحى يتلى .

ولكنه الفرد المسلم الذى هو عند الله تعالى أعظم من الكعبة ، وحرمته أعظم من حرمة الكعبة ، وها هو الواقدى ينقل لنا عن شيوخه مساحة أعرض من مساحة كعب ، تعطينا تماوج المجتمع الإسلامى مع نبأ التوبة السعيد .

(فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح أخبر الناس بما تاب الله على هؤلاء النفر : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فخرج أبو بكر ﷺ فأوفى على جبل سلع ، فصاح قد تاب الله على كعب يبشره بذلك ، وخرج الزبير على فرسه فى بطن الوادى فسمع صوت أبى بكر قبل أن يأتى الزبير ، وخرج أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى هلال يبشره ببنى واقف ، فلما أخبره سجد) .

ونستمع إلى وصف عاشر العشرة المبشرين بالجنة يحدثنا عن واقع الخبر على شيخنا هلال بن أمية رضوان الله عليه ، وهو الذى نقل البشارة إليه (قال سعيد ، فظننت أنه لا يرفع رأسه حتى تخرج نفسه ، وكان بالسرور أكثر منه بكاء بالحزن حتى خيف عليه ، ولقيه الناس يهنئونه فما استطاع المشى إلى رسول الله ﷺ لما ناله من الحزن والضعف والبكاء حتى ركب حماراً ، وكان الذى يبشر مرارة بن الربيع سلكان بن سلامة أبو نائلة، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ووافيا الصبح مع النبى ﷺ من بنى عبد الأشهل) .

ونعود بعدها إلى كاميرا (كعب) وآلته المصورة ، فهى مثل آلات الأطباء ، تنقل ما فى الأعماق ، ودقات القلوب كما تنقل على الساحة، فهى تنقل دائمًا المشاعر والمظاهر .

(فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه ، والله لا أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما) . فهو يلبس ثوبين مستعارين صبيحة عرسه . (وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فيتلقانى الناس فوجًا فوجًا يهنئونى بالتوبة) . إننا كأننا هناك والشمس لم تبزغ بعد ، والناس يتقاطرون ينتظرون دورهم للسلام على كعب وصاحبيه وتهنئتهما ، وهكذا الناس يكونون يوم العيد (فيتلقانى الناس فوجًا فوجًا يهنئونى بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس ، فقام إلىَّ طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة ، ولا غرابة أن يقوم طلحة بن عبيد الله من مجلس رسول الله ﷺ يهرول فيصافح كعبًا ويهنئه ، فقد آخى رسول الله ﷺ بينهما ، بينما حالت هيبة رسول الله ﷺ أن يتحرك الناس فى

المسجد بين يدى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور :

« أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » .

بينما تلتقط كاميرا تليفزيونية أخرى نقل لنا خبرها الحافظ ابن عساكر . تلتقط كعبًا وهو يقبل يد رسول الله ﷺ حين لقيه بخبر توبة الله عليه ، وينقل لنا قول كعب :(لما نزلت توبتى قبلت يد رسول الله ﷺ) ، لكن الذى يخفق به قلب كعب بعنف ، وقد حبس أنفاسه به وله هو أن يعرف مصدر التوبة .

ولذلك ما تمالك أن قال لنبيه الحبيب ﷺ : (يا رسول الله أمن عندك أم من عند الله ؟ قال : « لا ، بل من عند الله » . إذن فقد نزل بتوبته قرآن يتلى إلى قيام الساعة .

ويسلط كعب (كاميرته) على وجه رسول الله ﷺ (وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه) .

ولم ندر ما المفاجآت التى أعدَّها لنا كعب بمناسبة هذه التوبة،حتى سمعناها منه الآن.

(فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ) وجاء الجواب من رسول رب العالمين لشاعره العظيم كعب الذى غمرته مشاعر الفرح حتى ينخلع من ماله كله شكرًا لله على ذلك ، فكم لهذه التوبة فى أعماق كعب ، ولا عجب فيكفى للتعبير عنها مقالة رسول الله ﷺ : « أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك » .

فقد ولد ولادة جديدة ، وانبثق انبثاقًا جديدًا فى هذا اليوم ، وليعتبر نفسه أنه فى يوم ميلاده ولا حاجة له فى ماله كله ، وليكن صدقة فى سبيل الله ، وخفَّف رسول الله ﷺ من غلوائه فقال له : « أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك » . قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر .

وما هى المفاجأة الثانية التى أعدها كعب لنا رضي الله عنه ؟ هى المفاجأة التى لا يملكها فى الدنيا إلا ضمير المسلم ولا يعرف قيمتها إلا المجتمع الذى نبت فيه هذا الفرد المسلم ، إنها مفاجأة أخلاقية بحتة .

(فقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما نجانى بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدّث إلا صدقًا ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى) ويختم شريطه بقوله : (ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبًا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما

بقيت) .

ونقل لنا فى ختام هذا الشريط آيات الله تتلى فيه وفى إخوانه من جهة - ثمرة هذا الصدق الذى صدقوا فيه ، فقاموا حتى يحكم الله فيهم ، وهذا حكم الله قد نزل بتوبتهم :

(وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة] . فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ ألا أكون كذبت فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قاله لأحد ، فقال تبارك وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [التوبة]) .

ترى هل شهدت المدينة عرسًا آخر قبل عرس كعب وأخويه ؟ نعم ، فقد أنزل الله تعالى التوبة على الذين ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وهم بقية العشرة قبل نزول توبة كعب ، بينما كانت التوبة على هؤلاء الثلاثة هى التى جاءت فى النهاية (وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال: ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة : ١١٨] ، وليس الذى ذَكَر الله مما خُلّفنا عن الغزو ، إنما هو بتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عمّن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه) .

وعودة إلى السبعة الذين ذكرتهم كتب التفسير والسيرة أنهم ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد ولم يطلقوا حتى نزلت توبتهم من السماء كذلك ، وعلى رأسهم أبو لبابة بن عبد المنذر، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: « من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ » قالوا: أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم فترضى عنهم وتعذرهم ، وقد اعترفوا بذنوبهم فقال رسول الله ﷺ : «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله تبارك وتعالى هو الذى يطلقنا . ولا شك أن وتيرة الندم عند هؤلاء السبعة كانت على أعلى المستويات ، فقد أعلنوا خطأهم وتخلفهم أمام كل داخل للمسجد وخارج عقوبة لهذه النفوس التى استمرأت المقام فى المدينة ورسول الله ﷺ فى القيظ والحر والبيد ، وانخلعوا من ذاتهم متبرئين منها معلنين تقبلهم لحكم الله فيهم مهما كان

الحكم فى قساوته وشدته ، وأنزل الله تعالى توبتهم بقوله عز وجل : ﴿ **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة : ١٠٢] . وعسى من الله واجب : ﴿ **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (٣٧) ﴾ [البقرة] . فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إليهم فأطلقهم وعذرهم . ولم تأخذ هذه القضية ضجة كبرى لأنها على الظاهر لم تتأخر كثيراً ، وفى بعض الروايات أن التوبة نزلت بعد خمسة عشر يومًا [1] . إنما الإضافة فى هذه القصة هى : (فجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدَّق بها عنا واستغفر لنا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أمرت أن آخذ أموالكم » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (١٠٣) ﴾ [التوبة]، وكان ثلاثة نفر منهم لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فأرجئوا سنة لا يدرون يعذبون أو يتاب عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ...** ﴾ إلى آخر الآية [التوبة : ١١٧] ، وقوله : ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (١١٨) ﴾) [التوبة] .

ونرجح أن هؤلاء الذين أرجئوا سنة ليسوا هؤلاء الثلاثة ، وذلك لأن الثلاثة المذكورين قد نزلت توبتهم بعد خمسين يومًا كما فى الصحاح : إنما هم مجموعة أخرى وقد يكونون هم الذى عناهم الله تعالى بقوله : ﴿ **وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (١٠٦) ﴾ [التوبة] ، وهى متناسبة فى السياق بعد الآيات ﴿ **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ** ﴾ [التوبة : ١٠٢] ، وهى بعدها بثلاث آيات ، والموضوع متتابع بذكر الذين اعترفوا بذنوبهم ، ثم أمر النبى ﷺ بأخذ أموالهم ، ثم الحديث عن المرجون لأمر الله ، أما الثلاثة أولئك فهم فى سياق آخر وبعيد عن هذا السياق .

وهذا يقودنا بعدها إلى التعرف على نوعيات المجتمعات بعد تبوك ، وطبقات هذه المجتمعات وذلك قبل العام العاشر للهجرة .

لدينا ثلاث مجتمعات يعرضها القرآن الكريم، ويعرض طبقاتها وهذه المجتمعات هى:

١ ـ مجتمع المدينة وما حولها .

٢ ـ مجتمع الأعراب .

---

(١) هناك روايات قوية من أن توبة أبى لبابة إنما كانت فى بنى قريظة ، وفيها تفصيلات مسهبة سبق أن ذكرناها من قبل .

٣ ـ مجتمع النفاق .

علمًا أن مجتمع النفاق مبثوث فى المجتمعين فهو جزء منهما ظاهراً ومنفصل حقيقة عنهما :

أولاً : مجتمع الأعراب ، وهو الذى لا يزال الشر يغلب فيه ، ولا تزال الجاهلية طاغية فيه فلذلك ذكره الله تعالى فى وصفه العام بقوله عز وجل :

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) ﴾ [التوبة] ، ودليل غلبة الشر فيه وطغيان الجاهلية هى الردة الكبرى التى نزلت به ، فتكاد لا تكون قبيلة من قبائل العرب الكبرى إلا وشاركت فيها ،وكان الوضع كما وصفته عائشة رضي الله عنها : (ارتدت العرب قاطبة إما عامة وإما خاصة فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهودية والنصرانية والمسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم)[1] .

ولهذا وصفه الله تعالى بأنه أشد كفرًا ونفاقًا ، ونماذج أفراده يتمثل فيهم هذا الوصف : **﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) ﴾** [التوبة] . والأقلية فيه أقلية مؤمنة .

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾ [التوبة] .

ثانيًا : مجتمع المدينة ، ويحوى فى ثناياه ثلاث طبقات ؛ العليا والوسطى والدنيا.

أما الطبقة العليا فى هذا المجتمع فهى أعلى طبقات : البشرية على الإطلاق ، والتى لم تشرف البشرية بها ، ولن تتكرر على الإطلاق ، إنهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، هؤلاء تربوا بأعيانهم وأفرادهم وأشخاصهم على يد بانى هذه الأمة رسول الله ﷺ .

وهم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾

[التوبة]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٦/٣٤٣ .

الطبقة الثانية : وهى التى تمثل القاعدة العريضة فيه وإن كانت ليست فى حجم الطبقة الأولى ، ومع الملاحظ أن هذه الآية نزلت فى السبعة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، لكنها ليست محصورة فيهم ، فمن حيث الوصف الفعلى ، تكاد تشمل معظم المسلمين فى غير هذا المجتمع ، حتى إن عليًا ﷺ من تواضعه كان يستبشر بهذه الآيات ، ويراها تنطبق عليه ، فهؤلاء الذين خلطوا العمل السيئ بالعمل الصالح ، لكن قلوبهم حية وأفئدتهم نقية ، سرعان ما يفيئون إلى الله ورسوله ، معترفين بما جنت أيديهم ، ويعدهم الله تعالى برحمته وفضله فالخير هو السمة العامة للمجتمع ، ولا نبالغ إذا قلنا : إن أعظم مجتمع سادت فيه الخيرية هو هذا المجتمع .

والطبقة الوسطى فيه تمثل أعلى طبقات كل المجتمعات البشرية ، فكيف بالعليا فيه ، وهل حوت البشرية نموذجًا للتوبة مثل أبى لبابة وأمثاله الذين ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد توبة وندمًا عما فعلوه من تخلف فالخطأ فيها هو غير متعمد ، وسرعان ما تفيء من خطئها ،فاستحقت بجدارة توبة الله تعالى وحبه لها :

« لو لم تكونوا تخطئون لخلق الله أقوامًا يخطئون فيستغفرون فيغفر الله لهم » .

والملاحظ أن الطبقة العليا فى هذا المجتمع ـ مجتمع المدينة ـ تنوف عن الـ ٩٥٪ من أبنائه ، وهذا مجتمع نموذج لا مثيل له فى تاريخ البشرية ، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، بينما نجد الطبقة الوسطى فيه قد تتجاوز الـ ٣٪ ،أما الطبقة الثالثة : ﴿ **وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة : ١٠٦] . فهم الـ ١٪ من هذا المجتمع المثالى الخالد .

ثالثًا : مجتمع النفاق وهو شر كله وكفر كله ، لا تستطيع أن تجد فيه تمايزًا يذكر ويصل إلى حد الطبقية فيه ، فقد وصف الله تعالى المنافقين بقوله عز وجل :

﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)** ﴾ [التوبة] .

إنما الذى فيه خير ، فسيخرج من هذا المجتمع ويدخل حظيرة المجتمع المؤمن ، وهؤلاء الذين استثناهم الله عز وجل بقوله : ﴿ **لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)** ﴾ [التوبة] ، واستثناهم فى موقع آخر بقوله عز وجل : ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا**

بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [التوبة].

وتتجلى هذه المعانى فى سورة النساء بشكل واضح أنهم يخرجون من مجتمع المنافقين إلى مجتمع المؤمنين ، عندما يتوبون ويخلصون : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) ﴾ [النساء] .

وقد أكثرت الآيات من الحديث عنهم لا للحديث عن طبقاتهم وتمايزهم إنما للحديث عن جرائمهم وتخطيطهم لحرب الإسلام والمسلمين وإثارة الفتن والشبهات فى صفوفهم .

بقى علينا أن نشير أن هناك فريقًا من المؤمنين ومن المجتمع المسلم قد تتشابه صفاتهم الخارجية مع المنافقين ـ كما فى الحديث النبوى : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كان فيه خصلة منها ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فاجر » (١) .

وهذا ما يطلق عليه علماء المسلمين بالنفاق العملى، وهو غير النفاق الاعتقادى للذى يظهر الإسلام ويبطن الكفر .

(١) رواه البخارى ومسلم .

طبقات المجتمع المسلم

وأهمية هذه الفقرة فى البحث ونحن نشرف على نهايته هو ما تفعله التربية فى أبناء هذا الجيل الذى مسته يد النبوة وصاغته ، فانتقل من القاعدة العريضة قبل هذه الصياغة إلى القاعدة الصلبة بعدها ، بحيث تصبح هذه القاعدة العريضة بالدورات التى خاضتها والمحن التى تعرضت لها جزءًا من القاعدة الصلبة الأولى ؛ قاعدة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، لتدخل كلها فى إطار الذين اتبعوهم بإحسان ، وتدخل فى مفهوم الصحبة التى اصطلح العلماء على تسمية طبقتهم كلها بطبقة الصحابة .

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله :

(وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابى من لقى النبى ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام ، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت ، ومن روى عنه أو لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغز ، ومن رآه رؤية ولم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى) (١) .

ووضع المجتمع الإسلامى بعد تبوك آل إلى الطبقات التالية :

١ ـ المهاجرون والأنصار .

٢ـ الصحابة ، والصحابة قسمان :

أ ـ من حول المدينة .

ب ـ من هم بعيدون عنها .

أولا : المهاجرون والأنصار :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة] .

---

(١) من مقدمة الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلانى ١/١/٤ .

ولا شك أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم أعلاهم ، ثم الذين اتبعوهم بإحسان ، ثم بقية المهاجرين والأنصار الذين حضروا فتح مكة ؛ إذ لا هجرة بعد الفتح ، وأما الأنصار فيضاف إليهم من أهل المدينة من يبلغ الحلم ، وينضم إلى المجتمع الإسلامى ، فهذه الطبقة التى كانت عشرة آلاف فى فتح مكة قد انصهرت كلها ، وعادت فشكلت القاعدة الصلبة ، وذلك بعد دورة الفتح وحنين ، والتى استمرت شهرين فى صحبة رسول الله ﷺ ، والاستثناء الذى ذكر منهم قد تداركهم الله برحمته ، ودخلوا ضمن توبة الله عز وجل بعد أن كاد أن يزيغ قلوب فريق منهم ، لكن الله تعالى عصمهم وحفظهم، ومنهم أولئك الثلاثة الذين تأخرت توبتهم خمسين ليلة، ومنهم ـ والله أعلم ـ الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا وربطوا أنفسهم بسوارى المسجد ، ومنهم الذين تاب الله عليهم بعد عام . فهذه النماذج الثلاثة التى كادت أن تزيغ ، وتاب الله عليها ونجحت فى الامتحان ، وأصبحت القاعدة العريضة قبل الفتح ، وبدخولها الدورة التربوية مع رسول الله ﷺ والتى استمرت قرابة الشهرين ، صارت تمثل القاعدة الصلبة ، وصارت هى القدوة للأمة بعد أن كان السابقون الأولون منهم هم القدوة فقط .

وهناك إشارة لطيفة فقهها الجيل الأول من الصحابة ، حيث اعتبروا السابقين الأولين من المهاجرين هم قمة القمة فى الأمة ، وذلك انطلاقًا من حديث رسول الله ﷺ : «الخلافة فى قريش » ، والسابقون الأولون من المهاجرين إذا استثنينا بضعة أفراد منهم مثل أبى ذر الغفارى ، والطفيل بن عمرو الدوسى وأبى موسى الأشعرى وعمرو بن عبسة السلمى وأمثالهم ممن أسلموا ، وطلب منهم رسول الله ﷺ أن يكونوا دعاة هداة فى أقوامهم ، بينما كان السابقون الأولون فى قريش نسبًا أو حلفًا أو ولاءً . فهم اعتبروا جميعًا من قريش باعتبار : « مولى القوم منهم وحليفهم منهم » ، وهذا ما نُقِل من خطبة الصديق رضي الله عنه فى هذا المجال يوم سقيفة بنى ساعدة (وكنا معاشر المهاجرين أول الناس إسلامًا ونحن عشيرته ﷺ وأقاربه وذوو رحمه ، فنحن أهل النبوة وأهل الخلافة) ولم يترك شيئًا أنزل فى الكتاب بأيديهم إلا قاله ، ولا شيئًا قاله رسول الله ﷺ فى شأن الأنصار إلا ذكره ، ومنه « لو سلكت الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا لسلكت وادى الأنصار » وقال : لقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد : « قريش ولاة هذا الأمر » فقال سعد رضي الله عنه : صدقت ، فقال : (أى الصديق) رضي الله عنه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، أى فى رواية أنه (أى الصديق) قال لهم : أنتم المؤمنون ونحن الصادقون ، وإنما أمركم الله تعالى أن تكونوا معنا فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** (١١٩) ﴾ [التوبة] ، والصادقون هم المهاجرون ، قال الله تعالى :

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ إلى قوله : ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ ⑧﴾ (1) [الحشر] .

ثانيًا : الصحابة :

أ ـ من كان الجهاد فرض عين عليهم :

وهؤلاء هم أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب :

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ⑫⓪ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑫①﴾ [التوبة] .

لقد كانت هذه الطبقة الثانية التى انضمت إلى الطبقة الأولى ، مع النموذج الثانى ، وصاروا ثلاثة أضعاف الجيش الإسلامى من المهاجرين والأنصار ، ارتفع عددهم إلى ثلاثين ألفًا بعد أن كان المهاجرون والأنصار قد بلغوا يوم الفتح عشرة آلاف ، وهؤلاء العشرون ألفًا فُتِح أمامهم فرصة الانضمام لهذه الدورة التأهيلية العظيمة فى تبوك بصحبة قائد الجيش الإسلامى ، وصحبة الجيل الأول من المهاجرين والأنصار ، ولم يترك لهم الخيار فى هذا الانضمام بل كانت الأوامر لا تبيح لأحد منهم التخلف .

﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ③⑨﴾ [التوبة] . وهم من الذين اعتبروا قد تخلوا عن قبائلهم ، وتخلوا عن الولاء لعشائرهم ، وصار ولاؤهم لله وحده ولرسوله ﷺ كما فى الحديث :

« قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع موالىَّ ليس لهم مولىً دون الله ورسوله »(2) وهؤلاء الذين اعتبرهم القرآن القاعدة الصلبة التى تحمل مسؤولية الجهاد مع رسول الله ﷺ مثل أهل المدينة موطن المهاجرين والأنصار .

ب ـ من كان الجهاد فرض كفاية عليهم :

وهم الأعراب الموغلون فى الصحراء خارج المجموعة السابقة ، والذين شاركوا فى

---

(1) السيرة الحلبية ٣/ ٤٨٠ ، ونص الآية كاملاً : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ⑧ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨﴾ [الحشر] .

(2) مسلم ٤/١٩٥٦ ح (١٨٩/ ٢٥٢٠) .

الجهاد على تفاوت منهم ، واعتبر القرآن الكريم أن مشاركة نفر من القبيلة كاف لتحقيق الهدف الشرعى والتربوى ، فهؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة] .

وواضح من النص القرآنى أن النفرة مع رسول الله ﷺ هى ذات هدف تربوى أكثر منه ذات هدف عسكرى ، فلابد لكل قبيلة من رسل يحضرون هذه الدورة التربوية يتعلمون بها أحكام دينهم من هادى البشرية محمد ﷺ ، ليعودوا إلى أقوامهم فيعلمونهم أمور دينهم ، ويتحدثون لهم عن معجزات نبيهم التى شهدوها ، وغذت قلوبهم بالإيمان والتعيين ، وانقلبوا دعاة إلى الله عز وجل ، وقادة يقتدى بهم فى تجمعاتهم ومضاربهم ، وانضمامهم إلى هذا النفير العظيم ، ومشاركتهم مع جيش الإسلام فى هذه الدورة المباركة يعطيهم الموقع المتقدم ، ويجعلهم جزءًا من القاعدة الصلبة المسؤولة عن حمل هذا الدين ونشره فى آفاق الأرض ، فالتربية نظرية فى فقه الدين ، وعملية فى الجهاد فى سبيله .

(إن هذا الدين منهج حركى لا يفقهه إلا من يتحرك به ، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه بما ينكشف لهم من أسراره ومعانيه ، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية فى أثناء الحركة به ، أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ، ولا فقهوا فقههم ، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون ، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ﷺ ، والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والفقه ، وهذا عكس ما يتبادر إلى الذهن من أن المتخلفين عن الجهاد والغزو والحركة هم الذين يتفرغون للتفقه فى الدين ، ولكن هذا وهم لا يتفق مع طبيعة هذا الدين ، إن الحركة هى قوام هذا الدين ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ، ويجاهدون لتقريره فى وقع الناس ، وتغليبه على الجاهلية بالحركة العملية .

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون فى الحركة بهذا الدين لا يفقهونه ، مهما تفرغوا لدراسته فى الكتب دراسة باردة ، وإن اللمحات الكاشفة فى هذا الدين إنما تتجلى للذين يتحركون به حركة جهادية لتقريره فى حياة الناس ، ولا تتجلى للمستغرقين فى الكتب العاكفين على الأوراق .

إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا فى أرض الحركة، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة ، والذين يعكفون على الكتب والأوراق فى هذا الزمان لكى يستنبطوا منها أحكامًا

فقهية يجددون به الفقه الإسلامي أو يطورونه ـ كما يقول المستشرقون من الصليبيين ـ وهم بعيدون عن الحركة التى تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده بتحكيم شريعة الله وحدها ، وطرد شرائع الطواغيت ، هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ، ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين) (١) .

وهكذا نجد رحلة الثلاثين ألفًا عادت موقرة الثمار مليئة الوطاب بهؤلاء الثلاثين الذين فعلت بهم التربية النبوية فعلتها الكبرى ، فأعادت صياغتهم من جديد على ضوء هدى الإسلام ونور النبوة، وأصبحوا الحداة الهداة للأجيال اللاحقة التى تنضم إلى هذا الدين.

والدليل الواضح أن التربية العملية لهذا الدين لا تتم إلا من خلال الجهاد فى سبيل الله هو : هذه الآيات التى سبقت الحديث عن طبقات المجتمع المسلم ، والتى اعتبرت الجهاد فى سبيل الله هى الصفقة الكبرى بين المؤمنين فى الأرض وربهم جل جلاله ، وليس الإيمان والفقه النظرى فقط ، فقبيل الآيات التى تتحدث عن طبقات المجتمع المسلم التى ذكرناها جاء الحديث عن الجهاد بهذه الصيغة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة] .

فهو منهج الله تعالى مع عبيده المؤمنين فى الأرض من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وجاءت الآية تؤكد دينونة هذا المنهج وعالميته فهو وعد عليه سبحانه فى كتبه المنزلة كلها : التوراة والإنجيل والقرآن ، وعظمة الآية أنها لم تتحدث عن شراء النفس فحسب ، بل شراء النفس والمال ، ولم تتحدث عن القتل والنصر فقط ، إنما تحدثت عن المحنة كذلك : **﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾** ، فقد تكون المرحلة مرحلة صبر ومصابرة وكف لليد ، واستشهاد فى سبيل الله ، أو مرحلة جهاد بالمال فحسب ، لكن المسلم قد بايع ربه على هذا كله .

إنه نص البيعة الذى ابتدأ مع السبعين الأوائل من الأنصار فى بيعة العقبة بيعة الحرب:

(« وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة » قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه) (٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٧٣٤ ، ١٧٣٥ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٤٤٦ .

وتجلت بعد تبوك مع الثلاثين ألفًا فى مجتمع الإسلام فى المدينة وما حولها ، وتابعت مسيرتها كما قال عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الذين بدأوا يبيعون أسلحتهم شعورًا بانتهاء الجهاد (فنهاهم عن ذلك وقال : « لا تزال عصابة من أمتى يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال ») (١) .

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ لا أحد ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة] .

لكن هؤلاء المجاهدين فى هذه الأمة يختلفون عن المقاتلين والقتلة فى أمم الأرض كلها ، فلهم مواصفات تمت صياغتهم عليها من قبل سيد ولد آدم ، وقد أمضى ثلاثًا وعشرين عامًا وهو يبنى بهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، فهؤلاء المقاتلون المجاهدون يمتازون بعشر صفات تؤهلهم للدخول فى سلك المجاهدين فى سبيل الله ﷺ وهذه المواصفات هى :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة] .

ومن أهم المواصفات الكبرى والتى تعتبر انعطافة فى تاريخ البشرية هو الخلوص من كل ولاءات الأرض قبيلة أو عشيرة أو وطنًا أو أرضًا أو مالاً ، واعتبر الولاء للإسلام فقط، وبث كل رابطة دونه أو جعلها على الأقل لا تعلو عليه من خلال القائد الأول لهذه الأمة إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة] .

ولو غيروا الهوية التى أعطاهم الله تعالى إياها لضلوا : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة] ، والنصرة مرتبطة بالمحافظة على هذه الهوية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [التوبة] .

وبعد هذه المقدمات فى هذه الآيات يأتى الحديث عن طبقات المجتمع المسلم :

---

(١) المغازى للواقدى ٣/ ١٠٥٧ .

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ... ﴾ [التوبة : ١١٧] إلى آخر الآيات .

لقد مثل انطلاقة الأمة المنكودة فى مطلع القرن العشرين الأخذ بالهوية القومية التى لا يعلو فوقها أية هوية وأية رابطة ، ومثل ذلك شاعرهم بقوله :

فلا حد يباعدنا ولا دين يفرقنا لسان الضاد يجمعنا بغسان وعدنان

وها هو القرن العشرون يشارف على الانتهاء ، ولا تزال أمم القومية الواحدة ثلاثًا وعشرين دولة .

أما عندما كان الانطلاق من هوية هذا الدين ورابطته ففى ثلث قرن دانت البشرية لهذه الأمة التى يمثلها القول المعاكس :

فلا حد يباعدنا ولا جنس يفرقنا كتاب الله يجمعنا بأعراب وعجمان

وإلى أن تكون انطلاقة هذه الأمة من هذه الهوية ، وجعلها فوق كل هوية ورابطة وولاء ، يكون عودة النصر والوحدة والتمكين لهذه الأمة ، ويقولون : متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبًا .

مصرع النفاق بمصرع عبد الله بن أبى

لا نزال نذكر فى تبوك أن ريحًا شديدة هبت ذات يوم فقال رسول الله ﷺ : « هذا لموت منافق عظيم النفاق » وقدموا المدينة فوجدوا رفاعة بن التابوه أحد أركان النفاق قد مات يوم هبت الريح ، فحزن عليه كل منافق ، وسُرَّ بموته كل مؤمن ، لكن ابن أبىّ الذى خذل رسول الله ﷺ للمرة الثانية كما فعل فى أحد لا يزال قائمًا ، لقد فشلت كل مخططات النفاق فى إقامة دولتهم بهذه المناسبة ، وعاد رسول الله ﷺ مظفرًا منصورًا ، يرجو ملك بنى الأصفر رضاه بعد أن كان أمل أبى عامر الفاسق أن يأتى بكتائب بنى الأصفر لاحتلال المدينة ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، ولبست المدينة حللها الذهبية ، وكأنما هى فى عرس من أعراسها ، بعد أن عاد إليها سيد الخلق مع خيرة الخلق ، وصار ابن أبى كالفحمة السوداء قهرًا وذلاً وحقدًا ، وفتك به المرض فى ليالٍ بقين من شوال أقعده عن الحركة ، وكأنما هو مرض الموت وذلك بعد قرابة شهرين من تبوك ، فكان رسول الله ﷺ يعوده ، ولن يدع رسول الله ﷺ رئيس حزب المنافقين وأتباعه يسرحون ويمرحون دونما رقيب أو حسيب ، فزيارة المصطفى تخلخل كل مخططات اللقاءات والاجتماعات السرية المقررة ، ولا تدع الفرصة لهم لاتخاذ القرار المناسب ، وانتشر الخبر فى المدينة أن ابن أبى إنما يعانى من مرض الموت ، فجاءه رسول الله ﷺ يعوده لقد رأى ابن أبى أمام عينيه تحطم كل آماله فقد أفنى عمره فى حرب رسول الله ﷺ ، وها هو يراه بجواره يعوده وأفنى عمره فى حلف يهود وحبهم ، وها هم مطرودون خارج الحجاز كله ، أو يعملون عند المسلمين مزارعين لا شوكة لهم ولا صولة .

وبنظرة نفاذة من النبى ﷺ إلى ابن أبى ، وهو يعانى من سكرات الموت ، قال له رسول الله ﷺ :« قد كنت نهيتك عن حب يهود » .

وفى مثل هذه اللحظات كان يناسبه أن يعلن توبته واستغفاره وخطأ خط سيره كله ، واعترافه بالنبوة، لكنه راح يتبجح ليهاجم أسعد بن زرارة نقيب نقباء المسلمين يوم العقبة، والذى توفى بعد أن أقر الله تعالى عينه بإقامة دولة الإسلام فى المدينة ، وهو الذى قاد الانقلاب ضده وضد اليهود المتنفذين فى المدينة ، وجاء برسول الله ﷺ إليها ، فأجاب الرسول بقوله :

« أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه » .

فالنفع والضر عنده بالموت والحياة ، ورأى أن بغض اليهود من أسعد بن زرارة لم يحل بينه وبين الموت .

وكذلك حبه لليهود لم يحل بينه وبين الموت ، فكلاهما يلقيان المصير نفسه ، فماذا بعد الموت ؟

إنه شعر بأنه قد أبرز خبيئة نفسه وخبيثة نفسه ، وأنه لا يؤمن بجنة ولا بنار ، وقد استوى مصيره ومصير أسعد بن زرارة فى تلقى غصص الموت ، لكنه عاد فحافظ على خط نفاقه الأصيل بقوله :

يا رسول الله ، ليس بحين عتاب هو الموت فاحضر غسلى ، وأعطنى قميصك أكفن فيه .

إنه مدرسة عالمية للنفاق يجب أن تدرس فى جامعات العالم كلها وخريجو مدرسته هم أساتذة فيها وفى فن النفاق بشكل عام ، وهو وأركان حربه المنافقون هم جميعًا الذين كانوا يلحون على رسول الله ﷺ فى انتحال الأعاذير ، والحديث عن الظروف القاهرة التى حالت بينهم وبين المشاركة فى غزوة تبوك ، ويقسمون الأيمان المغلظة الكاذبة الغموسة لهم فى النار أنهم صادقون ، ويستغفر لهم رسول الله ﷺ ، ويمضون يتبجحون على كعب بن مالك وصاحبيه الذين لم يستغفر لهم رسول الله ﷺ ، بينما استغفر للمتخلفين المنافقين، وفرحوا فيما بينهم أن اللعبة انطلت على رسول الله ﷺ والمسلمين، وراحوا يتسابقون فى الثناء على الإسلام ورسول الإسلام لتغطية الموقف ، وجاءهم الشهاب الثاقب الذى يرجمهم ، ويعريهم من كل قيمة ، حين أنزل الله تعالى على نبيه فيهم :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [التوبة] .

هؤلاء هم فى ميزان الله ، وميزان رسول الله ، وميزان المؤمنين **﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) ﴾** فبماذا يفخرون بعد هذا على المسلمين ، وقد فضح الله سرائرهم ؟!

هذا وإذا كانوا يؤملون بالاستغفار النبوى لهم فليطمئنوا إلى الرد الإلهى على استغفارهم والذى جاء كالصاعقة المحرقة لهم بما أنزل على نبيه بشأنهم :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة] .

وبعد كل هذه الفضائح والتعرية لأستاذ النفاق وزبانيته يعود ليقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ، ليس بحين عتاب ؛ هو الموت فإن مت فاحضر غسلى ، واعطنى قميصك أكفن فيه . فأعطاه الأعلى ، وكان عليه قميصان ، فقال : الذى يلى جلدك ، فنزع قميصه الذى يلى جلده ، فأعطاه ثم قال : صلِّ على واستغفر لى .

لا يمكن أن نجرؤ إطلاقًا على أن نسمى هذا نفاقًا لو لم ينزل القرآن بذلك ، وماذا بعد التكفين بقميص رسول الله ﷺ ، وماذا بعد أن يُصرّ على القميص الداخلى الذى تبارك بجسد المصطفى ﷺ ، ونحن اليوم نحلم بذرة منه نتبارك بها ، لقد كان خالد بن الوليد أعد لمعاركه كلها شعرات لرسول الله ﷺ وضعها فى قلنسوته لا يخوض معركة إلا وهى معه ، وكان معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه قد أعد شعيرات لرسول الله ﷺ تدخل فى كفنه ، وهذا ابن أبى يفوز بالقميص الذى يلى جسد رسول الله ﷺ، ولولا ما أنزل الله تعالى فيه بعد موته لاتهمنا من يتهمه بعقيدته ، فتوبة العبد تقبل منه ما لم يغرغر، وهذا الرجل لا يزال بوعيه وهو يعانى سكرات الموت ، وينتقل من الدنيا إلى الآخرة ، فهل يمكن أن نشك بإيمانه بعد هذه التصرفات .

ومات ابن أبى ، لم يمت منبوذًا بعيدًا خارج المدينة ـ وهذا هو موقعه ـ لكنه مات وهو مكفن بالقميص الداخلى للرسول ﷺ ، ورسول الله فوق رأسه حضر غُسله ، وحضر تكفينه ، وآن الأوان للصلاة عليه .

القلب المؤمن الذى لم يزغ لهذه الادعاءات لابن أبى هو قلب عمر رضي الله عنه ، ورسول الله ﷺ يتقدم للصلاة على ابن أبى ، فمن يجرؤ فى الدنيا أن يعارض رسول الله ﷺ ؟ هل يعلم أكثر من علمه حتى يقف دون الصلاة عليه ؟ إنه عمر الذى ما رآه الشيطان سالكًا فجًا إلا هرب منه ، إنه عمر الذى تفر عنه شياطين الإنس والجن ، ولمن يدع لرهبة الموت سلطانًا عليه ، فابن أبى فى ذهنه أكبر شياطين الإنس ، ولم تهتز منه شعرة واحدة وهو يراه يكفن فى قميص النبى ﷺ ، إنه هو الشيطان بعينه يراه كاذبًا دجالاً منافقًا حتى وهو يعانى سكرات الموت .

(فلما قام وثب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال :

يا رسول الله ، أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا كذا ويوم كذا كذا ؟ فعدَّ عليه قوله . فتبسم النبى ﷺ ، وقال : « أخِّر عنى يا عمر » .

ولكن عمر لم يؤخر ، وبجرأة عجيبة لا يمكن أن يفعلها إلا عمر رضي الله عنه يعود فيذكر نبيه بابن أبى بأفعاله ومواقفه وتخطيطه وكيده الذى ذكره القرآن فيه والذى لم يذكره .

(فلما أكثر عليه عمر قال : « إنى قد خيرت فاخترت ، ولو أنى أعلم إن زدت عن السبعين غُفِر له زدت عليها » وهو قوله عز وجل : ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ [التوبة : ٨٠] .

ورسول الله ﷺ يعلم أن قميصه لن ينجى ابن أبى من عذاب الله ، لكن له هدفًا من ذلك ، هذا الهدف هو أن ابن أبى ذات يوم أعار قميصه لعم محمد العباس بن عبد المطلب ، ولا يريد الله تعالى أن يكون لأحد من خلقه منٌّ على رسوله ، وذلك عندما كان العباس أسيرًا فى بدر فعن جابر بن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أتى بأسارى ، وأُتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب ، فنظر النبى ﷺ له قميصًا فوجدوا قميص عبد الله ابن أبى يقدر عليه ، فكساه النبى ﷺ إياه ، فلذلك نزع النبى ﷺ قميصه الذى ألبسه . قال ابن عيينة : كانت له عند النبى يد فأحب أن يكافئه) [1] .

فكانت الفرصة ليكافئ ابن أبى على معروفه هذا، فكان أن أعطاه قميصه يتكفن فيه، ورسول الله ﷺ يعلم مواقف ابن أبى كلها، ويعلم كذبه ودجله وهو على فراش الموت، ويعلم أن طلبه الاستغفار والصلاة عليه جزء من اللعبة ، ولكن رسول الله ﷺ لا يود أن يبقى منفذًا لأعداء الإسلام أن فى داخل صفه جزء يمكن التسلل إليه والتعاون معه ، وتسخيره لخدمة مآرب العدو ، ويعرف أعداء هذا الدين أن أبى أمضى عمره فى الكيد للإسلام ، وحين يرى الجواسيس كيف طلب ابن أبى قميص رسول الله ﷺ ، ويرون أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى عليه ، تنقطع آمالهم فى أحد من هذا الصف أن يكون عينًا لهم أو موطئ قدم فى مدينة النبوة ، وأدرك عمر رضي الله عنه هذا المغزى السياسى الذى استعمله عليه الصلاة والسلام فى جميع مواقف ابن أبى المخزية .

« فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه ؟ » .

« إنى أكره أن يقول الناس : إن محمدًا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه » .

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٤/ ٧٣ باب الكسوة للأسارى .

وهذا ما يفسر عملية الدفن بعد الصلاة عليه ، حيث حرص المنافقون أن يبرزوا أنفسهم أنهم تجمع مستقل ، وأن عبد الله بن أبى زعيم له وزن وله أتباع ، وله جنود يفدونه بأرواحهم ، وقد مثل هذا الحرص موقفهم عند دفنه .

يقول عمرو بن أمية الضمرى ﷺ : (لقد جهدنا أن ندنو من سريره فما نقدر عليه، قد غلب عليه هؤلاء المنافقون، وكانوا قد أظهروا الإسلام، وهم على النفاق ، من بنى قينقاع وغيرهم سعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، وسلامة بن الحمام ، ونعمان ابن أبى عامر، ورافع بن حرملة، ومالك بن أبى نوفل، وداعس وسويد ، وكانوا أخابث المنافقين، وكانوا هم الذين يعرضونه) بينما كان ولده العظيم عبد الله بن عبد الله بن أبى يكره هؤلاء كراهة لا حد لها (فكان ابنه يغلق دونهم الباب ، وكان ابن أبى يقول : لا يلينى غيرهم ، ويقولون : ليت أنا نفديك بالأنفس والأموال والأولاد) فخطتهم تقوم على أساس إعلان الوجود الرسمى للنفاق ، ولكن رسول الله ﷺ فوَّت عليهم الفرصة، وأمر صحابته بالمساهمة فى الدفن إكرامًا لعبد الله بن عبد الله بن أبى ﷺ ، ولأخته المؤمنة الصادقة جميلة بنت عبد الله ، فتقدم عبادة بن الصامت لذلك (فلما وقفوا على حفرته ، ورسول الله ﷺ واقف يلحظهم ، ازدحموا على النزول فى حفرته ، وارتفعت الأصوات حتى أصيب أنف داعس ، وجعل عبادة بن الصامت يذبهم ، ويقول : اخفضوا أصواتكم عند رسول الله ، حتى أصيب أنف داعس فسال الدم ـ وكان يريد أن ينزل فى حفرته) ومن لهؤلاء غير عبادة بن الصامت الذى أرعب منظره ملك الفرس ، وهو إذا عُدَّ عُدَّ بألف من الرجال (فنحى ـ أى داعس ـ ونزل رجال من قومه أهل فضل وإسلام وكان لما رأوا من رسول الله ﷺ من الصلاة عليه وحضوره والقيام عليه ، فنزل فى حفرته ابنه عبد الله ، وسعد بن عبادة بن الصامت ، وأوس بن خولى حتى سُوِّى عليه ، وإن علِية أصحاب النبى ﷺ والأكابر من الأوس والخزرج يدلونه فى اللحد ، وهم قيام مع النبى ﷺ . . . ثم قام على القبر حتى دفن ، وعزَّى ابنه وانصرف .

وكيف يكون مصاب عبد الله بن عبد الله لو أن الذين شاركوا فى التكفين والدفن المنافقون فقط ؛ كم يعانى من القهر والإهانة والخيبة فى مصابه هذا ، فهو أبوه ، ولا يشاركه بمصابه رسول الله ﷺ ولا المؤمنون الصادقون ، فهى عظمة التربية النبوية التى تكرم المؤمن العظيم والمؤمنة العظيمة ، هذا المؤمن الذى استعد لقتل أبيه لو أمره رسول الله ﷺ بذلك ، إنه التكريم الحقيقى والتعزية لأعضاء الحزب المؤمن من أهله عبد الله وجميلة ، وأن تكون التعزية من رسول الله ﷺ والأكابر من الأوس والخزرج لهى بناء عظيم خالد فى نفوس ابنى ابن أبى ، والتحام لهما بهذا الدين ، وهذا القائد وهذه الرسالة ، وهم يعلمون من أباهم ، ويعلمون تاريخه الأسود الملطخ بالوحل والذى

فضحه القرآن فى أكثر من موقع ، وكانوا يتمنون لو أن توبته صحت ، أو لعلهم كانوا يعتقدون ذلك بعد صلاة النبى ﷺ عليه واستغفاره ، ولكن ما إن انتهت المصيبة وانتهت التعزية ، وأقرت عين عبد الله بهذه المشاركة (فلم يكن إلا يسيراً حتى نزلت هذه الآيات من سورة براءة : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) ﴾) [التوبة] .

وتشاء إرادة الله تعالى أن تنزل الآية بعد التكفين والصلاة والدفن . ليتم ذلك الجانب المعنوى فى جبر خاطر المؤمنَيْن العظيمَيْن ، ثم يفضح بعدها ابن أبى بأنه وهو يطلب قميص النبى ﷺ ليكفن فيه كان ينافق ، وحين يطلب الاستغفار من رسول الله ﷺ كان ينافق ؛ لأن القرآن أكد أنه بقى على كفره ومات عليه ، وعرف المسلمون صدق حس عمر ، والإلهام الربانى الذى أعطاه الله تعالى له ، ولم يصل رسول الله ﷺ بعده على منافق .

وتطالعنا رواية البخارى وهى لا شك أصح من رواية الواقدى والتى تبرز أن كل التصرف النبوى إنما هو إكرام لعبد الله بن عبد الله بن أبى .

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : (لما توفى عبد الله جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يُعطيه قميصه يكفّن به أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما خيرنى الله فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] . وسأزيده على السبعين » قال : إنه منافق ! قال ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [1] [التوبة : ٨٤] .

(وإضاءة هذه الرواية أن عبد الله بن عبد الله هو الذى طلب القميص النبوى ، وعند البيهقى عن ابن عباس أن عبد الله بن عبد الله بن أبى قال له أبوه : أى بنى اطلب ثوبًا من ثياب النبى ﷺ تكفنى فيه ومره فليصل على ، قال فأتاه فقال : يا رسول الله ، قد عرفت شرف عبد الله وهو يطلب إليك ثوبًا من ثيابك تكفنه فيه وتصلى عليه) [2] .

ورواية البخارى الثانية فى صحيحه بعد الرواية الأولى بلسان عمر رضي الله عنه قال :

(لما مات عبد الله بن أبى بن سلول دُعِى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام

---

(١) البخارى ٢/ ٤/ ٨٥ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٨٨ .

رسول الله ﷺ وثبت إليه ، فقلت : يا رسول الله أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا كذا وكذا ؟ قال : أُعددُ عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « أخّر عنى يا عمر » فلما أكثرت عليه قال : « إنى خيِّرت فاخترت ، لو أعلم أنى إن زدت عن السبعين يغفر له لزدت عليها » قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة] .

فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم) (١) .

وإن المرء المسلم اليوم ليعجب من هذا القلب العظيم قلب النبى ﷺ مع أعدى عدوه الذى نصب له المكائد والحرب طيلة حياته ، ولم يخلص لله ولا لرسوله ولا للإسلام لحظة واحدة ، ويقول الله تعالى له : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

ثم يختار بعد هذا الاستغفار لهم ولزعيمهم ابن أبى ، ويأتى عمر ﷺ ليهيج قلب رسول الله ﷺ فى ذكر فضائحه وجرائمه ومخازيه ، وبعد ذلك هو يقول : « وسأزيد على السبعين » طمعًا فى مغفرة الله تعالى لهذا العدو اللدود اللئيم الحاقد ، أو : « لو أنى أعلم إن زدت عن السبعين يغفر له لزدت عليه » أى قلب فى هذا الوجود يملك أعظم من هذه الرحمة ، وأعظم من هذا العفو ، وأعظم من هذا السمو ؟!

ولهذه العظمة ولهذا السمو ولهذه الرفعة التى وصفه الله تعالى بها : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] . نجد القرآن الكريم وفى ختام هذه السورة ، وفى ختام هذه الرحلة مع الثلاثين ألفًا ،وفى ختام هذه المرحلة التى قام فيها رسول الله ﷺ ببناء هذه القاعدة العريضة ، وتحويلها إلى قاعدة صلبة ، وفى صياغتها بالهدى الربانى ، يأتى الثناء العظيم من رب العزة على نبيه المصطفى ﷺ بقوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة] .

فهو يعيش بقلبه كله لأمته ، ويعيش قضية أمته ، وقضية حسن صياغتها ، وحسن بنائها ، ورفع مستواها الإيمانى ، لا يعيش لذاته ، ولا يعيش لشخصه ، فهو رسول رب العالمين لخلقه ، عزيز عليه أى معاناة لأى فرد من أمته التى بناها على عينه، حريص على هداهم وسعادتهم فى الدارين ، فمن لهذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام ، وأى رأفة ورحمة تعدل رحمة ورأفة هذا البانى العظيم عليه الصلاة والسلام ، لقد زكاه الله

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٤/ ٨٦ .

تعالى بما لم يزك به أحد من خلقه ، بأنه يعيش للمؤمنين ويحسن للمؤمنين ، ويمضى عمره للمؤمنين وهذا الشهران قد بارك الله تعالى فيهما ، وجعل له جيشًا قوامه ثلاثون ألفًا نال كل واحد منهم شيئًا من رحمته وفيضًا من رأفته وعنايته حتى استحق أن يكون من جيل القدوة .

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ .

[التوبة]

(ولم يقل : جاءكم رسول منكم ، ولكن قال : من أنفسكم، وهى أشد حساسية، وأعمق صلة ، وأدل على نوع الوشيجة التى تربطهم به ، فهو بضعة من أنفسهم تتصل بهم صلة النفس بالنفس ، وهى أعمق وأحسن ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ يشق عليه عنتكم ومشقتكم ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ لا يلقى بكم فى المهالك ، ولا يدفع بكم إلى المهاوى، فإذا هو كلفكم الجهاد وركوب الصعاب ، فما ذلك من هوان بكم عليه، ولا بقسوة فى قلبه وغلظة، إنما هى الرحمة فى صورة من صورها، الرحمة بكم من الذل والهوان، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة ، والحرص لكم على أن يكون لكم شرف حمل الدعوة ، وخط رضوان الله ، والجنة التى وعد المتقون .

ثم ينتقل الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، يعرفه طريقه حين يتولى عنه من يتولى ، ويصله بالقوة التى تحميه وتكفيه ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ فإليه تنتهى القوة والملك والعظمة والجاه ، وهو حسب من لاذ به ومن والاه .

إنه ختام سورة القتال والجهاد ، الارتكان إلى الله وحده ، والاعتماد على الله وحده ، واستمداد القوة من الله وحده ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾) (١) .

وبعد :

فهذه المدينة كما وصفها رسول الله ﷺ وهى تعج بالمؤمنين المخلصين الذين فازوا بشهادات التزكية من الله تعالى ومن رسول الله ﷺ ، بعد أن حضروا الدورة معه ، وبإشرافه المباشر ﷺ ، وهى تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد ، فقد انسلخ وانفصل بضعة عشر منافقًا هم حصيلة جهاد عشرة أعوام من زعيم حزب النفاق الذى

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١١/ ١٧٤٣ .

لقى مصرعه ، وهو يرجو رسول الله ﷺ أن يكفنه بقميصه ويصلى عليه ، وتاب الله على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة بعد أن لحق بهم الثلاثة الذين خلفوا وانضموا معهم ، وتكون مجتمع الصحابة الأوسع والأرحب من مجتمع المهاجرين والأنصار والذى شكل ثلاثة أضعافه ، وأصبح كله بالتربية النبوية مؤهلاً ليتبوأ مواقع القيادة والقدوة ، وجاء كلام رب العزة جل جلاله ليقرر هذه الحقيقة الخالدة لهذا الجيل العظيم الذى أثنى عليه ابتداء ، وختم السورة بالثناء على قائده عليه الصلاة والسلام ، وأبرز دور هذا القائد العظيم فى بناء هذا الجيل وصياغته ، وحرص على السمو والارتفاع به ، وألمه من أى عنت يلم به أو بأى فرد من أفراده ، وهو الرؤوف الرحيم بحزبه وجنده ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة] .

ويدأت المدينة تستعد لاستقبال الأفواج الجديدة من المؤمنين، فيما يسمى بعام الوفود، وبانتهاء تبوك وشعور العرب بالقوة النبوية التى سيطرت على الساحة كلها ، بدأت أفواج القيادات العربية تفد إلى المدينة تعلن ولاءها ودخولها للإسلام ، وأصبح العرب جميعًا هم القاعدة العريضة لهذا الدين ، وهى التى ستكون موضوع حديثنا فى الأجزاء القادمة إن شاء الله .

لقد اتسعت القاعدة العريضة حتى صارت أفواجًا بل أمواجًا من كل حدب وصوب من الجزيرة العربية من أقصى الشمال وأقصى الجنوب ، وأقصى الشرق وأقصى الغرب ، وراح هؤلاء الثلاثون ألفًا يقيمون المدارس والجامعات التربوية فى كل ساحات الجزيرة العربية يعلمون الناس الدين ، ويفقهونهم الشريعة الخالدة ويكونون هم عناصر البناء الجديد ، والإشراق الجديد للنور فى أرض العرب وأرض الإسلام .

الفصل الأخير

معالم المنهج التربوى النبوى فى تربية القاعدة العريضة

١ ـ الاستفادة من الطاقات الكامنة والشابة :

وذلك فى مجتمع يعج بالزعامات الكبرى التى تأصلت فيها الجاهلية وترسخت ، فقد اختار رسول الله ﷺ لإمرة مكة التى حوت الملأ من قريش ، والتى كان فيها ما لا يقل عن مائة زعيم وقائد ، اختار رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد ابن العشرين ربيعًا ؛ لأنه قد تفاعل مع الإسلام بعيدًا عن إرث العصبية والجاهلية وعقد الزعامة، وهو فى الوقت نفسه من بنى أمية حكام مكة وقادتها فى تلك المرحلة ، كما استعمل معاذ بن جبل ذا الطاقات الموهوبة فى فقه هذا الدين والذى هو فى العشرينات من عمره ليكون فقيه المسلمين هناك، لتتمثل فيهما القدوة العملية كذلك فى الزهد والبعد عن المطامع واستغلال المواقع وإقامة العدل وتحكيم شريعة الله فى الأرض ، فلن يحكم بشريعة الله من يحمل أمراض وموروثات الجاهلية ، ولن تتمثل فى شخصه أحكام الإسلام وفقهه ، وبذلك تتمثل تربية الجيل للقدوة فى الأجيال الجديدة التى تدخل فى الإسلام .

٢ ـ كسر الحواجز النفسية بين الإسلام وبين الناس :

فليس من الضرورى الإيحاء للناس وذوى النفوذ منهم أثناء التربية العامة أنهم معرضون للخطر ، وأنهم موضع اتهام ، بل إعطاء الثقة لهم ولو على عطائهم القليل ، وأنهم سيجدون فى الإسلام ما يحقق مصالحهم ويلبى حاجاتهم هو خط أصول من خطوط التربية العامة وتربية القاعدة العريضة .

فعلى سبيل المثال : كان صفوان بن أمية ﷺ يرى أن خطر الموت يحيق به من خلال مصالحته مع رسول الله ﷺ ، وإذا برسول الله يعطيه الأمان ، ويترك له الخيار فى اختيار الإسلام أو غيره ، ثم يتقدم منه رسول الله ﷺ خطوة أخرى فيستعير أدراعه، ويستقرض منه المال ، ويدخله فى المجتمع الإسلامى وهمومه وهو لم يؤمن بعد ، وذاك مالك بن عوف قائد هوازن الذى فر مستخفيًا بثقيف يعرض عليه رسول الله ﷺ أن يعيد له أهله وماله ومائة من الإبل لو أسلم ، ثم يسخر طاقاته بعد إسلامه فى مواجهة ثقيف وتشكيل حرب عصابات ضدها ، وذلك ابن الجلندى حاكم عمان يعرض عليه عمرو بن العاص رسالة رسول الله ﷺ : إن أسلم ملّكه رسول الله ﷺ على قومه ، وذاك خالد

ابن الوليد ﷺ وقد أسر أكيدر بن عبد الملك يأتى به إلى المدينة فـ (صالحه رسول الله ﷺ على الجزية وحقن دمه ودم أخيه ، وخلّى سبيلهما وكتب كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم عليه) .

لكن هذا لا يكون على حساب العقيدة ، فليس كل زعيم أهل لأن يقود قومه فيطغى كما كان يطغى من قبل ، وهذا ما شاهدناه فى الفرق بين الصورتين ، حيث أعطيت قيادة مكة لعتاب بن أسيد ولم تعط لأبى سفيان وأمثاله مع إسلامهم ﷺ .

٣ ـ رفع المعنويات والثقة بالنصر :

وإذا كان الجيل القائد الأول يتربى على الشهادة والتضحية ، فإن الجيل الرديف ومن خلال التربية العامة يمكن أن يعطى الأمل بالثقة والنصر على العدو فى ساعات المواجهة ، فعندما وصف الرسول الإسلامى قوات هوازن التى قد يؤدى الحديث عن ضخامتها إحباطًا فى النفوس ، كان جواب رسول الله ﷺ : « تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله » ، وها هو عليه الصلاة والسلام يخاطب الجد بن قيس يدعوه للخروج إلى تبوك بقوله : « أبا وهب ، هل لك العام تخرج معنا لعلك تحتقب بنات بنى الأصفر » وها هم المسلمون فى تبوك لا يجدون ما يأكلون ، ماضون فى هذا الهجير والعطش يقطع رقابهم، يقول لهم : « ألا أبشركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ـ وهم يسيرون على رواحلهم ـ فقال : « إن الله أعطانى الكنزين فارس والروم ، وأمدنى بالملوك ملوك حمير ، يجاهدون فى سبيل الله ، ويأكلون فىء الله » .

٤ ـ التربية بالقدوة من خلال النوعيات الفدائية العليا :

لابد أن تظهر أمام القواعد العامة للأمة نماذج محتذاة وبطولات يقتدى بها الجيل الجديد ، ففى حنين قال رسول الله ﷺ : « ألا فارس يحرسنا الليلة ؟ » إذ أقبل أنيس ابن أبى مرثد على فرسه ، فقال : أنا ذا يا رسول الله ، قال : « انطلق حتى تقف على جبل كذا وكذا فلا تنزلن إلا مصليًا أو قاضى حاجة ، ولا تفرَّن من خلفك » وبتنا حتى أضاء الفجر ، وحضرنا الصلاة ، فخرج علينا رسول الله ﷺ قال : « أحسستم فارسكم الليلة ؟ » قلنا : لا والله ، فأقيمت الصلاة ، فصلى بنا ، فلما سلَّم رأيته ينظر من خلال الشجر ، فقال : « أبشروا ، قد جاء فارسكم » . وجاء فقال : يا رسول الله ، إنى وقفت على الجبل كما أمرتنى ، فلم أنزل عن فرسى إلا مصليًا أو قاضى حاجة ، حتى أصبحت فلم أحس أحدًا . قال : « انطلق فانزل عن فرسك ، وأقبل علينا » ، فقال : « ما على هذا ألا يعمل بعد هذا عملاً » والحديث الآخر : « من قتل قتيلاً فله سَلَبُه » فيتسابق الأبطال على قتل الأبطال ليكونوا فى الوقت نفسه قدوة للآخرين ،

وليست دعوة الأنصار ثم الخزرج بعد الهزيمة إلا من هذا المنحى ، فقدومهم والتحاقهم برسول الله ﷺ هو الذى دفع من خلفهم ليقتدوا بهم (فكان سعد بن عبادة يصيح يومئذ يا للخزرج ، يا للخزرج ، وأسيد بن حضير : يا للأوس ثلاثًا ، فثابوا والله من كل ناحية كأنهم النحل تأوى إلى يعسوبها) وما سرية خالد رضي الله عنه فى تبوك إلى دومة الجندل مع أربعمائة فدائى مغوار إلا من هذا الطراز كذلك .

٥ ـ أهل القائد والمقربون منه أسرع الناس إلى الفداء :

فلقد كانت الجولة الأولى فى حنين لأهل رسول الله ﷺ وعشيرته الذين دخلوا فى هذا الدين مع حداثة دخول بعضهم عند فتح مكة، وهم الذين تحدث العباس عنهم رضي الله عنه بشعره قائلاً :

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة ... وقد فر من فر عنه وأقشعوا

وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه ... لما مسَّه فى الله لا يتوجع

وكم يفخر القائد ويعتز حين يجد أهله وعشيرته المقربين يعانقون الموت دونه ، وليس ما يؤجج الحماس للذود عن القائد مثل أن يرى الجنود تضحيات أهله الأدنين عمًا وابنًا وخالاً وولدًا .

واتسعت ساحة الأهل عند رسول الله ﷺ لتضم الخميرة الأولى كلها من السابقين الأولين ، فقال لأبى رهم الغفارى فى تبوك :

« إن كان لمن أعزّ أهلى علىَّ أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش ، والأنصار ، وغفار وأسلم » .

٦ ـ إعطاء الدرس العملى بأن النصر من عند الله :

فمهما كانت المفاهيم النظرية والتربية عليها بأن النصر من عند الله ، فلن تتضح وتتجلى إلا من خلال الممارسة العملية ، ويكفى لتجلية هذا المعنى قول الله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة] .

فلم تجد ألف مزينة ، ولا الفوارس الألف لسليم ، ولا الأعداد الضخمة من شىء فى تحقيق النصر .

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة] .

لقد آمن الكفار قبل المسلمين عمليًا بأن النصر من عند الله ، من خلال ما واجهوا من الرعب ، وما واجهوا من أثر الرمية الحصباوية فى أعينهم ، وما شاهدوا من الرجال البيض على الخيل البلق الذين يصدونهم .

نحن اليوم نقرأ الآيات بعد خمسة عشر قرنًا من الزمان ، ونحاول بالكلام البليغ تصوير ذلك النصر وتلك الهزيمة فيزداد إيماننا بالحديث الحى المستفيض عنها ، فكيف بالذين عاشوها هربًا واستجابة ورعبًا ورؤية ، وحين نود اليوم أن نحيى هذا المعنى فى نفوس الناس وعامتهم إنما نحييه من خلال الانتصارات العملية اليوم للمستضعفين فى الأرض على أعتى دول الأرض، وما انتصارات الأفغان والشيشان على الروس منا ببعيد، ولا بث الرعب فى صف اليهود من الفدائيين الإسلاميين فى الأرض المحتلة منا ببعيد ، ومعركة واحدة يخوضها المسلم اليوم ويشهد بها نصر الله رغم قلة السلاح والزاد عنده وأجرم وأفر السلاح عند عدوه ، إن معركة واحدة يخوضها المسلم أغنى من قراءة آلاف الكتب والقصائد والمحاضرات عن هذا المعنى ، وكما علق أحد المجاهدين الأفغان وهو يسمع المحاضر يشرح غزوة بدر فقال : إننا فى كل يوم ، وفى كل معركة عندنا بدر جديدة .

٧ ـ التربية بالمعجزة على المستوى الفردى :

فهذا شيبة بن طلحة الذى لم يعد بينه وبين رسول الله ﷺ إلا أن يحتوشه بالسيف من خلفه .

(فلم يبق إلا أن أسوِّره بالسيف إذ رفع ما بينى وبينه شواظ من نار كأنه برق ، وخفت أن يمحشنى، ووضعت يدى على بصرى، ومشيت القهقرى ، والتفت إلى فقال: « يا شيب أدن منى » فوضع يده على صدرى وقال : « اللهم أذهب عنه الشيطان » . قال: فرفعت إليه رأسى، وهو أحب إلى من سمعى وبصرى وقلبى ثم قال : « يا شيب، قاتل الكفار » فتقدمت بين يديه أحب والله أقيه بنفسى وبكل شىء ، فلما انهزمت رجع إلى منزله ودخلت عليه فقال : « الحمد لله الذى أراد بك خيراً مما أردت » ثم حدثنى بما هممت به) . وذاك أخو سعد هذيم يتحدث فى تبوك عن طعام رسول الله ﷺ : (ثم جئته من الغد متحينًا لفدائه لأزداد فى الإسلام يقينًا ، فإذا عشرة نفر حوله قال : فقال : « هات أطعمنا يا بلال » . قال : فجعل يخرج من جراب تمر بكفه قبضة قبضة . فقال : « أخرج ولا تخف من ذى العرش إقتاراً » فجاء بالجراب فنثره ، فحزرته مدين ، قال : فوضع رسول الله ﷺ يده على التمر ثم قال : « كلوا باسم الله » فأكل القوم وأكلت معهم ، وكنت صاحب تمر ، فأكلت حتى ما أجد له مسلكًا ، وبقى على النطع مثل الذى

جاء به بلال ، كأنا لم نأكل منه تمرة واحدة ، ثم عدت من الغد وعاد نفر حتى باتوا فكانوا عشرة أو يزيدون. فقال : « كلوا باسم الله » ، فأكلنا حتى نهلنا ، ثم رفع مثل الذى صب ، ففعل ذلك ثلاثة أيام) .

هذه التربية التى تدخل الإيمان فى النفس أو تزيده أضعافًا مضاعفة ، قد لا نملكها فى وقتنا الحاضر ونحن نربى كل فرد على حدة ، لكن الذى نملكه هو حسن التعامل مع الفرد ، وحسن الاهتمام به . والعفو عن زلاته والإحسان إليه ، بحيث يفقه هذا الدين من هذه المعاملة فيؤمن أو يزداد إيمانًا كذلك .

٨ ـ التربية بالمعجزة على المستوى الجماعى :

وذلك حين يشهد الجيش كله معجزة نبوية ، كما هو الحال فى تنزل الملائكة ورمى التراب يوم حنين ، وما تم من إطعام الجيش كله وإسقائه فى تبوك ، والجماعة المسلمة لا تملك المعجزات اليوم ، ولكنها تملك حين تستقيم على منهج الله الكرامات التى يسوقها الله تعالى لأوليائه فى كل عصر ، فما يصرف الله تعالى من كيد العدو ، وما يبعث من بركات السماء والأرض ، وما يهيئ من قوة للجماعة من حيث لا تحتسب كلها وسائل تغذى النفوس العامة وتربيها ، وتربطها مع العاملين لله فى الأرض .

والنماذج الثلاثة شهدها الذين أقاموا شريعة الله فى السودان ، بحيث لم يكونوا يملكون الوسائل البشرية فى مثل هذا التغيير، من حيث خصب الأرض ومضاعفة الإنتاج، ومن حيث مهادنة كل العدو لهم فى مرحلة التأسيس والبناء ، ومن حيث تهيئة السلاح للجيش المسلم فى عرض البحر وفى السفن التى تحمله ، وحين تصدق الجماعة المسلمة مرة مع الله تعالى تلقى التوفيق والرعاية والنصر مرات ومرات ، كما وعد الله تعالى عباده المؤمنين .

« فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

٩ ـ دور المرأة فى المعركة :

وعلى الدعاة إلى الله أن يتعاملوا مع المرأة المسلمة بحيث تؤدى دورها الحقيقى فى الساحة الإسلامية ، من حيث شحذ طاقاتها ، وتهيينها للدعوة والذود عن الدين ، والجهاد فى سبيله وفقه هذا الدين ، والصبر على تكاليفه ، والتضحية من أجله، وإهمال المرأة المسلمة هو خط جاهلى منحرف يعود بجذوره إلى الفكر الجاهلى الذى حدثنا عنه عمر ﷺ : وكنا لا نعد النساء شيئًا، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، فهؤلاء الرائدات اللاتى دخلن الحرب بجوار رسول الله ﷺ فى حنين مع أنهن قد يتعرضن للسبى لو وقعت

الهزيمة ، وهنَّ من كرائم النساء العريقات نسبًا وخلقًا .

قالت أم عمارة : (لما كان يومئذ والناس منهزمون فى كل وجه ، وأنا وأربع نسوة فى يدى سيف لى صارم ، وأم سليم معها خنجر قد حزمته على وسطها ، وهى يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة، وأم سليط وأم الحارث ، فجعلت تسله وتصيح بالأنصار: أية عادة هذه ، مالكم وللفرار ، قالت : وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء ، يوضع جمله فى أثر المسلمين ، فأعترض له ، وأضرب عرقوب جمله فوقع على عجزه ، فأشد عليه ، فلم أزل أضربه حتى أثبته ، وأخذت سيفًا له وتركت الجمل يخرخر) .

وحين يعود المؤمنون إلى بيوتهم فينقلبون بالحديث عما رأوا من معجزات وما فقهوا وما تعلموا، وتلك أم سلمة ﵂ تستأذن رسول الله ﷺ فى تبشير الناس بتوبة كعب بن مالك ، بينما تقاطع النسوة الثلاثة أزواجهن بأمر رسول الله ﷺ لتخلفهم عن الجهاد ، ويتسابقن فى البذل يوم جيش العسرة (حتى إن كنَّ النساء ليُعنَّ بكل ما قدرن عليه، قالت أم سنان الأسلمية: لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدى رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ﵂ فيه مسك ومعاضد وخلال وأقرطة وخواتيم وخدمات ، مما بعث النساء يُعنَّ به المسلمين فى جهازهم) .

١٠ ـ معرفة العدو :

وهذه من أكبر الثغرات التى يؤتى منها العاملون للإسلام اليوم ، فهم يجهلون عدوهم، وقوته ، وتخطيطه ، وينطلقون فى جهادهم من خلال آيات التوكل العامة ، وهذا ليس هو المنهج الإسلامى الصحيح ، لقد خاض رسول الله ﷺ غزوة حنين ، وهو يعرف كل شيء عن العدو ، فقد انتهى الجاسوس الإسلامى إلى موقع القيادة واطلع على خططها (ودعا رسول الله ﷺ ابن أبى حدرد الأسلمى ، فقال : « انطلق فادخل فى الناس حتى تأتى بخبر منهم ، وما يقول مالك » . فخرج عبد الله فطاف فى عسكرهم ثم انتهى إلى ابن عوف فيجد عنده رؤساء هوازن ، فسمعه يقول لأصحابه : إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قومًا أغماراً لا علم لهم بالحرب فينصر عليهم ، فإذا كان فى السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من وراءكم، ثم صفوا صفوفكم، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسور الجفن ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغَلَبَة لمن حمل أولاً) .

وعندما يبعث بخالد بن الوليد ﵁ إلى أكيدر بن عبد الملك (فقال خالد: يا رسول الله ، كيف لى به وسط بلاد كلب ، وإنما أنا فى أناس يسير ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ستجده يصيد البقر فتأخذه ») .

بل كان عليه الصلاة والسلام يعرف موقع قيادة العدو فى جيشها وأمتها ، فعندما قُتِل اللجلاج فى غزوة حنين قال : « قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هنيدة » ، فهو عليه الصلاة والسلام يدرى تسلسل القيادات الكبرى والفرعية فى الشرف والعز، بل يعرف كذلك حتى عواطف هذه القيادات فحين قيل له قتل عثمان بن عبد الله، وهو القائد الثالث فى ثقيف ، قال : « أبعده الله فإنه كان يبغض قريشًا » .

وعلى العاملين للإسلام أن يعوا هذا المَعْلم وعيًا جيدًا ، ورغم أن رسول الله ﷺ إمام المتوكلين فى الأرض ، فما كان ليخوض معركة أو يقاتل عدوًا إلا والمعلومات عنده كاملة عنه ، كما شهدنا من قبل حتى فى اتجاه عواطف هذه القيادات .

١١ ـ آداب الحرب :

وللحرب فى الإسلام آداب وجَّه رسول الله ﷺ إلى قسم منها . بقوله : « اغزوا باسم الله قاتلوا من كفر بالله، وستجدون رجالاً فى الصوامع معتزلين الناس فلا تعرضوا لهم ، لا تقتلنَّ امرأة ولا صغيراً ضَرَعًا ولا كبيراً فانيًا ، ولا تقربُنَّ نخلاً ، لا تغدروا ولا تغلوا ، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن ما أجابوكم إليها فاقبلوا منهم وكفوا عنهم الأذى » .

هذا فى المجال النظرى ، وفى التطبيق العملى : (رأى رسول الله ﷺ امرأة مقتولة فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد : فأمر رسول الله ﷺ رجلاً يدرك خالدًا فقال : إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل امرأة أو عسيفًا ـ عبدًا) وعندما وجد امرأة مقتولة أخرى وعرف أنها مقاتلة ، وحاولت اغتيال قاتلها (فأمر رسول الله ﷺ فدفنت) ونهى عن قتل الأسارى ، وقتل الرسل ، (وأسرع المسلمون فى قتل الذرية ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ألا لا تقتل الذرية » (ثلاثًا) . قال أسيد ابن حضير: يا رسول الله، أليس إنما هم أولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ: « أليس خياركم أولاد المشركين ، كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها » ورسول الله ﷺ لا يقتل بالإشارة « ما كان لنبى أن يومئ » وذلك حين توقف عليه الصلاة والسلام عن قبول توبة عدو لدود ليقوم من نذر قتله بقتله ، ولما تأخر قبل توبته، فهى حرب عقيدة وليست حرب إفناء، وقتل للآمنين وسفك لدمائهم، إنما يقاتل المقاتلون ، ونهى عن المثلة فى الحرب وعن تعذيب وتجويع الأسرى ، وطلب الإحسان حتى فى القتل .

١٢ ـ التربية على فطم الشهوات :

فجيش العقيدة ليس همه قتل الرجال وسبى النساء وحوزة الغنائم كما كان الحال عند

العرب فى القرون الخالية كلها ، فدينهم أن يقتل بعضهم بعضًا ، أما الجيش الإسلامى فلابد أن يتربى على الآداب السابقة كلها .

ولا يقتل من يقول لا إله إلا الله أيًا كانت دوافعه لذلك ، والجيش الإسلامى يجب أن يكون أكبر من شهوات بطنه ولباسه فالغنائم لا يؤخذ منها حبة قبل توزيعها من قيادة الجيش الإسلامى ، وحتى يعلم رسول الله ﷺ هذه الآلاف على هذا الأدب (وجعلت الأعراب فى طريقه يسألونه ، وكثَّروا عليه حتى اضطروه إلى سمْرَة فخطفت رداءه ، فنزعته عن مثل شقة القمر ، فوقف رسول الله ﷺ وهو يقول : « أعطونى ردائى ، لو كان عدد هذه العضاة (الشجر) نَعَمًا لقسمته عليكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذابًا » ثم لما كان عند القَسْم قال : « أدوا الخياط والمخيط ، وإياكم والغلول فإنه عار ونار وشنار يوم القيامة » ثم أخذ وبرة من جنب بعير ، فقال: « والله لا يحل لى مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » . فجاءه رجل من الأنصار بكُبَّةٍ من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ، أخذت هذه الكُبة أعمل بها برذعة بعير لى دَبِرَ . فقال : « أما نصيبى منها فهو لك » وإذن عليه أن يستأذن اثنى عشر ألف مقاتل ليتنازلوا عن حقوقهم فيها ، وكما رباهم على الصبر على توزيع الغنيمة ، وإن أخذ أصغر جزء منها قبل توزيعها هو غلول ، وعار ونار يوم القيامة ، عاد فرباهم على الإيثار يوم انتزع منهم السبايا ، وهذه أشد على النفس أن تؤخذ منها بعد امتلاكها .

وفى تبوك ها هو عليه الصلاة والسلام يفطم نفسه حتى عن الطعام والشراب ففى الحجر ، وبعد أن عجنوا العجين ولم يبق إلا الخبز حتى يتناولوه شهيًا طريًا ، والشرب لمن لم يشرب ، وقطرة ماء تحييه فى هذه الصحراء ، كما يذكر أبو هريرة رضي الله عنه (لما مررنا بالحجر استقى الناس من بئرها وعجنوا، فنادى منادى النبى ﷺ : « لا تشربوا من مائها، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وما كان منه من عجين فأعلفوه الإبل » قال سهل بن سعد : كنت أصغر أصحابى وكنت مقريهم[1] فى تبوك، فلما نزلنا عجنت لهم ثم تحينت العجين، وقد ذهبت أطلب حطبًا ، فإذا منادى النبى ﷺ ينادى : إن رسول الله ﷺ يأمركم ألا تشربوا من ماء بئرهم ، فجعل الناس يهرقون ما فى أسقيتها ، قالوا : يا رسول الله ، قد عجنا ، قال: « اعلفوه الإبل » قال سهل : فأخذت ما عجنت ، فعلفت نضوين [2] ، فهما كانا أضعف ركابنا) . فكيف بهذه النفوس التى كانت تنتظر اللحظة لنضج الخبز ، وقد اطمأنت للماء فى الأسقية ، تصدر الأوامر بإعلاف الخبز للإبل وإهراق الأسقية ، كم هى معاناة هذا الجيل وسبر صبره على الجوع والعطش ، وسبر استعداده للطاعة فى المشقة والكره ؟!

(١) مقريهم : مضيفهم .

(٢) نضوين : بعيرين ضعيفين .

١٣ ـ تأليف قلوب القيادات الجاهلية :

هذه القيادات التى لا تزال تعيش فى كيانها أن القيادة سُلطة ومال ومجد ، وها هى انضمت إلى المعركة، وقاتلت مع رسول الله ﷺ، وستعود إلى عشائرها لتقصد من أفراد هذه القبائل ، ويتحدثون عن كرمها وجودها، فهل تعود خالية الوفاض، وتنقضى أقدارها بالإسلام ، ويضعف كيانها بهذا الدين ؟ لقد أدرك القائد العظيم هذه المعانى فألف هذه القلوب الخائفة الراهبة بالرغبة والمال ، ووزع على أكثر من مائة شخصية النعم والشاء. ابتداء من أصحاب المائة إلى الخمسين إلى العشر من الإبل ، وانفتحت هذه القلوب للرسول ﷺ وللإسلام بالمال ، حيث يمثل هذا الواقع هذه الصورة (ويقال : إنه ـ أى صفوان بن أمية ـ طاف مع النبى ﷺ يتصفح الغنائم ، إذ مر بشعبٍ مما أفاء الله عليه فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء ، فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : «أعجبك يا أبا وهب هذا الشعب ؟ » قال : نعم . قال : « هو لك وما فيه » فقال صفوان : أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبى ، وأشهد أنك رسول الله) . وضمان هذه القيادات هو ضمان لعشائرها جميعًا أن تأوى إلى الإسلام .

١٤ ـ عالم القيم :

وكان لمثل هذه العطايا أن كوَّنت نوعًا من القلق فى صفوف القواعد الإسلامية أمام هذا العطاء للقيادات التى كانت قبل أيام وشهور قد أمضت حياتها فى حرب الإسلام،بينما هناك الفقراء المدقعون المؤمنون لا ينالون بعيرًا واحدًا علاوة على حقهم الذى أخذوه من الغنيمة، فهل هذا يجعلهم أدنى رتبة من أولئك الزعماء ؟ يجيبنا سعد بن أبى وقاص ﷺ عنه عن هذا السؤال :

قال سعد : (يا رسول الله ، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ، فقال رسول الله ﷺ : « أما والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع ، ولكنى تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه » .

فماذا يريد جعيل من الدنيا بعد أن قال عنه قائده وحبيبه المصطفى ﷺ أنه خير من طلاع الأرض كلها مثل زعيمى غطفان وتميم ؟! وتلك صورة أخرى عن صحابى آخر من الرعيل الأول :

(حدثنى عمرو بن تغلب قال : أعطى رسول الله ﷺ قومًا ومنع آخرين ، فكأنهم عتبوا عليه فقال: « إنى أعطى قومًا أخاف ظلعهم وجزعهم، وأكل أقوامًا إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغناء ، منهم عمرو بن تغلب » ، فقال عمرو بن تغلب : ما أحب

أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم) .

إن هذه الكلمة ومفعولها السحرى فى قلب عمرو أكبر عنده فيما لو قيل له : خذ هذه غنائم حنين كلها : أربعة وعشرين ألف بعير لا تعدل عنده هذه الكلمة ، وهذا هو الفرق الهائل بين الرعيل القيادى الأول ، وبين الجيل الذى يبدأ بوضع خطواته الأولى فى هذا الدين .

١٥ ـ جيل الفداء والعطاء يربى الأمة :

فهؤلاء السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار مثلوا القدوة العليا للكتائب الإسلامية ، مثلوها أولاً فى أنهم فى ساعة الفداء والموت وفى ساحة الموت كانوا هم الذين استجابوا لله ولرسوله ، لقد كان المطلوب من الجيل القيادى جيل بدر والحديبية أن يكون هو القدوة فى الفداء والتضحية ، ومن أجل هذا توجه النداء لهم عامة (يا معشر الأنصار ، يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة ، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها يقولون : يا لبيك ، يا لبيك ، فيذهب الرجل منهم فيثنى بعيره فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقدمها فى عنقه ، ويأخذ ترسه وسيفه ثم يقتحم عن بعيره فيخلى سبيله فى الناس ويؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ حتى إذا ثاب إليه الناس اجتمعوا ، فكانت الدعوة أولاً يا للأنصار، ثم قصرت الدعوة فنادوا، يا للخزرج، وكانوا صُبُرًا فى الحرب صدقًا عند اللقاء ، فأشرف رسول الله ﷺ كالمتطاول فى ركائبه فنظر إلى قتالهم ، فقال : « الآن حمى الوطيس ») .

وهم هم أنفسهم كانوا القدوة العليا فى التربية فى الإيثار حين لم يأخذوا شيئًا من الغنائم ، وعتبوا على حبيبهم وقائدهم وخشوا أن يكون هذا الأمر عن تقصير أو خلل منهم فكان الجواب النبوى : (« أوجدتم يا معشر الأنصار فىَّ لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم . . . » فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسمًا وحظًا ، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا) وهذه سمة أساسية من سمات التربية الجماعية أن يقوم الرعيل الأول بتربية الجيل الوافد الجديد بسلوكه العملى أمامه ، فينسج على منواله ، ويتربى على قيمه .

١٦ ـ معالجة الثأر وحرمة الدم :

وهى أخطر قضية كان المجتمع الجاهلى يعانى منها ، ويريد الإسلام أن يرتفع بهؤلاء من هذه الوهدة السحيقة إلى الذروة العالية ، من القبيلة إلى الأمة ، ومن الثأر للنفس إلى الثأر لدين الله ، وبمقدار ما بذل رسول الله ﷺ من جهد فى امتصاص نقمة الثأر

حتى قبل الأولياء بالدية، بمقدار ما رفض توبة القاتل محلِّم بن جثامة (قال : قد كان من الأمر الذى بلغكم فإنى أتوب إلى الله تعالى فاستغفر لى ، فقال رسول الله ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال : أنا محلِّم بن جثامة . قال : « قتلته بسلاحك فى غرة الإسلام ، اللهم لا تغفر لمحلم » بصوت عال يتفقد به الناس ، قال: فقال : يا رسول الله ، قد كان الذى بلغك ، وإنى أتوب إلى الله فاستغفر لى ، فعاد رسول الله بصوت عال يتفقد به الناس: « اللهم لا تغفر لمحلم » حتى كانت الثالثة فعاد رسول الله ﷺ لمقالته ثم قال له: « قم ». فقام وهو يتلقى دمعه بفضل ردائه ، وكان ضمرة السلمى يحدث قال : كنا نتحدث فيما بيننا أن رسول الله ﷺ حرَّك شفتيه باستغفار له، ولكنه أراد أن يُعلم قدر الدم عند الله.

١٧ ـ تطبيق الحدود :

وحين تقوم دولة الإسلام تقوم معها حدود الله ، وتطبق شرائع الإسلام ، وما الجهاد كله إلا وسيلة للوصول إلى هذه الغاية ، وتنتقل العشيرة إلى الأمة والدولة ويصبح القصاص حق السلطان لا تنفيذ الفرد ، فجىء لرسول الله ﷺ بقتيل قتله ليث ، فنفذ القصاص فى قاتله ، وأروع ما فى هذا القصاص هو ما لم تشهد الدنيا مثيلاً له ، هو قصاصه من نفسه ﷺ كما حدثنا أبو رهم الغفارى (إذ كان يسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة له ، وفى رجله نعلان غليظتان ، إذ زحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ ويقع حرف نعله على ساقه فأوجعه ، فقال رسول الله ﷺ : « أوجعتنى وأخر رجلك » وقرع رجله بالسوط ، فأخذنى من أمرى ما تقدم وما تأخر ، وخشيت أن ينزل فى القرآن العظيم ما صنعت ، فلما أصبحنا بالجعرانة ، خرجت أرعى الظهر وما هو يومى فرقًا أن يأتى النبى ﷺ ورسول الله يطلبنى ، فلما روَّحت الركاب سألت فقالوا : طلبك رسول الله ﷺ ، فجئته ، وأنا أترقب فقال : « إنك أوجعتنى برجلك ، فقرعتك بالسوط ، فخذ هذه الغنم عوضًا عن ضربتى » .

قال أبو رهم : فرضاه عنى كان أحب إلى من الدنيا وما فيها) .

وبعد عودته ﷺ من حنين كان أول ما عمله بعث المصدّقين فى هلال المحرم ـ أى الذين يجمعون الزكاة من كل القبائل التى دانت بالإسلام ، تنفيذًا لقوله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج] .

١٨ ـ ربح قلوب العدو بإعادة خسائره :

حيث نفَّذَ هذا تنفيذًا دقيقًا فى إعادة سبايا هوازن ، والذين استعطفوه بالرحم ،

وباللبن الذى رضعه منهم كما يقول شاعرهم :

امنن على نسوة قد كنت ترضَعُها   إذ فوك مملوءة من محضها الدّررُ

ثم علمهم طريقة الحصول على سباياهم بقوله : إنا لنستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ ، وذلك على ملأ عظيم من المسلمين فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » وقال المهاجرون : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، أما الأقرع بن حابس فقال : « ما كان لى ولبنى تميم فلا ، وقال عيينة بن حصين : أما أنا وفزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وأبو سليم فلا ، فقالت سليم : فما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وحيث إن القضية تطوعية ، وليست بأمر رسمى يعلم هذا الموقف حكام الأرض ، وقادة الدعوة ، أن الحقوق غير المفروضة لا تنتزع اغتصابًا بسلطة الدولة ، إنما بالرضا الشخصى ، وهو ما رأيناه قد فعله عليه الصلاة والسلام مع مالك بن عوف حين أعاد له ماله وأهله ، وما فعله مع أكيدر بن عبد الملك حين ترك له أن يقدر الجزية عليه وعلى قومه .

١٩ ـ رفض سحق الفرد من خلال التربية الجماعية :

وهى التى ترد عقب السمة السابقة ، فقد اختلفت المواقف والآراء فيمن رضى بالتطوع ومن لم يرض ، وحيث لا يجوز أخذ درهم واحد بقوة السلطان والقانون وقف رسول الله ﷺ يعلن : (« فمن كان عنده شىء منهن (أى السبايا) فطابت نفسه أن يرده فليرسل ، ومن أبى منكم وتمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وليكن فرضًا علينا له ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا ؟ » (أى ست جمال ثمن الجارية التى يطلقها) .

قالوا : يا رسول الله ، رضينا وسلمنا : قال: « فمروا عرفاءكم أن يدفعوا إلينا ذلك حتى نعلم » ، فكان زيد بن ثابت يطوف على الأنصار يسألهم : هل سلموا ورضُوا ؟ فخبروه أنهم سلموا ورضوا ، ولم يتخلف رجل واحد ، وبعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المهاجرين يسألهم ذلك فلم يتخلف رجل واحد ، وبعث أبا رهم الغفارى إلى قبائل العرب ، ثم جمعوا العرفاء ، واجتمع الأمناء الذين بعثهم رسول الله ﷺ ، فاتفقوا على قول واحد تسليمهم ورضاهم ، ودفع ما كان فى أيديهم من السبى ، فكانت المرأة التى عند عبد الرحمن بن عوف قد خيّرت : تقيم أو ترجع إلى قومها ؟ فاختارت قومها فردت إليهم ، والتى عند على وعثمان وطلحة وصفوان بن أمية وابن عمر رجعن إلى قومهن ، وأما التى عند سعد بن أبى وقاص فاختارت سعداً ولها منه ولد) .

٢٠ ـ الحيلولة دون الاستغلال واستئثار السلطة :

فقد ظهرت بوادرها عندما جاء أحد موظفى الزكاة ليعلن لرسول الله ﷺ : هذا لكم وهذا أهدى لى ، وتكون هذه بذور البيروقراطية وتسلطها فتكون الطبقة الحاكمة فجاء الأمر النبوى الحاسم : (فقام النبى على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما بال العامل نبعثه فيأتى فيقول: هذا لكم وهذا أهدى لى، فهلاً جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيُهدى له أم لا ؟ والذى نفسى بيده ، لا يأتى بشىء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيرًا له رغاء أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ـ ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه ـ ألا هل بلغت ؟ » ثلاثًا) .

٢١ ـ نشر الدعوة ماض بجوار إقامة الدولة :

فالدعوة إلى الله تبقى هدفًا لا يتزعزع ولا يتراجع لحظة واحدة ، فبعد أن بعث رسول الله ﷺ المصدقين لجباية الزكاة ، بعث العبقريات الإسلامية والتى مارست طاقاتها فى المجال العسكرى ليكونوا دعاة إلى الله فى الأرض العربية، ورسل هدىً فيها، فمضى عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى عمان داعية لملكها الجلندى وابنيه، ولم يعد إلا بدخول عُمان فى الإسلام ودخولها فى صفحته إلى يوم القيامة رضي الله عنه ، وبعث خالد بن الوليد إلى اليمن، وعلى بن أبى طالب إلى اليمن حيث أثمرت دعوة على رضي الله عنه بانضمام همدان إلى الإسلام ، وبعث شخصيات القبائل لتقيم فى صفوف قبائلها تدعوهم إلى الله وتفقههم فى الدين ، وما كانت غزوة تبوك إلا مدرسة دعوية أقيمت لمدة شهرين . عبَّر عنها القرآن الكريم بالقول : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة] ، وما كانت تبوك إلا فرصة ليقوم جيل المهاجرين والأنصار عامة والسابقين منهم خاصة بتربية الجيل الوافد الجديد فى رحلة الثلاثين ألفًا .

٢٢ ـ جذب الطاقات الكبرى لدين الله :

وعوضًا عن تنفيذ حكم الإعدام بالأعداء الألداء ، فقد كانت التربية النبوية العظمى تسعى جاهدة لانفتاح قلوب هؤلاء الخصوم للإسلام ، وتسخير طاقاتهم وعبقرياتهم فى خدمة دين الله عز وجل ، فكعب بن زهير الذى أهدر دمه يغدو شاعر الإسلام بعد إسلامه، وعباس بن مرداس السلمى، يملأ الدنيا بشعره الإسلامى ، وعدى بن حاتم يقود قومه طيئًا إلى الإسلام ، والمنذر بن ساوى العبدى فى البحرين يقود قومه إلى الإسلام، وعروة بن مسعود يحاول ذلك فى ثقيف وهو سيد قومه ، ويمضى شهيدًا على طريق الدعوة ، بينما بقيت بعض القيادات كافة أذاها عن المسلمين كما هو الحال فى قيادات

غطفان وعامر وتميم ، إذ لم تخالط الدعوة بشاشة صدورهم وتمثّل بهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات] .

٢٣ ـ استفتاء :

ولعلها أول تجربة لسبر الرأى مست كل فردٍ فى الجيش أو ما يسمى اليوم بالاستفتاء ، بحيث يحق لكل فرد فيه أن يقبل التنازل عن السبى أو يرفض أو يقبل مع التعويض ، لقد كان الفرد يذوب فى كيان القبيلة ، فقول سيده ينوب عنه لكنه وفى أول تجربة لاعتبار الفرد بشخصيته المستقلة المتميزة بحيث يتاح له أن يخرج عن رأى زعيم عشيرته ، وكما هو النص فى البخارى : « إنا لا ندرى من أذن فى ذلك ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاءكم أمركم » فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذنوا . فهذا درس لابد أن يفقهه الدعاة بأنه سمة رئيسية من سمات العمل الإسلامى الجماعى بحيث لا يجرى بحق الأمة شىء يهمها ويحقق مصلحتها إلا وتستفتى عليه على المستوى الشخصى .

٢٤ ـ وضع الرجل المناسب فى الموقع المناسب :

وهو أكثر ما نراه واضحًا حين استعمل رسولُ الله ﷺ عيينة بن حصن على سرية من سراياه ، وقد شهد منه مواقف فى مسيرته معه لا تطمئنه له ، وهو صاحب طاقات عليا فى القيادة وحرب الصحراء ، فكيف يستفيد من هذه الطـاقات ، وقد قــدَّم نفسه لذلك .

كانت عظمة التربية النبوية أن سلمته قيادة سرية تتجاوز المائة ، وكلهم من الأعراب ليس فيهم مهاجرى أو أنصارى واحد، فهؤلاء لا يسهل أن يدينون لزعامته، ولم يرض عليه الصلاة والسلام أن يرسل معهم أحدًا من السابقين الأولين، وخبرة رسول الله ﷺ بمعدنه دفعته لذلك، بينما لم يجد عليه الصلاة والسلام حرجًا أن يجعل كبار المهاجرين والأنصار تحت راية عمرو بن العاص وهو حديث الإسلام فى غزوة ذات السلاسل ، لخبرته كذلك فى معدن عمرو رضي الله عنه ، وأنه قد نفذ الإيمان إلى قلبه إلى درجة قال فيه عليه الصلاة والسلام : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » ولم يكن عيينة كذلك .

وذاك أخو صداء يرد على رسول الله ﷺ إمرته على قومه من خلال التربية العملية التى تمت له .

(قال : يا رسول الله ، اعفنى من هذين الكتابين ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بدا لك ؟ » فقلت: سمعتك تقول يا رسول الله : « لا خير فى الإمارة لرجل مؤمن » ،

وأنا مؤمن بالله تعالى ورسوله ، وسمعتك تقول للسائل : من سأل الناس عن غنى ، فصداع فى الرأس وداء فى البطن ، وقد سألتك وأنا غنى .

قال : « هو ذاك فإن شئت فاقبل ، وإن شئت فدع » . فقلت : أدع . فقال لى رسول الله ﷺ : « فدلّنى على رجل أؤمره عليكم » فدللته) .

٢٥ ـ اتخاذ القرار الحاسم فى اللحظة المناسبة :

فقد اتخذ رسول الله ﷺ قرار المواجهة مع الروم وليس بين يديه درهم واحد ينفقه على تعبئة الجيش ، لكن معرفته بما عنده من رصيد إيمانى بشرى ومادى . بعد الثقة بالله تعالى والتوكل عليه ، وكان صواب القرار فى أن جهز ثلاثين ألف مقاتل بكل ما يحتاجون من عتاد وعدة ، ونجحت هذه المناورة العسكرية فى استسلام الشمال الغربى كله لرسول الله ﷺ ومهادنة قيصر له ، وليس القرار مجرد حماسٍ طاغٍ لا رصيد له من الواقع ، ومهمة القيادة المسلمة دائمًا أن تكون على بصيرة برصيدها الحقيقى ، وتعمل على استعماله بأقصى طاقاته وإمكاناته .

٢٦ ـ دور المال فى بناء الدعوات :

وشهدنا كيف تمكن الرعيل الأول وحده من حمل ثقل أكثر من نصف المعركة وتوزعت مسؤولية النصف الثانى على بقية المجاهدين ، وحرص رسول الله ﷺ على أن يوظف قليل المال وكثيره لصالح معركته مع العدو ، وكانت فرصة ثمينة لكشف هذه المعادن الثمينة المخبوءة فى الاستجابة للدعوة النبوية الكريمة فى البذل ، وقد شهدنا المال فى حنين يكسب قيادات العرب من خلاله إلى الإسلام .

إن الزعيم العربى من خلال المال تبرز زعامته حتى يشتهر جوده وكرمه ، وحتى يعبئ الحرب ضد عدوه ، وقد انضمت تلك القيادات إلى رسول الله ﷺ على مضض وبدافع الخوف ، وليس عندها قيم أعظم من قيمة المال آنذاك ، فجاءت غنائم حنين لتفعل على الساحة العربية ما لم يفعله زعيم قبله ، حتى ليقول أبو سفيان : يا رسول الله ، أصبحت أكثر قريش مالاً ، فتبسم رسول الله ﷺ ، وقال : أعطنى من هذا المال يا رسول الله،قال يا بلال : « زن لأبى سفيان أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل » ، قال أبو سفيان : يا رسول الله ، ابنى يزيد أعطه ، قال رسول الله ﷺ : « زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل » ، قال أبو سفيان : ابنى معاوية يا رسول الله ، قال: « زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطه مائة من الإبل »، قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبى وأمى ، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً .

٢٧ ـ الاهتمام بالتربية العملية أكثر من النظرية :

فالجيش الإسلامى سار من المدينة إلى تبوك ، ولم نسمع أن رسول الله ﷺ ألقى خطبة واحدة، لكن التربية لم تنقطع طيلة الطريق فى كل جانب فى المعجزات النبوية وفى الثناء على المجيدين أمثال أبى ذر وأبى خيثمة اللذين لحقا بالركب النبوى بعد انقطاعهما عنه، وأخذ الراية من عمارة بن حزم إلى زيد بن ثابت لأنه أكثر أخذًا للقرآن، والتعليمات المشددة عندما هاجت الريح « فلا يقومن أحد منكم إلا مع صاحبه ، ومن كان له بعير فليوثق عقاله » والمنع من الشرب من ماء الحجر ، والاستسقاء عندما قل الماء ، وصلاة عبد الرحمن بن عوف بالناس ، والمزنى الذى التحق برسول الله ﷺ الذى حرَّم دمه على الكفار ، وقيامه بدفنه عند موته ، كل هذه الأمور كان رسول الله ﷺ يوجهها فى عملية البناء والتربية ثناء أو منعًا أو كراهة أو وصفًا أو دعاءً أو استبشارًا أو غير ذلك .

٢٨ ـ التوجيه العام فى الوقت المناسب :

فالتربية النظرية إنما قامت خلال العشرين يومًا التى أقام فيها رسول الله ﷺ فى تبوك، بحيث جمع كثيرًا من معانى الإسلام فى خطبة واحدة ودخول المعجزات الكبرى على مستوى الجيش كله ، فى إطعامه وإسقائه ، وقيام الرعيل الأول بالتوجيه للمسلمين حديثى الإسلام، وتعليمهم الإسلام لهم، وشهود المسلمين لرسول قيصر الذى جاء مهادنًا لرسول الله ﷺ يحمل معه الهدايا والتحف للنبى عليه الصلاة والسلام ، وكم يكون لها من دور فى رفع معنويات الجيل المسلم الذى أصبح يتحدى الروم فى عقر دارها .

والعملية الفدائية الضخمة فى أسر أكيدر بن عبد الملك الذى يمثل أكبر معاقل الروم فى جزيرة العرب .

كل هذه أمور كانت توظف فى بناء هذا الجيل وربطه بالإسلام والمسلمين .

٢٩ ـ الحذر من الخطر الداخلى فى الصف :

والذى كان يمثله النفاق الذى لم يخطط على المستوى العالمى مثل ما خطط هذه المرة، من حيث بناء مركز رسمى له فى مسجد الضرار ، وذهاب أبى عامر الفاسق ليستنجد بقوات من إمبراطور الروم ، وتخطيط اغتيال رسول الله ﷺ عند مروره من العقبة ، والعمل على تثبيط الهمم وبث الإشاعات فى الصف المسلم ، وسلق المؤمنين بالألسنة الحداد فيما بينهم حين يستخفون بالقراء صالحى الأمة ، ويتهمونهم بالكذب والجبن ، واليقظة إلى كل مخطط أو تآمر يمكن أن يقع منهم، ومتابعة أبعاده وملاحقتها بعين ساهرة حتى ليدرك الطفل أبعادها وينقلها لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفضح كل كلمة أو تصرف أو محاولة يمكن أن تمس الصف المسلم .

٣٠ ـ فن التعامل مع هذا العدو الداخلى :

والذى تم التوازن فيه بين إحباط المخططات كلها ، وعدم التساهل عن كل نأمة أو إشارة ، وبين الابتعاد عن استعمال القتل والقوة فى التعامل معه ، حفاظًا على السمعة الخارجية للجماعة المسلمة، وحتى لا يؤدى ذلك إلا التراجع عن الانضمام للإسلام خوفًا من المعاقبة على الخطأ. والعمل على تعرية زعماء النفاق بحيث يكشفون، ويحسن رسول الله ﷺ معاملتهم ، ليزداد المؤمنون إيمانًا ، ويحترق الكافرون والذين فى قلوبهم مرض. بتخلى أقرب الناس منهم عنهم ، وبرز ذلك بأجلى صورة فى التعامل مع عبد الله بن أبى زعيم النفاق الذى صُرِع النفاق معه حيث حضر رسول الله ﷺ دفنه وكُفّن بقميصه ، وحيل بينه وبين حزبه، واعتبر التكريم لولده وابنته المؤمنين العظيمين ، والذى يرى انهيار صرح النفاق بعد أن كان يمثل ثلث الجيش الإسلامى ليصبح فيما بعد دون المائة فى ثلاثين ألفًا من المسلمين ليدرك مدى الجهد العظيم الدؤوب المنظم ، والصبر الكبير والتخطيط الدقيق الذى بذله سيد الخلق ﷺ حتى أنهى هذا الجرح الدامى فى جسم الأمة المسلمة .

٣١ ـ التحول من القاعدة العريضة إلى القاعدة الصلبة :

وهدف التربية إذن هو التحول بهذه القاعدة العريضة الواسعة من مسلمين ليس لهم من الإسلام فى بداية الأمر إلا اللفظ بالشهادتين إلى مسلمين مؤمنين صادقين ، وذلك بالتربية المستمرة العامة والخاصة من قيادة الدعوة ، وبالنماذج العالية من السابقين الأولين الذين يتابعون مهمة القيادة ، وينفذون مخططاتها ويبثون الدعوة بسلوكهم وخلقهم فى البيئات التى ينتقلون إليها أو يكلفون بقيادتها، أو يمارسون حياتهم فيها، وما هذه الدورات العظيمة التى يشرف عليها قائد الأمة ﷺ بنفسه وشخصه ويشارك فيها ، حيث استمرت دورة مكة وحنين ثلاثة أشهر ، ودورة تبوك شهرين متكاملين ، إلا انتقال بهذه الأعداد الواسعة الممتدة إلى مستوى القاعدة الصلبة ، إلى مستوى القدوة بعد أن عاشت مع رسول الله ﷺ وتفقهت على يديه .

كان على هؤلاء الثلاثين ألفًا أن ينطلقوا فى عشائرهم وأوطانهم وأهلهم وبلادهم ، أو يكلفوا بمهمات دعوية وعسكرية خارج عشائرهم وأوطانهم وأهليهم ، كان عليهم أن يكونوا دعاة لهذا الدين ورسل هدىً فى هذه الأرض العربية ، وتتمثل فيهم القدوات الكبرى والأسوات العليا ، لتفتح المدينة ذراعيها من جديد وبعد عام ونيف إلى زيادة مائة ألف جديدة فوق الثلاثين ألفًا تنضم لهذا الركب فى دورة جديدة هى حجة الوداع ، وحيث تدفقت على المدينة الوفود من كل أصقاع الجزيرة العربية تعلن ولاءها للإسلام ودخولها فيه ، وهى التى ستتم دراستها فى الحلقة القادمة ـ التربية الإصلاحية ـ بإذن الله ، وبذلك تتضح فعل التربية التى ابتدأت من الفرد الواحد إلى الأمة الكاملة ،

وتتلقى على ثرى عرفات : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] .

أسأل الله تعالى أن أكون قد أديت ولو بصورة تقريبية جواب السؤال الذى قام المنهج التربوى كله عليه : كيف تمت تربية الجيل المسلم ؟ والله نسأل أن يتقبل العمل ، ويغفر الزلل ويبارك فى الآخر والأول ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

غرة شعبان ١٤١٩هـ

منير محمد الغضبان

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع : ١٠٥٦٤/ ٢٠٠١م
I.S.B.N:977-15-0318-9